



الفواكاور والبحر

تأليف : هوراس بيك
ترجمة : أحمد محمود
مراجعة وتقديم : صفوت كمال



إهداء ٢٠٠٦
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المشروع القومي للترجمة

الفولكلور والبحر

تأليف : هوراس بيك

ترجمة : أحمد محمود

مراجعة وتقديم : صفوت كمال

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد :

- الفولكلور والبحر

- هوراس بيك

- أحمد محمود

- صفوت كمال

- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

FOLKLORE & THE SEA

by

HORACE BECK

Wesleyan University Press

Middletown, Connecticut

1977

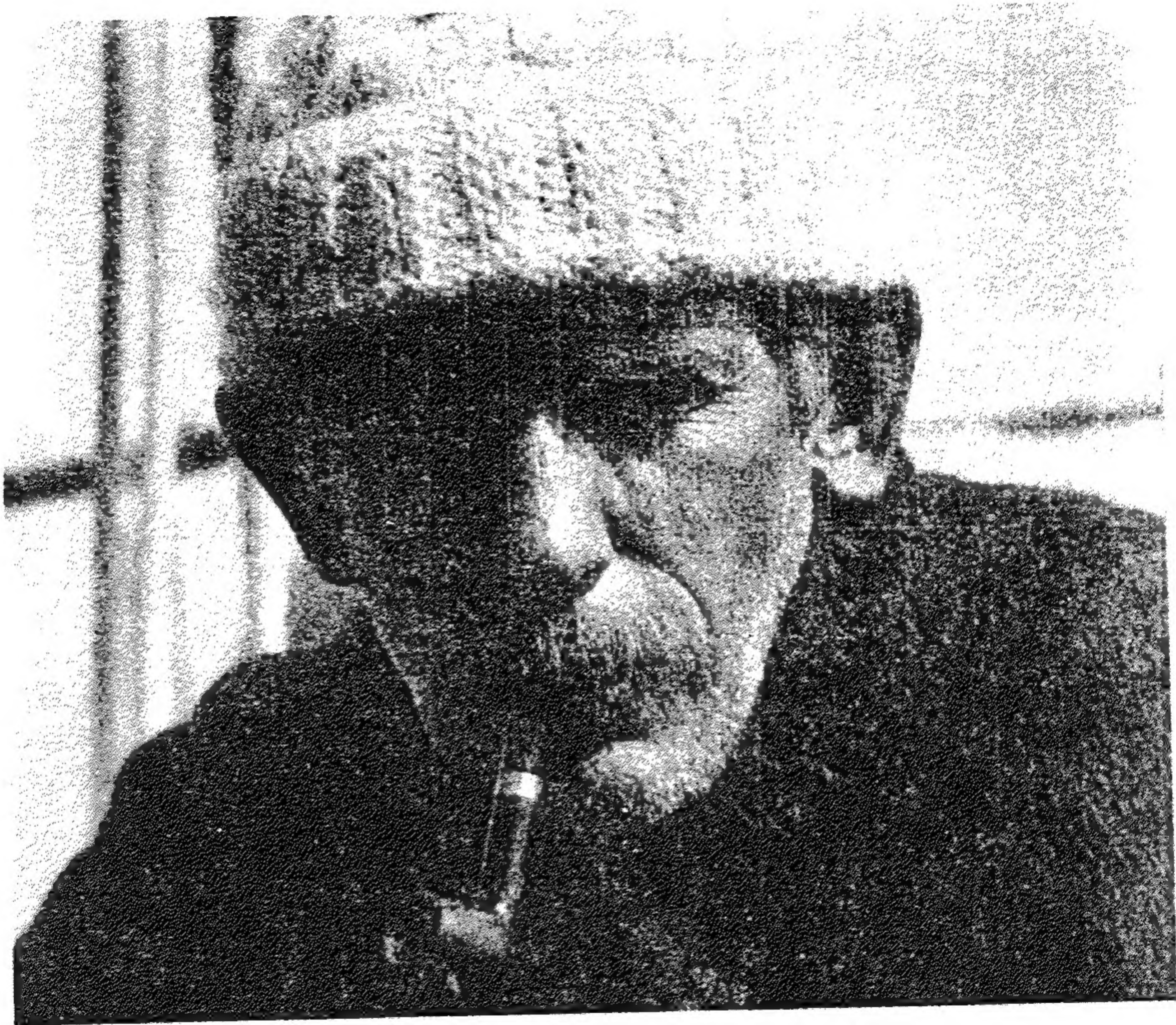
حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .



هوراس بيك

المحتويات

7 تقديم المراجع وتحليله
31 مقدمة المترجم
33 مقدمة المؤلف
41 الفصل الأول - بناء السفن
79 الفصل الثاني - أسماء في البحر
117 الفصل الثالث - اللغة
143 الفصل الرابع - ماثورات الطقس
179 الفصل الخامس - الملاحة
217 الفصل السادس - الأغاني
299 الفصل السابع - الفن
327 الفصل الثامن - الفقه والرجال الضخام
359 الفصل التاسع - عرائس البحر
397 الفصل العاشر - الوحوش وحيات البحر والجزر المسحورة
427 الفصل الحادي عشر - الخرافة والعادة والمعتقد
475 الفصل الثاني عشر - القراصنة وقادة سفن المجهود الحربي والمهربون
529 الفصل الثالث عشر - الأساطير والحكايات
573 الفصل الرابع عشر - السفن الأشباح
601 خاتمة

تقديم المراجع وتحليله

المؤلف :

مؤلف هذا الكتاب، هوراس بيك (١٩٢٠/١ - ٧ - ٢٠٠٣) ولد في منطقة رود أيلاند بأمريكا، منتمياً إلى الطبقة الأرستقراطية في مدينة نيويورك القديمة. وكان والده طبيباً علمه الكثير عن إدارة الأعمال، والرياضة، وخدمة الأسرة والوطن. ويقول عن والده: «كان أبى يشعر أنه من الكافى للصبي أن ينال ما يوازي الدرجات العلمية، بمجرد إشراكه في تفاصيل الحياة اليومية للأسرة. وكان يقول إن التعليم شبيه بالاستثمار».

ويقول عن نفسه : «لقد نشأت في بيئة تقليدية، وفعلت ما كان متوقفاً منى». وقوله هذا يكشف عن تواضعه ؛ فقد كانت نشأته أبعد ما تكون عن النشأة التقليدية.

فجانب حياة الرفاهية التي عاشها، عاش تجربة أخرى، حيث كانت أسرته تملك مزرعة تديرها والدته. ويقول: «في المزرعة كنت خادماً، أحلب الأبقار، وأقوم بالحرث والغرس والبناء والحصاد وبيع الفاكهة والقش والطهى، وكذلك صيد الأسماك مرة في الأسبوع. لقد كنا نتمتع بالاكتماء الذاتى تماماً.. وبيولوج عامى السادس من العمر كنت أقوم بالصيد وصيد السمك والإبحار وحدى». ويضيف قائلاً : «إن الاستماع إلى قصص الكبار كان مصدراً آخر للمتعة، فكنت أجلس على ركبتى العديد من البحارة التجاريين والرجال السنود فى بيتنا ممن أسهموا فى نشأتى، وأعتقد أننى أصبحت باحثاً إثنولوجياً أو فولكلوريا منذ السادسة من عمرى. ويمثل التدريس الجانب الآخر الذى ينافس حبى الأول الذى ذكرته».

والتحق هوراس بيك بجامعة بنسلفانيا وتخرج فى الجامعة نفسها، وبعد قضاء فترة قصيرة فى القوات البحرية قام بالتدريس فى الجامعة نفسها حتى عام ١٩٥٠ ثم انضم للتدريس فى جامعة تمبل حتى عام ١٩٥٥. وعلى الرغم من صلاته الحميمة بالجميع

فى جامعة بنسلفانيا إلا أنه كان يشعر بضرورة التغيير حيث كان يريد التدريس لمجموعات أصغر من الطلاب وأن يجمع المواد مستخدما قاربه الخاص. كما أنه - على المستوى الشخصى - كان يود الحياة فى الريف مرة ثانية و«أن أمارس الزراعة وأبنى بيتى بنفسى وأثته، وأن أكون فى مكان يمكننى من الصيد».

ومن هنا كانت كلية ميدلبرى Middlebury هى المكان الأمثل فى عام ١٩٥٥. وكان معظم الأساتذة على معرفة بالمواد التى يدرسونها وكانوا مدركين الحاجة إلى السفر والترحال مثل رجال النهضة. على الأقل إلى البلاد التى يتخصصون فى دراستها. وكان سفرهم من أجل البحث والدراسة.

ويقول هوراس بيك : «ولحسن الحظ قرب نهاية الستينيات لم أكن جزءا من سياسات الكلية. فكنت أقوم بالتدريس ثم البحث ثم الكتابة. قمت بجمع مواد من الدول الإسكندنافية، وتتبع المادة عبر أيرلندا والجزر التابعة لإسكوتلندا، وذلك بالتردد على بيوت تعيش فيها عائلات على مدى ٩٠٠ عام، كما تنقلت بين جزر الأزور وأفريقيا وعبرت الأطلنطى إلى منطقة الكاريبى، حيث تعرفت على عالم جيد، هو عالم صيد الحيتان. وفى الوقت الذى لم أكن أكتب فيه كتاب حياتى، كنت أقضى أوقاتى الخاصة فى دراسة الأساليب البدائية لصيد الحيتان فى منطقة جنوب المحيط الهادى».

ويقول لويس بيكون الذى تخرج فى كلية ميدلبرى ١٩٧٩ «إن استقلالية وتحدى هوراس وسلوكياته الخاصة تميزه عن معاصريه. مثله فى ذلك مثل شخصيات الرحالة فى الأدب الأمريكى. فهو يمثل النموذج الكلاسيكى للبطل الأمريكى الذى يعانى من مجتمعه، مع رضاه عن ذاته. ومع مضى الوقت فإن معظم المحاضرات والمدرسين يتلاشون تدريجيا من ذاكرتنا. إلا أن سعداء الحظ منا ممن تمتعوا بمحاضرات هوراس يجدون أن ما تعلموه منه يصبح أكثر وضوحا مع مرور الزمن وتزايد الخبرة».

لقد قام هوراس بيك بأسفار عديدة باعتبار أنه باحث فولكلورى. وجمع معلومات ومادة من ثقافات متعددة، وقام فى جامعة بنسلفانيا - حيث نال درجة الدكتوراه عام ١٩٥٢ - بجمع المواد الفولكلورية من ولايتى كارولينا الشمالية والجنوبية، وصولا إلى لابرادور، بما فى ذلك الثقافة الشعبية الخاصة بالهنود الحمر، وكذلك الأساطير والأغاني الخاصة بالسود فى أمريكا.

بالإضافة إلى أبحاثه الأكاديمية وكتابات ومحاضراته، فإن هوراس بيك كان يعيش حياة غريبة على غالبية طلابه وزملائه. فقد كان يخرج في رحلات صيد منذ طفولته. وقام بالإبحار حول العالم للعمل والمتعة. وكما يقول عنه جورج كاري وهو خريج عام ١٩٥٨ وأستاذ متقاعد للفولكلور «إن هوراس يشعر براحة وهو على متن قاربه تفوق الراحة التي تشعر بها وأنت في حجرة بيتك».

كما شهدت مرحلة ما بعد بلوغه سن التقاعد تخصصه في أعمال الأخشاب، حيث قام ببناء مركب خاص به طوله ٣٥ قدما.

وقد تقاعد هوراس بيك عن العمل في كلية ميدلبري في عام ١٩٨٣، ولكن حياته ازدادت نشاطا، حيث قام بتقديم تعليقات في برامج إذاعية تابعة لإذاعة فيرمونت العامة. وقام بتحرير عدد تذكاري لزميله ماك إيوارد ليتش أحد أساتذة علم الإثنولوجيا الثقافية المرموقين. كما قام بالتدريس لفصل دراسي واحد في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس. إضافة إلى إبحاره في رحلات عديدة عبر الأطلنطي خمس مرات.

مع ذلك كله فإنه كان يجد الوقت الكافي معلما ومرشدا للطلاب الذين يسعون إليه طلبا للاطلاع على مكتبته المتخصصة في علم الفولكلور بما تضمه من عشرة آلاف كتاب متخصص. إضافة إلى تقديم النصائح لهم من واقع تجربة حياته التي جمعت بين البحث والمغامرة كما يسعى إليه طلابه السابقون مثل لويس بيكون الذين يشعرون «أن التعليم الحقيقي يتجاوز الدروس والمحاضرات، بل يتضمن أن تتجسد المعرفة في المعلم. ومن النادر حدوث هذا التداخل بين المعلم وموضوع البحث والتجربة، مثلما كان الحال لهوراس بيك وهو يعلم تلك الفئة المحظوظة ممن حضروا محاضراته». (*)

(*) راجع Rachel Morton, "The charismatic, the controversial HORACE BECK," Middlebury Magazine On-line, <http://cat.middlebury.edu/-publish/middmag/features/beck/beck,.html>

و:

"Folklore and the Sea by Horace Beck," Books, <http://www.amazon.com/exec/obidos/tg>.

أما كتاب حياته فهو «كتاب الفولكلور والبحر» الذي صدر لأول مرة عام ١٩٧٣. والذي صدر في عدة طبعات تالية. ويجد القارئ العادي والمتخصص في هذا الكتاب ثراء معرفيا كبيرا. عن حياة البحر والبحارة ، تراثا ومأثورا ، واقعا وخيالا.

وحيثما بدأ هوراس بيك العمل في هذا الكتاب كان في الحسبان أن يكون موجزا تاريخيا عاما لفولكلور البحر، لكن المادة التي جمعت أصبحت كبيرة جدا، لذلك تم تضيق منطقة البحث لتشمل دراسة فولكلور البحر بالنسبة للناطقين باللغة الإنجليزية.

هذا الكتاب :

كتاب له خصوصيته العلمية في دراسات الفولكلور، بما يزخر به من مادة غزيرة متنوعة من عادات وتقاليد ومعتقدات شعبية وأساطير وحكايات خوارق وكائنات بحرية. ومغامرات ربابنة وقراصنة ومعارك بحرية بين رجال السلطة والمهربين وقصص لها واقع، وإن لعب الخيال فيها دوراً يجمع بين التراث الشفاهي والمأثور الشائع وبين الحدث الواقعي والتصور الحالم. وأغان يترنم بها البحارة فرادى وجماعات ومواقف مأسوية وأخرى ساخرة.

وتزأج بين عالم الجان وعالم الإنسان ، وعلاقات خرافية يصنعها الإنسان من خلال الهم والخوف أحياناً ، أو من أجل أن يثير الطمأنينة في نفسه وسط الضباب وعواصف البحر وثورات موجه أحياناً أخرى . فحياة البحر حياة متقلبة، وهي حياة تموج بالأعاصير وغرائب الموجودات وعجائب الطبيعة. حياة كل ما فيها في حركة دائمة بين مد وجزر، وصعود وهبوط، ما بين أمطار وسكون وضباب، ما بين برد قارص وهدوء يثير الأوهام، ما بين رؤية واضحة وغموض مخيف، ما بين ضوضاء صاخبة وأصوات غريبة رهيبية وصمت عميق تقشعر منه الأبدان، وجليد تتجمد به الأجسام. والبحارة على علم تام بما يحوط حياة البحر من أخطار، وما في الأعماق الرهيبة من مخلوقات قابضة، وما تحمله العواصف من قسوة وموت ودمار للسفن.

ولأن البحر عنيف كما يقول هوراس بيك فإن مأثورات (فولكلور) البحر كثيراً ما تتسم بالعنف. وتشبه حياة الفولكلور البحري حياة الموجه العارمة. فحياة البحر تتجمع،

وتعلو وتعلو، ثم تبلغ أعلى ارتفاع لها، وتتدفع في اتجاه الشاطئ وتتحطم، ثم تعود، وتشكل نفسها من جديد. وكذلك الفولكلور ينبع من أحداث صغيرة، ومأثورات دقيقة، وعناصر عديدة، تتجمع عليها أحداث وأحداث أخرى، يتجمع بعضها مع بعض في كتلة لها كيانها الخاص ثم تتفتت تلك الكتلة إلى قطع صغيرة، ولكن هذه القطع الصغيرة تتشكل من جديد في شكل مغاير لما كان. وتتكرر العملية.

وعند دراسة هذه المادة تتضح أمور عدة، منها ما هو قديم قدم الإنسان نفسه، لا نعرف لها بداية فيما قبل التاريخ وليس لها مكان محدد، فهي متداخلة بين أجناس وأماكن متنوعة. فالبحر حمل ما حمل من البشر، ونقل ما نقل من خبرات الناس من مكان إلى مكان ومن لغة إلى لغة، تتداخل وتتواصل عناصرها بما تحمل من إبداعات الأجناس والشعوب.

وتتعدد المقولات بين الواقع المعاش والخيال، كما هو مفترض حدوثه بالنسبة للسياق العام للأحداث، وبين مهارات الرواة الفنية فيما يروون وصياغة ما يتذكرون، وما يضيفون من تصورات وإسقاطات ذاتية، أو ما يحملون من موروثة ثقافية تجمع ما بين الأسطورة والأحداث الخارقة والخرافة، وبين عالم الأشباح والأوهام. ولقد أثر الأستاذ أحمد محمود أن يترجم مصطلح Legend بالأسطورة وجعل لفظ الخارقة هو الترجمة العربية للفظ Myth باعتبار أن عالم الميثولوجيا هو عالم الأشباح الذي يمجج أيضا بكل ما هو خارق للطبيعة.

والمادة التي أوردها المؤلف في هذا الكتاب مادة عايشها واحتفظ بها في ذاكرته. مادة جمعها من رواة حفظوا ما عرفوا وهو أيضا حفظها وحافظ عليها، على مدى ثلاثين عاما يجمع ويبدون، بالإضافة إلى خبرته هو الشخصية، مع المعرفة المنقولة من الكتب والوثائق والمراجع والدراسات التي أوردها موثقة في ختام كتابه.

والمادة المجموعة في هذا الكتاب جزء من كل. وكما يقول المؤلف : «لو حاول الإنسان مناقشة كل هذا القدر الكبير من المادة وتجميعه وتقييمه لاحتاج إلى ما يزيد عن عمره، حتى وإن ساعده في ذلك الكمبيوتر، وكانت النتيجة قاموسا للغة البحر، ومصطلحاته، وخرافاته، ومعتقداته، وعاداته، وأغانيه، وأساطيره، وليس كتابا عن الفولكلور البحرى».

وفى الواقع إن عالم البحر مليء بالعجائب والغرائب، ولقد التفت إلى ذلك علماء العرب القدامى. فإذا تأملنا ما ورد فى كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى (٦٠٠ - ٦٨٢هـ)^(١) وما تضمنه من حكايات وقصص ووصف لأحداث نقل بعضها عن المسعودى (أبو الحسن) توفى (٢٤٦هـ - ٩٥٦م) نجد وصفا للعديد من أنواع السمك والحيوانات العجيبة التى تعيش فى البحار.

وحيثما نتناول كتاب هوراس بيك عن المأثورات البحرية نجد أنه كتاب زاخر بالمعلومات التى تحدد موضوعات عجيبة عن عالم البحر، وهى معلومات لها ثراؤها الخاص وطبيعتها المعرفية النادرة، ومكوناتها الثقافية التى ترتبط بعادات وتقاليد ومعتقدات وطقوس وممارسات وشعائر تخرج من إطار الفعل الاجتماعى والمعتقد الدينى إلى مجال السحر ومخاطبة كائنات مغايرة للكائن الإنسانى، ومن مسميات لمكونات من الطبيعة وعناصر طبيعية إلى مكونات تفوق عالم الطبيعة وعوالم الحياة. فالكتاب ليس وصفا لحياة بل هو كشف عن حيوات لها خصوصيتها فى الثقافة الإنسانية لم نعرف عنها الكثير بل إن ما نعرفه محدود، وما استلهم من عناصرها فى مجال الأدب والفن جزء صغير، بل وفى منتهى الصغر. فعالم البحر عالم كبير وكما يقول الريان العربى الشهير أحمد بن ماجد (القرن ١٥) «إن البحر أكثر من البر، وعلم البحر أكثر من علم البر.. وينبغى لعارف هذا العلم أن يسهر الليالى ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل عن أهله ومن جريه...»^(٢).

والقارئ لهذا الكتاب يجد بين عناصره عناصر تماثل ما قد نعرفه من تجربة الإنسان العربى مع عالم البحار. رحلات سفر وتجارة ورحلات غوص فى الأعماق

(١) راجع القزوينى، زكريا ، (١٢٠٢ - ١٢٨٢)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، قدم له وحققه، فاروق سعد، دار الأفاق الحديثة ، بيروت ، ١٩٧٣ . والمسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٣.

(٢) أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار فى معرفة البحار، تحقيق ونشر تيودور شومونسكى، ترجمة وتعليق د. محمد منير موسى ، عالم الكتب القاهرة، ١٩٦٩، ص ٧٩ وما بعدها .

راجع أيضا: شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدى، كتاب القوائد فى أصول البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خورى، وعزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق ١٩٧١ ص ٥-٨.

لجمع المحار الكامن فيه اللؤلؤ. ولكن ما ورد لنا من تجارب ومغامرات وتصورات عن عالم البحر لهذا التراث العربى لم تلق من الدراسات الفولكلورية والإنسانية بعامة ما يجب أن تحظى به. وفى تاريخ غير معلوم، لكنه يسبق الإسلام بقرون مديدة درج العمانيون على ابتناء سفن من خشب الساج، يخطون ألواحها بحبال مصنوعة من لحاء شجر النارجيل (جوز الهند) ثم يطلون قيعانها بالشحوم^(١).

وحيثما نتخيل أبعاد التاريخ «حينما صنع الإنسان السفينة يطفو بها فوق سطح الماء وهى خبرة غير يسيرة، خرج بها من عالم الثبات إلى عالم الحركة، ثم غاص فى الأعماق، فانتقل بوجوده الحسى، من عالم المرئى والمدرک، إلى عالم المجهول وغير المرئى وغير المدرک أحيانا. وإلى عالم الخيال أيضا، فأسقط من ذاته وخبراته المسبقة على عالم البحر، ما كان قد اكتسبه من عالم البر، وانتقل بعمارة سفنه البسيطة إلى سفن معقدة التركيب سوية الشكل، ومن سكون الموج إلى هيجانه، ومن عالم البحار إلى عالم المحيطات.. «وأدرك الإنسان من نظام عمله فى صنع السفينة والعمل عليها أن التكامل لا يتحقق إلا من خلال نظام ثابت وطاعة وتعاون لربان محنك وبحارة أوفياء مدربين. فانتظم بذلك عقد العمل الجماعى وحددت القواعد تحت فكر موحد فتحققت الفوائد»^(٢).

وتاريخ العرب فى علوم الملاحة والبحار تاريخ عريق قديم. فالتراث السومرى فى أسطورة جلجامش يوضح كيف صنع السومريون القدماء سفن الإبحار من الشمال إلى الجنوب فى رحلة جلجامش لجلب زهرة الحياة التى تمنح الإنسان الخلد، ورحلات الفينيقيين القدماء من المشرق إلى المغرب عبر البحر المتوسط، ورحلات المصريين القدماء من الشمال إلى الجنوب، وكل له سفنه ومراكبه. وتطور صناعة السفن وتاريخ البحرية فى مصر الإسلامية زاخر بخبرة المصريين فى صناعة السفن منذ أقدم العصور وسفن الشمس الرابضة الآن فى متحفها بهضبة الأهرام

(١) د. عبادة كحيلة، عن العرب والبحر، توزيع مكتبة مديولى، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م ص ٤٥.

(٢) راجع ، صفوت كمال، ثقافة البحر الشعبية فى التراث العمانى، دراسة منشورة فى المجلد السادس مطبوعات مركز عمان للموسيقى التقليدية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

إلى غير ذلك من تصاوير وأثار تحكى برؤية مباشرة قصة الملاحة وخبرة الإنسان في البحر^(١).

بناء السفن :

من خلال نسق متكامل في العمل الذي حددته طبيعة العمل البحري يتحقق نسق ثقافى خاص يرتبط بعالم البحر. كما أن عملية الوعي الثقافى فى تحويل الفكرة إلى واقع ملموس ووجود محسوس تتحقق فعلا فى عملية بناء السفن، مثلها مثل العمارة التقليدية على الأرض. فمنذ أن يبدأ بناء السفينة المسئول عن كمالها والمشرف على عملها فى تحديد مواصفاتها وتحديد هيكلها الأساسى الموجود فى مخيلته والمرسوم فى ذاكرته والمخطط بخبرته وفق مقاييس محددة تعلمها شفاة من أساتذة سبقوه ومعلمين أسسوا قواعد بناء السفن بأحجامها المتنوعة وأشرعتها المفردة أو المتعددة ومجاديفها المحدودة أو العديدة، حتى يصنع عمودها الفقرى من كتلة خشب صلد ثم أضلاع السفينة على جانبيها التى تحدد شكلها العام وبنيتها التى تميزها. وحينما يثبت كل ذلك بمسامير يصنعها الحداد أو النجار ثم يقلف «يقلط» الجسد بالواح الخشبية ليسد كل الثقوب ثم إقامة «الدقل» (صارى السفينة) إلى غير ذلك من أجزائها ودقتها ليكتمل الشكل بكل تفاصيله ولتستوى بعد ذلك على سطح الماء كيانا معماريا يتكامل

(١) انظر أيضا، صفوت كمال، الحكايات الشعبية الكويتية، دراسة مقارنة، وزارة الإعلام، الكويت ط١، ١٩٨٦، وبخاصة ما ورد فى الباب الثانى من حكايات البحر والصيادين والغواص من ١١١ - ١١٢.

- أ. د. شوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ، ٤١هـ - ٩٠٤هـ، ٦٦١م - ١٤٩٨م. سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥ - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، يوليو ١٩٩٠.

- أ. د. سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، وأثارها الباقية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.

- أ. د. أحمد مختار العبادى، وأ. د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢.

فيه الشكل قوى البنيان مع الوظيفة المرجوة من صنع السفينة. يتم كل ذلك بخبرة واعية وذاكرة تحفظ كل التفاصيل. فتتوأكب الخبرة المادية مع الإدراك العقلى، وتتواعم مع ما تعلمه المعلم شفاهة ونقله عن سبقوه. فالمادة الشفاهية الفولكلورية تتناقل تلقائياً^(١).

ويرى هوراس بيك فى الفصل الأول من كتابه الذى خصصه لموضوع بناء السفن أن تصميم السفن يهدف إلى واحدة من ثلاث خواص، بناء سفينة من القوة بحيث لا تتقلب عليها ربح عاتية ومن الخفة بحيث تقفز فوق أشرس البحار، ومن السرعة بحيث تراوغ العاصفة.

ويقدم الكاتب فى هذا الفصل الأول من كتابه حكايات وقصص ترتبط بصناعة السفن جمعها من رواة لهم تجاربهم فى هذا المجال، وما يصاحب ذلك من طقوس وشعائر لتطهير المنطقة التى تبنى فيها السفن من أى آثار شريرة والتفاؤل بأحسن الأيام. فمثلاً فى إسكوتلندا يفضل البدء فى بناء السفينة حينما يكون المد جيداً أو الشمس مشرقة والرياح غربية.

ولكل مجتمع ما يتفاعل به أو يتشاعم منه. وهو أمر شائع فى المجتمعات الشرقية مثلما هو شائع فى المجتمعات الغربية، فمثلاً يتشاعم بناء السفن من وجود النساء وخاصة العذارى فى مواقع بناء السفن.

كما تؤدى طقوس معينة وشعائر دينية فى كل مرحلة من مراحل بناء السفن تبعاً لأهمية كل مرحلة إلى مرحلة إنزالها الماء وتدشينها. وكذلك التبرك بوضع تماثيل للقديسين فى كوات تعد خصصياً لذلك فى السفينة، أو نحت رعوس حيوانات أو كائنات بحرية على السفينة.

وتدشين السفن له جذور تعود إلى آلاف السنين. وكان هذا الطقس يمارس بأهمية شديدة، وتعد وليمة كبيرة وتزين السفينة، ويقوم رجال الدين بتلاوة الصلوات ونثر الماء المقدس عليها، وتنشد أغانى خاصة. وعادة إنزال السفينة إلى الماء أول مرة والاحتفال

(١) صفوت كمال، مرجع سابق.

بطفوها على سطح الماء له أنماط متنوعة من الاحتفال وتؤدي خلال الاحتفال ألحان خاصة وأغاني معينة ولكل بلد احتفالاته وتقاليده وعاداته التي ترتبط بموروثات ثقافية ومعتقدات دينية. ولقد أتاحت لي الفرصة بأن أحضر احتفال إنزال إحدى السفن الشراعية الكبيرة التي تبحر عبر الخليج، وكان ذلك في دولة الكويت حيث يؤدي في هذه المناسبة لحن متميز بإيقاع قوى وأغاني محددة لا تقال ولا تؤدي إلا في هذه المناسبة^(١). وهو أمر شائع أيضا في بلدان الخليج.

والكتاب بما يتضمنه في هذا الفصل المهم عن بناء السفن يثير تساؤلات عديدة حول ما يصاحب هذا البناء من رواسب ثقافية قديمة وتصورات تراثية عتيقة مثلها في ذلك مثل الأسماء البحرية وما يرتبط بهذه الأسماء، حيث تتناقل الأسماء من مكان إلى مكان. وقد يتمخض الاسم عن اسم آخر مثل مكان يسمى بالرجل العجوز فإذا بمكان آخر يسمى المرأة العجوز، أو الجزيرة الخضراء فإذا بجزيرة أخرى بجوارها تسمى الجزيرة الخضراء الصغيرة. ومن الأسماء ما يكون لها أحيانا حكايات هامشية ترتبط بها وتساعد على تذكرها أو تشرح ما بات غير مفهوم من اسمها.

ويقدم المؤلف نماذج عديدة، بل قد تكون الأسماء بسبب عدم القدرة على تحديد أسماء المكان بما يحتويه من متغيرات طبيعية قد تفوق قدرة الإنسان على إدراك حقائقها وعوامل تغيراتها.

والأسماء البحرية بما قد يكون فيها من سحر، ليست سوى جزء من لغة ما، هي لغة البحر، ويعتقد هوراس بيك أن هذا المجال من الفولكلور البحري قد حان وقت بحثه ؛ أملا في العثور على بعض الأسس التي تقوم هذه الأسماء عليها وتطويرها. فالمصطلحات البحرية لا يساء استخدامها فحسب، بل يسيء أهل البر فهمها. ف لغة البحر ذات دلالات مغايرة للفظ الشائع بين أهل البر. وهذا التغير يرتبط بوظيفة اللفظ باعتبار أن اللفظ وظيفته الحياة اليومية، وأن كل مهنة لها مفرداتها الخاصة.

(١) راجع: براستنا ، مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي، وزارة الإعلام الكويت، ط٢ ١٩٧٣. ودراسة الدكتورة حصة السيد زيد الرفاعي، أغاني البحر، دراسة فولكلورية ، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٥.

ويتناول المؤلف هذا الجانب المهم فى البناء اللغوى للغة البحر، باعتبار أن المسميات المستخدمة فى السفينة وطبقات الصوت وطريقة الكلام لها دلالتها، وهى لغة لها ضوابطها بل تتميز اللغة البحرية بأنها مفهومه فى أكثر الظروف سوءاً أو من على مسافة كبيرة. ولكى تكون معظم المفردات البحرية مؤثرة، نجدها قصيرة ورنانة ومميزة عن بعضها. ويقدم المؤلف نماذج من هذه العبارات والمفردات المرتبطة بحياة البحر. ومبحث «اللغة» فى ماثورات البحر وتراثه، مبحث مهم ودراسته لها نظمها الخاصة فى بناء الأفعال وتصريفها، أو استخدام مسمياتها بتتويجات صوتية ولهجات خاصة سواء فى مجال العمل أو الراحة أو الطعام أو الترفية. ومن الملاحظ أنه بينما تعميل جدلية أية مهنة إلى البقاء داخل المهنة وحسب، نجد أن البحار يوسع مجال اللغة البحرية كى تفى بمتطلبات غير تلك التى فى البحر، فهو يطبق دون قصد منه المصطلحات البحرية على أشياء فى البر.

والطقس دور كبير فى حياة البحارة. والتنبؤ بالطقس هو أمر ضرورى بالنسبة للبحار يفوق أهمية التنبؤ به بالنسبة لغيره. فالتنبؤ بالطقس تنبؤاً صحيحاً قد يعنى الفرق بين الحياة والموت. وكشأن الكثير من عناصر الحياة البحرية، ليست ماثورات الطقس البحرية سوى تعديل للماثورات البرية.

وطبيعى أن المشكلة الكبيرة التى تواجه البحار عند التكهّن بما سيقع فى المستقبل، هو أن أنماط الطقس فى أحد أنحاء العالم كثيراً ما تختلف عن تلك التى فى أنحاء سواها.

ولون الشمس والقمر وحجمهما مهمان فى الاستدلال على ما قد يكون من متغيرات فى الطقس وكذلك المطر والرياح. فمثلاً يقال : «حين يسبق المطر الريح اخفض الأشرعة العليا واطوى الشراع الرئيسى. وحين يسبق الريح المطر انشرها واستأنف المسير».

ويقدم المؤلف العديد من أمثال هذه الصيغ المنظومة التى تشرح وتعلم، وتندر وتنبأ بحالات الطقس.

وكائنات البحر والطيور والحيوانات والحشرات التى تعيش حول السفينة أو عليها منبئ آخر بتغيرات الطقس، وكذلك بعض الأشخاص والسحرة لهم القدرة على التنبؤ بالطقس.

والكاتب فى كل فصل من فصول كتابه هذا حريص كل الحرص على أن يقدم مواد الماثورات البحرية التى جمعها وعاشها بتعاطف جميل وتوثيق دقيق. فلقد أمضى فيها من عمره زمنا غير قليل يقرب من نصفه. والملاحة عنده كماثورات البحر، علم وفن. وهو يقدم ذلك بمنهجية علمية انتهجها فى إعطاء المادة الماثورة الأولوية فى العرض الدقيق وشرح معانيها ودلالاتها.

وهو فى كل ما يقدمه من ماثورات البحر، يقدم معلومات تكشف عن رؤية الإنسان للعالم خارج ذاته من خلال ذات الإنسان نفسه حيث يقوم الموروث الثقافى بدور أساسى فى تشكيل معالم رؤيته للعالم خارج وجوده هو.

وحب المؤلف لمادة بحثه التى سعى لجمعها جعله يؤثر الماثور على الجدل العلمى. ولولا نظره المنهجى هذا ما كان فى الإمكان تقديم مادة كتابه هذا «الفولكلور والبحر» وما كان لنا أن نتعرف على هذه المادة متنوعة المجالات وبور مواد الماثورات الشعبية فى حياة البحارة والملاحين.

والملاحة هى علم قيادة السفن من مكان إلى آخر - ويحتاج البحار إلى أدوات معينة لكى يتمكن من اتخاذ وضعه بدقة فى عرض البحر. ويروى المؤلف قصصا وأخبارا عن ربابنة عظام ممن أبحروا فى سفن شراعية دون الاعتماد على أدوات وخرائط، وكيف كانوا يبحرون ليلا، ويقيسون أعماق البحر ويسبرون غوره بأساليب ابتدعوها، وكان لها من الدقة ما يرشدهم إلى ما يجب عمله.

وحكايات قباطنة السفن وقصص مغامراتهم وأحداث رحلاتهم رغم واقعيتها فإنها تفوق الخيال. وما واجهه الملاحون الشجعان من صعوبات يكشف عن مدى الجهد الذى بذله هوراس بيك فى جمع وعرض مادة هذا الكتاب فى نسق متميز وتسلسل بليغ، كما أن ما بذله مترجم هذا الكتاب الأستاذ أحمد محمود يكشف عن مدى ما تكبده لكى يقدم للقارئ العربى مادة علمية أضاف إلى متنها هوامش وتفسيرات وتعليقات أثرت مجال المعرفة بالماثورات البحرية فى الولايات المتحدة وإسكوتلاند أو أيرلندا أو جزر الهند الغربية. وقد حرص المؤلف على أن يقدم مادته للناطقين باللغة الإنجليزية، وإن لم يغفل أن يقدم معلومات ذات فائدة كبيرة عن بلاد الشمال الأوربى ممن عاشوا حياة البحار وخالطوا عجائبها وغرائب موجوداتها.

ولقد قدم المؤلف معلومات جمة عن إبداعات البحارة وطقوسهم وممارساتهم خلال الحياة اليومية في البحر وعلى الشاطئ. ونظر إلى هذه الإبداعات نظرة الفنان الباحث وقدمها بدقة الباحث الفنان، فعرض في الفصل السادس من كتابه عددا من أغاني البحر وسياق هذه الأغاني في الحياة اليومية للبحار سواء أكان ذلك في أثناء العمل أم في الراحة.

وأغاني البحر الشعبية هي أكثر أنواع الإبداع الشعبي شيوعا، وهي الأغاني التي ترتبط بالعمل منذ لحظة الاستعداد للإبحار إلى العودة إلى الشاطئ وأيضا أغاني عنبر البحارة التي تؤدي أثناء الراحة ووقت الفراغ، وهي أيضا تنقسم إلى أغاني البحارة للمسافات القصيرة، ومنها ما نشأ في البحر أصلا ومنها ما ولد على الشاطئ ثم عدلت وانتقلت إلى البحر لتتلاءم مع البيئة البحرية. والبحث في الأغاني البحرية هو مبحث مهم وصعب في الدراسات الفولكلورية. كما أن مشكلة تدوين النصوص الغنائية وتشابه الكثير منها وبخاصة مطالعها أو مخارجها يزيد الأمر صعوبة. ولقد كانت الأغاني البحرية نشطة حينما كانت السفن الشراعية هي التي تعبر البحار وتجوب المحيطات.. أما مع ظهور الآلة والمحركات وعلو صوت الآلة على صوت الإنسان، فقد توارت الأغاني البحرية وأصبح من غير السهل جمع وتسجيل أغاني البحارة القدامى الذين لا يزالون على قيد الحياة ويمكنهم غناء الأغاني البحرية القديمة التي يتذكرونها من الأيام الخوالي الماضية، وبخاصة تلك التي عايشوها على المراكب الكبيرة في رحلات الصيد أو الإبحار للتجارة.

ولقد واجهتني هذه الصعوبة حينما كنت أعمل خبيرا للفنون الشعبية في دولة الكويت، رغم ما أمكن جمعه وتسجيله من البحارة والغواصين كبار السن الذين عايشوا رحلات الغوص على محار اللؤلؤ أو رحلات السفر والتجارة عبر الخليج إلى المحيط في سفن شراعية. ولقد حرصت مجموعة من الباحثين في دول الخليج على دراسة هذه الأغاني، ومنهم من اهتم بذلك في دراساته الأكاديمية والعدد غير قليل ومواد البحث والدراسة ساعدت أيضا في التعرف على العديد من هذه الفنون الغنائية البحرية في الخليج. كما يضم أرشيف مركز رعاية الفنون الشعبية بالكويت كمًّا غير قليل من هذه الأغاني مسجلة على أشرطة صوتية، ومنها ما أعيد تسجيله على أشرطة سينمائية. كما

حرص مركز دراسات الفنون الشعبية بالقاهرة بالتعاون مع معمل الصوتيات فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية على جمع وتسجيل نماذج من الأغانى البحرية فى الإسكندرية وكذلك مجموعة أخرى من أغانى البحارة والصيادين فى مدينة رشيد. ورغم ما واجهته من صعاب فى ذلك - وكان ذلك فى أوائل الستينيات - إلا أن هذه المادة مازالت لها حيويتها ومازالت مصدرا أساسيا من مصادر البحث العلمى والفنى فى خصائص الأغانى البحرية.

والواقع أن المادة التى قدمها هوراس بيك فى كتابه هذا تتميز بثراء مهم وشرح بليغ سواء للنص الأدبى نفسه أم للحنه الموسيقى وفنية أدائه. فأغانى العمل على السفينة لها عدد من السمات المفردة وأول هذه السمات «النظم المفتوح»، وقد تناول المؤلف هذه الأغانى بنظر فنى نقدى محلا لألفاظها وتنوع لهجاتها وطرق أدائها الصوتى.

ويتميز هذا الفصل من الكتاب الذى خصصه المؤلف للأغانى ببيان موضوعات وسياق هذه الأغانى ووظيفتها فى الحياة البحرية، وبخاصة تلك التى تروى قصصا وتحكى مخاطر البحر وتعبر عن معتقدات البحارة وخرافاتهم.

ومن هذه الأغانى ما يقدم تأريخا لأحداث معينة. فمثلا أغنية من الأغانى التى تروى أحداثا عن صيد الحيتان فى جرينلاند تصف الرحلة بما فيها من مغامرات وتحدد التاريخ. «فى عام ألف وثمانمائة وواحد (١٨٠١) فى العشرين من مارس (٢/٢٠) نشرنا جميع الأشرعة العليا، وأبحرنا إلى جرينلاند، أيها الأولاد الشجعان، وأبحرنا إلى جرينلاند.»

وتواصل الأغنية رواية الأحداث وتصف الرحلة وكيف أنه حين أصيب الحوت.. سحبت حبالنا.. ضربنا ضربة بذيله. جعلنا نفقد خمسة من بحارتنا الرائعين.

ولم نمسك بالحوت أيها الأولاد الشجعان.

ولم نمسك بالحوت...!!

وتواصل فقرات الأغنية، لتروى أسماء بحارة شجعان. وهوراس بيك حينما يقدم مادة بحثه التى أمضى السنين فى جمعها، لا يقدمها كمادة خام باردة بل يقدمها

كمادة حية دافئة يعايشها من الداخل ويعرف أسرارها ويستشعر مكوناتها. وهو أمر نلاحظه وندركه بوضوح تام حينما يتناول أشكال التعبير الفني الأخرى من مواد يشكل بها البحار رؤيته لمناظر من واقع حياة البحر وكائناته هو لسفته. ويرسم ذلك ويصوره على قطع من قماش أو جلود كائنات من البحر وأسماكه أو ينحته على قطع من الخشب أو من عظام حيوانات البحر وأسنانها.

كما تتضمن سجلات السفينة نفسها رسوما كروكية ورسوما وتصويرا للمعالم غير المعتادة التي يمر بها الربابنة والبحارة، أو عمل نماذج من السفن ومنها نماذج دقيقة مكتملة الشكل تكون كل أجزاء السفينة في أحجام مصفرة.

والفن البحرى، أى ما يصنعه البحارة أو ما يرتبط بعالم البحر، تتضافر فيه الوظيفة والفن تضافرا رائعا.. كما أن فن عمل العقد من الحبال له طبيعة فنية خاصة. والبحار الفنان تقيد مواده وأدواته وقدرته الشخصية وثقافته.

والواقع أن مواد الفنون التشكيلية وغيرها من مواد الثقافة المادية الشعبية لم تحظ بنظر أشمل مثلما حظيت به فنون التعبير الأدبية الأخرى.

ومن الفنون التشكيلية التي يهتم بها البحارة فن الوشم، باعتبار أنه فن الرسم على جلد الإنسان.. وقد أخذ هذا الفن أيضا فى الكمون.

والوشم من أشهر الفنون التصويرية التي ترسم على جسد الإنسان وهو فن منتشر بين البحارة وله رموزه وطقوسه. وهى رموز تخرج من إطار المعتقد الدينى والتميمية إلى مجال التعبير عن حالة نفسية خاصة واحتياج إنسانى خاص.

والوشم على جسد البحارة له دلالاته التي تختلف عن دلالاته على جسد من يعيشون فى البر، وله تقنياته وأصباغه وله موضوعاته ولا يمكن عزله عن حامله.

وحينما ينتقل المؤلف من عالم الفن البحرى إلى عالم كائنات البحر يفرد فصلا خاصا عن الفقمة (عجل البحر) والرجال الضخام. فالفقمة لها فى عالم الخيال الإنسانى مجالات رحبة. فقد أسقط الإنسان من ذاته على هذا الحيوان تصورات غريبة ونسج حوله قصصا عجيبة.

ويستهل هوراس بيك هذا الفصل الثامن من كتابه بذكر تجربة مر بها حينما كان يبحر على امتداد ساحل مين^(١) ، حينما شاهد جثة فقمة صغيرة رضية مقتولة. فصياحو الأسماك في مين يكرهون الفقمة لأنهم يعتقدون أن الفقمة تاكل في اليوم الواحد قنطاراً من سمك الرنجة الذي يقومون بصيده، فهي تقطع عليهم رزقهم. ولكن الواقع غير ذلك، فالعداء بينهم وبين الفقمة يرجع إلى تصور قديم يفترض أن الفقمة تحيط نفسها بهالة من السحر.

ويرى المؤلف كباحث فولكلور أن للفقمة دوراً مهماً في الماثورات الشعبية البحرية والمعتقدات الشعبية، فالفقمة في التصور الشعبي لها وجود خارق يتصل بالعالم الخارجى، ولها وجود مادي يتصل بالتجارة. ويقدم هوراس بيك حكايات ومرويات عن الفقمة، حيث إنها بطبيعتها الفيزيائية من حيث الشكل العام لها ارتباط بالبشر. كما أنها حيوانات أليفة، وهى الباقية بين كل مخلوقات الجزر الشمالية، حيث لم يكن هناك قرد قط . وحيث إن الدببة قد اختفت منذ زمن بعيد، كما أن الفقمة تشبه الإنسان إلى حد ما، فالأنثى ترضع وليدها وهو على صدرها، وهى اجتماعية إلى حد كبير، وترقد على الصخور الدافئة فى الشمس «كما يفعل المصطافون على البلاج»، وهى برأسها المستدير يخالها الناظر إليها من الماء إنساناً يسبح، كما أنها شرسة وتعض بقسوة وقوة.

وهناك اعتقاد خرافى بأن حيوانات الفقمة لها القدرة على التحول إلى كائنات بشرية على البر ثم تعود إلى نواتها الأصلية فى البحر. وحكايات الفقمة فى عالم المرويات الشعبية تتوافق فى كثير من عناصرها مع حكايات عرائس البحر. كما توجد حكايات تربط بين الفقمة والجنات. وحكايات الفقمة تحمل عناصر وموروثات ثقافية قديمة.

وبجانب الماثورات التى ترتبط بعالم الفقمة يقدم المؤلف ساكنا آخر من سكان المحيط وكان له وجود كبير قديماً عند سكان المحيط وما زال الناس يتداولون حكايات عن هذا الكائن الغريب الذى يركب قارب من الجلد، وتبدو مقدمة القارب كمؤخرته.

(١) للمؤلف دراسة عن فولكلور تلك المنطقة نشر عام ١٩٥٦ هو :

Beck , Horace, Folkore of Main, Phladelphia, 1956.

وقدم المؤلف تفسيرات كثيرة عن هذا الكائن الغريب الذى كان يطلق عليه أهل الجزر الغربية وجزر شتلاند وجزر أوركنى اسم الفنلندى أو الرجل الضخم **Muckle**.

وقدمت تفسيرات عديدة عن هذا الظهور الغريب. وأشار باحثو الفولكلور إلى أنهم إسكيمو «متسربون» وصلوا إلى مواقع متقدمه من القارة الأوروبية. أو أنهم بقايا الشعب البكتى. وهو شعب قديم أصله غير معروف سكن أجزاء من شمال بريطانيا ورأى ثالث يذهب إلى أنهم كانوا بالفعل شماليين.. وقد ناقش المؤلف هذا الموضوع مناقشة جيدة كما أورد الأستاذ المترجم أحمد محمود أيضا هوامش شارحة أضافت لنص الكتاب معلومات مفيدة.

ومع الحكايات التى أوردها المؤلف عن هؤلاء الرجال وكذلك عن جيرانهم اللابيين (شعب اللاب) ساكنى الشمال الذين يعبرون ما بين القطب الشمالى وشمال فنلندا على زلاجاتهم، أورد حكايات أخرى تفترض أن أهل الشمال هؤلاء مختلفون عن أهل أوربا وأن لهم قدرات سحرية يمكن بها السيطرة على عناصر الطبيعة، ويتصور البحارة أن كل فنلندى ساحر يمكنه إثارة العواصف بإشارة من إصبعه.

روايات عديدة تروى عن هؤلاء الرجال الضخام رواها المؤلف فى كتابه هذا الذى يمجج بالمغامرات والمخاطر وحكايات الأهوال ويفيض بقصص الخيال العاطفى وأحداث اللقاء بين عالم البشر وكائنات البحر. لقاء تثيره تجربة الإنسان فى عالم يمتد وكئته بلا نهاية، وكائنات لا تحصى ولا تعد.

والدارس لما ورد عن عالم البحر وغرائبه وكائناته العجيبة سوف يتربى على ذاكرته ما قرأه عند القزوينى من وصف لسمة بوجه إنسان^(١).

ولقد أوضحت العلوم البيولوجية بما لا جدال فيه أنه لا وجود لمثل هذه الكائنات الغربية والمخلوقات العجيبة باستثناء الفكرة.. ولكن مازال الاعتقاد والتصور بوجود هذه الكائنات الغربية العجيبة وقدراتها التى تفوق قدرات البشر بعامة، بسماتها الخاصة

(١) راجع القزوينى - مرجع سابق.

وحكاياتها التي تثير خيال السامعين لها، والتي تخرج على الشاطئ متتكرة في هيئة البشر. وأن لها قدرات فائقة في معاشة البشر. وأن عروس البحر غالبا ما يكون لها عينان زرقاوتان وشعر أصفر ومعها مشط ومرآة، وعادة تكون مشغولة بتمشيط شعرها. والمشط والمرآة هما أهم ما يميز عروس البحر مع الحزام أو الكيس. وامتلاك أنماط من هذه الأشياء يفقدها قوتها.

وعروس البحر قد تكون طيبة عطوفة أو شريرة وخائنة ولكنها دائما تكون قادرة على تحقيق النبوءات.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأصول القديمة لحكايات عروس البحر ترجع إلى أصول شرقية ذات توجه خاص بالشرق الأدنى، عند الإغريق والبابليين والمصريين. ويقدم المؤلف شرحا لذلك ويضرب أمثلة ترتبط بهذا الافتراض الفولكلوري، وما حملته تلك الحكايات من عناصر درامية ذات أبعاد أسطورية، ومع عروس البحر التي لها مكانة متميزة بين كائنات البحر من غرائق الماء (نكر عرائس البحر) وحصان الماء، إلى غير ذلك من كائنات. وحينما نتابع بعض الحكايات المرتبطة بعرائس البحر وكائناته، نتبين أن بعض عناصرها تتماثل مع عناصر أخرى لحكايات شائعة في بلاد الشرق الأدنى وليس فقط في إسكوتلندا أو أيرلندا وجزر الهند الغربية أو بين أهل الشمال فالإنسان يبدع من مخيلته كائنات يتوهم وجودها من خلال رؤيته غير الواضحة لعناصر من الطبيعة. وحكايات عرائس البحر لها انتشارها في التراث الإنساني بعامة.

وحكاية (بدر باسم بن الملك شهرمان وبنات ملك السمندل) التي تشتمل عليها الليالي (٧٣٣ - ٧٥١) من ليالي ألف ليلة وليلة هي حكاية متميزة بين حكايات البحر التي اشتمل عليها التراث العربي الروائي، حيث تجمع في مكوناتها بين عالم «إنسان الأرض» وعالم «إنسان البحر» في بنية واحدة تتمثل في التزاوج بين أبناء الأرض وبنات البحر حيث ينجبان إنسانا جديدا يجمع في موروثاته الحيوية والثقافية بين مكونات وخبرة وقدرات إنسان البر وإنسان البحر في بنية واحدة، وكيونة خاصة.

وتروى الحكاية كيف يتزوج الملك شهرمان الأميرة جلنار ابنة أحد ملوك البحر وتنجب له ولدا يفوق غيره من الغلمان في الحسن والذكاء والشجاعة وقوة الاحتمال كما

يجمع فى بنائه العصى بين قدرات أهل الأرض وقدرات أهل البحر، وكيف شب هذا الولد «بدر باسم» فى رعاية والده ووالدته وخاله صالح أحد أمراء البحر وكيف يتزوج بدر باسم بعد ذلك من الأميرة جوهرة بنت ملك السمندل أحد ملوك البحر الأقوياء.

كما أن «القصتان البحريتان المتميزتان والممتازتان» «عبد الله البرى» و«السندباد البحرى» تفوقان بتفردهما الفنى كل القصص البحرية لا فى الأدب العربى فحسب، ولكن فيما أبدع من قصص بحرية فى آداب العالم^(١).

وتعتبر الحكايات الشعبية المصدر الأساسى لكل الروايات، إذ تحمل من ملامح التراث الشعبى أكثر مما تحمل مرويّات أخرى من التراث الشفاهى للشعوب^(٢).

وتكثر الحكايات البحرية عن حيات ووحوش البحر. ويضم أرشيف الفولكلور بجامعة نيوفاوندلاند التذكارى حكايات وروايات عن وحوش البحر وصراع الإنسان مع هذه الوحوش، ومنها ما يحمل عناصر أسطورية أو يرتبط بمعتقدات قديمة.

والمثأمل لما أورده هوراس بيك من حكايات وما تحمله حكايات شعوب أخرى تبعد عن المناطق التى جمع منها مادته سوف يجد تماثلات عديدة فى التصور الإنسانى لكائنات هذه الحكايات. وحينما يتأمل الباحث الفولكلورى هذا الإرث العظيم من مآثورات الشعوب، وتراثها الحى، يجد أن الإنسان فى سابق الزمان كانت قدرته الإبداعية لتصوير العالم المحيط بالإنسان تصورا يفوق قدرته التخيلية المعاصرة. فالإنسان أصبح متلقيا أكثر من كونه مبدعا.

(١) د. حسين فوزى، حديث السندباد القديم، طبعة دار الكتاب اللبنانى، دار الكتاب المصرى، ١٩٧٧، ص ١٨٦. وراجع أيضا تعقيبه على قصة السندباد ص ٢٥٦ - ٢٦٢، من حيث إن قصة السندباد هى قصة جغرافية تلخص المعارف البحرية العربية فى القرون الوسطى. راجع أيضا: عباس خضر، عجائب البحر فى ألف ليلة وليلة، مجلة العربى ٢٩٨، فبراير ١٩٨٢، وصفوت كمال، دراسة عناصر الحكاية الشعبية، من حكايات البحر فى الكويت، مجلة التراث الشعبى، ع ٧، بغداد ١٩٧٨، ص ٩-٢٦.

(٢) صفوت كمال، الحكايات الشعبية وأهمية دراستها، مجلة الفنون الشعبية، ع ٤، القاهرة، أبريل ١٩٦٥.

وعلى الرغم من أن الحكايات الشعبية لبعض الشعوب تتماثل عناصر منها مع غيرها من حكايات شعوب أخرى إلا أن فكرة الجزيرة المسحورة ملك خاص للشعوب الشمالية لا ينازعها فيها أحد.

وحيثما يخص المؤلف الفصل العاشر من كتابه عن الوحوش والحيات البحرية والجزر المسحورة فإنه يحدد أيضا بآته من الصعب القضاء على خيال الإنسان، فإن لدينا الأطباق الطائرة، والعفريت الجوى. بل حتى علماء الرياضيات يعطون أملا. فهم يقولون إن قانون الاحتمال يشير بقوة إلى أنه لابد أن تكون هناك حياة فى مكان ما من الكون !

وحيثما يتناول هوراس بيك موضوع الخرافة والعادة والمعتقد يحرص على تحديد دلالات كل مصطلح من هذه المصطلحات الثلاثة التى تشكل جانبا مهماً من الماثورات الشعبية وبخاصة فى مجال الفولكلور والبحر. وعلى نفس النهج الذى انتهجه هوراس بيك يقدم مجموعة من الحكايات والمرويات التى ترتبط بالخرافة والعادة والمعتقد مما يعايشه أهل البحر ويمارسونه، وبخاصة ما يرتبط بعالم الجنيات وكذلك الاعتقاد بأن الأموات غالبا ما لا يختفون اختفاء تاما. فهم يعيدون فى صور جسدية ليتردوا على البقعة التى ماتوا فيها.

ويقدم المؤلف مرويات تحمل هذه المعتقدات. والباحث فى هذا الميدان من ميادين الماثورات الشعبية لا يستطيع أن يحدد أصول الخرافات أو العادات أو المعتقدات أو أن يوثق مصادرها، كما يشيع الاعتقاد بأن الموتى يتخئون أشكالا أخرى وخاصة أشكال الطيور. كما يقوم تفسير الأحلام بدور درامى فى حياة البحارة. فكثيرا ما تصدق أحلام البحارة.

وفى أيرلندا وأجزاء من إسكوتلندا لا يزال هناك اعتقاد كان شائعا فى أنحاء أوروبا بأن ما يريده البحر سوف يناله. ويعتقد الصيادون فى البحر الكاريبى أنه إذا أراد البحر شخصا ما وأنقذوه فإنه لا يكون سوى خلاص مؤقت، ذاك أن البحر سيناله فى النهاية وربما أخذ معه من أنقذه. حكايات وأغنيات بحرية عديدة تروى عن أحداث ترتبط بهذا الاعتقاد. «ما يريده البحر سوف يناله».

مع حياة البحر وعالمه العجيب الغريب وكائناته المتنوعة المتعددة يقدم الكتاب جانباً آخر من جوانب الحياة البحرية وهو ما يروى عن القراصنة ومغامراتهم وجهود بحارة المجهود الحربي في محاربتهم ومعاركهم أيضاً ضد المهرين. وكلها حكايات تتدافع فيها المغامرات وتموج أيضاً بالشجاعة وتفيض بالقسوة والعنف. وحياة القراصنة مشوقة رغم ما يصاحبها من دماء وتدمير. وأسماء القراصنة المشهورين ومغامراتهم استلهمها أدباء وفنانون وأنتجت عنها أفلام سينمائية لقيت نجاحاً كبيراً.

كما يقدم المؤلف مجالا آخر من مجالات الحياة البحرية وهو مجال الحرب والمعارك البحرية... ومن قباطنة السفن الحربية من نال شهرة كبيرة. وتزخر الفترة الزمانية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر بمعارك ومواجهات بحرية، وكيف أن حياة القراصنة لم تخل بأن يكون من بينهم امرأة وهي جريس أومالي التي كانت تقيم في أيرلندا وذاع صيتها تحت اسم جراناوليل، ملكة الغرب، أو «قرصانة الكاريبي».

ولحياة جريس أومالي جانبان، أحدهما الجانب التاريخي والآخر الجانب الشفاهي الذي حفظه التراث الشعبي، وكلا الجانبان يساعدان على الكشف عن العقلية الشعبية مما خلق الأسطورة والحكايات الخارقة عن بطل ما..

ولاشك أن دراسة العلاقة القائمة بين الواقع التاريخي والإبداع الشعبي في صياغة بطولة أسطورية هو أمر له أهميته. وفي الدراسات العربية المصرية نجد أن هذا المنهج وضع أسسه وطبقه الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس في دراسته عن سيرة الهلالية. كما انتهج نفس المنهج بتوسع وإضافة الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم في الكشف عن العلاقة بين الفولكلور والتاريخ^(١). أما عن شخصية جريس أومالي فقد قدم هوراس بيك في كتابه الذي بين أيدينا ترجمة لحياة جريس أومالي.

(١) عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، ط٢، القاهرة، دار الكتب المصرية . وقاسم عبده قاسم ، القراءة الأسطورية للتاريخ، مجلة الفنون الشعبية ، القاهرة ، ع ٥٦ ، ٥٧ ، سبتمبر ١٩٩٧ . وقاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، يناير ١٩٩٧ .

أما ما نذكر عن كنوز القراصنة والفرائط المlfزة التي تحتاج إلى من يعرف سرها ويحل رموزها، فقد عرض ذلك المؤلف بأسلوبه المشوق ورشاقة طريقة عرضه للمادة التي قام بجمعها.. ويرى المؤلف في هذا المجال عدداً من الحكايات المثيرة عن الكائنات التي تحرس الكنز. وكذلك عن السفن التي كانت تحمل ذهباً وغرقت بسبب العواصف والحكايات التي تروى عن أشخاص رأوا في منامهم شبحاً لشخص ميت يدلهم عن مكان الكنز أو أن يظهر الميت شخصياً وليس في الحلم. وهذا أمر شائع في الماثورات الشعبية في الجزر البريطانية وأيرلندا أو قد تقوم الجنيات بالإرشاد إلى مكان الكنز أو باستخدام عصا الاستنباء التي ترشد إلى مكان الكنز. وهي مثل العصا التي يستعين بها البعض لمعرفة أماكن وجود الماء أو المعادن في مكان ما تحت الأرض.

وفي إسكتلندا والولايات المتحدة تكثر أيضاً حكايات ترتبط بالتهريب. وتتواصل الحكايات المرتبطة بعالم المغامرات والقرصنة والتهريب من جيل إلى جيل تواصلها فنياً يمتزج فيه الواقع بالخيال.

ويبالغ البحارة في تصوير أحداث حياتهم ويحتفظون بها في ذاكرتهم لغرابة أحداثها، مثل حكاية مطحنة الملح التي تفسر لماذا ملوحة ماء البحر.

كما أن العلاقة بين الشمس والقمر، وهي ما يرتبط بعالم الأساطير الكونية مازال لها وجود في التراث الشعبي الأيرلندي وأيضاً ما هو كائن في التراث الإسكتلندي.

ومن الحكايات ما قد يستغرق روايتها ثلاث ساعات أو ٢٤ ساعة. والعادات والتقاليد والمعتقدات وجود حتى في الماثورات الشعبية. ويحمل فولكلور كل مجتمع أنماطاً متنوعة من الحكايات المفسرة لتلك المعتقدات حكايات ترقى إلى مستوى الأسطورة بما تتضمن تلك الحكايات من أحداث خارقة.

كما أن بعض الحكايات تقوم فيها بعض الأنوار بأشوار أساسية في تشكيل أحداثها، مثل الأجراس والصفارات والمزامير والشخاشيخ. وبخاصة أن للأجراس دوراً مهماً في ممارسة بعض الطقوس الدينية وحكايات الخوارق بما فيها من عناصر أسطورية يميل عامة الناس عادة إلى تربيدتها لأنها ترضى جانباً وجدانياً ورومانسياً في الحياة، مثل حكاية مويى بيك التي تصور البطولة الخارقة للإنسان وترقى بعناصرها إلى مرتبة الأسطورة.

بجانب هذه الحكايات نجد حكايات عن السفن الأشباح، وهي شائعة في جزر الهند الغربية بل في العالم أجمع. ويفسر المؤلف حكايات «السفن الأشباح» بأن الطقس في البحر والضباب وشدة البرودة تقوم بدور كبير في قلب الصور، بل إن «السراب» سراب البحر له دور كبير في تخيل البحارة لمثل هذه السفن وتعتبر أسطورة الهولندي الطائر نموذجاً لمثل هذا التصور عن السفن الأشباح.

ويقدم هوراس بيك رؤية أخرى عن تحول الموضوعات وتغيرها. فمع تغير الزمن تحولت فكرة السفينة الشبح إلى السيارة الشبح والأتوبيس الشبح وهو ما تناقلته الأفلام السينمائية، بل شاعت أيضاً بين وسائل النقل البرية، التي تهيم في الطرق السريعة المشهورة في الولايات المتحدة، مثل هذه التصورات.

فمع حركة الزمان تتداخل عناصر الحكايات بعضها مع بعض ليظهر من هذا التداخل حكايات جديدة قديمة تحمل من عناصر ما كان، بناءً جديداً، وشكلاً آخر له وظيفته الخاصة.

ويحتوى أرشيف الفولكلور في جامعة نيوفاوندلاند كل أنواع الحكايات الخاصة بالسفن الأشباح، بما في ذلك سفينة شبح يقطرها زورق شبح، وهو أمر فريد.

وفي ختام حديثه عن السفن الأشباح.. وحكايات السفن الأشباح يقول هوراس بيك في نهاية الفصل الرابع عشر آخر فصول الكتاب : «حكايات السفن الأشباح نقل عاماً بعد عام وتموت الماثورات القديمة وينتقل البحارة العواجز إلى العالم الآخر».

صحيح هذا القول حيث يتحول الماثور المعاش إلى تراث وتاريخ. وينبع من جديد ماثور جديد يتوافق مع واقع الحياة في العالم الجديد في تواصل ثقافي حي.

صفوت كمال

مقدمة المترجم

كانت مصادفة عجيبة. لم أكن أدري حين انتهيت من ترجمة هذا الكتاب في شهر يوليو من عام ٢٠٠٣ أن حياة مؤلف هذا الكتاب هوراس بيك، التي دامت اثنين وثمانين عاماً، قد انتهت في الأول من الشهر نفسه، أى قبل أيام معدودات من إنجازى للترجمة. إذ حدث أثناء بحثى على الإنترنت عن مزيد من المعلومات عن المؤلف أن كانت أول مادة تطالعنى بين المواد الخاصة به هى خبر وفاته. لقد أمضى هوراس بيك حياته الطويلة بين جمع المأثورات الشعبية ودراستها وتدريسها. وهو لم يكن من هذا الصنف من الباحثين الفولكلوريين الذين يعتمدون على الكتب، بل إنه عاش وسط الناس الذين يبحث مأثوراتهم، وهم البحارة والصيادون وسكان الجزر والسواحل. وهذا الكتاب هو ثمرة ذلك الجهد المصنئ والبحث الدؤوب.

قد يسأل سائل عما دفعنى إلى ترجمة كتاب عن الفولكلور وعن علاقتى بالفولكلور، أو المأثورات الشعبية. ردى على ذلك هو أن لى اهتماماً بهذا الجانب من الثقافة، وعدد كبير من أصدقائى من المشتغلين بالبحث فى هذا المجال، بل وأحمل بطاقة عضوية انتساب لمجتمع الفولكلوريين. والذى أعطانى الكتاب وطلب رأبى فى ترجمته هو الصديق العزيز الدكتور شوقى عبد القوى حبيب المدير السابق لمركز الفنون الشعبية، ولم أتردد لحظة فى أن أترجمه. وبهذا فأننا والقارئ العربى مدينان له. وحين عرضت الفكرة على الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة وافق على ترجمته ضمن المشروع القومى للترجمة. وكان لابد بعد الانتهاء من الترجمة أن تكون مراجعتها وتقديمها لأستاذنا وصديقنا الكريم صفوت كمال خبير الفولكلور المعروف الذى له اهتمام بالمأثورات الشعبية الخاصة بالبحر، سواء فى رشيد أو فى الكويت أو فى عُمان، حيث تناولت بحوثه فى تلك المناطق مأثورات البحارة والصيادين وصناع السفن وغواصى اللؤلؤ.

أما لماذا هذا الكتاب بالذات، فلأنه نموذج للبحث في مجال فولكلور البحر يفيد باحثينا في أبحاثهم التي تتناول هذا المجال، وهي قليلة جداً. كما أنه يقدم للقارئ العربى جزءاً مهماً من الثقافة الشعبية الخاصة بالعالم الغربى، ليكتشف التشابهات الكثيرة بينها وبين ثقافتنا الشعبية. فرغم خصوصية كل ثقافة، لا تزال هناك أمور تتسم بالعمومية تشترك فيها الثقافات كافة. فكما هو الحال عندنا، فإنهم يؤمنون بالخرافات وبالأشباح وبالأرواح ويتفاعلون من أشياء ويتشاعمون من أشياء أخرى. فهناك أشخاص يتفاعل المرء عند رؤيتهم فى الصباح وآخرون يتشاعم منهم وكذلك الحال بالنسبة للطيور والحيوانات وغيرها من الأشياء. وإذا كانت الأم فى الريف المصرى "تشحت" قروشاً لتضعها حول رقبة ابنها منعاً للحسد والعين الشريرة، فإن القطعة المعدنية التى يدقها الصياد على سكينه لتكون سلاحه ضد الأشباح والشياطين يفضل أن يكون قد أعطاهما له أحد. وإذا كنا نذبح ذبيحة أمام المنزل الجديد والمحل الجديد والمصنع الجديد، بل ويلطخ أصحاب السيارات سياراتهم الجديدة بدم ذبيحة، فهم يفعلون الشيء نفسه مع السفينة الجديدة. إن أوجه التشابه كثيرة وسيطلع عليها القارئ بنفسه.

بسبب غرابة جغرافيا مادة الكتاب وتاريخها وثقافتها عنا، كان إلزاماً على أن أهتم اهتماماً شديداً بوضع الهوامش التى تعين القارئ العربى على فهم بعض الأمور التى اعتمد المؤلف فيها على الخلفية الثقافية لقارئه الناطق بالإنجليزية، فلم يكلف نفسه عناء بيان أمور يعرفها قارئه هذا. كما حرصت كذلك على وضع أسماء الأعلام باللغة الإنجليزية عند ورودها لأول مرة فى الكتاب، ضمناً لأن ينطقها القارئ العربى نطقها الصحيح.

وفى الختام أرجو أن يثرى هذا الكتاب المكتبة العربية وأن يكون ذا فائدة للباحث العربى ومشوقاً للقارئ غير المتخصص ونافذة للمبدع العربى على مآثورات البحر عند الغرب.

مقدمة المؤلف

يتطلب الفولكلور مناخاً شديداً الخصوصية كي يبقى ويتعش. وهو يتغذى على العزلة، والامية، والامتداد من تراث إلى تراث قبله، إلى أن نصل إلى أكثر أركان القيم عتمةً وعتقاً. وهو ينمو في الجهل وفي العنف. كما أنه يبقى لأنه يؤدي وظيفة بصورة أو بأخرى. وتقوم البيئة بدور كبير في خلقه، وتشكيله، والحفاظ عليه. ومناطق قليلة من العالم هي التي أفضل من البحر في الحفاظ على الفولكلور وخلقها.

فالإنسان منذ ما قبل فجر التاريخ وهو يركب البحر. فقد سافر على امتداد الشواطئ، واصطاد السمك في مصاب الأنهار والخلجان، واعدت به عن البر رياح وعادت به إلى البر رياح غيرها. وغرق بعض الرجال، وحرق البعض الآخر، وفاز غيرهم بالعودة إلى الوطن ليعيشوا آخر أيامهم على الشاطئ يحلمون بالأيام الخوالي. وهناك آخرون، قبل فجر التاريخ، سافروا إلى آخر الدنيا حيث تغرب الشمس في مياه تغور وتغلى. البعض منهم عاد، والبعض الآخر غرق، وقليلون هم الذين وجدوا ملاذاً في أراض غريبة. وهؤلاء الذين عادوا روى الحكايات عن مغامراتهم، وصار من لم يعودوا إلى ديارهم موضوعات لرجم الغيب والحكايات.

ومع ذلك، فالإنسان لا يشعر بالراحة والاسترخاء، أبداً، وهو في البحر. بل إن أشجع البحارة وأكثرهم جرأة وإخلاصاً تنتابه لحظات ضعف مفاجئة بخصوص مهنته في بعض الأحيان، وإن كان البعض، مثل بلكتجتون Bulkington في رواية "موبى ديك" Moby Dick، لا يشعرون بالراحة إلا وهم في المياه العميقة، وهو ما يعود إلى أن أخطاراً أشد وطأة على الشاطئ تجبرهم على ذلك. ولأن البحر ليس موطن الإنسان، فهو ليس موطن الفولكلور بحال من الأحوال. ذلك أن أغلبية هذه المادة أتت من البر وعدلت بحيث تتلاءم مع الجو المائي. فذلك الذي ينتمى إلى البحر خلق تبعاً لأسلوب الماثورات البرية.

خلاصة القول أن فولكلور البحر هو ما أُلقت به الأمواج على الشاطئ من فولكلور جاء من بلاد كثيرة، ومن شعوب كثيرة، عبر قرون عديدة، حيث غُمِر في ماء المحيطات المالح وأصبح منتجاً يختلف عن المنتج الأصلي اختلاف الراتينج الذي غُمِر في ماء البحر فصار عنبراً.

ولو حاول إنسان مناقشة كل هذا القدر الكبير من المادة وتجميعه وتقييمه لاحتاج إلى ما يزيد على عمره وإن ساعده في ذلك الكمبيوتر، وكانت النتيجة قاموساً للغة البحر، ومصطلحاته، وخرافاته، ومعتقداته، وعاداته، وأغانيه، وأساطيره، وليس كتاباً عن الفولكلور البحري.

أما ما أهدف أنا إليه هنا فهو بحث هذا القدر الضخم من المادة، واختباره والسؤال عن كيفية ظهوره وربما افتراض هذه الكيفية، وما له من أهمية، إن كانت هناك أية أهمية، ووضع قواعد بشأن تكون فولكلور البحر وانتشاره وقدرته على البقاء، إن كان هناك لذلك من سبيل. وسوف أعالج العديد من جوانب ثقافة البحر، وسوف أختار الأمثلة لتوضيح النقاط المعروضة - وهي أمثلة مختارة على أساس من الأهمية، أو طول مدة بقائها، أو الانتشار الواسع، أو الصفات الفريدة في إطار المادة ذاتها - ولكن دعوني أدرس البحر أولاً ثم ارتياد البحر ثانيةً.

يرى البعض الجبال جميلة، ويراهم غيرهم قبيحة، إلا أن كثيرين ينظرون إليها بعدم اكتراث. وعدم الاكتراث مصطلحٌ قليلاً ما يُستخدم لوصف صلة الإنسان بالبحر. فهو في المقام الأول أكثر تعلقاً من البر. فكل الجبال جبال؛ قد تلقى السحب بظلالها عليها، وقد يجعل الضباب رؤيتها غير واضحة، وقد يحيل الجليد لونها إلى البياض، ولكنها تظل جبلاً - تلك الكتل الضخمة الموجودة في أماكن معروفة - وأسماها أوليفر ويندل هولز Oliver Wendell Holmes الجسئيات (*) وقال إنها غير مؤذية. كما شبه هولز المحيط بأحد السنوريات(**) أو أحد الزواحف(***) وقال إن البحر مميت.

(*) الحيوانات ذات الجلد السميك كالفيل والخرتيت (المترجم) .

(**) الأسود والنمور وما شابهها (المترجم) .

(***) التماسيح والسحالي والثعابين وما إلى ذلك (المترجم) .

فهو فى وقت من الأوقات هادئ وأزرق وشديد السكون، حتى إن المرء ينظر عبره ويتخيل حافة الأرض. وبعد ساعة واحدة يصير رمادياً، وينساب الضباب عبره فى هدوء ثم يختفى داخل حزن رطب. وتزداد سرعة الرياح وتغطيه الأمواج ذات الزبد التى تتكسر على الشاطئ. وفى اليوم الساكن المشرق، تأتى من أعماقه أمواج طويلة لا انقطاع لها تسير برهبة إلى الشاطئ، حيث تتكسر وهى تهر، ثم ترتد على أعقابها حيث خرير الماء على الصخور وهو يعود إلى البحر. وتحوم طيور النورس على البر وتظهر فى السماء سحب رقيقة عالية. وعند منتصف الليل تهب رياح عاتية ويعلو البحر ويغمر الشاطئ ويكون صوته أعلى من قصف المدافع. وعند الظهر تلامس المياه الصخور بلطف، ولكن ما إن يحل المساء حتى يكون قد انسحب إلى داخله كأنه ثعبان التفت حول نفسه وترك الشاطئ عارياً وقد غطته الأصداغ والطين والحطام الآتى من بلاد بعيدة والشهادة الصامتة على الكارثة على الشاطئ. كل أنواع الحياة حبست فى البرك الصغيرة، ومع ذلك لا يمكن لإنسان أن يشرب ماءها ويكون لديه توق للبقاء. وما هذا كله إلا مشهد من زاوية رؤية واحدة على الشاطئ، وفى فصل واحد. أضف إلى ذلك رياح الربيع والخريف، والتلوج والجليد فى الشتاء، والمد والجزر الضخم عند الاعتدالين، ونبدأ فى فهم حجم الظاهرة المسماة بالمحيط فهماً أفضل.

ابتعد عن الشاطئ فى سفينة صغيرة وستزداد الصورة وضوحاً. ففجأة تكون فى المحيط الكبير؛ حيث يلقي خيط سبر الأغوار وما من قاع. ومن المحيط تبرز جزر، وفوقه تطفو جبال الثلج. وتجرى عكس مسارك تيارات غريبة فتحملك بعيداً. ويتغير لون الماء؛ فهو أزرق، وأخضر، وشبه معتم، وصاف. وتمر أسراب خنزير البحر، وتقفز الأسماك الطائرة فى الهواء. وتظهر أمامك الحيتان والفقمات، ويلهو الحبار الضخم فى ضوء القمر. وفى لحظة تجد نفسك وسط ربح عاصفة، وفى لحظة أخرى تبقى ساكناً لعدم وجود ربح، وكأنها سفينة مرسومة على محيط خطه رسام، ويطول الحال أياماً، وأسابيع. وتجد نفسك فى منطقة تهب فيها الريح دائماً من نفس الاتجاه. وترى طيوراً غريبة تحوم بأجنحة ثابتة فوق سفيتك بالليل والنهار دون أن تستريح، وبلا أى مجهود. وتمر عبر أفدنة من أعشاب البحر، وفى الليل تترك السفينة خلفها أثراً فوسفورياً. وقبلالة الرعوس الكبيرة تلتقى بالبحار الرهيبة والتيارات الشريرة عند أفواه الخلجان

وحول رؤوس البر. ودائماً هناك كارثة تحوم بآثاءة على مقربة منك، حيث تكون مستعداً لأن يصيبك مكروه بسبب الضباب أو الحريق أو الجليد أو العاصفة أو الاصطدام أو الجوع الشديد أو الفرق. فهذه الأشياء تجتمع لتخلق المشاكل والألغاز التي ليس لدى عقل الإنسان الاستعداد لقبولها.

وما تلك إلا تجليات السطح الخاصة بالمحيط. فما الذي تحته؟ فحتى في وقتنا هذا هناك مناطق شاسعة من البحار غير معروفة، وفيها من المخلوقات ما لم نتعرف عليه، ومن التيارات ما لا نعلم عنه شيئاً. وكل هذه الأشياء تؤدي إلى الغموض؛ وعقل الإنسان ينفر من الغموض، ولا بد أن يحله إما من خلال الدين، أو الفولكلور، أو العلم.

وتزيد من غموض هذه الألغاز طبيعة السفن التي تخرج إلى البحر وما يحدث لها. فكل سفينة تبني تتصرف بالطريقة الخاصة بها تجاه الرياح والموج، سواء أكانت تسير بالمحرك أم بالشرع، وبالدفة أم بالمجداف. فواحدة تترجح بشدة ارتفاعاً وانخفاضاً في البحر، والأخرى تتمايل على صفحة الماء؛ وواحدة تجرى أمام الرياح جرى أحد كلاب الصيد، والأخرى تسير حسب اتجاه الرياح. إحداها يمكن توجيهها بيد واحدة، بينما الأخرى لا يتمكن رجلان على الدفة من السيطرة عليها. ويبدو البعض محظوظاً، ويبدو الآخر لا حظ له. ويأتي البعض برزق وفير ويسير في مسارات آمنة، بينما لا يحقق البعض الآخر أي ربح، وتغرق طواقمه أو تصبح في عداد المفقودين. وتبحر سفن أعدت إعداداً جيداً من بلدها في يوم لطيف، ثم تنساب وتختفي وراء الأفق بلا عودة. فماذا حدث؟ قد يكون الجواب في بعض الأحيان في غموض فقدان السفينة. ولنشرح ذلك بمثال حديث.

منذ عدة سنوات رعت إحدى الصحف الإنجليزية سباقاً حول العالم لليخوت التي يقودها شخص واحد. وكانت الجوائز نقدية. وكان بين المتسابقين رجل اسمه كروهيرست Crowhurst. ولم يكن ذلك الرجل قائد يخوت ذا موهبة غير عادية، بل كان بحاجة إلى المال وكانت لديه خطة ما. وبعد فترة مناسبة من الوقت حدد يخت موقعه وعاد متثاقلاً إلى أرض الوطن، وكان فائزاً بلا منازع. وفي أعقابها جاء كروهيرست في المركز الثاني. والغريب أن قارب الفائز كان محطماً وكان قارب كروهيرست في أحسن حال! تجمعت الجماهير لتحيته ولكنه لم يدخل الميناء. وفي النهاية عثرت طائرات البحث

على يخته مهجوراً فى عرض البحر - كان هناك براد على الموقد نون أن يكون هناك ما يدل على زعر أو كارثة.

وفى النهاية حل اللغز. فمن خلال دراسة سجل الملاحة وغيره من السجلات اكتشفوا أنه بينما كانت سائر اليخوت تشق طريقها حول العالم، أبحر كروهيرست إلى داخل المحيط الأطلنطى وانتظر حتى بات فوز أحد المتسابقين مضموناً. وبعد ذلك أمسك بدفته واتخذ طريقه فى البحر عائداً إلى حيث بدأ ليفوز بالمركز الثانى. وعندما وجد نفسه فجأة فى المركز الأول، أذهلته ضخامة الموقف. ولأنه عجز عن الاعتراف بخدعته أو العيش مع كذبتة، فقد فعل الشئ الوحيد الذى أمكنه القيام به وقفز من على اليخت فى الماء.

وفى بعض الأحيان، وربما فى أغلبها، لا نعرف الإجابة أبداً. كانت السفينة "هوم سويت هوم" Home Sweet Home فى منتصف الإبلاغ عن موقعها لراديو بيرمودا حين انقطع إرسالها فجأة. وحتى يومنا هذا لم يعثر للسفينة ولا لطاقمها على أثر.

والبحار على علم تام بهذه الأخطار. وهو على علم تام بالأعماق الرهيبة والمخلوقات المجهولة القابعة فى تلك الظلمة الباردة المضغوطة فى تلك المحيطات الضخمة. وهو على علم بخطر العاصفة والتحطم الذى ينتظر كل من يصير على اتباع البحر. فهو يحاول على مر الزمان تفسير المجهول والتعرف عليه، نون أن يستفيد من العلم. وقد جرب طرقاً ووسائل لإدارة سفينته، وللعيش فى تناغم مع الأماكن القريبة التى يغطيها الماء مع أخيه الإنسان، ولقراءة الطقس والتحكم فيه. كما حاول نون حرفة الكتابة أن يحفظ ذكرى الأحداث التى وقعت فى البحر - فى بعض الأحيان إحياء لذكرى بطل عظيم، وأحياناً أخرى لعرض أصناف الحمق. وهذا كله فولكلور. ولأن البحر عنيف، فإن ماثورات البحر كثيراً ما تتسم بالعنف. وحيثما تكون الأعمال العادية بطولية، تكون الأعمال البطولية خارج مجال التصديق.

وتشبه حياة الفولكلور البحرى حياة الموجة العارمة. فمياه البحر تتجمع، وتعلو وتعلو، ثم تبلغ أعلى ارتفاع لها وتندفع فى اتجاه الشاطئ وتتحطم، ثم تعود القهقرى وتشكل نفسها من جديد. وكذلك الفولكلور ينبع من أحداث صغيرة تتجمع عليها أحداث

أخرى لبعض الوقت، ثم تتفتت تلك الكتلة، ولكن القطع الصغيرة تتشكل من جديد فى صورة مغايرة وتتكرر العملية.

وعند دراسة هذه المادة تتضح عدة أمور. فبعض جوانب الفولكلور البحرى من القدم بحيث قد تكون بداياتها فى مناطق معتمة فيما وراء التاريخ. ولأن الناس ليست لديهم خياشيم أو غيرها من المعدات التى تتيح لهم العيش فى البحر، فالإنسان على الدوام غريب إلى حد كبير على سطحه، والحيل التى يستعملها للبقاء عليه هى فى عمومها وليدة الأرض ومعدلة أو منفذة بحيث تتلاءم مع المشهد البحرى. ويبدو أن الكثير من الماثورات البحرية الخاصة بالجزر البريطانية تعود أصولها إلى معتقد كلتى أو جرمانى. بينما يبدو أن معظم أساس تراث العالم الجديد البحرى يقوم على الماثورات الإنجليزية الإسكوتلندية الأيرلندية مع وجود طبقة على السطح من التراث الأفريقى. وقد طُعّم هذا الأصل بماثورات تعود إلى كل جنسية ارتادت البحر من قبل.

والصفحات التالية محاولة لتسجيل نماذج من جوانب الفولكلور البحرى العديدة. وقد بذل جهد لتتبع المادة فى اتجاه المصدر، ولتقديم أسباب قبول البحارة لها، ولافتراض بضعة قواعد بشأن الفولكلور البحرى، ولحفظ العادات والمعتقدات والتقاليد التى قد تكون أقرب ما تكون إلى الاندثار مما نتصور لبضع سنوات على الأقل. إن هذا الكتاب هو إلى حد ما نوع من تاريخ البحر بعيون شعبية.

أعيدت صياغة كثير من الحكايات، فى حين رويت حكايات كثيرة أخرى حرفياً. ويرى أى محافظ أن العبث فى النص جريمة شنيعة. لكن باحث الفولكلور يستخدم الفولكلور لأغراض عدة. وغرضى هو العنصر الجمالى الذى فيه. ومع أن عالم اللغة وعالم النفس قد يستقى معلومات من ضعف ذاكرة الإخبارى، ومن الأصوات المصاحبة للكلاب التى تنبح، ومن الأطفال الذين يصرخون، والإخباريين الذين يسعلون ويصقون ويعطسون، فهذا الأشياء غالباً ما تصرف الانتباه عن فنية الحكاية. ورواية إحدى الأساطير أو الحكايات الشعبية فن رفيع، إلا أنه ليس فناً ينتقل بسهولة إلى الصفحة المطبوعة، ذلك أن الكتابة فن مختلف. فحين تعاد صياغة حكاية من الحكايات، فإن التغييرات غالباً ما تكون فى مجال علامات التصنيف والأشياء المصاحبة التى تصرف

الانتباه. فهناك محافظة على إيقاع الحكاية والتزام إلى حد كبير بالمفردات. وحين تُصنع نقاط أو تعابير بارزة أو تُستخدم فإنه يحافظ عليها. والحكايات المروية حرفياً هي في عمومها تلك الحكايات التي تجد سعادة في تعديلها إلى الشكل المطبوع.

ومن المؤكد أن هذه المجموعة من المادة والتأويلات المستمدة من المجموعة المختارة لن ترضى الجميع، إلا أنه من المأمول أن تكون باقية بحرية قد جُمعت مع بعضها حيث يمكن لمعظم القراء أن يجدوا على الأقل زهرة يقولون إنها خاصة بهم.

الفصل الأول

بناء السفن

أتمنى ألا تكون لى صلة بأية سفينة لا تبهر بسرعة،
ذلك أتمنى أعزم النهاب فى طريق الأضرار.

جون بول جونز^(١)

بقليل من الحظ سوف يطفو كل شىء تقريباً، بل ويقطع مسافات كبيرة فى البحر. فقد عبر المانى المحيط الأطلنطى فى زورق من الجلد (كاياك)، وأبحر أمريكى فى قارب طوله اثنا عشر قدماً من أمريكا الشمالية إلى أوربا (إنجلترا على وجه التحديد). وهناك احتمال لإنجاز رحلة بحرية كبيرة فى حوض استحمام (بانيو) إن سُدَّت فتحة، وإن ظل الطقس على اعتداله. والواقع أنه لا تزال هناك أسطورة متداولة فى أيرلندا تقول إن قديساً قام برحلة بحرية عبر البحر الأيرلندى إلى إنجلترا على شاهد قبر، بينما قيل فى نيوفاوندلاند Newfoundland إن صبيين كانا يذهبان إلى جزيرة جيرزى Jersey فى عطلة نهاية الأسبوع على شبكة موقد^(٢).

إلا أن العامة ليسوا متأكدين من أن أى شىء سوف يذهب إلى البحر ويعود. فهم يعتقدون أن تصميمات وترتيبات بعينها لأشعة السفن أفضل من غيرها بالنسبة للرحلات البحرية. ففي المقام الأول يبدو أن التصميم الشعبى يهدف إلى واحدة من ثلاث خواص: بناء قارب من القوة بحيث لا تتغلب عليها الرياح العاتية، ومن الخفة بحيث يقفز فوق أشد البحار اضطراباً، ومن السرعة بحيث يفلت من العاصفة. ويعتمد تبني مجموعة شعبية بعينها لأى من هذه الأفكار من ناحية على الظروف السائدة التى تعمل

فيها، ومن ناحية أخرى على الغرض الذي من أجله تستخدم سفنها. والقول بأن إحدى السفن المصممة لغرض ما وظرف من الظروف يمكن أن تعمل بنفس القدر من الكفاءة في ظرف غيره تثبته حقيقة أن القبطان جيمس كوك(*) James Cook بدأ رحلته الشهيرة الخاص بالاكشاف في سفينة فحم! (٢).

بل إن هناك العديد من العوامل الأخرى التي تؤدي إلى تعديل ثلاثة مفاهيم أساسية لتصميم السفن. وهذه المفاهيم هي ظروف البحر السائدة في المنطقة، وحجم الموانئ وأعماقها، والمواد المتوفرة لبناء السفن. ففي بحر البلطيق وفي أنحاء إسكندنافيا، حيث ينتشر الجليد طوال شهور الشتاء، من الشائع أن نجد المقدمة وكل الجزء الذي تغمره المياه من بدن السفينة قد جُدد بالخشب الحديدي. وحيثما تكون الموانئ عميقة وكبيرة، تبنى سفن كبيرة، بينما في أماكن مثل جزر شولز IIs of Shoals في نيوهامبشاير Newhampshire أو نومانز لاند بولاية ماساتشوستس No Man's Land, Massachusetts، حيث لا وجود للموانئ، كانت السفن صغيرة وتبنى بحيث تكون بها عين كي تسحب بالأيدي أو بالثيران بعد استخدامها. وقد لا ينكر أحد أن أخشاب الساج أو الماهوجنى أو الأرز أو العزيزى هي أوفر الأخشاب لصناعة السفن، وكان من حسن حظ سفينة نوح أنها صنعت حيث تنمو أشجار الأرز. وحيثما كانت تلك الأخشاب غير معروفة أو غير متاحة أو نادرة، كان الناس يستفيدون من أفضل المواد المحلية، وعادة ما كانوا يجدون الأسباب لتبرير اختيارهم لـ "أفضل الأخشاب".

ويرى الناس أن الحياة في البحر غير مستقرة وهم يسعون بكل السبل لإقناع أنفسهم بأمان صنعتهم، ويستخدمون كل وسيلة تخطر ببالهم للحد من خطر الحياة في البحر. ولتحقيق هذه الغاية، تقول كل جماعة من الناس ترتاد البحر إن ذلك النمط بعينه من الصنعة التي يستخدمونه هو الأفضل، وهم يروون من الحكايات ما يثبت ذلك. والواقع أن هذا الموقف أمر مُنتظر؛ فما الذي يجعل البحار ذا التفكير الصائب يرتاد

(*) بحار ومستكشف بريطاني (١٧٢٨-١٧٧٩) قاد ثلاث رحلات استكشافية وضع خلالها خرائط وأسماء الكثير من الجزر في المحيط الهادى. كما أبحر بمحاذاة ساحل أمريكا الشمالية حتى مضيق بيرنج شمالاً (المترجم).

البحر فى سفينة سيئة إذا توفرت السفينة الأفضل منها؟ والسبب نفسه، من ذا الذى لديه استعداد لأن يبني سفينة أدنى من غيرها؟

على سبيل المثال، هناك حكاية عن جزيرة بلوك آيلاند Block Island قبالة رود آيلاند Rhode Island تتحدث عن سفنها مسطحة القاع من طراز قرن البقر - وهى سفن كبيرة مصنوعة من ألواح متراكبة ذات ساريتين يمكن رفعهما على الشاطئ بعد الصيد، ذلك أن بلوك آيلاند لم يكن بها ميناء مناسب منذ سنوات. وطبقاً لما تقوله الأسطورة، كانت تلك السفن مناسبة لأسوأ طقس، ولم يفقد أحد أبناء بلوك آيلاند قط وهو على متن إحداها.

وفى وقت ما من تسعينيات القرن التاسع عشر، كان ثلاث عشرة من سفن قرن البقر تقوم بالصيد فى كوكسز ليدج Cox's Ledge (وهى مكان يفضل أهل الجزيرة الصيد فيه) حين هبت ريح عاتية. تناثرت السفن فى أنحاء البحر، ولكن الطقس هدأ فى النهاية وعادت الواحدة تلو الأخرى إلى أن عادت اثنتا عشرة سفينة بعد عدة أيام. ولم تعد السفينة الثالثة عشرة وانتهى أهل الجزيرة إلى أن طاقمها قذفت به الريح بعيداً فى البحر، ثم رسوا فى مكان ما وقرروا البقاء هناك. فلم يكونوا قط من المفقودين. وهذه الحكاية نهايتها لافتة للانتباه.

وتبدلت الأوقات وشيئاً فشيئاً عفا الزمن على هذا النوع من السفن واختفى من على الساحة، إلا واحدة زعموا أنها شُقت نصفين ووضعت مقلوبة واستخدموها لتدخين الأسماك. ورسم قائد يخوت اسمه لورينج Loring هذه السفينة وصنع سفينة قرن البقر فى خليج ناراجان ست Narragansett. وأبحر هو وأحد أصدقائه إلى بلوك آيلاند. وفى الطريق تجمع هناك ضباب كثيف وضلا الطريق إلى الجزيرة، وعندما صفا الجو وصلا إليها من ناحية الجنوب.

وكان من عادة كبار السن فى الجزيرة مراقبة مرور السفن من الفنار الجنوبى القديم، وعندما انقشع الضباب رأوا سفينة قرن بقر تقبل عليهم. وعندما رسا لورينج كان هناك حشد كبير من أهل الجزيرة عند المرسى للترحيب بمن اختفوا قبل سنوات (٤).

ومعظم السفن الحديثة يصممها مهندسون بحريون، وتختبر في معهد ستيفينس Stevens Institute أو غيره وتصنع في ترسانات مجاورة لوسائل النقل والمياه والقوى العاملة. وفي الغالب - على الأقل داخل الولايات المتحدة - لا تعلم نسبة كبيرة ممن يبنون السفن شيئاً عن بناء السفن. فهم مجرد لحامين، أو سباكين، أو كهربائيين يعملون في شيء من الأشياء. وفي المجتمع الشعبي لم يكن الأمر على هذا النحو. فقد كان كل شيء يتم حسب التقاليد وله طقوسه (٥).

في جامايكا Jamaica يصنع صيادو الأسماك المحليون الآن قوارب من جنوع أشجار التوت المحفورة. ويصل طول بعض هذه القوارب إلى أربعين قدماً [١٢] متراً وحتى قبل قطع الشجرة هناك بعض المراسم التي لا بد من القيام بها. ومن بين هذه المراسم نثر الدم والأرز والروم (*) لترضية ثلاثة أنواع من الأرواح يعتقدون أنها تسكن هذه الأشجار بالذات. وما إن تؤدي هذه المراسم - حيث تودع الأرواح مثواها الأخير - حتى يوقعون الشجرة ويشقونها ويجوفونها بالآزاميل. وبعد أداء مراسم أخرى تعتبر آمنة للمخاطرة بها في البحر (٦).

وقديماً كانوا قبل أن يبنوا إحدى السفن في معظم المجتمعات الشعبية، من باكي Buckie في إسكوتلندا إلى كاريأكو Carriacou في جزر الهند الغربية، يختارون موضعاً للبناء يبدو ملائماً، وكانوا يحرصون على تطهير الموقع. وإذا كان موقع التصنيع مجاوراً لمكان الإطلاق وللأخشاب، كان ذلك من حسن الحظ. ولكنهم كانوا يختارون الموقع لأسباب غير السهولة واليسر. وبعد ذلك يطهر الأرض كاهن أو أحد رجال الدين. وكان هناك حرص على تطهير المنطقة من الآثار الشريرة ولم يكن البناء يبدأ حتى تبدو أمارات التطهير. فعلى سبيل المثال، كانوا يعتقدون في إسكوتلندا أنه من الأحسن بدء البناء في يوم مشرق المد فيه جيد والرياح غربية. وكانوا يأملون في ظهور الفأل - الأغنام التي تقف على التل، وطيور النورس التي تحوم فوق الميناء، وخنازير البحر التي تلعب في الميناء، وغيرها وغيرها. وفي العصور المسيحية كان يوم الأربعاء أفضل الأيام جميعاً - ولا بد أن نتذكر أن يوم الأربعاء في العصور الوثنية كان هو يوم وودن

(*) مشروب كحولي يستقطر من مولاس قصب السكر المتخمر (المترجم).

Woden، ذلك الإله الأعلى الذى يعيش فى الغابة، وكان ينظر بعين الرضا إلى الأعمال التى تؤدى فى يومه. وكان لابد أن يكون القمر بدرًا أو "قيد التكوّن"، وهو ما يذكرنا مرة أخرى بالاعتقاد فيما قبل المسيحية فى قدرة القمر وتأثيره على البحر والأشياء التى تسير عليه. وهنا فقط قد يظهر الشامان أو رجل الدين ليؤدى الصلوات أو يقدم الأضحية الخية، بينما يضع الصالب(*) (من خشب خاص) من يُعتقد أنهم جديرون بأداء هذا العمل.

إذا كانت تلك أوقات طيبة للبناء، فقد كانت هناك أيام سيئة كذلك. فلم يكن هناك من يرغب فى البدء فى اليوم الثالث عشر من الشهر، وهو اليوم المرتبط بيهودا سيئ السمعة ويحمل رقمًا سحريًا، أى لا يقبل القسمة على اثنين؛ ولا فى يوم الخميس Thursday (وهو يوم ثور Thor إله الرعد والعواصف)؛ ولا يوم الجمعة Friday (وقد أخذ اسمه من فرييا Freya **) رئيسة الفالكيرات Valkyries (***) وكان المسيحيون الأوائل يظنون أنها ساحرة). وكانت الرياح الشرقية وشدة تكسر الأمواج على الشاطئ وعدم وجود طيور تنذر جميعها بوقوع أذى للسفينة. وكان من المأمول كذلك أن يبتعد عن الموقع النساء (وخاصة العذارى) والخنازير والأرانب وأصحاب الأقدام المفلطحة والحوال. وكان المجانين والساحرات - وباختصار كل من لا يعتبرهم المجتمع "أسوياء" - يبعدون عن المكان لئلا تدخل الأرواح الشريرة بدن السفينة الذى يكبر شيئًا فشيئًا بطريقة أو بأخرى، ذلك أنهم كانوا ينظرون فى المجتمعات الشعبية إلى كل ما هو شاذ على أنه بفعل الأرواح الشريرة.

مع أن السفن فى المجتمعات الشعبية تبنى فى الغالب طبقًا لأشكال وتصميمات تقليدية - حتى إن القارب الأيرلندى الصغير curragh يبدو للعين غير المدربة مثل قوارب

(*) عتبة أو مجموعة عتبات من الخشب موصل بعضها ببعض على طول خط المنتصف فى قاع السفينة من مقدمتها إلى مؤخرتها تثبت فيها الأطر الإنشائية وألواح البدن (المترجم).

(**) إلهة الشباب والجمال والحب والجنس فى الأساطير الإسكندنافية (المترجم).

(***) بنات كبير الآلهة أودين فى الأساطير الإسكندنافية وهن شرسات. كما أنهن يحملن من يسقطون فى المعارك إلى فالهالا (قاعة مقدسة لمن سقط من الأبطال فى المعارك فى العالم الآخر) ويمكنهن التشكل على هيئة غريبان سود أو نئاب (المترجم).

ويلز الجلدية القديمة فى العصور الرومانية - فإن هناك اختلافاً فى التصميم من مجتمع لآخر. فقد كان كل ميناء فيه كبير للبناءين يضع الرسومات ويشرف على البناء. واكتسب هؤلاء شهرة لبنائهم سفينة قادرة أكثر من غيرها على خوض البحر، أو أسرع من سواها، أو تقسم بقدر من الراحة أكثر من أية سفينة أخرى فى المجتمع. إلا أن شهرتهم لم تكن تقوم دائماً على تعديلهم لتصميم أو لمهارتهم فى النجارة. ولبيان ذلك، روى لى البروفيسور جورج كارى George Carey حكاية كان قد جمعها من الساحل الشرقى فى ميريلاند Maryland :

منذ سنوات بعيدة فى إسكوتلندا، وبالقرب من بلدة تسمى إنفرنس Inverness، كان رجل يسير على الشط حين سمع نواحاً غريباً. وحين نظر حوله رأى عروس بحر جالسة على إحدى الصخور. كان المد قد انحسر بينما المخلوقة المسكينة محبوسة على الشط تصطلى فى حر الشمس. اقترب الرجل من السيدة ذات الذيل واستفسر منها عن المشكلة. قالت له إنه إذا أعادها إلى البحر فسوف تحقق له أية أمنية يتمناها، وبعد تفكير قال الرجل "أريد أن أبني سفناً لا تفرق أبداً ولا يفقد منها أى رجل." وافقت عروس البحر وأعيدت إلى البحر. كان ذلك منذ قرن مضى، وحتى يومنا هذا ما من سفينة بناها ذلك الرجل أو أحد من عياله فقدت أو غرق منها رجل.

وتقع إنفرنس عند رأس خليج موراي Moray Firth، وقد سألت القبطان بوكان Bochan من سانت كومبس St. Coombs، وهى كذلك على خليج موراي، إن كان قد سمع أى شئ كهذا. ورد القبطان بأنه لم يسمع هذه القصة، إلا أنه يعرف أنه منذ أكثر من مائة سنة لم تفقد سفينة ولا رجال ممن فيها ببلدة باكى Buckie حيث تمتلك عائلة تسمى جونز Jones ترسانة لبناء السفن. وهذه السفن عليها طلب من أنحاء الخليج. ويمكن الإشارة إلى أن باكى تبعد حوالى خمسين ميلاً بحرياً فقط عن إنفرنس. والواقع أن "سفينة من باكى ومحرك جاردنر Gardner" هما نموذج ما يتمناه معظم الصيادين الإسكوتلنديين (٧).

وحتى العصور الحديثة، لم يكن لدى الإنسان أى علم بأسباب أو كيفية عمل السفينة فى واقع الأمر، أو كان علمه بذلك قليلاً. فعادة ما يعدل التصميم بناء على التجربة والخطأ باستخدام المواد المتاحة. والطريقة التى تدفع بها السفينة ونوع العمل

الذى تُشرك فيه يحدده التصميم. ويمكن استخدام الخشب فقط فى السفن ذات الطول المحدود وإلا انشطرت السفينة؛ وكان لابد أن تكون السفن التى تستخدم فيها المجاديف منخفضة كي يتمكن المجدفون من بلوغ الماء؛ وكان لابد أن تكون السفن التى تحمل شحنات كبيرة فى رحلات طويلة عريضة وبها مساحة إضافية للتخزين؛ ويمكن أن تكون السفن التى تطفو ذات "سيقان طويلة" (غاطس عميق)، بينما تلك المصممة بحيث "تجفف" للتفريغ فعادة ما تكون قيعانها مسطحة وغاية فى القوة.

وعادة ما كانوا يعتبرون بدن السفن الشراعية منصة لدعم الأشرعة. وكانوا فى البداية يظنون أنه كلما ازداد عرض المنصة كان احتمال انقلاب السفينة أو دفنها فى البحر أقل. ولكن عرض البدن قل شيئاً فشيئاً وقُرِبت الأشرعة من المؤخرة، وعمُقت السفينة. وبهذه الطريقة توفر قدر أكبر من السرعة والثبات، وكانت النتائج النهائية سفن منتصف القرن التاسع عشر السريعة الضخمة من طراز قلاب clippers والسفن الشراعية ذات الشراعين أو أكثر من طراز سكونة schooners التى ظهرت فى نهاية ذلك القرن وبداية القرن العشرين.

وربما كان أكبر شيئين يخيفان كبير بنائى السفن هما "الانغمار" (أى أن تكون مقدمة السفينة تحت مستوى الماء وتغرق) أو "الالتطام" (أى تلطم الأمواج الضخمة ومؤخرة السفينة). ولمنع ذلك رفعوا مستوى المقدمة والمؤخرة إلى حد كبير، حيث نجد أنه بحلول العصور الوسطى جرى "تحصين" المقدمة والمؤخرة على السفن لمنع المياه وكذلك لتصبح منصة يمكن من عليها إطلاق الرماح والحجارة والسهام فى حال هجوم العدو.

حدثت تلك التغييرات شيئاً فشيئاً على مر القرون، وهى إلى حد كبير نتيجة لتغير فى قوة الدفع من المجاديف إلى الشراع، ولتطور الموانئ، حيث يمكن للسفن أن تظل طافية بأمان، والرغبة فى قطع مسافات أطول بحمولات أكبر. ومع ظهور ما أسماها ديل رينيس Del Raines من جزيرة ماتينيكوس بولاية مين Matinicus Island, Maine آلة الاحتراق الداخلى الخالدة كانت التعديلات التى أدخلت على التصميمات الشعبية تجرى بسرعة كبيرة. ونتيجة لذلك يمكن ملاحظة التطور السريع بعض الشيء فى تصميم قوارب الإستاكوزا فى جزيرة كرانبرى بولاية مين Cranberry Island, Maine كمثال مصغر للعملية الأكبر كلها.

وكما ذكرنا من قبل، فإنه حين كانت تجرى التغييرات لم يكن الذى يجريها أياً من كان، بل يجريها كبير البنّاعين فى المجتمع المحلى الذى كان يغير قوالبه من ناحية، على الأقل، لإرضاء المالك المرتقب أو تطيبب خاطره، ومن ناحية أخرى لإرضاء حب استطلاعهم هو وحاسته الجمالية - وكان على الدوام بالطبع يعمل فى إطار خطة تقليدية أكبر. كان ذلك الرجل هو آرثر سبرلينج Arthur Spurling (المعروف محلياً باسم "القبطان أرشى" Capt'n Archie) كبير بنائى السفن فى جزيرة كرانبرى، الذى أمضى جل حياته فى بناء السفن لجيرانه. وفى حوزتى نصف نموذج تؤكد التغييرات التى طرأت عليه الوصف التالى لكيفية ظهور سفن الإستاكوزا.

فى يوم من الأيام أراد أحد جيران القبطان أرشى صنع سفينة. نحت سبرلينج فى ورشته نموذجاً لسفينة من طراز قرن الفاصوليا مستعملاً قطعة من خشب التنوب بمقياس نصف بوصة لكل قدم. وكان المصمم يرى النموذج كاملاً لا نقص فيه، إلا أن المشتري المنتظر اشتكى من أن جزءاً أكبر من اللازم من البدن سيكون مغموراً فى الماء. وفكر سبرلينج لبعض الوقت ثم لصق قطعة من الخشب على المقدمة. وبعد أن أَرْضى التعديل العميل، صنع سبرلينج باترونًا لخطوط النموذج مستخدماً قطعة من الرصاص اللين على أرضية المخزن بالحجم الطبيعى. ومن هذه الرسومات المفرودة بنى السفينة.

أراد عميله التالى سفينة تفوق تلك التى انتهى من بنائها للتو. ولأن المصمم كان يعلم أن السفينة الشراعية الأقل عرضاً أسرع من العريضة، فقد أبقى على المقدمة كما هى ولكنه جعل البدن أقل عرضاً. وبعد تجربة السفينة، ذكر المالك أنها رغم جفافها كانت تسير سيراً غير مريح ولم تكن أسرع من السفينة الأولى. ولذلك اختبر أرشى نموذجه ووضع فى اعتباره كل ما يعرفه قبل أن يبنى السفينة التالية. فلم يستطع تعلية المقدمة وجعل السفينة "تبدو صحيحة". وبدلاً من ذلك فرغ المقدمة. وبعد أن استنتج أن السفينة ذات القاع المستوى والمقدمة المدببة skiff تسير أبطأ من قرن الفاصوليا، فقد سطّح قاع السفينة وعمّق الصالب. وأثبتت السفينة الجديدة أنها أسرع من نموذجها الأصلى وأجف وأكثر استقراراً منه. والواقع أن السفينة حققت من النجاح ما جعله يبنى عدداً من السفن طبقاً لهذا النموذج، وكان كل منها به تعديل طفيف عن الأخرى.

وأخيراً صنع سبرلينج نصف نموذج آخر. وبدلاً من مؤخرة الكانو canoe (المديبة) كانت لها مؤخرة قائمة تتحدر في اتجاه سطح السفينة، ذلك أن سبرلينج كان يخشى ما سيحدثه البحر في المؤخرة المربعة. وأثبت هذا النموذج أن سرعته ضعف سرعة النماذج التي سبقته، ولكن لأنه اعتبر المؤخرة قبيحة المنظر، ولأنه وجد أن البحر لم يزعجها، فقد أخذ يقومها شيئاً فشيئاً حتى أنتج في النهاية تصميماً نعتبره تقليدياً في الوقت الراهن. وكان كل تعديل يزيد السفينة جمالاً على جمال وكفاءة على كفاءة؛ ذلك أنه يبدو أن الجمال والكفاءة يسيران جنباً إلى جنب في تصميم أية سفينة. وكانت النتيجة سفينة غاية في القدرة والجمال (٨).

قديماً كان البناء يقوم على قياس تقريبي. وفي نيو بدفورد بولاية ماساتشوستس New Bedford, Massachusetts، ومنذ نصف قرن مضى، كان يعيش برتغالي عجوز كانت له شهرة كبيرة في بناء سفن الصيد. وضاع اسمه الحقيقي في الماضي، ولكن طبقاً لما قاله آل بافينجتون Al Buffington من تيفرتون برود آيلاند Tiverton, Rhode Island، كان معروفاً بين الناس باسم القبطان سكاب Captain Scub وكان له مساعد يسمى لوى Louie. وكان الرجل العجوز يدور باستمرار حول السفينة مدققاً النظر فيها. وكان يقول من حين لآخر "اضربها مرة أخرى يا لوى، فهي عمودية أكثر من اللازم". ويصدع لوى بما يؤمر به ويضرب الخشب البارز بمطرقة وتمضي عملية البناء.

حتى في أيامنا هذه يوجد الكثير من لغز التصميم في عقل المصمم المحلي. فبدلاً من اللجوء إلى الصيغ المعقدة التي يستخدمها المهندسون البحريون لتحديد غاطس أية سفينة، يمضي بناء السفن المحليون في نونفا سكوشا Nova Scotia وجزر الهند الغربية بعض الوقت وهم يتجولون بلا هدف حول بدن السفينة. وبعد ذلك يرسمون الغاطس بالعين، وعندما تدشن السفينة تحتاج فقط إلى حد أدنى من التعديل في الصابورة(*) لجعلها "تطفو حسب خطوطها" (٩).

(*) مادة ثقيلة كالرصاص أو الحديد أو الماء توضع في قاع السفينة لتحديد الغاطس والحفاظ على توازنها (المترجم).

ما قيل من قبل عن كبير البنّاعين يمكن أن يقال كذلك عن طاقمه. فقد كان هناك رجال بعينهم مسئولين عن أعمال معينة، وغالباً ما كانوا يرثون ذلك عن آبائهم. وكانوا يصنعون أدواتهم أو يرثونها ولا يسمحون لغيرهم باستعمالها. وكان بعضهم نجارين أو صانعي أشربة أو مقلّطين(*)؛ وكان بعضهم نحّاتى سفن يقومون بعمل نقوش محفورة على مقدمة السفينة وألواح المؤخرة ويزينون دعامة صاري المقدم فى السفن الكبيرة. وفى فيرهابن بولاية ماساتشوستس Fairhaven, Massachusetts كان هناك رجل عجوز يسمونه "سبايلر بيت" Spiler Pete لم يكن يفعل شيئاً سوى تحديد الألواح التى توضع فى السفن، وهو ما كان يفعله والده من قبله.

تكونت على مر السنين مجموعة غاية فى الدقة من المصطلحات عن كل جزء من السفينة، حتى بات لكل لوح ولكل قطعة خشب فيها اسم وصار كل نمط من أنماط البناء مميزاً. وإذا بدأنا من أسفل لوجدنا الصالب والصالب الوهمى والمؤخرة والخشب القرنى والقوادس القاعية والصفائف العلوية وألواح الشيطان وألواح المضرب، والخشب الميت، والقلطاط ومسامير الشجر. وبعض السفن ذات حائف صلب وبعضها ذات هيكل مستدير، وهكذا. والشئ اللافت للانتباه هو أن الكثير من هذه الأجزاء تصنع من مواد خاصة.

وفى سفر التكوين يروى لنا بقدر كبير من التفصيل أن سفينة نوح بنيت من كميات ضخمة من خشب الأرز(**). ونعلم أن السفن فى مصر كانت تصنع من البردى منذ آلاف السنين. والواقع أن كل مادة تقريباً، بما فى ذلك الأسمنت، استخدمت فى صناعة السفن، إلا أن التمهّص الدقيق للمواد سوف يكشف أن الخشب لم يختار لصناعة السفن لأسباب إنشائية بالكامل أو لأنه متوفر فى موقع البناء. مع أن هذه الأسباب تعطى ولا شك وزناً لتحديد النوع المستخدم - فهناك سبب آخر بالإضافة إلى ذلك. لماذا لم يستخدم أى أرز آخر فى صنع سفينة نوح بدلاً من ذلك الآتى من لبنان؟

(*) يسدون الفجوات التى بين الألواح باستخدام الحبال والقار (المترجم).

(**) "اصنع لنفسك فلكاً من خشب جُفْرٍ: التكوين: ٦-١٤ (المترجم).

أكثر أنواع الخشب المستخدم فى صنع السفن انتشاراً الآن هى الماهوجنى والساج والأرز والعزيزى. ويقاوم الأرز، التى يتميز بكونه خفيفاً وينتفخ، الحشرات. أما الساج فلا ينتفخ ويقاوم الحشرات والانتفاخ. والماهوجنى خفيف وقوى وألواح عريضة ولا يمكن الاستغناء عنه عند تشكيل الألواح كى تتلاءم مع البدن المنحنى. أما العزيزى فرخيص وقاسى ومقاوم للماء. ولكن الأرز يتسم بكثرة عقده ولينه، والساج بثقله وسهولة تكسره، والماهوجنى بصعوبة تشغيله ولينه، والعزيزى بخشونته وثقله.

ولننظر إلى سفينة تقليدية بنيت فى إحدى المناطق الشعبية فى أمريكا. لنفترض أن المواد متوفرة، وسوف تكون المؤخرة والصلاب والأطر من خشب البلوط الأبيض. سوف يكون الخشب القرنى من النيرية (ويسمى أحياناً الخشب الحديدى)، والركب من التفاح، والكمرات الطولية من الدردار، والقُمط والأرفف من التتوب، والسطح من السرو، والألواح من العزيزى. وإذا استخدمت التثبيتات الخشبية (مسامير الشجر)، فستكون من الخروب، بينما يصنع القلفاط من العزيزى اللين. وفى بعض الأحيان تكون الصفائف العلوية من البلوط، وتحفر الزخارف على خشب شجر البهشية إن توفر.

إذا سألت بناء السفن عن هذه المواد سيقدم لك أسباباً عملية لاستخدامها. فالخشب قاس، ويقاوم الماء، وذو انحناء طبيعى، وخفيف جداً... إلخ. وسيقول لك بناء السفن كذلك إنه يستخدم نفس المواد التى كان جد أبيه يستخدمها لصناعة السفن. فهو يستخدم مواد تقليدية. وسوف يكشف التمهيص الدقيق لهذه الأخشاب المختلفة أن الناس قديماً كانوا يظنون أن لها صفات غيبية. فقد ربطوا التفاح والبهشية بالجنيات؛ وكان البلوط والصنوبر أشجاراً ذات أهمية خاصة للمعبودات الوثنية. ولكى لا يظن ظان أن هذا يعود إلى فترة بعيدة من الزمن، لنأخذ مثلاً واحداً لبناء السفن فى خليج تشيسابيك Chesapeake Bay كمثال توضيحى.

الجوز الأسود خشب غنى يسهل تشغيله وهو مقاوم للماء. وينمو شجر الجوز الأسود مستقيماً ويعلو كثيراً وغالباً ما يكون قطر الشجرة ثلاثة أو أربعة أقدام. وفى بعض الأحيان يمكن استخراج ألواح بطول ثلاثين قدماً من الجذع بون أن تكون فيها عقدة واحدة. ومع أنه نادر الآن، فقد كان شائعاً فى وقت من الأوقات على شواطئ

خليج تشيساويك. وكان صانع السفن يراه خشباً مثالياً، إلا أنه كان كذلك وليس هذا هو حاله الآن.

اشترى بحار قارباً ذا قاع مستوى ومقدمة مدببة بخمسة دولارات. ومنذ اليوم الذي اشتراه فيه وهو لم ينل منه سوى المشاكل. فقد غرق، وتفككت ألواح، وسُرِق، وتسرب الماء إلى داخله؛ وكلما خرج فيه كانت تحدث مشاكل. لم يصطد سمكاً، وضاع المجدافان، وهبت عاصفة. وأخيراً قرر إعادة دهانه وأزال بعض الدهان. وكان القارب مصنوعاً من خشب الجوز الأسود! لقد فعل الشيء الوحيد الذي يمكنه عمله - وهو بيعه لأحد السياح (١٠).

وكان للجوز الأسود في هذه المنطقة سمعة سيئة بحيث لم يكن من الواجب صنع السفينة بكاملها من هذه المادة منعاً للمشاكل. وقد صنع رجل كرسيًا منه وابتلى بمصيبة. كما أعيد قارب إلى حالته الصحيحة بعد اكتشاف أن أحد السناجب أخفى بعض الجوز الأسود على متنه. وهناك حكاية ربان كان على إحدى السفن وهو في طريقه بحمولة إلى أنابوليس Annapolis. طلبت منه إحدى السيدات أن يأخذها معه. وافق الرجل وصعدت السيدة على السفينة ومعها كيس من الورق. وما إن خرجوا من الخليج حتى هبت ريح عاتية. ومهما كان الاتجاه الذي حاول القبطان السير فيه كانت الريح تهب عكسه، واضطرب البحر حتى بدا أن الماء سيغمرهم ويغرقون. علم القبطان أن خطأ ما قد حدث وفي حالة من اليأس سأل المرأة عما في الكيس فقالت: "جوز أسود". وعلى الفور أمسك الربان بالكيس وأطاح به من على السفينة. هدأت العاصفة ووصلوا بسلام إلى أنابوليس متأخرين عن الموعد بضع ساعات (١١).

يرى العامة أن الجوز الأسود شجرة الفأل السيئ، ويُقال على الشاطئ إنها تجتذب الصواعق، وتقتل الماشية وتحرق المنازل. ولحاء الشجرة والجوز يوسخ يدك بشكل دائم. وهي ترتبط بصورة أو بأخرى بالشیطان. وتكمن أسباب جزء كبير من هذا في الشجرة. فالخشب لونه غريب - حيث يميل إلى القرمزي - وهو أثقل من أي خشب سواه. وينمو بسبب طبيعته طويلاً وغالباً ما يكون منعزلاً. ونتيجة لذلك يكون عرضة إلى حد كبير لأن تصيبه الصواعق. وبما أن الأبقار اعتادت الوقوف تحت الأشجار

أثناء العواصف الرعدية وهذه الأشجار توفر أكبر مأوى، فإن الكثير من الحيوانات تصيبها الصواعق تحتها. وحين تكون قريبة من أحد المنازل، غالباً ما تتحرف الصاعقة عن الشجرة وتسقط على المبنى. ومثلما يكتسب كلب نو اسم سيئ سمعة أنه يقتل الماشية، تصبح شجرة الجوز الأسود كبش الفداء لكل بناء سفن بائس وبحار أرعن فى البحر.

بشكل أساسى، فإنه منذ التخطيط المبدئى إلى التدشين النهائى، لا يمكن التغاضى عن أى شىء يمكن عمله لضمان نجاح وسلامة السفينة وطاقمها. ولتحقيق هذه الغاية يسير ما هو عملى وما هو غيبى جنباً إلى جنب؛ فقد حافظوا على الأساليب والمواد التقليدية، ولكن الاعتبارات العملية الخاصة بالزمان والجغرافيا عدلتها من أجل إنتاج أفضل سفينة ممكنة، طبقاً للرؤية الشعبية للأمور. وتوضح هذا بطريقة مثيرة للاستغراب حكاية شائعة فى لونتبرج Lunenburg بنوفا سكوشا عن بناء سفينة صيد السمك الشهيرة "بلونوز" Bluenose فى وقت سابق من هذا القرن [العشرين].

وضع رسومات هذه السفينة بيلى رو Billy Roue المهندس البحرى المشهور فى نوفا سكوشا، وقد نُقِذت فى لونتبرج، أشهر ميناء صيد فى المنطقة. وفى منتصف البناء تقريباً شعر كبير البناعين بقدر كبير من القلق وذهب إلى صاحب الترسانة. لم تكن السفينة من الطول بما يتناسب مع عرضها وغاطسها وكان لابد من تطويلها كي تتفق مع المواصفات التى يشعر الصيادون أنها جعلت لنوعيات الإبحار الجيد. وغلب رأى كبير البناعين وأضيفت أقدام عدة إلى السفينة (يقول البعض إن الإضافة كانت إلى المقدمة، ويقول غيرهم إنها شقت إلى نصفين وكان التطويل بين المقدمة والمؤخرة). وعلى أى الأحوال فقد دشنت، وحققت سجلاً رائعاً فى السعة تحت قيادة القبطان "باكى" والترز "Bucky" Walters .

فى النهاية بيعت خارج البلاد وفُقدت فى البحر. وقررت الحكومة الكندية، التى وضعت صورتها على عملتها، بناء سفينة على صورتها. فقد كان لديهم تصميم رو، واتبع بناء "بلونوز" الجديدة الرسومات بدقة. ودُشنت "بلونوز ٢". واستدعى القبطان والترز من التقاعد لقيادتها، ولكن السفينة الجديدة بدت مثل "البحار البليد" ولم يقترب

أداؤها بحال من الأحوال من أداء السفينة الأصلية. وسيقول لك الصيادون "السبب هو تلك الأقدام الإضافية" - ولكن لنعد مرة أخرى إلى عملية البناء.

بعد تجميع كل الناس وكل الأشياء تجرى مباركة الصالب (العمود الفقري للسفينة) ، في العصور المسيحية كان الذي يتولى ذلك قس أو كاهن يتلو الصلوات المناسبة. وفي أيرلندا كان ينثر كذلك الماء المقدس على الأخشاب أو يضع قنينة صغيرة من السائل الثمين على العارضة (وهو ما زال يحدث في خليج ملروي Mulroy Bay شمالى أيرلندا) قبل بدء التشكيل الفعلى للأخشاب (١٢).

يوضع الصالب بحيث يكون أحد طرفيه جهة الشمال والآخر جهة الجنوب. ومع أنه بالإمكان إرجاع السبب في ذلك إلى "الخرافة الفارغة"، فالواقع أنها - شأنها شأن معظم العادات الشعبية - تؤدي غرضاً مفيداً. أول كل شيء أن معظم السفن، وحتى الخشبية، يتكون لديها قدر معين من الجانبية المغناطيسية حين بنائها، مما يقتضى تعديل البوصلة. وحين تبني السفينة في الاتجاه الشمالى الجنوبى، تكون مغناطيسيتها متمشية مع الاتجاه الأمامى والخلفى ولا تحدث مشاكل انحراف البوصلة الذى قد يحدث لولا ذلك. بل إنه بما أن السفن كانت تبني في العادة في الهواء الطلق، فإنها حين توضع من الشمال على الجنوب تؤثر الشمس على جانبى السفينة بقدر من التساوى أكثر من وضعها من الشرق للغرب.

لم يكن الأمر يقتصر على تلاوة الصلوات ووضع الماء المقدس على الصالب عند بدء البناء، بل كانت هناك كذلك احتياطات أخرى تتخذ أثناء البناء لضمان طول حياة السفينة وصحتها ورفاهيتها العامة. وكانت تلك الاحتياطات عديدة ومتنوعة. ففي نيو إنجلاند كانوا يجعلون حاويات بين الأطر ويملئونها بالملح "للحفاظ على حلاوة الجمة(*)". ولنع التعفن الجاف. وفي إسكوتلندا، وبعد المباركة ووضع السفينة في الاتجاه الصحيح، كانت مهمة كبير البنّاعين أن يخفى قطعة نقود ذهبية "لجلب الحظ" في مكان ما من لحامات الصالب، ولا يعرف مكانها أحد سوى المالك وهو (١٣). ولم يكن ما يوضع

(*) الجزء المغمور من السفينة الواقع بين سطح قاعها والجوانب الرأسية المستقيمة (المترجم).

هو قطعة النقود الذهبية وحسب، بل فى بعض الأحيان كانوا يثبتون جنيهاً ذهبياً على العارضة الرئيسية فى السطح (طبقاً لما ذكره الإخبارى الإسكوتلندى).

وهناك احتمال كبير أن ذكرى هذا العمل بقيت فى نوع من المزاح الخشن الذى يتعرض له المستجدون فى سفن البحرية الأمريكية الذين يُطلب منهم أحياناً النزول وتلميع البرشامة الذهبية الموجودة فى أصعب جزء من الصالب يمكن الوصول إليه.

وما يشبه مسألة العملة الذهبية هو تلك الحكاية التى يرويها على جزيرة إينيشبوفين Inishbofin القبطان بادى أوهاالوران Captain Paddy O'Halloran .

كان من المفترض أن يكون القديس ليو St. Leo فى السفينة "شارك" Shark ولا أدري ما حدث لجرسه، ولكنهم أخرجوا الجرس من "شارك" كذلك. لقد نزلوا "شارك" مرة. وافترض أنهم قد يكونون قراصنة أو شماليين أو أياً من يكونون، ولكنهم أخذوا الجرس من "شارك"، وصعدوا به إلى السطح، واضطروا إلى إلقاء الجرس فى الخارج فى تلك الليلة كذلك. هبت عاصفة وألقوا بالجرس فى الخارج وعاد الجرس إلى "شارك" فى الصباح مرة أخرى وأتذكر جيداً سماع كبار السن وهم يروون ذلك. الواقع أنتى رأيت إحدى السفن. فقد بنيت هنا فى الجزيرة ولكنها كانت سفينة صغيرة، كانت سفينة تسير بالمجاديف، ربما كان وزنها طناً ونصف أو طنين. وكانوا يكسرون قطعاً صغيرة من الجرس ويضعونها بين الأخشاب، بين الأخشاب، بين ألواح التجليد وهيكل السفينة عندما يهمون ببناء السفينة ولم يحدث شيء قط لأى سفينة بها قطعة من الجرس. لم تفرق أو أى شيء. وكان لديهم اعتقاد قوى فى الجرس على أى الأحوال ولم يكونوا يصنعون سفينة جديدة إلا ويضعون فيها قطعة من الجرس، مجرد قطعة صغيرة جداً. وقد رأيت إحدى السفن، بقايا إحدى السفن التى بنيت هنا ^(١٤) .

وروى مايكل لوني Michael Loughney من كيلكامن روبرز Kilcummin Roads حكاية عن مكون مهم آخر من المكونات التى تضاف إلى بدن السفينة الذى يكبر شيئاً فشيئاً.

منذ عدة سنوات نزلت بقرة إلى الشاطئ وأخذت تلتق صندوقاً ألقاه البحر على البر. وظلت البقرة ثلاثة أيام تتردد على الشاطئ وتلتق الصندوق إلى أن تملك الفضول

امرأة وفتحته. وكان بداخله طفل رضيع عادت به إلى البيت وربته كابن لها. وفي يوم من الأيام حين كان الصبي في سن المراهقة وكان يعمل لدى أحد المزارعين نزل الحقل سرب من الغربان وأخذ يأكل الحب. غضب المزارع غضباً شديداً وقال للصبي: "لو استطعنا طرد الغربان لأنقذنا المحصول." ولكنهم لم يستطيعوا طرد الغربان، وعاد المزارع إلى البيت لتناول الغداء وهو في حالة من اليأس. وحين عاد كانت الغربان جميعها قد اختفت. "أين الغربان؟" لقد حبستها كلها في الكنيسة. وأظهر البحث أن الغربان موجودة هناك بالفعل. وحقيقة الأمر أنه كان هناك الكثير منها حتى إن الكنيسة امتلأت بها. وكانت نتيجة هذا العمل أن الناس أخذوا يظنون أن للغلام اتصالات ما بالعالم الآخر، وهو ما ثبت بالفعل. لقد أصبح القديس كامين St. Cummin، وهو رجل مقدس كان يأتي بالمعجزات وأوجد بئراً مقدسة كانت تشفى الكثير من الأمراض. وحتى يومنا هذا لا يزال سكان المنطقة ينظرون إلى البئر والكنيسة على أنهما مزاران مقدسان.

في النهاية مات القديس ودُفن بالقرب من الكنيسة، ولكن أفعاله الخيرة للبشر لم تنته بعد. والتراب الذي يؤخذ من هذا القبر يحفظ حامله من الفرق، ولو وضعت نرة منه في سفينة لن تفرق أبداً، شريطة أن تأتي به امرأة من عائلة لوني. وكانت شقيقة الإخباري الذي حكى لي الحكاية هي المرأة التي يمكنها الإتيان بالتراب الثمين، ومن الواضح أن الناس يعتقدون في هذه الممارسة ويتبعونها منذ حوالي خمس عشرة قرناً (١٥).

في جزيرة توري Tory Island على الساحل الشمالي الغربي من أيرلندا، هناك نوع آخر من التراب يحظى بتقدير شديد من بناء السفن، أو أصحابها على الأقل.

فطبقاً لما قاله جيمس ديكسون James Dixon، فقد زار تلك الجزيرة الصغيرة منذ سنوات بعيدة رجل مقدس اسمه كولم سيل Cholm Cille وهو في طريقه إلى أيونا Iona. وبلغت أخبار تحركاته إسكندنافيا، حيث انطلقت من هناك سفينة تحمل خمسة من أبناء ملك النرويج وامرأة لرؤيته. ولسوء حظهم كانت الرحلة أكثر خطورة مما توقعوه ومات الجميع أثناء الرحلة. إلا أن الأمواج حملت السفينة وعليها الجثث وألقت بها في النهاية

على الجزيرة. استخرج الناس الجثث ودفنوها، إلا أن المرأة رفضت البقاء تحت الأرض وخرجت على السطح سبع مرات. وفي المرة السابعة لخروجها أمر كولم سيل، الذي أتى بالكثير من المعجزات على الجزيرة - ومنها القضاء على كل الفئران - بأن تدفن المرأة منفردة عن الباقيين. وتم ذلك وظلت تحت الأرض. (وفي رواية أخرى لنفس الحكاية قيل إنها راهبة ورفضت أن تظل مدفونة إلى أن "دفنت نفسها"). وعلى أي الأحوال، فقد أصبح قبرها مكاناً على قدر كبير من التقديس، ومنذ ذلك الوقت أخذت أطنان من التراب منه ووضعت في السفن القصية والدانية. ويُقال إن أية سفينة تحمل ذرة من هذا التراب تظل خالية من الفئران على الدوام (١٦).

التقليد الأكثر شيوعاً من تلك التقاليد السابق ذكرها، هو وضع تماثيل القديسين في مشكاوات أعدت خصيصاً على سفن تخص الروم الكاثوليك. وعموماً كان القديس يحمل نفس اسم السفينة وكانوا يأملون أن تحمي الأيقونة السفينة من الأضرار، وخاصة العواصف. ولتحقيق هذه الغاية، كانت شموع النذر توقد أثناء الرياح الشديدة أمام الضريح، وكانت الصلوات تتلى، وفي بعض الأحيان كانت تقرب القرايين من الطعام أو النبيذ. وإذا استمرت العاصفة، لام القبطان التمثال، وإذا لم يُجد ذلك سحبوا التمثال من المشكاة، وربطوه بخيط وعلقوه في المؤخرة. وإذا أخفق هذا كذلك وكانت العاصفة شديدة، كان القبطان يقطع الخيط في بعض الأحيان (١٧).

وكانت السفينة حين تخرج من بين نجارتها ونشارتها خروج العنقاء من بين الرماد، كان نحاسو الخشب يبدأون العمل على السفينة وفي أماكن أخرى في صنع أشكال زخرفية ورجامات (*) ومرابط (**) وأوتاد (***) وألواح المؤخرة، وبشكل خاص رأس الجؤجؤ (****). ومع أن هذه الأشكال باتت زخرفية، فقد كانوا في الأصل يعتقدون أن لها صفات سحرية حمائية تحرس السفينة وطاقمها وحمولتها من الأذى.

- (*) الرجام : بروز في مقدمة السفينة يحمل بكرة رفع المرساة (الهرب)، كما تثبت إليه المرساة (المترجم) .
- (**) المريط : قائم خشبي صغير على سطح السفينة يستخدم لتثبيت حبال الرباط (المترجم) .
- (***) الود : قائم ثقيل مركب على سطح السفينة يستخدم لربطها وإرسائها (المترجم) .
- (****) حلية توضع في الطرف المتقدم من السفينة تحت ساريتها الأمامية مباشرة (المترجم) .

كانت رءوس السباع (رمز القوة) والطيور البحرية وعرائس البحر والدلافين جميعها موتيفات شعبية موجودة بوفرة في أشياء تتعلق بالسفينة. وكان هناك شعور بأن هذه النقوش ترضى في بعض الحالات الكائنات التي تضرر الشر، مثل عرائس البحر والكركن(*) التي يمكن أن تؤذي السفينة، أو أنها قد تصرف سكان الأعماق نوى الطبيعة الأدنى. والواقع أن سفن الشمال الطويلة القديمة كافة كانت مصممة بحيث تبدو على هيئة ثعبان البحر، حيث كان الرأس في المقدمة والذيل في المؤخرة وكانت المجاديف في منتصف السفينة كأنها الأرجل. وسواء أكانت وحوش البحر ترى تلك الصور المخيفة على أنها ترضيها أم ترعبها فتلك مسألة فيها نظر، إلا أنه قد يكون هناك بعض الشك في أن السفينة نفسها كانت تثير الرعب كذلك في نفوس الأعداء مثلها مثل ذلك الجمع المشعر الذي على متنها.

في وقت لاحق، وفي زمن صمويل بيبيز Samuel Pepys (**)، زاد عدد تلك النقوش بصورة كبيرة أثارت فضيحة في إنجلترا دعت وزارة الخزانة إلى تخفيض مخصصات السفن التي تبالغ في زخرفتها، مما جعل تلك الأعداد الكبيرة من نحاس السفن يجدون أنفسهم بلا عمل ويقضون أوقاتهم في تزيين البيوت الإنجليزية. وفي الولايات المتحدة بلغت زخرفة السفن حدًا كبيراً ببناء الفرقاطة الأمريكية "بريزيدنت" President التي زُيّنت برأس جوجو وكانت ألواح المؤخرة تصور حزمًا من الذرة والقمح والفواكه والغزلان والهنود الحمر والأقواس والسهام وبعض الأشكال اليونانية التي كانت تشغل كل الأماكن الخالية (١٨).

رأس الجوجو هو الأكثر أهمية وقدمًا. وتشهد السفن من الصين إلى النرويج، وسفن الشعوب المتقدمة كالليونان والفرنسيين، والشعوب البدائية كهنود الساحل الشمالي الغرب وسكان جزر سولومون Solomon Islands، على انتشار هذه الوسيلة

(*) وحش بحري خرافي نسجت حوله الأساطير في إسكتلندا وغرب أوروبا في العصور الوسطى المسيحية (المترجم).

(**) موظف في الحكومة الإنجليزية (١٦٢٢-١٧٠٣) تتضمن مذكراته وصفًا مفصلاً للحريق الكبير الذي شهدته لندن (١٦٦٥) والطاعون الكبير (١٦٦٦) (المترجم).

فى أنحاء العالم. وكشأن الكثير من أشياء العالم القديم، يبدو أن رأس الجوجو وصلت أوروبا عن طريق العرب الذين كانوا يزينون سفنهم المعروفة باسم الداو(*) بعيون جاحظة لولاها لبدت وضيفة (١٩). ومنهم انتقلت عبر البحر المتوسط ومن ثم إلى أنحاء أوروبا. ولم تكن الأشكال العربية رؤوس جوجو بالمعنى العادى، بل كانت عيوناً ضخمة محفورة أو مرسومة على مقدمات السفن.

ليس هناك شاهد على إيمان الإنسان بأن لكل شىء روح أفضل من رؤوس الجوجو التى كانت تحت مشابهة لاسم السفينة وطابعها مع تركيز شديد على أمرين، هما التأثير والعيون الجاحظة. فالسفينة Quaker Maid [الفتاة صاحبية(**)] كانت بها فتاة صاحبية خجولة صغيرة ذات عينين جاحظتين تميل إلى الأمام ناحية البحر. وكانت السفينة Grand Turk [التركى العظيم] بها تركى ممتشقاً سيفه، والسفينة Highlander [الجبلى] بها إسكوتلندى وسيم يحمل خنجراً، والسفينة Indian Chief [الزعيم الهندى] عليها هندى على رأسه تاج من الريش ويمسك فى قبضته القوية ببلطة. وهناك رأس جوجو لسفينة "مجهولة" عبارة عن إوزة سمينة فزعة جناحيها شبه مفرودين، ويمكن التخمين بأن السفينة التى كانت تزينها اسمها Wild Goose أو Bar-nacle Goose [الإوزة البرية] - وهى إوزة ذات شهرة أسطورية.

الفكرة التى وراء العيون الجاحظة ورؤوس الجوجو هى باختصار أنه بسبب أحوال السفينة الغربية وحركتها وصخبها الداخلى ونزواتها، كان البحارة يعتقدون أن لها روحاً أو على الأقل شبه روح. فإذا زينت مقدمتها بشكل تمثلى منحوت ذى عينين، وإن كان من الخشب، فإن السفينة نفسها يمكن أن تحترس من الخطر، وربما استطاعت تجنبه دون معين. ويدون العيون أو رأس الجوجو، قد تضطر السفينة للسير عمياء رغم المراقبة.

(*) سفينة حمولتها نحو مائة وخمسين طناً إلى مائتين ومبينة على شكل الغراب وطولها حوالى خمسة وثمانين قدماً وعرضها عشرون قدماً وعمقها أحد عشر قدماً (المترجم).

(**) نسبة إلى طائفة الأصحاب (المترجم).

تطور نحت رءوس الجؤجؤ فى الولايات المتحدة ليصبح فناً شعبياً راقياً فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. ومع أن النحاتين كانوا ينحتون أشكالهم على عروق من الخشب، فقد استطاعوا فى بعض الحالات إدراك ثنايا اللحم تحت الملابس وتصوير التعبير والتشريح بدرجة مذهلة. لقد خرج فن النحت الأمريكى من بين نحاتى السفن هؤلاء، حيث افتتح شخص يدعى ويليام راش William Rush من فيلادلفيا Philadelphia، وكان نحاً لءروس الجؤجؤ وألواح المؤخرة لسنوات عديدة، أول مدرسة للنحت فى الولايات المتحدة فى القرن الثامن عشر (٢٠).

لم يكن النحت وحده مهماً لقوة السفينة وسلامتها، بل كان للونها كذلك أهميته. وبصورة عامة، كانت الألوان الفاتحة الزاهية تواجهك على طول شواطئ أسبانيا والبرتغال وفرنسا والبحر المتوسط. والواقع أنه يبدو أن درجات الألوان هذه هى السائدة فى المناطق المعتدلة وشبه المدارية من العالم، بينما كانت الألوان الداكنة هى الغالبة فى بوائر العرض العليا. وحول جزر أران Aran Islands على الساحل الغربى من أيرلندا، كان لون السفن والأشعة فيما مضى هو الأسود. وظلت هذه العادة قائمة حتى يومنا هذا فى سفن الصيد فى جولواى Galway التى تبدو وكأنها سفن جنازات وهى تسير فى البحر - فالأشعة سوداء، وبدن السفينة أسود، بل إن أفراد الطاقم يرتدون ملابس سوداء. وفى إسكوتلندا وسائر أيرلندا عادة ما تُطلى السفن باللون الأسود، أو الأخضر الداكن، أو الأحمر، وقد تكون زرقاء فى بعض الأحيان. ومن حين لآخر كانت تظهر كذلك بلون الخشب الطبيعى وقد طُليت بطبقات كثيفة من الزيت. ومن ناحية أخرى يبدو أن الأبيض والرمادى والأسود والأصفر (فى المياه الجنوبية) هى الألوان المفضلة للسفن فى الولايات المتحدة وكندا. ومن اللافت للانتباه كذلك أنه فى بعض مناطق أمريكا الشمالية، مثل مين Maine، يرفض البحارة طلاء السفن بالأزرق أو الأخضر - وهما لونا البحر - اعتقاداً منهم أنهما يجلبان سوء الحظ.

فى معظم الحالات تدهن الأجزاء العليا من السفن بألوان تختلف عن لون البدن - وعادة ما تكون أفتح، حيث يخطط جسم السفينة بالكامل بقصد تقديم تصميم يسر العين وتحسين الشكل الخارجى للسفينة، وهو ما يبدو بصورة عامة أنه يعنى تقليل حجم السفينة الخارجى على الماء وإبراز ارتفاع المقدمة والمؤخرة.

منذ قرون والسفن تبني بالخشب، ولكن هذه الأيام حل المعدن محل البلوط والعزيزى إلى حد كبير. ومع ذلك فهناك قدر كبير من الجهد لإخفاء المعدن وإعطائه مظهر الخشب. وفي إسكوتلندا، حيث يرتاد الصيادون البحر فى أى طقس وحيث تعتبر "الأيام الطيبة" غير صالحة للخروج إلى أى مكان آخر فى العالم، فإن أشغال السطح تصنع منذ زمن طويل من الصلب لى لا يمزقها البحر. وقبل أن تخرج أى من هذه السفن إلى البحر، يُستأجر عمال الطلاء المهرة لطلاء ألواح السطح بحيث تبدو كأنها ألواح من الخشب العزيزى. وتسمى هذه العملية بالتجزيع، وهى تستهلك قدراً كبيراً جداً من الوقت والمال، ولكن النتيجة هى جعل الشكل الخارجى لكابينة القيادة يبدو مثل داخل قاعة حفلات جديدة من الخشب العزيزى.

أرى منذ مدة طويلة أن العادات الشعبية تقوم دائماً على وظيفة أو فكرة نفعية ما، وإن كانت الوظيفة قد باتت مفقودة بالنسبة للممارس الحالى - وذلك إذا كانت قد فهمت فهماً تاماً فى يوم من الأيام. وفى حالة موتيفات الطلاء، قد تعين أشياء عديدة على توضيح استخدام الألوان. فالألوان الداكنة تجتذب الحرارة، والحرارة تجفف الألواح وتجعلها تتكمش، كما أنها تجعل داخل السفينة أشبه بالفرن. وفى دوائر العرض الدنيا حيث أشعة الشمس أكثر مباشرة، قد تعانى الأبدان الداكنة من حرارة الشمس أكثر من الأبدان فاتحة اللون. ومع أن الناس فى مين يقولون إن الأخضر والأزرق يجلبان سوء الحظ، فإن الحقيقة المعروفة هى أن هذين اللونين، بالإضافة إلى الأسود، يصعب الحفاظ عليها إلى حد كبير، وهما يبققان فى الطقس الحار. وأخيراً تواجهنا مشكلة القدرة على الرؤية. ففي دوائر العرض الشمالية يمكن رؤية الألوان من على مسافة تزيد على تلك التى يمكن رؤيتها منها فى الأجواء الجنوبية، وربما كان هذا تحكم آخر من العقل الباطن فى ألوان الطلاء المستخدمة.

لا يقتصر الأمر على أهمية اللون بالنسبة للجماعة الشعبية (فكل سفن الصيد فى أحد موانئ إسكوتلندا تطلّى بلون واحد فقط أو لونين) ولكن لون السفينة له أهميته الخاصة بالنسبة لأصحاب السفن. ومنذ سنوات، وطبقاً لرواية القبطان موريس Cap-tain Morris من تينانتس هاربر Tenants Harbor بولاية مين، تحالف رجلان لبناء سفينة شراعية صغيرة تسير بمحاذاة الشاطئ. وسارت كل الأمور على ما يرام إلى أن

جاء نور اللون. كان أحد الرجلين يريد أبيض والآخر أسود. وكان الأسود هو ما اتفقا عليه في النهاية؛ وطلبت السفينة وزودت بالأشرعة وأعدت لتزول البحر. وأوكل لها نقل "حمولة كاملة" من البطاطس وأخذها أحد المالكين إلى بوسطن، حيث باع البطاطس محققاً ربحاً طيباً. وحين كان ينتظر حمولة أخرى، بدأت السفينة السوداء تزعجه. فبدلاً من أن يظن البحار أن الأسود جميل، شعر أنه سائق عربة موتى، واستخدم نصيبه من الأرباح لتغيير اللون إلى الأبيض.

وحين عادت السفينة إلى تينانتس هاربر كان المالك الآخر واقفاً على المرسى. وما إن رأى اللون حتى غضب غضباً شديداً، وجرت الكلمة غيرها. واستدعى مدير الشرطة، ووضعت السفينة تحت التحفظ. وأعقب ذلك رفع دعوى قضائية وجرت السنة غيرها. وفي تلك الأثناء كانت السفينة والأشرعة والمعدات والحمولة والعدد قابضة في المرسى. وامتدت السكك الحديدية وبدأت تزاحم مهنة النقل بالسفن التي أخذت أرباحها تقل. وفي النهاية، وبينما الحمولة لا تزال على متن السفينة والأشرعة مطوية، تحطمت السفينة على المرسى وغرقت. وطبقاً لما ذكره الإخباري، كانت عظامها لا تزال ترى في الطين حين ينحسر المد في أوائل الستينيات.

من بين كل الأشياء المتصلة ببناء السفينة نجد أن أهم حدثين هما اختيار اسمها وتدشينها. وسحر الاسم بالنسبة للبشر، المتحضرين منهم والبدائيين، حقيقى جداً. وحتى في يومنا هذا يبذل من هم على درجة عالية من الثقافة جهداً كبيراً في اختيار اسم لطفل من الأطفال. فإذا كان الطفل لأبوين من الروم الكاثوليك فلا بد أن يشمل ذلك اسم أحد القديسين أو اسم عائلة وهكذا. وحقيقة الأمر أنه في مجتمعنا الذي يخضع فيه كل شيء للكمبيوتر سيكون من الأفضل جعل رقم الضمان الاجتماعي الخاص بالطفل اسماً له وتناديه تدلاً "سبعة وخمسون"، ولكن هذه فكرة بغيضة في الوقت الراهن حتى إن أخلص بيروقراطي سيتردد في اقتراحها بشكل علني. وقد شغلت مشكلة أسماء الأعلام بكاملها العقل العلمي لسنوات ويمكن أن نورد بضع الأفكار وحسب هنا.

يبدو أن بعض المفاهيم كانت على مر العصور تحكم تسمية السفن. وكان عمل السفينة هو ما يقرر تسميتها في بعض الأحيان، وكان الزمن الذي صنعت فيه يقررها في أحيان أخرى، حيث كان كل عصر تشيع فيه أسماء بعينها للسفن. وعادة ما كانوا يختارون الاسم، في حدود هذين القيدتين، إما لحماية السفينة من الأذى وتحسين عملها، أو اتقاءً للأرواح الشريرة العديدة التي يمكن أن تلحق الأذى أو الخطر بالسفينة.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان هناك قدر كبير من الاختلاف بين السفن الحربية البريطانية والأمريكية والسفن التجارية المتواضعة. فمن أسماء السفن الحربية الشائعة The Terrible [الرهيبة] و Victory [النصر] و Nonesuch [الفذ] و Tiger [النمر] و Ferret [النمس] ، أما Pretty Pinnance Virginia [السفينة الجميلة فرجينيا] و Watch and Wait [راقب وانتظر] و Sparrow [العصفور] و Pru-dence [الحكمة] و Quaker Maid [الفتاة الصاحبية] و Pyed Cow [البقرة الرقطاء] (وهي السفينة التي جاءت بأول مصنع لتقطيع الأخشاب إلى أمريكا الشمالية عام ١٦٢٤) فكانت من الأسماء التي ميزت سفن الشحن الثقيلة. وأثناء الثورة الأمريكية وحرب ١٨١٢ (*) كانت السفن الأهلية التي تستخدم للاستيلاء على سفن العدو تحمل أسماء مثل Teaser [المزعج] و Hawk [الصقور] و Eagle [النسر] و Yankee [الأمريكي] و Loyal Sam [سام الوفي] و Poor Sailor [البحار المسكين] .

واليوم عادة لا يعرف المرء نوع السفينة وحسب من خلال قراءته لاسمها، بل غالباً ما يمكنه كذلك معرفة جنسيتها. فالولايات المتحدة تسمى السفن الحربية الضخمة بأسماء الولايات، والسفن الحربية المتوسطة بأسماء المدن، وحاملات الطائرات بأسماء المعارك، والغواصات بأسماء الأسماك الشرهة. وتسمى السفن التجارية American Farmer [المزارع الأمريكي] و American Liberty [الحرية الأمريكية] و Texaco Star [نجم تكساكو] و Torrey Canyon [أخدود تورى] ، ومن خلال هذه الأسماء نعلم أنها سفن شحن، كالأولين، أو ناقلات بترول كالأخيرتين. وتحمل اليخوت الشراعية أسماء

(*) كانت بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى واستمرت حتى ١٨١٥ رغم توقيع معاهدة سلام في أوروبا عام ١٩١٤، وكان ميدان المعركة الرئيسى على الحدود الكندية وعلى خليج المكسيك (المترجم) .

من قبيل Queen Mab [الملكة ماب] (*) أو Thunderhead [السحابة الرعدية] أو Cahntyman [المغنى] أو Morning Watch [حارس الصباح] ، بينما تحمل الزوارق ذات المحركات أسماء Margie-Jo [مارجى جو] أو Zip Zap [زيب زاب] أو Me an' You [أنا وأنت] أو Happy Daze [الذهول السار] . وهذا الميل إلى تسمية السفن بناء على أنواعها شائع منذ زمن بعيد . وكانت سفن الفحم الإنجليزية فى أوائل القرن الثامن عشر غالباً ما تطلق عليها اسم نوق أو إيرل أو لورد .

فى الأزمنة المعاصرة لا يزال هناك فرق واضح بين أسماء السفن البريطانية والأمريكية، سواء اليخوت أو السفن التجارية. فالإخوت الإنجليزية غالباً ما تسمى بعبارات من قبيل Myth of Malham [أسطورة مالا م] أو Helen of Howth [هيلين أوف هاوث] أو Ahwilda of Rhu [أهويلدا أوف رو] ، أو بأسماء مثل Scimitar [السيف الأحذب] أو Excalibur [إكسكاليفر] (**) أو Griffon [الجريفن] (***) وغالباً ما تُميز سفن صيد الأسماك الإنجليزية والإسكوتلندية بأسماء أفراد عائلات أصحابها مثل Girl Vivien [البنت فيفيان] ، أو تحمل أسماء من قبيل Golden Harvest [الحصاد الذهبى] ، أو The Gleaner [الحصاد] ، أو Silver Star [النجم الفضى] ، أو Fern [السرخس] أو Golden view [المنظر الذهبى] ، أو Spray [الرذاذ] ، أو Harvest [الحصاد] ، وهكذا . وتحمل السفن الأمريكية أسماء العائلات، وهى فى الغالب أسماء قديسين، وأسماء أماكن مثل Sankaty Head [رأس سانكاتى] ، وفى بعض الأحيان أسماء مثل Kelpi [كيلبى] (****)، أو Sea Horse [حصان البحر] ، أو Flying Fish [السمكة الطائرة] ، أو - من باب المزاح - Cigar Jo [السيجار جو] أو The Crowd from

(*) جنية شريرة مغرية فى الفولكلور الأيرلندى والإنجليزى تتحكم فى أحلام الرجال وتصنعها (المترجم) .

(**) تقول الأسطورة إنه سيف الملك آرثر البطل البريطانى الأسطورى الذى يقال إنه عاش فى القرن السادس الميلادى (المترجم) .

(***) حيوان خرافى فى الأساطير اليونانية له جسم أسد ورأس وأجنحة نسر (المترجم) .

(****) شبح تقول الأساطير الإسكوتلندية إنه يعيش فى البحيرات والأنهار ويعمل على إغراق المسافرين، وكثيراً ما يظهر على شكل حصان يقوى الضحايا على ركوبه ثم يسرع إلى الماء ويفرق راكبه (المترجم) .

Crotch Harbor [الجمع من ميناء كروتش] . وفي أمريكا، حيث ضعفت العادات والإيمان بالخرافات، نجد أن هذه الأسماء مقبولة، إلا أنها ليست كذلك في الخارج حيث تحدى الأشياء أو ازدياء العناصر لا يزال يعتقد أنه أمر ينطوي على خطورة وغير مأمون العواقب إلى حد كبير.

هناك ما يغرى على المضي في عرض قوائم بالسفن لا نهاية لها، وهو ما قد يكون ممكناً، ولكن يظل علينا مواجهة المشكلة الحقيقية، وهي لماذا هذه الأنماط من الأسماء؟ هناك بالطبع ما لا يحصى من أسباب تسمية إحدى السفن باسم بعينه أو عدم تسميتها به. فسفينة ما كانت تحمل اسماً معيناً أصابها ضرر، وكان بحارها غشيماً، وكانت قيادتها صعبة. وترتبط شخصية السفينة - في رأى العامة - بصورة أو بأخرى باسمها، ولذلك فإنه قد يفرج القدر على تسمية سفينة جديدة باسم سفينة ذات حظ عاثر. ومن ناحية أخرى فإنه إذا كانت إحدى السفن ذات حظ موفور فإن سفناً أخرى قد تسمى باسمها. وبينما كانت السفينة The Great Harry [هارى العظيم] تجنح، انحلت مدافعها وسقطت على الجانب المعاكس لاتجاه الريح. وسقطت السفينة مخلقة خسارة رهيبة في الأرواح، حتى إن عبارة "بسم السيد هارى" لا تزال شائعة إلى الآن. وانقلبت Vasa [فازة] بكل طاقمها من البحارة في أولى رحلاتها. وحسبما أعلم، لم تسمى سفينة بأى من هذين الاسمين منذ تلك الكارثتين، في حين أن H.M.S. Victory [السفينة البريطانية فيكتورى] و U.S.S. Saratoga [السفينة الأمريكية ساراتوجا] لا يزالان اسمين شائعين لما حققاه من نجاح في البداية. وفي مناطق معينة كذلك نجد أن الأسماء لها خواص مرتبطة بها تجعلها من المحظورات، بينما تستخدم في مناطق أخرى حيث لا وجود للمحظورات. ففي إسكوتلندا لا يسمى أحد سفينة من السفن Seal [الفقمة] لوجود معتقدات خرافية تتعلق بالفقمة نسبت في أمريكا حيث يشيع الاسم الآن إلى حد ما. ومحاولة تسجيل كل هذه الأسباب قد يحتاج إلى مجلد منفصل.

مع ذلك فهناك معتقد شائع وعام يحمل تمحيصاً بسيطاً. ففي كاليفورنيا شاهد المؤلف مؤخراً إعلاناً يقول "تعلم التأثير في الناس بمالك". وهذا يتناقض مع مشكلة تسمية السفن. وكان هناك اعتقاد واضح منذ فترة طويلة بأن على المرء أن يحرص بشدة على عدم إعطاء أية سفينة اسماً ذا تأثير قوى. فالاحتمال الأكبر أن الاسم

المتواضع يمر دون أن تلاحظه العناصر، كما أن الاسم الذي ينم عن التعالي يوقع المرء في مشاكل. ولم تكن السفن تسمى بأسماء سكان الأعماق الكبار، ولا بأسماء المحيطات ولا الرياح ولا العواصف وغيرها من الكوارث. بل إن أحداً لم يكن يجزو على استخدام كلمة فيها اجترأ (وكانت تلك الكلمة ذاتها محظورة) خشية أن تقل القوة، كما يشير الكتاب المقدس بكل وضوح.

في القرن الثامن عشر كانت هناك سفينة اسمها Celeste [الملاك] . أبحرت السفينة يوم الجمعة. كادت السفينة أن تفرق وكان لابد من إصلاحها. وأبحرت مرة أخرى وعثر على أرنب على متنها. وبعد ذلك غادرتها الفئران. وانتشر فيها الجدرى. وعثر على سجل الملاحة الخاص بها طافياً على سطح البحر وكان قد مضى ساعة واحدة فقط على آخر ما سُجِّل فيه. [وقد أضيف أنه في القرن الحالى عثر على السفينة Mary-Celeste يجرفها التيار وهى بكامل مجموعة أشرعتها وقد أعدت المائدة للعشاء، بينما لا يزال ما حدث لطاقمها غير معروف حتى الآن.]^(٢١) وحين غرقت السفينة At-lantic [الأطلنطى] حذر شاعر من أن المحيط قال "لن يكون هناك أطلانتيان". وأوضح لمن لديهم الاستعداد للاعتقاد فى هذه الأشياء أن السفينة Titanic [الهائل] اصطدمت فى جبل جليد، وأن السفينة Squalus [اسم نوع من الأسماك] غاصت غوصة ما بعدها غوصة، وتحطمت السفينة Angel Gabriel [الملاك جبرائيل] على شاطئ مين. ويمكن أن نضيف إلى تلك غيرها من الأسماء التى فيها اجترأ - وهناك العديد من الأسماء المتواضعة من بينها Sparrow [العصفور] الذى ذكرناه آنفاً.

على أى الأحوال فإن أسماء مثل Herald of the Morning [رسول الصباح] وTyphoon [الإعصار] وHurricane [الإعصار] وWitch of the Wave [ساحرة الموجة] لم تكن شائعة حتى بلوغ السفن حجم الألف طن الخاص بالسفن الشراعية الأمريكية فى منتصف القرن التاسع عشر. ومرة أخرى قد نتذكر أن من بين كل تلك السفن الشراعية الجبارة لا تزال Cutty Sark [جزيرة كاتى] بحالتها. ومن بين السفن الأخرى ما تحطم، ومنها ما أحرق، وغرق بعضها، وحطمت بعضها الآخر مطرقة محطى السفن بعد أن خدمت كسفن مغمورة استعملت للمهرجانات والحفلات أو كسجون.

النقطة الأخيرة التي لا بد من توضيحها بشأن الأسماء تبدو مختلفة من مكان لآخر. ففي أمريكا يعتبر من سوء الطالع تغيير اسم السفينة، بينما في إسكتلندا لا يعتبر هذا التغيير أمراً غير عادي. وفي لوخ بويسدال Loch Boisdale أبلغني شخص يدعى مستر ماكولي Mr. Macauley أنه في بعض الأحيان يؤدي تغيير الاسم إلى تغيير حظ السفينة للأفضل، وفي فريزبرج Frazerburgh على خليج موراي كان ديفيد تيت David Tait يعتزم تغيير اسم "البنت فيفيان" Girl Vivien إلى اسم آخر حين "يجد اسماً جيداً" لأنه لم يكن لديه "بنت اسمها فيفيان". وفي أيرلندا غير مسموح بمثل هذه الممارسات، وهناك العديد من القصص في الولايات المتحدة حول ما يحدث للسفن التي تغيرت أسماؤها. وهناك دائماً قدر كبير من السحر المرتبط بالأسماء، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الموقف المتعجرف من الأسماء الذي يتخذه العديد من الإخباريين في الجزر البريطانية مثال حديث للفولكلور المتدهور وليس انعكاساً للمعتقد التقليدي.

بعد اكتمال بناء السفينة ودهانها وتركيب رأس الجؤجؤ في مكانه، تكون السفينة جاهزة لأهم لحظة في تطورها - وهي التدشين وما يصاحبه من تسمية. وقد تغير هذا الحدث تغيراً ملحوظاً على مر السنين وفي أماكن مختلفة، إلا أنه مهما كان الطقس، فإنه من الضروري الالتزام به، وإلا فإن نتائج شهور من العمل والكد قد تكون هي الفشل، ذلك أن البحارة ساعة التدشين يمكنهم لأول مرة القول إن كانت لديهم سفينة محظوظة أو غير محظوظة. ولضمان أن يسير كل شيء سيراً حسناً، كان الكل داخل المجتمع يبذلون جهداً عظيماً.

كان الاعتبار الأول، وهو الاعتبار الذي للإنسان عليه سلطان، هو اختيار التاريخ والوقت المناسبين. وقد يضاف إلى ذلك الأمارات الجيدة من بين العوامل الجوية.

وإذا كان هناك حرص واتخذت الحيلة أثناء بناء السفينة، فإن هذا لا يعد شيئاً مقارنة بالحرص والحذر المصاحبين لإنزال السفينة في الماء. ولم يكن لدى أهل البحر حدث - باستثناء مولد إنسان ما - تجري مراقبته أو ملاحظته بحرص أكثر من ذلك. والواقع أنه حتى في أيامنا هذه يصاحب إنزال أية سفينة كبيرة في الماء صخب يفوق أي سبب منطقي. فالفرق الموسيقية تستأجر، والشمبانغا تُقدم، وغالباً ما تقام الولائم،

كما يكون أحد رجال الدين حاضراً ويكون هناك تفكير كبير في الشخص المنوط به تدشين السفينة - وعادة ما تكون أنتى ذات قيمة سياسية أو اقتصادية أو وطنية. ولكن حتى في أيامنا هذه هناك أثر للفولكلور نعثر عليه في هذا العمل، حيث يبذل بعض الجهد للعثور على شخص يتمتع بالمؤهلات المذكورة ويتصل من ناحية أو أخرى بالسفينة. فعندما دُشنت المدمرة هولزى باول Halsey Powell، قامت بالمهمة أرملة القبطان الذى سميت السفينة باسمه، وحين دُشنت المدمرة كين Kane، كانت ابنة شقيق ذلك الضابط هى التى كسرت الزجاجاة على المقدمة.

وغالباً ما يحضر إنزال السفن الكبيرة الملك أو الرئيس أو الحاكم أو العمدة أو غيرهم من الشخصيات المهمة، وعادة ما يكون ذلك يوم عطلة رسمية. ومع ذلك فإن هناك تنوعات شديدة التعقيد ولا معنى لها إلى حد ما على ساق شعبية قديمة.

تكاد السفينة تكون أكثر الأشياء التى صنعها الإنسان حيوية حتى ظهور الكمبيوتر. فقد كانت تتمايل وتتهزّز وتترجّح، وكانت لها ملامحها وصفاتها التى لم يكن من الممكن محاكاتها ولو فى سفينة أختها. وعلى عكس أى مبنى يمكن للناس أن يهربوا منه، كانت السفينة ضرورية لرفاهية الطاقم. ولا تزال السفن أكبر الأشياء المتحركة التى صممها الإنسان.

بغض النظر عما قد يبدو عليه التدشين الحديث لإحدى السفن فى الماء، فإن له جنوراً تعود إلى آلاف السنين إلى أيام سبقت هوميروس، وكان جزء كبير من هذا الطقس على قدر لا حد له من الجدية. وعلى عكس العديد من العادات الوثنية، فقد تغير قدر كبير من ماثورات التدشين على مر السنين إلى أن غير العصر والمسيحية العادة الشعبية تغييراً فعلياً. ويكفى مثال واحد على ذلك.

يقال إن الفايكنج كانوا يربطون العبيد فى الأسطوانات الخشبية التى توضع تحت السفينة التى بنيت حديثاً. وحين تتدحرج السفينة عند إنزالها إلى الماء كان العبيد يقطعون كائنهم أصابع سجع ويلطخون السفينة بالدم وغيره من حُتات. وفى وقت لاحق استعيض عن الأضاحى البشرية بأضاحى من الحيوانات، وهذه الأضاحى أفسحت بدورها الطريق للأضاحى الشعائرية. إلا أنه فى مناطق نائية من العالم الناطق

بالإنجليزية لا تزال الأضاحى الحيوانية تقدم. وهذا المكان هو جزيرة كاريكو فى جزر الهند الغربية - وهو مكان يشتهر محلياً بأنه مركز لبناء السفن (٢٢).

وبسبب النمط الغريب لبناء السفينة وتدشينها فى جزر الهند الغربية، لابد من إضافة بضع كلمات إلى ما سبق، ذلك أن العملية تبدو لنا اليوم عتيقة من وجوه كثيرة مثل ممارسات الإسكتدنافيين القدامى.

حين يكون الوقت مناسباً ويوشك البناء أن يبدأ، وبعد أن تكون كمية كافية من الأخشاب المختلفة قد جُمعت - الصالب والهيك والتشيئات وبعض الألواح - يقيم بناء السفينة ومالكها (إن كان شخصاً آخر غير البناء) وليمة تسمى "حفل البداية". تعد وليمة كبيرة، ويدعى أحد الإقساوسة وتبارك الأحداث التى تجرى فى المكان. وتقدم أضاحى من حيوانات مختلفة، ويشرع جمع المدعوين فى تناول الطعام والشراب. ويمد الصالب، وتوضع أخشاب المؤخرة والقرن فى أماكنها، وتؤمن "الأضلاع" التى تحدد البدن.

ما إن يكتمل العمل - ومعظمه يتم بالمنشير اليدوية وبالمساحج [جمع مسح وهو الفارة] والقوائم [جمع قنوم] والمطارق والمثاقيب - حتى يبدعوا الأحداث جميعاً، وهو التدشين والـ"سراكا" التى تصاحبه. يحمل هلب كبير إلى المياه العميقة ويلقى من على السفينة وقد ربطت به كتلة من الحجر يمر فيها حبل أحد طرفيه مربوط فى السفينة والآخر يصل إلى الشاطئ. ولضمان نجاح التدشين، يستأجر بولدوزر وترسل الدعوات إلى الوليمة التالية إلى كل من لهم صلة بصورة أو بأخرى بالسفينة أو أصحابها.

تضم الوليمة كل أنواع الطعام المتاحة فى المنطقة وقد أعدت بطرق كثيرة ومختلفة، ويصاحبها "الكثير من الشراب، يا رجل، الكثير من الشراب - وجاك أيرن" Jack Iron (نوع من الروم المحلى يتكون، بقدر حكمى عليه، من ٩٩ بالمائة كحولاً صافياً؛ وهو عادة يتجرع تجرعاً وتطفأ نار جهنم التى تشب فى المعدة إلى حد ما بابتلاع كوب من الماء).

يقدم إلى جانب الطعام والشراب أشكال أخرى من الترفيه، إلا أن الطيش يخفف بمسحات دينية ضخمة. وإضافة إلى فريق الموسيقى النحاسية والمعدات الموسيقية الأحداث، عادة ما تكون هناك "الطبلية الكبيرة". وتتكون الطبلية الكبيرة من ثلاثة رجال

يدقون إيقاعاً خاصاً على طبول من جلد الماعز ولا يمكن تقليل أهميتها في ديانة جزر الهند الغربية، ذلك أنه من خلال عزف الطبلية الكبيرة، ومن خلال الصلاة وصب قرابين من الدم وجاك أيرن تُجمع أرواح الموتى Jumbies للاتصال بالأحياء أو تجرى ترضيتها.

يوضع على متن السفينة، التي زينت بالأعلام والرايات وتستعد لنزول البحر بكل شيء عدا الصابورة والحبال والسلاسل، صحن أرواح الموتى Jumbie Plate . ويحتوى هذا الصحن على كميات من كل الأطعمة التي أُعدت للضيف، ويحرس هذا الصحن طوال الليل للتأكد من أن أحداً لم يسرقه، ذلك أنه موجود لإطعام الأسلاف. ويكون هناك أمل كبير في أن يستهلك الصحن قبل طلوع النهار، وبذلك يطمئن الجمع إلى أن الأرواح تنظر بعين الرضا إلى التدشين، وبما أن كل المشاركين، في الاحتفال بمن فيهم الحرس، يقدم لهم جاك أيرن بسخاء، فإن ذلك يحدث بالفعل.

وتبارك السفينة قبل التدشين، وتقام الصلوات وتقدم الأضاحى. فيضحون بديك شركسى، وديك أبيض، وماعز، وخراف. وتقطع رقاب الأضاحى ويراق دمها على السطح وينثر بعضه في اتجاهات الرياح الأربعة والبعض الآخر في الماء.

بعد ذلك "تقطع" السفينة، أى تزال الدعائم التي تسندها ويدعونها تسقط على طبقة من الأسطوانات أُعدت لذلك، وعادة ما تكون من جنوع نوع الأشجار خشبه صلب greenheart . ويدفع البولدوزر المقدمة، ويصطف المحتفلون على طول الحبل ويدعون في سحب السفينة ناحية البحر على نغمات الأغاني، ومنها أغنية "ياو" Yado (٢٣) . ويعيد فرانسيس كاي ما يقال هنا ويتضمن تفاصيل حذفت.

حين دُشنت السفينة سى لاورا إيه Sea Laura A منذ بضع سنوات، لوحظ أن الاحتفال بدأ في العاشرة صباحاً. في البداية نُبح تيس ونُثر دمه على سطح السفينة. وبعد ذلك تلا القس الصلوات ونُثر الماء المقدس على السفينة. بدأ دق الطبول ونشرت الأعلام على ساريتين مؤقتتين. وصعدت أعداد كبيرة من الناس على السطح وأخذوا يرقصون. وبعد ذلك نزلوا ودُشنت السفينة بينما كان أحد الموظفين في الجزيرة يقود هتافاً. وما إن دُشنت السفينة حتى صعد الرجال على متنها ورقصوا ثم سبحوا حتى الشاطئ لحضور وليمة من اللحوم والخضروات والروم، ورقصوا بقية اليوم.

مع ذلك فإن هذا كله أكثر شراً مما يبدو بكثير. ففي جمهورية الدومنيكان هناك شجرة ضخمة تعرف باسم شجرة لاجارو Lagarou . وهنا يقال إن لاجارو، نوع من مصاصي الدماء في جزر الهند الغربية، يأتى إلى المدرسة ليتعلم حرفتهم. ويتحاشى السكان المحليون الاقتراب من الشجرة بعد حلول الظلام ويقولون إنهم كثيراً ما يرون أضواء تتحرك بسرعة من فرع إلى آخر. كما يقولون إنه إذا انتزع شخص أخشاباً من تلك الشجرة - بأعداد فرعية من واحد حتى سبعة - وأدخلها فى بناء إحدى السفن، فإنها تصبح سفينة سريعة جداً. ومما يؤسف له أن السفن التى تحتوى على أخشاب من تلك الشجرة يفترض كذلك أنها معرضة بشدة لأن تتقلب وتغرق بطاقمها، ولذلك فإن على البناء أن يتحایل على الاحتمالات المتوقعة حدوثها قبل إدخاله الخشب فى بدن السفينة.

وكما يمكن أن نخمن من المادة السابقة، فإنه كى تتجح إحدى السفن فى جزر الهند الغربية لابد أن تكون بطريقة أو بأخرى على علاقة طيبة بالعالم الآخر، وليس مستغرباً أن نعلم أن هناك اعتقاداً شائعاً بأنه لا بد أن تكون لكل سفينة روح، روح آدمية، لكى تعمل بصورة صحيحة. وقد كانت المرة الأولى التى علمت فيه بذلك حين سمعت بحارين يناقشان أمر سفينة سحبت من أجل الإصلاحات. قال أحدهما "ربما تكون الآن سفينة جيدة." وظناً منى أنها ربما تكون قد حطمت، استفسرت عن السبب وعلمت أنه أثناء السحب غرق أحد أفراد الطاقم وبذلك يكون للسفينة روح - وهو ما كان ينقصها من قبل.

كشفت المزيد من التقصى أن رجلاً فيها قد مات بالفعل. وذكرت إحدى الروايات أن الوفاة حدثت بسبب نوبة صرع، وذكرت رواية أخرى أنها أزمة قلبية، بينما أشارت رواية ثالثة إلى إنه ضُرب بهراوة وسُرق وألقى من على ظهر السفينة، وزعمت رواية أخيرة أنه طُعن. واتفق الجميع على أن السفينة التى تدور حولها الروايات لم تكن ناجحة، وأعرب الجميع عن أملهم فى أن تصبح الآن سفينة شحن أكثر وفاء بالغرض. ومع ذلك فقد أثار المزيد من التحرى أقارب المتوفى الذين قالوا إنه قُتل.

ما إن كُشف النقاب عن هذا الجزء الغريب من الماثورات حتى تتبعتة فى أنحاء المنطقة واكتشفت أنه معتقد شائع. بل إنهم كانوا يعتقدون أنه كلما كانت الروح أصغر سنًا كان نجاح السفينة أطول. وأبلغونى أنه فى العقد الحالى اختفت فتاة صغيرة قبيل تدشين إحدى السفن ولم يرها أحد مرة أخرى، وفى حالة أخرى ذكر أن طفلين رجما بالحجارة حتى الموت قبيل تدشين إحدى السفن.

بل إن هذه الفكرة بكاملها حصلت على مزيد من المصادقية حين رويت لى حكاية عن "أسرع سفينة فى الجزر". فقبيل تدشينها ألقى البحر على الشاطئ بأحد الألفام وأراد صاحبها - جهلاً منه بماهيته - فك قطعة نحاسية منه ليستخدمها كحلقة فى جزء ما من أجزاء السفينة الجديدة. استعان الرجل بعدد من أصدقائه الذين شرعوا فى العمل بالأزاميل والمطارق. انفجر اللغم وقتل بضعاً وخمسين رجلاً، ولكن السفينة لم يصبها شيء. حدث ذلك قبيل تدشين السفينة وأصبحت أسرع سفينة فى الجزر، وهو الرقم القياسى الذى احتفظت به إلى أن بيعت لملاك خارج الجزيرة التى بنيت فيها، حيث غرقت عقب ذلك مباشرة.

ليس من الضرورى دائماً الذهاب إلى ذلك الحد لضمان نجاح سفينة أى شخص. وفى بعض الأحيان تمت العناية الإلهية يد العون. وفى إحدى الجزر كان السكان مشغولين إلى حد ما بمستقبل إحدى السفن. وفى الليلة السابقة لتدشينها توفيت امرأة تحظى بقدر كبير من الاحترام والحب فى الجزيرة لأسباب طبيعية. وفى اليوم التالى دُشنت السفينة بابتهاج لأن فيها روح السيدة فلانة. وكانت السفينة كبيرة الحجم، وحين تدرجت من على تل طفيف الارتفاع مال كل وزنها على إحدى الأسطوانات من الخشب الصلب وانفجرت على الفور وتحولت إلى لهب - وبذلك قدمت دليلاً آخر على أنها ستكون ناجحة. وقد رأيت هذه السفينة وكانت بالفعل تتمتع بحياة عملية نافعة وناجحة (٢٤).

ظهرت على مر السنين فى مناطق أخرى فكرة مؤداها أن أى تدشين تصاحبه وفاة أى شخص ذى صلة بالسفينة أو إصابته أمر ينذر بالشؤم. وبدلاً من الدم تدشن السفينة بالنبيذ الأحمر، ثم الأبيض، ثم بالشمبانيا (وتوضع فى شبكة فضية لمنع حدوث

أضرار من تطاير الزجاج) وفي الأيام التعيسة لحظر تصنيع الخمر في هذا البلد كانوا يستخدمون جعة الزنجبيل. ولكن حتى في المجتمع المتقدم يعتبر من سوء الحظ ألا تدشن السفينة بوابل من المشروبات الروحية الخفيفة، وكانت تستخدم حيل عديدة بينها الزجاجات الممتلئة حتى آخرها، والأشياء الحادة المثبتة في المقدمة، والمطربة الخفية، وجميعها لضمان أن السائل الثمين يتأثر في اللحظة المناسبة.

في الترسانات التجارية الآن يحدد موقع الترسانة وحجم السفينة الطريقة التي تدشن بها - هل المقدمة أولاً، أم المؤخرة، أم الجانب. وفي الأزمنة السابقة وفي موانئ الشعوب الناطقة بالإنجليزية، كانت معظم السفن تدشن إما بالمؤخرة أولاً أو المقدمة أولاً. والاستثناء الوحيد لذلك الذي أعرفه رواه إخباري أكد لي أن سفن صيد الحيتان في نيو Bedford كانت تبني على أحد التلال ثم تدحرج ثلاث مرات قبل أن تنزل الماء بجانبها، للتأكد من قوتها لهذه المهنة ومن أنها ستقدر على العودة إلى وضعها الصحيح مهما حدث لها في البحر (٢٥).

كما ذكرت من قبل، كانوا يبحثون عن الأمارات الطيبة للتأكد من نجاح التدشين. فلم يكن هناك من يفكر في تدشين سفينة يوم الجمعة أو في اليوم الثالث عشر من الشهر. وكان يوم الأربعاء دائماً "أفضل الأيام جميعاً"، وكان وقت اكتمال البدر هو المفضل. وكان المد العالي طيباً والصباح وقتاً ميموناً. وكانت رؤية خنازير البحر وهي تلهو، وطيور النورس وهي تعمل، والسماء الصافية مع هبوب الريح من الناحية الصحيحة، جميعها تنبئ بالنجاح. وللتأكد من أن طيور النورس تعمل والأسماك موجودة، قيل لي إنه في كل من نوحا سكوشا ومين كان الناس في كثير من الأحيان يلقون طُعماً من قطع السمك لجذب طيور النورس وخنازير البحر وغيرها. وليس لأحد سلطان على الطقس، ولكن حين يكون ممكناً يمكن الاهتمام بالاحتمالات الأخرى.

وفي أماكن أخرى حين تكون السفينة مستعدة للتدشين، كانت قوائم طويلة توضع في الماء، وكانت السفينة ترفع وتوضع الأسطوانات تحت الحمالة وفوق القوائم. وكانت الحمالة توزن بحيث لا تطفو ويربط فيها حبل لاستعادتها. وفي بعض الأحيان كانت الحمالة تدحرج إلى الماء بدون الأسطوانات، وبالنسبة للسفن الكبيرة جداً، كان زوج من القضبان الحديدية أو الخشبية يحل محل الأسطوانات وتسير الحمالة على عجل.

وكان أكثر ما يخافون منه عند التدشين هو أن تقتل السفينة أحداً أو تصيبه أثناء نزولها على السكك، أو أن تلتصق، أى تتوقف أو تتردد فى نزولها إلى الماء. وضماناً لعدم التصاقها، كانت المزالق أو السكك تغطى بطبقة كثيفة من الشحم الحيوانى. وفى حالة عدم وجود الشحم كانت تستخدم البدائل - وفى إحدى الحالات حل الموز محل الشحم فى نيو إنجلاند، وفى لونتبرج Lunenburg بنوفا سكوشا، قيل إن سفينة دشنت على سكة رطبة من الرخويات البحرية! ومن المهم القول إن دهن الخنزير لم يذكر باعتباره مادة تشحيم، ذلك أن دهن الخنزير والخنازير تعتبر شؤماً فى الغالب - وهى من الشؤم فى الواقع إلى حد أنهم فى إسكوتلندا يستخدمون تسمية أخرى لها كنوع من التلطيف.

بعد اكتمال السفينة - على الأقل المرحلة التى يكتمل فيها الجزء الخارجى وتكون مستعدة للطفو - تزين بالأعلام والرايات أو بالزهور، كما فى بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا. بعد ذلك يستدعى رجال الدين لتلاوة الصلوات ولنشر الماء المقدس على السفينة فى مناطق الروم الكاثوليك. وعند هذه النقطة تدهن السفينة وتسمى اسماً عادة ما يكون تغييره فى صعوبة تغيير اسم الإنسان، وفى الساحل الشرقى من إسكوتلندا يسمون أباً روحياً ليكون راعياً للسفينة. وفى تلك الأثناء تزال معظم الدعامات التى تمسك السفينة، وما إن تنكسر الزجاجاة حتى توقع الدعامات الأخيرة أو يقطع الحبل الذى يمسكها، وفى حالة السفن الكبيرة ينشر الخشب الحامل للسفينة بمنشار ضخمة. والواقع أن السفينة ترتعش ثم تنزل ببطء فى اتجاه البحر، حيث تحصل على قوة دفع طوال الوقت. وتتحول القعقة إلى هدير، وتصدر السكك فحيحاً ودخاناً بينما السفينة تجرى ناحية البحر. ولئلا تسير أسرع من اللازم، يقف على الجانب طاقم ممسكاً بحبل لإبطاء سرعتها، حيث إنه من المستحيل إيقافها. وهى تنزل بمقدمتها أولاً فى الماء محدثة طبطة ضخمة، وترتفع المؤخرة، وتتحرر وتطفو خارج الحمالة لتتلقفها اللنشات القاطرة التى تديرها فى اتجاه عقارب الساعة وتأخذها إلى المرسى حيث تزود بالأشعة.

ولا تنزل أعين المراقبين على الشاطئ من على السفينة قبل أن ترسو بأمان. فهم يريدون أن يروا إن كانت "تجرى بحق" فى الماء، وإذا كانت القوارب المرافقة لها قد

نجحت فى إيقافها أم لا. وهى تراقب بصورة خاصة لمعرفة كيف تعمل وتطفو. إن كانت تتمايل تمايلاً مبالغ فيه، أو تترجع أكثر مما يجب، أو "تصل إلى علاماتها"، أى إذا كانت تطفو باستواء واعتدال دون أن تميل على أحد جانبيها (٣٦).

يمكن ذكر احتفال التدشين التقليدى فى شرقى اسكتلندا - حيث الصيانون، طبقاً لما يقوله نيل كاميرون Neil Cameron من كرينان Crinan "مهرة جداً" - ذلك أن الاحتفالات تختلف اختلافاً طفيفاً من منطقة لأخرى. وهنا كانت السفينة تدشن مع المد ولا تسمى حتى تطفو، كما يسكب الويسكى على مقدمتها وينثر عليها المزيد من الويسكى بسخاء، ومعه الشعير والدقيق والخبز. وتخطب السفينة فى الاحتفال بذلك:

من الصخور أو الرمال

والأراضي القاحلة

وأيدى الرجال الأشرار

هررينا

فى الداخل، وفى الخارج

بانطلاقة جيدة (٣٧)

بعد ذلك يوزع صاحب السفينة وأفراد طاقمه الجبن والخبز بسخاء وينتهى الأمر بحفل للرجال فقط فى إحدى الحانات المحلية، حيث يقيمون وليمة من أسماك السفن (*) الذى يبلعونه بالويسكى.

وما إن ينتهى التدشين حتى تكون السفينة جاهزة لإعدادها للبحر - الصارى يوضع فى قاعدته، وتذكك الأشرعة، وتضبط المحركات، إلخ. وفى ذلك الوقت توضع النقود دائماً تحت قاعدة الصارى - ويفضل أن تكون من الفضة، وإن كان من الواضح أن العملات الذهبية كانت تستخدم فى هذه المناسبة. وهذه العادة من القدم بحيث إنه

(*) سمك مفلطح طويل الذيل (المترجم).

تُحشَر الآن في كثير من الأحيان ست بنسات في العارضة الرئيسية في سفن الصيد وتستخدم عملة فضية لتعديل المحرك أو تحشر تحت قاعدة المحرك. ويذكر نيل كامبيرون أنه حين كانت إحدى السفن تتكسر كان الناس يتجمعون ليحصلوا على "الجنبيات الذهبية" التي كانت توضع دائماً تحت قاعدة الصاري. وكان الغرض الأصلي من تلك العملات هو دفع العُشر لإله الرياح، ولكن بما أن آلة الاحتراق الداخلي حلت محل الشراع فقد كان من الطبيعي التفكير في العملات كترضية لإله الضوضاء.

أخيراً، وقبل أن تنزل السفينة البحر، كانت تتطلب دائماً مقدراً معيناً من ثقل التوازن (الصابورة) لتحسين توازنها، وتحسين عزم العنول(*) والمساهمة عموماً في استقرارها. ويمكن استخدام أية أشياء ثقيلة ورخيصة ومستقرة استقراراً معقولاً، إلا أن بعض الحيلة كانت تتخذ في اختيار هذه المادة. فقد أخبرني مؤخراً غطاسو الإنقاذ أنه يمكن تحديد جنسية حطام السفن القديمة من نوع الصابورة الموجودة في أخشابها. فالبعض كان يستخدم الصخور المكسرة، والبعض الآخر الحصى، وهكذا. واليوم يعد الرصاص والحديد الخردة والأسمنت المصبوب من أشكال الصابورة الشائعة، إلا أن كل نمط يتحاشاه مستخدمو النمط الآخر لأسباب عديدة غير منطقية إلى حد كبير. فالرصاص غال جداً، ولكن من يستخدمون الحديد الخردة في نيو إنجلاند يقولون إن الرصاص ثقيل جداً ويجعل السفينة تستجيب بسرعة كبيرة ويقيدها. ومن ناحية أخرى، يقول من يستخدمون الرصاص إن الحديد يعوق البوصلة ويصدأ ويوسخ ماء الجزء السفلي من بدن السفينة. ويعتقد من لا يستخدمون الأسمنت أنه يشغل حيزاً كبيراً جداً ويمنع السفينة من "التنفس"، وبذلك يزيد التعفن الجاف أو الصدأ.

ومنذ سنوات حين كانوا يستخدمون الحجر، كان البازلت والصخور المكسرة مفضلة دائماً. وفي إسكوتلندا كان يؤتى بالصابورة دائماً من الساحل الشرقي من جزيرة ليويس Lewis - على بعد مئات الأميال. ولا يستخدم الحصى المستدير الذي جرفته المياه [الزلط]، وغير مسموح حتى يومنا هذا للأحجار البيضاء أو الأحجار

(*) عزم الدوران الذي يميل إلى إعادة السفينة المائلة إلى وضعها الصحيح (المترجم).

التي بها ثقبوب بالنزول إلى الجزء السفلى من بدن السفينة، طبقاً لما يقوله مالكوم ماكدونالد Malcolm Macdonald من ستورنواي Stornoway (٢٨). ومن المؤكد أن احتمال تحرك الصخور المكسرة أقل من الحجار الناعمة والحجر الداكن أثقل عموماً من الأحجار التي بها ثقبوب أو الصخور المسامية، ولكن هناك من الأفكار ما هو أكثر من ذلك. وليس على المرء سوى أن يتذكر أن داود قتل جوليات بحصاة بيضاء ناعمة، وأن الجنيات لا يمكنهن إيذاء رجل في جيبه زلطة، كي يدرك الآثار السحرية. وحين يلاحظ المرء عبارة ذكرها إيان ماكلينان تقول إن "ما يأتي من البحر لا بد أن يعود للبحر"، فإنه لن يستغرب عدم استخدام حصى البحر.

مع أن الكثير من هذه العادات والمعتقدات قد يكون منشؤه ما اسماه السير توماس براون Sir Thomas Browne (*) "الأخطاء السوقية" وجرى تناقله من وراء ظل ما قبل التاريخ، تظل الحقيقة هي أنها، أو الكثير منها، وظيفية على نحو مباشر. وبالنسبة للهيكل، البلوط صلب ويقاوم الماء، وبالنسبة للألواح الأرز خفيف وقوي. إلا أنها فيما وراء ذلك لها وظيفة أخرى - وهي وظيفة نفسية يصعب قياسها مثل الضغط الذي تمارسه السفينة على مرساتها في الريح العاتية. ويصدق البحارة هذه الأمور، وتحسن كفاءة أفراد الطاقم أو تتلاشى من الناحية النفسية بسبب كونهم مؤيدين أو غير مؤيدين لها. والواقع أن الحقيقة نفسها التي تقول إن مخالفة المحظورات أو اتباعها قد يحدد نوعية أفراد الطاقم الذي تحصل عليه سفينة من السفن. فلماذا يذهب بحار جيد في سفينة اشتهرت بأنها كانت منحوسة عند بنائها أو تدشينها؟ وفيما وراء هذا هناك أدلة تدعم المعتقدات. فقد سُميت السفينة Great Eastern [الشرقي العظيم] في أول الأمر Titanic. ومن المفترض أن اثنين من عمال البرشام حشرا داخل بدنهما المزدوج. وقتل العديد من الرجال وهم يبنونها وعند تدشينها. كما أنها التصقت على السكك. وكانت طوال حياتها سفينة أحزان وأسى، حيث قضت على أصحابها، وأغرقت البحارة، في الرياح العاتية والتحطم والتصادم (٢٩). فهل من دليل أكثر من ذلك؟ بل إن

(*) فيزيائي وكاتب إنجليزي (١٦٠٥-١٦٨٢) عُرِفَ بثناء نشره في أعمال مثل Religio Medici وهو محاولة لعمل مصالحة بين الإيمان المسيحي والمعرفة العلمية (المترجم) . -

كاتباً مثقفاً ومتقدماً مثل اللفتانت إف إم باسيت F.M. Bassett يتسائل إن كانت سفينة معينة فقدت بين نيويورك ونورفولك لأنها لم تدشن بالشمبانيا (٢٠).

ذات مرة قال بحار عجوز "بالطبع قد لا يكون بها شيء ولكن من الناحية الأخرى ... حين تعيش في ظل الموت ولا يكلفك شيء أن تأخذ الاحتياطات، فإنه رجل جسور حقاً ذلك الذي يخالف المحظورات ويلتمس الكوارث.

الفصل الثانى

أسماء فى البحر

يبدو أن الخرافة صفة أصيلة من صفات المحيط.

جيمس فينيمور كوبر

James Fenimore Cooper: The Red Rover

تبدو دراسة الأسماء البحرية لأول وهلة على قدر كبير جداً من الإثارة وتكاد تثبط الهمم إلى حد كبير. وهى مثيرة لأن وراء كل اسم قصة ما، والأمر الثانى هو أن هناك اختلافاً ضخماً فى المعايير الخاصة بأسلوب التسمية، ليس فقط من حيث النوع، بل والجنسية كذلك. والأسماء البحرية تثبط الهمم بسبب عددها ولأن تصنيفها من الصعوبة بمكان. ولكى ندرك المشكلة نحتاج فقط إلى النظر إلى ما يزيد على ألف خريطة تغطى الجزر البريطانية وأمريكا الشمالية، حيث لكل رأس بحرى كبير وخليج وميناء ورأس ولسان وشبه جزيرة وجزيرة وجزيرة صغيرة وصخرة وجرف وحافة اسم يسمى به، ناهيك عن المخاضات [الأماكن الضحلة] والأغوار والتيارات والجيشان والدوامات . ويخلاف هذه الأسماء الموضوعة على الخرائط، هناك أعداد ضخمة من الأسماء المحلية التى لا يستخدمها سوى أهل كل منطقة لتحديد موضع بحرى ما أو ظرف من الظروف لا يظهر حتى على أدق خرائط الموانئ تفصيلاً. وكما لو كان هذا غير كاف، يبدو أن الأسماء موجودة فى كل لغة معروفة تقريباً وتغطى أعداداً هائلة من الاحتمالات.

الغرض الذى أسعى إليه هو محاولة إيجاد نوع من النظام والترتيب لهذا الخليط الذى يتسم بالفوضى لأسماء الأعلام التى تحدد بحار وسواحل أمريكا الشمالية والجزر البريطانية. وأود أن أوضح، أولاً، أن هناك اختلافاً واضحاً بين الأسماء فى البحر

والأسماء على اليابسة في أمريكا الشمالية، وثانياً أن هناك اختلافاً واضحاً بين نظامي التسمية في كل من العالمين القديم والجديد. بل إنني أود وضع بعض الأفكار العامة مثل وجود هذا الاختلاف، وبيان أنه ربما كانت هناك عشرة أسباب أساسية بالنسبة لتشكيل أسماء المواضع البحرية. (تنتج هذه الأسباب في الجزر البريطانية عن نوع من الأسماء وتنتج في أمريكا الشمالية عن نوع آخر). وأخيراً أود بيان أن الأسماء البحرية نادراً ما تتغير، ولكن حين يحدث التغير يكون استجابة لمعايير محدودة.

وحين نلقى نظرة سريعة على خريطة العالم الجديد ندرك على الفور أن أسماء مثل "بوسطن" Boston و"أوكسفورد" Oxford و"نيو لندن" New London و"نيو هيفين" New Haven و"ترورو" Truru و"بريستول" Bristol و"كمبردج" Cambridge تحدد الأرض ومستمدة من أماكن في الجزر البريطانية. بينما نجد أن مجموعة أخرى من الأسماء مثل "هاليفاكس" Halifax و"بالتيمور" Baltimore و"فورت ويليام" Fort William و"كوين آن" Queen Ann مستمدة من شخصيات نبيلة أو ملكية. وبهذا ، كبداية، نتوقع أن الأسماء البحرية هنا جاءت بنفس الطريقة. ولكن الأمر ليس كذلك. فحين نمر بأعيننا على خريطة الجزر البريطانية نلاحظ الأسماء "رو" Rhu و"مول" Mull و"هوك" Hook و"نس" Ness و"فورلاند" Foreland و"بيل" Bill - وجميعها أسماء تشير إلى رؤوس بحرية. ونرى كذلك "هيفن" Haven و"هول" Hole و"لوخ" Loch و"ساوند" Sound و"ساندز" Sands و"وتر" Water و"بانك" Bank. ويمكن أن نجد كذلك "آينيش" Inish و"بابا" Papa و"ستاك" Stack و"ستاج" Stag ، وعدداً من اللواحق مثل - head و - shear و - ay و - vore . ومن بين الخمس كلمات الأولى من هذه الكلمات تظهر واحدة فقط أو اثنتان على الخرائط الأمريكية. والواقع أنه ليس بين هذه الكلمات تقريباً ما هو مستخدم لتحديد أماكن في أمريكا الشمالية، وعندما تستخدم فإن معناها يختلف بعض الشيء. فأنظمة التسمية الأمريكية عادة ما تكون رؤوساً أو ألسنة ، مثل Cape Fear [رأس الخوف] أو Point-No-Point [لسان بلا لسان] أو Sankaty Head [لسان سانكاتي] . وملاحظي سفننا دائماً موانئ ومرافئ وشروم (جمع شرم)، ونادراً ما تكون فتحات أو حنيئات. وإذا كانت المدن الأمريكية سميت بأسماء مدن إنجليزية، فلماذا لم يكن هذا هو حال البحار كذلك؟

جاءت أسماء البحار في العالم القديم من عصور عتيقة تعود إلى ما يزيد على الألف عام، وألقت تلك العصور القديمة بظلالها على معانى الأسماء. وبورتلاند بيل Portland Bill بالنسبة للبحار البريطاني لها نكهة مميزة ووحيدة، وهي أشبه بطفل ينادى أباه بكلمة "بابا". ونرى الشيء نفسه في أمريكا حين يقول بحار على ساحل مين "كنا على بعد أربع ساعات جنوب شرقى الصخرة". فالكلمة يعرفون أن هناك "صخرة" واحدة - Mt. Desert [الجبل الأجرد] . ويرى البحار تغيير هذا الاسم ضرباً من الحمق.

كانت تواجه البحارة الأوائل في أمريكا مشكلة لم يسبق لهم مواجهتها في الوطن الأم. فقد كانت تتراعى أمامهم قارة شاسعة بلا أسماء. ولكي يجعل هؤلاء الرجال الملاحة أسير لمن يأتون من بعدهم، اضطروا للشروع في برنامج مكثف للتسمية. وبينما كانت الأسماء في الوطن الأم مشتقة في الغالب من التسميات الشعبية، فقد وضعها في العالم الجديد رجال محنكون إلى حد بعيد - وكانوا ملاحين مثل السير فرانسيس دريك Sir Francis Drake (*) وسير دى شامبلان Sieur de Champlain (**) والقبطان جون سميث John Smith (***). وقد سعى هؤلاء الرجال في المقام الأول إلى تحديد العلامات البحرية الكبرى. وكشأن الرجال المحنكين الذين تولوا تسمية المدن في محاولة لتشريفها، حيث غيروا في إحدى الحالات اسم Shunk's Misery [بخل شانك] إلى Scrantonia بولاية بنسلفانيا ^(١)، فقد أعطى هؤلاء البحارة الكثير من الأماكن الأكثر بروزاً التي قابلوها أسماء كريمة. ولهذه الأسباب نجد أن أسماء الأماكن في أمريكا الشمالية مختلفة عنها في الجزر البريطانية.

حين نضع في اعتبارنا أن المستوطنين الأوائل جاءوا من إنجلترا وأيرلندا واسكوتلندا وويلز، يكون من الغريب في واقع الأمر أنهم لم يستخدموا نفس

(*) بطل بحرى ومستكشف إنجليزى (١٥٤٠-١٥٩٦) كان أول إنجليزى يبحر حول العالم فى سفينة وكان نائب قائد الأسطول الذى دمر الأرمادا الأسبانية (١٥٨٨) (المترجم) .

(**) همبول شامبلان (١٥٧٦-١٦٣٥) مستكشف فرنسى أنشأ بورت رويال التى صارت أنابوليس رويال فى نوفا سكوشا (١٦٠٥) وأنشأ مستعمرة فى عام ١٦٠٨ على موقع كيبيك الحالية فى كندا (المترجم) .

(***) مستكشف وكاتب إنجليزى (١٥٨٠-١٦٢١) كانت الخرائط والحسابات الخاصة باستكشافاته فى فيرجينيا ونيو إنجلاند ذات قسمة كبيرة جداً لمن جاء بعده من المستكشفين والمستعمرين (المترجم) .

المصطلحات القديمة مثل Inish التي تعنى جزيرة فى اللغة الأيرلندية، أو Mull التي تعنى شبه جزيرة فى اللغة الفيلية(*)، أو Bill ومعناها الحرفى المنقار فى الإنجليزية القديمة؛ أو بعض الكلمات الإسكندنافية التي كانت شائعة إلى حد كبير فى الجزر البريطانية مثل اللاحقة -ay التي تعنى ميناء. وقد لا تكون الإجابة الشافية عن هذه المسألة غير معروفة بالمرّة، ولكن على أقل تقدير هناك إجابة جزئية تكمن فى حقيقة أن الأسماء البحرية علامات بارزة بالنسبة للبحار. وكانت الأسماء الجديدة مفضلة فى الغالب على الأسماء القديمة لتحاشى الخلط والمساعدة فى تمييز العون المحدد أو العائق المعين بالنسبة للملاحة. وقد نعثّر على سبب آخر فى زمن تسمية الكثير من الأماكن فى الجزر البريطانية، التي غالباً ما تعود إلى الكلتيين Celts (**) وإلى الغزاة الإسكندنافيين. وربما استخدم البحارة الإنجليز الذين وصلوا إلى مواضع لا اسم لها، أسماء شائعة لوصف المناطق الجديدة، وربما لم يكونوا ملمين بالمعانى الحقيقية للأسماء المحلية للأماكن.

وإذا نظرنا إلى الأسماء البحرية البريطانية لوجدنا نوعاً من المؤشر التراكمى للناس الذى كانوا فى وقت من الأوقات على الساحل. فقد اختفى البكتيون Picts (***) والكتيون والإسكندنافيون، كما اختفى الفرنسيون والهولنديون والأسبان. ومع ذلك فإنه سواء أكانت إقامتهم عابرة أو طويلة، فإن لدينا شواهد على مرورهم فى أسماء مثل Spanish Point و Galley Head و Oxford Ness و Skipton و Sule Skerry وما شابه ذلك.

يبدو أن الأسماء البحرية الأمريكية تتبع النمط ذاته. فأسماؤنا القديمة هندية، وحُفظ بعضها فى الترجمة - مثل Cocoharbuks ومعناها "رأس البومة" - وهى الآن Owl's Head بولاية مين. واتباع الشئ نفسه مع كل الأسماء، وفى المقام الأول الأسبانية

(*) اللغة الكلتية فى أيرلندا أو إسكوتلندا (المترجم) .

(**) شعب هندوأوروبى موطنه الأصلي وسط أوروبا ثم انتشر إلى غرب أوروبا والجزر البريطانية فى عصور ما قبل الرومان (المترجم) .

(***) شعب قديم عاش فى شمالى بريطانيا ولم يتعن الرومان من هزيمته، وفى القرن التاسع انضم إلى الإسكوتلنديين ليشكلوا معاً مملكة صارت إسكوتلندا (المترجم) .

والفرنسية والإنجليزية، ولكن مع إدخال عدد ضئيل من الأسماء الهولندية والسويدية والألمانية وغيرها. وليس علينا سوى أن نتذكر "هسبانيولا" Hispaniola و"كيب سان فنسان" Cape St. Vincent و"أوتشى ريوس" Oche Rios من البحر الكاريبى، أو "باها كاليفورنيا" Baja California أو "كيب سابل" Cape Sable و"إل أو أو" Ils au Huat من نوفا سكوشا، أو مين و "ستاتن آيلاند" Staten Island و"بلوك آيلاند" Block Island .

يقودنا كل ما سبق إلى السؤال عن كيفية وجود تلك الأسماء ويجعلنا نتساءل إن كانت هناك أية قواعد قد وضعت كأسس إرشادية للتسمية. ويبدو أن الإجابة هي نعم. فالواقع أنه فيما يتعلق بالعالم الجديد يمكننا الوصول إلى بعض المحددات الدقيقة بصورة كبيرة. فيبدو أن المستكشفين من أسبانيا وجنوب أوروبا كانوا يجدون متعة فى تسمية الأماكن بأسماء القديسين، وهو ما يمكننا رؤيته بالنظر إلى خريطة ساحل كاليفورنيا وفلوريدا وجزر الهند الغربية. وكان الفرنسيون يبدون ميلاً نحو الأسماء المحلية أو نحو الأشخاص المعروفين للمستكشفين، مثل شامبرلان، أو نحو أشياء حدثت فى المكان. ولكون الإنجليز من البروتستانت فى وقت قدومهم، فقد ابتعدوا عن أسماء القديسين ومالوا ناحية تسمية الأماكن بأسمائهم وأسماء الرعاة فى الوطن الأم.

وفى وراء تلك التعميمات يمكننا الانتقال إلى أفكار أكثر تحديداً. فيما أن الجزر والصخور غالباً ما تكون علامات بحرية للأغراض الملاحية، فقد كان من أهم طرق تسميتها تحديدها بعلامات بارزة. وقال شامبرلان: "رأيت جزيرة ذات سبعة جبال جرداء" - يقصد Mt. Desert بولاية مين. وقد سميت Gay Head [ومعناها الرأس المرح] بسبب صخورها متعددة الألوان التى تلمع فى الشمس. وهناك High Island [الجزيرة العالية] و Flat Island [الجزيرة المستوية] و Mud Island [الجزيرة الطينية] فى نوفا سكوشا). وهناك Spectacle Island [جزيرة النظارة] التى ربما سميت بذلك لأنها تتعرض للسراب أو تبدو كالنظارة. وفى إسكوتلندا لدينا Mull (جزيرة الرعوس) وبالقرب منها Skye (الجزيرة المجنحة). ونجد جزر Bald Head [الرأس الأصلع] و One Bush [الشجيرة] و Two Bush [الشجيرتين] . وهناك جزر Pond Island [جزيرة البحيرة] و Iron Bound [التى تطوقها الصخور والحجارة] و Porcupine Islands [جزر القنفذ] - حيث تبدو لكل من يراها كأنها القنفذ الأم يتبعها صغيرها. وهناك الجزر "البضاء"

والسوداء والخضراء. ويعيداً في الشمال تقع Rockall - وهي كتلة ضخمة من الصخر وسط البحر.

يلي ذلك في الأهمية ما يحدث في المكان. وهكذا فإن لدينا Stage Island [جزيرة المنصة] ، حيث كانت هناك منصات لتجفيف الأسماك؛ وهناك Deer Island [جزيرة الغزلان] و Cormorant Rock [صخرة الفاق(*)] و Seal Ledge [حيد الفقمة] و Dry Tortuga [الجزيرة الجافة] و Duck Cove [شرم البط] و Sheep Island [جزيرة الغنم] و Calm Cove [الشرم الهادئ] و Bass Rocks [صخور القاروس(**)] و Mackerel Cove [شرم الماكريل(**)] و Hake Ground [أرض النازلي(**)] و Dogfish ledge [حيد كلب البحر(**)] .

هناك فئة تضم الأسماء المشتقة من صفات المكان ولكن دون أن تتعامل معها بنفس الألفاظ على وجه الدقة كالأماكن الأخرى. ففي الجزر الموجودة في البحر المقابل لإسكوتلندا نجد Compass Head [رأس البوصلة] ، وسميت كذلك بسبب الشنوذ المغناطيسي الموجود هناك. وربما سُمي Bloody Foreland [الرأس الدامي] بهذا الاسم بسبب الضوء الوردى المنعكس منه، مع أن هناك احتمالات أخرى سوف نذكرها فيما بعد. وتقع Halfway Rock [صخرة منتصف الطريق] بولاية مين في منتصف الطريق بين Cape Small [الرأس الصغير] و Cape Elizabeth [رأس اليزابيث] . و Wild Bellow [الخوار الوحشي] تنوء تحت سطح الماء على الساحل الغربي من أيرلندا ولا يبعد كثيراً عن Bull's Mouth [فم الثور] حيث المد القوي. وفي ترينيداد Trinidad مكان مشابه يسمى Serpent's Mouth [فم الحية] . و Roaring Bull [الثور المزمجر] صخرة قبالة مين. وتقع Overfalls Lightship [منارة الأمواج المتكسرة] وسط تيار مدّي قوي قبالة جزيرة Cape Sable Island [رأس جزيرة الرمال] في نوفا سكوشا، حيث يسير التيار بسرعة كبيرة. وأحد مداخل ميناء نيويورك عبر Hell Gate [بوابة جهنم] حيث يسير التيار بسرعة كبيرة تكفي لتهديد حتى السفن الكبيرة.

(*) طائر مائي ضخيم نهم تحت مقاره جراب يضع فيه ما يصده من أسماك (الترجم) .

(**) أنواع من الأسماك (الترجم) .

و Smutty Nose [الأنف المهبب] جزيرة يلفها الضباب معظم الوقت، ويقول البعض عن Squeaker Guzzle [وتعنى squeaker من يصدر عنه صرير أو صراخ] الواقعة قبالة مين ، إن هناك ضجيجاً شديداً الغرابة يلزمها. و Big Kettle Pool [بركة البراد الكبير] فى جزر هيبيريديز الخارجة Outer Hebrides بها جزيرة صغيرة فى وسطها حيث يحدث المد والجزر فقاقيع ويصدر صوتاً كصوت براد الشاي وهو على الموقد. ولذلك لا نستغرب أن الجزيرة اسمها Wizard Island [جزيرة الساحر] ، والبركة الصغيرة المجاورة لها اسمها Little Kettle Pool [بركة البراد الصغير] .

وهناك فئة أخرى من الأسماء البحرية مشتقة من أسماء أشخاص عاشوا على قطعة بعينها من العقار أو امتلكوها أو استغلوها وغمرتها المياه أو غير ذلك. وتقع Goodwin Sands Lightship [منارة رمال جودوين] فوق ما كان فى يوم من الأيام جزيرة يملكها إيرل جودوين Earl Godwine وكان يستخدمها كمزرعة فى القرن الحادى عشر. وفى بداية العصور المسيحية انتقل النُسّاك من أيرلندا إلى الجزر الغربية West-ern Isles فى إسكوتلندا وأقاموا الأديرة وسط الجزر الأبعد والأصعب فى الوصول إليها. ومن هذه الحركة جاءت أسماء Papa Westray [الأب ويستراى] و Papa Stour [الأب ستاور] و Barra (St. Barr's Island جزيرة القديس بار) وغيرها.

أعطى التاج البريطانى فى العصر الكولونىالى ما تعرف حالياً بولاية مين إلى رجل اسمه السير فردناندو جورجيس Sir Ferdinando Gorges . وما إن امتلك منطقة مين حتى امتلك كل حقوق الصيد كذلك. وعلى بعد فراسخ عديدة شرقى مين وغربها تقع واحدة من أكثر أماكن الصيد ربحية فى أمريكا الشمالية، وهى مخاضة تسمى Georges Bank (وكان اسمها فى الأصل Gorges) . وفى خليج بلايموث Plymouth Bay بولاية ماساتشوستس تقع Clarke's Island [جزيرة كلارك] ، وكانت فى يوم من الأيام ملكاً لقبطان السفينة مايفلاور Mayflower . وأعطى ليون جاردنر Lion Gardiner اسمه لجزيرة فى لونغ آيلاند ساوند Long Island Sound ، وكانت Richmond Island بولاية مين ملكاً لرجل اسمه ريتشموند كان يمتلك "خائناً لا بأس به" هناك فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. و Carver's Harbor [ميناء كارفر] و Crockett Cove [شرم كروكيت] بولاية مين، و Drake's Pool بأيرلندا (حيثما يقال إن السير فرانسيس

Sir Francis الشجاع اختبأ من الأسبان) قد سُميت جميعها كذلك لمثل هذه الأسباب، كما كان الحال بالنسبة لكل من Coggeshall Ledge [حيد كوجشال] و Cox's، وهما أماكن صيد رائعة قبالة ساحل نيو إنجلاند.

فى بعض الأحيان كذلك تسمى أماكن لأغراض ملاحية بحتة. فهناك Land's End [نهاية الأرض] و Kintyre (نهاية الأرض باللغة الكلتية) و North Cape [الرأس الشمالى] و East Port [الميناء الشرقى] و Wset Port [الميناء الغربى] و Skipport (ميناء السفن) و Northeast Harbor [الميناء الشمالى الشرقى] و Hurricane Hole [فتحة الإعصار] و Snug Harbor [الميناء الهادى] و North Sea [بحر الشمال] (ويسميه الألمان Mord See أى بحر القتل، بسبب رياحه العاتية) و The Thread of life [خيط الحياة] بولاية مين. وتدخل ضمن هذه الفئة كل من Halfway Rock و Cape Fear و Elbow of the Cross فى خليج دلاوير Delaware Bay . إلا أن هذه الأسماء تبدو أقل من حيث عددها مقارنة بغيرها من الأسماء.

من حين لآخر يرتبط بهذه الأسماء نوع من الفكاهة الساخرة التى تقتضى الترجمة فى بعض الأحيان. ونحن نسير على ساحل نيو إنجلاند نرى Mistake Harbor [ميناء الأخطاء] و Bailey's Mistake [غلطة بيلى] و Deggart's Downfall [سقوط ديجارت] و Moll's Misery [لسان البؤس] (حيث يفترض أن سكيراً عجوزاً سقط وهو يصطاد المحار وانكسر أنفه بينما كانت زوجته تولول على الصخرة الأخرى)^(٢). وهناك Boo Hoo Rocks و Barney's Joy [فرحة بارنى] - وهى قطعة كئيبة من ساحل ماساتشوستس. وبالقرب من جزيرة الجبل الأجرد تقع صخرة تسمى Bunker's Whore [عاهرة بانكر] . وكان القبطان بانكر قائداً شهيراً لإحدى السفن الأهلية المستخدمة للاستيلاء على سفن الأعداء أثناء الثورة الأمريكية. وكان كذلك مولعاً بالنساء. وكان متيمماً فى غرامه بإحدى بنات الجزيرة التى كانت تزوره على سفينته حين يكون قريباً من الجبل الأجرد. وفى ليلة من الليالى كانت عائدة فى قاربها فاصطدمت بالصخرة المذكورة وغرقت. ونسى الناس اسمها ولكن الصخرة تستعيد ذكرى مهنتها بالنسبة للعامة المتمسكين بالمعنى الحرفى.

يوجد فى جزر هيبيريديز الخارجة شرم صغير. وكان رجل عجوز يحتفظ فيه بقارب وكان الجيران "يستعيرون" دائماً المركب الصغيرة. وفى كل مرة كان صاحب القارب يريده فيها، يكون شخص آخر قد أخذه. وأطلق الرجل على الميناء الصغير Port na striopaich أى شرم العاهرة، لأن القارب كان يخرج دائماً فى الليل. والتصق الاسم بالمكان. ولهذا السبب أصبح اسم الميناء Whore Boat Harbor [ميناء المركب العاهرة] (٤) .

وتقع قبالة روكلاند Rockland بولاية مين جزيرة أمضى عليها بحار ألقى به الأمواج ليلة بانسة باردة ممطرة . كان اسمها الأصلي Cold Arse Island [جزيرة الحمار البردان] (٥) . وإلى الشرق منها تقع Virgin's Teats [حلمات العذراء] ، وبها صخرة سوداء منخفضة تسمى Lecherous Priest [القس الفاسق] .

فى بعض الأحيان نجد أن هناك كذلك حكايات صغيرة وأناشيد ترتبط بهذه الأسماء. ففي خليج ناراجانست Narragansett Bay هناك عدد كبير من الجزر التى كانت فى يوم من الأيام ملكاً لعائلة بوتير Potter . وطبقاً لنشيد محلى فإن الأمل والحكمة واليأس، والصبر العجوز الصغير موجود هناك. والشائع أن بوتير سمي تلك الجزر بأسماء بناته، حيث الرابعة Despair [اليأس] . وهناك قصة مشابهة تتعلق بأكبر جزيرتين من جزر إليزابيث، حيث تحكى كيف أن أباً أعطاهما لبناته. ولذلك أصبح اسم إحداها Martha's Vineyard [كرم مارثا] ؛ وسميت الجزيرة البعيدة Nan Tuck it [نان أخفتها] (٦) .

إلا أن كل هذه الأسماء مجتمعة لا تضاهى فى شئ المجموعة الأخيرة. فهذه عادة، وليس دائماً، حواجز وعوائق للملاحة. وهى تكتسب أسماءها بطريقة صعبة - من المأسى البحرية. فعلى هذه العوائق كان يلقي بالقباطنة سيئى الحظ أو الذين يفتقرون إلى الحكمة والحصافة إلى الشاطئ ويفقدون كلاً من سفنهم وطواقمهم. وعادةً ما تحمل الصخرة اسم أول شخص أخفق عليها؛ وربما تنسى مأسى لاحقة أو أشد رعباً من أجل أولى المأسى. وصحيح أن كل اسم بحرى تقريباً له قصة من نوع أو آخر ترتبط به، ولكن حتى الآن نجد أن أكثر القصص إثارة، وكذلك أكثرها رعباً، هى حكايات غرق السفن واليأس. ولا يخشى البحار الريح العاتية فى عرض البحر ولا النار

ولا التصادم ولا الموت جوعاً ولا المرض نصف خشيته الصخور والحيود المتناثرة في الماء على امتداد منحني المائة فرسخ(*) . وكانت محنة البحار تتسم بالشدة حين تحبسه الريح في شاطئ تهب في اتجاهه، أو حين يخيم الضباب فيحجب الأصوات ويمنع الرؤية، أو حين ينهمر الثلج كثيفاً، بينما هو يتحسس طريقه إلى الميناء. وكان في كثير من الأحيان ينجو من هذا كله، ولكن لم يكن من نصيب كثيرين أن ينجوا مرتين.

في بعض الأحيان كان من السهل تحديد هذه الأسماء. ففيما بين جزر بلاسكت **Blasket Islands** والبر الرئيسي، حيث الأسماء جميعها أيرلندية، تقع **Stromboli Rock** [صخرة سترومبولي] . ويتحرك المد بقوة في مضيق بلاسكت **Blasket Sound** وتصعب الملاحة. وبينما كان الطقس سيئاً، دخلت السفينة البريطانية سترومبولي المضيق واصطدمت في الصخرة. ولابد أنها كانت تتحرك لأنها أوقعت الصخرة حين اصطدمت بها، ولكنها خلعت قاعها كذلك. ويظهر المكان الذي كانت الصخرة تقف فيه على الخرائط باسم صخرة سترومبولي. ونجد في مكان أبعد على ساحل أيرلندا **Gal-ley Head** [رأس القادس(**)] حيث جنح قادم أسباني على الشاطئ بينما كان يحاول استعادة أسبانيا بعد الفشل الكبير في المانش **English Channel** . وفي إسكتلندا نجد **Jemimah Rock** [صخرة جيمما] - وهو اسم أمريكي - قبالة جزيرة كانا **Isle of Canna** حيث الأسماء في أغلبها كلتية، وقبالة ساحل نوفا سكوشا، هناك **Brazil Rock** [صخرة البرازيل] حيث اصطدمت بها باخرة وفقدت. وتتميز مخاضة روز وكراون **Rose and Crown Shoal** قبالة الجانب الخلفي من كيب كود **Cape Cod** البقعة التي فقدت فيها اثنتان من السفن الحربية البريطانية في يوم عاصف، وكانتا تحملان الاسمين **H.M.S. Rose** و **H.M.S. Crown** . وفي يوم لطيف كانت أكبر سفينة في العالم، واسمها **The Great Eastern**، تشق طريقها بصعوبة في مضيق لونج أيلاند **Long Is-land Sound** . وعلى مسافة غير بعيدة من مقبرة السفينة الإنجليزية سيريباص **H.M.S. Cerebus** (مخاضة سيريباص **Cerebus Shoal**) اصطدمت بصخرة وتحطم جزء كبير

(*) الفرسخ حوالي ٤.٨ كيلومتر (المترجم) .

(**) سفينة كبيرة ذات مجاديف (المترجم) .

من قاعها، مما كشف عن عاملى البرشام اللذين سبق ذكرهما. ولا تزال الخريطة تشير إلى صخرة الشرقى العظيم Great Eastern Rock الموجودة على مسافة ثلاثين قدماً تقريباً تحت سطح البحر.

ليس من النادر أن يتمخض اسم عن اسم آخر؛ ولذلك فإننا نجد أن هناك Old Man [العجوز] و Old Woman [العجوزة] ، وكذلك Green Island [الجزيرة الخضراء] و بجوارها Little Green Island [الجزيرة الخضراء الصغيرة] . وقبالة مين نجد Horse Island [جزيرة الحصان] و Colt Island [جزيرة المهر] المصاحبة لها. وفي أيرلندا، حيث يبدو أن الناس هناك يحبون تسمية الأماكن بأسماء الماشية، نجد بعض أسماء الأماكن اللافتة للانتباه: فهناك "قم الثور" الذى ذكرناه من قبل ويقع فى خليج بلاكسود Blacksod Bay حيث يتحرك المد بسرعة كبيرة، وإلى الجنوب من الساحل نصل إلى "الخور الوحشى". وبالقرب منه هناك "الخور الخافت" Sunk Bellow و"الخور" Bellow . وإلى الجنوب من ذلك نصل إلى Bull [الثور] و Cow [البقرة] [العجل] و Calf [العجل] و Heifer [ومعناها الشبّة، أى البقرة التى لم تلد قط] - وهى جزر صغيرة جميلة المنظر ولكنها شديدة الخطورة. (وهذه الجزر الصغيرة تكاد تكون آخر كتل اليابسة غرباً فى أوروبا وكانت تسمى فى يوم من الأيام "جزر الموت"، حيث تتوقف كل الأرواح عندها لبعض الوقت وهى فى رحلتها الأخيرة إلى العالم الآخر.)

ويمكن ملاحظة اسم أخير من مرفأ جلاندور Glandor، حيث نجد جزيرتى آدم وحواء. ويقول البحارة إنه عند دخول الميناء، الذى تكثر فى مدخله العوائق، "يمكنك الدخول بيسر حين يكون آدم فوق حواء" - وهم يعنون بذلك أنه حين تكون الجزيرتان على خط واحد لا يعوق دخول الميناء شىء.

وعموماً فإن الأمريكين يستخدمون نفس هذه الأساليب فى التسمية، إلا أن تراكيبيهم تفتقر إلى الخيال إلى حد كبير. فمع أن لدينا Brenton's Reef [حاجز برنتون] و Brenton's key [مفتاح برنتون] عند مدخل خليج ناراجانست، وحاجز Sow [الخنزيرة] و Pigs [الخننازير] و Hen [الدجاجة] و Chickens [الكتاكيت] التى تسد تماماً مدخل خليج الصقور Buzzards Bay، فإن عدداً كبيراً من تراكيبينا أسماء تتعلق

بالاتجاهات مثل East and West Hue [اللون الشرقى واللون الغربى] و East and West Cry [الصرخة الشرقية والصرخة الغربية] و West Brown Cow [البقرة البنية الغربية] . وتتفوق نوما سكوشا بسبب جزيرتى Limb و Limb's Limb (وهما كناية عن الشيطان والعفريب).

إلا أن الأسماء ليست جميعها على هذا القدر من سهولة فهمها . وهناك اسمان أو ثلاثة أسماء يمكن ذكرها . فعلى مقربة مدخل خليج تشيسابيك تقع Wolfrap [فخ الذئب] . ولا يكون لهذا الاسم أى معنى حتى نعرف أن السفينة البريطانية H.M.S. Wolf [ومعناها الذئب] جنحت هناك فى وقت سابق من التاريخ . وقبالة شاطئ رود أيلاند تقع Noble Biting [العض النبيل] حيث توجد أسماك التوتوج blackfish بأعداد ضخمة . وعلى جزيرة المخاضات Isle of Shoals توجد Money Rock [صخرة المال] . وفى إحدى الليالى التى كان الطقس فيها شديد السوء كانت إحدى السفن تسير على غير هدى بينما الجليد ينهمر بشدة واصطدمت بالصخرة بقوة رهيبة أدت إلى فتح الخزينة ، ويقال إن السكان وجدوا فى اليوم التالى - إلى جانب الجثث المتجمدة عند أعتاب بورهم - عملات معدنية فوق الصخرة .

تكون لتلك الأسماء فى بعض الأحيان ما يمكن تسميتها حكايات هامشية ترتبط بها تساعد على تذكرها - أو تشرح للناس ما بات غير مفهوم لهم . وتقع Monhegan Is-land (وتعنى الجزيرة البعيدة بلهجة بينوبسكوت Penobscot^(*)) قبالة ساحل مين . وتقول حكاية إن رجلاً إنجليزياً اختفى منذ سنوات كثيرة وكان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه موجود على الجزيرة . استؤجر الهنود للبحث ، وبعد أن مشطوا الجزيرة بون فائدة ، قال أحد الهنود لرجل أبيض : " Man he gone. [أى لقد مات الرجل] . وفى خليج ميدانكوك Meduncook Bay القريب يقال إن هندياً أسقط براد الشاى الخاص به من على السفينة وقال بأسف وأسى : " me done cook [أنا الذى فعلتها يا طباح]^(٧) . ومنذ عدة سنوات مضت روى لى بحار عجوز أن سفينة إنجليزية عليها

(*) شعب من سكان أمريكا الأصليين يسكن خليج بينوبسكوت ووادى نهر بينوبسكوت فى ولاية مين

(المترجم) .

ضابط بحرى هولندى كانت تقترب من نيويورك فى الضباب. صاح المراقب قائلاً: "وصلنا البر." فسأله الضابط البحرى: "S tat an island?" [هل هذه جزيرة؟] وقال لى الإخبارى: "ومن وقتها وهى تعرف باسم جزيرة ستاتن Staten Island ."

حدث ذات مرة منذ زمن بعيد أن كانت هناك امرأة عملاقة، وكانت تسمى فى بعض الأحيان الجنية الشريرة أو الساحرة الشمطاء. ويقال إنها كانت تقف فوق مدخل الطرف الشمالى للبحر الأيرلندى حيث تضع قدمًا فى كيلمورى Kilmorey فى أيرلندا والقدم الأخرى فى كاريك Carrick فى إسكوتلندا. وكلما حاولت إحدى السفن المرور من تحتها كانت تلقى عليها حجراً وتغرقها. وحينذاك كانت تاكل الطاقم. وفى يوم من الأيام وبينما كانت واقفة هناك لمحت سفينة فرنسية، ولكن القبطان استطاع توجيه سفينته بمهارة بحيث جعل الصارى الثالث فى المؤخرة يدغدغ عضوها التناسلى فألقت بالحجر فى المياه الضحلة، واستطاع الفرنسى الهرب. والصخرة التى ألقت بها هى Ailsa Craig^(٨).

حين ينظر الإنسان إلى الخريطة فإنه يوماً يرى أسماء لا معنى لها ضمن أية فئة من الفئات التى حددناها حتى الآن. وقد ذكرنا "فخ الذئب". وتوجد منطقة ضحلة قبالة ساحل نيو إنجلاند الجنوبى اسمها Sheep Pen [حظيرة الغنم] - حيث يمكن اصطياد كميات وفيرة من أسماك sheephead [رأس الغنم]. وعلى الجانب المقابل من القارة نجد ثلاثة أسماء توضح هذه النقطة، وهى Cape Disappointment [رأس الإحباط] و Desolation Bay [خليج الفراغ] و Cape Venerable Bede [رأس بيد المسكين^(*)]. أما الأول والثانى فقد سماهما القبطان ميفز Captain Meaves كى ينفس عن شعوره بالإحباط لعدم تمكنه من تحديد موقع النهر الأسطورى Martin de Aguilar، وسمى الثالث القبطان كوك Captain Cook كى يبين للعالم أن الإنجليز بإمكانهم تكريم رجال الدين بنفس السهولة التى يخلد بها الأسبان قديسيهم فى بلاد بعيدة عن موطنهم^(٩).

(*) بيد المسكين أو Venerable Bede هو القديس بيد، وهو راهب إنجليزى عاش فى القرنين السادس والسابع الميلاديين، وكان كذلك مؤرخاً ومن علماء اللاهوت وكتب تاريخ إنجلترا القديم (المترجم).

نقابل في بعض الأحيان أسماء أماكن لم تكن موجودة في يوم من الأيام. وعادة ما تكون هذه الأسماء من اختراع المستكشفين الأوائل الذين إما أنهم لم يفهموا ما كان السكان الأصليون يقولونه لهم، أو أن إخباريهم كانوا يخدعونهم. فقد حكى كاييتا دي فاكّا Cabeza de Vaca (*) للعالم عن مدن ثيبولا Cibola الذهبية السبع، وسواء لمقابلة تلك الحكاية بحكاية أخرى، أو من خلال سوء الفهم الواضح، تخلى المستكشفون في الشمال عن البحث عن فاينلاند Vineland وجروا وراء نوريمبك Nourembec مدينة العاج والفراء الأسطورية، التي يبدو طبقاً لأحسن الروايات أنها تقع على شاطئ نهر يصب في رأس خليج به جزر كثيرة. وكان موقع ذلك الخليج في مكان ما بين دائرتي عرض ٣٨ و ٤٥ شمال خط الاستواء على ساحل أمريكا الشرقي. وعلى امتداد هذه المسافة المتواضعة التي تبلغ ٤٢٠ ميلاً وتقع على خط مستقيم، يمكن للمرء إلى حد كبير أن يختار من بين مائة "موقع تنطبق عليه هذه الأوصاف بدقة".

روى لي صياد في إسكوتلندا منذ فترة قريبة حكاية على نفس القدر من عدم المصدقية، ولكنها حكاية حديثة إلى حد ما. وهو لم يذهب قط إلى هناك، ولكنه سمع من مصدر موثوق به أن قبالة ميناء كينسيل Kinsale في أيرلندا تقع صخرتان، إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة. وكان مكتوباً عليهما باللاتينية "نحن صخور البؤس، فابتعد عنا بحق المسيح". وقال الصياد: "هذه هي البقعة التي غرقت فيها السفينة تيتانيك وفقد فيها المئات من الناس".

وهذه قصة صغيرة لافتة للانتباه. فقباله كينسيل تقع صخرتان - إحداهما أكبر من الأخرى - ويطلق عليها the Great Sovereign [الملك الكبير] و the Little Sovereign [الملك الصغير] . وذكر سيموس أونيل Seamus O'Neill من البلدة أن ملك كينسيل في العصور الغابرة كان يقف على الصخرة الكبرى ويرمى بالسهم ناحية البحر في أوقات محددة. وكانت المسافة التي بين الصخرة وسقوط السهم تحدد حدود ملكه. وعلى بعد

(*) مستكشف أسباني ولد في نهاية القرن الخامس عشر. وبعد نجاته هو وثلاثة من رفاقه في الحملة التي كان يقوم بها في فلوريدا بعد الهجوم الذي شنه عليهم الأسبان، ذهب إلى نيو مكسيكو حيث روا حكايات مبالغ فيها عن مدن ثيبولا الذهبية السبع (المترجم) .

بضعة أميال من تلك الصخرتين تلقت السفينة لوزيتانيا Lusitania طوربيداً وغرقت مخلفة خسارة كبيرة في الأرواح، وعجلت بدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى. ويرى لنا ديفيد طومسون David Thompson (*) في People Of the Sea [أهل البحر] أن صيادين أيرلنديين اصطادوا قبالة تلك الصخرتين ملك كل أسماك الماكريل - وكان سمكة يزيد وزنها على الخمسمائة رطل وكانت تحظى باحترام صديقاتها نوات الزعانف (١٠). ويخبرني جون لورن كامبل John Lorne Campbell أن سمكة الماكريل هذه كانت في الحقيقة سمكة تونة. إلا أن المهم هو أنه يبدو من المؤكد أن تلك الصخرتين - التي لا بد أن الفينيقيين كانوا يعرفونها - كانتا تتمتعان بخاصية سحرية لاجتذاب الحكايات.

ما إن تُعمد بقعة من البقع ويعطى لها اسم فمن غير المحتمل إلى حد كبير أن يتغير هذا الاسم مهما كان يفتقر إلى الخيال ومهما كانت ضخامة أى حدث يقع فى تلك البقعة فيما يلى من سنين. وربما كانت هذه هى النقطة التى يختلف فيها أسلوب التسمية والأسماء على اليابسة أشد الاختلاف. فربما تتغير Pigeon Roost [مجثم الحمام] إلى "وين" Wayne على اسم وطنى أمريكى مصاب بالبارانويا، وربما غير الباعة الجائلون المحيطون أسماء الموانئ أو الرؤوس لأسباب تجارية أو وطنية - مثل تغيير Holmes' Hole [فتحة هولز] إلى Vineyard Haven [مرفأ الكرم] ؛ أو Herring's Gut [مصران الرنجة] إلى Poort Clyde [ميناء كلايد] ؛ أو Rouge's Point [رأس الشارد] بولاية ميريلاند إلى Rhode's Point [رأس رود] . ومؤخراً غير المستثمرون العقاريون اسم Prune Island [جزيرة القراصيا] فى جزر الهند الغربية إلى Palm Island [جزيرة النخيل] ، اعتقاداً منهم بأن الاسم سوف يجتذب المزيد من الضيوف الأثرياء. إلا أنه ليست كل محاولات تجميل الأسماء وتحسينها يكون النجاح حليفها، فطبقاً لما يقوله جون لورن كامبل فإن اسم جزيرة مك Muck Island فى جزر هيبيرديز - التى تعنى فى اللغة الكلتية الخنزير أو الحوت (خنزير البحر) - غير إلى Monk's Island [جزيرة الراهب] ، إلا أن التغيير قوبل بمقاومة.

(*) مستكشف كندى (١٧٧٠-١٨٥٧) تتبع نهر كولومبيا حتى منبعه (١٨١١) ووضع خريطة لمعظم أجزاء كندا الغربية (المترجم) .

خرج الشاب أنطوني كوليمور Anthony Collimore من سيتشوات Scituate بولاية ماساتشوستس في عام ١٦٩٣ متجهاً إلى Marblehead [رأس الرخام] . ولم يكن قد سار كثيراً حين داهمته عاصفة وانقلب القارب وغرق بالقرب من مجموعة من الصخور أطلق عليها منذ ذلك الوقت جزر كوليمور Collimores . ومنذ عام ١٦٩٣ كان هناك المئات من السفن الفارقة قبالة سيتشوات. والواقع أن الكثير من السفن فقد في المنطقة حتى إن منارة مينوت بنيت في محاولة لتحذير السفن. وغرق الكثير من السفن والرجال فرادى وجماعات في جزر كوليمور هذه منذ ذلك اليوم، ولكن الاسم باق ولم يتغير. والواقع أن منارة مينوت لها قصة ترتبط بها أكثر ديناميكية من اسم المستوطن القديم الذي زينها - وسوف نتناولها في موضع آخر.

تقع قبالة ساحل مين جزيرة أسموها جزيرة تشامبلين أو أو Champlain Isle au Haut، إلا أن الخرائط القديمة والكثير من السكان يشيرون إليها باسم Isle O'Holt . ومنذ سنوات عديدة كان لنش يقطر طوفاً من جنوع الأشجار أمام الشاطئ حين هبت الريح وانفلت الطوف وألقت به الأمواج على شاطئ تغطيه الحصباء لم يكن قد سُمي بعد. وبعد ذلك الحدث سُمي الشاطئ Boom Beach [شاطئ الطوف] . وروى لس جرانت Les Grant من "جزيرة أو أو" الحكاية السابقة وأضاف حكاية أخرى وقعت أحداثها بعد ذلك ببضع سنوات:

خرجت السفينة الشراعية نيلي إي بيرنز Nellie E. Burns وكانت تقوم بصيد الأسماك في أواخر موسم الخريف. كانت السماء صافية، وكانت الرؤية واضحة بحيث يمكنك الرؤية حتى ماتينكاس Matinicus ولكن فجأة هبت ريح عاتية أتية من الشمال الغربي وفقدت السفينة القارب المصاحب لها. بدأ الشخص الذي في القارب يجدف كي يصل إلى الميناء ولكن الريح ظلت تهب وظل هو يسير وتوقف أمام اللسان ولم يكن أمامه سوى مائة ياردة ليصل إلى الشاطئ حين هبت الريح بقوة شديدة لا يقف أمامها أي إنسان ورأى هو أنه لن ينجح في الوصول ولذلك حاول النزول على "الآنن الشرقية" لهيد هاربر Head Harbor - تحرس جزيرة أو أو جزيرتان صغيرتان تعرفان باسم الآنن الشرقية والآنن الغربية - ونزلت الثلوج كثيفة ومات. وفي اليوم التالي شاهدوا السفينة تسير وعلمها منكنس وعرفوا أنها فقدت رجلاً.

وبعد حوالي أسبوع ذهب الناس هناك إلى نزهة على شاطئ الطوف وقرر شخص أن يتجول عند الأتُن الشرقية فرأى مقدمة قارب بارزة لأعلى ونظر فرأى رجلاً محشوراً رأسه في أخدود فوق مياه المد مباشرة. كان عارياً تماماً وايسست عليه أية علامة وكان الحرفان W.C. موشومين على ذراعه. جاوا به إلى الكنيسة وحين استطاعوا دفنوه وأقاموا عليه شاهداً من الحجر يحمل الحرفين W.C. وبعد عام تقريباً جاءت فتاة صغيرة تسأل إن كان أحداً قد رأى الرجل الذي كانت ستتزوج به ولكنه تاه في قارب صغير. كان اسمه ويليام كراودى William Crowdy وكان الحرفان الأولان من اسمه موشومين على ذراعه. أخذوها وأروها الحجر الصغير ورحلت وفي العام التالي أرسلت زوجاً من الخيل وعربة وأخرجوه ونهبوا به إلى مكان ما (١١).

هذه نهاية كراودى - لا بل أذن كراودى، أو حصباء كراودى أو شاطئ كراودى بدلاً من شاطئ الطوف. ومع أن حكاية كراودى منسأة قديمة، فهي ليست كافية لتحريك الناس كي يغيروا اسماً.

تتغير الأسماء في البحر، ونادراً ما يكون هذا صحيحاً، ولكنه من الكثرة بحيث يجعلنى أحاول تقديم بعض أسبابه.

وكانت الأسماء الأكثر تغييراً هي تلك التى أعطاها المستكشفون فى البداية لبعض المناطق. وكانت مواقعها من الغموض وعدم الوضوح بحيث لا يمكن تحديدها على الخريطة، وغالباً ما كانت الأسماء لا تعنى الكثير أو لا تعنى شيئاً بالمرة بالنسبة للمسافرين اللاحقين. فقد سمى جون سميث مكاناً Cape Tragabigzanda على اسم إحدى الراعيات التركيات. وإذا كان يعنى شيئاً لآى إنسان فهو يشير إلى إطلاق اسم همجى على رأس تطهرية Puritan. وتغير الاسم إلى كيب أن Cape Ann. وهناك مكان آخر أسماء Smith's Isles [جزر سميث] ، ولكن بسب قاع البحر المحيط بها، سرعان ما صارت Isles of Shoals [جزر المخاضات] ، وأصبحت البلدة الصغيرة التى هناك تحمل اسم Appledore. لقد كان حظ سميث سيئاً فى الأسماء.

من الأسباب الأخرى لتغيير الأسماء القديمة تكرار اكتشاف أكثر من مستكشف لنفس البقعة فى أوقات لا تبعد كثيراً عن بعضها. وربما جرى تغيير الاسم بناء على

الأحداث اللاحقة. فقد أطلق شامبلان على إحدى المناطق اسم **Bai des Isles** [خليج الجزر] وعلى أخرى **Cape Malebarre** [رأس مالبار] . وفى وقت لاحق أطلق جون سميث على الرأس اسم **Cape Cod** [رأس القُد] وحين وصل الإنجليز أطلقوا على المكان الآخر اسم **Massachusetts Bay** [خليج ماساتشوستس] - فيما يبدو تفضيلاً للاسم الهندي على الاسم الفرنسى. ويأتى تفسير أدبى للاسم الثانى من مصدر يعود إلى القرن التاسع عشر يخبرنا أن الذى سماه عبد زنجى. فحين سئل العبد إلى أين هو ذاهب، رد قائلاً: "I go where massa go. I go where massa choose it." [أنا ذاهب حيثما يذهب السيد. أنا ذاهب حيثما يختار السيد] (١٢).

وكثيراً ما كانت الكلمات تختلط أثناء النقل الشفاهى. فقد أصبحت **Bare Island** [وتعنى الجزيرة العارية] **Bear Island** [ومعناها جزيرة الدب] فى وقت لاحق، وربما تغير **Stage Island** [جزيرة المحطة] إلى **Stave Island** [جزيرة ضلع البرميل] . وأصبحت **Golden's Island** [جزيرة جولدن] و **Rhode Island** [جزيرة رود] **Gould Island** وأخيراً أصبح **Talent's Harbor** بولاية مين **Tenants** . وفى لوخ سويلي **Loch Swilly** بأيرلندا الشمالية يقع **Scraggy Bay** [ويعنى الخليج الوعر] ، وهو لم يسم بهذا الاسم لأنه مكان غير مستوى، بل لأن الشاطئ تكثر فيه الأشواك **scraggs** . وكثيراً ما تساعد الحواجز اللغوية على إرباك الناس فى هذا الخصوص. فقد أطلق شامبلان، الذى كان يحب تسمية الأشياء لصفات لاحظها فيها، على أحد الموانئ اسم **Brune** [ومعناها بالفرنسية شاطئ الغروب] ، ولكن سرعان ما غُيِّرَ الاسم إلى **Burnt Coat Harbor** [أى ميناء المعطف المحترق بالإنجليزية] . وقبالة فلوريدا هناك جزر صغيرة سماها الأسبان **Cayos**، وغالباً ما تصبح **Keys** [أى المفاتيح بالإنجليزية] .

تقع فى هيلزبورو هاربر **Hillsboro Harbor** فى كارياكو بجرينادا جزيرة جاك أ دان **Jack A Dan Island** أو بار **Bar** . ولا يبدو أن أحداً يعرف سبب إطلاق هذا الاسم الشائع على الجزيرة الصغيرة، إلا أن خريطة قديمة تذكر هذه البقعة باسم **Jack Adam** . وحين ندرك النطق المفرد الخاص بالسكان المحليين نفهم الاسم بسهولة. فهم عادة ما يضغطون على القطعين الأول والأخير من الكلمة مع إدغام الخروف الأخيرة. ومن ثم فإنه حين تفرق سفينة يقولون إنها "go bottome"، وعند الحديث عن الجزيرة يقولون "Jack A. Dan" (١٣).

كانت السفن المتجهة إلى جلوسستر Gloucester قادمة من جراند بانكس Grand Banks عكس الريح الجنوبية الغربية السائدة تجد نفسها في اتجاه ربح كيب أن، وكانت حين تصل نقطة معينة يحين وقت تغيير المسار. ومن هنا أصبح اسم الرأس Haulabout Point [رأس تغيير المسار] . وهي تكتب على الخريطة Hallibut Point [أى رأس القفندر، وهو سمك مفلطح ضخم] .

ومن اللافت للنظر عند الحديث عن رأس هاليبات ملاحظة أن هناك اسماً شديداً الشبه موجود في أيرلندا. وداخل روتشز بوينت Roaches' Point في الطريق إلى كورك Cork نمر على جزيرة كانت تضطر عندها السفن ذات الأشرعة المربعة إلى تغيير مسارها. وتسمى هذه الجزيرة Haulbowline Island [جزيرة الإبحار عكس اتجاه الريح] ويمكن اللبس بين المصطلح haul about الذى يعنى تغيير مسار السفينة الشراعية وبين halibut، إلا أنه من الصدف أن haulbowline لا تستسلم بسهولة للتقليل من شأنها.

قد يكون الأشهر من بين كل الأسماء الملتبسة هو اسم صخرة في جزر الهند الغربية. فإلى الشمال تماماً من جزيرة جرينادا يقع ممر، وفي وقت من الأوقات كانت السفن الشراعية تستخدمه كثيراً، وكانت تلك السفن تعوقها صخرة وعرة كبيرة يلتطم بها البحر بشدة. وأطلق الفرنسيون عليها Caye qu'en gêne وهو ما يعنى على وجه التقريب "الصخرة البارزة التى تعوق السير". وبعد مغادرة الفرنسيين، أدغم السكان المحليون الاسم وأعطوه طابعاً إنجليزياً ليصبح Kick-em Jenny [أى ارفسهم يا جنى] (١٤).

تلتبس الأسماء والمواقع من حين لآخر وينقل الاسم إلى موقع آخر. فائثناء استكشاف خليج تشيسابيك، قفز القبطان جون سميث من أحد القوارب وهو حافى القدمين فنزل على سمكة من الراى اللساع stingray (*) تهورت وغرزت شوكتها في ساقه. كان ذلك عملاً أحق من جانب السمكة، لأن سميث لم يكن رجلاً عادياً. وبدلاً من

(*) سمكة بحرية مفلطحة لها ذيل أشبه بالسوط مسلح بشوكة طويلة منشارية عند قاعدتها غدة سم (المترجم).

أن يحاول سميث تخليص نفسه من السمكة، ثبتها في القاع بقدمه واستل سيفه ومزقها إرباً وأكل بضع شرائح منها نيئة. وأصبح الموقع الذي شهد هذه الميلودراما Sting Ray Island [أى جزيرة الراى اللساع] ، إلا أن الموقع نُقل، مثل Plymouth Rock، ويطلق الاسم الآن على رأس الراى اللساع Sting Ray Point .

هناك مثال تقليدى لتلك الأخطاء ظهر للنور مؤخراً فى اسم أبعد جزيرة ناحية الغرب من جزر أوروبا، وهى جزيرة القديسة كيلدا St. Kilda . فقد ظل الناس سنوات يظنون أن الجزيرة أخذت اسمها من شخصية مقدسة كانت تعيش هناك. ولكن ما يؤسف له أن سير القديسين لم تحى ذكرى القديسة كيلدا. وأظهر المزيد من البحث والدراسة أن كاتباً لسير القديسين فى القرن السادس عشر وقع فى خطأ. وزاد كُتّاب سير القديسين اللاحقين الطين بلة بنقلهم موقع الخطأ الأول لمسافة خمسين ميلاً تقريباً ناحية الغرب وقليلًا إلى الشمال. وكتب اسم جزيرة سكيلدار Skildar (ومعناها الدروع بالترويجية القديمة) الواقعة على بعد بضعة أميال إلى الغرب من جزر هيبيريديز على الخريطة على أنه S. Kildar ونقل من على مجموعة الصخور الأصلية إلى صخرة أكبر إلى الشرق. ووضع حرف t محل النقطة وأسقط حرف r وكانت النتيجة St. Kilda (١٥) .

غرقت سفينة اسمها the Londoner [اللندنى] عند جزر المخاضات Isles of Shoals . وفى جلوسستر، على بعد ثمانية عشر ميلاً، هناك صخرة تبدو وكأنها تندفع إلى داخل البحر. والآن توجد الجزيرة المندفعة Lunging Island ضمن جزر المخاضات، أما The Londoner فهى قبالة جلوسستر.

نكتفى بما ذكرناه حتى الآن فى إطار الجزء الخاص بالتسمية. ويمكن الحصول على قدر أفضل من التسلية من خلال رواية حكايات من مناطق عشوائية كى نبين إلى حد ما الأفكار التى شرحناه هنا. إلا أننا حين نسجل الأساطير لابد ألا ننسى حقيقة أن الأسطورة أو الحكاية حين يستخدمها الناس لا تكون مجرد طريقة ذكية لتسلية جمهور من السذج الذين يفتقرون إلى الفطنة. فعادة ما تستخدم الأسطورة لطبع حقيقة ما فى ذهن المستمع. قد تساعد الحكاية المستمع على تذكر اسم بعينه وحسب، أو ربما كان الغرض منها هو أن تطبع فى ذهن المستمع ما تتضمنه من صفات المكان

أو الخطر الذي يواجه الملاحه. وعادة ما يصدق هذا السبب الأخير حين تكون لدينا حكايتان أو ثلاث حكايات يتداولها الناس عن نفس المكان. ولناخذ حكاية عن صخرة الليدى Lady Rock فى مضيق مول Sound of Mull بإسكوتلندا. والواقع أن هناك روايتين حول أصل الاسم جمعنا من مكانين يفصل بينهما حوالى سبعين ميلاً، وأظن أنه من المثير إلى حد ما تسجيل الروائتين بفرض المقارنة. ولأسباب واضحة لم نورد اسمى الإخباريين، وأولهما من كرينان Crinan بإسكوتلندا، والثانى من جزيرة مول. هذه هى الرواية الأولى:

منذ سنين مضت كان هناك شخص اسمه ماكلين McClean من لوخ بوى Loch Bule ثم كان هناك ماكلين من دوارت Duart وكذلك ماكلين من أربجور Ardgour . كان هناك ثلاثة يسمون ماكلين. وكان لدى دوق أرجيل Argyll سبع بنات وآل ماكنيل MacNeill هم العشيرة الرئيسية فى بارا Barra . تزوجت واحدة من بناته ماكنيل البارى - ولديهم حصن كيسيمول Kisimul - ويذهب إلى كندا ويحقق ثروة كبيرة ويعود وينفقها كما يقولون - وبعد ذلك تتزوج ابنة أخرى ماكلين الدوراتى - ويبدو أنه كان شديد السوء معها، ولكن يتخلص منها ذهب أخيراً وأخذها فى قارب ووضعها على جزيرة الليدى - وهذا هو السبب فى أن جزيرة الليدى تسمى جزيرة الليدى - وهى صخرة قبالة رأس دورات، جنوباً بين رأس ليزمور Lesmore Point ودوارت - سوف تعرفها من على الخريطة. كان المد سيأتى ويفرقها، ولكن قبل أن يأتى المد مباشرة، جاء شخص وأنقذها - وعاد إلى بيتها عند دوق أرجيل وهذا هو ما أوجد العداوة بين ماكلين الدوراتى ودوق أرجيل.

وهذه هى الرواية الأخرى :

تزوج أحد لورات حصن دوارت ابنة ليرد(*) أرجيل Laird Argyll . كانت من عائلة كامبل Campbell . وعندما وجد ماكلين أن زوجته لن تاتى له بوريث وضعها

(*) لقب ملاك الاراضى فى إسكوتلندا (المترجم) .

على صخرة فى منتصف المد فى مضيق مول فى مكان غير بعيد عن الحصن، حتى إذا ارتفع أغرقها. وبعد أن جاء المد وذهب ماكلين كتب إلى دوق أرجيل وأخبره أن ابنته وقع لها حادث مؤسف بينما كانت تصطاد السمك وغرقت. دعا الدوق ماكلين إلى العشاء وجاء ماكلين وحكى تفاصيل الحادث. وبعد ذلك ذهبوا إلى العشاء ومن ينبغي أن يجلس على يمين الدوق سوى الفتاة "الفارقة". كان قد أنقذها صياد قبل أن تفرق مباشرة وأعادها إلى والدها.

من الواضح أن والد الفتاة لم يهتم كثيراً بها لأنه لم يفعل شيئاً من أجلها فى ذلك الوقت وبعد ذلك عادت الفتاة إلى حصن نوارت وبدأ أن الأمور تسير مثلما كانت من قبل. وبعد عشر سنوات قتل شقيق الفتاة ماكلين وانتقم للإهانة التى لحقت باسم أرجيل.

هذه هى كيفية تسمية صخرة الليدى - على اسم الليدى ماكلين - إلا أن الاسم نقل بطريقة ما من الصخرة التى فى منتصف المد إلى جزيرة صخرية صغيرة على بعد حوالى نصف ميل حيث توجد فتارة صخرة الليدى حالياً. ولا يمكن أن يفرق أحد على تلك الصخرة. فهى دائماً فوق مستوى المد.

يقع على مقربة شديدة من صخرة الليدى لسان ليزمور فى جزيرة ليزمور. والحكاية التالية لا تفسر الاسم، إلا أن أى إنسان يسمعها سوف يتذكر اللسان زمناً طويلاً بالتداعى.

وكانت هناك جزيرة ليزمور. وكانت هناك عائلة كامبل وعائلة ماكنونالد، ومن غيرهم يكون هناك على أى حال كان هناك سباق وأول شخص يرسو هناك ويخرج إلى شاطئ ليزمور تكون ملكاً له. وبالطبع كان دوق أرجيل، مع أنه كان رجلاً عجوزاً، يجلس على مقدمة القارب - يشجع رجاله على التقدم، يشجع رجاله على التقدم وكان مستعداً للقفز من مقدمة القارب ورأى أنهم سيهزمونهم ولذلك سحب بلطته من حزامه ووضع يده فوق مقعد المجنّف وقطعها. أمسك الدوق يده وألقى بها إلى الشاطئ - وبذلك امتلك الجزيرة رغم كل شيء (١٧).

وتقع إلى الغرب من صخرة الليدى فى جزر هيبيريدز الخارجة Nicholson's Leap [قفزة نيكولسون] - وهى صخرة مستنقة على مسافة غير بعيدة من الشاطئ. والقصة التى وراء تسميتها لفتت نظرنا بسبب الطريقة التى غيرت بها ولأنها معروفة للكثيرين فى أمريكا الشمالية ممن لا يرتادون البحر، دون أن يدروا.

وطبقاً لما ذكرته الروايات القديمة، فقد اتهم رجل يسمى نيكولسون بارتكاب جريمة ما وحكم عليه زعيم القبيلة بأن يُخصى علانية. وحين سمع نيكولسون بما قضى به عليه حطم قيوده فجأة، وأخذ ابن الزعيم الوحيد رهينة وهرب مع العشيرة فى مطاردة حامية. ولم يكن قد ابتعد كثيراً حين وجد نفسه على حافة صخرة شديدة الانحدار. كان وراءه رجال العشيرة. كان البحر على مسافة مائتى قدم أسفل منه. كان سبيله الوحيد للهرب هو القفز فوق هاوية إلى الصخرة السابق ذكرها، وهو ما فعله والطفل بين ذراعيه. وحين وصلت العشيرة وجدت نيكولسون على الصخرة ومعه رهينته، وظهرت رواية إسكوتلندية عن "الابتعاد المكسيكى". لم يكلف أحد نفسه عناء القفز وراء الجانى، ذلك أنهم حتى وإن أسعدهم الحظ ووصلوا إلى الصخرة فمن السهل على نيكولسون أن يدفعهم بقدمه حين ينزلون، ورفض نيكولسون العودة (إن كان ذلك فى استطاعته) إلى أن يوافق الزعيم على أن يخصى نفسه علانية. وما إن حدث ذلك حتى أخذ نيكولسون الطفل بين ذراعيه وقال: "لقد حكمت على بالموت دون أن تكون لى ذرية وسوف تموت أنت الميتة ذاتها". وبهذه العبارة قفز من على الصخرة إلى الموج الهادر والصخور التى أسفل منه حاملاً الطفل معه.

جاء فى قصيدة سيدنى لانير Sidney Lanier (*) التى كتبها فى القرن التاسع عشر بعنوان The Revenge of Hamish [انتقام هاميش] أن العمل أنجز بعد جلد هاميش بدون وجه حق لتركة غزلاً يهرب على جزيرة روم Rhum .

وحين استعيدت القصة فى لوخ بويسديل فى يويست الجنوبية بجزر هيبيريدز عام ١٩٦٨، كانت الرواية تقول إن نيكولسون حكم عليه بالإعدام لارتكابه جريمة هو منها برى، وأنه قفز بالطفل بعد أن قتل أبوه نفسه.

(*) كاتب وموسيقى أمريكى (١٨٤٢-١٨٨١) معروف بقصائده الغنائية ومنها The Marshes of Glynn بروايته Tiger Lilies (المترجم) .

ولابد لأية سفينة متجهة إلى كلايد من قناة كاليدونيا أو أوبان أن تغير اتجاهها إلى الجنوب ناحية الغرب تقريباً. ولتوفير مائتي ميل من الدوران حول شبه جزيرة ماكتاير، فمن المحتمل أن تمر في قناة كرينان، وطولها حوالي ثلاثة فراسخ. ولكنها لكي تفعل ذلك تضطر للمرور في بعض أكثر مياه الجزر البريطانية انتشاراً للصخور وأكثرها تحركاً بدافع من المد والجزر. ولابد لريانها أن يكون على وعى تام بالزمن، ذلك أنه لكي يصل إلى لوخ كرينان لابد أن يمر في نوروس مور Dorus Mor (الباب الكبير، وأحياناً تسمى الباب الدوار Turning Door) حيث تكون سرعة المد ثمانى عقد ويمكن أن يوصف البحر، حين تكون الرياح عكس المد، بأنه هائج على أقل تقدير. (ذات مرة أخطأت دوران المد الأصغر^(*) بمقدار خمس عشرة دقيقة وكدت أندفع معه.) ولكي تنجو السفينة من الخطر الذى يمكن أن تتعرض له، فإنها تقف في طريق خال من العقبات تأخذها فيه التيارات المتدفقة بين جزيرة جورا Jura ناحية الجنوب وسكاريا Scarba فى الشمال. وهنا تقع كيليتش Cailleach [الجنية الشريرة] المعروفة أكثر باسم كواربريكان Coirebhreacain أو كوريفريكان Corryvreckan وهى ثانية أكبر الدوامات فى العالم. وسوف نتكلم باستضافة عن كوريفريكان فيما بعد.

امتد رعب هذا المكان من النرويج حتى ساحل أيرلندا الغربى، وربما أكثر من ذلك. ويقول عنه Coast Pilot [المرشد الساحلى] وهو أقل الوثائق شائناً "... الملاحه ... شديدة الخطورة ولا ينبغي لسفينة من السفن ... محاولة عبور هذا الممر دون معرفة محلية".^(١٨) والمنطقة لا تهدأ أبداً، والبحر هناك يتلاطم فى أهدأ الأجواء. ويقال محلياً إن هدير الدوامة يُسمع من على مسافة عشرين ميلاً ويصل ارتفاع أمواج البحر الهائج إلى عشرين قدماً. ومؤخراً حين أبلغ سيتون جورون Seaton Gordon قبطاناً إسكوتلندياً عجوزاً كيف أن قائد يخت نجح فى العبور بيخت على القدرة، قال الرجل العجوز بجفاء "ما كان لهذا الرجل أن يبقى على قيد الحياة إلى الآن"^(١٩). ومؤخراً ذكر رونالد جيلبرت Ronald Gilbert من كرينان أنه كان على ظهر سفينة صيد طولها

(*) أوطى مد وموعده التربع الأول والتربع الأخير للقمر حين تتعارض جاذبية القمر وجاذبية الشمس (المترجم).

أربعون قدمًا وبها محرك جاردنر Gardner قوة مائة حصان، وبينما كان المحرك على آخر سرعة سُحب للخلف ناحية الدوامة ولم ينج إلا بالصدفة. وإذا كان رجل القرن العشرين يخاف هذا المكان، فيمكن أن تتخيل أثره على البدائيين.

ومن الصعب تحديد منذ متى وهذه البقعة لها اسم يُعرفها، إلا أن القصص التي تروى عنها تنتقل من الحقيقة التاريخية إلى الأسطورة ومن بعدها إلى الخرافة. قد يكون أقدم اسم هو The Hag [وتعني الجنية الشريرة أو الساحرة الشمطاء] ، ذلك أن الأقدمين كانوا يؤمنون بما تحت الماء من وحوش وأرواح وعفاريت. وكانوا يعتقدون أن أمواج المد والجزر هي غزلان الجنية الشريرة تقف وأن هذه الدوامة هي المكان الذي تدعك فيه ملابسها. وكان يقال إنها حين كانت تضرب غسيلها بقدميها كان كل قماش التارتن tartanc (*) الذي في إسكوتلندا يصير لونه أبيض^(٢٠) . (يوجد تفسير لهذه العبارة في معنى vraickan وهو أحياناً "مرقش" وأحياناً "كاروهات"، بل وكذلك "منقط". وطبقاً لما ذكره نيل كامبيرون من كرينان، فإنه بينما كانت الدوامة تدور، كان الخلنج^(*) والسرخس^(***) ينعكس على جوانبها. وحين تشتد عنفاً كان الزبد الأبيض يخفى تلك النباتات.)

كان يقال إن دوس الجنية الشريرة على غسيلها أعنف ما يكون قبل هبوب الرياح. ومع أن جزءاً كبيراً من قصة الجنية الشريرة نُسى في الوقت الراهن، فما زال الناس يذكرونها في عبارة موجزة ذكرها جون ماكلود John MacLeod من كرينان: "حين ترتدى الجنية الشريرة قطنسوتها البيضاء [حين تزيد الدوامة] فمن المؤكد أن الريح ستهب."

على مر السنين ومع ظهور المسيحية، أخذت سلسلة أخرى من الحكايات تحل شيئاً فشيئاً محل حكايات الجنية الشريرة. وفي زمن القديس كولومبا St. Columba

(*) قماش كاروهات تشير تصاميمه إلى قبائل إسكوتلندا (المترجم) .

(**) نبات دائم الخضرة يتميز بعناقيد أزهار صغيرة قرمزية اللون (المترجم) .

(***) أعشاب عريضة الأوراق (المترجم) .

كان يشار إلى المكان باسم Charybdis Breacan . ومن المفترض أن هذا الاسم مشتق من اسم الأمير بريكان (Vreckan) Prince Breacan ابن ملك لوخلان Lochlann الذي فر من أيرلندا هرباً من غضب أبيه. ووصل الأمير إلى هذه البقعة وهو في طريقه إلى الدنمارك - وهو ما كان من المنطقي أن يفعله وهو يسير بمحاذاة الشاطئ في اتجاه الوطن. واجهه بأمر الدوامة غامر بدخول الممر وغرق هو وحاشيته جميعاً. وبعد ذلك إما أن جثته جرفت بها الأمواج إلى الشاطئ أو أن كلبه الأسود الضخم سحبها إلى هناك ودفنت في كهف مواجه للدوامة على جزيرة جورا. وهنا ذكر مارتن Martin أنه رأى شاهد قبره في نهاية القرن السابع عشر، وقد اختفى الآن (٢١).

طبقاً لما ذكره الدكتور جون لورن كامبل John Lorne Campbell من كانا Canna، يشير جيه أو واطسون J.W. Watson في كتاب History of the Celtic Places Names of Scotland [تاريخ الأسماء الكلتية في إسكتلندا] إلى أن الغريق كان في حقيقة الأمر ابن نبال ذي التسعة رهائن Niall of Nine Hostages، وحين مر القديس كولومبا في هذا الطريق طفا ضلع الغريق على سطح الدوامة لتحيته.

وروت امرأة من كرينا حكاية مختلفة بعض الشيء. فيبدو أن ابن ملك لوخلان، الأمير بريكان، وقع في غرام أميرة جميلة بالقرب من كرينان. وكانت قد أخذت على نفسها عهداً ألا تتزوج رجلاً لا يمكنه الخروج ثلاث ليال في الدوامة. أزعج ذلك الخبر الأمير، إلا أنه التقى بساحرة في مكان قريب أخبرته كيف يمكنه كسب ود المرأة. ففي الليلة الأولى لابد له أن يربط مرساة سفينة بحبل من شعر الخيل. وفعل ذلك، وحافظ الحبل على السفينة وعاد بسلام إلى الشاطئ. وفي الليلة الثانية طلبت منه أن يربط مرساته بحبل من جلد الفقرة. ومرة أخرى فعل ما طلب منه، وكذلك خرج من تلك الليلة بسلام، مع أن الدوامة كانت أشد عنفاً. وكانت الليلة الثالثة ليلة حاسمة، وكان عليه لكي يبقى على قيد الحياة أن يستخدم حبلاً صنع من شعر عذراء. وعلى الفور حصل الأمير على الشعر من عروس المستقبل وصنع حبلاً من الشعر الذهبي لمرساته. ومرة أخرى أرسى سفينته في بقعة مخيفة وبقي الحبل على متانته حتى قبل منتصف الليل بقليل حين انقطع وغرق الأمير. وألقت الأمواج بجثته على الشاطئ ودفنوه بطريقة لائقة في كهف على جزيرة جورا (٢٢).

ربما ارتبطت كوريفريكان كذلك ببالور ذى العين الشريرة **Balor of the Evil Eye** على جزيرة تورى **Tory Island**، وإن كان من الممكن أن الحكاية تشير إلى دوامة أخرى داخل جزيرة راتلين **Rathlin Island** فى أيرلندا. على أية حال، فالحكاية تستحق أن تروى لأن بالور يبرز بعدة طرق فى الفولكلور البحرى، بل وجاء ذكره فى كيب بريتون **Cape Breton**، حيث جمع الراحل ماك إينوارد ليتش **MacEdward Leach** قصة عنه (٣٣).

كان بالور عملاقاً يعيش على جزيرة تورى وكان يصطاد السفن العابرة. ومن السفن التى استولى عليها جمع كنزاً قوامه تسعة أطنان من الذهب، وكان يحتفظ بأسراه من السفن فى حفرة فى الأرض وسط جزيرة تسمى سجن بالور **Palor's Prison**. ومن بين غرائبه الأخرى أن له عيناً ثالثة تقع طبقاً لما يقوله البعض فى ظهره، ويقول البعض الآخر فى جبهته. وكان يغطى تلك العين جفن حام لا يفتح إلا فى أوقات المعارك أو الكرب الشديد، وأى شيء كانت تنظر إليه كان يدمر.

وكانت لبالور ابنة، وكانت النبوءة تقول إنها سوف تلد طفلاً يكون موته على يديه. ولكى يمنع بالور ذلك، كما تقول الأسطورة، شيد برجاً مستديراً (لا يزال قائماً) تحفظ عليها فيه مع نسوة يقمن على خدمتها وأصدر تعليمات بإبعاد كل الرجال عنها.

وحدث أن كان شقيقان اسمهما ماكينيلى **Mackinneeley** يعيشان على البر الرئيسى القريب. كان لأحدهما بقرة بيضاء وكان الثانى حداداً. أغار بالور على البر الرئيسى واستولى على البقرة، وبناء عليه تنكر صاحبها فى زى امرأة وبمساعدة غيبية ذهب إلى الجزيرة وأمضى الليل فى البرج، وضاجع الفتاة وحملت منه واستعاد بقرته وعاد إلى بيته.

استشاط بالور غضباً وتتبع ماكينيلى وقتله فى معركة كبيرة فيما يُعرف حالياً باسم **Bloody Foreland** [الرأس الدامى] واستعاد ملكه المسلوب وعاد إلى بيته. ما إن وصل واستقر كى يستمتع بغنيمة حتى ولدت الفتاة صبيين. وعلى الفور أمر بالور بوضعهما فى ملاءة والذهاب بهما إلى كوريفريكان وإلقائهما فيها. وتم ذلك، إلا أن الدوامة ألقت بأحد الطفلين على الشاطئ، حيث عثر عليه الحداد الذى رياه وعلمه الحرفة.

ودارت الأيام وكبر الصبي وتدهورت أحوال بالور. فقد هوجمت جزيرته وقضى على جيشه واضطر هو للهرب إلى البر الرئيسي لتجنيد المزيد من الرجال. ومن شدة اهتمامه بالأمر الذي ذهب من أجله ترك عينه الثالثة مفتوحة، وبينما كان يمر أمام كور الحداد رآه الصبي، فلصق قطعة من الحديد المتوهج في أحد السهام وأطلقه على العملاق. أصاب الحديد بالور في عينه وسقط صريعاً. في تلك اللحظة هربت البقرة، وبدأت سلسلة قصص أخرى حولها.

وكما أن قصص الجنية الشريرة زيدت أو استبدلت بحكايات الأمير الشجاع، فقد دخلت على هذه الحكايات قصص رجال الدين الذين كانوا يريدون المزيد من المواقف المسيحية التي يوحى بها المكان. ولتحقيق هذه الغاية، ألح آدمنان Adamnan رئيس دير أيونا Iona إلى أن الرب خلق الدوامة لزيادة حماس القديس كولومبا الذي كان متقدماً بالفعل كي يزيد من الصلاة وهو يعبرها. ولكن هذه القصص عانت أكثر مما عانت منه حكايات الجنية الشريرة والأمير بريكان، واستبدلت بمئات من حكايات السفن الغارقة والكوارث. وربما كانت أفضل تلك الحكايات تلك التي رواها نيل كامبيرون:

زمان حين كان النقل سيئاً كنا ننقل الماشية من الجزر مثل أيلي Islay وجورا وكولونسي إلى السوق في أوبان Oban . ووقتها كانت هناك سفينة صغيرة يملكها مستر أندرو باترسون Andrew Patterson الذي كان يقوم برحلات للركاب في الصيف والماشية في الشتاء. وقد أقول إنها كانت حوالي ٤٥٠ طنناً. اتجه إلى ميناء أسكيج Port Askeig ليأخذ ماشية معروضة للبيع وحمل السفينة بحوالي ١٠٣ روس وضعت على السطح. وبينما كان يوشك على الإقلاع جاء الكاهن يجرى على الرصيف كي يذهب معه ورآه البحارة وقالوا "أسرعوا، ارفعوا السقالة وتحركوا!" لأنهم لم يكونوا يريدون أن يأخذوه، ولكنهم لم يكونوا على قدر كاف من السرعة وصعد الكاهن إلى السفينة. وقتها أرقق نفسه كي يجتاز المحنة وكانت حالة الطقس قد تدهورت ورسا بأمان خارج جورا، ولأن الريح كانت غربية فقد جعلت الأمر شديد الصعوبة، مما أدى إلى إصابة أصحاب الماشية بالذعر وأرادوا منه دخول جورا كي يتجنب ترنح السفينة الشديد. وإذلك أرسلوا له من يطلب منه عبور كوريفريكان ولم يوافق هو على ذلك لما فيه من مخاطرة، ولكنهم قالوا له

إنهم سيتحملون كل المسؤولية إن هو مر من كوريفريكان. وبذلك مر منها بينما كان المد ضده إلى حد ما، مما أحدث الدوامة وتتج عن ذلك تحطم السفينة وبخولها الدوامة. وحين بدأت تهبط أخذت تميل على جانبها وانزلقت الماشية جميعها إلى جانب واحد ولا بد أنها كانت راقدة على جانبها لأنها تعدت أحزمة الأمان من جانب الآخر. وقتها كان معهم هذا الكاهن على متن السفينة، وهو من لم يكونوا يريدون أخذه، وهذا الكاهن هو الذى نجح فى فتح المعبر ونجح فى إخراج كل الماشية وفى اللحظة التى خرجت فيها الماشية كتمت الدوامة واستوت السفينة وخرجت منها. انتفضت الماشية وظلت الأمواج تلقى بها على الشاطئ لعدة أسابيع بعد ذلك (٢٤).

دخلت فى تفاصيل جمة حول هذه البقعة على وجه التحديد - ليس فقط لأنها تقارب إحدى عجائب العالم، ولكن لأنها توضح عدداً من النقاط المثيرة الخاصة بالتسمية. أول كل شيء أن اسمها، أى الجنية الشريرة، قديم جداً، حيث يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، بينما اسمها الأحدث، وهو كوريفريكان، فلا يقل عمرة عن أربعة عشر قرناً. وكان الاسم الأصلى والحكاية كفيلىن بتحذير البحارة كى يبتعدوا عنها، والاسم الأحدث والحكاية المصاحبة له لا يجعلان البحارة يغامرون بالاقتراب منها. بل إننا نلاحظ أن الاسم الأصلى لم يختلف اختفاء تاماً، وهو ما يدعم النظرية التى تقول إن الأسماء البحرية لا سبيل إلى تغييرها بمجرد قبولها.

النقطة الأخرى التى أود الإشارة إليها هى أن كل القصص التى تدور حول كوريفريكان هى قصص عن الكوارث أو الأخطار. ومع مرور السنين وسقوط السفن فى جوفها، يظل رعب هذا المكان حياً فى الأذهان ويزداد قوة من خلال إضافة قصة فوق قصة لتُثبت فى عقول البحارة الخطر وحماقة محاولة المرور من هذه المنطقة.

وإذا كانت الحكايات والنوادر تبدو مُركزة حتى الآن فى إسكوتلندا وفى منطقة جزر هيبيريديز على وجه التحديد، فهذا يرجع إلى سببين - أولهما هو إعطاء القارئ فكرة عن انتشار القصص فى أية منطقة، والثانى لأن باحث الفولكلور، مثله مثل الراوى الشعبى الجيد، ينبغى أن يختار مادته وعينه على المضمون.

عند المرور من أمام ساحل إسكوتلندا إلى ساحل أيرلندا الغربى الخطر، يصل المرء فى النهاية إلى جزيرة تسمى أينيشتبوفن Inishbofin. ومع أنها فقدت الكثير من الأهمية

التي كانت تتمتع بها في العصور الوسطى حين كانت مركزاً ثقافياً، فلا تزال بها واحد من الموانئ الصحيحة القليلة جداً على الساحل كله. واسمه معناه جزيرة Inish البقرة البيضاء Bofin .

وقد قيل منذ سنوات مضت إن الجزيرة كانت غير مأهولة وتختفى في الضباب إلى أن انجر إليها صيادان وأوقدا النار. وعلى الفور انقشع الضباب ورأيا ساحرة تسوق بقرة وتحولها إلى صخرة بمجرد وصولها إلى البحيرة. ضرب الصيادان المرأة بسبب قسوتها فحولتهما هما نفسيهما إلى صخرتين وبقيتا على هذا الحال (٢٥) .

يتذكر القبطان أوهاالوران O'Halloran قصة مختلفة بعض الشيء. فقد كانت الجزيرة في الأصل تحت الماء إلى أن هبت في يوم من الأيام عاصفة ضخمة وببطء خرجت الجزيرة من البحر. فزع سكان جزيرة شارك Inishshark المجاورة لرؤية هذا الحدث وفزعوا أكثر لرؤية بقرة بيضاء ضخمة تجرى على جانب الجزيرة في اتجاه جزيرة شارك وتلقى بنفسها في البحر. ومنذ ذلك الوقت وهي تسمى جزيرة البقرة البيضاء.

وذكر مستر داي Mr. Day من تلك الجزيرة أنهم أطلقوا عليها اسمها هذا لأن بقرة بيضاء ضخمة خرجت من البحيرة ثم اختفت مرة أخرى في الأعماق. وقد عضد قصته شخص آخر من سكان الجزيرة أضاف أن البقرة كانت تظهر من جديد كل مائة عام (٢٦) .

ومع أن مدخل جزيرة البقرة البيضاء مرسى آمن، إلا أنه تعوقه صخرة تسمى Bishop Rock [صخرة الأسقف] والممر الذي يفصلها عن فورت بوينت Fort Point (ومعناه لسان الحصن، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان في يوم من الأيام موقع أحد الحصون الكرومويلية^(*) الذي شيد على موقع كان لقرصان أسباني اسمه دون بوسكو

(*) نسبة إلى أوليفر كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) وهو عسكري وسياسي إنجليزي وكان كذلك من الشخصيات الدينية. وقاد كرومويل انتصار البرلمان في الحرب الأهلية الإنجليزية (١٦٤٢-١٦٤٩) ودعا إلى إعدام الملك تشارلز الأول (المترجم) .

Don Bosco حصن فيه) شديد الضيق. (فيما يتصل بهذه الحكاية لا يسع المرء إلا أن يشير إلى ضرورة معرفة شيء ما عن خلفية اسم أى مكان. وهناك صخرة الأسقف فى خليج سان دييجو، وقد سميت بهذا الاسم لأن سفينة شراعية اسمها Bishop [الأسقف] اصطدمت بها فى القرن التاسع عشر)(٢٧).

وقال القبطان أوهاالوران إنه حين كانت قوات كرومويل Cromwell على الجزيرة كانت تعامل الروم الكاثوليك فيها معاملة فى غاية القسوة. فقد شتقوهم فى الحصن وألقوا بأنجسادهم من فتحة فى السور حيث جرفت بها الأمواج إلى البحر. وألقى القبض على الأسقف وكُبل بالسلاسل فى صخرة فى الميناء أثناء الجزر. وحين ارتفع المد غرق الأسقف والصخرة الآن هى صخرة الأسقف (٢٨).

يقع على الجانب الآخر من جزيرة البقرة البيضاء شرم رويال أوك Royal Oak Cove. ومنذ سنوات دخلت سفينة تحمل هذا الاسم، وكانت تحمل شحنة كبيرة من النقود، هذا الخور الضيق بسرعة فى ليلة عاصفة وتحطمت. وكانت قد قطعت شوطاً كبيراً داخل الخور حتى إن أفراد الطاقم نزلوا إلى الشاطئ على صارى المقدم. وهبط كنزها إلى القاع وأرسل الغواصون لاستعادته. ونزل الغواصون ووجدوا الكنز وحين أوشكوا على إخراجه رأوا شيئاً. لم يعرفوا ما كنه ذلك الشيء، ولكنهم كانوا من الرعب بحيث صعدوا إلى السطح ولم يغوصوا مرة أخرى. ولم يشعر أحد من ذلك الوقت أن الأمر يستحق منه النزول إلى الكنز الذى لا يزال راقداً فى القاع (٢٩).

وتروى حكاية شبيهة عن خور صغير بالقرب من كاتلر Cutler بولاية مين. وهنا كانت إحدى سفن القراصنة المحملة بالذهب تدخل ميناء كاتلر بسرعة فى ليلة عاصفة ففقدت وعيها بموقعها واصطدمت اصطداماً شديداً. ولا يذكر أحد اسم السفينة، إلا أن المكان يعرف باسم Money Cove [شرم المال] ولا يزال الكنز راقداً فى القاع.

لنتنقل بسرعة إلى نوبا سكوشا. فعلى الساحل الشرقى يقع رأس صغير يسمى Saladin Point [رأس صلاح الدين]. وهذه هى ذات البقعة التى اصطدمت فيها السفينة الشراعية Saladin التى تزن ٥٥٠ طناً اصطداماً شديداً، وكان قبطانها ساندى ماكينزى Sandy MacKenzie، يوم ١٢ مايو ١٨٤٤، بعد خروجها من فالباريزو

بخمسة وتسعين يوماً ووقوع تمرد على متنها. ومع أن جزءاً كبيراً من قصتها قد نُسى، فقد استحوطت قصة موتها أن يسمى بها الرأس.

غادرت السفينة الشراعية فيتولا Vitula بقيادة القبطان فيلدنج Captain Fielding إنجلترا في أكتوبر ١٨٤٢ . وكان يصاحبه ابنه جورج البالغ من العمر أربعة عشر عاماً. وفي النهاية أدركت السفينة فالباريزو وحاول الريان - الذي كان بحاجة إلى المال - سرقة حمولة من التترات. أمسكوا به وأدى هذا إلى وقوع معركة وجرح فيلدنج وحُجزت السفينة. حاول فيلدنج فك السفينة والهرب بها ولكنهم أمسكوا به وألقوا به في السجن. وعلى الفور تخلص من حبسه وحاول أن يجد مخرجاً من البلاد، ولكن يبدو أن أحداً لم يكن لديه استعداد لأن يقله. وفي النهاية جاءه العون من شخص طيب اسمه سكوت Scot نقل فيلدنج مجاناً إلى نوفا سكوشا على متن السفينة صلاح الدين، التي كانت تحمل ١٥٠ رطلاً من الفضة مودعة في مؤخرة جزئها المغمور في الماء.

ما إن غادرت السفينة اليابسة حتى تشاجر فيلدنج مع من أحسن إليه وقرر الاستيلاء على السفينة. ولكي يفعل ذلك استعان بمساعدة نجار ذى ساق واحدة وبرجل أيرلندي وبشخص بولندي وبشباب سويدي أشقر اسمه جوستافوس أندرسون -Gusta-vus Aderson . وبعد ذلك استولى على أدوات النجار. ورغم تحذير القبطان من الخطر، فقد رفض بعناد تصديق ذلك ولم يفعل شيئاً.

وفي يوم الأحد الرابع عشر من أبريل كان وكيل القبطان يأخذ تعسيلة في الخُم حيث قتلوه ببلطة وألقوا به من فوق السفينة. استدعى القبطان على سطح السفينة وقتل بمطرقة. وبعد ذلك استدعى أفراد الطاقم وقتلوا جميعاً إلا اثنين، حيث كان جورج فيلدنج يقوم بدوره مستعملاً سكين جزار. وبعد ذلك طُلِيت رأس الجوّجُو البرونزية الخاصة بصلاح الدين باللون الأبيض لإخفاء هوية السفينة.

كانت الأمور تسير بشكل جيد جداً وجعل فيلدنج اثنين من أتباعه يقتلان بالسم الاثنين الآخرين - حيث شجع هذين على قتل من وضعوا السم. ولسوء حظ فيلدنج أن الفريقين طابقا ما قيل لهما وانتهيا إلى أن فيلدنج وابنه نصابان وألقوا القبض عليهما وقيداهما وألقوا بهما من على ظهر السفينة. ومنذ ذلك الوقت عاش الخمسة الذين بقوا على قيد الحياة من الطاقم حياة رغدة في مؤخرة السفينة داخل مقر القبطان.

وفى النهاية اصطدمت صلاح الدين اصطداماً عنيفاً وكانت تسير بأقصى سرعتها بالقرب من كانترى هاربر Country Harbor . وقبل أن يتمكن أفراد الطاقم من مغادرة السفينة، ألقى القبض عليهم وصعدوا بالأغلال واقتيدوا إلى هاليفاكس حيث حاكمهم اثنان من القضاة. وقد ثبتت تهم أربعة من الجناة وعلقوا بالسلاسل فى هوسبيتال بوينت Hospital Point وعرضوا لمدة سنة ويوم (٢٠) .

وإذا كان أفراد طاقم صلاح الدين قد لقوا جزاءهم العادل، فالعدل لا يتحقق فى بعض الأحيان. و(ربما) كان ذلك هو الحال خلال زمن الاستعمار فى ميناء بوسطن هاربر.

كان التطهريون متحمسين فى اتباع مبادئ القانون وكانوا من حين لآخر لا يلتفتون لطلبات المذنبين ويصادرون أموالهم. ويقال إن قبطان السفينة الشراعية تشارلز Charles حذر زملاءه البحارة من دخول ميناء بوسطن بكميات كبيرة جداً من الذهب لكى لا يشنقوا بسببها (٢١) . وعلى أية حال فقد حوكم رجل آخر، وهو الضابط البحرى فى السفينة ديكسى Dixie، فى بوسطن وثبتت إدانته بالقيام بأعمال القرصنة وحُكم عليه بالشنق فى إحدى الجزر. ورغم تمسكه ببراعته، فقد اقتيد إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام وسألوه إن كانت لديه رسالة وداع للجمهور المجتمع. كانت لديه رسالة بأنه برى، ولكى يثبت ذلك قال إن الرب سوف يزيل الجزيرة التى نُفذ عليها الإعدام بعد عشر سنوات. هل هو مذنّب أم برى؟ تظل الحقيقة هى أنه منذ ذلك اليوم أخذت الجزيرة تنكمش. وبعد عشر سنوات من الإعدام هبت عاصفة ضخمة، وفى الصباح كانت الجزيرة قد اختفت. والمخاضة الموجودة فى المكان الذى كان تقوم فيه هى الآن Nix's Shoal [مخاضة نيكس] .

سوف نعرض أثناء تناولنا لموضوع القرصنة على منطقة كيب هاتيراس Cape Hat- teras . ويبدو أن القبطان تيتش Captain Teach، المعروف باسم Blackbeard [اللحية السوداء] ، رقد ليلة هناك داخل سفينة Queen's Ann Revenge [انتقام الملكة آن] . أطفأ القبطان وهو فى سكره المصباح وصوب مسدسه من تحت الطاولة فى ناحية رفاقه وأقسم أنه سوف يطلق عليهم النار بعد عدد معين. لم يجر وكيل القبطان وشلّت

حركته رصاصة اخترقت ركبته. وبعد ذلك فاجأوا تيتش فى نفس المكان وقطعوا رقبتة. وتعرف هذه البقعة باسم Teach's Hole [فتحة تيتش] ، ويقال إن شبحة مقطوع الرأس يطفو فوق السطح حين يكون الطقس مواتياً (٣٢) .

وأدى الموقف من القرصنة والقانون بكامله إلى ظهور أسماء مثل Execution Rock [صخرة الإعدام] فى ميناء نيويورك، و Hangman Hill [تل الجلاد] فى بيرمودا و Dead Man Cay [جزيرة الميت] فى كنجزتون بجامايكا Kingston, Jamaica، حيث أدين بعض القراصنة فيما ارتكبه من جرائم ووضعوا فى الهواء الطلق داخل قفص حديدى كى يجفوا فى الشمس، وهى العقوبة التى أصابتهم بالجنون خلال بضع ساعات وقتلتهم خلال يومين تقريباً.

تقترن قيادة سفن المجهود الحربي اقتراناً وثيقاً بالقرصنة. وهذه الحكاية من لس جرانت فى جزيرة أو أو بولاية مين.

اثناء الحرب الثورية كان هناك شخص اسمه موريس وكانت لديه سفينة وخرج للاستيلاء على سفن الأعداء وحقق بعض النجاح. ولم يمض وقت طويل قبل أن يكون لديه عدد كبير من الأسرى على ظهر سفينته، وذات صباح استيقظ موريس العجوز وجعل الأسطول الإنجليزى بكامله يطارده واضطر للهرب كى ينجو بنفسه. يا سيدى كانت الريح خفيفة وكانوا متقدمين طوال الوقت، ولكن موريس رأى ضباباً كثيفاً فدخله فأخفاه لبعض الوقت ثم هبت الريح وبدأت قوى موريس تخور وحاول أن يروغ منهم. وصل عند جزيرة أوهوات Isle O'Holt حاملاً كل ما يستطيع حمله وربما أكثر، وانتهى به المطاف على حيد. لم يصب السفينة شىء، واخذ بالك، ولكنها أوقفته وقبل أن ينزل من على السفينة كان البريطانيون قد علموا مكانه مرة أخرى ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى الهرب إلى البينوبسكوت. وجعل الأمور على ما يرام وفجر السفينة على باونز ليدج Bowen's Ledge بعد أن وضع الأسرى على الشاطئ تحت مسئولية شخص اسمه نواتون Knowlton كان من المفروض أن يسوقهم إلى توماستون Thomaston . وفى الطريق ثار الأسرى ولكن نواتون لم يطلق صبراً على تهديتهم ومن بقوا أتى بهم إلى توماستون سليماً. كان نواتون جدى الأكبر والصخرة التى اصطدم بها موريس العجوز اسمها حتى الآن Morris's Mistake [غلطة موريس] (٣٣) .

والآن ينبغي على الانتقال إلى الجزر المواجهة للرياح Winward Islands في البحر الكاريبي للحظة، ذلك أنه على الجانب المواجه للرياح من جزيرة توباجو Tobago خليج يسمى الخليج الدامي Bloddy Bay وشرم على أحد الطرفين يعرف باسم شرم الرجل الميت Cove of the Dead Man .

طبقاً لما ذكره العديد من الإخباريين على تلك الجزيرة، فقد وقع منذ زمن بعيد اشتباك بحرى رهيب داخل الخليج وكانت الفوضى والدمار من الشدة بحيث صار لون الماء أحمر من كثرة الدم. وبعد المعركة ألقى الناجون زملائهم القتلى من فوق السفن وجرفتهم الأمواج جميعاً إلى الشرم، حيث بقوا فيه إلى أن تحلوا أو أكلتهم المخلوقات البحرية. إلا أن القصة لا تنتهى عند ذلك الحد. فيقال إن المكان فيه أذى وإذا مرت فيه سفينة ليلاً ودقت جرسها، أو إذا صفر أحد أفراد الطاقم، فسوف تهب عاصفة رهيبة وتسحق السفينة.

وفى بعض الأحيان كذلك تُشاهد الأشباح. وقد روى رجل أنه كان يصطاد فى إحدى الليالى مع طاقم كبير حين سمعوا فجأة صوت مجايف ورأوا سفينة حربية مليئة برجال مسلحين تسير وراءهم. أمسك الصيانون المرعوبون بمجايفهم، ورغم أقصى ما بذلوه من جهد لم يستطيعوا الابتعاد عن يطاربونهم أو حتى الإفلات منهم. وظلوا طوال الليل وهم يجدفون حتى كادت ظهورهم أن تنكسر ولم يسعهم سوى أن يسبقوا السفينة الشبح إلى أن وصلوا إلى فورت جيمس Fort James على بعد عدة أميال. وبعد ذلك طلعت الشمس واختفت السفينة المطاردة وطاقمها (٢٤).

وهناك مكان أخير من جزر الهند الغربية لابد من ذكره فى هذا المقام، ليس بسبب نوعية حكايته، ولكن لأنها بالفعل حالة فريدة.

أمام جزيرة المارتينيك Martinique تقع "H.M.S. Diamond Rock"، وهى قطعة الصخر الوحيدة التى أعرف أنه صدر تفويض بجعلها سفينة حربية. فعل ذلك البريطانيون عام ١٨٠٤ لمحاصرة الجزيرة. فقد وضع على الصخرة خمسة مدافع و١٢٠ رجلاً، حيث كانوا يلحقون أضراراً بالسفن المارة. وأخيراً استولى الفرنسيون على الصخرة ولكنهم دفعوا ثمنًا باهظاً من القتلى والجرحى قبل سقوطها. ويقال إن

السفن الحربية البريطانية التي تمر من هناك حتى يومنا هذا تطلق سبع طلقات تحية للسفينة الحربية الوحيدة غير القابلة للفرق وتكاد لا تُقهر في الأسطول البريطاني (٣٥) .

كانت تلك إذن عينة من الأسماء البحرية ولمحة عن طرق التسمية. وإذا كانت منطقة من المناطق قد حازت من الاهتمام أكثر مما نالت غيرها، فهذا فقط لأن هذه المنطقة بدت - بفضل الجغرافية والناس - أكثر فائدة للمؤلف.

وحيث نطالع الأسماء يتضح أن تلك الأسماء التي في محيط الجزر البريطانية أقدم، ورغم حقيقة أنها خلقت بطرق مشابهة لتلك التي خلقت بها أسماء العالم الجديد، فهي تختلف عنها. وقصص العالم القديم أكثر تعقيداً وتفصيلاً، وليس من النادر أن تكون هناك مجموعة من الحكايات الخاصة ببقعة ما، بينما تبدو "حكاية واحدة لكل صخرة" هي الأمر المألوف في أمريكا. ويبدو أن أسماء الأماكن في الجزر البريطانية وأيرلندا في أغلبها غالية أو إنجليزية، مع وجود طبقة قوية من التسمية الإسكندنافية في الشمال وفي الغرب، وهولندية في الجنوب، مع وجود اسم كلتي أو اسمين هنا وهناك. وفي أمريكا الأسماء الأساسية هندية وإنجليزية وفرنسية وأسبانية، مع أسماء متفرقة من جنسيات أخرى. ولا تكاد الأسماء الغالية تعرف، أما الأسماء الإسكندنافية - باستثناء فنلاند Vinland الأسطورية - فقليلة. كذلك فإنه بما أن الكثير من عوائق الملاحة أو ما يعينها لم تكن تُسمى حتى القرن التاسع عشر، فليس من المستغرب أن الاسم، بل والحكاية المرتبطة به، لهما نبرات أكثر عاطفية من تلك الخاصة بالعالم القديم، وهو ما نراه عند التقاء صخور بو هو Boo Hoo Rocks برمال السفينة الطويلة Longship Sands .

بمرور الأيام يعرف المزيد من الأماكن - من خلال الماسي في أغلب الأحيان. ومسحبة الأسلاك (*) وسبر الأعماق (**) يحسنان الملاحة على الدوام ويقللان احتمال

(*) أداة تستخدم في مسح المناطق الصخرية البحرية حيث لا يجدي استخدام طرق السبر العادية نفعا ولا تضمن استكشاف جميع العوائق المغمورة تحت الماء والأعماق الضحلة والصخور الموجودة على عمق معين، كما تحدد أقل عمق لمنطقة مائية ما (المترجم) .

(**) تعيين عمق كتلة مائية ما بواسطة مسبار الصدى أو سلك المرجاس (المترجم) .

حدث المأسى. ومع ذلك فالمأسى يتكرر حدوثها فى موقع الرعب والبطولات، وستظل الأسماء تُشكّل تبعاً للأساليب المتبعة هنا التى ستظل تدل على النهاية غير السعيدة للأمل والحياة والثروة، وإن قلّت مرات حدوث ذلك. وروى صياد سمك عجوز من مين نادرة - لها أشباه فى كل أنحاء المحيط - توضح هذه النقطة.

فقد اختارت سفينة أجنبية مرشداً يقودها فى خليج بينوبسكوت. كان الضباب كثيفاً وكان القبطان قلقاً فسأل المرشد: "هل تعرف أين أنت؟" فأجابه: "بالطبع." فسأله ثانية: "أمتأكد من معرفتك؟" فرد عليه: "نعم." فعاود سؤاله: "هل تعرف كل الصخور التى فى الخليج؟" فقال: "بالطبع." وفى تلك اللحظة توقفت السفينة فى مكانها. وقال المرشد: "هنا واحدة منها الآن، اللعنة."

إلا أن الأسماء البحرية، بما قد يكون فيها من سحر، ليست سوى جزء من لغة ما، وهى لغة البحر. وقد حان وقت بحث هذا المنطقة الكبيرة بعض الشيء أملاً فى العثور على بعض الأسس التى يقوم عليها تطورها.

الفصل الثالث

اللغة

"اللغة ... لسان الحس المشترك".

والث وثمان

Walt Whitman,

Complete Poetry and Selected Prose

(Boston, 1959), p. 4

حين كنت يافعاً كسبت خمسة دولارات مقابل عمل مؤثرات صوتية لأحد برامج الإذاعة الصباحية. وكان البرنامج تديره امرأة، وفي كل أسبوع كانت لها تجربة جديدة تحكيها "البنات". ولسبب ما كان من المفترض أن يكون ذلك البرنامج رحلة بحرية على سفينة شراعية كبيرة، ولكن بما أن السيدة تلك كانت تكره الماء فقد استأجرت سفينة شراعية وجعلت الرحلة البحرية تتم والسفينة راسية في مكانها في المرسى. وكانت لديها أسطوانة عليها أصوات الريح تشغلها في اللحظات المناسبة التي كان من المتوقع أن أحدث صليلاً بيكرة السلاسل أو أسكب دلو ماء حين "اصطدمنا في أمواج هائجة". وعبر تلك الضجة كانت تصيح "بلغة بحرية" أمام جهاز التسجيل - بعبارات من قبيل *She's yar Shiver me timbers* [يهز ضلوعي] *ahoy there* [لنداء على شخص بعيد *avast ue swabs*] [توقفوا يا بحارة] . وكنا ننهي جولتنا البحرية بالأمر "ألقوا بالمرساة" *Throw out the anchor* . (وهو اصطلاح كان يزعج جوزيف كونراد Joseph Conrad (*) (١) .

(*) روائي بريطاني بولندي المولد (١٩٥٧-١٩٢٤) كان أستاذاً للجو العام وتكتيك السرد. من أعماله

"لورد جيم" و"قلب الظلام" و"توسترومو" (المترجم) .

ذلك هو الرأى التقليدى إلى حد ما ، السائد بين أهل البر بشأن اللغة البحرية -
فهى غريبة، وشديدة التميز، وظرفية بعض الشيء. وهذا ليس يبعد عن الحقيقة.
بل إن المصطلحات البحرية لا يساء استخدامها وحسب، بل يسىء أهل البر فهمها
إلى حد كبير.

وثلاثة أمثلة ممتازة من الاصطلاحات البحرية التى كثيراً ما يساء فهمها موجودة
فى الاتجاهات وتولى الحراسة وربط السفينة. الأول فى مجموعة قصائد لفيليب فرينو
Philip Freneau حيث أشار الشاعر إلى Ocracoke Inlet [شرم أوكراكوك] ، وقال
المحرر فى شرحه للنص إن هذا المكان يقع على بعد ستة وعشرين ميلاً شمال شرقى
كيب هاتيراس.

ثانياً: قد تكون أكثر العبارات إساءة للاستخدام والفهم فى اللغة البحرية بعد
throw out the anchor هى اصطلاح dog watch، التى يشير إليها الكتاب باستمرار
على أنها تعنى "تلك النوبة الطويلة تلك التى فى منتصف الليل" أو "أكثر النوبات الطويلة
مللاً". فالمصطلح dog يستخدم بمعان كثيرة فى البحر، وغالباً ما يكون بمعنى تحقيرى.
فيقال عن البحار إنه dogging it إن لم يؤد ما عليه من عمل بالكامل أو "لا يفى بما عليه
من التزامات". ويقال عن فتحة أرضية السطح إنها dogged down بمعنى أنه أحكم
إغلاقها لكى لا يتسرب منها الماء باستخدام مسند dog iron لإعطاء مزيد من القوة ضد
الكلاب dogs التى تغلقها. ومع ذلك فإن dog watch هى أفضل نوبة حراسة على متن
السفينة. ذلك أن نوبة حراسة الساعات الأربع المعتادة تنقسم إلى نوبتين فيما بين
الساعة الرابعة والساعة الثامنة مساء كل بضعة أيام، لكى لا يجبر أى رجل على
الوقوف نفس الأربع ساعات بشكل مستمر. والبحارة يحسدون دائماً "الرجالة" الذين
"يمسكون نوبة الساعتين". إنها النوبة الوسطى، من منتصف الليل حتى الصباح، وهى
من التمام والكمال حتى مع نشاط السفينة المعتاد أو مع أى تغيير فى الضوء، حتى إن
البحارة يكرهونها ويستأخرون منها ويظنون أنها لا تنتهى أبداً. فالإنسان فى هذه الساعة
يكون فى أقل درجات النشاط، وبما أنه لا يكون هناك ما يراه ويقل ما يمكنه عمله فإنه
يكاد يكون من المستحيل قياس مرور الوقت. هذا علاوة على أنها تقلل ساعات نوم
البحار الثمينة القليلة إلى حد كبير.

وكثيراً ما يسأل الشخص الذى يعيش على البر "متى ترسو dock السفينة؟" والإجابة بطبيعة الحال هي "حين تكون فى الحوض الجاف dry dock"، ذلك أن السفينة "تربط" moors فى الشمنذورة، و"تقف" lays to فى المرسى، و"تثبت" tied up فى الحوض الجاف أو "تربط على الرصيف" moors alongside .

إن لكل مهنة لها مفرداتها الخاصة بها. وكلما كانت المهنة أكثر احتراماً كانت مفرداتها أقدم، وكلما كانت المشاركة التى تتطلبها المهنة أكثر شمولاً كانت المفردات أكثر، وكلما كانت المهام أكثر تعقيداً كانت المفردات أكثر دقة. وقد يكون من الصعب العثور على مهنة أقدم من العمل فى البحر، أو أكثر منها تعقيداً أو أكثر منها استغراقاً للانتباه التام. فالرجال يعملون فى المنجم طوال اليوم ولكنهم يعودون إلى بيوتهم فى الليل، وقاطع الأخشاب يقضى فى بعض الأحيان حوالى ثلاثة أشهر فى الغابات قبل أن يعود إلى المدينة، ولكن صيادى الحيتان يقضون سبعة أشهر فى البحر. ويسجل جوزيف كونراد قضاء ١٢٠ يوماً على أنه حدث عادى فى حياة أية سفينة تجارية (٢) .

أظن أنه من الأمان التحدث بلغة بحرية. وهذه اللغة تنقسم إلى عدة أجزاء. أول هذه الأجزاء بطبيعة الحال هو نظام التسمية - تعريف كل لوح وكتلة خشب وشراع وأداة تثبيت وخيط وحبل ورافعة وسارية ومرجل - وهى لا تشمل أجزاء السفينة ومعداتنا وحمولاتها وحسب، بل كذلك أفراد الطاقم وملابسهم والطعام الذى يأكلونه. بل إنها تمتد إلى الأنشطة التى يقومون بها فى الميناء. وتلى ذلك طرق الكلام - أى كيف تقال الأشياء، وما يمكن التعبير عنه وما يجب الاحتفاظ به فى منطقة وسطى بحيث يكون متاحاً فقط للبحار اللبيب الذى يمكنه ترجمة الأفكار غير المنطوقة. وأخيراً هناك إيقاع الكلام نفسه - وهو طبقات الصوت المستخدمة، وإذا ما كان الحديث سريعاً أم بطيئاً، مرحاً أم حزيناً، متقطعاً أم متدفقاً.

تخضع اللغة البحرية فى المقام الأول لبضع ضوابط بسيطة. وما إن نتعرف على هذه الضوابط حتى تبدأ لغة البحار المميزة فى اكتساب معنى جديد وأكثر أهمية. واللغة البحرية قبل كل شيء آخر لغة وظيفية. ولا يهم كثيراً على البر إن كنت لا تفهم كلمة أو عبارة. ولكن فى البحر يمكن أن تكون إساءة فهم أمر من الأوامر محرجاً على أقل

تقدير، ويمكن أن يكون باهظ التكاليف وقاتلاً في أسوأ الظروف. وكثيراً ما لا يكون هناك وقت لتكرار العبارة. فلا بد من سماعها وفهمها من أول مرة. بل لابد أن تكون اللغة البحرية مفهومة في أكثر الظروف سوءاً من على مسافة كبيرة. ومع تلاطم الأمواج على السفينة، وحيث تئن السفينة وتزجر وتصدر أصواتها الألف الخاصة بالحزينة، ومع ظلمة الليل أو كثافة ضبابه أو كثرة الثلوج التي تسقط فيها، لابد أن يكون القبطان أو وكيله الموجود على مؤخرة السفينة أو منصة الريان قادراً على سماع ما يقوله المراقبون في المقدمة أو في أعلى الصاري. ولابد أن يكون قادراً على فهم ما يقولونه في أشد حالات الطقس سوءاً، ولابد أن يكون قادراً على مناداة رجاله وإصدار أوامره بطريقة تجعلها مسموعة بوضوح رغم العاصفة وتغوص في عقل شبه متجمد أو مجهد أو مازال ناعساً.

ولكى تكون معظم المفردات البحرية مؤثرة، نجدها قصيرة ورنانة ومميزة عن بعضها. في يوم من الأيام كانت هناك leeboard و steerboard ثم جرى تغييرهما إلى starboard [الجانب الأيمن من السفينة] و larboard [الجانب الأيسر من السفينة] ، ولكن سرعان ما جرى تغييرهما مرة أخرى إلى starboard و port ، وهما كيانان مميزان يمكن سماعهما أثناء الرياح العاتية بشكل أفضل من right و left . وبدلاً من أن يقال لمدير الدفة "وجه المقدمة أكثر ناحية الريح" أو "ابتعد عن الريح" يكون الأمر ببساطة "Come up" [اطلع] أو "Fall off" [انزل] . وهنا لدينا حشو مؤثر. وتعزز "come" أو "fall" المعنى. وإذا كان من الضروري الاقتراب أكثر من الريح، يكون الأمر هو Luff [اتجه بالسفينة نحو الريح] وهذا الإجراء غالباً ما يتخذ عندما تكون السفينة على وشك أن يتغلب عليها الريح وهو لذلك أمر عاجل. ومن ناحية أخرى يلي ذلك قرار الابتعاد عن الريح "Bear away" [ابتعد] .

وتأخذ الرغبة في الدقة أشكالاً كثيرة. ففي الأسطول الأمريكي يميز وجهة السير والسرعة والوقت تمييزاً واضحاً. فعادة ما تُعطى وجهة السير ثلاثة أعداد مثل "أدر الدفة صفر واحد خمسة"، وتُعطى السرعة رقمين "حافظ على سرعة خمس عشرة عقدة"، بينما يُعطى الوقت أربعة أعداد. وحيث إن السفن نادراً ما تصل إلى سرعات من ثلاثة أعداد وهناك ٣٦٠ درجة فقط على البوصلة، فإن هذا نوع مفيد من الحشو. بل

إن الأمر يكون "اتجه يساراً خمس عشرة درجة. سر للأمام بسرعة صفر واحد خمسة. أدر الدفة قليلاً. لا شيء ناحية اليمين." وهكذا لا يكون هناك هامش للخطأ.

يُنَفَّذ هذا الاستخدام للحشو من أجل اليقين بطرق أخرى كذلك. ففي مين وفي الأقاليم البحرية Maritime Provinces (*)، حيث يديرون الدفة اثنين وثلاثين درجة على البوصلة - كما يفعل الناس في أجزاء كثيرة من العالم - غالباً ما يغير البحارة قيمة الحروف المتحركة. إنهم لا يتحدثون عن North [الشمال] و South [الجنوب] بل عن "Nothe" و "Sothe". في النصف الشرقي من البوصلة يكون الأمر "Steer nothe-east; steer sothe-east". وفي النصف الغربي من البوصلة نسمع "nawthwest" و "saouth by west".

على عكس السفر بالسيارات وما يصاحبه من بؤس، فإن السفر بحراً مستمر من قرون، ويتطور السفر بحراً وبناء السفن تطورت اللغة معهما. ومن الغريب أن البحار شخص محافظ بطبعه ويتردد في إجراء أى تغيير. ولأن معرفة القراءة لم تكن لزمن طويل جزءاً من معارفه، فقد كان يميل إلى الاعتماد على الذاكرة فيما يختص بكل شيء في مهنته، وبدلاً من إسقاط مصطلح مهجور، كان يعدله ليتلاءم مع غرض جديد ويخترع أو يكتسب المزيد من المصطلحات التي تتوافق مع ظروفه المستجدة.

صارت عبارات البحارة من التعقيد وأثارت اهتمام أهل البر بها بحلول عام ١٦٢٧ حتى إن القبطان جون سميث John Smith أخرج كتاباً من ٨٠ صفحة عن المصطلحات البحرية الأساسية وتسمية السفن بعنوان A Sea Grammar [أجرومية بحرية] وبحلول عام ١٧٦٩ كان ويليام فالكونر William Falconer قد انتهى من تجميع Dictionary of Marine [قاموس البحرية] الذي ظهرت الطبعة الرابعة منه عام ١٨١٥ في أكثر من ٨٠٠ صفحة! والنقطة اللافتة للانتباه هي أن مصطلحات سميث جميعها موجودة في قاموس فالكونر وأن معظم مصطلحات فالكونر (ما عدا مصطلحات المعدات الحربية)

(*) نونا سكوشا ونيو برونزويك وجزيرة الأمير إدوارد وهي مناطق كندية تقع على المحيط الأطلنطي (المترجم).

ما زالت معروفة للبحارة فى الوقت الراهن، رغم تغير الهجاء والنطق إلى حد ما؛ فنجد أن "lanners" عند سميث هى lanyards [أطناب] (*) فى وقتنا هذا.

وهناك نقطة يمكن إثارتها كمؤشر آخر على طبيعة البحار المحافظة والتزامه بالتراث. فقد أوضح القبطان سميث أن الأرضة هى أسوأ آفة يمكن أن تواجهها أية سفينة. وكانت أفضل طريقة لتخلص السفينة من هذه الآفة هى تنظيف "to bream" السفينة بالنار - حيث تسحب السفينة من الماء وتوقد تحتها نار سريعة شديد الحرارة. ويحرق ذلك تلك المخلوقات الضارة ويسلق الباقي. وبعد ذلك، وقبل إنزال السفينة فى الماء كان من المعتاد تشحيم البدن كى تبهر بسرعة أكبر. وفى الوقت الراهن ما زال بحارة السفن الشراعية فى لشبونة بالبرتغال يتبعون هاتين الممارستين، رغم وجود الكثير من الطرق الرخيصة والسهلة والأقل خطورة للتخلص من ديدان السفن teredos .

مما سبق يتضح أن تطور اللغة البحرية كان عملية تراكمية. ومع تغير السفن كانت اللغة تميل إلى التكيف مع أنماط السفن الأحدث بدلاً من أن تصبح مهجورة. وكان المصطلح يسقط فقط حين يكون هناك احتمال للبس فى المعنى الاصطلاحي، أو حيث لا يكون هناك وجود للشئ الذى يشير إليه بأى شكل كان - وهذا أمر نادر الحدوث.

منذ العصور الوسطى حتى زمن الأرمادا، كانت السفن تزود بأبنية على هيئة الصندوق على المقدمة وعلى المؤخرة. وكانت لتلك الأبنية غرض مزدوج - وهو منع البحار الهائجة من الارتطام بالسطح وفى الوقت نفسه تقوم مقام استحكومات حربية صغيرة يلقي منها البحارة الحجارة والرماح ويرمون السهام على السفن المعادية. وكانت تسمى "fore castle" [الحصن الأمامى] و "stern castle" [الحصن الخلفى] وكانا فى حقيقة الأمر يشبهان حصنين صغيرين أكثر منهما أى شئ آخر. وبمرور الوقت، قلّص حجم هذين البرجين شيئاً فشيئاً وأصبحت وظيفتهما صد أمواج البحر ولا شئ غير

(*) حبال قصيرة تستخدم فى تثبيت الأشياء فى السفينة، حيث يمر أحد طرفى الحبل من خلال قرص مثقوب لشد الحبال (المترجم) .

ذلك. واختصر البرج الأمامى وأصبح اسمه "fo'c'sle" أو "foredeck" وكان يعيش تحته الطاقم وتقع فوقه الرحوية أو رافعة المرساة. أمام البرج الخلفى فتخلوا عنه، إلا أن المنطقة ظلت مرتفعة لمنع الأمواج من تخطى المؤخرة ولطم السفينة، وهو خطر عظيم فى عرض البحر. وأصبحت هذه المنطقة تُعرف أحياناً باسم "poop" [سطح المؤخرة] أو الركن الخلفى لأنها تضم ربع سطح السفينة وجرى العرف على تسميتها "officer country" [ومعناها الحرفى أرض الضباط] . ومن "الفتحة التى فى سطح المؤخرة" يمكن للقبطان مراقبة "الخصر" حيث يعمل أفراد الطاقم ويمكنه النظر إلى الأمام فيما وراء البرج الأمامى.

كان المصابون بالجذام منذ مئات السنين إذا أرادوا تطهير أنفسهم من هذا المرض المخيف يسافرون بالسفن إلى الأرض المقدسة. والحيولة بون عدوى سائر الركاب وأفراد الطاقم كانوا يعزلون فى المؤخرة، لكى لا تنتشر رائحتهم العفنة فى أرجاء السفينة. وظلت الحظيرة التى يعيش فيها مرضى الجذام Lazars محفوظة فى كلمة lazaret [الحجر] ، وهى كايينة صغيرة ذات رائحة سيئة توضع فيها المعدات التى لا تستخدم كثيراً.

وكان يوجد فى بطن السفن الشراعية الضخمة البكر والحيال التى تساعد فى تحريك الدفة. وكانت هذه المساحة مظلمة ولا يدخلها الهواء وضيقة ورطبة ويكثر فيها الضوضاء. هنا فى الدرجة الثالثة steerage كان يقيم المسافرون الذين يدفعون أقل أجره سفر. والآن تقوم بهذا العمل محركات هيدروليكية، ولكن "الذهاب إلى الدرجة الثالثة" مازال مصطلحاً له معناه على متن السفينة.

وحيث كانت السفينة ذات الأشرعة المربعة تبحر فى اتجاه الرياح، كان من المحتمل أن تنتشى حواف أشرعتها المربعة التى فى مواجهة الرياح وتندفع للخلف. وفى حال حدوث ذلك كان الشراع يسقط وتجد السفينة نفسها مكبله "in irons"، أى تكبلها الرياح وتكون عاجزة عن التحكم فى تحديد وجهتها. ولمنع ذلك، كان يُمد حبل من الحافة التى فى مواجهة الرياح إلى المقدمة ويشد بإحكام. وفى حال اقتراب السفينة أكثر مما يجب من الرياح، كانت الحافة المكشوفة من الشراع لا تلتوى. ويسمى الحبل والعقدة

المستخدمان لذلك الكر **bowline** . وغالباً ما كان الأمر هو "أبقها على الكر المشدود" . وهو مصطلح مازال يستخدم في بعض الأحيان؛ إلا أن أكثر ما يذكرنا بالعبارة هو اسم أكثر العقد البحرية جميعاً استخداماً، وهي العقدة غير المنزلة.

كانت المدافع في السفن الحربية القديمة توضع على السطح الرئيسي، وبشكل أساسي في الخصر. ومن أجل الحماية كانت الجوانب ترفع فوق مستوى السطح وكان الرجال يجثون خلفها. وكانت المدافع تتطلق من خلال فتحات في تلك الألواح، وحتى يومنا هذا يسمى الجانب المرفوع بالملمم **bulwark**، وهو الفطاء الموجود فوقه الشفير (*) **gunwale** أو **gunnel** .

كثير من الكلمات المحفوظة قديم جداً، حيث يعود على الأقل إلى الأنجلوسكسونيين. فكلية "bos'n" على سبيل المثال تحريف لكلمة **boatswain** [عريف الملاحين] - ذلك أن **swain** كلمة أنجلوسكسونية تعنى على وجه التقريب الحارس أو المراقب، ومن ثم يكون معنى **bos'n** هو كبير ملاحى السفينة [الرئيس] . وكما هو الأمر في حالات كثيرة، يُحفظ مع الكلمة قدر معين من التراث. وشارة هذه الشخصية البارزة هي "نداء" أو "مزمار" حارس السفينة. وهي في العادة مصنوعة من الفضة على شكل عضو الكلب التناسلى وتعلق في الرقبة في سير من الجلد المجبول بعناية يسمى الجديلة **sennit** . وفي يوم من الأيام كان كل النشاط تصدر أوامره بألة النفخ الصغيرة هذه (وهي آلة النفخ الوحيدة التي كان مسموحاً بها على السفن القديمة). ولم تكن صافرة النداء تستخدم لأغراض إصدار الأوامر وحسب، بل كذلك لأغراض الاحتفال، وفي ذلك الوقت كان يشار إليها باعتبارها "مزماراً". وحين كان القائد أو القبطان يصعد على سطح السفينة كان يصفر له فوق الجانب باستمرار. وحين كان مطلوباً إقامة حفل رسو أو كانت السفن ترسل في مهام، كان الأمر - في أمريكا على الأقل - هو "نداء السفن المغادرة" و "نداء جمع كل الرجال" و "نداء حفل الرسو"، وكل نداء له لحن مختلف. وبما أن الرئيس قد يصفر باليد اليمنى فقط، فهو الرجل الوحيد في البحرية الأمريكية المسموح له بآداء التحية بيده اليسرى. وحتى وقتنا هذا لا تزال هذه العادات

(*) الحافة العلوية لجوانب سطح السفينة (المترجم) .

محفوظة في البحرية الأمريكية. ومع أن الأمر قد يأتي من خلال مكبر للصوت، فقد كانت عبارة "الآن اسمعوا هذا ..." تسبقها دائماً صافرة الرئيس الحادة وإن كانت مرتعشة.

ومن المهم الإشارة إلى أنه بحلول القرن السابع عشر كان البوق قد أدخل كذلك على متن السفن وكان يستخدم استكمالاً لصافرة الرئيس. واستمر ذلك مع استخدام بورى يخرج أحياناً مختلفة لأنشطة مختلفة، يتذكرها الرجال من خلال الإيقاعات مثل ذلك الخاص بنوبة "الحرية": "Who's going ashore/ Who's going ashore? Who's got a dollar for a Newport whore?"

ليست مفردات البحر قديمة فحسب، فهي كذلك تقرها شعوب كثيرة، من أبرزها الهولنديون الذين أضافوا، بغض النظر عن قدرتهم كبجارة، الكثير إلى اللغة. فكلما مثل skiff [زورق] و schooner [سفينة ذات شراعين أو أكثر] و skipper [ربان السفينة] و hooker [مركب صيد وحيد الصاري] و boat [قارب أو سفينة] و yacht [يخت] تبدو جميعها ذات أصول في هولندا. وأسهم الفرنسيون بمفردات مثل seine [شبكة صيد كبيرة] و jollyboat (joli bateau) [فلوكة السفينة] و frigate [فرقاطة] و captain [القبطان] وكثير من هذه المفردات تغير واندمج في اللغة شيئاً فشيئاً حتى بات مقبولاً باعتباره مصطلحات أنجلو أمريكية لا يعرف أصولها سوى المتخصص في علم أصول الكلمات.

كما ذكرنا من قبل، هناك دائماً محدّد وظيفي في اختيار المفردات. وقد أشرنا إلى ضرورة الاصطلاح الدقيق، وكذلك ضرورة الوضوح كي يعرف المرء على وجه الدقة ما هو المقصود منه. والوظيفة الأخرى هي الإيجاز، ذلك أنه كلما طالت العبارة ازدادت فرصة إساءة فهمها وكان احتمال أن تحمل الريح التي تهب جزءاً من العبارة بعيداً. ولهذا السبب كانت الأشياء في البحر "باتجاه الريح" to leeward أو في مواجهة الريح to windward وليس "على الجانب سفالة الريح" on the leeward side .

ولكن هناك محدّداً وظيفياً آخر قديماً قدم ركوب البحر وفي بعض الأحيان يكون في عدم وضوح رؤية الأفق في الضباب - وقد يكون هذا هو أكثر المحدّدات قاطبة بروزاً -

إنه النظرة التي ينظر بها البحار إلى الحياة واحترامه للبحر. قد تكون تلك النظرة متشائمة وقدرية. أما احترامه للبحر فميل قوى إلى الإيمان بحيوية المادة والاعتقاد بأنه رغم أن البحر قد تكون له بالفعل صفات بشرية، فإنه (أو "إنها" كما يدعى المحيط كثيراً) في المقام الأول قوة معادية قد تكون متواطئة مع عناصر الطبيعة. ويسلم البحار، بالتعاون مع سفينته، فقط إن هو فاقها حيلة ودهاء، حيث تنتظر هي بصبر لا آخر له كي يسلم نفسه - ولأنه إنسان فصبرها كثيراً ما يكافأ. وهذه الفكرة يشعر بها أحياناً الشعراء الذين يتحدثون عن "المحيط العجوز"، أو يشيرون إلى أن "محيط إنجون يغرب ويبتسم"، أو يتعجبون قائلين "أيها البحر، التطم، التطم، التطم على أحجارك الرمادية الباردة"، ولكنها متأصلة في طبيعة البحار مثل التجاعيد التي حفرتها الشمس والرياح حول عينية، ومدفونة في أعماق روحه كالروماتيزم الذي أصابته به الرطوبة الراسخة في عظامه.

هذه الحقيقة اعترف بها إرنست هيمينجواي Ernest Hemingway الذي يقول عن أحد أبطاله:

كان يفكر في البحر دائماً على أنه "La Mar" كما يسميها الناس باللغة الأسبانية حين يحبونها. ففي بعض الأحيان يقول المحبون أشياء سيئة عنها وكثرتها امرأة. بعض الصيادين الشباب، هؤلاء الذين كانوا يستخدمون الشمنطورات كعوامات لخيطانهم وكانت لديهم قوارب تعمل بمحركات، اشتروها حين كانت أكباد القرش تحقق أموالاً كثيرة، كانوا يتحدثون عنه باعتباره "el mar" وهو منكر. كانوا يتحدثون عنها على أنها منافس أو مكان أو حتى عدو. ولكن العجوز كان يفكر فيها يوماً باعتبارها أتنى وعلى أنها شيء يمنع جزيل الفضل أو يمنعه، وإذا أتت بما هو ضار أو شرير فذلك لأنه لا يسعها منع ذلك. فقد كان يظن أن القمر يؤثر عليها كما يؤثر على أية امرأة^(٣).

ولكى يسلم البحار، فهو يعلم أنه لا بد له من ترضية عناصر الطبيعة أو خداعها - وخاصة البحر. قرب عوليس Ulysses^(*) القرايين للبحر، وزيادة في الأمان جعلهم

(*) تقول الأساطير إن الملك اليوناني عوليس (وهو أوديسيوس الذي تحمل ملحمة الأوديسا اسمه) الذي شارك في حرب طروادة أراد العودة إلى بلاده بعد سقوط المدينة المحاصرة، إلا أن بوزيدون إله البحر الذي سبق أن أهاته لم يسمح له بالعودة قبل عشر سنوات من التجوال في البحار (المترجم).

يقيّدونه فى سارية السفينة - ومنذ زمن لا يذكر أحد تاريخه حتى الآن والإنسان يحاول
ترضية البحر بالهدايا. ولا يهم كثيراً إن كانت تلك الهدايا أضاحى بشرية فيما قبل
المسيحية، أو أكالييل من الزهور تلقى فوق المد فى جلوسستر بولاية ماساتشوستس
أو سانت جونز فى نيوفاوندلاند كل صيف من هذا القرن؛ فالدافع واحد إلى حد كبير.

إلا أنه حتى الآن يوجد أكثر أفعال الأمن رسوخاً فى اللغة، وفى النبرة، وفى
المجاز وفى الموقف. لم يكن الأنجلوسكسونى يقول إنه ذاهب إلى البحر؛ بل كان يقول
إنه ذاهب "فى طريق الحيتان". كما أنه لم يكن يسحب مجدافاً بل "شجرة دردار". وبدلاً
من السفر فى سفينة، كان يسافر فى "جوّال وحيد" أو "طيار بعيد". وهذا الاستخدام
للمجاز أو الكناية لم يكن لأغراض الضرورة الشعرية وإنما لمنع البحر، إن أمكن، من
اكتشاف أمر عمل البحار. واستمرت هذه الممارسة حتى يومنا هذا. ولا يحتاج المرء
إلا لسماع اثنتين من السفن تتحاور، ولا يهم كثيراً إن كان ذلك على جراند بانكس Grand
Banks قبالة سواحل نيوفاوندلاند أو بريسبانك Bressa Bank قبالة جزر شتلاند.
وقد يكون المثال التقليدى كما يلى. صوت متعب يأنس يشق الهواء:

"من جيرل فيفيان إلى سيجار جو، من جيرل فيفيان إلى سيجار جو، أجب يا قبطان."

"هنا سيجار جو. مرحباً فريد. أين أنت؟"

"فى نفس المكان السابق تقريباً. أين أنت؟"

"تقريباً فى نفس المكان الذى كنت فيه المرة السابقة. كيف حال الطقس عنديكم؟"

"لا بأس. قد يسوء، قد يسوء. كيف الحال معكم؟"

"ليس شديد السوء، ليس شديد السوء. واجهنا ريحاً خفيفة منذ قليل ولكنها
اختلفت الآن. ربما تراجعت لتستجمع قواها. هل هناك أى شىء فى طريقك؟"

"لا، لا، بضع صناديق من أسماك لا قيمة لها، هذا كل شىء. لم تتوقع أن نقوم
برحلة على هذا القدر. وأنتم؟"

"لا، لا شىء بالمرة هنا. أسوأ ما رأيت. قد أعود فارغاً. إنها طريقة صعبة لكسب المال."

"نعم، نعم، هذا هو الحال. أراك فى السوق. حوّل."

"وهو كذلك يا قبطان. أراك لاحقاً. جيرل فيفيان تنهى الاتصال مع سيجار جو."

وصلت السفينتان إلى السوق بصيد وفير بعد يومين. بالطبع قد يُقال إن المحادثة بكاملها حيلة لإبعاد سائر الصيادين، ولكن بما أنه من المعتاد أن يصطاد الصيادون على مرأى من بعضهم ويمكن لأحدهم أن يجرى اتصالاً لاسلكياً بالسفينة المعنية، فهذا القول غير صحيح. فالأمر الأكثر وضوحاً هو حقيقة أن الطبيعة الفضولية سوف تسعى لمعرفة أحوال السفينتين، ومن الثبرات اليائسة إضافة إلى الصيد القليل المرتبط بذلك، لن يستحق الأمر من الطبيعة أن تسعى وراءهما.

كثيراً ما يُعبر عن فكرة كون الرب أو عناصر الطبيعة يقصدون الشر بالإنسان في شكل حكاية. وأفضل ما يعبر عن ذلك حكاية الهولندي الطائر، وهي حكاية تدور حول رجل تحدى عناصر الطبيعة وأقسم أنه سيدور حول كيب هورن بغض النظر عن حالة الطقس. فكما يعلم أي بحار (ويعلم صمويل تايلور كوليريدج Samuel Taylor Coleridge^(*)) تمام العلم أنه لا يزال يحاول الاتجاه غرباً ليدور حول كيب هورن. وبلغه أكثر جفافاً ولكنها بقوة مماثلة يقول جاك لندن Jack London في قصة قصيرة بعنوان Make Westing [الاتجاه غرباً] : "راجع القبطان دان كالن جهده الأدبي بإعجاب ... شعر أن السفينة ماري روجرز ترتفع وتميل وتلاطمها الأمواج، وعلم أنها تسير بسرعة تسع عقد. بدأت تشرق ابتسامة رضا على وجهه الأسود كثيف الشعر. لا بأس على أية حال، فقد اتجه غرباً وضحك على الرب"⁽¹⁾.

للذين قد يقولون إن مثل تلك الأفكار خيال لا أساس له يعود للماضي تقدم حكايتان حديثتان من تشيساويك قبلاً مضافاً. فقد خرج رجل في الخليج وهبت عاصفة قوية. استمرت العاصفة الساعة تلو الأخرى ومهما فعل القبطان لم يمكنه العثور على ملوى، ولم يتمكن من الوصول إلى ميناء. وأخيراً قفز غضباً ولوح بقبضته في وجه السماء وصاح: "أنت يا ابن ال... إن كنت فعلاً هناك في الأعلى أوقف هذه!" وطبقاً لما قاله الراوى، "حينذاك اشتدت الرياح أكثر من قبل"⁽²⁾.

(*) شاعر وناقد إنجليزي كان رائداً للحركة الرومانسية وقد نشر مع ويليام وردزورث Lyrical Ballads عام ١٧٩٨ وكانت تضم أشهر قصائده The Rime of the Ancient mariner [قصيدة البحار القديم] (المترجم).

فى مناسبة أخرى أجبر الطقس سفينة صيد محار على البحث عن مأوى فى خور صغير حيث أقلت بمرساتها. هبت الريح بشدة منعت الكل من الوصول إلى البر، وبعد يومين بدأت المون فى النفاد. قال الضابط البحرى للقبطان: "لابد أن تفعل شيئاً يا قبطان." "ماذا عسائ أن أفعل؟ لقد فعلت كل ما فى وسعى." "يمكنك إذن أن تجرب الصلاة." صلى القبطان لمدة ساعتين ثم نام. استيقظ فى صباح اليوم التالى وفتح كوته وأطل برأسه. "كيف الحال يا قبطان؟" تماماً كما توقعت. أسوأ قليلاً.

يبدو كتم الشاعر الذى لاحظناه فى المحادثة اللاسلكية مسيطراً على كلام مهنة البحارة. بالنسبة لمنسوب إحدى الصحف على البر، تعتبر الريح القوية فى البحر إعصاراً رهيباً، بينما هى فى البحر "هبة ربح" أو على الأكثر "نوة حية". وما يراها ابن البر على أنها "أمواج ضخمة" يراها البحار "كتلة من البحر"، وذلك ليس لأنه رأى ما هو أكبر أو لأنه أكثر تعوداً على الأمواج العالية، بل لأنه يخشى بالفطرة إغضاب الطبيعة. فلو كان الطقس السيئ يخيفه أو يفسد حياته، فالحديث عنه إذن يساعد على تشجيع أنشطة الطبيعة.

لا يكتم البحار رأيه وملاحظاته إلى حد التردد فى إبلاغ موعد الوصول أو خط السير أو السرعة فحسب، بل إنه لكى يتجنب سوء الحظ قد يلجأ كذلك إلى الدعابة فى ملاحظاته. وغالباً ما يجرى ذلك عن طريق التقليل من شأن ما هو بالغ الشدة. ففى إنجلترا حين تجنح سفينة من السفن عرضاً يقول القبطان إنه "وقف على المعجون"، بينما يقولون فى الولايات المتحدة إن السفينة "اصطدمت بالطوب". وقد يقول رجل لزميله إنها "ليلة جميلة" حين يرى الأمواج ترتطم بسطح السفينة ودرجة الحرارة أقل من التجمد. وإذا سقط البحار فى المياه المتلجة فمن الأرجح أن يقول إن ذلك كان "أول حمام فى السنة"، وإن "الماء كان فى درجة الحرارة الصحيحة". وذات مرة حين كانت السفينة تتمايل تمايلاً شديداً أدى إلى تحطم الأوانى الخزفية وكان من المستحيل على المرء الاحتفاظ بثباته، سمعت صياداً عجوزاً يقول "تعلمون، لو كانت السفينة عقدت العزم على أن تتمايل فإننى أتوقع أنها قد تتمايل تمايلاً شديداً". وفى سجل قديم علق القبطان على الصعوبة التى واجهها فى توجيه سفينته. قال إنه فى غاية السعادة لأن أفريقيا بعيدة جداً عن أمريكا الجنوبية حيث أتاح له ذلك متسعاً كى يغير اتجاهه (٧).

مثل هذا المزاح أو السخرية أو التهكم اللاذع موجود من زمن بعيد وكثيراً ما يدخل فى التسمية. فعلى سبيل المثال، يسمون مدخنة مطبخ السفينة فى أمريكا "تشارلى نوبل" Charlie Noble . وطبقاً لحكايات البحارة تعود هذه التسمية إلى القرن الثامن عشر، حيث يقال إن الأميرال البريطانى تشارلز نوبل كان يصر على تلميع مدخنة المطبخ باستمرار. استاء البحارة من هذا العمل وانتقموا منه بتسمية هذا الجزء من السفينة باسمه. (قد نلاحظ هنا أن الكثير من المصطلحات على متن السفينة تحمل أسماء أشخاص؛ فهناك خط بليمسول Plimsoll line الذى يحدد العمق الذى يمكن عنده تحميل السفينة، وهناك عقدة ماثيو ووكر Mathew Walker، ونوع من الأشرعة اسمه جيمى جرين Jimmy Green، ونوع محسن من ملابس الطقس السيئ اسمه الأمير ألبرتس Prince Alberts شاع فى كيب هورنرس Cape Horners فى عهد الملكة فكتوريا.) و"خط اليقين" lubber line [والمعنى الحرفى للمصطلح الإنجليزى هو "خط الغشيم"] هو موقع على صندوق البوصلة يوجه به البحار غير المجرب السفينة بدلاً من مراقبة الأشرعة أو النجوم أو غيرها من أشياء كما يفعل البحارة المتمرسون. وعيد فيلد Fiels day ليس عيداً وإنما يوم يجرى فيه تنظيف السفينة بالكامل، و"أحد خيوط الحبل" rope yarn Sunday هو يوم راحة. و"الكيس المحفوظ" lucky bag، ويسمى كذلك "صندوق الفضلات" slop chest، هو إمداد من الملابس الخرقاء أو المستغنى عنها التى قد يستخدمها البحار سيئ الحظ مقابل بعض المال لاستكمال عهده.

ولا تقتصر السخرية على السفينة وحدها بل تتعداها إلى الناس والأشياء والدول. فالسفينة البحرية البرتغالية Portygee man-o'-war نوع من قنديل البحر ذى لسعة سامة. وبيوتى كرابو Johnny Crapauds هم الفرنسيون. وخناقو الرنجة Herring chokers رجال من نونا سكوشا ومتشددون من نيوفاوندلاند. والراية الأيرلندية حبل متدل، والإعصار الأيرلندى هو سكون الريح، ومحامى فيلادلفيا البحرى شخص يتظاهر بأن لديه إجابة عن كل سؤال. ومن ناحية أخرى يشير مصطلح "بكأو بيكاديللى" Piccadilly weepers إلى نوع من اللحي يطلقه البحارة الذين يقضون وقتاً طويلاً فى عرض البحر. وpogue اسم سمكة ويعنى كذلك الشخص الشاذ جنسياً، وpogey bait نوع من الحلوى. وهناك اعتقاد شائع بأنه طعام الشواذ جنسياً. وعاصرو الليمون

Limejuicer هم الإنجليز بسبب عاداتهم الخاصة بتقديم عصير الليمون بانتظام للوقاية من مرض الإسقربوط. وصانعو الأرامل هي صواري المقدم، وسميت بهذا الاسم بسبب عدد الرجال الذين فقدوا من عليها وهم يحاولون لم الشراع في عرض البحر. والشخص الذي يفتقر إلى الكفاءة عموماً يقال إنه تقريباً مثل الغلای الاحتياطي أو إنه لا يساوى أى شيء "أكثر من ضراط دجاجة في ربح عاتية".

وليس هناك مكان تتضع فيه هذه السخرية أكثر من المطبخ البحري. ولم يكن مطبخ السفينة قط مكاناً للتجمع مثل برميل ماء الشرب scuttlebutt - ويوضع برميل الماء بجانب فتحة الكوة حيث يتوقف أفراد الطاقم ليتبادلوا الشائعات (ومن ثم يقال "برميل الماء يقول ...") بينما يروون عطشهم. وكان أفراد الطاقم، وخاصة في سفن الصيد، يتجمعون أحياناً هناك لتناول القهوة أو الشاي المعروف باسم "mugs-up" أو "levenies" لأنه كان يقدم في أكواز mugs في الساعة الحادية عشرة eleven . (ولم يكن هذا بالطبع مصطلحاً قاصراً على البحر، ولكنه جاء في الأصل من على البر، مثله مثل القائم الدقلى martingale وهو دعامة موجودة أسفل صاري المقدم تتطابق في اللفظ مع اسم قطعة من طقم الفرس^(*) .

كانت العادة أن يُسموا الطاهي الدكتور، وكان إما زنجياً أو بحاراً لم يعد يقوى على العمل الشاق وكان يعمل بالفعل في بعض الأحيان طبيباً للسفينة. (وكان الطبيب يسمى، في القاموس الأمريكي على الأقل، "أبو زكية" crocker لأنه كان يحمل أدوات مهنته في زكية crocus bag . ولأنه لم يكن كفواً في مهنته. وأصبح هذا المصطلح يعنى "يموت" حين يستخدم كفعل). وكانت وظيفته في كثير من الأحيان وظيفة ختامية بالنسبة للعمل في البحر، وكان يساعده صبي بدأ حياته العملية للتو. وكان أفراد الطاقم لا يحبونه ليس فقط بسبب ظهيه السيئ، ولكن لأنه كان مسئولاً عن المخازن. ويمكن تلخيص رأى البحارة في الطاهي من رواية موجودة في سجل سفينة من القرن السابع عشر. ألقى البحر بإحدى السفن على جزيرة بون Boone Island بولاية مين

(*) تعنى كلمة martingale في اللغة الإنجليزية، إلى جانب المعنى الخاص بذلك الجزء من السفينة، اللب وهو سير يشد إلى حزام السرج، ماراً بين قائمتي الفرس الأماميتين حتى يتصل بالجام (المترجم) .

وصار أفراد الطاقم من أكلة لحوم البشر. فقد أكلوا الطباخ، وفسر القبطان الاختيار بقوله: "كان شخصاً سميناً وغيباً".

لم يكن الطاهى غير كفاء وحسب، بل كانت المؤن بدايةً فى غاية السوء كذلك. فقد كان السمك المملح ولحم البقر المملح ولحم الخنزير المملح تقدم باعتبارها الأغذية الأساسية إلى جانب الخبز المحمص (بسكويت السفينة). وفى كل أسبوع كان قدر من اللحم يخزن فى براميل مثبتة فى مؤخرة السفينة بحدوات (مما أكسبها اسم "براميل طقم الفرس" harness casks) وتخرج بشكل دورى. وكان اللحم يعرف باسم "الحصان المملح". أما السمك المملح فكانت له أسماء عديدة - فهو فى إسكوتلندا ويلي كثيف الشعر hairy Willie ، وفى الولايات المتحدة ديك رومى جزيرة بلوك Block Island tur- key . وكان اللُّبْسُكُوس lobscouse يخنى من اللحم والخبز المحمص والبطاطس، وكان الداف duff نوعاً من الخبز، بينما كان "الجبان المتفندر" dandy funk نوعاً من البودنج السريع المصنوع من كسر الخبز المحمص والسوس والمولاس. وكانت القهوة تسمى جافا Java أو جو Joe، وكان يقال إن القهوة والشاي لا يكونا صالحين إلا حين "يُعوّمان مخزى الجدُل" (*).

بشكل عارض، ظلت تلك عادة لافتة للانتباه تتبع فى سفن الصيد. فحين كانت السفينة تخرج للصيد، كان براد ضخّم مملوء بالماء وحفنة من الشاي أو القهوة يوضع على موقد المطبخ ويترك يغلى على نار هادئة. وكان أفراد الطاقم يصبون الشاي أو القهوة ويشربونه بالسكر والْحَلْمَة المعلقة (اللبن المكثف). وحين ينفد كل السائل، كانوا يضعون فى البراد حفنة أخرى من الشاي أو القهوة ويملا من جديد بالماء وتستمر العملية. وحين يمتلأ البراد بئوراق الشاي أو اللبن، يكون الوقت قد حان للعودة إلى البر. والطقس أحد المجالات التى تغطيتها اللغة البحرية تغطية كثيفة. فالريح يقال إنها "تتراجع" to back (تتجه عكس عقارب الساعة) و"تغير الاتجاه" to haul (تسير فى اتجاه عقارب الساعة) و"تنحرف" to veer أو تكون "متغيرة" fluky (تغير اتجاهها

(*) مخزى حديدى مستنق الطرف يستخدم فى فصل العبال حين جدلها (المترجم).

فجأة). وهذا المصطلح يستخدم كذلك عند إلقاء المرساة حين "يرخى" أحدهم *voers*، أى يرخى المزيد من حبل المرساة، وكان فى وقت من الأوقات يشير إلى تغيير الريح لاتجاه السفينة - والآن يشيع استخدام مصطلح "انحراف الشراع" *flibing* على السفن ذات الأشرعة الطولانية والاستدارة *wearing* على السفن ذات الأشرعة المربعة. ومخلب القط *cat's paw* هبة ريح خفيفة تحرك المياه، والزوبعة البيضاء *white squall* هى تلك التى يَبْيَضُ خلالها الماء بفعل الريح، بينما الزوبعة السوداء *black squall* هى تلك التى يكون هناك خط أسود فى الماء أثنائها. والريح الجنوبية الغربية المدخنة *smokey sou'wester* - وتسمى أحياناً فى حالاتها الشديدة "الريح الجنوبية الجبانة" *white-livered sou'wester* - ريح تاتى معها برذاذ وتقل الرؤية. والريح الجنوبية الشرقية *so'easter* ريح عاتية تاتى من ذلك الاتجاه، أما الريح الشمالية الشرقية *nor'easter* فمتعارف عليها بشكل على أنها تهب لمدة ثلاثة أيام. ويطلقون على غياب الريح السكون الميت *dead calm* أو السكون منبسط المؤخرة *flat-ersed calm* . والريح الشديدة "ريح كاملة الاسم" *whole gale* أو "هبة ريح حبة" *a living gale of* *wind* . وفى بعض الأحيان حين تنشأ تلك الظروف وي طرح السؤال "كيف حال الريح؟" يكون الرد هو "فوق الصاري وتحتة"، والضوء الذى عند الأفق يسمى "تلاكوا" *glin* والسراب يسمى "الطيف غير الواضح" *loom* . ويسمى الضباب، إذا كان يقلل الرؤية إلى حد كبير، "كيس ضباب" *tick o' fog* أو "سجناً كبيراً من الضباب" *a great dun-* *geon of fog* .

أما اللغة البحرية فمن التعقيد بحيث تصبح مصدر متعة كبيرة للبحار المخضرم *"shellback"* كى يعذب صبيان المهنة. فكم من شاب برىء أرسل إلى عش الغراب الطائش لإحضار بيض للإفطار، وطُلب منه البحث عن ماثيو ووكر، وإبلاغ السُدسية *sextant* (*)

(*) جهاز بصرى مزوَّج الانعكاس يستخدم فى الملاحة لقياس الزوايا، وخصوصاً الارتفاعات الزلوية للأجرام السماوية. وهذا المقلب سببه أن كلمة سدسية بالإنجليزية *sextant* قريبة من كلمة معناها أحد رجال الدين المسيحي وهو القنذلت *sexton* (المترجم) .

أن يتلو الصلاة. وكان يقف الساعات الطوال يمسح البحر الذى يخلو من أى شىء بحثاً عن شمنذورة البريد. وعلى الشاطئ قد تكون الإجابة عن السؤال الأحق "ما هذا؟" هى "قروة قط لعمل سروال للهريرة" أو "توقف قصير للحاق بالباعة الجائلين"، ولكن فى البحر تكون الإجابة عن "ماذا تفعل؟" هى "لماذا، إنى أصنع scrudgeon". والكلمة تشبه بعض الشىء كلمة gudeon [المرود] - وهو جزء من الدفة(*) - ولكن المزيد من الاستفسار يكشف أن "scrudgeon" أيها الشاب دفة لمؤخرة البطة. وأحياناً يكون ما يصنع هو "شئ تصعب تسميته"، إلا أن المزيد من الاستفسار يكشف أنه "عشرة أرطال من الغائط فى كيس ورقى بخمسة جنيهات".

وحين يسأم البحارة المتقدمون فى السن من هذه اللعبة ويرتاح الحارس أسفل، تستمر السخرية. قد يسأل سائل "ما السبب فى أن السمكة المفلطحة لها فم معقوف؟" وحين تكون الإجابة "لا أعرف"، يكون الرد "لأنها قالت عن الرنجة إنه لوطى نحيف^(٩)". وقد يُطرح لغز على البحار المستجد:

"الريح كانت غربية ووجهنا السفينة غرباً"

كانت الريح فى المؤخرة. كيف يمكن ذلك؟

والإجابة التى تحبطه كثيراً هى "الغرب كان يمسك الدفة"^(١٠).

تدخل هذه الأشياء ضمن فئة "الحكاية الخيالية" tall tale - وهى أداة شائعة إلى حد كبير بين الناس فى البر والبحر. ولكى تكون الحكاية الخيالية مؤثرة لابد لها من موقف. لابد أن تكون هناك جماعة "داخلية"، وهى فى هذه الحالة المخضرمون، وجماعة "خارجية" - أى المستجدون. والحكاية التى تروى يعرفها أفراد الجماعة الداخلية معرفة جيدة وتكمن الفكاهة فى أثر القصة على الشخص الذى من خارجها. والقصة فى الغالب تأخذ شكل حقيقة مبالغ فيها، إما مضخمة إلى حد اللامعقولية أو تكاد تصل إلى هذا الحد، وهنا يسأل المستمع الغرير السؤال المحتوم.

(*) تركيبة من المعدن موجودة فى قائم دفة السفينة حيث تعلق الدفة وتكون محور ارتكاز لها (المترجم).

سأل القبطان بارت روبنز Bart Robbins من ستوننجتون Stonington بولاية مين سائحة معجبة به "سيدتى، ألم أحك لك عن تلك المرة التى كنت فيها على عمق تسعة عشر ميلاً داخل البحر وغرقت السفينة فى الإعصار ومعها كل البحارة؟"

"لا يا سيدى، فماذا فعلت؟"

"غرقت."

إحدى هذه القصص الشائعة فى الشمال الشرقى تتعلق بالعاصفة الكبيرة التى أطاحت بالأشرعة والطلاء، وحتى بلحية الريان. وحين اتضح أن كل شىء ضاع مرت السفينة من عين العاصفة. غيرت الريح اتجاهها ١٨٠ درجة وأعادت كل شىء إلى متن السفينة (١١).

فى ميناء تشيسابيك تروى حكاية عن منزل ضربته الصاعقة، واخترق البرق المنزل ونزل فى الأرض مخلقاً وراءه حفرة عميقة. وحين يسأل البحار الغريب عن عمق الحفرة، تكون الإجابة "لا أدرى، فقد ألقيت فيها عود سبر الفور ونزل فيها حتى لم يعد يسمع له صوت" (١٢).

وتأتى من نفس المنطقة حكاية عن رجل يلتقى بفتاة فى ليلة عاصفة وينتهى بهما الحال أمام كاهن مزيف فيزوجهما بمراسم غريبة الشأن. وهنا كذلك يسأل الشخص الذى يسهل خداعه عما حدث، وهنا يقال له إن الكاهن زوج الرجل والفتاة بالرباعية التالية:

الليلة مظلمة والطقس سيئ

وأنا الآن أجمع بين العاهرة واللص.

اجري يا لص والحق بالعاهرة،

عيشاً معاً إلى الأبد (١٣).

من حسن الحظ - أو من سوءه، حسب الطريقة التى ينظر بها المرء إلى الأمر - أن اللغة البحرية لم تقيد بها تلك القيود التى يفرضها القاموس على أية لغة. ولذلك نمت نمواً مستقلاً على جانبي المحيط. ونتيجة لذلك ظهرت الاختلافات فى المصطلحات البحرية التى قد تؤدى إلى الارتباك - فعبرة "Give us a growl at half past three" [يقصد

نادى علينا [على السفن الأمريكية تقابلها "Give us a shout" على السفن البريطانية. ويقال عن الأمريكيين حين ينامون "get some shut eye" بينما يقال عن البريطانيين "get their kip" . وعبارة طرح هياذى السمك الأمريكيين للشباك هي "set their trawls" فى حين يقول الإسكوتلنديون والأيرلنديون "shoot nets" . ويحتفظ الأمريكيون بوعاء للقمامة يسمونه "gurry bucket" بينما يضع البريطانيون قمامتهم فى وعاء اسمه "gash bucket" . ولدى الأمريكيين من الحبال cables و hawsers بينما البريطانيون لديهم tiers و warps . ويقال للأمريكي حين يطلب منه الإسراع "Bear a hand" أو "Shake a leg" ، فى حين يقال للبريطانى فى الموقف نفسه "Show a leg" . ويرتدى الأمريكيون "زى الجو السيئ" foul weather gear و "يتزيتون" oil up ، أى يرتدون المعاطف المصنوعة من الشمع. بينما يرتدى البريطانيون "المزيتات" ollies . والأمـر الخاص بإطلاق النار فى البحرية البريطانية هو "Shoot, shoot, shoot" وهو فى البحرية الأمريكية "Fire" . والتجار فى لغة الأمريكيين هو Chips ولكن الإنجليز يفهمون هذا المصطلح على أنه البطاطس المقلية.

ونحن لا نجد فروقاً عامة بين اللغة البحرية الخاصة بالأمريكيين والبحارة من أماكن أخرى فى العالم الناطق بالإنجليزية وحسب، بل نجد كذلك عدداً من الملامح اللغوية المحلية التى لا تسمع إلا فى منطقة واحدة، وأحياناً فى مكان واحد فقط. ففى نونا سكوشا حين توضع كلمة poor أمام اسم رجل من الرجال فهى تشير إلى أنه ميت، كأن يقال ".... Poor Charlie, he used to say" . وفى المنطقة ذاتها تعنى كلمة "blue" صعب أو رهيب، كما فى عبارة "I've seen times, I tell you, when things looked mighty blue." وكلمة "civil" معناها لطيف فى ولاية مين، بينما الكلمة القريبة منها فى أيرلندا هى "grand" . ونسمع من لابرادور كلمة "tickle" التى تعنى خليجاً فى غيرها. وفى إسكوتلندا حين يتحدث الصيادون عن مدخنة مطبخ السفينة يستخدمون كلمة "lum" بدلاً من "Charlie Noble" . وفى مكان آخر تستخدم كلمة lum فى اللغة البحرية كناية عن البحار الأخرى. وفى خليج تشيسابيك تعنى كلمة tump اللسان الممتد فى البحر. وليس هناك مجال تشيع فيه الملامح اللغوية المحلية أكثر من الرياح الشديدة، ولذلك فإن لدينا أسماء عديدة مثل "chinooks" و "mistral" و "Portoguese trades"

و "Santa Anas" و "Tehuantepeckers" و "willwaws" وكثير غيرها. وبينما كلمة "ground" هي المصطلح العام لمنطقة الصيد مثل "Hatteras ground" في نيو إنجلاند والأقاليم البحرية، فكثيراً ما يستخدم مصطلح "haul".

حين تخرج هذه العبارات من فم أحد البحارة تساعد على تحديد المكان الذي جاء منه، تماماً كما تحدد كلمات مثل "stream" و "brook" و "creek" و "run" [وهي أسماء مختلفة تدل على المجرى المائي] إلى أى مكان من البلاد ينتمى رجل ما ممن يعيشون على البر.

تشيع هذه الأسماء المحلية في تعريف الطيور والأسماك. ففي إحدى المناطق تعنى كلمة "bluebill" بطة كبيرة من النوع الفواص، بينما تشير في مكان آخر إلى البطة زغباء الرأس أو الظربان. وتصطاد أسماك القُد الصغيرة codlings في المياه الإسكوتلندية، ولكنها قبالة نيو إنجلاند تسمى tomcods. وفي جنوب ماساتشوستس نجد أن السمكة المعروفة في أماكن أخرى باسم skilagale تسمى swordfish. كما trout و squeteague و weakfish ثلاث مسميات لنفس النوع من الأسماك في أماكن مختلفة.

عادة ما يكون لهذه الكلمات تاريخ مثير، وليس هناك ما يوضح هذا أكثر من عبارة "smoothing up" كما تستخدم في جزر إليزابيث قبالة جنوب ماساتشوستس. ففي إسكوتلندا حتى عهد قريب كان من المعتاد أن تقوم سيدة عجوز في العائلة بتغطية نار الموقد بالرماد قبل النوم. وبعد أن تغطيها ترسم دائرة في الوسط وترسم عدداً من الخطوط مثل برامق عجلة العربة تتجه من المركز للخارج. وكان تتلو صلاة ما لكل من القطع التي تشبه الفطيرة التي تنشأ عن ذلك، ويجعل الرماد النار خامدة بلا لهب طوال الليل وعلى استعداد لأن توقد من جديد في الصباح. كان ذلك الفن يعرف باسم "smoothing the fire". وكانت الممارسة نفسها تستخدم في أيرلندا، ولكنها كانت تعرف هناك باسم raking the fire. وحفظت الفكرة في الولايات المتحدة في قول من الجنوب هو "Don't try to teach your grandmother to lap ashes." [لا تحاول أن تعلم جدتك كيف تفرد الرماد] إلا أن معنى هذه العبارة يختلف اختلافاً بسيطاً في فاينيارد هيفن. فهم حين يقولون "It's smoothing up" يعنون أن الرؤية تقل وأن مشكلة ستقع.

هناك فى الوقت نفسه تشابهات مذهشة بين الطرق الإنجليزية والأمريكية الخاصة بقول الأشياء. فقد أشار القبطان بوب روبرتس Bob Roberts من بن ميل Pin Mill بإنجلترا إلى أن الشيء الوحيد الذى يجعل أى سفينة تظل طافية هو "أيدى اليرقات المتماسكة"، بينما قال بحار من مين إن "الشيء الوحيد الذى يحافظ على تماسك أى سفينة هو أيدى اليرقات والأرضة المتماسكة". وفى نونا سكوشا قال رجل إنه لن يفعل شيئاً فى السفينة لأنه إذا قشط مخاط السمك والطلاء فسوف تتفكك قطعاً.

وبينما تميل جدلية أية مهنة إلى البقاء داخل المهنة وحسب، نجد أن البحار يوسع مجال اللغة البحرية كى تقى بمتطلبات غير تلك التى فى البحر. وهو يطبق دون قصد منه المصطلحات البحرية على أشياء على البر. وهناك حكاية تقول إن بحاراً عجوزاً كان يراقب امرأة تحاول الإمساك بابنها. كانت ربح قوية تهب، وكانت تنورة المرأة تنتفخ أمامها وكانت تقترب من الطفل الذى أثار عطف البحار. صاح البحار قائلاً: "غير اتجاهك يا صاحبي، وقدما عكس الريح".^(١٤)

"يمسح" swabs البحار على البر أرضية منزله. وحين تمطر يطلب من زوجته "غلق الكوة" close the hatch ويدعو أصدقاءه كى يأتوا إلى "باب المقدمة" foredoor. وملابسه "تملح" على الحبل، ويصر على استعمال كلمتى "port" [بمعنى يسار] و "starboard" [بمعنى يمين]. والشخص الذى يتحرك بسرعة يكون "فارداً أشرعته" carrying sails، وحين يخرج الحديث عن الموضوع يطلب من المتحدث أن "يلف ويعود" take a round turn. والرجل العجوز الذى ليس على ما يرام "ملخلخ" all stave up أو "ضعيف فى المية" weak in the waterways أو "البرميل اتخرم" butt sprung أو "بقى لين" gone limber، وإذا كان خرفاً فهو "باين عليه دخل السبب فوقانى" about gone in the top hamper. وإذا ذهب البحار إلى مكان ما فهو "يضرب بولطة" takes a cruise و "يرسو" ties up فى الليل. وهو يذهب إلى مكتب البريد لىسمع "كلام برميل الشرب" scuttlebutt وهو يهب لمساعدة ليس صديقه friend، بل "زميله" mate. وهو لا يرتدى ملابس جديدة، بل "زياً جديداً" new rig، وقبل الذهاب إلى الحفلة ترتدى زوجته "حتة يوم الأحد" Sunday bunting. وحين يزوره صديقه، فهو "يخرج الشراب" ويكون لهما "حديث ودى" a gam و"يوصلان الرباط الرئيسى" splice the main brace.

وهما لا يجلسان بعيداً عن الريح وإنما "في جانب المنزل المحجوب عن الريح" *in the lee of the house* . وحين يغادر الصديق يقول "رياحاً طيبة" *Fair winds* ، وإذا كان من ماساتشوستس فإنه يضيف "ابتعد عن ميدل جراوند" *Keep off the Middle Ground* (صخور قرب سطح الماء في مضيق فاينيارد). وفي بعض الأحيان يحرص في جزر الهند الغربية على عدم المصافحة ويقول "وداعاً" *Goodbye* . وبدلاً من ذلك يربت على كتف صديقه ويقول "حظاً سعيداً!" *Good Luck!* . وقبل أن "يأوى إلى مخدعه" *turning in* سوف "يستعد للامتحان" *mug up* وبعد أن ينام نوماً عميقاً "يخرج" *turn out* في حوالي "السبع بقات" *seven bells* . وهو لا يتناول الإفطار في المطبخ . بل إنه "ياكل لقمة" في المطبخ، ويأخذ "المهمات" *gear* الخاصة به من "الصندوق" *locker* و"يزق ع البلد" *shoves off for the town* حيث يتجادل مع محصل الضرائب ويقول له شيئاً "يهدّيه" *slacks him off* . وفي طريقه للبيت "خبطته" *rammed* سيارة أخرى "طيرت" *carried away* صدأً من سيارته، ونتيجة لذلك تحطمت *badly stove* كلها أو ربما أصبحت "محطمة بالكامل" *total wreck* .

وأخيراً نجد أن البحار العجوز "رحلته انتهت" *voyage complete* (تمييزاً عن *passage* ومعناها رحلة بحرية كذلك)، وتفلت من حبله "slips his cable" ويذهب إلى "الجنة" *Fiddler's Green* .

بمعنى أوسع، يبدو أن مفردات السفينة تسود لغتنا إلى جانب مفردات الحصان. فنحن نتحدث عن "القدرة الحصانية" *horsepower* و"لجم" الأنهار والمجاري المائية، ولكن لدينا كذلك "سفينة الدولة" التي لها قائد يمسك بـ "الدفة". وكان الرواد يعبرون "بحر الحشائش" في "سفن البراري" وما زال مريو الأبقار يمتطون "سطح الإعصار" الخاص بأقراسهم. وبعد أن يكون المصرفي "وسط حيود ومخاضات" الكارثة الاقتصادية، نجده "ينجو من العاصفة" ويبحر بلا عقبات" إلى أن يحدث مرة أخرى أن الأعمال "تدخل منطقة ما الريح فيها ساكنة"، وعندئذ يجعل السياسي "عينه على حالة الطقس" لمعرفة "الاتجاه الذي تهب منه الريح" كي يمكنه "تقصير أشرعته" حسب الأحوال ويحصل على "طرحة جيدة" من أصوات الناخبين. وحين يقال إن السياسي

ضُبط وهو "يتلاعب" rigging (*) فى آلات التصوير، فإنه "يؤخذ على حين غرة" (**). ويجبر على "السير فى اتجاه مختلف تماماً" كى يستعيد الثقة اللازمة لإعادة نفسه و"أفراد طاقمه" إلى السلطة. ولكى يفعل ذلك فإنه قد "يسبر غور" الرأى العام كى يحدد موقعه قبل أن "يخط مساراً جديداً". ويعد أن تكون ثقة الجماهير قد "رست" على سياسته بقوة أكبر، فإنه "يستعد" وينتظر بهدوء نتائج الحملة الانتخابية، وهو يعلم تماماً أن أماله قد تصير "حطاماً" وتوصف الحملة بأنها "دمار تام". أو ربما يقوم "بجولة قصيرة" فى دائرته الانتخابية بالقطار ويلوح لناخبيه من "السبنسة" caboose؛ وهو مصطلح كان يستخدم فى السابق للغرفة العلوية الموجودة على سطح السفينة.

وبعد أن تُعلن النتائج قد يتعجب قارئاً "أقسم باللورد هارى، كنت أعرف أننا سنفوز حتى لو كان هناك الشيطان لنرشوه" للتغطية على تلك الفضيحة. والآن يمكننا أن نمضى وكل أشرعتنا مفرودة. وربما لا يعلم أن اللورد هارى يشير إلى فقدان سفينة ضخمة، ولا أن رشوة الشيطان تشير إلى جلفطة الفراغ الذى بين لوحين من ألواح السفينة، مثلما لا يدرك أن معظم الملاحظات السابقة التى تعزى إليه هى فى حقيقة الأمر مجازات مختلطة. والواقع أن تلك العبارات، ومئات أخرى مثلها، أصبحت مرتبطة تماماً بالبر حتى إنها تكاد تكون مثل سمكة المزارع التى تعودت اتباع صديقها حيثما ذهب فى أنحاء المزرعة حتى انزلقت بالصدفة ووقعت فى النبع وغرقت.

لا تقترب المصطلحات البحرية من أن تكون لغة فى حد ذاتها فحسب، فابن البر يراها على قدر كبير من الرومانسية. وقد اعترف من زمن طويل بالأرواحية (***) والتحفز والجناس الاستهلاكي والمجاز باعتبارها أدوات قيِّمة من أدوات الشاعر التى يكتسبها بعد مشقة. وتلك أدوات شائعة بالنسبة لمن يعمل فى البحر، وقد صقلها على مر القرون. وسواء أكان بمفرده أم ضمن جماعة فإن مفرداته تحمل الإحساس بالبحار

(*) المعنى البحرى للفعل to rig هو تزويد السفينة بالصواري والأشرعة والحبال (المترجم).

(**) هذا هو المعنى الاصطلاحي لـ to be taken aback ولكنه معنى aback هو إلى الوراء (المترجم).

(***) مذهب حيوية المادة، أى الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون، وحتى الكون نفسه، روحاً أو نفساً

(المترجم).

الواسعة والخطر والإثارة. وفي لفته لا تكون سفينته توليفة من الخشب أو الحديد أو البلاستيك، بل تصبح فيلقاً متحالفاً معه ضد القوى المعادية من موج وطقس وخطر الصخور والمخاضات. وبعد أن يعد مؤنه ويرتب حمولاته يخرج إلى البحر. وهو يغادر الميناء ويضبط الساعة ويقطع مسافة كبيرة إلى عرض البحر. وفي دوائر عرض الحصان، حيث لا توجد ريح وحيث ألقيت الخيول في الماء لحفظ الماء، تكون أشرعته كألواح الخشب في البحر الساجي. وهو يعبر الخط (خط الاستواء)، وينساب على الماء بفعل الرياح التجارية ويدخل الأربعينيات الهادئة حيث الرياح تهب حول العالم بلا توقف، وتسمى في بعض الأحيان الرياح الغربية الشجاعة. وهنا يلتقى بالبحار الصعبة ويضطر لأن يشق طريقه وسط الظلام حيث الثلوج المنهمرة بكثافة. وربما يُحبس وسط ضباب أسود؛ وهي الشبورة المقيتة التي تتجمد على كل شيء تلمسه. وتنتفخ أشرعته. ويضرب البحر سفينته على طرف دعامتها الرئيسية. وقد يضطر للبحث عن ميناء يلجأ إليه هرباً من ضغط الطقس. وفي تلك الأثناء يمر على جبال ثلج صغيرة ويرى وهج القديس (نار القديس إلمو) في الصواري والأشعة. ويحتشد حوله سرب أفراخ الأم كاري ويطير خلفه طائر قطرس رمادي ضخم (يُعتقد أنه روح البحارة الغرقى). وفي النهاية فإنه إذا اتبع ما تشير إليه بوصلته فسوف تظهر له اليابسة وسوف تلوح له الأرض غير واضحة المعالم وسط الضباب، ويطلب إنزال أفضل مرساة من الرجام في مياه عمقها عشرة فراسخ. سوف يمسك بها الخطاف الطيني وسوف تتحرك السفينة بطريقة لطيفة. ولن يكتب في سجل السفينة "وهكذا ينتهى اليوم" بل "وهكذا تنتهى هذه الرحلة".

أما إذا كان حظه من النجاح أقل، فإنه قد يفقد أشرعته ويضطر للتخلص من المعدات. وربما يجنح، وتصطدم السفينة بحيد من الحيوذ، وبعد ذلك يضطر لإنزال القوارب، لأن البحر ألقى به في مكان مهجور. ولكنه مع ذلك غش ديفى جونز. (*) وبعد مرور الوقت المناسب يجرى في شركة لويديز للتأمين في لندن إدخال البيانات التالية "إعلان فقد. السفينة 'فيتولا' وزنها خمسمائة طن. من نيويورك إلى ملبورن متأخرة عن موعدها ويفترض أنها فقدت."

(*) قاع البحر كما يأتى ذكره في الحكايات والأغاني (المترجم).

الفصل الرابع

مأثورات الطقس

الإوزات البرية، الإوزات البرية
تذهب مجتمعة إلى البحر.
سيكون الطقس لطيفاً،
سيكون.

Horace P. Beck,
Folklore of Maine
(Philadelphia, 1957), p. 81

منذ زمن لا يعلمه أحد والطقس هم الإنسان الأول. فهو الذي يحدد أنشطته، ويرسم أسلوبه في الحياة، وربما كان له تأثير ضخم على شخصيته. وكانت القدرة على التنبؤ به والتحكم فيه مطمح مهم من مطامح الإنسان البدائي والمتحضر. بل إنه في وقتنا هذا تقوم هذه القدرة بدور أساسي في بعض المهن وتعد هماً من هموم معظم الناس، وقد تطورت إلى حد كبير بين من يعملون في الهواء الطلق والمزارعين والبحارة.

رغم ما يتمتع به المزارع من مهارة في مأثورات الطقس، فهو مهموم في المقام الأول بالتنبؤ بسقوط المطر ونزول الصقيع. ونادراً ما تكون هذه المعرفة ضرورية للحفاظ على حياته. بل إنها ذات قيمة اقتصادية. ولأن المزارع مستقر طبقاً لطبيعة مهنته، فإن فهمه للعوامل الجوية، مهماً كان عميقاً، نوطابع محلي. وعلى الجانب الآخر نجد

أن البحار يحتاج إلى معلومات دقيقة خاصة بحالة الطقس لإنقاذ معداته من الضرر والسير بسرعة، وكلا الأمرين نوطابع اقتصادي؛ ولكن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له هو معرفة أن القدرة على التنبؤ بحالة الطقس تنبؤاً صحيحاً قد يعنى الفرق بين الحياة والموت. ولتحقيق هذه الغاية، لابد أن يكون فهمه للموضوع شاملاً. ولابد أن يكون قادراً على التنبؤ بالعواصف والمطر وسكون الريح والضباب والثلج وأحوال البحر، وكذلك تحديد اتجاهات الريح وسرعتها تحديداً دقيقاً. وإذا وجّه معرفته نحو جوانب معينة من جوانب الطقس، فسوف يشمل ذلك العواصف والضباب والثلج وتغير اتجاه الريح وسكونها على هذا النحو من الترتيب. وأخيراً فإنه، على عكس المزارع، تفرض مهنته عليه أن يكون فهمه أقل محلية بكثير وربما يشمل معلومات تتعلق بمناطق تشمل نصف العالم.

وكشأن الكثير من عناصر الحياة البحرية، ليست مآثرات الطقس سوى تعديل للمآثرات البرية وفرع منها أضيف إليها بعد آخر، وهو عمل المحيط وسكانه. بل إن معايير البحار التى يفسر بها الأحداث المقبلة أكثر شمولاً من معايير المزارع.

ويرى البحار أن مآثرات الطقس تنقسم إلى قسمين. والقدرة على التنبؤ بالأحداث المقبلة تنبؤاً دقيقاً هو الأول والأهم. ذلك أن مباغطة الضباب أو تغير اتجاه الريح أو هبوب الريح العاتية يمكن أن يكلف الكثير ويكون مميتاً. والشق الثانى هو القدرة على التحكم فى الطقس أو توجيهه لخدمة مقاصده. وكان الصياد منذ سنوات كثيرة يعود من جراند بانكس بصيد وفير من الأسماك. وكان يسابق سفينة أخرى على الوصول إلى السوق حين تكون الريح ساكنة تماماً. وكان القبطان يقفز يائساً إلى داخل الأشرعة الرئيسية وقد أخرج نصف دولار. وكان يقول: "يا رب، امنحنا ريحاً بنصف دولار وحسب"، وكان يلقي بالقطعة المعدنية فى البحر. وبعد نصف ساعة تكون السفينة تتمايل تحت الشراع الأمامى وحده الذى طوى جزء من. ومرة أخرى يقفز الريان داخل الأشرعة ويصبح متوجهاً إلى السماء قائلاً: "لو كنت أعلم أنك تبيع بهذا السعر الرخيص لطلبت ما قيمته بنى واحد فقط!"^(١).

وقد ينقسم التنبؤ إلى التنبؤ الشامل، والعلامات الخاصة بمناطق واسعة، وتلك التى تكون دقيقة فقط فى منطقة بعينها، كما يمكن تصنيفه كذلك إلى تنبؤات بعيدة

المدى (تختلف من أسبوع لموسم) وتتنبؤات قريبة المدى (لمدة اثنتين وسبعين ساعة أو أقل). وعموماً فكلما كان التنبؤ أكثر محلية وكانت الفترة الزمنية التي يغطيها أقصر كان التكهّن أدق. ومعظم البحارة العالمين بأحوال الطقس يمكنهم التنبؤ بتغير الريح الوشيك أو هبوب الريح بعد ثلاثة أيام بدقة غير عادية.

طبيعى أن المشكلة الكبيرة التي تواجه البحار عند التكهّن بما سيقع فى المستقبل هى أن أنماط الطقس فى أحد الأنحاء من العالم كثيراً ما تختلف عن تلك التى فى أنحاء سواها - فقد تختلف العلامات التى تشير إلى حدوث تغيرات، كما أن العلامات التى تشير إلى شىء ما فى فصل من الفصول قد تشير إلى أحوال مختلفة تمام الاختلاف فى فصل غيره. والريح الغربية ربح طيبة فى الولايات المتحدة، إذ إنها نادراً ما تأتى بأمطار أو عواصف. إلا أن أغنية قديمة تطلب من البحار أن يأخذ حذره من الريح الشمالية الغربية الباردة على شواطئ نيوفاوندلاند^(٢) ويأتى جزء من أسوأ طقس على الساحل الأوروبى من الغرب. وفى أمريكا الشمالية، أو على الأقل فى إنجلترا، قد تأتى الريح الشمالية الغربية بالثلج الكثيف فى الشتاء، ولكنها عادة ما تكون فى الصيف علامة على صفاء الجو مع رياح متوسطة. وأخيراً يجب ألا ننسى أن العواصف تتحرك فى اتجاه عقارب الساعة فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية وعكس اتجاهها فى النصف الآخر، ولا بد من اتباع أساليب مختلفة للتحايل عليها.

هنا يجب أن نتذكر أن معظم تغيرات الطقس سببها تغير فى الضغط الجوى. وهذا ينطبق بصورة خاصة على أنماط الطقس قريبة المدى. وبذلك يكون جهاز قياس الضغط الجوى [الباروميتر] الدقيق أحد أهم أدوات خبير الأرصاد الجوية. وطالما كان البحارة على علم بأهمية الباروميتر وكانوا يستخدمون الزجاجة للتنبؤ بالأحداث المقبلة لفترة طويلة. ولم يكن مهماً أن يكون لديهم عمود من الزئبق أو بارومتر لا سائل لتحقيق النتائج. فقد كانوا يصنعون زجاجة تفى بالغرض من قارورتين وفليئة وبعض المعجون وقليل من الماء. حيث كانوا يضعون بعض الماء فى قارورة ذات عنق واسع تثبت فليئة حُشر فيها عنق قارورة أصغر منها. وكان عنق القارورة الأصغر يغمر بعمق بوصة أو بوصتين تحت سطح الماء فى الزجاجة الأكبر. وكان ذلك كله يحكم غلقه بالمعجون أو غيره من المواد وكان يوضع على قاعة لفافة عند الإبحار. وحين يرتفع الماء أو ينخفض

فى القارورة الأصغر كان البحار يعرف أن هناك تغيراً وشيكاً فى الطقس، وحين يتكون الندى داخل القارورة الصغيرة كان يعلم أنه من المتوقع سقوط أمطار. ولكى لا ينسى أهمية الباروميتر فى التنبؤ بحالة الطقس، كان لدى البحار فى العهود القديمة عدد من الأشعار البسيطة المتصلة بعمل الزجاجاة.

حين تنخفض الزجاجاة

استعدوا لهبوب الريح

و حين ترتفع

دعوا طائراتكم الورقية تطير (٣).

ما يتنبأ به كثيراً يبقى كثيراً

والإنذار القصير يمضى سريعاً

والارتفاع السريع بعد الانخفاض

علامة أكيدة على رياح أشد (٤).

الاحتمال الكبير هو أن القدر الكبير من العلامات التى كان البحار يعتمد عليها فى تنبؤاته كانت تحدثها تغيرات الضغط الجوى، ومع ذلك فإن هناك شكاً فيما إذا كان أعلم هؤلاء المتنبئين بالطقس قد ربطوها فى أذهانهم بطريقة ليست سطحية. وربما لاحظوا فى أفضل الحالات الندى فى الزجاجاة والسحب الممطرة فى الأفق. وكانوا متأكدين تمام التأكد من سقوط المطر. إلا أنه فى ذلك الوقت كان الإغريق الذين على قدر كبير من التقدم يعتقدون لزمناً طويلاً أن الفئران تتوالد توالداً ذاتياً فى الأسماك البالية.

وفى كثير من الأحيان كان البحار يعتمد على مطبخه فى إبلاغه بما سيكون عليه الطقس. فإذا غلا براد الشاى بسرعة كبيرة أو "غنى" على الموقد، عرف أنه سيحدث تغير فى حالة الطقس؛ وكان إذا رأى لهباً أزرق على نار فحم المطبخ، فقد يتأكد من

حالة الطقس الوشيكة؛ وإذا طقطقت النار فإنها تدوس على الثلج؛ وإذا مال الدخان ناحية البحر أو إذا ارتفع في خط مستقيم إلى أعلى فيسجل البحار أنه يتنبأ بتغير في حالة الطقس. بل إن المرء يمكنه التنبؤ بما سيكون عليه الطقس من خلال معدل اختمار عجين الخبز ومقدار اتساعه. وقد يكون هناك قليل من الشك في أن كل ما سبق من ظواهر نتيجة للضغط الجوي، مع أن أفضل البحارة لن يربط هذا الربط.

أما المجال الذي يعتمد اعتماداً قليلاً جداً على الباروميتر فهو التنبؤ بعيد المدى، وهو ما لا بد لنا من الحديث عنه. ففي أغلب الأحيان تتم التوقعات بعيدة المدى عن طريق ملاحظة الأحوال وقت التغير الموسمي، كما في الحادي والعشرين من مارس ويونيو وسبتمبر وديسمبر. واثنان من هذه التواريخ قريبان من الاعتدالين الربيعي والخريفي، أما الاثنان الآخران فيقعان تقريباً عند الانقلابين الشتوي والصيفي.

يراقب البحار في نيو إنجلاند عن كثب اتجاه الريح في تلك الأيام، ذلك أنه أياً ما كان الاتجاه الذي تهب منه الريح حين تعبر الشمس الخط، فسوف تحدد هذه الريح الطقس إما لمدة أربعين يوماً أو الموسم. وبما أنه يعرف أن الرياح الشرقية تجلب المطر والضباب والغربية تنقي الطقس، فهو يدعو دائماً أن تهب الرياح الغربية في تلك الأيام.

وتقوم التنبؤات بعيدة المدى كذلك على بعض أعياد القديسين، وعلى القمر، وفي كثير من الأحيان على حركات الحيوانات والنباتات في وقت معين ومكان محدد. فعلى سبيل المثال هناك يوم المرموط(*)، وكثيراً ما يمكن التنبؤ بقسوة طقس الشتاء بحجم مساكن فأر المسك، وسُمك قشر حبات النرة، ونشاط السناجب، والخطوط التي على الديدان. ويستغل بكور هجرة الطيور - وخاصة الطيور البحرية - أو تأخرها كذلك للتنبؤ بالأحداث المقبلة، كأن يأتي الشتاء مبكراً أو يتأخر الربيع. وهناك قول في إنجلترا يشير إلى أن الكريسماز الأخضر معناه جبانة ممثلة، وفي جزر الهند الغربية يحدد موسم الأعاصير بالنظم التالي:

يونيو قريب جداً

يوليو استعد

(*) نوع من القوارض البحرية يتميز بجسمه المكتنز وقوائمه القصيرة (المترجم).

أغسطس انتبه

سبتمبر تذكر

أكتوبر انتهى كل شيء (٥).

لا بد من قول كلمة أخرى حول تلك التنبؤات. فهي غالباً ما تتسم بالدقة بحيث تتفوق على قانون المتوسطات وتجعل المرء يتعجب منها، إلى أن يدرسها بقدر أكبر من القارئ. فطبيعي أن يتسم الطقس بثبات موسمي عام. فعلى امتداد ساحل الأطلنطي نتوقع أن تهب الرياح في الصيف من الجنوب الغربي. وعادة ما يتطور الطقس تطوراً طفيفاً قبل التغير الموسمي، ولذلك فعندما يلاحظ البحار أن الرياح جنوبية غربية حين عبرت الشمس الخط في شهر يونيو فهو يتنبأ بأنها سوف تظل تهب من ذلك الاتجاه معظم فصل الصيف، والواقع أن النتيجة غالباً ما تكون مثلما توقع. ويلاحظ كذلك أن الشيء نفسه ينطبق على أعياد القديسين التي يقع عدد كبير منها في أعياد وثنية قديمة. وثلاثة من تلك الأعياد هي عيد القديس مارتن Martinmas (١١ نوفمبر) وعيد تطهير مريم العذراء Candlemas (٣ فبراير) وعيد القديس سوين St. Swithin's Day. وبطول منتصف الصيف ومنتصف الشتاء يكون نمط الطقس قد استقر إلى حد ما ولا ينبغي أن نتعجب من أن الأقوال الخاصة بعيد تطهير مريم العذراء

ما إن تطلع الشمس

حتى يأتي الثلج على غير انتظار.

أو

إذا كان عيد تطهير مريم العذراء جميلاً وصحواً

فسيكون هناك شتاءان في عام واحد (٦).

كثيراً ما تثبت صحتها. ولا تندهش كذلك من كفاءة الشعار الخاصة بالقديس

سوين:

كل الدموع التي يسكبها القديس سوين

تجفنها عبادة القديس بارتيلمي^(٧).

إذا أمطرت في عيد القديس سوين

فسوف تستمر أربعين يوماً.

وإذا كان عيد القديس سوين صحواً

فلن تمطر أربعين يوماً.

وحين ندرك أن ذلك الأخير قول ماثور من إسكوتلندا، حيث تمطر باستمرار لدرجة

أن لديهم مثل ساحر يقول

اليوم الذي لا ترى فيه نورس

إن يسقط فيه المطر على شبه الجزيرة

فإننا نفهم أن احتمال صحة الجزء الأول من الرباعية أعلاه كبير.

والقمر أحد المتنبئين بالطقس الذي يبدو أنه يعمل بطريقة مختلفة. فعادة ما يستخدم (وبشئ من الدقة) للتنبؤ بحالة الطقس قريبة المدى، إلا أنه يشيع اعتقاد بأنه يتحكم في سقوط المطر في الشهر التالي. وهناك قول شائع بأن "القمر والطقس كثيراً ما يبدلان مع بعضهما"^(٨). ولتحقيق هذه الغاية يراقب المختص بالطقس ميلاد القمر الجديد مراقبة دقيقة كي يلاحظ حالة القرنين. فإذا كان القرنان يشيران لأعلى أو بطريقة لا يمكن معها للماء أن ينفذ، يقول بعض المتنبئين إنه "قمر جاف" لأنه "يحجز الماء"؛ وحين يميل القرنان لأسفل، سوف ينفذ الماء ويكون "قمرًا مطيرًا". إلا أن متنبئين آخرين يفسرون تلك العلامات على العكس من ذلك تماماً، وبذلك يؤيدون تنبؤ الأحوال الجوية الشهير الخاص بجوش بيلينجز Josh Billings "ربما تمطر وقد لا تمطر". ويمكن أن نضيف أن هذه واحدة من الحالات النادرة الخاصة بالتنبؤ المتناقض بحالة الطقس.

وإذا كان المتنبئون يعيدو المدى يرسمون صورة عامة للطقس وعددهم قليل نسبياً، فإن المتنبئين قريبي المدى على العكس من ذلك تماماً. فعلى وجه التقريب، لكل شيء يطير في الهواء، أو يزحف على الأرض، أو يسبح في البحر، ميتاً كان أم حياً، جماداً أم حيواناً، دور في أكثر المهارات تطوراً التي تكاد تشبه العلم، وهي كما قال ألكسندر هاجرتي كراب Alexander haggerty Krappe "علم من عاشوا قبل ظهور العلوم".

عند قراءة الطقس تكون العوامل الجوية هي أول وأهم الأدوات التي في متناول البحار، وتعد تكوينات السحب الأبرز بين تلك العوامل، كما هي بالنسبة لعالم الأرصاد الجوية. ويشير العامة إلى السحب على أنها "رؤوس الرعد" و"ذيول الأفراس" و"سماوات الماكريل"، بينما يسميها العلماء سحباً ركامية وسحباً سمحاقية وسحباً قرعية وغير ذلك من الأسماء، ولكن كلاً من العامة والعلماء يقصدون العواصف الرعدية والرياح والأمطار والطقس. ولكي لا ينسى العامة، نظموا بعض معتقداتهم بطرق تعينهم على التذكر مثل:

سماوات الماكريل وذيول الأفراس

تجعل السفن الطويلة ذات أشرعة منخفضة (٩).

أو

إذا بدت السحب وكثتها نكش بجاج

فاستعدوا لطي أشرعتكم العليا (١٠).

أو

إذا تجمعت السحب بكثافة وسرعة

افتحوا عيونكم على الشراع والصارى.

ولكن إذا تقدمت زاحفة ببطء

فألقوا بحبالكم وشباككم وطرائحاتكم (١١).

هناك بالفعل مئات العلامات الخاصة بالطقس المشتقة من السحب، لا داعي
إلا لذكر القليل منها لتقدير بُعد هذا الجانب من التكهّن بحالة الطقس. فحين تكون
هناك سحب في الشرق عند الفجر، فقد يكون من المتوقع هبوب رياح و

حين تسرع سحب الصباح متجهة غرباً
عند الغروب وبينها سحابة شديدة السواد
فلن تنقصكم الرياح الغربية (١٢).

وتنبئ السحب المتقطعة الصغيرة، وتسمى "معاطف المشمع"، بسقوط المطر (١٣)،
والضباب على التلال المرتفعة علامة من علامات سقوط المطر؛ بينما تعنى السحب
المتبخرة أن المطر لن يسقط.

الطريقة الثانية للتنبؤ بالأحداث المقبلة التي تكاد تكون على نفس القدر من الأهمية
هي رصد التغيرات التي تطرأ على الظروف الجوية، وخاصة حين ترصد حسب
صلتها بالأجرام السماوية. ويعطى البحار أهمية كبيرة للهالات المحيطة بالقمر
أو الشمس، ولوضوح النجوم، وللأضواء الشمالية والسراب وقوس قزح والشموس
المزوجة والأقمار المزوجة، ويقع الشمس الضوئية ويقع القمر الضوئية، وأغلبها يعتقد
أنه ينذر بهبوب العواصف. وهو يحرص على ملاحظة الطريقة التي يطلع بها ويغرب كل
من القمر والشمس.

إذا غريت الشمس وكثتها جرس
فمن المؤكد أنها ستهب مثل الجحيم.

وهو يركز كثيراً على القمر الذي توجد حوله بالفعل عشرات الأشعار والأقوال.
وطبقاً لما تقوله القصيدة الغنائية القديمة، فإن بحاراً حذر السير باتريك سبينز Sir
Patrick Spens قائلاً:

رأيت قمراً جليداً يحمل القمر القديم بين نراعيه،
وإذا كنت مبحراً يا قبطان، أخشى أن يمسننا ضرر.

وتجاهل ريان السفينة "هيسبيروس" Hesperus سيئة الحظ حقيقة أن العلامة تشير إلا أن إعصاراً سيقع:

الليلة الماضية، كانت تحيط بالقمر هالة ذهبية،

والليلة لا نرى القمر!

وعموماً يقال إن القمر الأحمر يدل على أن الريح ستهب، والقمر المائي باهت اللون يدل على سقوط المطر، وتشير الهالة المحيطة بالقمر إلى هبوب عاصفة أو سقوط الثلج. وتنبئ كثافة الهالة بمقدار العنف، ويشير عدد النجوم الموجودة داخل الهالة إلى عدد الأيام السابقة لهبوب العاصفة. ويقال إن وجود القمر وسط ركاب من السحب ينبئ بهبوب عاصفة بحرية، ولكن البئر التام يسخر من أي نوع من الطقس. وكون أن تلك ليست هي الحالة دائماً يتضح من حكاية صغيرة من نيو إنجلاند.

ففي زمن تجارة المثلث، كانت سفينة صغيرة في طريقها إلى جزر الهند الغربية. وفي ليلة كان الجو فيها صحواً ترك القبطان السطح في عهدة وكيل الريان ونزل إلى أسفل للقيام ببعض أعمال مسك الدفاتر. وكان آخر تكليف منه لوكيله هو "إنها ليلة الجو فيها صحو ولذلك دعها تسير. لن تكون هناك رياح شديدة في ليلة كهذه! سوف يسخر منها القمر."

لم يكن قد مضى وقت طويل على نزوله قبل أن تميم السفينة قليلاً على جانبها وألصق وكيله رأسه في المنور صائحاً "الريح تهب يا قبطان. هل تريد طي الأشرعة؟" لا، لن يحدث شيء. دعها تسير. سوف يسخر منها القمر."

توقفت السفينة توقفاً حاداً بعد فترة قصيرة، ومرة أخرى اتصل وقال إن الريح تهب بشدة، وسأل إن كان ينبغي عليه طي الأشرعة. ومرة أخرى قال له القبطان: "لا، لا. سوف يسخر منها القمر." ولم يعال الوكيل في الكلام وعاد إلى نوبته وسارت السفينة في طريقها.

وقبيل منتصف الليل قطع تفكير الريان صوت ارتطام شديد. اندفع القبطان وهو في حالة ذهول إلى السطح. "ما هذا بحق الجحيم؟ ماذا جرى؟" إنه الشراع الأمامي سقط على الجانب يا قبطان. رغم عدم وجود رياح شديدة. يهيا لي أن القمر سخر منه وحسب" (١٤).

ينتشر ذلك الشعور العام ذاته بشأن الشمس كما هو الحال بالنسبة للقمر. فكلما كبرت الهالة المحيطة بالشمس تأخر هبوب الريح الشديدة أكثر. وبينما تحظى أوجه القمر بقدر كبير من الاهتمام عند التنبؤ بحالة الطقس، فإنه يكون هناك تركيز كبير على طلوع الشمس وغروبها. وقد لا تكون هناك علامة من علامات الطقس معروفة على نطاق أوسع من هذا النظم:

حين تكون السماء حمراء صباحاً، يلخذ البحارة حذرهم.

حين تكون الشمس حمراء ليلاً، يبتهج البحار.

إلا أن المؤلف قد يحذر من خلال التجربة الشخصية من أن الغروب شديد الحمرة لا يحتمل أن يتنبأ بأي شيء للبحار.

والبقع الشمسية (وهي بقع أشبه بقوس قزح تظهر في السماء) والبقع القمرية والشموس والأقمار المزدوجة جميعها علامات تنذر بطقس سيئ. وهذه الشموس والأقمار "المزدوجة" كثيرة الظهور في نواثر العرض الشمالية وهي أكثر احتمالاً حين يكون الجرم السماوي قريباً من الأفق.

يعتبر قوس قزح في معظم بقاع العالم علامة أكيدة على الطقس الصحو، وهو يبشر بأوقات طيبة. ولذلك فقد فرغت إلى حد ما حين رأيت إحدى سفن الصيد الشراعية وهي تغادر سكاربرو بجزيرة توياجو Scarborough, Tobago صباح يوم لطيف لتعود بعد عشرين دقيقة. فقد رأوا قوس قزح، وفي تلك المنطقة موقع قوس قزح مهم؛ فهو فال حسن بالنسبة للطقس، ولكنه فال سيئ بالنسبة لاتجاه الريح.

ونجد في جزر الهند الغربية كذلك فالاً غريباً يتعامل مع غروب الشمس. فحين يُرى وميض أخضر في السماء بينما الشمس تغيب، يتكهن البحارة المحليون بأن المطر سوف يسقط في اليوم التالي. بل إنه إذا كانت الريح ساكنة عند الغروب يكون من المتوقع حدوث تغير في حالة الطقس.

قبل أن نترك هذين الموضوعين - أي الشمس والقمر - لابد لنا كذلك من الإشارة إلى أن حجمهما ولونهما مهمان. فعادة ما يشير القمر كبير الحجم الساطع إلى

البرودة، ويقال إن الشمس كبيرة الحجم الحمراء في الصباح (خاصة حين تملأ السماء من السحب) تتبى يوم حار، بينما ينبى الشئ نفسه في المساء إما بالحر أو البرد في اليوم التالى، حسب الموسم. ويشير القمر كالح اللون إلى الحرارة.

وليس القمر والشمس الجرمين السماويين الوحيديين اللذين يراقبهما البحار. فهو يراقب النجوم مراقبة متأنية، وفي أيرلندا إذا كانت "النجوم شديدة القرب" فإننا نتوقع هبوب عاصفة. وعلى ساحل الأطلنطى فى أمريكا الشمالية يتوقع البحارة أن يكون الجو بارداً حين تبدو النجوم قريبة، ويكون الجو سيئاً حين تكون كالحة اللون ومعتمة. ولا يصح أن نتغاضى عن الأضواء الشمالية. وهى تعد مسببة للرياح الشديدة وتتبى بالبرودة. ويقرأ المؤلف يومية رحلتين بحريتين سجلها عالم فولكلور فى إسكوتلندا. فقد أشار إلى أنه لاحظ أثناء الرحلتين أضواء شمالية يتبعها هبوب الريح الشديدة. كما يشير المؤلف فى سجله الخاص بالرحلة على ساحل أيرلندا تحت تاريخ ٢ أغسطس ١٩٦٩ إلى ما يلى: الساعة ٢٣:٠٠، جنوبية جنوبية غربية، القوة ٤، ظهور قوى للأضواء الشمالية ... ٤ أغسطس، ٠٧:٠٠، الريح جنوبية غربية، القوة ٨.

ويعى البحار الآثار الجانبية للشمس والقمر وعياً كبيراً، وهو يهتم بأشعة القمر وأشعة الشمس، والضوء الساقط على الماء. وفى الصباح يكون التلاؤ الشرى علامة أكيدة على الجلد المبلل. "و حين تخترق أشعة الشمس السحب، يقال إن الشمس "تسحب الماء" (وهو ما يقال كذلك ن القمر). وأثناء العاصفة إذا وجد المرء بقعة من السماء الزرقاء توصف بطرق مختلفة على أنها "من الكبر بحيث يصنع منها بنطلون هولندى (أو قطة صغيرة، أو بحار، أو فرنسى)" أو "قوطة"، تكون العاصفة قد انتهت.

أخيراً، لابد أن نشير فى مجال الأحوال الجوية إلى الأهمية التى يولونها للسراب وحجم الرؤية. وحين يمكن للبحار رؤية الأشياء على مسافة بعيدة، أو حين تبدو الأشياء البعيدة شديدة القرب، فإنه يشك دائماً أن عاصفة توشك أن تهب. وهو يدرس هذا السراب بغناية. وحين يرى سفينة أو جزيرة أو شئ آخر، فإنه فى الغالب يقوم بمزيد من الاستعدادات من أجل الليلة شديدة الرياح، وخاصة حين يتغير شكل الجزيرة أو السفينة - كأن تتسع أو تزداد طولاً أو يصغر حجمها - أو حين تختفى أجزاء منها.

يتجه البحار بعد رصد كل تلك الأشياء إلى البحر ذاته ويدرسه بعناية. فهو يلاحظ اللون؛ فالبحر الرمادي والسماء الرمادية فال سبي، بينما يشير البحر الزاهي إلى الطقس اللطيف. إلا أنه ربما كان من أهم مؤشرات عُبَاب المحيط. وهو يدرس هذه الأمواج بعناية كبيرة، ملاحظاً ارتفاعها، والمسافة التي بين موجة وأخرى، وعرض كل منها، ويهتم بشكل خاص بالاتجاه الذي تتحرك فيه، ذلك أن تلك الأشياء تخبره بمقدار بُعد العاصفة عنه والجهة المحتمل أن تأتي منها. وأقل ما يحبه من الأمواج البحر الزيتي، ذلك أنه يتسبب في هبوب الرياح الشديدة.

والنذير الآخر بما سيقع من أمور هو "النار" التي في الماء (الوميض الفوسفوري). ففي ليالي الصيف يكون للسفينة في بعض الأحيان موجة خضراء عند مقدمتها ويمكن رؤية مخرها لمسافة ميل أو يزيد وراها. بل إنه في بعض الأحيان حين يكون الوميض الفوسفوري كثيفاً بحيث يصبح سطح البحر المتموج مليئاً بهذه النار اللامعة، وحين يراها البحار يستعد لهبوب الريح.

وتوجد آخر علامات الطقس السبي في "غناء البحر". فحين تسكن الريح ليلاً، غالباً ما يسمع البحار الموجود على الشاطئ أو يكون قريباً منه صوت الأمواج وهي تتكسر على أحد العوائق، أو قعقة الحجارة وهي تسحب على حصي الشاطئ، أو الارتطام الشديد للأمواج الكبيرة على الصخور. قد لا تكون هناك نُفْر مشاكل أخرى، ولكن حين تحدث مثل هذه الأشياء لا يميل الرجل الذي على الشاطئ كثيراً إلى الإبحار، وهؤلاء الذين في المحيط إما أن يبحثوا عن ملاذ يأوون إليه أو يبذلوا الجهد كي يعوبوا ويجدوا مساحة في البحر يمكنهم فيها الاستدارة.

إذا كان مثل المزارع يقول "كل العلامات تفشل وقت الجفاف"، فإن مثل البحار الذي يساويه هو "كل شيء يمكن أن يحدث في الطقس غير المستقر". وهو في هذه الأوقات يكون شديد الحرص على دراسة الريح والمطر من أجل النتائج الفورية. وقبيل إعصار ١٩٢٨ قال القبطان الراحل تشارلز روس Charles Ross من هاليفاكس للمؤلف: "إذا رجعت الريح نقطة أخرى ناحية الشرق فسوف يأتينا إعصار". كان ذلك في الحادية عشرة صباحاً، وبحلول الواحدة بعد الظهر تحققت عبارته بجزأها.

ويحرص البحار على ملاحظة إذا ما كانت الريح تغير اتجاهها، أم تدور على عقبيها، أم تتحرف عن مسارها. فحين تغير اتجاهها يكون متاكداً بعض الشيء من الطقس الطيب، ولكن حين تدور على عقبيها أو "تسير عكس الشمس" فإنه يشك في أن الريح ستهب. ومن ناحية أخرى فإنها حين تتحرف عن مسارها أو "لا ترسى على حال وتهب في كل اتجاه"، فإنه يراقبها قلقاً كي يرى ما سيحدث، لأن هذا ينبئ بتغير، وعادة ما يكون تغيراً غير سار.

ما إن "يستقر" الطقس حتى تكون لدى المقتبئ الجيد بالطقس فكرة عما يمكن توقعه تزيد عن كونها لا بأس بها. ففي نيو إنجلاند إذا كانت الريح آتية من الشمال الشرقي وكان الطقس صحواً، فهو يكون متاكداً إلى حد كبير من أن الجو سيظل على هذا الحال لمدة ثلاثة أيام؛ وهي تسمى الريح الشمالية الشرقية الجافة. أما إذا كانت آتية مصحوبة بأمطار وزوابع فيعرف أن هناك "ريحاً شمالية شرقية مدتها ثلاثة أيام". وحين تأتي من الجنوب الشرقي يتوقع سقوط المطر. وحين تأتي من الشمال الغربي يتوقع طقساً صحواً أو ربما الثلج في الشتاء.

لابد عند هذه النقطة من ملاحظة المطر. وتقول العبارة القديمة Open and shet, sure sign of wet. ويشعر البحار بالقلق بصورة خاصة من الزوابع، ذلك أنها يمكن أن تحطم الصواري، أو تقلب السفينة، أو على أقل تقدير تحدث أضراراً بالصواري والحبال. وتحقيق ذلك:

حين يسبق المطرُ الريحَ،

اخفض الأشرعة العليا واطوى الشراع الرئيسى.

وحين يسبق الريحُ المطرَ،

انشرها واستأنف المسير (١٥).

ويمكن أن نضيف إلى تلك النذرُ نذيراً آخر. ومع أنه ليس بأهمية النذر الأخرى، فمن الواضح أنه من النجاح بحيث يظل في جعبة البحار الخاصة بحيل رصد الأحوال الجوية. إنه عنصر الوقت:

**إن أمطرت قبل السابعة
يكون الجو صحوً قبل الحادية عشرة.**

أو

**الوقت بين الساعة الواحدة والساعة الثانية
يخبرك بما سيكون عليه الطقس.**

المعتقد الأخير الخاص بالوقت، وربما كان أقل المعتقدات شائعاً، هو أن أيام الأسبوع تتحكم في الطقس، على الأقل في اليوم التالي، وفي بعض الأحيان لفترة أطول من ذلك. ويرى معظم البحارة أن يوم الأربعاء "المدني" علامة طيبة، ولكن مهما كان الطقس يوم الجمعة - وهو يوم سيئ السمعة على تقويم أي بحار تقريباً - فسوف يكون عكس ما هو عليه يوم السبت.

**إذا طلعت الشمس يوم الجمعة كالجرس
كان المطر يوم السبت كالجميم**

وحيث إن هناك اعتقاداً بأن القمر يتحكم في الطقس والمد والجزر، فالبحار يعطى أهمية كبيرة للمد والجزر كمؤشر مساعد. ولا يُعتقد فقط أن المد شديد الارتفاع يسبق الرياح العاتية، بل ترتبط قوة الرياح والزمن الذي تستغرقه ارتباطاً شديداً بحالة المد حين تهب الرياح. فالرياح التي تأتي مع المد عادة ما يعتبرونها أشد من تلك التي تأتي مع الجزر. بل يراقب انحراف المد والجزر بحرص كبير، ذلك أنه إذا استمرت الرياح مع تحرك الماء ببطء، في المد أو الجزر، فعادة ما يُعتقد أنها سوف تستمر حتى التغير التالي أو طوال ست ساعات أخرى. كما أن حالة المد والجزر لها أهميتها، ذلك أنه يُعتقد أن الرياح الشديدة تهب عند "المد والجزر التام" (ويسمى أحياناً "الشاطئ المرتفع" أو "الجزر الكامل" أو مد وجزر "القمر"). وبالمثل يُعتقد أن القمر يتحكم في المطر. ولكن في هذا الخصوص يبدو أن العكس هو الصحيح، ويشير القول القديم إلى أنه

إذا سقط المطر عند المد،

فلن تكون إلا هبة هواء.

إذا سقط المطر عند الجزر،

فعلى البحارة أن يناموا.

وهذا النظم نموذج لطريقة تفكير العامة؛ أى باستخدام الأضداد. فإذا جاء المد بالماء، فهو لن يسقط من السماء؛ أما فى حال سحب الجزر للماء، فسوف تعوض السماء النقص.

ولا يهم كثيراً إذا كان "الأسلوب العلمى" يثبت صحة تلك العبارات أو لا يثبتها. فالحقيقة أن الريح الشديدة التى تصاحب المد تحدث دائماً ضرراً يزيد عن ذلك الذى تحدثه ريح بنفس القوة عند الجزر، وذلك لأن الماء يكون أعمق على امتداد الشاطئ وقد يحدث فيضان. كما أن مصدات المياه تكون أقرب إلى مستوى سطح البحر وتلقى السفن قدراً أقل من الحماية منها، وقد تفرق المياه المرتفعة الشاطئ. بل إن هذا المد شديد الارتفاع يحدث اضطراباً فى الماء وتيارات غير معروفة فى الظروف العادية ويفرض على السفن مد المزيد من الكابلات - وهو ما قد لا يتوفر لديها - حين تلقى مراسيها.

هنا يجب الاستفاضة فى الحديث عن دور القمر والمد والجزر فى حياة البحار، ذلك لأنه ليست هنا ظاهرتان أهم منهما بالنسبة له. وقال أثنيل أوليفير Athneal Ollivierre كبير الرماة فى صيد الحيتان فى بيكيا Bequia فى جزر الهند الغربية: "القمر يتحكم فى كل شئ: السمك، والحوت، والمحاصيل والمد والجزر؛ وحتى المرأة. كل شئ!" ومن ناحية أخرى ليس المد والجزر مهماً بالنسبة الطقس وقيادة السفن وحسب، بل كذلك لصيد السمك. ويشيع اعتقاد لدى معظم البحارة كبار السن أنه يتحكم فى الميلاد والموت. وبذلك فإنه إذا عاش رجل مريض بعد دورة المد والجزر فسوف يبقى على قيد الحياة حتى الدورة التى تليها، وعندما يحين أجله فى النهاية فإن روحه تخرج مع الجزر. ويقال فى إسكوتلندا إن الصبيان يولدون مع المد والبنات يولدن مع الجزر^(١٦).

وحالة المد والجزر مهمة بالنسبة للبحار مما يجعله يستخدم كل حواسه لتحديدها. وفي بعض الأحيان عندما يكون بعيداً عن البحر أو حين تقشَل الوسائل الأخرى، فإنه يستخدم طرقاً غريبة لتحديد حالة الماء. فأحياناً ينبئه الصوت على الشاطئ بأن هناك مداً، أو يخبره غمر أو انكشاف مائة من صخور منتصف المد في أنحاء العالم الأنجلو أمريكى بهذه الحالة من تقدم المد، بينما تعلن رائحة المنطقة التي يكثر فيها المحار بين حدى المد والجزر انخفاض الماء على مسافات لا تفيد العيون ولا الأذان كثيراً في إدراكها. وبعيداً جداً عن الشاطئ في نيوفاوندلاند يمكن للبحار معرفة حالة المد والجزر من خلال إنسان عين قطرة؛ فإذا كان رأسياً وضيقاً، فهناك مد، أما إذا كان مستديراً وأفقياً، فهناك جزر (١٧).

سبق أن تحدثنا بشكل عابر عن الأصوات، وقبل أن نترك هذا المجال هناك كلمة جديدة بأن يقال. ففي أحيان كثيرة جداً يحكم البحار على وزن الريح من الصوت الذي تحدثه.

ففي السفن الشراعية، على سبيل المثال، تجعل الريح الخفيفة الحبال التي تطوى بها الأشرعة تصلصل بينما تصطك حبال رفع الأشرعة وإنزالها في الصاري، وتحدث الأمواج الصغيرة أصوات ارتطام خفيف على بدن السفينة. ويعد هذا منبهاً للسواحل الراقدة في الميناء انتظاراً للريح، فينهض ويذهب. وحين تهب الريح تبدأ بعواء لتصبح صافرة حادة تزداد باطراد للتحويل إلى زمجرة الريح العاتية الشديدة المرعبة. وتخبر درجة تلك الأصوات إلى جانب حركة السفينة القبطان متى يدخل الميناء بسبب ضغط الريح أو يتحرك في اتجاهها، أو يجرى أمامها.

ويمكن للأنف كذلك أن يساعد على التعرف على حالة الطقس، ويقال إن بحاراً عجوزاً قادر على شم الضباب والمطر والثلج. وفي الجو الهادئ المتقلب، وخاصة بالقرب من الشاطئ، غالباً ما يشم البحار المخضرم العالم رائحة الهواء كى يجعل سفينته تسير. وهو يفعل ذلك بقدر كبير عن طريق تحديد ما يشمه؛ فالرطوبة التي في الهواء الخارج من البحر تنذر بريح من البحر أو ضباب، بينما رائحة الحشيش الذي حُسُ للتو أو المناطق التي يغطيها المحار في منتصف منطقة المد أو زريبة الخنازير فتحذره قبل

رؤية أول موجة من أن الريح ستهب من البر. ولاحظ تلك الظاهرة جون وينثروب John Winthrop الذى كتب بعد قضاء ستة أسابيع فى البحر أنه أخيراً "شم رائحة الحديقة الحلوة" بينما كان يعمل على شاطئ ماساتشوستس. وقد كفت المؤلف منذ سنوات عديدة رائحة الزهور فى الظلام شر المرور من عند بيرمودا فى ليلة حالكة السواد.

من بين أفضل كل التنبؤات حتى الآن تلك التى ذات طابع شديد المحلية. وهذه عادة ما تخص منطقة متناهية الصغر - قد تكون ميناء واحداً - وهى نتيجة سنوات طوال من الملاحظات الموسعة التى رأى الشاهد أنها دقيقة. ومع أنها فى كثير من الأحيان موضع سخرية كبيرة من جانب علماء الأرصاد، فكثيراً ما يثبت أنها تصح بالنسبة للمنطقة موضع البحث أكثر من التنبؤ بحالة الطقس الذى يعده على بعد أميال العلماء القابعون فى أحد المكاتب ومعهم أجهزة الكمبيوتر ومجموعة من الأجهزة.

تقع خلف ميناء كوهاسيت Cohasset بولاية ماساتشوستس بركة مألحة تفرغ ماعها بقوة شديدة من خلال مسقط عكسى. وعادة ما يكون الجدول الخارج منها صافياً، ولكنها من حين لآخر تفرغ ماعها على شكل جدول من الزيد البنى. ويصل عمق هذا الزيد فى بعض الأحيان إلى قدمين، وهو يزعج البحارة لأنه يلوث كل ما يلمسه. وتخبرك المعرفة المحلية أن ذلك الزيد عادة ما يسبق الريح ويتناسب عمقه مع شدة العاصفة.

وعلى بعد ثلاثة آلاف ميل توجد ظاهرة غريبة أخرى. ففى أوقات بعينها تزور خليج موارى Moray Firth (*) أكبر أسماك العالم؛ وهى أسماك القرش النهم الكبير. وهذه المخلوقات تُشاهد من حين لآخر تقفز فى الهواء ثم تسقط فى الخليج محدثة طرطشة مخيفة. ويبدو أنها تفعل ذلك لشل حركة سمك الرنجة الذى تلتهمه بكميات كبيرة. والامر الغريب بشأن تلك الزيارة الأكروبياتية هو أن أسماك القرش طبقاً لما يقوله الصيادون فى الموانئ المحلية لا تفعل ذلك إلا قبل العاصفة. ولاحظنا هذه الظاهرة عام ١٩٦٧ وهبت العاصفة على الشاطئ بعد يومين فى القناة الكاليدونية (**).

(*) خليج صغير فى بحر الشمال على الساحل الشمالى الشرقى لإسكتلندا (المترجم).

(**) تقع شمال إسكتلندا ويبلغ طولها ٩٧ كيلومتراً (المترجم).

وسوف يحكى لك البحارة فى نيوفاوندلاند عن أضواء تظهر عند مداخل موانئ معينة قبل هبوب الرياح الشرقية (١٨). ويحرص الصيادون على جزيرة توياجو على أن يراقبوا عن كثب طيران الطيور عند أول ضوء فى النهار على شاطئ بعينه. ويزعم الناس هناك أنه يمكنهم طبقاً لمقدار ارتفاعها عن الأرض عند الطيران التكهّن بحالة الطقس بقية اليوم (١٩).

فى أنحاء الجزر البريطانية وفى أماكن كثيرة أخرى من العالم، يعتبر الربط بين السحب وبعض الأشياء المعينة نذيراً بحالة الطقس - إلا أنه ليس بالضرورة فى البقعة ذاتها. ويقال إن السحب فوق بل روك لايت Bell Rock Light (إنجلترا) تنزل المطر فى أربروث Arbroath، وأن السحب فوق جزر أوركنى Orkney Isles تنبئ بنزول المطر فى كيب راث Cape Wrath فى إسكوتلندا، بل إنه فى مدينة كيب تاون البعيدة يقول البحارة إنها علامة على الطقس السيئ حين يفرد مفرش السفرة على جبل المائدة Table Mountain (٢٠). وفى عام ١٦٣٨ لاحظ جون جوسيلين John Josselyn الرحالة المشهور أنه حين تتعذر رؤية الجبال البيضاء White Mountains من بلاك بوينت (تسمى الآن سكاربرو بولاية مين) فإن العاصفة تكون وشيكة (٢١).

وقد حكى لى القبطان جيمس بوكان Buchan من فريزبرج Frazerburgh، أن الصيادين على شاطئ إسكوتلندا الغربى يعتقدون أنه حين يمكن رؤية تلأل كولين Coolin Hills على جزيرة سكاي Isle of Skye أو الجبال الواقعة على بر إسكوتلندا بوضوح من جزر هيبريدز الخارجة، أو العكس (وهى مسافة تبلغ ثلاثين ميلاً) يمكن أن تتوقع هبوب العاصفة. وكلما كانت الرؤية أوضح كانت العاصفة أشد. وهو يقول إنها فى بعض الأحيان تظهر بوضوح شديد "حتى تبدو وكأنها لا تزيد عن ميل واحد". وحين نتذكر القول الخاص بالنورس وشبه الجزيرة الذى أوردناه من قبل، ندرك أن هذا الرأى قد يكون هو الأبرز (وكقاعدة عامة لا تتق العامة فيما هو غير معتاد). وقد أضيف أن الشيء نفسه يقال عن شاطئ كونيتيكت؛ ذلك أنه "حين تأتى لونغ آيلاند إلى كونيتيكت، توقعوا طقساً سيئاً".

تقع قبالة ساحل أيرلندا جزيرة أينش شارك. وتقع عليها صخرة بها راسب طباشيرى غريب الشكل. ويقول الصيادون المحليون إنه يشبه سفينة فاردة أشرعتها

وأن السفينة تتغير حسب الطقس. فهي تبدو بعض الأحيان واقفة في عرض البحر، وهنا يعرف السكان المحليون أن الطقس سيكون طيباً. وفي أوقات أخرى تتجه ناحية الميناء، وهنا يأخذ أهل المنطقة احتياطاتهم انتظاراً لهبوب الريح الشديدة.

ويقول السكان المحليون في خليج ماهون، قبالة شستر في نونافا سكوشا، إنه في أحيان كثيرة يرى الناس وهجاً أحمر غريباً قبل العاصفة. وهناك اعتقاد شائع بأن هذا إعادة تمثيل لحريق السفينة "تيزر" Teaser إبان حرب ١٨١٢. ويقول المتنبئون المحليون بالطقس إنه علامة مؤكدة. فهو يظهر عادة على هيئة وهج وردي في الضباب، والصياد القديم لا يخرج إلى البحر حين يشتعل. وليست السفينة "تيزر" هي الوحيدة التي تتنبأ بهبوب العاصفة حين تُرى في مكان بعينه، ولكننا سنتناقش تلك الرؤى في موضع آخر.

لا يمثل سبب وقوع تلك الأحداث الغريبة أهمية كبيرة بالنسبة للعامة. فما يلتفت انتباههم هو نتيجة هذا العمل، ولا يمكن للمؤلف سوى أن يقول إنه لاحظ كل العلامات المحلية التي جاء ذكرها هنا، فيما عدا واحدة منها (وهي ما قيل عن جبل المائدة)، وفي كل مرة كانت تثبت دقة النبوءة.

يلي ذلك النذر المشتقة ولو بشكل جزئي مما صنعت يد الإنسان. فهذه الأشياء الصغيرة كالدخان تجتذب عين البحار في البحر والبر. فالدخان على الشاطئ أو الدخان من بدن السفينة في عرض البحر الذي يمكن رؤيته من على الشاطئ يُلاحظ ملاحظة دقيقة، ذلك أنه ينبئ بسرعة الريح والاتجاه الذي قد يختلف بعض الشيء عن الريح في المنطقة المجاورة مباشرة للمراقب. وعلى الشاطئ يشير الدخان الذي يصعد في خط مستقيم إلى المطر أو الثلج، بينما يشير الدخان الذي ينتشر بشكل أفقي في الوادي نون أن يرتفع أو يتبدد إلى المطر.

كان البحارة حتى عام ١٦٢٧ على أقل تقدير يراقبون أثر الأحوال الجوية على حبال السفينة، ذلك أن جون سميث في كتاب "الأجرومية البحرية" يقول إنها تشير إلى سقوط المطر حين لا تكون مشدودة. وفي وقت أقرب بعض الشيء، كان البحارة يلاحظون أنه حين تبدأ أسلاك التليفون في "الحديث" - أي الطنين - يكون ذلك نذير بعاصفة وشيكة.

أما الأقدم من أسلاك التليفون بكثير فهو الاعتقاد في الأجراس الموجودة تحت الماء في أماكن بعينها من البحر. وتقع ثلاثة من تلك الأماكن قبالة ساحل بريتاني Brit-tany، وقبالة ساحل كورنول، وفي ميناء كنجرتون بجامايكا. وتتشابه القصص الخاصة بالأجراس في حالة من الحالات إلى حد كبير. وكان سكان بورتو بيلو Porto Bello (في ميناء كينجرتون) أناساً بائسين، حيث كانوا في معظمهم من القراصنة والعاهرات والعبيد. وكانوا يقضون معظم أوقاتهم في شرب الخمر أو ممارسة الجنس مع العاهرات أو لعب القمار، إلى أن أذاقهم الرب ما أنزله بسدوم وعمورة(*) . ففي يوم من الأيام ضرب المكان زلزال وموجة عاتية من المد وغرق في البحر، وغرقت الكنيسة مع البلدة. وظل المكان سنوات عديدة مرثياً تحت الأمواج، وحتى يومنا هذا يقول البحارة إنهم يسمعون جرس الكنيسة وهو يدق قبل الإعصار.

وليس من بين هذه النذر ما هو أشد تخويفاً ولا أقدم عهداً من نار القديس إلمو التي تزعم البحارة بالقدر الذي يجعلهم لا يسمونها بأى من أسمائها العديدة، مثل كاستور Castor وبولوكس Pollux (**) أو الأجسام المقدسة، ولكنهم يشيرون إليها باسم "النار". ومن بين أسمائها التي تزيد على الخمسين، ومنها عمة كوربي Corbie's Aunt وديفى جونز Davey Jones وجاك هارى Jack Harry (الشيطان البحار). وهذا الشيء الغريب هو في واقع أمره كهرياء إستاتيكية ترجع في جزء منها إلى تمايل السفينة وتأرجحها، ويظهر أحد تلك الأضواء أو اثنان أو ثلاثة منها وأحياناً أكثر من ذلك في حبال السفينة (رأى كولبس ثمانية في رحلته الثانية، ورأى ماجلان ثلاثة ورأى دامبيير (***) Dampier اثنين) (٢٣) .

(*) مدينتان قديمتان في فلسطين جاء في العهد القديم أن الرب دمرهما لانغماس أهلها في الرذيلة والفساد. فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء. وقلت تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض. تكوين (٢٣: ١٩) (المترجم) .

(**) اسما شقيقين توأم في الأساطير اليونانية من أبناء زيوس الذي ضاجع أمهما البشرية ليذا حين جاءها على هيئة بجعة (المترجم) .

(***) وليام دامبيير (١٦٥٢-١٧١٥) قرصان وملأح إنجليزي وصف رحلته حول العالم في كتاب بعنوان A New Voyage Round The World في عام ١٦٩٧ (المترجم) .

تلك الأضواء الأثيرية كان يلاحظها البحارة على أقل تقدير منذ دعا أورفيوس (*)
Orpheus الآلهة كي تخفف من هول العاصفة وهو على ظهر السفينة "أرجو" Argo حين
حام ضوئان فوق رأسى اثنين من المجدفين، هما كاستور Castor وبولوكس Pollux .
ومنذ ذلك الوقت وهذه الأضواء تظهر باستمرار في الأدبيات البحرية، ونادراً ما لم يرها
إنسان عاش فترة طويلة في البحر. بل إنها منظر مقزع لا يمكن بأي طريقة من الطرق
أن تقلل من هوله الظروف التي يحدث فيها. وليس مستغرباً أنها تنبئ بكل الأشياء
خيرها وشرها، وأن العديد من القصص تُروى عن أصلها والأحداث التي تقع في
أعقاب ظهورها. وهذه سوف نتناولها في موضع لاحق.

رغم حقيقة عدم وجود أى اتفاق على طريقة تفسير ظهورها، فهناك اتفاق عام على
أن ضوءاً واحداً يكون تحذيراً من هبوب عاصفة، وضوئين دليل على أن مركز العاصفة
قد مرت، وثلاثة أضواء دليل على أن ريحاً ذات أبعاد كاسحة سوف تهب. ويقول
لونجفيلو (**) Longfellow :

الليلة الماضية رأيت نجوم القديس إلمو

حيث كانت مصابيحها المتوجهة تلهو وتمرح

على رموس الصواري وحواف العوارض

وعرفت أن الجو اليوم سيكون سيئاً.

وعاش ويليام فالكونر William Falconer الشاعر البحار تجربة هبوب ريح شديدة

ونجا بعمره لبعض الوقت ليختفى فيما بعد في مضائق مدغشقر:

هناك في أعال الصواري، بأشعة شاحبة ومبهرة

وسط الظلمة تلمع الشهب التي تنثر بالسوء.

(*) شاعر وموسيقى في الأساطير اليونانية مبط إلى عام الموتى الذي استجاب إليه لتوسلاته وأعاد له

زوجته ولكنه فقداً ثانية لمخالفته أمر إله العالم السفلي (المترجم) .

(**) هنري وابزورث لونجفيلو (١٨٠٧-١٨٨٢) كاتب وشاعر أمريكي شهير ترجم "الكوميديا الإلهية"

لدانتى (المترجم) .

وما تفعله الأضواء له أهميته. فإن هي صعدت لأعلى، فعادة يكون من المتوقع أن يصبح الطقس طيباً، أما إذا اتجهت لأسفل، فمن المحتمل أن تسوء الأمور.

... ذلك أن البحارة يرون أنه إذا صعد الجسم المقدس في حبال السفينة، فإنه يكون دليلاً على الطقس الجميل، أما إذا نزل لأسفل فمن المؤكد أنه ستكون هناك عاصفة. ومن العلامات المميّزة أن يلقى بالضوء الشاحب في وجه المرء (٢٦).

ومن الغريب إلى حد كبير أن هذا الاعتقاد في النار يبدو قصير المدى وطويل المدى. فقد قال صياد حيتان أجريت معه مقابلة في نيو بدفورد بولاية ماساتشوستس عام ١٩٥٠:

أنا الرجل الوحيد الذي بقي على قيد الحياة في السفينة فيولا. كان والدي وكيل قبطان فيها وفي طريق العودة واجهتنا ريح شديدة. رأينا النار في حبال السفينة وجاء والدي إلى وقال: "إذا نجونا من هذه، لا أريدك أن تخرج على هذه السفينة مرة أخرى". وبذلك حين وصلنا نيوبدفورد حصلت على أجرى ولم أوقع للعمل على الرحلة التالية. أما والدي فقد وقع لأنه كان وكيل القبطان، وغرقت السفينة في تلك المرة بكل من عليها من بحارة إلا أنا. فلما الرجل الوحيد الذي نجا من السفينة فيولا (٢٧).

انصب جُل اهتمامنا حتى الآن على الجمار باعتبارها نذيراً بحالة الطقس. وهناك مجال آخر - الأحياء - حيث يعتبر المختصون بالطقس النباتات والحيوانات محددات للأحوال في المستقبل. وكل نوع تقريباً من أنواع الحيوانات والحشرات والأسماك مصور في مكان من ماثورات الطقس، وقد يكون الكثير من التعليقات الخاصة بها في محله، مع أنه إذا اتخذ المرء القول بأنه إذا سقط أحد طيور الرفراف على السفينة فسوف تهب العاصفة بعد ذلك بقليل تحذيراً وحيداً له، فإنه قد يخطئ التنبؤ بعدد من العواصف.

وعملًا بصورة أو بأخرى تبعاً للوعد بأن "الطبيعة ترعى نفسها"، يولى البحار قدراً كبيراً من الاهتمام لأعمال الحيوانات. وحتى الآن يقوم أكبر عدد من التكهّنات على أنشطة الحيوانات المستأنسة. فالبحار يتنبأ بنزول المطر إذا غسّلت القطة وجهها أو نامت بجوار النار؛ وسوف تهب عاصفة إذا خرج شرر من فرائها. وإذا نامت الكلاب

بجوار النار، وإذا دارت حول نفسها عدة مرات قبل أن ترقد، فالمعتقد هو أن هذه علامة على هبوب الريح؛ وإذا أكلت كميات من العشب يكون من المؤكد أن المطر على الأقل سوف يسقط وربما هبت عاصفة. وإذا حمل الخنزير القش في فمه، فالعاصفة وشيكة. ويشير الاتجاه الذي تسير فيه الماشية والخيول حين ترعى إلى اتجاه الريح. واستلقاء الماشية والأغنام على الأرض علامة على أن ريحاً شديدة ستهب، وينبئ رعى الأغنام على التل بتوقيتات لطيفة. وإذا صاح الديك في الليل، فهذا معناه أن الريح آتية:

إذا صاح الديك على السياج،

فسوف ينصرف المطر.

وإذا صاح على الأرض،

فسوف ينزل المطر.

وإذا أكلت الماشية أو الكتاكيت في المطر، فسوف تهب عاصفة طويلة، ولكن إذا بحثت عن مكان يؤويها فسوف تمر سريعاً. وتقول رباعية إسكوتلندية:

حين تسمع الصياح يصيح

دع السفينة راقدة.

فسوف تستمر العاصفة

جزرين ومداً قبل أن تهدأ (٢٨).

أفعال الطيور البرية شديدة الأهمية بالنسبة لمن يتنبأ بحالة الطقس. فتحليق طيور السنونو فوق الماء ينبئ بالمطر، ويعد طيران النورس والطيور البحرية في اتجاه البر، أو دعاء الكروان، إشارة إلى عواصف شديدة؛ وعدم وجود طيور حول السفينة علامة على أن مشكلة ما في سبيلها إلى الحدوث. وحين تشاهد الطيور البحرية جائمة على الشاطئ يقال إن تلك علامة مؤكدة على أن عاصفة ستهب. ومن ناحية أخرى، يعتقد أنه حين تحط الطيور البرية على إحدى السفن فإنها لا تبشر بخير.

وحين نهبط قليلاً على القائمة نصل إلى البرمائيات والزواحف. ونحن نعرف أن ضفادع الأشجار "تغنى للمطر"، وأن الضفادع الأمريكية الكبيرة "تنطق للماء"، وأن السمندل(*) والسحالي تنبأ بوقوع العواصف.

إذا قابل شخص في إسكوتلندا حلزوناً يقول:

يا حلزونتى، يا حلزونتى، اخرجى قرتك،

قولى لى كيف يكون الطقس غداً.

ويرى معظم الأنجلو أمريكيين أن العنكبوت، حياً كان أم ميتاً، متنبئ قوى بحالة الطقس. فإذا وجدنا أن العنكبوت "يضيف خيوطاً إلى بيته" فالعاصفة توشك أن تهب. وإذا كان البيت مغطى بالندى، فالجو جميل، أما إذا كان جافاً، فلتأخذ حذرك. وإذا قتلت عنكبوتاً عادياً، فسوف تمطر، ولكن إذا ضربت العنكبوت الحصاد وراقبته عن كثب، سوف يشير بساقه إلى الاتجاه الذى تأتى منه العاصفة وهو يرتعش ارتعاشته الأخيرة. والفراشات التى تطير حول المصباح، وتجمعات الحشرات، والذباب الكثير جميعها بارومترات تنبئ بما سوف يحدث. بل إن سقسقة الجُجْد [صرصار الليل] والجُنْدُب [أبو النُطِيط] والجراد والجُنْدُب الأمريكى تنبئ بحالة الطقس ودرجة الحرارة.

ويراقب الناس الحياة النباتية عن كثب. فأنحاء أوراق أشجار الحور لأعلى علامة على أن المطر سيسقط، وحين تتدلى لأسفل فإنها تشير إلى أن الطقس سيكون دافئاً. ويشير الندى على العشب إلى الطقس الجميل، وتشير حركة بذور الهندباء البرية إلى الريح. ويظنون أن كزبرة الثعلب متنبئ دقيق بالمطر، حتى إنهم يسمونها نواره اتجاه الريح الخاصة بالفقراء (٢٩).

معظم العلامات التى تنبأ بحدوث تغير متاحة للبحار بوفرة فقط حين يكون على البر. أما فى عرض البحر فهو يستخدم كل ما يمكنه ليحل محل الكثير من المواد البرية عن طريق المراقبة الدقيقة للبحر وسكانه. ولتحقيق ذلك نجده حريصاً على مراقبة

(*) حيوان برمائى صغير يشبه السحلية (المترجم).

حركات السمك وخنازير البحر وحيوانات الفقمة والحيتان والأعشاب فى الماء وأى شىء آخر يجده.

ومن بين مولدات الطقس التى يشار إليها إشارة غير مباشرة حركات الأسماك، وحركات طيور النورس المرتبطة بالأسماك. فوجود المخاضات الضخمة من الطعم قبالة الساحل، حيث الطيور تعمل وأسراب الأسماك تقفز هنا وهناك تفهم بشكل عام على أنها علامة على الطقس الجيد. ومن ناحية أخرى فإنه حين تظهر الأسماك الصغيرة متجهة نحو الشاطئ، لا يثق البحار فى العوامل الجوية. وعموماً تعد الأسماك التى تاكل عند سطح الماء علامة طيبة، بينما أكلها فى العمق علامة سيئة.

ولا يسر البحار شىء مثل منظر خنازير البحر وهى تلعب فى البحر. وحين تكون قريبة من الشاطئ تكون علامة على هبوب العاصفة؛ وحين تبتعد عن الشاطئ يكون الطقس طيباً. وحين تلعب حول إحدى السفن يظنون أن تلك علامة على الطقس الطيب، وخاصة حين تلعب حول المقدمة. أما إذا شوهدت وهى تتداعى على السفينة من كل الاتجاهات، فيفترض أن العاصفة قريبة. وفى تلك الأوقات يلاحظونها بدقة كبيرة، ذلك أنه يعتقد أنها تخرج دائماً فى الاتجاه الذى ستأتى منه الريح. وما يصدق على خنازير البحر ينطبق كذلك على الدلافين. ومعرفة هذه المخلوقات التى تعيش فى المياه العميقة تبعث على الراحة إلى حد كبير، لأنه على عكس المعتقد الشائع هناك القليل جداً من الأسماك فى البحر خارج حدود الرصيف القارى.

ولابد أن نضيف إلى هذه القائمة الطويلة الناس واستخدامهم كأجهزة لقياس الضغط الجوى. ويتخذ هذا العديد من الأشكال التى يمكن وصف أولها بأنه التشخيص عن طريق العلل. فالتعبير "أشعر بعاصفة فى عظامى" دقيق إلى حد ما. ويقول البحارة كبار السن إن ما لديهم من روماتيزم أو التهاب فى المفاصل يكون مؤلماً قبل الجو السيئ، ذلك أن مفاصلهم تيبس أو أن الإصابات القديمة تؤلمهم. ولسبب ما تبدو الجراح القديمة شديدة الحساسية نحو هذا الشىء. ومنذ سنوات عديدة أخبرنى صياد عجوز أنه لا يستطيع الجلوس قبل العاصفة. بل إن الاستجواب كشف أنه من المحاربين القدماء فى إحدى الحروب الأهلية وأن قناصاً أصابه بجوار فتحة الشرج مباشرة.

وكون هذه نعمة أم نقمة مسألة قابلة للمناقشة، ولكن جيرانه كانوا يستشيرونه وكأنه بارومتر جاف.

الأمر الوثيق الصلة بهذه المتلازمات هو الشعور الحدسى بالنسبة للطقس الذى كثيراً ما يشعر به البحارة. وربما يقوم هذا على استجابات حقيقة ولكنها باطنة لمعارف الطقس المتأصلة. وعادة ما يعبر المتنبئ عن هذا التشخيص الحدسى بقوله "لا يعجبني ملمس الطقس" أو "لدى شعور بأن شيئاً ما سيحدث". ونادراً ما يعمل البحار عكس شعوره، وعدم الانتباه للبحار العجوز الذى يتمتع بشهرة من هذا النوع من التنبؤ ليس بحال من الأحوال دليلاً على الفطنة والحس السليم.

وفى بعض الأحيان يوضع نوع من الإطار المنطقى حول هذه المشاعر الحدسية التى لا يعترف بها الشخص نفسه الذى تحدث له التجربة. والقصة التالية رواها لى رجل من خليج القديسة مارجريت فى نونفا سكوشا - وهو القبطان سيمور هارنيش Symour Harnish الذى كان يصطاد فى مركب صغيرة اسمها "كارولين" Caroline .

كان القبطان هارنيش يخرج وحده - فلم يكن معه سوى كلب صغير - وكان يتتبع المواسم من نونفا سكوشا حتى فيرجينيا والعودة، حيث كان يصطاد عند العديد من الجروف والريوس وهو يسير. وفى إحدى الليالى كان راقداً على جورجيز بانك قبالة ساحل ماساتشوستس. كان الماء على جورجيز ضحلاً وكان هو راسياً ذات مساء لطيف بصحبة عدد من السفن الأخرى الكبيرة والصغيرة. وحوالى الساعة الثانية صباحاً استيقظ وصعد إلى السطح. لم يكن هناك ما يبدو غير عادى بحال من الأحوال، إلا أن شيئاً ما جعله ينظر إلى الأفق. وحين فعل ذلك، صعد السفينة بحار يقطر ماء يرتدى حذاء ذا رقبة طويلة ومعطفاً مشمعاً ووقف عند المؤخرة. لم ينطق الرجل بكلمة ولكنه حين وصل إلى القبطان هارنيش نظر إليه نظرة جادة، وهز يده وسار إلى المؤخرة واختفى فوق الدفة. وبما أنه كان بعيداً عن البر مسافة تزيد على التسعين ميلاً، إلى جانب أن الزائر بدا وكأن بشرته تميل إلى الاخضرار، فقد فزع الربان، وأمسك ببلطة واندفع إلى الأمام وقطع الحبل وأدار محركاته واتجه إلى ميناء جلوسستر. وما إن اقترب من إيسترن بوينت حتى ضربته الريح بشدة. ولو ظل على

جورجيز حين هبت وليس داخل ميناء جلوسستر لضاع ولا شك؛ حيث فقد العديد من السفن المصاحبة له التي تركها راسية هناك (٣٠).

تبدو القصة خيالية، إلا أنه يمكن تفسيرها على أنها رد فعل حدسى. فقد اتبع هارنيش البحر طيلة حياته. وهو يعرف العلامات والنذر. كما أنه يعرف فكرة أن الفرقى يصادقون الأحياء فى بعض الأحيان فى البحر ويؤمن بها. وحينما كان نائماً تغير حال البحر بصورة لا يدركها أحد. ربما غيرت الريح اتجاهها، أو تغيرت حركة السفينة، أو ازدادت نسبة الرطوبة. ولم يبرز شىء وحده بما يكفى لملاحظته فى حد ذاته، ولكن الأثر التراكمى جعل سيمور يحلم حلمًا كأنه الواقع لدرجة أنه حين استيقظ وجد نفسه على السطح. ولا تحتاج بقية الحكاية إلى شرح.

فى كل مجتمع، وعلى متن كل سفينة، عادة ما يكون هناك شخص يُعرف بأنه متنبئ بالطقس. ويخضع سائر الناس لرأيه فى كل الأمور الخاصة بالأرصاد الجوية. وفى الوقت ذاته هناك من الناس من يمكنهم إثارة عاصفة. ويعتقد أن الفنلنديين يتمتعون بهذه المقدرة، وتشاركهم فيها الساحرات اللاتى يثرن كذلك الرياح الشديدة ويغرقن السفن ويجعلن الحياة بصورة عامة بغيضة بالنسبة للبحارة. ولا يزال هذا الاعتقاد شائعاً فى القطاعات النائية من إسكوتلندا وأيرلندا والعالم الجديد. وفى الوقت الراهن نجد أن هؤلاء مستبعدات من جيرانهن، ولكن حتى القرن الثامن عشر كن يحاكمن فى المحاكم. وكانت هناك أساليب كثيرة تستخدمها الساحرات والمشعوذات، إلا أن أسلوباً منها يبدو أنه الأنجح والأشد رعباً استخدم فى إسكوتلندا، حيث أثار إحدى الساحرات عاصفة عن طريق ربط قطع لحم من إحدى الجثث على قط أسود وإلقائه فى البحر بينما كانت تتمم أثناء ذلك بالتعاويذ. ولحسن الحظ أن لدينا وصفاً لهذا الحدث محفوظاً فى سجلات المحاكمة التى تعود لذلك الوقت.

بينما كان جيمس الأول ملك إنجلترا (وهو جيمس السادس ملك إسكوتلندا) يعبر بحر الشمال، استجاب تجمع للساحرات فى ليث Leith تقوده ساحرة اسمها أجنس سامسون Agnes Sampson لخطاب يطلب منهن إثارة عاصفة "عامة فى أنحاء البحر". فقم

بتعميد قط في منزل عائلة ويستر. ... في البداية وضعت إحداهن إصبعاً في أحد جوانب خطاف الموقد ووضعت أخرى إصبعاً آخر في الجانب الآخر ، بحيث يلتقي وترا الإصبعين؛ ثم مررتا القط ثلاث مرات في حلقات الخطاف ومررتاه ثلاث مرات تحت الموقد. وبعد ذلك وفي منزل بيجيز تود Beige's Todd ربطتا في أقدام القط الأربع أربعة مفاصل أدمية؛ وبعد الانتهاء من ذلك أحضرتة جونيت كامبل Jonet Campbell إلى ليث؛ وفي منتصف الليل تقريباً جاءت هي واشتتان من عائلة لنكوب Linkops وزوجتان تسميان ستوبى Stobbies إلى رأس الرصيف وبعد أن قلن هذه الكلمات لقرى أنه لن يكون بيننا خداع؛ ثم قذفن بالقط إلى أبعد ما يمكنهن داخل البحر، حيث عاد سابحاً؛ وحين كن في بانز Pans ألقين قطاً آخر في الساعة الحادية عشرة. وبعد ذلك ونتيجة لشعورنهم وسحرهن هلكت السفينة بين ليث والمملكة^(٣١).

كان من الممكن في بعض الأحيان حث تلك الساحرات على فعل الخير بدلاً من الشر. وفيما يتعلق بذلك كان هناك اعتقاد شائع في إسكوتلندا بأن الأرمادا الأسبانية هُزمت من خلال جهود الساحرات على جزيرة مول، حيث أثرن العواصف التي أغرقت الكثير من سفن فيليب وأبعدتها وحطمتها على الشواطئ من النرويج إلى أسبانيا. وتحقق ذلك بالطريقة الآتية، طبقاً لما تقوله الحكاية التي مازال الناس يصدقونها حتى الآن:

في الأزمنة السابقة كان هناك الكثير من الساحرات في إسكوتلندا، ولكن الساحرات اللائى كن على جزيرة مول كن أشدهن بأساً. وكانت أعظم هؤلاء هي كيليتش بيو Cailleach Bheu في روس أوف مول Ross of Mull . وبعد أن عاشت آلاف السنين، ماتت على ضفاف بحيرة لوخ بو Loch Bu حين سمعت نباح كلب. ويبدو أنها لكي تظل حية كان عليها أن تغتسل كل مائة عام في البحيرة قبل أن سماع صوت أى كائن حى. وكانت تفعل ذلك إلى أن بلغت ذلك اليوم المشئوم الذى سمعت فيه الكلب.

كانت هي دويتيج موليتش Doiteag Mulleach التي كانت تقيم في بن مور Ben More قرب نهاية القرن السادس عشر ثانی أقوى ساحرة. وقد حلمت ابنة ملك أسبانيا بأمير وسيم في إسكوتلندا، وأبحرت إلى مول للعثور عليه وألقت بمراسيها في ميناء

توبرمورى Tobermory . وهناك شاهدة الرجل الذى رآته فى أحلامها، وهو لاخلان مور ماكلين Mor Maclean الذى كان من الضخامة بحيث كانت طول المسافة من أذنه حتى ذقنه عشر بوصات. وقعت الأميرة فى غرامه، ولكن زوجته لاخلان صارت تغير منها وذهبت إلى رجل اسمه بنيجاون Pennygown لتفجير السفينة. وفعل ذلك، وكان الانفجار من الضخامة بحيث قذف بالطاهى إلى صخرة عند سترونجارب Strongarbh لا تزال تعرف باسم كهف الطاهى Cook's Cave . سقطت الفتاة فى البحيرة ودفنت فى النهاية فى كيل Kile (على الجانب الآخر من الخليج).

حين بلغ الخبر أسبانيا، أرسلت سفينة أخرى لقطع الثدى الأيمن لكل امرأة فى مول. وحين سمعت ذلك الليدى ديوارت Lady of Duart (الليدى ماكلين) أرسلت إلى دويتيج موليتش التى دمرت السفينة بإرسالها القطط إليها. وكان القبطان نفسه على علم بالسحر الأسود واستطاع التصدى لثمانية من القطط التسعة، ولكن دويتيج أرسلت ثمانية عشر قطاً وغرقت السفينة.

دُمرت الأرمادا فى الوقت ذاته عن طريق دعوة كل الساحرات فى الجزر لمساعدتها. وقد وصلن وأمضين الليل كله فى رفع طاحونة إلى السقف وخفضها. ونتيجة لذلك هبت على الأرمادا بكاملها ريح عاتية مصحوبة بطيور النورس والغربان والقطط السود فى البحار الضيقة وأدت إلى تحطمها. وكانت الريح من الشدة بحيث اقتلعت منزل دويتيج، ولكنها كانت سعيدة لأن السفن غرقت (٣٢).

لم تكن هؤلاء الساحرات الثلاث بالطبع هن وحدهن القادرات على إثارة الضجة. فمن إسكوتلندا إلى نيو إنجلاند إلى جزر الهند الغربية، كانت الساحرات دائماً خصم البحارة الذى لا يمكنهم التغلب عليه. فقد كان معروفاً عنهم أنهم يوقفن السفن ويغيرن اتجاه الريح ويحدثن الدمار الشامل. وكان ذلك يجرى دائماً، كما رأينا، باستخدام القطط كخُدَام. وذكرت من قبل كيف شاع الاعتقاد بأن القطط تحمل النار فى ذيولها، ورأينا ما حدث للأرمادا. كما كان يُعتقد فى كثير من الأحيان أنه لكى تثير المشعوذات والساحرات عاصفة أو يغيرن اتجاه الريح كن يحققن غايتهن بإلحاق أذى بدنى كبير بالقطط والغربان وغيرها من الحيوانات. وكانت إحدى الحيل أخذ قط حى وإدخال

قضييب من الحديد فيه مع مراعاة عدم الإضرار بأى عضو حيوى. وبعد ذلك يوضع هذا المخلوق على الفحم ويقلب ببطء على النار إلى أن ينضج. وبينما كان ذلك يجرى، كانت الساحرة تستمر فى نطق التوجيهات التى تريدها أن تتبع. وأثناء ذلك كان القط المخوزق يزأر ويصرخ، وكان يُعتقد أن القطط الأخرى التى تسمع الجلبة سوف تأتى لترى ما المشكلة. وحين كانت ترى ما يحدث لرفيقها، كانت تطير لتفعل ما تأمر بها الساحرة وإلا حدث لها الشيء نفسه، وبذلك تبدأ العاصفة أو يتغير اتجاه الريح أو أيأ ما كان الطلب.

وفى الوقت الحالى توجد على جزيرة مول كنيسة خربة ملحق بها جبانة، بها مقبرتان وقد حفر تمثالان للمتوفى والمتوفاة على شاهد القبر. ويقال إن رجلاً اسمه ماكلين وزوجته كانا يعذبان القطط هناك وهبت عاصفة أطاحت بسقف الكنيسة. بل إنه فى كل مرة كان يوضع فيها سقف جديد كان يطاح به إلى أن هُجرت الكنيسة (٣٣).

وفى كثير من الأحيان كان يعتقد أنه لكى تتمكن الساحرات من تحقيق غاياتهن كن يحولن أنفسهن إلى حيوانات - أرانب أو حيتان أو طيور الغاق(*) أو قطط أو فئران أو غنم - ويؤدين عملهن وهن على تلك الصور (٣٤).

ومع أن المعتقد القالى - الذى كان شائعاً حتى وقت قريب - لا يمكن تسميته على وجه الدقة سحراً، فمن المؤكد أنه يشابهه. فعندما كانت إحدى السفن تبقى مدة أطول مما يجب فى البحر، أو كان لدى الجيران سبب خاص للاتصال بها، كانت إحدى الفتيات الصغيرات القويات تُنوم بحيث تصبح فى سبات عميق. وأثناء النوم كان يمكن لروحها أن تتجه إلى السفينة وتعود بالمعلومات المطلوبة. إلا أنه كان يعتقد أنها ممارسة خطيرة، لأنه إذا تغير اتجاه الريح قبل انتهاء هذا العمل سوف تصاب الفتاة بالجنون.

ما زال الإيمان بالسحر موجوداً فى إسكوتلندا حتى وقتنا هذا. وقد حكوا لى عن امرأة فى بلدة ساحلية يظنون أنها من القوة بحيث لا يمكن للصيادين الاقتراب منها

(*) طائر مائى ضخم نهم تحت منقاره جراب يضع فيه ما يصيده من أسماك (المترجم) .

خشية أن تؤذيهم وهم في البحر. إلا أن شيوعه قل إلى حد ما، وهو ما قد يعود إلى حد ما إلى تشتيت شملهم في القرن الماضي على يد أحد الخياطين. كان الخياط موجوداً على جزيرة ليويس Lewes (وهي ملاذ للمشعوذات والساحرات)، حيث اكتشف مجموعة منهن يطرن إلى البحر لصيد الأسماك، تاركات واحدة منهن على الشاطئ ممسكة بخيط أحمر لإعادتهن. واستطاع الخياط بالحيلة إقناعهن بأن يمسك هو الخيط كي يتمكن جميعاً من الصيد. كما أقنع زوجته بالذهاب معهن، وبعد أن أصبحن جميعاً في عرض البحر قطع الخيط، وبذلك خلّص العالم من ثمانية عشرة ساحرة وامرأة سليطة اللسان (٣٥).

وبينما كان الإيمان بالسحر يشيع كذلك في الولايات المتحدة باعتباره طريقة معقولة يمكن بها إيقاف السفن، وإرباك البحارة، وإثارة العواصف، وفي بعض الحالات مواجهة الريح الطيبة، فإن الأحداث الموثقة هنا لا تدانى الأشياء الغريبة التي كانت تؤدي في الخارج.

ففي نيوهامبشاير في القرن الثامن عشر كانت تقيم العمة باتي Aunt Patty التي سمعها جورج ليمان كيتريدج George Lyman Kittredge شفافة. فقد كان هناك ثلاثة "أولاد كبار" يضايقونها، واستشاطت هي غضباً وانتظرت حتى ركبوا قارباً لعبور نهر سكوامسكوت Squamskot. ملأت العمة سطلأ بالماء وأزاحت بعضه ثلاث مرات ثم قلبته وهي تقول "إلى هناك تذهبون أيها الكلاب". وقبل أن يتمكن الفتيان الثلاثة من بلوغ الجانب الآخر، هبت زويدة وغرقوا جميعاً. ليس من الأمان مضايقة ساحرة بحال من الأحوال" (٣٦).

هذا الإيمان بقدرة الساحرات على إثارة العواصف - وذلك القدر الكبير من ماثورات الطقس المصاحبة - له تفسير معقول إلى حد ما. فعلى مدى قرون كان يشيع الاعتقاد بأن العالم تحكمه قوتان، الرب والشیطان؛ ولا يزال العامة يؤمنون به إلى حد كبير، إلى جانب بعض "المتقدمين". كان معظم الخير يأمر به الرب ومعظم الشر يأمر به الشيطان، مع أن كلا منهما كان يتعدى لأسباب كثيرة على مجال الآخر. وأوضح هذا المعتقد شخص اسمه ريجينالد سكوت Reginald Scot حيث قال "... لا يأتي أي من

البرد أو الثلج أو البرق أو الرعد أو المطر أو الرياح العاصفة من السماء بأمر من الرب، بل يثيره المكر وقوة الساحرات والمشعوذات؛ إلى حد أنه بمجرد سماع هزيم الرعد أو هبوب الريح فإنهم إما يجرون لقرع الأجراس، أو يدعون إلى حرق الساحرات.

هذا المعتقد منطقي إلى حد ما. ويشير كيتريدج في كتابه "السحر في إنجلترا القديمة والحديثة" Witchcraft in Old and New England إلى مناسبات ضربت فيها الصواعق الكنيسة وأصببت بأضرار أو دُمرت. وفي بعض الأحيان كانت أعناق المؤمنين تُكوى أو يُحرق من يؤدون الصلاة. وكثيراً ما كانت السماء تظلم وكانت الريح تزمجر، وبعد الكارثة كانت تشم رائحة الكبريت والأوزون الغريبة في الجو. ومن سوى إبليس له تلك الرائحة ويمكنه تدمير بيت الرب؟

قبل أن ننهي كلامنا عن هؤلاء الناس، لابد أن أضيف معتقداً مثيراً للانتباه أكثر ما يسود في إسكوتلندا، ولكنه يمتد كذلك إلى أيرلندا. إنه "the first fitte". ويبدو أن هذه العبارة لها العديد من المعاني، ولكن طبقاً لما ذكره أحد الإخباريين فإن أول شخص يقابله البحار وهو في طريقه إلى السفينة قد يوهب في هذا الظرف القدرة على التنبؤ ويمكنه التكهّن بحالة الطقس. وكان هناك اعتقاد آخر هذا بأن الشخص نفسه يتنبأ بالطقس. وكان "الرجل سيئ الطالع" رجلاً أسود الشعر، وعندما يراه المرء يعرف أنه سيواجه مشكلة؛ بينما ينبيء الشخص الأشقر، إن كان هو أول من يراه المرء في الصباح، بالطقس الطيب. والتعريف الثالث هو أن المرء يعرف شكل العام بكامله من أول من يقابله في العام الجديد. فإذا كان الشخص أشقر، فهو عام طيب، أما إذا كان أسود فهو عام سيئ^(٢٨).

لم يكن الطقس قابلاً لأن يُتنبأ به وحسب، بل كان العامة يعتقدون أن من الممكن التحكم فيه وأن بالإمكان إثارة الريح وتهدة العاصفة وتقليل الأمواج بعدد من الطرق. وقد ذكرت في هذا الصدد شراء الريح بعملة معدنية، إلى جانب قدرات الفلنديين والساحرات. وكانت هناك طرق أخرى، تستحق واحدة منها أو اثنتان الذكر.

يحمل معظم البحارة سكاكين. وفي أيرلندا وإسكوتلندا السكاكين لها مقابض سوداء، وكان من المعتاد في الأزمنة القديمة أن تكون سكاكين ذات أغصان. وكان

تحتوى على الحديد البارد وتكون مع الواقعى شكل الصليب. وبما أن الناس كانت تظن أن الصليب والحديد البارد لهما سيطرة على العالم الآخر، فإننا نرى أنهم لم يكونوا يحتفظون بها من أجل شق بطون الأسماك وقطع الحبال وحسب، ولكن للسيطرة على العالم الآخر كذلك.

إذا سكنت الريح كانت هناك طريقتان من بين طرق كثيرة لإثارتها هما إما "حك الصارى والتصفير" أو "غرس السكين فى الصارى والتصفير". وكان هناك اعتقاد بأن للتصفير قدرة كبيرة لدرجة أنه كان ممنوعاً على متن السفن إلا فى أوقات سكون الريح. والحقيقة أن هناك قولاً فى نيوفاوندلاند عن التصفير، وهو "صفر لحراثيك وغن لسفيتك" (٣٩).

وحيث كانت الريح تشتد أكثر مما يجب أو يعلو الموج، كان الناس منذ زمن بعيد يظنون أنه من المفيد رسم علامة الصليب بسكين وتلاوة إحدى الصلوات وإلقاء السكين فى الماء. كان ذلك العمل يخفف الريح ويهدئ البحر. وإذا هاجم شخصاً إعصاراً أطلق النار عليه لإخافته وإبعاده، ولكن إن لم يكن معه مسدس فإنه يرميه بسكينه ذى المقبض الأسود.

وفى جزر الهند الغربية هناك طريقة أخرى لتشتيت العاصفة، أو على الأقل تغيير اتجاهها. فطبقاً لما ذكره القبطان بول ميتشل Paul Mitchell من هارفى فيل Havey Vale فى كارياكو، فإنك إذا تعرضت لريح عاتية، ينبغى عليك (إن كنت الربان) مواجهة الريح وخلع أسوأ جزء من ملابسك رائحة (وعادة ما يكون قميصاً "تحتانياً") وتحويله إلى كرة وتركه فى مهب الريح بينما تواجه العوامل الجوية. وحين تفعل ذلك تهدأ العاصفة. والفكرة التى وراء ذلك بالطبع هى أن العاصفة يحدثها عفريت نور روح جائعة يتعقب ضحيته بالرائحة. وحين يوضع القميص فى مهب الريح يشمه العفريت ويندفع وراءه، تاركاً البحار يكمل الرحلة فى سلام وهدوء.

ولابد من الإشارة إلى أن المتنبئ بالطقس نادراً ما يبنى تنبؤاته على علامة واحدة. فهو يلاحظ أن البحر قذر وملئ بالأعشاب، وهذه علامة على أن عاصفة ستهب، ثم يجد أن طيور النورس تطير ناحية البر، ويرى البط والإوز يزيئ نفسه (علامة على المطر).

وهو يرى غروب الشمس الأحمر والقمر المائى مع الشهاب الذى يطير أمامه، فيضع ذلك كله معاً ويستنتج أنه سيتعرض لعاصفة سيئة.

إذا كان الباروميتر متنبئاً بالتغيرات، فقد يكون من الممكن أن تلاحظه الطبيعة كما يلاحظه الإنسان. فإذا كان اليوم حاراً ورطباً وكان الكلب عطشاناً، فإنه قد يأكل العشب ليطفى ظمأه. وقد لاحظ المؤلف أنه كان من المستحيل تقريباً بالنسبة له أن يبقى مستيقظاً قبل إحدى العواصف الرعدية، وليس هناك سبب لاحتمال عدم تأثير الضغط الجوى والرطوبة على الحيوانات والنباتات. فكون الجدد يزقزق بمعدلات مختلفة فى درجات الحرارة المختلفة أمر معروف منذ زمن بعيد، حتى إن علماء الحشرات يثيرون دهشة طلابهم بعد الزقزقات، وتطبيق صيغة معينة، ثم يخبرونهم بدرجات الحرارة المثوية الخاصة باليوم.

يبقى أن نجرب بعض التقدير لهذه المادة، وجميعها تقريباً يبذل العلماء الجهد لإثبات عدم صحتها. والنقطة الأولى التى نوضحها هى أن العامة نادراً ما يتمسكون بأشياء لا "تصلح". وبالطبع قد تتضمن فكرة "الصالح" بالنسبة لهم الراحة الشخصية، بينما يرى الشخص المتقدم أنه لا بد أن تكون لها نتائج براجماتية. ومع ذلك فإنه إذا كان نذير الطقس لا يفلح نصف الوقت على الأقل، فالاحتمال الأكبر أن يتخلصوا منه.

وعلاوة على ذلك فإن كثيراً من تلك المعتقدات قديم. وهى ليست موجودة فى رسائل تعود إلى العصور الوسطى وما قبلها وحسب، بل إن العامة وجدوا أن الكثير منها فعال بما يكفى لتضمينه فى شعر يسهل عليهم حفظه؛ وقد تفيد الإشارة إلى أن العامة نادراً ما يفعلون شيئاً لمجرد التسلية. ويمكن القول بالطبع إن نظماً مثل "يا حلزونتى، يا حلزونتى، اخرجى قرتك" يعد بمثابة تعويذة إلى جانب كونه وسيلة للتذكر. ولكن هذا استثناء أكثر منه قاعدة.

وفى عصر يوجه العلم، جرى تعليم البحار شيئاً فشيئاً عدم الاهتمام بعلامات الطقس ثم نسيانها وتجاهل المتنبي المحلى بالطقس والاعتماد أكثر وأكثر على مادة الأرصاد الجوية التى يعدها له على مسافة بعيدة وتغطى منطقة جغرافية شاسعة عالم لا يبالى بنتائج اكتشافاته مادام صحيحاً نصف الوقت. وإذا أضاف إلى هذه المادة أى

شئ، فإن ذلك يكون عن طريق النظر إلى الباروميتر الذى يوضع على مسافات متباعدة . وإذا ثبتت صحة أى جزء من التنبؤ بحالة الطقس فى المنطقة قيد البحث، يعتبر خبير الأرصاد أنه قدم تنبؤاً جيداً. ومع أن الاضطرابات المحلية قد تعرض سفينة ما للخطر أو قلبها، فهى لا تحظى باهتمام كبير. وحتى إذا كان التنبؤ خاطئاً بالنسبة للمنطقة بكاملها، فذلك لا يهم كثيراً، ذلك أن التوقعات الصحيحة على المدى الطويل أكثر من الخطأ. غير أن عاصفة واحدة، وضباب واحد، وحتى زويدة واحدة كافية لأن تقضى على إحدى السفن وعلى كل طاقمها.

والواقع أن الأكثر أهمية، كما أوضح القبطان بوكانان، هو أن يصبح البحار معتمداً على الراديو. فإذا تعطل اللاسلكى، فهو فى كل الاحتمالات لا يمكنه إصلاحه ولا تصبح لديه أية معرفة يستند عليها. لقد فقد جهازاً فى أهمية البوصلة للحفاظ على حياته. وأنا أتحدث ببعض العاطفة عن هذا الموضوع، ذلك أننى أتذكر فى أكثر من مناسبة أنه لولا "المعرفة المحلية" فى مقابل "علم الأرصاد الجوية" لما كُتب هذا الفصل.

الفصل الخامس

الملاحة

شمال شمال شرقى وجنوب جنوب غربى
من جزيرة راوند هيل إلى كيب بونافيسيت
- وإذا كنا لا نزال نسير فى المسار الصحيح
فسوف نأخذك جنوباً إلى باكاليو.

Folklore and Language Archives, -

Memorial Univrsity of Newfoundland

(Collected by Marcus Hopkins)

تُعَرَّفُ الملاحة بأنها علم أو فن قيادة السفن من مكان لآخر. وهى، بشكل أكثر عمومية، قدرة الريان على إكمال الرحلة بنجاح والعودة بالسفينة وأفراد الطاقم والحمولة فى حالة سليمة بقدر الإمكان. وهذا الجانب الأوسع من الملاحة هو ما سوف أناقشه.

ويحتاج البحار إلى أدوات معينة كى يتمكن من تحديد موقعه بدقة فى عرض البحر. فلا بد أن تكون لديه بوصلة وخريطة، ووسائل لقياس المسافات، وجهاز لتحديد أعماق المياه، وجهاز لمعرفة موقع الأجرام السماوية، ووسيلة ما لتحديد الوقت. وأخيراً يكون من المفيد له معرفة المكان الذى يتجه إليه.

حتى زمن بعيد فى العصور الوسطى كان البحار محروماً من كل هذه الأشياء تقريباً، وحتى فى وقتنا هذا هناك أشياء كثيرة مرغوب فيها عند رسم الخرائط. ومع ذلك فقد قام البحارة القدامى برحلات غير عادية بدون أى من تلك الأدوات والأجهزة. إذ دار الفينيقيون

حول أفريقيا، ووصل بحارة من قرطاج القديمة إلى شواطئ الجزر البريطانية، حيث نقلوا القصدير لأهل البحر المتوسط. واخترق أهل الشمال البحر الأسود بسفنهم الطويلة، ومن المؤكد أنهم أبحروا غرباً حتى نيوفاوندلاند وخليج هدسون وربما وصلوا إلى أمريكا الوسطى، بينما يحتمل أن يكون سانت بريندان St. Brendan قد ذهب بقاريه المصنوع من جلد الحيوانات إلى جزر الأزور Azores وماديرا Madeira والكناري Canary وجزر الرأس الأخضر Cape Verde ثم عاد. وتحدث رجال الأمير هنري عن البحار المتجمدة في الجنوب.

ويصعب علينا إدراك المشاكل التي كانت تواجه هؤلاء الملاحين الأوائل. كيف كانوا يعدون لرحلة لا يعرف أحد كم تطول وتتجه إلى مكان غير معروف؟ كم من الماء وكم من الطعام تأخذ معك؟ وما نوع الطعام؟ وكيف تطهو الطعام؟ وأين تنام؟ وماذا يرتدى البحار من ملابس؟ وماذا تأخذ معك لإجراء الإصلاحات؟ ومتى تنتهي رحلتك؟ وكيف تعود إلى موطنك؟ كان شيئاً في صالح كولبس أن يسير أمام الرياح الموسمية لمسافة ثلاثة آلاف ميل، ولكن كيف كان يأمل في شق طريق العودة في مواجهتها؟

بل إن الأهم من ذلك هي بعض الأسئلة التي نادراً ما يطرحها أحد. فكيف كان الربان يسيطر على طاقمه ويمنع حدوث التمرد ويوقف المشاجرات الشخصية ويحافظ على النظام، أو على الأقل على مظهر السفينة السعيدة؟ وكذلك ما هي مشاعره الشخصية وهو يمضى متعثراً عبر محيط تكثُر فيه الوحوش والجزر الطافية والعفاريث، والخوف من أن يسقط من على حافة العالم في منتصف الليل أو تقضى عليه الشمس وهي تعود إلى بيتها الليلي في البحر؟ ما هو رد فعله تجاه رؤية اليابسة أو طائر غير معتاد أو عشب بحري غريب أو حطام سفينة يطفو على وجه الماء؟ نحن نعرف على سبيل المثال أن الأسبان كانوا يخشون جزيرة ماديرا لأن السحب كانت تغطيها، وأن الإنجليز كانوا يظنون أن بيرمودا أرض مسحورة وسيئة تسكنها الساحرات^(١). والنقطة الأخيرة، وإن لم تكن الأقل أهمية، هي أن البحار القديم كان يعيش في عصر تقيّم فيه الحياة تقييماً مختلفاً ولم تكن للوقت فيه أهمية كبيرة. فحين يخرج إلى البحر لم يكن ذلك موضع ملاحظة كبيرة جداً، ولو لم يعد فإنه من المشكوك فيه أن أحداً كان سيبحث عنه؛ وإذا بحث عنه أحد لكان ذلك بعد عامين.

لا يسع المرء سوى التعجب كذلك من كيفية ملاحاة السفن ليلاً في الأيام الخوالي. فلا فائدة كبيرة ترجى من البوصلة إن لم تكن قادراً على رؤيتها، وإذا اقتربت سفينة فجأة وبدون أى تحذير خلال ساعات الظلام باليابسة أو بحيد من الحيوذ كانت فرصتها من تحاشى الاصطدام قليلة. والحل هو أن تلك السفن لم تكن تسير ليلاً فى كثير من الأحيان إلى أن تمكنوا من صنع ضوء باستخدام قرن بقره وشمعة. وبدلاً من ذلك كانوا يطوون أشرعتها ويتركوا أنفسهم لتيار الماء حتى أول ضوء.

وفى الوقت الراهن تواجه أية سفينة تجارية أو ناقلة أو يخت حديث القليل من هذه المشاكل، ولكن هناك مناطق لا يزال موجوداً فيها بعض هذه المشاكل. ففي نيجيريا لا بد لابن البلد أن يتعلم "قراءة الماء وسماعه" قبل أن يعمل فى البحر. وفى جزر الكنارى قيل لى إن السفن تمر بانتظام بين تلك الجزر وأفريقيا - وهى مسافة تصل إلى مئات الأميال - بدون حتى البوصلة. وينطبق الشئ نفسه على جزر الهند الغربية، حيث تسير السفن الصغيرة مسافات كبيرة فى أى اتجاه دون الاستعانة بالبوصلة أو الخريطة أو السجل أو حتى فى بعض الأحيان المسبار الذى يقيس الأعماق معتمدة اعتماداً كبيراً على شكل البحر والسحب والرياح الموسمية والنجوم مرشداً لها طوال عدة أيام فى كل مرة.

ولكن ابن جزر الهند الغربية ليس هو البحار الوحيد الذى يتجاهل البوصلة والخريطة. فكثير من بحارة سفن الصيد والصنادل والسفن التجارية على طول السواحل الأمريكية والبريطانية يستخدمون البوصلة استخداماً نادراً ولا يستخدمون الخريطة بالمرة أو لديهم فكرة ضعيفة جداً عن الملاحة. وشرح لى القبطان بوب روبرتس Bob Roberts فكرة شائعة عن الخرائط ذات ليلة فى بين ميل Pin Mill بإنجلترا: "إذا نظرت إلى الخريطة فلن تنتظر إلى ما ينبغى عليك عمله. إنك لست بحاجة إلى خريطة إلا إذا كنت لا تعرف أين أنت. وإذا كنت لا تعرف أين أنت فلا داعى لأن تخرج إلى هناك."

الواقع أنه رغم اعتماد الملاح الحديث اعتماداً كبيراً على الخريطة، فإن المرء يتسائل عن ضرورتها حين يدرك أن الكابتن كوك كانت لديه اثنتى عشرة خريطة كى

يدور حول العالم على ناقلة فحم قديمة، ولم يكن مع مئات المستكشفين الذين سبقوه خرائط بالمرّة؛ أو كانت لديهم خرائط غير دقيقة إلى حد كبير، بحيث كانت خطراً وليس عوناً. وهناك ازدياء محدود يتضح بين "أخوية الشاطئ" على جانبي الأطلنطي بالنسبة للرجل الذي يستخدم خريطة، وتظهر قصص متشابهة بشأن استخدامها.

كان القبطان بات أورين Pat Ohrin معروفاً منذ سنوات باعتباره رياناً يتغلب على الصعاب وقاتلاً رهيباً للأسماك، ولا تزال قصص كثيرة تُروى عنه. فحين عاد ذات مرة بحمولة ضخمة من الأسماك من جراند بانكس سأله صحفي: "هل كانت رحلتك صعبة يا قبطان أورين؟" فرد عليه بقوله: "لا، لا، كانت رحلة رائعة، لم تكن هناك مشاكل. لقد فقدت قارباً صغيراً وبرتغاليين وحسب. لم تكن هناك مشاكل بالمرّة." وعلى أي الأحوال، فقد حقق القبطان من النجاح ما جعل مدينة جلوسستر تقيم عشاء تكريماً له وتهديه خريطة ذات مقاس رسم كبير لجورجيز بانك التي تعد واحدة من مناطق الصيد المفضلة لديه. وكان الريان ممتناً إلى حد كبير، ولكنه لف الخريطة وحشرها في مكان قريب في سقف قمرة حيث بقيت سنوات عديدة، حيث كان استخدامها الأساسي هو كونها بيتاً لعدد لا حصر له من الذباب. وبعد رحلة بالغة الصعوبة كان اتجاه الريح فيها غير ثابت والضباب كثيف، بدأ القبطان يشك في موقفه وتذكر أحد أفراد طاقمه الخريطة التكرمية. ذهب بات إلى أسفل وفردها. كانت الخريطة بكاملها مغطاة بفضلات الذباب. قال الرجل العجوز: "يا للعجب. لم أكن أعرف أن هناك هذا العدد الكبير من الصخور في جورجيز" (٢).

وتُروى قصة مشابهة عن خليج بنتلاند Pentland Firth في إسكوتلندا. فيقال إن أميرالاً بريطانياً أخذ على متن سفينته مرشداً محلياً ليمر به في جزء من المياه يعاني من المد والجزر وأصر على أن يستخدم المرشد إحدى الخرائط. ألقى المرشد نظرة على الخريطة ثم هز رأسه وقال: "يا للعجب. لو كنت أعرف أن هذا العدد الكبير من حطام السفن موجود هنا لما جئت قط" (٣).

بدون تحديد الوقت على وجه الدقة كان من المستحيل أن يكون هناك تحديد دقيق للمسافة أو خط الطول، أما دائرة العرض فكان من السهل إيجادها. ومن ثم كان خط

السير المعتاد لأية سفينة تعبر المحيط الأطلنطي هو الإبحار بمحاذاة الساحل حتى بلوغ دائرة العرض المطلوبة ثم الاتجاه إلى الشاطئ الآخر. وحين كانت الفرصة تسنح كان القبطان يلاحظ دائرة العرض التي يريدتها ويغير خط السير إما شمالاً أو جنوباً. وكان التعبير الشائع بين البحارة الذين يعبرون المحيط الأطلنطي في تلك الأيام هو: "سير بها جنوباً حتى يسيح الزيد ثم اتجه شرقاً" (٤).

وحين كان الملاح يدرك أنه يقترب من البر كان يتوقف ليلاً وإما أن يلقي بالمرساة أو يطوى الأشرعة. وفي كل يوم يسير الأعماق، مستخدماً في بعض الأحيان خيطاً يصل طوله إلى ألف فرسخ. وفي النهاية يعثر على القاع ويعرف أنه فوق الرصيف القارى. وبعد ذلك يبحر بحذر إلى الأمام إلى أن يبلغ حد المائة فرسخ، ومن ثم يسير فقط في ضوء النهار، بحيث يسير أمامه قارب يسير الأعماق في الوقت الذي يزداد فيه الماء ضحالة.

وبما أنه من الصعب قياس خيط طويل، فإن خيط سبر الأعماق يُعلم بطريقة تجعل قراءته ممكنة بالنهار وأثناء الليل. إذ تُربط بالخيط قطعة من الجلد ذات ذيلين عند علامة الفرسخين، وقطعة من الجلد لها ثلاثة ذيول عند الثلاثة فراسخ، وخرقة من التيل الأبيض عند الخمسة، وخرقة من الصوف الأحمر عند السبعة، وقطعة من الجلد بها ثقب عند العشرة، وقطعة حبل بها عقدتان عند العشرين. (٥) (في جزر الهند الغربية، حيث لا يزال خيط سبر الأعماق ضرورياً للملاحة، هناك تغيير في هذه الممارسة. فعند الفرسخ والنصف قطعة من القماش الأبيض، وعند الثلاثة فراسخ قطعة من الجلد لها ثلاثة ذيول، وعند الخمسة شريحة واحدة من الجلد، وعند العشرة قطعة من قماش أحمر.)

وما إن يصبح الربان فوق "الحافة" (حد المائة فرسخ) حتى يحرص على "تسليح" خيط سبر الأعماق، أي يضع شحم أو زيد في الثقب الموجود على الطرف. وبهذه الطريقة يمكنه جمع عينات من الأعماق - قطع من الأصداق أو الطين أو الرمل أو الأعشاب أو أي ما كان على القاع - ويمرور الوقت كان الملاح الماهر يتعلم قراءة القاع بدقة مذهلة، ليس فقط بالبصر، ولكن بالشم والنوق كذلك. وفي النهاية يصبح القاع معروفاً معرفة جيدة حتى إن الرجل لم يكن يعرف من العينات التي يأتى بها خيط سبر

الأعماق أنه شمال كيب كود Cape Cod أم جنوبه وحسب، بل كذلك أنه على بعد عشرة أميال شرقى ميناء بوسطن.

ويعصف القبطان لويس أوليفيير من بيكيا فى جزر الهند الغربية السير المعتاد بمحاذاة الساحل فى سفينة شراعية حديثة:

"حين نسبر الأعماق، لنفترض أننا أبحرنا من هنا على متن "إيرل تيت" Earl Tate عند حساب موقع السفينة والمسار من موستيك Mustique إلى باليسو Balliceaux . نحن عموماً نتجه جنوب شرقى إلى شرق من باليسو فى طريقنا إلى جيانا GUYANA بعد حساب موقع السفينة. وبعد ثمانية وأربعين ساعة نعبّر دائرة عرض توباغو Tobago . وعموماً نغير اتجاهنا إلى [هناك] ونسبر القاع لمعرفة عمق الماء الذى نحن فيه ثم يرون ما فى أسفل المسبار هل هو قواقع داكنة اللون، أم رمل وقواقع، أم رمل أسود، أم رمل وطين ثم يرجعون إلى الخريطة لمعرفة الموقع فى الخريطة ثم تحدد موقعك من هناك. والمسار، حدد المسار من ذلك بالعودة إلى البوصلة التى على الخريطة. وبعد ذلك تحدد موقعك من هناك. بعد ذلك غير مسارك من هناك إلى الفئار. وبعد ذلك تنجح فى حساب موقع السفينة. والآن إذا كنت غرب الفئار فإنك تجد دائماً طيناً ليناً، طيناً ليناً داكناً. أمام الفئار مباشرة تجد رملًا وقواقع، رمل داكن وقواقع ويكون العمق حوالى عشرة فراسخ، عشرة فراسخ. تدخل ويكون العمق خمسة فراسخ. وبعد أن تدخل فى خمسة فراسخ تكون على خط النهر مباشرة. إذا لم تكن ترى الفئار فى ذلك الوقت، فإنك ستظل تتبعه وكل نصف ساعة تراجع عمقك إلى أن يظهر الفئار. والفئار يبعد أربعين ميلاً من جورجيتاون Georgetown فى جيانا" (٦) .

نادراً ما يستخدم المسبار فى السفن الكبيرة الآن، إن كان هناك من يستخدمه، ولكنه شائع جداً بين السفن التجارية التى تسير بمحاذاة الساحل وسفن الصيد، وخاصة بين سفن الصيد التى تعرف من القاع نوع الأسماك المتوقع صيدها على وجه الدقة. بل إن هذه المهارة كانت وراء بعض الرهبة وكثير من المرح بين الأخوية البحرية. ونموذج ذلك سلسلة من الحكايات من خليج تشيسابيك يرددونها فى كل من كندا والجزر البريطانية. وتأخذ إحدى الحكايات الشكل التالى.

كان هناك رجل عجوز يعمل طوال حياته صائد محار في الخليج. وكان يقال إنه يمكنه تحديد مكانه على وجه الدقة في أى وقت، ليلاً أو نهاراً، وفي الضباب أو المطر أو الثلج، عن طريق تذوق (أو شم) المسبار. كان يأمر بإخراج المسبار في منتصف الليل ثم يتنوقه بعد أن يوضع على السفينة. "ميلان قبالة نهر كورن Corn River". "نتجه إلى تشوبتاك Choptank". "تقترب من جزيرة جيبسون Gibson Island". "وهكذا، وفي يوم كثيف الضباب قرر الطاقم أن يهزأ به. وعلى غفلة منه أخذوا بعض فضلات الدجاج من قفص دجاج بعثت به مسز ميرفى Mrs. Murphy من جزيرة سميث Smith's Island إلى السوق ولصقوها في الشحم. وبعد فترة أمر القبطان بسبر العمق ثم طلب المسبار. في البداية نظر إليه، ثم شمه وأخيراً تنوقه. فرح فرحاً شديداً وصاح قائلاً: "أبحروا في اتجاه الريح يا أولاد، أبحروا في اتجاه الريح! هناك شيء رهيب! فنحن طبقاً للمسبار وسط حظيرة دجاج مسز ميرفى في جزيرة سميث!" (٧).

كان معظم قباطنة السفن التجارية التي تسير بمحاذاة الساحل وسفن الصيد ملاحى أنفسهم. وكانت رحلاتهم قصيرة وحاجتهم إلى التصويب قليلة. ونتيجة لذلك كانت تقديراتهم لمواقعهم تقريبية جداً في العادة، وكان التصويب غير معتاد وتشتيت لانتباه الطاقم. وتُروى حكاية من لونبرج Luneburg في نونفا سكوشا في كل من الولايات المتحدة والعالم القديم، مع التعديلات اللازمة كي تتلاءم مع المنطقة، كما يلي:

ظل ريان سفينة في قديم الزمان في مصايد جراند بانكس مدة تزيد على الشهر، وطوال ذلك الوقت كله كان الضباب كثيفاً والريح تهب من كل اتجاه. وعندما حان وقت العودة، كان الرجل العجوز في شك كبير فيما يتعلق بموقعه، وهو ما جعل طاقمه يشعر بشيء من القلق. ولكي يهدئ الريان الأمور أخرج السُّدُسِيَّة ونظر فيها بحركة درامية إلى حد كبير حين ظهرت الشمس أخيراً على استحياء من وراء الضباب. راقب أفراد الطاقم الموقف برهبة وتحلقوا حول الفتحة التي في سطح المؤخرة ينتظرون النتيجة في قلق. وبعد حوالى الساعتين ظهر الريان من جديد وقال لطاقمه بتجهم: "انتبهوا جيداً. فنحن طبقاً لحساباتي على بعد ١٢٠ ميلاً داخل الغابات" (٨).

الشخص الآخر الذى كثيراً ما يكون مادة للحكايات المضحكة رجل يسمى المرشد. وعادة ما يكون هذا الشخص قد اكتسب دراية معينة بمنطقة صغيرة من الساحل، وتطلب معظم السفن الكبيرة التى تدخل أحد الموانئ فى تلك المنطقة وجوده. وهذا المنصب - أو بالأحرى كان - يحظى برعاية شديدة، وكانت وظيفة المرشد تورث من الآباء للأبناء.

وكانت الوسيلة المستخدمة لاستئجار أحد المرشدين كما يلى. فقد كانت السفينة تظهر فى عرض البحر وترفع علماً رمزياً عليه الحرف P (*) وكانت سفينة صغيرة على متنها مرشد، وهى عادة ذات صاريين، تقف على استعداد انتظاراً لمثل هذا الاحتمال، وكانت تدنو من تلك السفينة وتنزل قارباً صغيراً وتنقل المرشد الذى يرقى سلماً من الحبال يسمونه "القرء" أو "سلم يعقوب" ويصعد على سطح السفينة. وكانت الطريقة البديلة هى إرسال إشارة إلى محطة مراقبة على البر وكان يؤتى بالمرشد على قارب يسير فوق الأمواج المتلاطمة.

وما إن يصعد المرشد على سطح السفينة حتى تكون له السيطرة الكاملة عليها. ولكن المثير للانتباه إلى حد كبير أنه إذا جعل السفينة تجنح فإن القبطان وليس المرشد هو الذى يتحمل عبء المسؤولية. ولكن الأسوأ الذى يمكن أن يحدث للمرشد هو أن تصبح هذه سبة فى جبينه.

وعادة ما كان المرشد يحصل على أجره إما حسب وزن السفينة أو طولها، وكان العمل فى الموانئ المزبحة مربحاً إلى أقصى حد.

وطبقاً لما يقوله ماريون برونجتون Marion Brewington فإن أول مرشد فى أمريكا كان رجلاً يسمى كلارك Clark وكانت له صلة بمستعمرة جيمستاون Jamestown فى فيرجينيا. وفى يوم من الأيام ظهرت سفينة أسبانية فى خليج تشيسابيك وأمرها المستعمرون بالمغادرة وإلا أطلقوا النار عليها. ورد القبطان الأسباني بأنه لا يمكنه الذهاب بدون مرشد، لأنه تخبط وهو يدخل الخليج ويخشى أن تتحطم السفينة

(*) الحرف الأول من كلمة مرشد بالإنجليزية pilot (المترجم) .

فى المخاضات. وُضع المرشد كلارك على السفينة على وعد بأن يعيدوه بمجرد خروج السفينة من الخليج، ولكن ما إن ابتعد الأسبان عن الخطر حتى أسرعوا عائدين إلى أسبانيا، حيث جرى استجواب المرشد استجواباً دقيقاً على مدى السنوات القليلة التالية. وبعد أن حصلوا على ما لديه من معلومات أطلقوا سراحه وعاد إلى إنجلترا حيث استفسر عن سفينة متجهة إلى أمريكا الشمالية، وكانت السفينة التى وجدها تسمى مايفلور Mayflower، حيث وقع عقداً للعمل عليها وكيلاً للقبطان. وحظيت الخدمات التى قدمها للمهاجرين Pilgrims (*) بتقدير كبير مما جعلهم يهبونه جزيرة فى خليج بلايموث قبالة دكسبرى Duxbury تحمل اسمه حتى يومنا هذا. إلا أن كلارك فضل فيرجينيا وعاد إليها واستمر يعمل فى مهنته (٩).

وربما لاحظنا أن معظم الملاحه تعتمد على الإرشاد وليس على الملاحه بمراقبة الأجرام السماوية. وهذا أمر متوقع، حيث إنه حتى فى وقتنا هذا نجد أن عدد السفن التى تعمل على امتداد الشواطئ أو على الأكثر لبضعة أميال داخل البحر أكبر بكثير من تلك التى تعبر المحيط الأطلنطى. بل إن الرجل الذى يبحر مستعيناً بالشمس والنجوم لابد أن تكون لديه بعض المعرفة بحساب المثلثات والرياضة العامة، يفوق ما قد نتوقع وجوده لدى عدد من العامة.

ومع أن الملاح الذى يسير بمحاذاة الشاطئ لا يستخدم الخرائط فى العادة، فإن لديه عدداً من الأدوات المثيرة والمفيدة التى تساعد. وقد تحدثنا من قبل عن زجاجة الطقس فى فصل سابق. ويكفى نموذجان لإعطاء فكرة عن بعض الأساليب الشائعة. فبدلاً من استخدام مسطرة الخطوط المتوازية لتحديد مسارهم عن طريق "تمشية" المسطرة إلى ميناء البوصلة، كان صيادو الأسماك البحريين فى نيو إنجلاند يقطعون يد الكنسة أو المسحة بالمنشار. وبعد ذلك يضعون قطعة الخشب المستديرة على الخريطة ويوجهونها على نقطتين ويدحرجونها حتى ميناء البوصلة. ولكى يحدد البحار الإنجليزى والأمريكى السرعة بدقة أكبر (عادة ما يحكم البحارة خلال عقدة واحدة سرعة السفينة عن طريق الأثر الذى تتركه خلفها والصوت الذى تحدثه) كانا يلجئان إلى قطعة

(*) الانفصاليون الإنجليز الذين أسسوا مستعمرة بلايموث فى نيو إنجلاند عام ١٦٢٠ (المترجم).

الخشب الهولندية". فكان أحد الرجال يلقي رقيقة أو قطعة صغيرة من الخشب من على مقدمة السفينة بينما يقوم رجل عند المؤخرة إما بحساب الوقت بالساعة أو العد حتى عبورها المؤخرة. فعلى سبيل المثال إذا أخذت الرقيقة عشر ثوان كي تعبر سفينة طولها مائة قدم، فإنه من السهل تحديد عدد العقد التي تقطعها السفينة.

وبالطبع فإن القدرة على تحديد سرعة السفينة تعتمد على بعض المعرفة بالوقت. ولم تكن الساعات والبحر على وفاق قط، وقد طال البحث عن طريقة لقراءة دقيقة بالفعل للوقت - بحيث تكفى لتحديد طول المسافة - زمناً طويلاً. وكانت هناك طريقة بدائية تقوم على استعمال الساعة الرملية، التي يقلبها شخص في كل مرة يفرغ فيها الرمل من أحد جزئيهما؛ إن تذكر. إلا أن البحار غير المتعلم كانت لديه قدرة عجيبة على تحديد الوقت والعديد من الطرق المثيرة لاستخراجه حسابياً.

وفي توياجو قال لي إخباري إنه يمكن تحديد الوقت بالنجوم في البحر. وقال إن في البلاد أربعة نجوم تظهر بعد منتصف الليل. وبناء على المسافة التي يرغب في قطعها بعيداً عن الشاطئ، كان يبحر عند "ظهور النجم الأول"، أو الثاني، وهكذا.

أثناء الصيد بسفن صيد الحيتان في بيكيا، لاحظت أن صيادي الحيتان كانوا يصلون إلى السفينة كل صباح في الساعة ٦، ١٥، وكانوا يعودون لبيوتهم كل مساء فيما بين الساعة ٢، ١٥ و ٢، ٢٠ دون أن يكون بينهم من يحمل ساعة. وحين كانوا "يجدون حوتاً" وكان الحوت يصدر صوتاً، كانوا يعرفون أنه يجب أن يصعد على وجه الماء خلال ثمانية عشرة ثانية. ومن حين لآخر كان شخص يقول "إنه سيظهر الآن" أو "حان وقت قفزه من الماء". وإن لم "يأت" كانت تلك غلطة الحوت. كان الوقت يحسب بالثواني دون أن تكون هناك ساعة.

ولكى يعرف البحار المسافات القصيرة من الوقت كانت لديه حيلة الصغيرة الذكية. فعلى سبيل المثال كان مهماً أن تكون التحية البحرية بفارق خمس ثوان بين الطلقة والطلقة. وكان ضابط المدفعية يقطع سطح السفينة جيئة وذهاباً وهو يقول "لو لم أكن مدفعياً، لما كنت هنا! رقم واحد، اضرب!" وكانت الحيلة البدائية الأخرى لعد الثواني هي "تمساح، تمساحان" وهكذا (١٠).

فى مرات كثيرة كانت سفن الصيد ترغب فى البقاء فى المصايد طوال الليل فوق بقعة يكون الصيد فيها جيداً. وإذا لم يكن باستطاعتها إلقاء مراسيها، كانت تسير جيئةً وذهاباً ببطء بين الاتجاهات. وفى بعض الأحيان عندما لم يكن بإمكانهم رؤية الشاطئ وكان الضباب كثيفاً وليس لديهم بوصلة، كانوا يربطون قطعة من الخشب فى المؤخرة ويلقونها فى الماء كى يتأكدوا من أنهم يسيرون فى خط مستقيم، وكثيراً ما كانوا يخترعون طرقاً ذكية لتقدير طول الزمن. وفى لبرادور كان لدى أحد الصيادين تسريب بطنى فى سفينته، فوضع علبة من الصفيح تحته. وفى كل مرة تمتلئ فيها العلبة كان يغير مسار السفينة (١١).

وقبل ظهور الرادار، كانت السفينة التى تبحر فى مياه تكثر فيها العوائق تلجأ فى كثير من الأحيان إلى صافرتها فى الضباب والثلج. وكان ذلك صحيحاً إلى حد ما فى المناطق التى فيها صخور. وكان يقال إن الملاح الجيد فى مضيق باجيت Puget Sound يمكنه أن يحدد مكانه بدقة فى الضباب الكثيف عن طريق إطلاق صافرته وانتظار صدى الصوت. وكان الوقت الذى يمر بين الصوت والصدى يخبره بمقدار بعده عن الشاطئ، وكانت نبرة الصدى تخبره أى صخرة يمر من عندها.

بل إنه حتى فى وقتنا هذا يعتمد البحار فى المناطق النائية من العالم الأنجلو سكسونى إلى حد كبير على المعرفة المحلية لتحديد طريقه. ففي أيرلندا يقوم نهيق الحمار مقام بوق الضباب بالنسبة لصياد السمك الأيرلندى. كما أن حالة المد والجزر والبحر تخبر البحار المتمرس فى منطقة معينة أين هو على وجه الدقة. فهو يعرف أن طيوراً بعينها تحط على صخور نون غيرها ويحرص على ملاحظة سيرها. وفى المناطق المدارية يراقب البحار السحب، وعن طريق قراءته لتشكيلاتها يمكنه أن يحدد بدقة مواقع الجزر تبعاً لشكل السحب. ويستخدم الملاح الشعبى كذلك أنفه وكثيراً ما "يشم" الأرض.

وهناك وسيلة مساعدة أخرى للملاح، خاصة فى المناطق المدارية، وهى لون الماء. ففي جزر الهند الغربية يمكن للبحار الماهر أن يحدد خلال وقت محدود جداً عمق الماء من خلال لونها. فمن حيث المبدأ، كلما ازداد الماء زرقة كان عمقه أكثر، وكلما ازداد اخضراراً كان أكثر ضحالة. أما البقع البنية أو السوداء، التى لا تزال معروفة لدى العامة باسم "رءوس الزنوج" niggersheads، فتشير إلى وجود بقع ضحلة من الشعاب

المرجانية. وعادة ما يكون ذلك مرجاناً حياً، والسفينة التى تبحر فى مياه غير مستقيمة يحاول قبطانها البقاء فى المناطق البيضاء أو الرملية، لعلمه أنه إذا جنح سيكون مقدار الخطر المعرض له أقل من ذلك الناتج عن اصطدامه بالشعاب المرجانية.

رغم كل معرفة الملاح الشعبى المحلية وما لديه من أساليب ووسائل لتحديد موقعه، فهو ليس على قدر كبير من الدقة ومن المحتمل أن يتعرض لمشاكل كبيرة فى الرحلات الطويلة. ومن بين ما يحدث عادة فى الرحلات الطويلة بمحاذاة الشاطئ حكاية إحدى حملات التهريب المتجهة إلى سانت بارتس St. Barts (سانت بارثلميو St. Barthole- news فى جزر الهند الغربية). أبحر مركب شراعى وحيد الصارى طوله خمسة وعشر قدماً بلا محرك ولا خريطة ولا بوصلة من جزيرة كاريماكو ليرسو فى نهاية الأمر فى سانت بارتس، حيث أخذ حمولة من هناك. ولكى لا يمسك به حرس السواحل فى المارتينيك أو جوادالوب Guadeloupe، ابتعد الرجال عند عودتهم عن الشاطئ ووقع بصرهم فى النهاية على إحدى الجزر التى اعتقدوا أنها سانت لوشا St. Lucia وغيروا مسارهم كي يرسو عليها. ولسوء الحظ أنها لم تكن سانت لوشا، بل كان ما رأوه، كما قال الربان، هو جرينادا. ولذلك وصلوا شاطئ أمريكا الجنوبية بعد خمس ساعات.

وبناء على النظرية التى تقول إنه لا ينبغي لأحد أن يثبط همم الحالم، لم أقل شيئاً للشخص الذى روى لى الحكاية، ولكن المسافة تزيد على المائة ميل من جرينادا إلى أمريكا الجنوبية. ولا يمكن لمركب تهريب بهذا الحجم أن يقطع تلك المسافة فى خمس ساعات. ولم يخلط القبطان بين جرينادا وسانت لوشا، بل تصور خطأ أن توباجو هى جرينادا - التى ظن أنها سانت لوشا. ولا تبعد توباجو سوى ثلاثين ميلاً عن أمريكا الجنوبية ويمكن قطع المسافة فى خمس ساعات. وعلى أى الأحوال، فإن المعرفة والإرشاد المحليين أخطأنا الميناء بحوالى مائتى ميل!

لم يعد الإرشاد على امتداد الساحل بهذا القدر من الصعوبة، بفضل الوسائل الحديثة المساعدة للملاحة وآلة الاحتراق الداخلى الخالدة. فالسفن تسير بسرعة أكبر، ومن ثم لا يؤثر عليها المد والجزر ولا التيارات ذلك التأثير الشديد. ولم يعودوا مضطرين إلى دفع السفينة إلى الجهة التى تهب منها الرياح. كما أنهم لا يبقون السفن فى مكانها

انتظاراً لهبوب الريح. وفي أمريكا الشمالية عادة ما يعرف صيادو الأسماك المحليين المسار من شمندورة إلى أخرى والسرعة التي تسير بها سفينتهم عند عدد معين من دورات المحرك. فهم يديرون ساعتهم ويوقفون المحرك ويستمعون وحسب. وعادة ما يسمعون أو يرون الشمندورة ويمضون إلى المسار التالي. وفي بعض الأحيان تضيق منهم ويضطرون للتجول لبعض الوقت قبل أن يلحقوها.

ويرتبط فن تسيير السفن ارتباطاً وثيقاً بالملاحة، والربان الجيد هو الذي يحرص على أن يكون لديه طاقم متمرس. وكان على البحار قوى البنية أن يعرف كيف "يطوى" الأشرعة ويفردها ويمسك الدفة، وكانت كل الوسائل تستخدم لتسريع تعلمه. وكان الشيء الفعال بصورة خاصة هو ذلك النظام الذي وضع ليتلاءم مع المناسبة. وكانت إذا اقتربت سفينتان من بعضهما في الظلام، كان ماسك الدفة يعرف من الأضواء التي تقترب إذا كان خطر حدوث تصادم أم لا من أبيات تبدأ كما يلي:

من أحمر لأحمر أو من أخضر لأخضر

ليس هناك من خطر يُرى

من أحمر لأخضر ومن أخضر لأحمر

هناك سفينة أمامك مباشرة.

وفي الطقس الصعب حيث يكون الأمر هو "استدر قليلاً"، يتذكر مدير الدفة كيف يمسك بقياد السفينة من خلال "أرخ لها حين تترجح وشد عليها حين تترنح"، ولكي يواسي نفسه بشأن الحركة، كان لديه أبيات تقول:

ترجحي، ترجحي، لعن الرب روحك

فكلما ترجحت قل ترنحك

أو ترنحي، ترنحي، يا ابنة العاهرة

فكلما ترنحت قل ترجحك.

ولتعليم المستجد ما هي أجزاء السفينة المختلفة، كانت هناك قصيدة صغيرة تضع
أجزاء السفينة المختلفة حسب ترتيب الحروف الهجائية: "A is for anchor as you very"
... well know. B is the bobstay that goes down below (١٢).

ولتطبيق اختلاف البوصلة، فإنه بدلاً من أن يتعلم المستجد "جمع الفرق الغربى
على المسار الحقيقى وطرح الغربى"، كان يتعلم أن "الشرق أقل والغرب أفضل".

وكان بعض ذلك الشعر يخدم كلاً من المستجد والمحترف، لأن القباطنة - وخاصة
قباطنة السفن التجارية التى تسير بمحاذاة الساحل - يستخدمونه فى كل من أمريكا
والعالم القديم لتذكر كيفية دخول الموانئ المختلفة، وما يمكن أن يتوقعوه هناك، وكيفية
تحديد مسارهم من نقطة المغادرة إلى غيرها. وقد قيل لى إن الريابنة القدامى مثل
ستاترين هول Stutterin' Hall كانت لديهم أشعار للتذكرة تحدد المسارات والمسافات
ومعظم الشمندورات والفنارات من نيويورك حتى مين. ومن سوء الحظ أنه أثناء جمع
فولكلور السفن الكبيرة لم يلتفت أحد إلى تلك القصائد، واليوم يصعب كثيراً العثور على
أحد يتذكر أكثر من شذرة منها. وذكر القبطان بوكان أن هناك قصيدة تضم أسماء كل
الفنارات والشمندورات الرئيسية من لاندز إند حتى خليج موراي. ولكن كشأن كثيرين
غيره، لم يتذكر سوى بضع أبيات:

فى البداية ندجيون ثم تليها سبيرن

وبعد ذلك تاتى فلامبورو هيد عند المنحنى

وتلق سكاريبورو كاسل عالية

وتقع ويتبى روكس فى الشمال

وتقع سنرلاند عن منحنى الشاطئ

وكينى أولد شيلنز [اسم حانة] قبل ظلام الليل.

وبفضل تسجيل إيوان ماكول Ewan MacColl، حفظنا اثنتين أخريين من تلك
القصائد من رواية صيادى لوستوفت Lovestoft. وتقول قصيدة من الجنوب:

بينما كنت متطفاً في حبل الشراع الأخير
رأيت ثلاثة أخواء وغيت بصوت عال.
"غرب ثلاث نقط شمالاً وانطلقت أجنيس
السفن الطويلة تتدفع شمالاً غربياً إلى شمال
أستطيع أن أرى منارات ليزارد
أنتظر رغبتك كي أنهى العمل."

تتعامل القصيدة الثانية التي نوردها هنا، شائها شأن الكثير من الحكايات
والمعتقدات الخاصة بالعمل في البحر، مع الساحل البالغ طوله حوالي خمسين ميلاً
شمال لوستوفت وجنوبها. وكأب عدد من تلك القصائد، تتجه هذه القصيدة من الجنوب
إلى الشمال. وبدلاً من الاتجاهات، تشير القصيدة إلى ما يميز الموانئ المختلفة:

باكفيلد للفقر

لوستوفت للفقراء

جورليستون للفيد الحسان

يارموث للعاهرات

كيستر لكلاب البحر

كاليفورنيا للشجاعة

ثم نعود إلى ويتترتون القديمة

كم هي شديدة السواد (١٣).

وتستخدم هذه الأنواع نفسها من القصائد في نيوفاوندلاند، حيث لا تزال جزءاً
شديد الأهمية من الملاحة:

حين تكون فى محاذاة لسان جو بيت
تكون صخرة ديف فى الغرب تماماً
ولابد أن تكون غرباً إلى شمال غربى
حتى يظهر رأس بريمستون.
الخليج أضيق، ليس كثير الاتساع
أعمق مياه على الجانب الأيمن من السفينة
وحين تدخل الميناء
يكون العمق أربعة فراسخ ^(١٤).

والقصيدة الأخيرة أعقد من سابقتها، وقد جمعها ماركوس هوبكينز Marcus Hopkins من نيوفاوندلاند:

الشعر فوق رأسك وليس على أرواحكم
هناك خشب على اللسان ولا شيء على القطبين ^(١٥).

بالإضافة إلى تلك القصائد، كانت هناك وسائل أخرى يستخدمونها لتدريب الشخص المستجد وتقديمه إلى زمالة البحر. وقد ذكرنا من قبل ما كان يضطر لتحمله كثيراً من مقالب وسخرية؛ حيث يرسلونه إلى أسفل السفينة لتلميع "البرشامة الذهبية"، وإلى عش الغراب كى يجمع منه البيض، ويطلب من السُّدسية تلاوة الصلاة، وغيرها وغيرها. إلا أنه كنت هناك كذلك بعض المراسم الخشنة فى مناسبات خاصة للترحيب به فى صفوف المخضرمين. ومن أبرز هذه المراسم تلك المتصلة بـ"عبور الخط" أو خط الاستواء، وعلى خط طول ١٨٠. وكان الأول يجعل الشخص أحد أبناء نبتون بينما يجعله الثانى عضواً فى جماعة التتين الذهبى.

وقد كُتب الكثير عن تلك الاحتفالات، وخاصة الخاص منها بعبور خط الاستواء، وبعض الأسئلة التى أثارت والنتائج التى استخلصت مثيرة إثارة المراسم.

واندهش أحد المؤلفين حين اكتشف أنه ليست هناك روايات عن الأب نبتون قبل القرن السادس عشر، وهو يشير إلى أن أى شخص كان يعرف أنه على خط الاستواء فقط حين يلاحظ أن الشمس فوق رأسه مباشرة^(١٦). ويشعر مؤلف آخر أن كل المراسم التي من هذا النوع كانت بوحى من النقابات الألمانية.

الحقيقة هي أن أحدا لم يكن يحتفل بعبور خط الاستواء أو الخط الدولى لتغيير تاريخ اليوم فى التقويم^(*) قبل اكتشاف الأجهزة الملاحية المتطورة لهما، ذلك أنه لا وجود لخط فى البحر عن خط الطول ١٨٠، كما أن الشمس لا تطلع "فوق الرأس" عند خط الاستواء إلا فى يومين من السنة. ومع ذلك فما تلك المراسم إلا امتداد لطقوس أقدم وأكثر وحشية كانت تؤدى على امتداد الساحل. ونحن نعلم منذ أيام عوليس أنه كان يلقي بين الحين والآخر بعض أفراد طاقمه من على السفينة إرضاء لوحوش الأعماق، وإذا قرأنا الأوديسا قراءة صحيحة لوجدنا أن تلك الوحوش تعيش فى أماكن تحدد الحدود بين الكتل المائية.

ومن المحتمل أن نواجه قبالة كل رأس كبير أو لسان أو جرف عال عند مدخل أى كتلة مائية كبحر البلطيق أو البحر المتوسط أو البحر الأسود تيارات مد وجزر قوية ومياه مضطربة. وكان العقل غير المتطور، الذى لا يعرف شيئاً عن تيارات المد والجزر وتيارات المحيط وغيرها، يرى أن هذه المياه المضطربة نتيجة لعمل وحوش تحت الماء. ولكى يرضيها، كان لابد من أداء نوع ما من الطقوس يتراوح بين الأضاحى البشرية والصلاة. وكان العبور الناجح يؤدى إلى النشاط الاحتفالى. وبمرور الوقت وحين ظن الإنسان أنه أكثر علماً، أخذت رهبة الوحش مكانها ليحل محلها الرعب من المد والجزر، وهجر الإنسان تقديم الأضاحى. ومع ذلك ففى أماكن كثيرة من العالم لا تزال نكرى الأمس باقية. فالسفن المتجهة إلى الشمال من رأس أربناموركان Ardnamurchan Point فى إسكوتلندا قد تضع باقة من زهور الخلنج عند رأس الجؤجؤ، وتلك المتجهة إلى الشرق من بيتى مانان Petit Manan فى مين قد تثبت قطعة من خشب شجر

(*) خط وهمى يقطع المحيط الهادى عند خط طول ١٨٠ تقريباً حيث يكون التاريخ إلى الشرق منه متقدماً بيوم عن التاريخ إلى الغرب منه (المترجم).

البيسية في المقدمة، ويعطى المسافرون الذين يسافرون بالطائرة فوق الساحل الأوروبى شهادة بأنهم عبروا رأس روكا Point Roca وهى أبعد جزء من كتلة القارة الأوروبية ناحية الغرب. وعموماً، هناك بالفعل العشرات من تلك المناطق التى كان الناس يقربون فيها الأضاحى فيما مضى، ثم قدموا "خبز القريان" واليوم لا يزالون يحيون ذكرى المرور بنوع ما من التضحية (١٧).

وتعد مراسم عبور خط الاستواء الأشهر بين المراسم كافة، وهى أكثرها توثيقاً، وأشدّها صرامة، وأعقدها، وأكثرها شعبية. وحتى فى يومنا هذا نادراً ما تجد بحاراً لا يشعر برغبة شديدة فى أن يكون "ابن نبتون" أو بحاراً مخضرمًا عابراً لخط الاستواء shellback، وليس هناك مستجد أو "شرغوف" (*) يقترب من خط ماسون - ديكسون (** Mason-Dixon Line) دون أن تكون لديه مشاعر مختلطة تجاهه. وبينما تقترب السفينة أكثر وأكثر من الخط تزداد الإثارة؛ من ناحية انتظاراً للحدث، ومن ناحية أخرى لأنه ليس هناك من هو معفى من طقوس الانتقال. وهذه لحظة يمكن فيها لأفراد الطاقم أن ينتقموا من الضباط الذين لم تُجر لهم طقوس الانتقال بعد، لقاء ما لحقهم من أذى فعلى ومتخيل على أيديهم.

تعود أقدم رواية معروفة عن طقس البلوغ البحرى هذا إلى عام ١٥٢٩، وتعود التى تليها إلى عام ١٥٥٧ (١٨). وفى ذلك الوقت كان يشار إليه بما يدل على أنه كان موجوداً منذ عدد كبير من السنين. وكان ذلك الطقس القديم دينياً فى البداية؛ فقد كانت الصلوات تلى، وكان السمك يؤكل، وكانت العملات الفضية تلقى فى البحر (١٩). إلا أنه قبل انتهاء القرن اكتسبت المراسم معظم صفاتها الحالية. وأول كل شيء هناك زيارة شخص متنكر تنكراً بدائياً فى صورة الأب نبتون الذى يطلب عُشراً من الفضة من كل من لم يجر له طقس الانتقال. وفى حال عدم توفر "القريان" - كما يسمى ذلك غالباً -

(*) فرخ الضفدع (المترجم).

(**) خط بين ولايتى بنسلفانيا وميريلاند يعتبر حداً فاصلاً بين ولايات الأحرار ولايات العبيد قبل الحرب الأهلية. ووضع الخط المساحان البريطانىان تشارلز ماسون وجيرمياى ديكسون فيما بين ١٧٦٣ و ١٧٦٧ (المترجم).

فإن الشخص المستجد تُخلق رأسه ويبلل بالماء إما بغمسه في البحر بذراع الوثقل
[عارضة الصاري] ، أو غمره في برميل من ماء البحر، أو إلقاء الماء عليه بالدلاء
والعلب. وهذا كله يكون مصحوباً بوليمة.

حوالى الساعة السادسة مساءً اكتشف شراع فى اتجاه الريح على الجانب الأيسر
من مقدمة السفينة. وبعد ذلك بوقت قصير رأى الرجل الذى على صاري الشراع الأعلى
الأمامى أنها تغير اتجاهها. بدا أن هناك شيئاً غامضاً فى مظهر ذلك الشراع والمسار
الذى تتخذه. ... نظر إليها القبطان بنظارة؛ كانت قد نشرت أشرعتها السفلى والعليا
وشراع مقدم السفينة ورفعت الراية العريضة [علم يرفعه الأدميرال] على رأس
الصاري. ... وفجأة أفرغنى زئير محارة ضخم من أسفل مقدمة السفينة. ... كانت
الساعة الثامنة وحياتنا صوت أطلسى قرصانى خشن وسالنا من نحن؛ رد القبطان
وقد خلع قبعته ... [و] بعد أن نطق باسمنا وبعض المسائل الخاصة بسجل
السفينة، طلب من جلالتك الصعود على ظهر السفينة. رد نبتون بأنه لا يمكنه ترك
عريته تلك الليلة ولكنه سوف يزورنا فى الصباح التالى. ... وانطلق صوت المحارة
من جديد، فقد اندفع الإله فى عربة رفعها البحار من أعلى مقدمة السفينة....

فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى دخل الملك من إحدى الفتحات المزينة.
كان جالساً على ... عربة مدفع تجرها أربعة وحوش بحرية. وكانت تقف بجواره ملكة
البحر وطفلهما الوحيد... بين نراعيها. وكان الملك متوجاً بزهور الماء الأطلسية ويمسك
بيده رمحاً ثلاثى الشعب. ... كان يتقدمه ستة من رجال البحر ... وجاء عطارده بعصاه
المجنحة وتحت إبطه لفافة. وكان دب أبيض ... يقوم مقام الحارس الخصوصى. وانتهى
المركب بفرقة أخرى من رجال البحر. خلعتنا جميعنا قبعاتنا، ومرت أشياء تتم عن الاحترام
بين نبتون والقبطان ... و ... وأراد من كل أبنائه الذين لم يدخلوا عداد مملكته ...
من قبل أن يستمعوا إلى حاجبه العام وأن يعملوا بناء على ما يسمعونته. ... قرأ عطارده
الخطبة .. وحثنا على الإعجاب بإلهات البحر .. وأنهاها بتكرار تلك الأقوال الثلاثة التى
لا تقدر بثمن التى سوف تحصل الرجل ساناً فى أنحاء العالم: ١- لا تضع أى
شيء فى اتجاه الريح سوى الماء الحار والرماد. ٢- لا تشرب قدح بيرة صغير
حين يمكنك أن تصبح قوياً. ٣- لا تقبل الخامسة ما دام يمكنك تقبيل سيده البيت.

انتهى الموكب ولكن اثنين من غلمان الماء جاءا و...قالا "أنت مطلوب." أرادا أن يعصبا عيني... حين سرت إلى مقدمة السفينة... غُسلت بعشر دلاء من الماء، من المنصة الرئيسية في أعلى الصاري والعارضة... وصعدت سلمًا كان في أعلاه الطبيب يقف على جانب والحلاق على الجانب الآخر. جس الطبيب نبضى... وأعطاني رشّة مألحة من زجاجة ماء كولونيا ودفعتني برفق داخل كيس عميق نصف ممتلئ بالماء. حاولت الخروج ثلاث مرات وثلاث مرات... رفعتني الشراع إلى أعلى أما اللب... الذى كان يتدحرج عند القاع فأمسكنى... وحضنتنى وداعبنى براحتيه السوداءوين. وفي النهاية أبعثته عنى بضربة ساحقة فى الهواء... ونزلت وأوقعت الخادم وجريت خلال شلال من الماء إلى قمرتى.

وبعد ذلك بدأ هذا الهروب بكل الأشكال وفى ظل كل تعديل ممكن. ... إنها مسرحية مائية لطيفة (٢٠).

وما يلى ملخص لصعود سفينة أثناء الحرب العالمية الثانية:

حين تقترب السفينة من خط الاستواء يتطلعون إلى الأمام بحثًا عن سفينة نبتون. وأخيرًا يرونها وتتجه السفينة صوبها (وفى حال السفينة البخارية توقف المحركات). ينزل سلم من الحبال أو سقالة ويُستدعى أفراد الفرقة الموسيقية. ويصعد نبتون (وهو فى أغلب الأحيان عريف الملاحين، وإن كان بعض الأشخاص المحترمين الآخرين الذين "عبروا الخط" قد يقومون بهذه الوظيفة) مزينًا بقطع من الخيط المغزول والقار، إلى سطح السفينة مع ابنه وحاجبه حيث يحيون القبطان. وهم يسألون عن وجهة السفينة وإذا كان هناك أى "شرغوف" على متنها. وبعد ذلك يصطف كل المستجدون التعساء ويسيرون أمام نبتون، حيث يُسألون ثم ينتقلون إلى الحلاق الذى يدهنهم بفرشاة طلاء يغمسها فى دلو به مادة قطرانية ويحلق رءوسهم بموس غير حاد (وأحيانًا منشار). وبعد ذلك يجعلونهم يجرون بين صفين من البحارة المخضرمين الذين يصبون عليهم ماء البحر ويضربونهم بمجداف وهم يمرون. وتقدم معاملة مشابهة للركاب. وبعد انتهاء طقس الانتقال بالنسبة للجميع، ينصرف نبتون وتتحرك السفينة وقد أقسم كل البحارة أن يفعلوا فى الآخرين، حين تحين المناسبة، ما فعلَ فيهم.

وفى وقت من الأوقات كانت المراسم التى تكاد تتطابق مع هذه يؤبىها فى كيب هورن، ورأس الرجاء الصالح، صيانو الحيتان المتجهين إلى القارة القطبية الجنوبية والبحارة الذين يدخلون بحر البلطيق (٢١) .

وإذا كانت مراسم الوقت الراهن تمثل مزاحاً خشناً، فهى لا تزال كافية لتخفيف التوترات وتوفير متنفساً للإحباطات التى تتراكم على امتداد الرحلة. والجانب غير العادى فى المراسم هو افتقارها للتنوع على مر السنين. فبالإضافة إلى حقيقتين - أولاهما أن الشخص لا يمكنه ابتياع الانتقال بالفضة، والثانية أن الجوانب الأكثر عنفاً فى المراسم قلّت - ليس هناك اختلاف واضح بين الطقوس الآن ومنذ قرن مضى.

منذ سنوات، حين كان زمن الرحلة أطول، كانت هناك مراسم أكثر، بعضها دينى والبعض الآخر مجرد مزاح خشن، ولكن بعد أن صار زمن الرحلة أقصر والرجال أكثر تقدماً وأصبحت وسائل الترفيه، وخاصة على السفن الكبيرة، أكثر غنى، نُسى معظم المراسم، باستثناء مراسم الحصان الميت، التى مازالوا يذكرونها بالاسم على الأقل فى البحرية الأمريكية.

وتحتل الخيل، لسبب أو لآخر، مكاناً بارزاً فى عقول البحارة منذ زمن طويل. فعلى امتداد سواحل الجزر البريطانية وأيرلندا وأمريكا الشمالية نجد "الحصان الأبيض" White Horse و"الحصان" Horse و"الحصان الأسود" Black Horse و"جزر المهر" Colt Islands وكذلك الكثير من الألسن أو الرؤوس التى ترتبط بهذه الكلمة. بل إن عدداً من الأشياء على متن السفينة تحمل أسماء من بينها "الحصان" أو تتصل بالخيل: إطار يرتكز عليه ذراع التطويل، و"براميل السرج" harness casks، وهى براميل يحفظ فيها تموين الأسبوع من اللحم، وقد أخذت اسمها من أنها كانت تؤمن ضد الكسر فى مقدمة السفينة باستخدام حذوة الحصان. وكان اللَّيْب (*)، الذى يسمى فى بعض الأحيان "ضارب الدلافين" dolphin striker، يشير إلى سلسلة تمتد من نهاية العمود

(*) تعنى هذه الكلمة فى الأصل السير الذى يُشد من حزام الفرس ماراً بين ساقىها الأماميتين إلى لجامها (المترجم) .

الذى فى مقدم السفينة إلى الجؤجؤ. وكان حصان الملح هو الاسم الذى يعطى دائماً
لذلك اللحم الرديء الذى يأكله البحار، وكانت "قطع الحصان" تشير إلى قطع اللحم
والدهن التى تؤخذ من الحوت وتترك لتتحلل داخل أحد البراميل. بل إن هناك قطعة من
الشعر الهزلى، الذى يسمى أحياناً ابتهاال البحار أو صلاة البحار، تقول:

أيها الحصان العجوز، أيها الحصان العجوز، ماذا تفعل هنا؟

لقد حملت حقائبى سنوات كثيرة

إنهم يملأونك من أجل البحارة

إنهم يحملون فيك بدمشة حزينة

إنهم يدحرجونك ويفقتوا عينيك

إنهم ياكلون لحمك ويمصصون عظامك

ويرسلونك ما تبقى إلى ديفى جونز [قاع البحر] (٢٢).

كان هناك تقليد فى السفن الشراعية القديمة يمكن للبحارة بمقتضاه الحصول
على أجورهم مقدماً، بمقدار راتب شهر عادة. وأثناء الحرب العالمية الثانية كان لا يزال
ذلك يحدث فى البحرية الأمريكية، وكان الرجل الذى يحصل على ذلك المال "يسحب
حصاناً ميتاً". وحين كان يرده كان "يرد حصاناً ميتاً".

وكانت هناك مراسم لإحياء ذلك الحدث على متن السفينة بعد شهر فى عرض
البحر. فكان يصنع ما يشبه الحصان من "إفطار الحمار" (القش) والقماش، وكان يُجر
على سطح السفينة بينما البحارة يركلونه ويضربونه. وبعد أن تتاح للجميع فرصة
الإساءة إلى الدمية، كانوا يلقيون بها فى البحر، مما يرمز إلى تحرر البحار من الدين
وبطريقة غريبة إلى تحرره من الأرض (٢٣).

وكان الطقس الآخر هو "سحب الساعة" حيث كان البحارة كافة يُجمعون فى
مؤخرة السفينة عند بداية الرحلة، ويلقى فيهم وكيل القبطان كلمة ثم يختار الرجال

الذين سيولاهم مسئولية الرحلة. وكان هناك طقس آخر يجرى حين كان البحارة يُجمعون ويسلمون سكاكينهم (التي تعد جزءاً من البحر كذراع أو ساقه) إلى الحداد الذي يكسر أطرافها لجعلها أقل فاعلية في حال حدوث تمرد أو "تمرد شجاع" فردي.

وهناك كذلك طقس غيره يتصل بالعقوبة يُعرف باسم "صارى القبطان"، لأنه كان يتم عادة عند قاعدة الصارى الرئيسى. وكان ذلك يحدث عادة يوم السبت، لأن يوم الأحد - رغم القصيدة التى سيأتى ذكرها فيما بعد - لم يكن يوماً يفعل فيه البحارة ما هو أكثر من اللازم كي يجعلوا السفينة مستمرة فى سيرها. ولذلك كانت لدى الجناة فرصة الاستراحة لمدة يوم من عقوبتهم.

كان أفراد الطاقم يُجمعون ويؤتى بالجانى إلى المقدمة، وكانت التهمة تُعلن والعقوبة تُنفذ. وبالنسبة للجرائم الكبرى كالتمرد، كان الجانى يُشنق على طرف عارضة الشراع أو يُجر أسفل عارضة السفينة الرئيسة. وفى الحالة الثانية كان يُربط حبل حول يديه وقدميه ويمرر أحد طرفيه تحت السفينة. وبعد ذلك يسحب الجانى إلى أسفل السفينة وإلى أعلى من الناحية الأخرى. وإذا لم يفرق، فإن الضربات التى يتلقاها من الأصداغ الملتصقة بالجزء المغمور من السفينة وقطع النحاس التى على القاع عادة ما تكون مميتة، ولكن لو لم يحدث ذلك فإن الجانى عادة ما يفكر بطريقة أفضل بشأن أساليبه فى الحياة. وبالنسبة للجرائم الأقل كانوا يربطونه فى حبال الصواري، أو يربطونه على أحد المدافع متفرج الزراعين والساقين، أو يُجلد ما يصل عدده إلى مائة جلدة على ظهره العارى، وهو ما ينفذه عريف الملاحين عند المعبر. أو قد يُصَفَّد بالأغلال ويُحبس فى الحبس - وهو جحر مظلم كرية الرائحة - لعدة أيام، حيث يعطى راتباً من "البول والوقيد" (الماء والخيز). وكان ذلك كله يجرى أمام أفراد طاقم السفينة كافة، وكان له أثر قوى رادع على كل العاملين^(٢٤).

ومع أن الجرائم كانت تتكون من أشياء كثيرة، فقد كانت الجرائم الرئيسة هى التمرد والاعتداء على أحد الضباط، والنوم أثناء نوبة المراقبة، والسرقعة - وخاصة سرقة الطعام - ورفض إطاعة الأوامر، والتمارض، والقمار، والعصيان الصامت. وإذا كانت العقوبات تبدو شديدة، فلا بد أن نتذكر أن تلك الأوقات كانت مختلفة وكان الموقف غريباً

تماماً عن الحياة الحديثة. وبينما كان أفراد الطاقم يُحبسون في محابس رطبة مغلقة وياكلون طعاماً سيئاً ويشربون ماء أسوأ، كان ضباط السفينة يجلسون على برميل بارود، وما لم يُحَسَّنْ أفراد الطاقم باستمرار فإنّه قد ينفجر، وهو ما كان يحدث كثيراً. وكان الرجل الذى يتمتع بحظ طيب فى لعب الورق قد ينتهى به الحال ميتاً، والرجل الذى ينام فى نوبة المراقبة قد يهوى بكل العاملين على السفينة إلى قاع البحر، وكان السماح بأى اعتراض على السلطة يفتح صندوق الشرور. وعلى عكس ما يعتقده من يعملون على البر، ليس هناك وقت بين الأمر وتنفيذه بما يسمح بالتفسير أو الجدل. ولم يكن الضابط الجيد يميل إلى الإفصاح عن الأسباب التى وراء أمر يصدره لئلا تتحطم هالة الغموض شديد الأهمية بالنسبة للطاعة. ويتولى قبطان السفينة القيادة بخيط رقيق يربطه بالسما. والحفاظ عليه، لابد أن تكون روحه وأرواح ضباطه أرواحاً منعزلة.

كان بعض القباطنة يسيئون استغلال مناصبهم إلى حد كبير بطبيعة الحال. وهناك سجلات خاصة بقباطنة البحر الذين جوعوا أفراد طواقمهم وجلبوهم بصورة لا يصدقها أحد. وفى أحد الأمثلة على ذلك ضرب قبطان رجلاً حتى الموت لعدم تناوله لقمتين من اللحم، وفى مثال آخر لم يستدر أحد الربابنة حين سقط أحد أفراد الطاقم من على السفينة، فى حين أمضى أسبوعاً يبحث عن مرساة ضائعة. إلا أنه رغم الحماس الذى امتدحت به تلك الأمثلة، فإن قبطان البحر العادى كان ولا يزال رجلاً معتدلاً فى كل شىء.

ويرى أهل البر أن أعظم خطر يمكن أن تتعرض له سفينة من السفن هو العاصفة التى تهب فى عرض البحر. وهذا ليس صحيحاً. فمع وجود متسع يمكن للبحار أن يحدد اختياره، إذ يمكنه أن يتوقف عن السير، أو يطوى كل أشرعته، أو يجرى أمام الريح بصوار عارية، حسبما يفضله وطبقاً لقدرات سفينته، وعادة ما تنجو السفينة. قد تفقد أشرعتها، وربما تبذل قصارى جهدها وتبدأ فى الفرق، ولكن فرص بقائها طافية تظل جيدة حتى وإن كان ذلك يعنى الاستمرار فى نزع المياه حتى تهدأ العاصفة على الأقل. وأكثر ما يخشاه البحار هو الأرض، وخاصة الساحل الذى تهب الريح تجاهه. فالسفن التى فقدت بسبب جنوحها أكثر من تلك التى غرقت فى عرض البحر، ذلك أن

فرصة السفينة الجانحة في النجاة ضئيلة. وفي الطقس الهادئ يمكنها التخلص من حمولتها، وربما تلقى مرساتها. ولكن هذا كله يأخذ وقتاً وسوف يدخل الماء السفينة في الغالب قبل إمكان تخفيف حمولتها أو رفعها. وفي الجو شديد الاضطراب قد لا تتمكن حتى من القيام بتلك الأشياء.

ورغم قول البحار العجوز "حين تكون في شك من أمرك، ابق في الخارج"، فإن الميناء يجتذب السفن دائماً في حال الضباب الوشيك، أو اقتراب الليل، أو عند سقوط الثلج، أو هبوب الرياح الشديدة. فالريان الذي مل البحر يشعر برغبة شديدة في أن يستريح ليلة واحدة، وفي كثير من الأحيان يراهن على أنه يمكنه ذلك، وفي كل مرة يخسر الرهان.

بالنسبة للسفينة التي تجنح عند ساحل تهب منه الرياح يكون الموقف يائساً. فلا بد أن ينشر الربان ما يكفي من الأشرعة كي ينجح في مقاومته للبحر. وحين تشتد الرياح فإما أن أشرعته لا تتحمل الضغط أو يكون من اللازم تقليلها إلى القدر الذي لا يدفع بالسفينة إلى داخل البحر. إن سفينته، التي باتت خارج الماء أكثر منها داخله، لا تمنحه القوة الكافية للسير قُدماً. وريداً رويداً، وموجة وراء موجة، يُدفع أكثر وأكثر للوراء إلى الموت والدمار. ولا يكون أمامه سوى ثلاثة خيارات: فإما أن يلقي المرساة، ونادراً ما تمسك المراسي في مثل هذه الظروف؛ أو يثبت على أمل أن الرياح سوف تهدأ، ولا يبدو أنها ستهدأ إلى أن تدفع به إلى الشاطئ؛ أو يتخذ موقف المقاتل ويتجه صوب الشاطئ، أملاً في أن يصل إلى أرض مرتفعة بالقدر الذي يمكن البحارة من القفز إلى مكان مأمون. ولكن حتى هذا نادراً ما ينجح، وعادة ما تندفع السفينة وتقلب ويسقط كل البحارة من عليها.

ويمكن للسفينة حين تكون في عرض البحر أن تتخلص من حمولتها، أو تقطع الصواري، أو تستخدم الزيت، أو تفعل عدداً من الأشياء الأخرى التي إن لم تنقذها فسوف تبقىها طافية حتى تهدأ العاصفة ويمكن لأفراد الطاقم النزول من عليها. أما السفينة التي تجنح بالقرب من الشاطئ فلا تسمح بمثل هذا التأجيل. فخلال دقائق معدودات أو بضع ساعات سوف تتمزق إرباً ويموت البحارة.

وحين يتعرف المرء على تلك الأخطار يبدأ في فهم أنه ربما كان أعظم عون للملاحة هو اختراع الفئار بضوئه وما يصاحبه من مدفع وبوق وصفارة إنذار وجرس. فعند الدخول قبالة المناطق الضحلة، يحذر الضوء البحار على بعد أميال في عرض البحر من الحيوذ الواقعة أمامه، ويساعده في تحديد موقعه على الخريطة ويرشده إلى ميناء ما، أو يسمح له بأداء عمله بسهولة ويسر حين لا يزال أمامه متسع. ولم تكن تلك الأضواء موجودة من زمن بعيد في البحر المتوسط، ذلك أن فئار الإسكندرية يعد أحد عجائب الدنيا السبع. وقد ظهرت بعد ذلك في سائر أوروبا، وأول فئار في أمريكا كان إما قبالة بوسطن على لسان يسمى "ذا جريفز" the Graves، أو قبالة نيويورك على شبه جزيرة تعرف باسم "بيفر تيل" Beavertail، حسب الدليل السياحي الذي تقرأه. وبغض النظر عن موعد وكيفية البداية، فإنه يبدو أن عصر الفئارات العظيم هو القرن التاسع عشر. فقبل ذلك كانت قليلة، وخلال هذا القرن حيث عدد السفن التي في البحار أكثر مما كانت عليه في أي وقت من التاريخ إذا حسبنا اليخوت، كان هناك اتجاه إلى إزالتها أو هجرها أو استبدالها بمناورات ثابتة تعمل آلياً.

لا يحتاج الفئار حالياً إلى من يوقده، ولذلك فلا ضرورة لوجود حارس. ولكن الفئار بلا حارس هو نصف فئار. فقد كان الحارس يفعل ما لا يفعله الفئار. إذا كان يرى السفن التي في خطر ويبلغ عنها، بل وفي بعض الأحيان ينقذها. ولكن الاحتفاظ بطاقم في فئار أو منارة عائمة في عرض البحر يكلف كثيراً، وقد بات التخلص منها صحيحاً من الناحية السياسية. فلا شك في أن الآلاف القليلة من الدولارات التي وفرت سوف تزيد المليارات التي تتفق على رحلات الفضاء كثيراً.

إن حكاية الفئارات يمكن أن تملأ مجلداً، حيث تبدأ بمشاكل بنائها، والكفاح من أجل الحفاظ على الأضواء والمخاطر التي تتطوى على العناية بها. وكنت قد ذكرت في موضع ما كيف أن الباحثين عن السفن الفارقة يطفئون الضوء، إلا أنني أود هنا أن أذكر حكايتين أو ثلاث حكايات تبين الجوانب الأخرى من الفئارات.

سمعنا كلنا تقريباً عن جريس دارلنج Grace Darling ابنة حارس الفئار على جزر فارن Farne Islands، وكيف كانت ترعى الضوء حين يمرض أبوها، وكيف أنقذت هي

وأبوها معاً تسع رجال من حطام السفينة "فورفارشاير" Forfarshire كان من المحتمل أن يفرقوا لو لم يكن أحد يرعى الفئار. ومن ناحية أخرى، ما لم يكن الناس يعرفون تاريخ علم نادى اليخوت، لما سمع أحد فى وقتنا هذا عن إيدا ليويس Ida Lewis، "جريس دارلنج الأمريكية" التى صنعت اسماً لنفسها أكثر من عشر مرات.

كانت إيدا ليويس، طبقاً لما استطعت اكتشافه، حارسة الفئار الوحيدة فى الولايات المتحدة. وقد تولت ذلك العمل بطريقة طبيعية جداً، حيث كان والدها يحرس الفئار قبلها. كان فئاراً بانساً صغيراً على روك لايم Rock Lime داخل ميناء نيويورك، حيث لا يبدو أن شيئاً مأساوياً قد وقع فى يوم من الأيام. ومع ذلك ظلت تلك الشابة تحرسه، ولكى تصل إلى الشاطئ كان لديها قارب جر ثقيل نو ألواح متراكبة يقف عن الشاطئ، من ذلك النوع الذى يستعمله الصياد قوى البنية. وفى حياتها خلّصت من قبضة نبتون ما لا يقل عن ثمانية عشر شخصاً، حيث سارت بقاربها مسافة أربعة أميال تقريباً لتصل إلى بعضهم، فى ظروف أقرب إلى العاصفة. وقد تلقت على جهودها خطاب تهنئة من رئيس الولايات المتحدة، وكانت أول امرأة تتلقى وسام الشجاعة. وبعد ذلك بقليل اضطرت للتقاعد، وهو ما يقول السكان المحليون إنه أدى إلى وفاتها. والنصب التذكارى الخاص بها حالياً هو نادى يخوت إيدا ليويس، الذى يحمل علمه فئاراً على أرضية حمراء عليها ثمانية عشر نجماً.

وترتبط قصة ذات طبيعة مختلفة بفئار آخر إلى الشرق منه. ومع أن فئار مينوت Minot's Light ليس رائع المنظر كما هو حال الفئارات، إلا أنه واحد من الفئارات الأكثر تصويراً فى الولايات المتحدة، ذلك أنه عند هبوب الريح يرتفع الرذاذ فوقها لمسافة ثمانين قدماً فوق سطح البحر. (ينبغى على من يظنون أن هذا رائع أن يتذكروا أن البحر أظفأ ضوء فئار قبل أن يهجر ودفع بحارسه من على الدرج ودفع صخرة وزنها ثلاثة أطنان من على قمة الفئار الموجود على جزيرة كاف قبالة أيرلندا. وكان ارتفاع ذلك الفئار ١٧٥ قدماً فوق سطح البحر)^(٢٥).

طبقاً لما تقوله إحدى الحكايات، كان هناك عدد كبير من الحطام حول كوهاسيت وماساتشوستس لسفن كانت تبحث عن بوسطن فى الطقس العاصف، وبذل جهد بدأ

بداية ناجحة لبناء فنار هناك. وفي يوم من الأيام وصلت سفينة تتخبط في طريقها إلى بوسطن وسط الضباب إلى منطقة ضحلة وألقت مرساتها. ولأن القبطان لم يكن يعرف أين هو فقد أخذ قارباً واتجه به إلى الشاطئ ليكتشف الأمر تاركاً السفينة تحت مسئولية وكيل القبطان. وحين ذهب غيرت الريح اتجاهها إلى الشرق وهبت عاصفة، فتحركت السفينة وارتطمت بوحدة من الصخور وتحطمت. وتناثر على الشاطئ من كوهاسيت إلى بروفينستاون حطام السفينة وجثث المهاجرين الأيرلنديين. وظل الناس يلتقطون تلك الجثث لعدة أيام، وقد عثر على الكثير منها عن طريق مراقبة الطيور وهي تتغذى عليها.

ومع أنه لا يوجد في العالم فنار يمكنه بأي شكل من الأشكال منع تحطم السفن، فقد قررت الحكومة بناء فنار نتيجة لذلك. وكان البناء من المعدن على هيئة قفص طيور يعلو فوق الماء. وظل هذا البناء قائماً هناك سنوات كثيرة، ولكنه بدأ في النهاية يعاني من آثار ضربات البحر المتواصلة. وشعر الحراس والسكان المحليون بأنه غير آمن وطالبوا بإصلاحه، ولكن الحكومة لم تبد أى اهتمام. ولكي يقوى الحراس البناء، ربطوا القفص بصخرة ضخمة أسفل الفنار لتكون بمثابة مرساة. وكان ذلك إجراء ممتازاً، ذلك أنه رفع عنهم اللوم فيما سيبع ذلك من أحداث.

وفي يوم من الأيام ذهب كبير الحراس إلى البر تاركاً مسئولية الفنار لاثنتين من مساعديه. وبينما كان على البر هبت الريح ولم يتمكن من العودة. ازدادت الريح قوة إلى أن صارت واحدة من أسوأ العواصف التي يتذكرها. وشيئاً فشيئاً بدأ الفنار يميل وظلت العاصفة تزداد قوة. وكان الناس على البر يرون شعاع الضوء يتجه رويداً رويداً ناحية السماء حيث يزداد ذلك أكثر وأكثر. وأخيراً وبعد منتصف الليل جاء قرع جرس الفنار الضخم الرهيب خافتاً عبر هدير البحر. توقف الصوت، وانطفأ الضوء، وبدأت العاصفة تهدأ. وفي الصباح نظر الناس عبر مساحة من البحر ليس فيها أى شيء.

وقبل الحادث أقسم أحد الحراس أنه إذا انطفأ الضوء في يوم من الأيام فسوف يسبح إلى الشاطئ. وقد عثر على جثة رجل، ولكنها لم تكن جثة مساعد الحارس.

وتوجد داخل ميناء جوهاسيت جزيرة صغيرة تبعد بضع ياردات عن الشاطئ. وبعد عدة أيام من الكارثة حدث أن صعد صياد أسماك على تلك الجزيرة. وهناك وجد جثة مساعد حارس الفئار مستقرة داخل شق فوق خط المد وعلى بعد ياردات وحسب من الملجأ، حيث مات نتيجة للتعرض لعوامل الطبيعة. ويبدو أنه نجح فى الوصول إلى الجزيرة، ثم زحف خارجاً من الماء ثم استسلم للموت (٣٦).

فى بعض الأحيان قد تتسبب الفئارات فى حدوث أخطار بدلاً من أن تقدم العون. ذلك أنه إذا حدث شىء للفئار فإن السفينة المتجهة صوبه قد تقع فى مشكلة خطيرة قبل أن تدركها. ومن الأشياء المعتادة التى يمكن أن تحدث تلك القصة حول جزيرة بيكر الواقعة قبالة سالم بولاية ماساتشوستس.

كانت سفينة من سالم فى طريق العودة من الصين وعليها حمولة كبيرة فى شهر ديسمبر فى بداية القرن التاسع عشر بعد رحلة استغرقت عامين. وفى يوم من الأيام اكتشف القبطان أن حساباته تشير إلى أنهم قريبون من سالم بالقدر الكافى لدخول الميناء ليلة عيد الميلاد، إن هو أسرع السير. كان قضاء عيد الميلاد فى الوطن أمراً مغرياً، فأخذ من سرعة السفينة. وكان اليوم السابق لعشية عيد الميلاد يوماً عبوساً وعند الظهر أخذ الثلج ينهمر. قلت الرؤية وتضاعفت المراقبة. وعندما حل المساء هبت عاصفة وأخذت السفينة تسرع خطى العودة. كان كل ما يريونه هو العثور على فئار جزيرة بيكر، وساعتها يمكنهم "العودة وتجفيف أنفسهم".

بعد حلول الظلام بوقت ليس طويلاً رأوا الفئار وتغير المسار ليكون أمام السفينة مجال للمناورة عند دخول الميناء. كانت السفينة تسير كقطار البضاعة وكان الجميع فى شوق إلى اليوم التالى. وفجأة كانت هناك أمواج متكسرة أمام المقدمة؛ وقبل أن يتمكنوا من عمل أى شىء، كانت السفينة على الشاطئ، وخلال وقت قصير جداً كانت قد ضاعت تماماً. نجح القبطان فى الوصول إلى الشاطئ مع بضع أفراد من الطاقم، بينما غرق كثيرون.

ما لم يكن يعلمه القبطان هو أن الفئار نُقل من أحد طرفى الجزيرة إلى طرفها الآخر بينما كان غائباً خارج البلاد، وحين استدار ليتيح لنفسه مجالاً كي يناور عند دخوله الميناء صار متعامداً على منتصف جزيرة بيكر (٣٧).

هناك فنار آخر فى مكان أبعد من ذلك على الشاطئ ترتبط به قصة مختلفة. إنه الفنار القائم على صخرة ماتينيكوس Matinicus Rock حيث يُقال إن حارسه انتحر منذ سنوات كثيرة. وكما هو الحال فى معظم حوادث الانتحار، ليس شبح الميت سهلاً، وربما كان شبحه هو الذى كان يسكن الفنار حتى قبل عشر سنوات مضت على الأقل.

فى ذلك الوقت كان جزء من المبنى غير مشغول ويستخدم مستودعاً. وحين كان الحراس القدامى يستبدلون بحراس جدد يهملون إخبارهم أى شىء عن المبنى. وكانت نتيجة ذلك أن فتح الطاقم البديل باب ذلك الجزء من المبنى، وعلى الفور حدثت لهم أشياء لا تفسير لها؛ فقط سقطت الكتوس من على الطاولة، وصُفقت الأبواب، ولم تكن الدواليب تبقى مغلقة. وكان أكثر ما حدث إزعاجاً هو أن المصابيح الكهربائية كانت تحترق يومياً تقريباً، بل إن ضوء الفنار ذاته كان يُطفأ. وأخيراً أغلق شخص ما الباب فعادت الأمور إلى طبيعتها. وحين أعاد فتحه شخص آخر بدأت المتاعب من جديد.

وبما أن الشبح لم يحدث أى ضرر مادى، وحيث إنه لم يكن هناك شىء مهم فى الجناح القديم، فقد بدا أنه من الأحسن ترك الباب مغلقاً. وبذلك الطريقة كان هناك مكان كاف على الجزيرة لكل من الأحياء والأموات. ومضت الأمور فى سلام لبعض الوقت إلى أن جاء ضابط للتفتيش على المركز. أمر الضابط بفتح الباب الذى فُتح رغم اعتراض الطاقم، ذلك أن الضابط لم يكن ممن يؤمنون بالأسباح أو لم يكن لديه الكثير من الوقت الذى يضيعه مع من يؤمنون بها. قال الضابط: "أريد فتح هذا الباب وتركه مفتوحاً".

قبل أن يغادر الضابط الجزيرة تحول الوهم إلى حقيقة. فقد انطفأت الأنوار، وتعطل المولد، وسقطت الكتوس من على الطاولة وانفتحت أبواب الجحيم بصورة عامة. وكان آخر أمر أصدره الضابط وهو يغادر الصخرة هو "أغلقوا ذلك الباب الملعون ولا يظل مغلقاً!" ولا حاجة إلى القول بأن أفراد الطاقم أسعدهم تنفيذ الأمر. ومنذ ذلك الوقت والهدوء يسود صخرة ماتينيكوس.

ووقع حدث نو طبيعة أخطر من ذلك بكثير فى جزر فلاتان Flannan Islands فى جزر هيبيرييدز الخارجية. كانت تلك الصخور (وهى أكبر من ذلك بقليل) خطرة بالنسبة

للملاحة ومصدراً للقصص المرعبة فى الجزر المحيطة منذ آلاف السنين، إلى أن أقيم هناك فى النهاية فنار عند بداية القرن. استغرق البناء زمناً طويلاً، وطبقاً لما ذكره إخباريون هناك لم يعمل الفئار قبل عيد الميلاد فى عام ١٩٠٥ . ولا بد أن شعاعه كان هدية عيد ميلاد عظيمة للقبطان الذى يتحسس طريقه فى قلق. ذلك أن المد والجزر والتيار وتعذر الرؤية لا تفعل شيئاً لتقليل الخطر الذى تمثله الجزر.

مضى عام على ذلك اليوم دون أن يحدث مكروه. وبعد ذلك لاحظت سفينة عابرة أن هناك شيئاً غير عادى فى الفئار. فقد أرسلت إشارة دون أن يأتى رد عليها. أبلغت السفينة عن الحدث. وبعد عدة أيام لاحظت سفينة أخرى أن هناك شيئاً آخر غير عادى وأبلغت عنه، وذهب فريق تفتيش لاستطلاع الأمر. وصلت السفينة قبالة الفئار وأرسلت إشارة دون أن تتلقى رداً عليها. أنزل قارب واتجه إلى الشاطئ. لم يحييه أحد. اتجه الطاقم إلى المبنى فوجده خالياً. كانت المعاطف والأغطية معلقة على مشاجبها، وكانت المائدة معدة لتناول الطعام، وكان الطعام معداً فى قنور وطاسات ويبدو جاهزاً للاكل على موقد بارد. وكانت آخر مادة مكتوبة فى دفتر اليومية داخل المبنى بتاريخ ٢٤ ديسمبر ولا تشير إلى أية مشكلة. وكشف المزيد من التفتيش للجزيرة أن قارب الإنقاذ الصغير مستقر على حمالته، ولكنهم لم يعثروا على أى أثر للحراس فى أى مكان. كما أنهم لم يجدوا على الجزيرة أى دليل على العنف أو السلوك العنيف. بل إنه منذ أيام عديدة قبل البلاغ الأول عن وجود مشاكل حتى وصولهم إلى هناك لم تكن هناك أية عواصف عنيفة فى المنطقة. وحتى يومنا هذا لم يلق البحر بأية جثث على الشاطئ.

ويبدو أن أهل الجزر يتمسكون بالاعتقاد بأن وحشاً ابتلع أفراد الطاقم. ويشعر آخرون بأنه ربما سقط أحد أفراد الطاقم فى الماء وغرق الآخرون وهم يحاولون استعادته. وإذا كان الحال كذلك، فلماذا لم يحاولوا إنزال القارب؟ لماذا لم يخلع أحد منهم بنطلونه أو يلقى بقميصه أو يقذف بقبعته قبل القفز فى الماء؟ لماذا لم يكن باب المبنى مفتوحاً أو يبدو ما يدل على العجلة ووجود أمر طارئ؟ إنى أرى أن حل اللغز احتمالى مثل الآخر، ربما أنه مر نصف قرن دون إجابة، يبدو من الواضح أنه لن يحل الآن (٢٨) .

وترتبط المنارة العائمة ارتباطاً وثيقاً بالفنار. ولكن الأولى مهمتها أخطر من مهمة الثانية، ذلك أن المنارات العائمة لا تتعرض لخطر التحطم وحسب، بل كذلك السحب وبشكل أخص اصطدام السفن بها، حيث إن السفن غالباً ما تنقاد إليها، وإذا كانت ملاحظتها صحيحة تماماً تشقها نصفين. وربما كانت حكاية تروى على جانبي المحيط، وتتطابق تمام الانطباق فيما عدا الأسماء، أقرب إلى الحقيقة منها إلى الحكاية الشعبية المسلية. وتكفي تلك التي تروى عن جنوبي نيو إنجلاند.

منذ سنوات مضت كان هناك أسطول من المنارات العائمة في منطقة كيب كود. فعلى سبيل المثال، كانت هناك "الدجاجة والكتاكت" Hen and Chickens و "كرم العنب" Vineyard و "مخاضات المنديل" Handkerchief Shoals و "ضلع البلوق" Pollock Rip و "الحصان الحجري" Stone Horse، و قبالة جزيرة نانتكت Nantucket Island كانت هناك منارة عائمة باسم "مخاضات نانتكت" Nantucket Shoals. كانت كل منها تحمل اسم المركز المكتوب على جانبها. وكان سفينة تسير بمحاذاة الساحل تأتي من نيويورك محملة بالفحم وكانت تواجه الضباب الكثيف طوال الطريق. وكان القبطان يبحث بقلق عن منارة "الدجاجة والكتاكت" العائمة. فعلى أحد الجانبين تقع "الخنزيرة وأبناؤها" Sow and Pigs وعلى الجانب الآخر تقع "الدجاجة والكتاكت"، وجميعها حيود خطيرة. ولكي يمر بينها لابد أن يسير بمحاذاة المنارة العائمة. وقد انتهى الزمن الذي كان يسمعها فيه، وكان كل البحارة يبذلون الجهد لرؤية أو سماع أى صوت يأتى عبر الريح الخفيفة.

وفي النهاية كان يسمع صوت جرس يدق، ولكن دون أن يكون هناك بوق. قرر الربان أن البوق لا يعمل واستمر في السير إلى أن ظهر في الظلام فجأة بدن أحمر، هو المنارة العائمة! كان مكتوباً على جانبها Nantucket فصاح قائلاً يا إلهي! أوقفوا السفينة وألقوا المرساة! وفي الحال توقفت السفينة، وبقيت في مكانها أربع وعشرين ساعة كان القبطان خلالها حائراً في معرفة كيفية الابتعاد بهذا الشكل عن مساره إلى حد أنه كاد أن يخطئ القارة. وحين انقشع الضباب وجد الإجابة. كانت منارة نانتكت في الميناء لعمل عمرة. وكانت في طريق عودتها إلى مركزها حين حبسها الضباب وقررت إلقاء مرساتها، وفي تلك الأثناء كان ربانها المحافظ يأمر بقرع الجرس بانتظام، كما هو مطلوب من أية سفينة راسية في عرض البحر.

ولا تزال حكاية تروى إلى الجنوب فى مين عن نور مهم آخر كانت الأجراس تقوم به فى الملاحه.

فحتى ما يقرب من ثلاثين سنة، كانت باخرة تأتى إلى مين من بوسطن، وكانت تمر على كل الموانئ التى فى طريقها. وفى يوم من الأيام كانت متجهة إلى ميناء خليج Boothbay Harbor فى ضباب كثيف إلى حد كبير. وفى ذلك الوقت كانت هناك كنيسة على الشاطئ. وشيئاً فشيئاً انتقل من يصلون فيها إلى الجانب الآخر من الخليج، وحين كانوا يريدون الذهاب إلى الكنيسة كان أمامهم إما عبور الخليج أو الدوران حوله لمسافة طويلة. ولعلاج ذلك الأمر تقرر نقل الكنيسة.

حصل السكان على صندل، وتبرع البعض بزوج من قوارب صيد الإستاكوزا، وتجمع المصلون ورفعوا الكنيسة ودفعوها على أسطوانات إلى الصندل عند الجزر. وحين ارتفع المد طفا الصندل وذهب بالكنيسة. وفى الوقت ذاته عم الضباب. وكان على الصندل مع الكنيسة رجل واحد، وعن له أن يقرع الجرس، وقرعه.

لم يكن ريان السفينة يعلم شيئاً عن ذلك وكان يتحسس طريقه حين أبلغ المراقب عن جرس السفينة. تعرف القبطان على الجرس وعرف بالضبط أين هو. وكان الشيء التالى الذى عرفه هو أن الصوت تغير تغيراً كبيراً. تحير القبطان ولكنه فسر الأمر على أنه من آثار المد الذى كان أقوى مما توقع وظل فى طريقه. وبعد ذلك صاح المراقب "الكنيسة أمامنا مباشرة!" وبرز سطح الكنيسة وبرج الجرس من وسط الضباب. صاح الريان غاضباً "يا إلهى! أوقفوا السفينة! استدر بورة كاملة!" تراجعت الكنيسة وجرسها المجلجل. كان الأمر التالى هو "ألقوا مرساة الطين" وتوقفت الباخرة. ظل الضباب ثلاثة أيام فى ازدياد والباخرة راسية فى مكانها ثلاثة أيام والركاب بين غاضب ومنفعل.

وإلى جانب الفئارات والمنارات العائمة تلقت الملاحه مساعدة كبيرة من الشمندورات التى تسمى فى بعض الأحيان السوارى perches (بريطانيا) أو المغازل spindels أو صانعات النهار day makers (أمريكا). وتتخذ الشمندورات أشكالاً وأحجاماً عدة. فبعضها به أجراس والبعض الآخر به أجراس كهربية. وهناك شمندورات

ذات صفارات (يسمىها البحارة نقاقات hooters أو أنانات groaners)، ومنها ما يضاء وبعضها لا يزال بلا إضاءة أو أجراس أو صفارات، ولكن يمكن التعرف عليها من شكلها ولونها. وما يؤسف له أن استخدامها محير بعض الشيء؛ ذلك أن البحارة فى الولايات المتحدة لديهم بيت يقول "Red, right, returning" [أحمر، يمين، عودة] وهو ما يعنى أن كل الشمندورات الحمراء ينبغى أن تكون على الجانب الأيسر من السفينة عند دخول الميناء، ولكن فى سائر أنحاء العالم يعنى الأحمر العكس.

بالنسبة للسفينة القادمة من البحر كان ولا يزال من المعتاد أن تتجه ناحية الضوء، وتبحث عن النقاقة أو الجرس وتدخل. وكانت السفن الشراعية فى حال الضباب الكثيف تبحر ثم تقف وتتسمع ثم تمضى ثانية إلى أن تسمع الشمندورة. ولا تزال سفن الصيد والسفن التى تسير بمحاذاة الشاطئ تسير ثم تطفئ المحركات وتتسمع ثم تشغلها من جديد. وإذا لم تسمع شيئاً فإنها تسير فى دائرة، وإذا كانت لا تزال لا تسمع شيئاً فإنها تلقى بمرساتها وتنتظر إن أمكن. والتراث البحرى زاخر بحكايات من ضلوا عن شمندوراتهم، ويتناثر فى قاع البحر حطام سفنهم.

ربما كان الجرس أقدم الوسائل المعينة للملاحة بعد الشمندورة. وتقع عند مدخل خليج تاي Firth of Tay ما كانت تسمى فى يوم من الأيام Inchcape Rock ولكنها معروفة الآن لدى البحارة باسم "صخرة الجرس" Bell Rock. كان المد والجزر قوياً هناك، وفى الضباب الكثيف وسكون الريح كان من الممكن أن يدفع البحر السفينة الواثقة من نفسها إليها؛ أما فى الجو العاصف فكان الأمر أكثر خطورة. وقد أقام رهبان أربوث Arboath الطيبون، الذين كانوا مهتمين اهتماماً كبيراً بالنقل البحرى، جرساً لتحذير البحارة من الخطر. واكتشف أحد القراصنة أن الجرس يمكن أن يكون عوناً كبيراً له فى عمله؛ فكل ما عليه هو أن يربط لسان الجرس، ويوقف سفينته عند حافة الأفق وينتظر كي يلتقط عظام من لا ينتبه للخطر.

وفى النهاية سقط هو نفسه فريسة لخطته. فقد أوقف الجرس وانتظر، وعم الضباب، وعاد المد وكان البحر هادئاً. بدأ رولف Rolfe القرصان فى السير مع التيار. وليس هناك ما هو أسوأ من البحر الهادئ والضباب، ذلك أن المرء فى ذلك الوقت يكون

محروماً من مساعده الآخر الوحيد للملاحة، وهو أنناه. كانت هناك صدمة خفيفة ثم اصطدام شديد وجنح القرصان. وحين انقشع الضباب كان بحر الشمال قد تخلص من قرصان آخر (٢٩).

وربما كانت أصعب مهمة يضطر قبطان أية سفينة لمواجهةها هي تدريب أفراد الطاقم. وكان الأمران الأكثر صعوبة بالنسبة لأي بحار شاب هما صعود الصواري وإدارة الدفة. وكان لم الحبال على السطح أو حتى صعود الصواري في الميناء شيء، بينما الصعود بسرعة على سلال الأشرعة المصنوعة من الحبال التي يلفها الثلج في مواجهة العاصفة، مع وجود الكثير من الأشرعة، شيء آخر. ولم يكن من السهل جعل رجل يستلقي على عارضة طولها مائة قدم في العاصفة ويثبت شراعاً يرفرف بقوة على ارتفاع ثمانين قدماً فوق سطح السفينة. ولم يكن أي مستجد منجذباً إلى الخروج على صاري المقدمة - الذي كثيراً ما يسمونه "صانع الأرامل" - ويطبق قبضته على شراع المقدمة المثلث بينما السفينة تهبط برجامها (*) إلى أسفل. وحين كان المستجد يرفض الذهاب، كان وكيل القبطان أو عريف الملاحين يجبره على ارتقاء الصاري ومعه طرف حبل، وحين كان يتجمد وهو يهبط، كانت ركلة في الوجه تفعل أكثر مما تفعله أريكة المعالج النفسي لإزالة مخاوفه، أو بالأحرى استبدالها بخوف أعظم منها وهو الإطاحة برأسه.

في ظل هذا النوع من المعاملة يصبح البحار الصغير متمرساً في ارتقاء الصاري جرياً والنزول إلى السطح منزلقاً على الشدادة الخلفية (**) كنزول رجل المطافي على عمود النزول. ومن حين لآخر، يقع أحد هؤلاء البحارة العاديين في مشكلة. وهناك حكاية عن السفينة الأمريكية كونستيتيوشن Constitution لا تزال شائعة داخل عنابر البحارة حتى يومنا هذا. ورغم كونها خيالية، فإنها تستحق أن تُحكى وربما حدثت مع ضباط مسئولين عن القيادة من قبيل ديكاتور Decator أو بريبل Preble .

(*) بروز في مقدمة السفينة يحمل بكارة رفع المرساة، كما تثبت فيه المرساة نفسها (المترجم).

(**) حبل يمتد من أعلى قمة الصاري إلى جانب السفينة ويميل قليلاً نحو المؤخرة (المترجم).

فى رهان، صعد ابن القبطان، الذى لم يكن قد تجاوز العاشرة، إلى القرص الخشبى الذى فى أعلى الصارى الرئيسى. لم يجد مشقة فى الصعود إلى هناك، ووقف متوازناً على القمة قبل أن يدرك مشكلته، وهى كيفية النزول، رغم أن الحبال جميعها كانت فى متناوله وكان المكان أصغر من أن يسمح لأحد بأن يصعد لإنقاذه. كانت هناك فرصة وحيدة لإنقاذه وهى أن يقفز خارج السفينة. أمسك القبطان البوق المكبر وصاح بقوة "اقفز!" وظل الصبى مجمداً فى مكانه. حاول والده مرة أخرى دون فائدة. وهنا وضع المكبر جانباً وأمسك ببندقية. وقف القبطان حيث يمكن رؤية الصبى بوضوح وتعهد إعداد البندقية للإطلاق وصاح من جديد "اقفز، لعنك الله! اقفز وإلا أطلقت النار!" وبيطء وضع البندقية على كتفه وصوبها. قفز الصبى حيث وقع فى البحر والتقطوه (٣٠).

بينما كان وكلاء القبطان وعريف الملاحين يتغلبون على رهاب الأماكن المرتفعة، كان القبطان فى المؤخرة يشد شعره ويحاول تعليم المستجدين شيئاً عن إدارة الدفة. (لا أعرف حكايات عن أية محاولة ناجحة عن دور القبطان فى تعليم أى شخص أى شىء، إلا أن هناك العديد من الحكايات التى تتحدث عن فشله المحزن.)

فى إحدى المرات حاول قبطان أن يخبر بحاراً مستجداً كيف تعمل البوصلة ولكنه سرعان ما أدرك أن ذلك سيكون أمراً عسيراً جداً. كانت ليلة صافية والرياح فيها طيبة، وأشار للصبى إلى نجم لامع وقال له كيف يتبعه كما كان البحارة يفعلون فى قديم الأزل. وشعوراً من القبطان بالرضا عن نفسه ذهب ليغفو قليلاً.

ما إن وضع القبطان رأسه على الوسادة حتى دارت السفينة. لبس الريان سرواله على عجل واتجه مسرعاً إلى السطح. "ماذا جرى؟ ما الذى حدث؟ ألم تتبع النجم الذى قلت لك عليه؟"

"لا شىء يا سيدى. إنى أتصرف كما قلت لى تماماً، غير أنى فقدت ذلك النجم. ولكن لا تشغل بالك يا قبطان، فقد وجدت اثنين آخرين بنفس الجودة!" (٣١).

وفى مرة أخرى دفعت الريح قبطان سفينة أمريكية تسير بمحاذاة الساحل بعيداً، وقبل أن يتمكن من الإبحار عائداً كان قد قطع مسافة كبيرة داخل البحر. استدعى القبطان الخادم وأوضح له كيف يدير الدفة وطلب من الصبى ألا يقلق من شىء لأنهم بعيدون كثيراً عن الشاطئ. نزل القبطان إلى قمرة وأوى إلى فراشه.

ظل الصبى يدير الدفة بسعادة وهو ينظر إلى البوصلة باهتمام. وبعد بضع ساعات نظر أمامه فوجد الصارى الرئيسى وضوعين متحركين لسفينة كبيرة أمامه مباشرة على وشك الاصطدام به. وفى الأسفل أوقف القبطان فجأة بفضفاضة. "تباً لك من ملأح! أفضل لك أن تصعد بسرعة. هناك صيدلية أمامنا، وما لم توقفها خلال خمس دقائق سنكون أمام الباب!"^(٢٢) (فى تلك الأيام كانت كل الصيدليات تضع ضوءاً أحمر وآخر أخضر على جانبى بابها) .

حين ينظر المرء إلى القباطنة يدرك بسرعة أن هناك نوعين: الأسود والحملاان. كان القباطنة من النوع الأول رجالاً خطرين يصعب قيادهم مثل جوشوا بارنى Jushua Barney وبولى ووترمان Bully Waterman وصمويل صمويلز Samuel Samuels الذين كان يدفع ركابه إلى أسفل، ويسمر الفتحات التى فى السطح ويمضى فى مطاردة الإعصار ليدفع بالسفينة "دريدنوت" Dreadnaught بسرعة على سطح البحر؛ أو باكى والترز Bucky Walters قبطان "بلونوز" Bluenose وجيمى بوكانان قبطان "البنت فيفيان". كانوا فى الحرب يقاتلون كالنمور، وفى السلم يقوبون سفنهم بلا رحمة. بل إن البعض منهم كان يضع أقفالاً على الحبال التى تطوى بها الأشرعة أو يضع موانع عليها فى الجزء العلوى كى لا يقصر أحد الأشرعة. وكانت الطريقة الوحيدة التى يمكن بها تقصير الشراع عبر القول القديم "ما ينزل لأسفل يسقط".

كان الحملاان أكثر عدداً. وكانوا يحبون السفن ويعملون بالقول السائر "لابد أن تعامل سفينتك برفق وسوف تعاملك هى بطيبة". وكان هؤلاء بحارة جيدين وسيرهم طيبة وعاماً بعد عام كانوا يحملون العمل الأكبر فى النقل البحرى فى المحيط فوق ظهورهم.

كان أفراد الطاقم يحبون السفن التى يقودها الحملاان. فقد كانت أيسر وأكثر أمناً، وكانت هناك فرصة ممتازة لأن يعود المرء سالماً كى يتناول شراباً فى "ذا دوج" The Dog أو "دك" Duck أو أية حانة أخرى. ولكن حين يتذكر البحار، فليس هؤلاء هم الرجال الذين يربون على باله. فالأيام الجميلة فى البحر لم تعد زاخرة بالعواصف، والسفن التى تقطعها مطرقة قاطع السفن القديمة أو تبلى فى مياه الخليج أكثر من تلك

التي تفرق في البحر. ولكن أهل البحر يتوترون عند الخطر أكثر من سواهم. إنهم يفكرون بطريقة خطيرة ويتذكرون الخطر. فالعنف وحده هو ما يتذكرونه؛ العواصف الشديدة، وتحطم السفن، والمرور السريع. بل إن مزاحهم خشن، وهم يجدون متعة في إطعام طائر النورس مسماراً أكثر ممن تلك التي يجدونها في التلاعب بالألفاظ أو السخرية. وحتى في ذاكرتهم الخاصة ببناء السفن والملاحة يبرز هذا الجزء من تكوينهم.

الفصل السادس

الأغاني

"إن استمعت قليلاً سأفنى لك أغنية عن الشجاع والنيل والصادق"

- القبطان آرشي سيرلنج فى جلسة تسجيل عام ١٩٤٦

بجزيرة جريت كراتيرى بولاية مين

أقل ما يوصف به البحث فى الماثورات البحرية أنه غير عادل. فبعض المجالات نالت حظها من البحث بينما أهملت مجالات غيرها إهمالاً كبيراً، مع تفوق البحث الخاص بالأغنية الشعبية على العمل فى أى مجال آخر. ولكى أعطى القارئ فكرة عن غزارة المادة الخاصة بهذا الموضوع، فقد جمع البروفيسور ماك إيوارد ليتش MacEd- ward Leach ببليوجرافيا لقصائد تشايلد Child الغنائية (عدها ٢٠٥) لدليل ويلز Wells Manual حيث اكتشف أن لديه ٨٥ ألف مادة! وحين يضع المرء فى اعتباره أن تشايلد لا يشكل سوى جزء ضئيل من كم الأغنيات الشعبية، فإنه يدرك ذلك القدر الضخم من الوقت والجهد الذى أنفق فى ذلك المجال.

وبينما كان الغرض من هذا الكتاب هو دراسة تلك المجالات الخاصة بالفولكلور البحرى التى حظيت بأقل قدر من الدراسة اتساعاً، فإن أى كتاب يتناول الماثورات البحرية لا يكتمل دون ذكر لهذا الشكل، الذى هو أكثر الأشكال الفنية كافة شيوعاً. ولذلك ضمنت موجزاً للأغاني وأغاني البحارة كى يتفحصها القارئ. وبما أن معظم العمل الذى تم فى هذا المجال كان فى إطار الدراسة الخاصة لأغان بعينها، فإن ملاحظاتي هنا ذات طابع أكثر عمومية.

تنقسم الأغاني البحرية انقساماً لطيفاً إلى فئتين رئيسيتين، هما أغاني البحارة chanteys وأغاني عنبر البحارة fo'c'sle songs . وأغاني النوع الأول أغاني عمل، بينما تُغنى أغاني النوع الثاني في وقت الفراغ للتسلية. ويمكن تقسيم هذه بدورها إلى أغاني البحارة - المسافات الطويلة - والمسافات القصيرة - من ناحية، والأغاني التي نشأت في البحر أو ولدت على الشاطئ وعدلت بحيث تلائم البيئة البحرية من ناحية أخرى. وسوف أتناول في المقام الأول أغاني البحارة والأغاني التي ولدت في البحر.

هناك شك في كيفية وقت ظهور أغنية البحارة على وجه الدقة ^(١) . ويعتقد بعض الكتاب أن أصلها فرنسي، حيث يرجعون ذلك إلى تهجية الكلمة الإنجليزية chantey . والبعض الآخر يتهجى الكلمة هكذا shanty ويشعر أنها جاءت من غناء الزنوج الأمريكيين الذين كانوا يحملون القطن على مراسي نيو أورليانز على امتداد نهر الميسيسيبي. وهم يظنون أن الكلمة مشتقة من اسم العرش shanties التي كان هؤلاء الناس يسكنونها. بل إن هناك من يعتقدون أن الأغاني نشأت بين الزنوج في جزر الهند الغربية والنقطها البحارة البيض ونشروها في أنحاء العالم البحري ^(٢) .

ولا أهمية للهجاء، ذلك أن الحقائق المؤكدة لا سبيل إلى دحضها. فقد كان منتصف القرن التاسع عشر، بما فيه من عدد كبير من السفن ذات الأشرعة المربعة التي تحتاج إلى جهد عدد ضخم من البحارة، هو ذروة ازدهار الغناء البحري. وتغنى أغاني البحارة الأمريكية الأغاني الإنجليزية ذات الطابع المشابه من حيث العدد، ربما لأن عدد السفن الأمريكية كان أكبر. وكانت تلك الأغاني من الانتشار بحيث كانت تُغنى بكل لغة معروفة تقريباً. فقد تُغنى أغنية "الريو" Rio بالفرنسية والألمانية والدنماركية والإنجليزية. وعلى عكس أغاني عنبر البحارة، نادراً ما وصلت تلك الأغاني إلى الشاطئ (إلا على هيئة أداء كورالي شعبي)، ولكنها اختفت مع السفن الشراعية. وأخيراً فإنه افتراض خطير أن نرجع أصلها إلى زمان أو مكان واحد بعينه، ذلك أن الأغاني شديدة التنوع والانتشار بحيث لا يمكن قصرها على شريحة صغيرة من سفن العالم التي تدخل عدداً محدوداً من الموانئ وتخرج منه.

العمل وسط تآلف صوتي بإيقاع معين مسألة قديمة جداً. والقول بأن الأغاني نشأت بين السود الجنوبيين أو سكان جزر الهند الغربية، لأن عدداً أكبر من أغاني

البحارة كانت تغنى فى القرن التاسع عشر حول موانئ القطن، ليس بحال من الأحوال موقفاً قوياً يمكن تبنيه. فنحن نعرف أن الناس كانوا يغنون لمجانيقهم فى العصور الوسطى، ويذكر مارتن مارتن Martin Martin أن الإسكوتلنديين كانوا يغنون وهم يجدفون أثناء صيد السمك فى القرن السابع عشر. بل إن القول بأن أداء أغانى البحارة كان من تسالى القرن التاسع عشر، لأنه كان شائعاً شيوعاً كبيراً فى ذلك الوقت ولأن لدينا الكثير والكثير من الأغانى التى نشأت فى تلك الفترة، يعنى توجيه الاهتمام إلى المكان الخطأ. فقد كان أمراً متوقعاً أن ينتعش غناء البحارة مع انتعاش السفن الشراعية، وحين صارت الغلبة للبواخر على السفن الشراعية فى النهاية مع نهاية القرن، مما قلل الحاجة إلى غناء البحارة، كان من الطبيعى أن يبحث الباحثون عن البحارة القدامى الذين لا يزالون على قيد الحياة ويمكنهم غناء أغانى البحارة التى يتذكروها من الأيام التى عاشوها على السفن الكبيرة.

وما قيل عن أغانى البحارة يمكن قوله كذلك عن الأصول الزنجية لأغانى البحارة. فلم يكن أداء أغانى البحارة يجرى على متن السفن قبل ظهور السود على الساحة الأنجلو أمريكية بزمان طويل وحسب، بل إن الزنوج لم يكونوا موجودين بأعداد كبيرة على متن السفن الشراعية. فقد كانوا يعملون على السفن كطهاة ومساعدى لرؤساء الخدم ولم يكونوا فى حالات كثيرة ضمن أفراد طاقم البحارة. (حتى الحرب العالمية الثانية كان عمل السود فى البحرية الأمريكية يكاد يقتصر على كونهم مساعدى لرؤساء الخدم.) ولذلك لم تتح لهم الفرصة كى يقدموا أغانى البحارة. إلا أنه بينما لا ينكر أحد التشابه بين أغانى البحارة وأغانى الحفر الأفرريقية، فإنه يمكن إرجاعها إلى أصول عدة وليس إلى أصل واحد. ولكن لنعد إلى أغانى البحارة.

تنقسم أغانى العمل هذه بعدد من السمات المفردة. أول هذه السمات هى ما قد نسميه "النظم المفتوح" open-versed . أى أن المضمون السردى أقل ما يمكن. ويمكن أن تستمر الأغنية بإضافة أبيات جديدة ويكون تتابع الأبيات أقل الأمور أهمية. فكل بيت يمكن أن يكون مستقلاً بذاته بصورة أو بآخرى مثل:

الويسكى حياة الإنسان.

ويسكى جونى.

الويسكى حياة الإنسان.

الويسكى عندى هو جونى - أو.

ومعظم أغانى البحارة بها جزء يغنيه شخص واحد، وهو فى الغالب يخترعه. وكان ذلك الجزء يلحقه كورس بسيط بما يليه، وهو على عكس الكثير من الأغانى الشعبية لم يكن شعراً رديئاً غير موزون. ولتأخذ على سبيل المثال قصيدتين إحداهما من "جنوب أستراليا" والأخرى من "المرأة الجبلية" Highland Laddie :

ولدت فى جنوب أستراليا.

ارفع، اسحب،

فلما ولدت فى جنوب أستراليا،

ارفع سلسلتك المتكحرجة

فنحن متجهون إلى جنوب أستراليا.

هل نهبت يوماً إلى كيبك،

امرأة جميلة، امرأة جبلية،

تضع الأخشاب فوق السطح،

امراتى الجميلة الجبلية - أو (٢).

وتقل الكلمات فى كل أغانى البحارة أهمية عن الإيقاع ويوضع إيقاع الأغنية حسب إيقاع العمل، مع ما يبذله الرجال من جهد بالنسبة للمقاطع المنبورة من الكلمات. وحين يكتمل الجهد فى النهاية، غالباً ما يُتلى البيت الأخير بدلاً من أن يُغنى، وكثيراً ما يستخدم الإطناب بإضافة كلمة فى نهاية الأغنية مثل Vast heavin أو Secure وكثيراً ما تُنثر توجيهات للجماعة فى الأغنية بكاملها.

وعموماً تزيد سرعة إيقاع أغنية المسافات القصيرة short-haul chantey عن إيقاع أغنية المسافات الطويلة long-haul chantey ويكون البيت نفسه أقصر، كما نرى بمقارنة

هذه العارضة لا بد أن تصعد عالياً
أنت تقول هذا، وأنا أقول هذا

بـ

يا شيناندواه، أنا أحب ابتك،
امض بعيداً، فلنا لا بد أن أنهب
عبر نهر ميزورى الواسع.

وكان إيقاع المسافات القصيرة يُستخدم لأداء العمل القصير السريع مثل الكد على حبل الشراع، أو رفع برميل روم من على جانب السفينة، أو تقوية العارضة. وفي كثير من الأحيان كان ذلك عملاً يجرى بسرعة كبيرة، حتى إن البحارة يصطفون ممسكين بحبل ثم يسحبونه بالإيقاع الذى يمنع أى رجل من أن يطاء قدم غيره. وفي اللهجة الدارجة غالباً ما تُسمى هذه أغاني "السحب".

وفي العادة لم يكن العمل الذى يتطلب جهداً أكثر استدامة أبطأ إيقاعاً فحسب، بل كانت الأغنية كذلك أكثر تفصيلاً وكانت ملامحها البحرية أفضل تشكيلاً. وربما كان العاملان اللذان اشتهرا بانهما الأشد جهداً على متن السفينة هما رفع الرساة وتشغيل المضخات. فى الحالة الأولى قد تكون السفينة واقفة فى منطقة عمق الماء فيها عشرون فرسخاً مع وجود مائة فرسخ من السلاسل فى الخارج متصلة بمرساة يكاد يكون وزنها طناً. وقد يشكل البحر والريح ضغطاً كبيراً على معدات الإرساء، وربما تفرز المرساة بشكل عميق فى الطين. وتقوم القلوب والعضلات البشرية التى تكدح على أيادى الملوة برفع السلسلة حلقة تلو الأخرى وهى تبنى الطلوع. وفى النهاية يفنى الرجل الذى فى مقدمة السفينة "المرساة حبلها قصير" و"المرساة طالعة نازلة". ويجهد ضخماً جداً يخلع أفراد الطاقم "الخطاف" من الطين وتكون صيحتهم "المرساة خلصت

من الطين". وبعد ذلك يزيد إيقاع الجهد، حيث كانت المرساة تمثل خطراً على تشغيل السفينة عند تلك النقطة، ذلك أنه في أسوأ الظروف قد يعوق سلسلة سفينة أخرى أو يتأرجح للخلف أسفل السفينة، أو على أقل تقدير يعوق بصورة خطيرة قدرتها على الدوران. ويكون النداء التالي هو "المرساة ظهرت"، ويتزايد الإيقاع من جديد، ذلك أن المرساة المتأرجحة يمكن أن تلحق الضرر بالسفينة إن هي وجهت لها ضربة شديدة وهي تتأرجح في البحر. وتضع الصيحة الأخيرة "عادت المرساة" نهاية للعمل وتأتي صيحة عريف الملاحين "سحب شديد".

كانت غالبية السفن الشراعية تصنع من الخشب، وبينما كانت تتحرك في البحر كان يحطمها ضغط حبال الأشرعة والصواري وتلوّوها الانتفاخات. ونتيجة لذلك كان معظمها يتسرب إليه الماء وكان لابد من ضخه باستمرار، حيث يزيد الماء على قدرة المضخات في العواصف، بينما تتغلب المضخات عند هدوء الريح. وفي بعض الأحيان يُستخدم رجلان لتشغيل المضخة الإبريقية الكبيرة عند الصاري الرئيسي. وفي بعض الأحيان يُستخدم رجلان لتشغيل يدين على كل جانب وتستمر قعقة المضخة الرتيبة ليل نهار. وكان ذلك عمل الرجال المكروهين، وكانت الأغاني التي يغنونها عند المضخات طويلة وبطيئة في الإيقاع وكان مضمونها نكداً على الدوام.

لم تكن حياة جاك تار Jack Tar حياة شديدة السرور. فقد كان أجره منخفضاً، وكان طعامه رديئاً، وساعاته طويلة، وفراشه رطباً. وإذا لم يفرق أو يقفز في الماء، فسيعود في النهاية إلى الميناء، حيث يبدي الكاهن معارضة شديدة له، ويغشه التجار، وتسرقه العاهرات، ثم يخدره أصحاب الأملاك أو "الفواة" الذين يواجههم أثناء إقامته القصيرة على الشاطئ ويعيدونه إلى البحر. وعموماً، كان جاك تار يتحمل كل تلك المصاعب باستهتار، إلا أنه كان يعبر من حين لآخر عن نفسه ويذكر أسماء معذبيه. وكان يفعل ذلك دائماً في أغانيه. فهو يشير إلى أحياء البغاء حين يذكر "شارع بارادايز" Paradise Street أو "خليج تايجر" Tiger's Bay. وحين كان يتحدث عن "مدام جاشي" Madame Gashee و"سالي" Sally و"نيوبورت توني" Newport Tony كان يذكر أسماء عاهرات. واشتهر شنغهاي براون Shanghai Brown كشخص يفوى الرجال على العمل في البحر ازدهرت أحواله في سان فرانسيسكو خلال منتصف

القرن التاسع عشر، وكان بولى هايز Bully Hayez رباناً عنيفاً وأصبح قرصاناً ثم تقاعد أخيراً ليعيش حياة فاسدة جنوبى المحيط الهادى. وكان روبن رانزو Reuben Ranzo خياطاً، وهو صنف من الناس يحظى بالازدراء لأنهم يبيعون البحارة ملابس رديئة بأسعار باهظة، ولأنهم حين كانوا يعملون فى البحر أحياناً كصانعى أشربة كان من مهامهم، إلى جانب خياطة الأشربة، خياطة قماش الأشربة حول الموتى ليكون كفناً لهم وتكون الفرزة الأخيرة فى أنف الميت (وهى طريقة لتحديد إن كانت فى الجنة حياة أم لا، إلى جانب استعمال المرأة)، ومن ناحية أخرى، كان جاك يلتقى من حين لآخر بأحد الطيبين، وكان لذلك نصيب فى أغنية كاملة مثل "بادى ويست" Paddy West^(٤).

كانت أغانى البحارة تستخدم فى كثير من الأحيان باعتبارها نداءات للجمع، وبصورة عامة كانت أغان بعينها تغنى من أجل أغراض خاصة. فحين كان المناوب يستدعى فى ليلة عاصفة تتمايل فيها السفينة وترجع بشدة، ويملا الماء منتصفها، ولا تكون هناك أنوار، ويكون هناك أكثر من مائة حبل يجب العناية بها، فإن البحار الذى يسمع أغنية عبر صرير الرياح يعرف إلى أين يذهب وماذا يفعل. وقد طرأ تعديل آخر على هذا التخصص بين أغانى البحارة الخاصة بالمسافات الطويلة. فعلى متن السفن الأمريكية كانت الريو هى الأغنية المستخدمة لرفع المرساة عند السفر من أمريكا إلى دولة أجنبية. وحين كانت السفينة مستعدة للعودة إلى الوطن كانت تنشر دائماً راية "صقر الليل" - وهى راية طويلة سوداء - من رأس الصاري، ويغنى أفراد الطاقم "شيناندواه" وهم "يديررون الملوة". وكان بإمكان السفن الراسية فى الميناء حين ترى الراية أو تسمع الأغنية أن تسلم البريد والرسائل التى تبعث بها عبر الماء. وكانت السفن الإنجليزية العائدة للوطن تغنى "متجهون إلى الوطن" Homeward Bound "بدلاً من شيناندواه".

ولأن غناء أغانى البحارة كان شائعاً على متن السفن الكبيرة، وبسبب طابع طواقم السفن الكبيرة متعدد اللغات، سرعان ما أصبحت أغنية البحارة أغنية متعددة اللغات. وربما لأن السفن الشراعية فى أيام عزها كان يملكها إنجليز وأمريكيون، فقد كانت بداية الأغانى أنجلو أمريكية، ولكنها سرعان ما تُرجمت إلى الألمانية والفرنسية والنرويجية، بل والصينية. ومن الغرابة بمكان أن أسماء الأعلام والعبارات الأكثر أهمية

بقيت كما هي بالإنجليزية في اللسان الأجنبي. وكان من المدهش إلى حد ما سماع كلمات مثل *heave away* أو *Ranzo* أو *wide Missouri* وسط أغنية ألمانية (٥).

بمرور السنين، حل البخار محل الشراع وتغيرت السفن الشراعية. أما السفن ذات الأشرعة المربعة، التي تصعب قيادتها وتحتاج إلى أطقم كبيرة، فقد تفوقت عليها شيئاً فشيئاً الأشرعة الطولانية التي يسهل التعامل معها، في حين أن سفن القرن التاسع عشر الطويلة وسفن البريد والسفن الشراعية ذات الصاريين قد حلت محلها سفن السكونة *schooner* السريعة، الكبير منها والصغير. وكانت هذه تحتاج إلى أطقم أقل عدداً وإلى قدر أقل من العمل، ذلك أنه لم يكن فيها ما تقتضيه الأشرعة المربعة من عوارض الصواري والدعامات ونظام الحبال المعقد. ومن ثم كان هناك تركيز أقل على الغناء. بل إنه في وقت لاحق زودت السفن الشراعية بـ "الزلال" *yawl boat* (وهو لنش صغير مزود بمحرك) لدفعها و"محرك حمار" به ونش يمكن أن تُسحب به الحبال، ولم تعد ضرورة السحب الجماعي مهمة جداً. ومن المؤكد أن السفن لا تزال يتسرب منها الماء كالسلال، ولكن مهمة الضخ تولتها "آلة الاحتراق الداخلي الخالدة". وأخيراً حل المحرك (الذي يسمى أحياناً "الشراع الحديدي") محل الشراع حلولاً تاماً تقريباً، وتوقف الغناء على متن السفن في معظم أرجاء العالم، لأن أغاني البحارة تلك كانت تعتبر "أغاني عمل" وحسب، ولم تكن تُغنى إلا حين تكون متصلة بالفعل بأداء عمل ما.

واليوم نجد أن أغنية البحارة في الجزر البريطانية وأيرلندا وأمريكا مية لأسباب عملية تماماً. ومن حين لآخر يعثر باحث لفولكلوري على بحار عجوز في مكان ما، "ضعيف في المرات المائية" وأصبح كهنه، يمكنه بصعوبة شديدة أن يسجل إحدى أغاني البحار على جهاز تسجيل. وفي بعض الأحيان يسجل المغنون الشعبيون، الذين لا علاقة لهم بالبحارة ولا يعرفون شيئاً عن المياه المالحة، أسطوانات لما يظنون أنها قد تكون أغاني بحارة. ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء قليلاً من المغنين والبحارة كبار السن الذين حفظوها من خلال نكري أيام خلت - مثل القبطان بوب روبرتس *Bob Roberts* وإيه إيه لويد *A.A. Lloyd* - ولكن هذا ليس غناء بحارة.

إلا أن هناك منطقة واحدة في العالم الناطق بالإنجليزية لا يزال فيها غناء البحارة شديد الحيوية، وهي جزر الهند الغربية. وقد بقي هناك لعدة أسباب. فلأن الريح تكاد تهب باستمرار، وتكاد تكون على الدوام من نفس الاتجاه - وهو الاتجاه الذي يجعل الإبحار من جزيرة إلى جزيرة ممكناً بالنسبة للسفن الشراعية - لا زال غناء البحارة موجوداً وجوداً كبيراً. ومع أن "القارب ذا المحرك" أخذ في الشيوع أكثر وأكثر، فهو ليس ضرورياً في المنطقة ولا يزال رمزاً للمكانة الاجتماعية أكثر منه ضرورة عملية.

كان الناس في جزر الهند الغربية على قدر كبير من التقليدية في تفكيرهم وليسوا سريعين في تقبل التغيير. وما زال كثيرون يعتقدون، كما أخبرني رجل هناك، أن المحرك الأكيد الوحيد هو قلب الإنسان وعضلاته. كما قال لي "إنه أبطأ، ولكنه أضمن". يضاف إلى هذا أن هؤلاء الناس سود، ولهم في خلفيتهم ميراث من أغاني الحفر يجعل استخدام أغاني البحارة سهلاً عليهم؛ ذلك أن كلاً من أغاني الحفر وأغاني البحارة قصيرة وإيقاعية ولا تركز على السرد. وأخيراً فإن في جزر الهند الغربية قدراً كبيراً من العمل الذي لا يزال يتطلب جهد الجماعة، مثل شحن الحمولة وتفريغها، وإمالة السفينة على جانبها للإصلاح، وإطلاق السفن، ورفع الشراع، والتجديف بشبك الصيد الكبير وسحبه إلى الشاطئ. وهم لا يزالون يستعملون أغنية البحارة "shantee" في معظم تلك الأعمال، فيما عدا إمالة السفن على جانبها، الذي يتم لسبب ما على الهتاف الملحن "واحد - اثنان".

وعند كتابة هذا الكتاب لم تكن أغاني جزر الهند الغربية تلك قدر درست بشكل كبير. وهي تختلف عن غناء البحارة كما كان يجري في أي مكان آخر؛ فعلى الأقل تختلف النسخ التي جمعتها، ذاك أنه ليست لها أشباه وثيقة الشبه بين المجموعات الكثيرة المطبوعة الخاصة بهذا الموضوع. وهي في الوقت ذاته تتبع الأنماط الراسخة في العالم القديم وأمريكا الشمالية.

قد يكون هناك بعض من الشك في أن هذه الأغاني خرجت من بين أغاني البحارة المستخدمة في مكان آخر، إلا أنه طرأ عليها تغير جذري. فكثير منها تُنظم حول عبارات

موجودة في أغاني البحارة التراثية وتبدأ بألحان أغاني البحارة التراثية. وتتناثر في أنحاء الأغنيات عبارات مثل "عبر نهر ميزوري الواسع" و "ويسكي جوني" و "هيلو" (*) و "تمضي بعيداً في خليج موبيل" (**)، و "أنا مقيد فوق الجبل تماماً"، "حان الوقت لأن نتركها".

ويتضح اختلاف هذه الأغاني الشديد عن أغاني البحارة التي كانت تغنى في أجزاء أخرى من العالم الناطق بالإنجليزية. فباستثناء العبارة التراثية، تتميز كلماتها بنكهة قوية خاصة بالأحوال والبيئة المحلية. بل إنه يبدو أنها تفتقر إلى وجود أى شكل للمقاطع، ولكنها تكيف نفسها مع وقفات العمل حين تتحرك البكارة "بكرتين"، وحين يدور أفراد الطاقم دورة ويستعدون للرفع من جديد، وهكذا. ويغنى المغنى بيتاً ثم يرد عليه كل البحارة. ويغنى بيتاً ثانياً ويغنى شخص آخر - ربما كل البحارة - البيت الأول ولكن بطريقة أقل، ثم يغنى الجميع معاً ككورس.

ومعظم الأغاني أغاني بحارة خاصة بالمسافات القصيرة تُستخدم لنقل الحمولة وسحب شباك الصيد وفي سحب قارب أو سفينة وتعويمهما، وفي تدشين السفن، وأحياناً لعد المساة بين الضربات أثناء التجديف.

وجرت العادة عند غناء الأغنية أن يذكر المغنى أفراد الطاقم بطرق عدة بتسليك الحبال، أو بالسحب بقوة أكبر، أو بالتوقف، أو بأى عدد من الأمور. وتلك الملاحظات تكون دائماً بنفس إيقاع الأغنية وإن لم تكن بنفس اللحن. ويبين هذا أن المغنى ليس مجرد أى فرد، بل هو شخص ذو سلطة ضمن أفراد الطاقم.

وتُستخدم أغاني معينة لأغراض خاصة. فإغنية "يادو" Yado تغنى دائماً عند التدشين، طبقاً لما يقوله القبطان دين ماكفارلين Dean MacFarlane من كاريماكو. وتغنى "آين ذهب بوني" Where has Boney Gone "في الغالب الأعم عند إنزال السفن" حسبما

(*) خليج في المحيط الهادى (المترجم) .

(**) ذراع من خليج المكسيك (المترجم) .

يقوله القبطان أرانجتون ريتشاردسون Arlington Richardson من باجيت فارم Paget Farm في بيكيا، بينما كانت تغنى أغنية Do Old Moses عند التجديف لصيد حوت من الحيتان.

وبما أن هذه الأغاني ليست معروفة بصورة كبيرة لساكن العالم، ولها إيقاعات مميزة، ولا تزال جزءاً حقيقياً من تراث حي، يبدو أنه من الأفضل تقديم عدد منها على سبيل التوضيح. وفي الوقت ذاته ليس هناك سبب ملح لتضمين أى من أغاني البحارة التراثية المشهورة، ذلك أنه إلى جانب أنها حُفظت على نطاق واسع في مصادر مطبوعة، فإنه نادراً ما يغنيها العاملون في البحر في الوقت الراهن.

♩ = 126



Variant



یادو

**یانو یانو بیلیرینا یانو،
های أنت یا بیلیرینا یانو.**

**یانو یانو بیلیرینا یانو،
های های های أنت یا بیلیرینا یانو.**

**إن كنت تريد أن ترى القرد يرقص
اكسر قرن فلفل في دبره.
یانو یانو بیلیرینا یانو،
های های أنت یا بیلیرینا یانو.**

**مات ماسا ولم يترك مالا،
لم يترك مستناً لفسيل ملايسه،**

**یانو یانو بیلیرینا یانو،
های های أنت یا بیلیرینا یانو.**

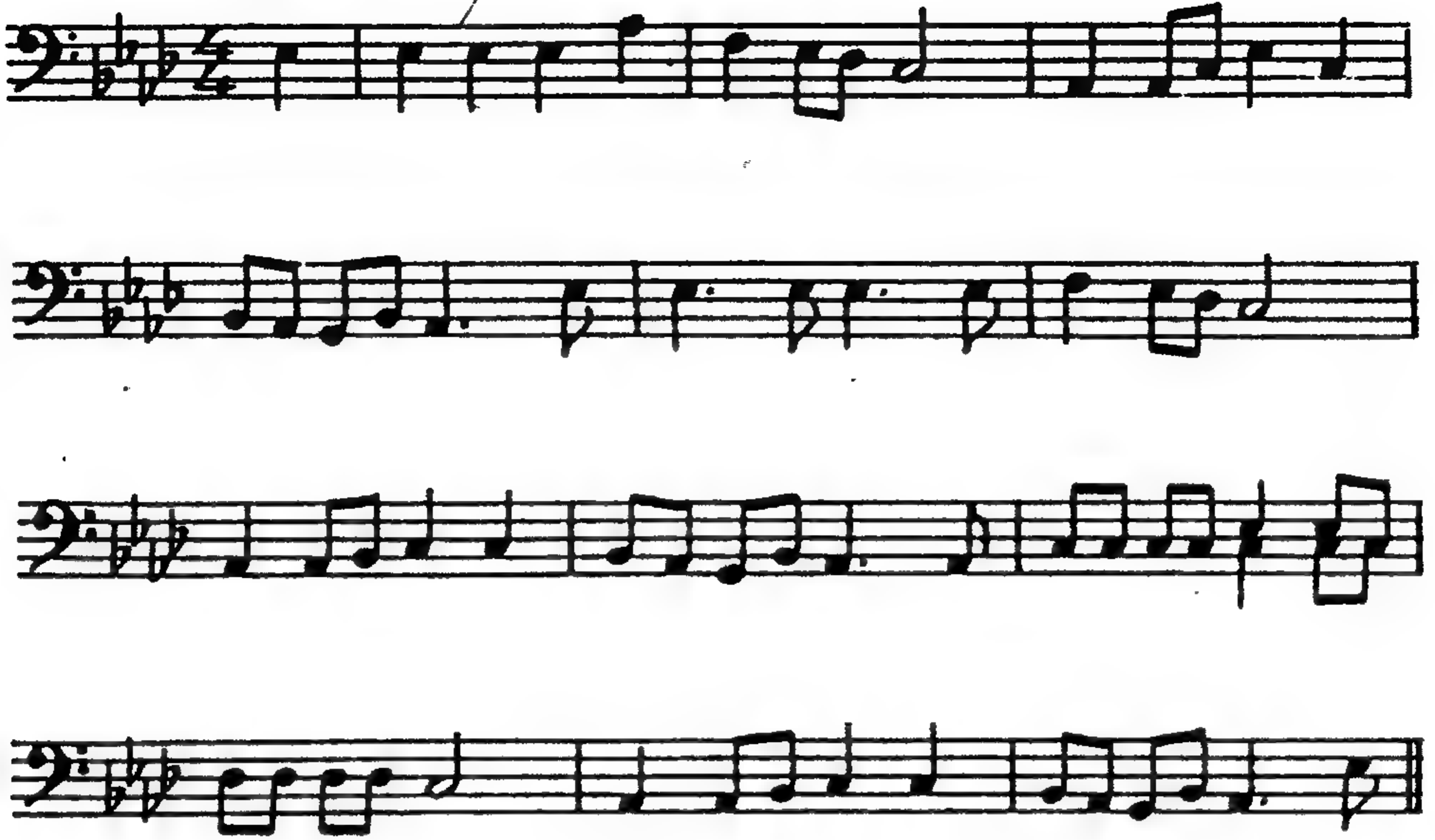
**مات ماسا ولم يترك مالا،
ترك ابته كي يصطاد حوت البقر،**

يانو يانو بيليرينا يانو
های های أنت يا بيليرينا يانو

مات ماسا ولم يترك مالا،
وامراته اضطرت أن تشحذ بنسأ،
يانو يانو بيليرينا يانو
های های أنت يا بيليرينا يانو

هذه واحدة من أكثر الأغاني شيوعاً الموجودة في جزر الهند الغربية. اللحن متسق ولكن الأبيات - ما عدا الكورس "ميسا مات ولم يترك بنسأ" وإذا كنت تريد أن ترى قروداً يرقص/اكسر قرن فلفل في دبره" - لا حد لها في التنوع وغالباً ما تنظم من وحى اللحظة. ومع أن البيتين "ماسا مات ولم يترك مالا،/ زوجته اضطرت أن تشحذ بنسأ" سوف ترضى ولا شك الباحث الذي يبحث عن علامات الاحتجاج الاجتماعي، وتبقى الحقيقة هي أن فكرة فقدان أي شخص لماله وموته وهو في حالة فقر مدقع تسر الممثلين مثل نكتة القرود الذي في دبره قرن فلفل.

♩ = 92



ذهب سام بعيداً

أحسن، أحسن يا سام.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

مرحى مرحى يا سام.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

ليتتى كنت عريف ملاحين على السفينة الحربية.

ذهب سام بعيداً على سفينة حربية رائعة.

مرحى مرحى مرحى يا سام.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

أحسننت، أحسننت، أحسننت أيها الفتى الشجاع.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.
ليتتى كنت كبير وكلاء القبطان على السفينة الحربية.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

أحسننت، أحسننت، أحسننت يا سام يا شجاع.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.
ليتتى كنت طباعاً على السفينة الحربية.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

مرحى، مرحى، مرحى يا سام.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.
ليتتى كنت كبير وكلاء القبطان على السفينة الحربية.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

"أسحب البكارة التى تمر عليها. شد الحبل المرقضى." (غير مغنى)
ابداً من جديد! ذهب سام على سفينة حربية رائعة.

أسحب البكارة التي تمر عليها" (غير مفنى)

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

قدما بثبات، قدما بثبات [لا تدعها تتأرجح] (غير مفنى)

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

مرحى، مرحى، مرحى يا سام.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

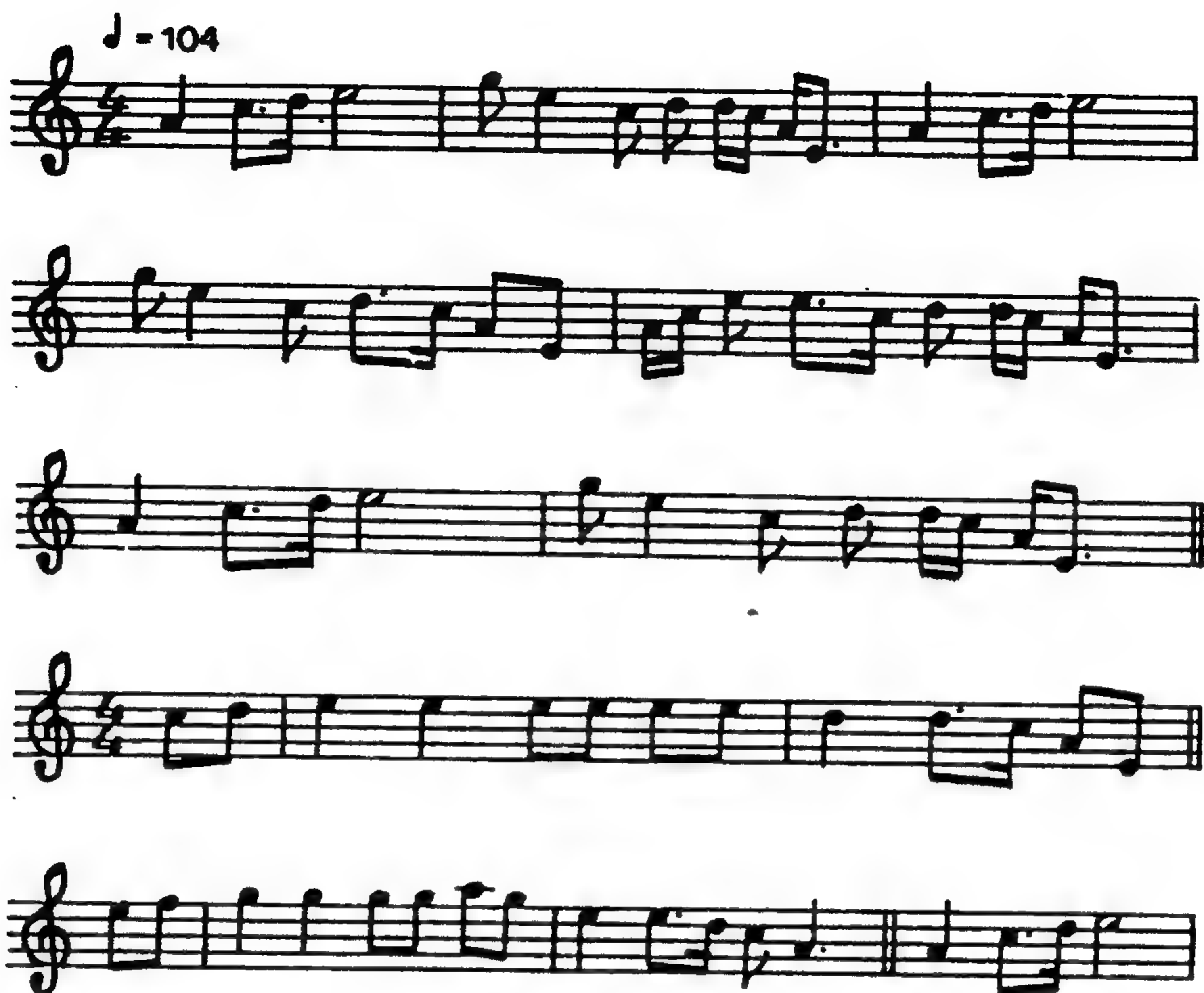
أحسن، أحسن، أحسن أيها الفتى الشجاع.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

كحذر تلك للوجة العاتية هناك تجنب تلك للوجة العاتية." (غير مفنى)

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

بكرة على بكرة." (غير مفنى)



خلقوا أسفل

تخلقوا أسفل. تخلقوا. تخلقوا جميعاً.

تخلقوا أسفل. تخلقوا. أقول لكم.

تخلقوا أسفل. تخلقوا. نعم قابلات الشيطان.

تخلقوا أسفل. نعم، قابلات الشيطان. حرم الجحيم من الكتاب المقدس.

كورس: تخلقوا أسفل.

نعم، الشيطان قال لى إنه يصلى من أجل الخطاة.

كورس

تخلقوا، تخلقوا جميعاً.

كورس

انزلوا اسفل هناك لتقابلوا الشيطان.

كورس

نعم، الشيطان قال لى إنه يدعو للخطاة.

كورس

نعم، قابلت الشيطان وقال إنه حرم الجحيم من الكتاب المقدس.

كورس

نعم، الشيطان قال لى إنه يصلى من أجل الخطاة.

كورس

انزلوا وقابلوا الشيطان.

كورس

تخلقوا ، تخلقوا جميعاً.

كورس

♩ = 138



اقرعوا جيداً

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً. أين ذهب بونى؟

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً. أين ذهب بونى؟

ارفعوا (غير مغنى)

ذهب بونى إلى النهر. ذهب لتفصل ملابس الطفل.

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً، أين ذهب بونى؟

ارفعوا (غير مغنى)

اقرعوا جيداً ، ذهب إلى النهر. تفصل بونى الملابس.

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً، أين ذهبت بونى؟

لوقفوا الرفع. (غير مغنى)



الجبال شديدة الارتفاع

الجبال شديدة الارتفاع والوحيان شديدة الانخفاض

مرحى مرحى يا لوشينيا

يا أمى لوشينيا أسف لآنى مضطر أن أقول

إتتا ماخسون فوق الجبل تماماً.

حين تكون الجبال شديدة الارتفاع والوحيان شديدة الانخفاض

مرحى، مرحى يا سوزانا، يا أمى أوشينيا
أسف أن أقول إننا ماضون فوق الجبل تماماً.

نعم نحن مقيدون فوق الجبل تماماً
حيث ينمو العشب الأخضر
جذفوا، جذفوا، أوشينيا أمى
أسف لآتى مضطر لأن أقول إننا ماضون فوق الجبل تماماً.

حين يكون الجبل شديد الارتفاع والوادي شديد الانخفاض
جذفوا، جذفوا، أوشينيا أمى،
يقسمنى أن أقول
إنى أسير فوق الجبل.



قدها يا قبطان^(٦)

قدها يا قبطان، قدها يا قبطان

هيا هيا هوبيا

نعم أنا متجه إلى الألباما

هيا هيا هوبيا

الباخرة ستصل غداً

هيا هيا هوبيا

قدها بعيداً يا قبطان، قدها
هيا هيلاً هوباً!

قدها يا قبطان، قدها
هيا هيلاً هوباً!
نحن متجهون إلى الألباما
هيا هيلاً هوباً!

نعم، هيا اتركوا كل شيء، أنتم جميعاً
هيا هيلاً هوباً!
عندما يحين موعد وصول الباخرة غداً
هيا هيلاً هوباً!

تقول إنك قبطان
هيا هيلاً هوباً!
أنتم متجهون الآن إلى الألباما
هيا هيلاً هوباً!

قدها يا قبطان، جريها
هيا هيلاً هوباً!
نحن متجهون إلى كندا
هيا هيلاً هوباً!



امضوا بقوة

امضوا بقوة، امضوا بقوة يا أبنائي، امضوا بقوة،
أيها الأمريكي جوني، فلتعض بقوة.
أيها الشجاع العظيم جوني، فلتعض بقوة.
أيها الأمريكي جوني، امض بقوة، أيها الشجاع العظيم امض بقوة.
أيها الأمريكي جون امض بقوة. ألا أيها الشجاع العظيم جوني
فلتعض بقوة.
من أي شيء تشك؟
امض بقوة أيها الشجاع العظيم جوني، فلتعض بقوة.

♩ 160



منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً جداً
أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد،
منذ وقت بعيد في خليج موبيل.
أحسنتم منذ وقت بعيد.

منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً جداً
أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد،
خط كلاب البحر في خليج موبيل القديم،
أحسنتم منذ وقت بعيد.

منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً جداً،
أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا
كانت ياردة قماش الدريل بأربعة بنسات،
أحسنتم منذ وقت بعيد.

منذ وقت بعيد فى خليج موبيل،
أحسنتم حاضر، حاضر، حاضر، نعم.
منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً.
أحسنتم منذ وقت بعيد.

انظر، انظر يا صغيرى، سألحقه أخيراً،
أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد.
انظر، انظر، انظر يا صغيرى سألحق به أخيراً،
أحسنتم منذ زمن بعيد.

منذ زمن بعيد فى خليج موبيل،
أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد،
منذ زمن بعيد فى خليج موبيل،
أحسنتم منذ زمن بعيد.

♩ = 104



end



"أسرعوا يا أولاد. أسرعوا"

سفينة أمريكية تسير في النهر

أسرعوا يا أولاد، أسرعوا

سفينة أمريكية تسير في النهر

أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا، أحسنتم.

فلتهب الريح اليوم ولا كهب غداً

أسرعوا يا أولاد، أسرعوا

أسرعوا يا أولادى الرائعين أسرعوا، أحسنتم.

سفينة أمريكية تسير في النهر

أسرعوا يا أولاد، أسرعوا

سفينة أمريكية تسير في النهر
أسرعوا يا أولادى، أسرعوا أحسنتم.

دعوني أحكى لكم ماذا يكل البيض فى عشائهم
أسرعوا يا أولاد، أسرعوا
ساق بعوضة وكبدة نيابة الرمل
أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا أحسنتم.

أحكى لكن ماذا يستعمل البيض لعمل عشائهم
ساق بعوضة وكبدة نيابة الرمل
أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا.

يقول الأمريكى "ملعون هؤلاء الزنوج"،
أسرعوا يا أولاد، أسرعوا
يقول الأمريكى "ملعون هؤلاء الزنوج"،
أسرعوا يا أولاد، أسرعوا
فلتهب الريح اليوم وليس غداً
أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا، أحسنتم.
والآن تذكروا أن تعودوا . " (غير مفعلى)

♩ = 96



البولدوج

سيدي، من أين جئت بهذا الكلب؟

لا تعضني يا بولدوج.

سيدي، من أين جئت بهذا الكلب؟

لا تعضني يا بولدوج.

يو، يو، يو كلب بولدوج كبير.

لا تعضني يا بولدوج.

بول، بول، بول کلب بولنوج کبير.
لا تعضنى يا بولنوج.

سیدی، من این جنت بهذا الكلب؟
لا تعضنى يا بولنوج.
سیدی، من این جنت بهذا الكلب؟
لا تعضنى يا بولنوج.

سیدی، من این جنت بهذا الكلب؟
لا تعضنى يا بولنوج.
بو، بو کلب بولنوج کبير
لا تعضنى يا بولنوج.

♩ =



Variant



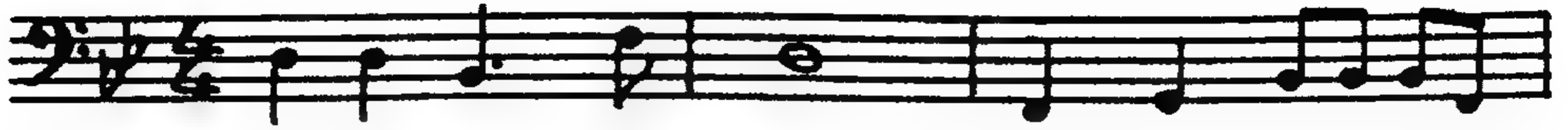
بحار في سفينة حربية

أفضل لك أن تتركني في حالي، أفضل لك أن تتركني في حالي،
يا بحار في سفينة حربية، أفضل لك أن تتركني في حالي.
هل تذكر ليلة أن قفزت من نافلتى؟
يا بحار في سفينة حربية، أفضل لك أن تتركني في حالي.
قفزت من نافلتى، وحطمت كل صحنى الصينى
يا بحار في سفينة حربية، أفضل لك أن تتركني.
أفضل لك أن تتركني في حالي، أفضل لك أن تتركني في حالي.

يا بحار في سفينة حربية، إنهم بحارة رائعون جداً،
يا بحار في سفينة حربية، أفضل لك أن تتركني في حالي.
يا بحار في سفينة حربية، إنه بحار رائع جداً.

يا بحار في سفينة حربية، أفضل لك أن تتركني في حالي.
أفضل لك أن تتركني في حالي، أفضل لك أن تتركني في حالي
أفضل لك أن تتركني في رداء نوى الطويل
يا بحار في سفينة حربية، إنه بحار رائع جداً.

$\text{♩} = 168$



also :



هيلو

هيلو يا ولد هيلو.

هيلو يا حبيبة من بالتيمور

هيلو يا اولاد هيلو

صباح يوم الإثنين من شهر مايو

هيلو يا اولاد هيلو.

هيلو يا حبيبة ونذهب بعيداً

هيلو يا اولاد هيلو.

صباح هذا الإثنين من شهر مايو

هيلو يا أولاد هيلو

قابلت امرأة وطرحتها أرضاً

هيلو يا أولاد هيلو.

وقعت على الأرض

ورأينا جميعاً أن [لها ؟] اساناً

هيلو يا ولد هيلو

يوم الإثنين من شهر مايو

هيلو يا أولاد هيلو

قابلت مستر إبليس ومعه كتاب مقدس كبير

هيلو يا أولاد هيلو.

كان يقرأ موعظة حمار ميت

هيلو يا أولاد هيلو

قابل رجلين وطرحهما أرضاً

هيلو يا أولاد هيلو.

قفز على ظهرهما وسار بهما

هيلو يا أولاد هيلو

قابل النساء وطرحهن أرضاً
هيلو يا أولاد هيلو.

سقطن على الأرض ورأينا جميعاً الستهن.

هيلو يا أولاد هيلو

مرت مربية عجوز وسخرنا منها

هيلو يا أولاد هيلو.

هيلو يا حبيبة وأه ها ها ها

هيلو يا أولاد هيلو

وهر رجلان عجوزان وسخرنا منها

هيلو يا أولاد هيلو.

يوم الإثنين من شهر مايو

هيلو يا أولاد هيلو

قابلت مس فيفي في أنس لا بن Anse la Pin

"اسحبوا البكاراً" (غير مغنى)

♩ = 92



هيا دعوني الحق بـروزابيلا. "ارفعوا" (غير مغنى)

هيا دعوني الحق بـروزابيلا. "ارفعوا" (غير مغنى)

هيا دعوني الحق. هيا دعوني الحق.

روزابيلا المرحه. "ارفعوا" (غير مغنى)

كوتراكتور ضرب أوريناكا، " ارفعوا " (غير معنى)

أوريناكا ضرب كوتراكتور، " ارفعوا " (غير معنى)

ضربها مرة، ضربها مرتان

ضربها وأوقعها في نهر أوردنوكى، " ارفعوا " (غير معنى)

هيا دعونا تلحق (هيا دعونا تلحق) بروزايبلا، " ارفعوا " (غير معنى)

هيا دعونا تلحق بروزايبلا، " ارفعوا " (غير معنى)

هيا دعونا تلحق، هيا دعونا تلحق.

روزايبلا المرحلة.

"انتبهوا للبكارة، اسحبوا ذلك الشيء بشدة." (غير معنى)

هيا دعونا تلحق (يكرر المقطع ثلاثة)

"شدوا الحبل المرتقى" (غير معنى)

هيا دعونا تلحق بروزايبلا، "إنها تبدأ المسير" (غير معنى)

هيا دعونا تلحق بروزايبلا، "هاهى تبدأ الآن."

هيا دعونا تلحق، هيا دعونا تلحق.

روزايبلا المرحلة.

أوريناكا ضرب كوتراكتور، " ارفعوا " (غير معنى)

أوريناكا ضرب كوتراكتور، " ارفعوا " (غير معنى)

خريها مرة، خريها مرتان

خريها وأوقعها فى نهر أوردنوكو. " ارفعوا " (غير مغنى)

هيا دعونا تلحق بروزابيلا. "أعيدوا تلك البكارة." (غير مغنى)

هيا دعونا تلحق بروزابيلا. " ارفعوا " (غير مغنى)

هيا دعونا تلحق. هيا دعونا بروزابيلا المرحه.

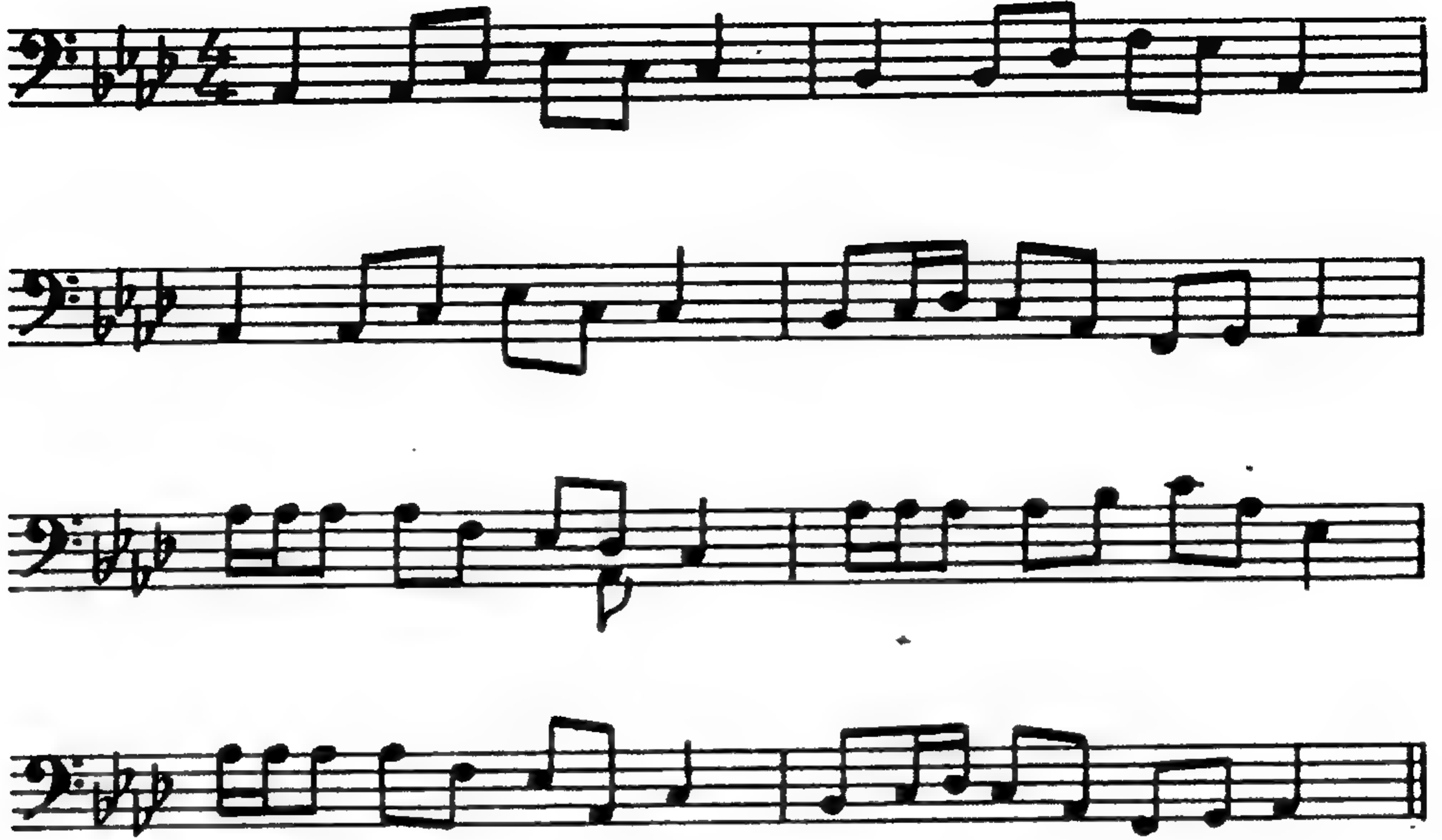
إنها تبدأ المسير. " (غير مغنى) هيا دعونا تلحق بروزابيلا.

"هاهى تبدأ الآن." (غير مغنى) هيا دعونا تلحق بروزابيلا.

"أكثر وأكثر." (غير مغنى) هيا دعونا تلحق. هيا دعونا تلحق.

روزابيلا المرحه. "شدوا تلك الحبال ثم أرخواها." (غير مغنى)

♩ = 104



موزيس العجوز

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما في وسعك.

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما في وسعك.

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما في وسعك.

فقد سبقتك القديسة هيلارى.

إذا كانوا يعرفون أنهم يضرربوتك هناك

إذا كانوا يعرفون منذ زمن بعيد

**إذا كانوا يعرفون أنهم يحتجونك هناك
فقد سبقتك القديسة هيلارى.**

**هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.
هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.
هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.
فقد سبقتك القديسة هيلارى.**

كورس

**إذا رأوا نكر الصوت الكبير
إذا كانوا يعرفون أنه أمامى
إذا رأوا أنتى الصوت الكبيرة
فالقديسة هيلارى تسبقنا.**

كورس

**إذا كانوا يضربون نكر الصوت الكبير هذا
إذا كانوا يضربون بواحد، باثنين
إذا كانوا يضربون نكر الصوت الكبير هذا**

فالقديسة هيلارى تسبقنا.

كورس

**إذا كانوا يرون أنتى حوت كبيرة
إذا كانوا يرون نكورها وإناثها
إذا كانوا يرون نكر الحوت الكبير هذا
فالقديسة هيلارى أمامنا.**

كورس

**هيا أيها العجوز موزيس - "سيروا يا أولاد!" (غير مغنى)
هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك - "اقفزوا للأمام"
(غير مغنى)**

**هيا أيها العجوز موزيس، "جذفوا يا أولاد!" (غير مغنى)
هيا أيها العجوز موزيس، "توجهوا إليه الآن!" (غير مغنى)**



"لقد مت يا بابي" (٨)

أسرعوا يا أولاد أسرعوا
يا بابي الرائع لا أراك رائعاً
رائع أسرعوا يا أولاد أسرعوا
تسلق الأشعة ولا تستطيع بلوغ الأشعة العليا
رائع غندور، غندور، غندور.
إنك تحاول يا بابي ولكنك لا تفلح
إنك لا تذهب

إنك تأخذ قطعة من حبل النار، وتصنع حبل الركبة

رائع أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا

إنك تحاول يا بابي، ولكنك لا تستطيع الاستمرار

رائع أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا.

إنك تحاول وترسو ولكنك لا تستطيع الوصول إلى الرصيف

رائع أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا

الشراب في رأسك، وفي قدمك

رائع أسرعوا يا أولاد أسرعوا.

الرجل المغمور لا يمكنه الصعود لأعلى يا بابي، ألا تعرف ذلك.

إذا تجاوزت دعامة الصاري وأنزلت الشراع الرئيسي

فسوف تعيش طويلاً.

وإذا وضعت يداً على أعلى ذلك الصاري

بابي إنك لا تعرف

إذا سقطت ووقعت على السطح

فستموت يا بابي كالسمكة

ولذلك يا بني يا بابي لا تشرب أي روم

مرة أخرى قبل أن تتسلق

لأبد أن تتسلق ورأسك صاف يا بني يا بابي.

لقد نسيت الشراب في جيبيك

ألا تعرف يا بابي أنك عندما تصل إلى أعلى تحصل على (-)
لقد سقطت يا بابي.

والآن تحدث مشاكل كثيرة للبحارة لكي يوصلوك الشاطئ
ويبلغون خبر وفاتك لابنتك العزيزة
لقد مت يا بابي.

سوف ننزل إلى وسط السفينة ونخيط عليك جيداً
سوف نتركك يا بابي
سوف نلقى بك في أعماق البحر
وسوف ندفنك هناك.

سوف نرسل رسالة إلى أطفالك وزوجتك
نقول فيها إنك مت بسبب الروم
لأن الروم كان جلوياً وكنت أنت الأمل
وبنتك سقطت من أعلى.

وكان القبطان داخل القمرة بمفرده
حين رآك أول مرة
يدك مكسورة وساقك مكسورة
إنه يوم عمل شاق يا بابي

وساعتها حاولوا صنع مركب شراعى رائع
كى ياخذك إلى الشاطئ
ولكن لا فائدة لأنه ليس هناك طبيب على الشاطئ
الا تعرف ذلك يا بابى.

وإذ لك نحاول أن تسرع للخروج من البحر
لقد مت يا بابى
واكتك خلقت عملاً شاقاً جداً للبحارة
كى يخطوا الأشرعة المبللة
ولكنهم لفوك فى خرق موصولة بطريقة أو بآخرى حين جاك الموت
وفعلنا ذلك كلحسن ما يكون. ووضعنا قطعتان كبيرتان من حديد
فوق رأسك. وأغرقناك.
وشاهدناك وأنت تتجه صوب القاع على الأقل
فى البحر العميق العميق
وتواريت عن الأنظار.

ولكن أصفر البحارة كان يقف عند درابزين المؤخرة
وكان نائماً حين رأى بعض الفقاعات
ظن أنك عدت واكتك كنت قد ذهبت
وهم يتذكرون أخبار الأسيرة ولكنهم يقاومون فى أنفسهم
ولكن أكثر ما يفعله القبطان هو أن يصرخ "انظر. انتظر هناك."

كان بابى طيباً وبحاراً مغموراً جداً، لقد مات بابى،
وأرسلوا برقية إلى زوجته، "مات بابى".
وهم يتعجبون حين عرفوا أنه لم يقل كيف مات
إنهم لا يعرفون بالمرّة، ولكن حين تصل السفينة الميناء
سيقولون للأسرة،
"هذا هو وقت بداية البكاء".

هناك نوع من الغناء أكثر فنية بكثير كان يغنى فى عنبر البحارة، وكانت الأغاني
فى هذا المكان أكثر تواصلاً، وكانت جودتها السردية أكثر اكتمالاً من حيث النمو، وكان
تنوعها أكبر.

وفى الرحلة الطويلة كان الوقت الذى يختلى فيه البحار إلى نفسه ضئيلاً. وطبقاً
لقصيدة صغيرة سجلتها دانا، كانت الحياة كئيبة بعض الشيء:

سوف تعمل لمدة ستة أيام

أشق ما يمكنك

وفى اليوم السابع اغسل السطح بالفرشاة

وأصلح الحبال.

ولكن يبدو أنه عندما يكون لديه وقت للراحة فإنه يسلى نفسه بعدد محدود من
الطرق؛ عن طريق عمل العقد، والحفر على الخشب والعظم (وتسمى المنحوتات
العظمية)، والرسم، ورواية الحكايات، والغناء. وكثير من الأغاني التى كان يغنيها كانت
أشهر أغاني ذلك الوقت التى التقطها من أماكن التسلية على الشاطئ. وكان بعضها
فاحشاً والبعض الآخر عاطفياً، وربما يحمل إشارات إلى البحر وقد لا يحمل. وقد يغنى
أغان كتبها كُتّاب الأغاني التجارية على الشاطئ عن البحارة؛ مثل "دفن المحيط" أو
"المعطف الأزرق" أو "كوخ على البحر" التى تبدأ بما يلى:

منذ عام مضى كالليلة يا حبيبي
أصبحت عزوسك الفجلة
وعدتني بأن أكون سعيدة
ولكني لم أجد أية سعادة
لأننى الليلة أرملة
فى كوخ على البحر.

والبحارة كجماعة، شأنهم شأن معظم الجماعات الشعبية، لديهم ميل إلى العاطفة والرومانسية والفحش، وكانت تلك الأغاني تتلاءم مع حاجاتهم تلاعماً كبيراً. والنمط الثالث من الأغاني كان بالفعل أغاني بحارة ولم تكن كغيرها تعديلاً أو تحويراً. وكانت فى أغلب الأحيان من نظم البحارة أنفسهم. وهذه هى الأغاني التى تحتاج إلى قدر أكبر من التمهيص.

ويتضح على الفور للناقد أن المؤلف الشعبى كانت لديه معايير شديدة التحديد يلتزم بها التزاماً وثيقاً حين يؤلف أغنية ما. فهو فى البداية يختار موضوعاً - وعادة ما يكون موضوعاً درامياً - وهو يعطى للحركة أهمية على الفلسفة. وفى بعض الأحيان كان يغنى عن سفينته، أو عن جمالها أو سرعتها، أو عن صفات العمل فى البحر. وفى الأغلب الأعم كان يغنى عن المأسى؛ أى عن تحطم السفن، أو العواصف، أو المعارك، أو أعمال التمرد، أو الأشباح، أو الموت المفاجئ والرهيب.

وما إن يضع يده على موضوع ما حتى يصبح بحاجة إلى لحن. ومع أنه يؤلف اللحن فى بعض الأحيان، فهو عادة ما يختار لحناً خاصاً بأغنية أخرى؛ إما أغنية بحارة أو أغنية شائعة سمعها على الشاطئ فى البار، أو فى الكنيسة، أو فى المرقص. وكان يؤلف الكلام على اللحن، وفى بعض الأحيان كان يخضع الكلمات للموسيقى؛ ولكى يتعرف الآخرون على اللحن، كثيراً ما كان يدخل عنوان الأغنية الأصلية فى النص، وهى حيلة تعرف باسم "التوقيع". ومن ثم فقد نجد فى مكان ما من النص

بيتاً يقول "عزف سفوح أيرلندا" على مدى تسع ساعات أو "سوف تحمل النجوم والأشرطة للأبد".

وفي كثير من الأحيان تكون للأغنية بداية ثابتة. وكانت تشيع بين المؤلفين الأيرلنديين بصورة خاصة بداية "تعالوا جميعاً"، مثل "تعالوا جميعاً أيها البحارة الشجعان واستمعوا إلى أغنيتي". وفي أحيان أخرى تبدأ الأغنية ببيت يحدد زمان الأغنية ومكانها، مثل "كان الرابع من يوليو حين أبحرنا"، أو "كل ربابنة سكارزبرج/جلسوا يحتسون النبيذ/وهناك..." وفي بعض الأحيان كذلك يكون من المفترض أن يحدد البيت الافتتاحي المغنى أو الحدث الأصلي؛ "تشارلز جوستابوس أندرسون، هذا هو اسمي" أو "إنها السفينة لوسى فوستر"، إنها سفينة صيد من جلوسيستر".

وكثيراً ما يكون بين كل مقطع كورس يمكن أن يغنيه كل البحارة، ولكن غالباً ما يؤديه المغنى منفرداً. وعادة ما تكون الممارسة بين البحارة الأمريكيين هي إنهاء الأغنية بدرس أخلاقى يحث الرجال على تحاشي الخمر أو النساء أو صحبة السوء أو بعض القوى الأخرى المفسدة للأخلاق في حياة البحار العادى. ومن المعتاد كذلك أن يؤدي البيت الأخير تلاوة لا غناء لجعل الحاضرين يعرفون أنها انتهت بالفعل.

كان هناك اعتقاد شائع بأن المغنى يؤجر في كل طاقم ليغنى أغان ويقود أغاني البحارة. وإذا كان هذا صحيحاً فلم يعثر على تسجيل لهذه المعاملات قط. بل إن أى قبطان ما كان ليوافق على استئجار مثل هذا الشخص لأغراض ترفيهية. فقد كان المغنون مطلوبين على متن السفن لجعل العمل منسجماً وإضفاء البهجة على ساعات الراحة، ولكنهم كانوا يستأجرون للعمل أولاً وللعب بعد ذلك.

وبما أن شكل الأغنية موجود أمام المؤلف، فإن عليه الآن أن يضع التفاصيل ويوجد لغة القصيدة. وفي الفئة الأخيرة كانت أبيات وعبارات بعينها شائعة بين العاملين في البحر، وكانت تلك الأبيات والعبارات، وحتى المقاطع، تأتي في أغنيات مختلفة حتى تصل إلى حد الأقوال المبتذلة. (لاحظت مرة أن عبارة "الفتاة التي تركتها

ورائى" تكررت فيما يزيد على اثنى عشرة أغنية ولتكد فى العمل أو لتمت" فى نفس العدد تقريباً) .

أمامنا الآن معظم أنوات حرفة المغنى، ولا يبقى إلا أن نرى كيفية استخدام هذه الأشياء. كان أهم شيء هو دقة التفاصيل والالتزام بالأحداث؛ ليس كما ينبغي أن تكون، ولكن كما "حدثت بالفعل". (تتبع المؤلف فى المسافة من إنجلترا إلى أيرلندا خطى بول جونز كما جاءت فى "الجنوبى العظيم" - أغنية عن الثورة الأمريكية - وكانت علامات الطريق تظهر الواحدة تلو الأخرى فى المكان الصحيح والزمان الصحيح.) وخلاف ذلك، كان المؤلف يحاول دائماً تعريف السفينة بصفاتها، وبذلك قيل لنا إن بالإمكان معرفة السفينة "جون" عن طريق "الذيل الملق على شراعها الخلفى". وحينما يكون ممكناً، يشمل ذلك الطاقم، من القبطان إلى الصبى الخادم، ويعرف كل منهم بطريقة خاصة :

كان وكيل قبطاننا من دارتماوث، وكان اسمه مستر رود،

وحين يتصل الأمر بقيادة السفينة، كان بحق رجلاً جيداً جداً^(٩) .

لم يكن المؤلف يعرف سفينته وطاقمه وحسب، ولكن يبدو أن البحار كان يتكون لديه على الدوام حب لسفينته، مع أنها ربما كانت ضئيلة فى بعض الأحيان. وعلى أية حال فإن الأغاني التى تتناول السفن يبدو دائماً أنها تتصورها على "إنها سفينة ليفربول، أسألك يا إلهى أن تسيرها" أو "كانت السحابة الطائرة سفينة جميلة كأجمل ما تكون السفن التى سارت فى البحار/أو فردت فى يوم من الأيام شراعها العلوى أمام ربح طيبة". بل إنه كان يقبل دائماً أفضل صفات السفينة، وأبرزها سرعتها: "إنها تسبق بسهولة أية سفينة تخرج من بالتيمور" .

وحين لم يكن المغنى يمتدح سفينته وطاقمها، كان عادة ما يروى إحدى حكايات المأسى. وغالباً ما كان يدمج العادات والمعتقدات والخرافات فى تلك الحكايات. وفى أغنية "ويليام جلين"^(١٠) ، على سبيل المثال، تعتمد الحكاية بالكامل على حقيقة أن هناك قتالاً على السفينة. وما إن يكتشف ذلك حتى يلقي الطاقم بالطرف المذنب فى البحر، وتهداً العاصفة وتمضى السفينة فى سبيلها. والفكرة التى وراء هذه القصة بطبيعة

الحال هي أن البحر لن يسمح لأي شخص يداه ملوثتان بالدم أو الديون بالبقاء حياً على سطحه. وإذا ما أمعنا القراءة أصبحت أغاني البحر تعبيراً مصغراً عن كل من المأثورات البحرية والحياة.

تبقى نقطة واحدة لا بد من توضيحها، وهي المغنى وأدواته. فقد كانت الأغاني تؤدي عادة بلا أدوات موسيقية مصاحبة، مع أن الكونسرتينة(*) (وتسمى البيانو البحري) كانت تستخدم في بعض الأحيان، وفي حالات كثيرة جداً كان الحاضرون يحفظون الإيقاع بدق السطح بأقدامهم أو بالدق على الطاولة. وكان المفهوم الشائع لألات البانجو(**) والكمان والجيتار كأدوات مصاحبة أمر يبعث على السخرية وحسب. فلم يكن هناك مكان في عنبر البحارة لمثل هذه الأمتعة الشخصية. وعلى أية حال فإن البحر معاد للغناء والأوتار وكل ما يستخدم في صنع تلك الأدوات.

وعلى عكس الاعتقاد الشائع، فإن البحارة يميلون بشدة إلى التعصب لجماعتهم. وهناك ميل قوى إلى التمسك بنوع واحد من السفن والمهن في البحر. ويوضح تشارلز نوردهوف Charles Nordhoff هذا في كتابه Whaling and Fishing [صيد الأسماك وصيد الحيتان] حيث يبين مقدار الصعوبة التي وجدها بحار إحدى السفن التجارية في العثور على عمل على إحدى سفن صيد الحيتان. وهو يقول إنها حقيقة وحيدة هي أن البحار يمكنه أن يقول ... من نظرة واحدة ما هو القسم الخاص ... الذي اتبعه في الأغلب الأعم. ... فبحار السفينة الحربية يُعرف بالزى المهندم الذي فيه بعض الزهو ... وبحار السفينة التجارية خشن ... وصياد الحيتان ... ذو أكتاف مستديرة ... ولا يتسم إلا بمظهر رث^(١١).

نتيجة لهذا كان هناك ميل شديد إلى تأليف أغاني تدل على تخصصات العمل البحري. وبما أن أنواع العمل البحري شديدة الاختلاف، فإن الأغاني تختلف اختلافاً واضحاً رغم تمسكها بنفس أنماط التصميم. فعلى سبيل المثال، كانت سفن صيد

(*) أكورديون صغير مسدس الشكل به منفاخ وأزرار يعزف بها ويمسكه العازف بيده من أحد طرفيه (المترجم).

(**) آلة وترية لها رقبة رفيعة وجسم مفرغ مستدير مشدود عليه جلد رقيق فوقه جسر الأوتار (المترجم).

الحيتان تشتهر بأن بها بحارة أغبياء وبأنها أقذر سفن تطفو على سطح البحر. (وقد قيل إنه حين عادت السفينة "تشارلز دابليو مورجان" إلى نيو بدفورد من رحلتها الأخيرة، فإن رائحتها الفتنة كادت تجعل سكان المدينة يفرون منها، وقد سحبها مجلس الصحة إلى خليج بازاردز إلى أن نظفوها وطهروها).

لذلك كانت الأغاني التي تؤلف عن سفن صيد الحيتان تذكر القليل عن الأشرعة التي لا تشوبها شائبة، أو تغيرات السرعة الكبيرة، أو سهولة إدارة السفينة. بل لقد كانت تتحدث عن الحيتان حين يمسكون بها أو تقلت منهم، أو عن مسابقات السحب، أو عن مخاطر قتل الحيتان، أو عن خطر الثلوج، أو عن ملل الرحلة الطويلة. وكانت الأمور التي تحظى باهتمام كبير من معظم البحارة، وعلى الأخص صيادي الحيتان، هي الأجور المنخفضة والطعام السيئ وهؤلاء الطفيليون الذين على الشاطئ ممن يغفون الرجال على العمل في البحر، وأصحاب الخمارات، ومديرو الأتزال (جمع نُزُل) الذين كان يعتمدون على الاستيلاء على أجورهم مقابل توفير سبل العيش.

ولدى صيادو الأسماك كذلك أغانيهم التي تمجد أشياء عديدة خاصة بمهنتهم. فهم عندما كانوا يبحرون في سفن صغيرة "تزن مائة طن أو أكثر" ذات أشرعة أمامية وخلفية يغنون عن سمات خاصة تتعلق بما يتعرضون له من مخاطر؛ مثل فقدان الطريق في القوارب الصغيرة، والتعرض للدهس من السفن الضخمة في الضباب، وقدرة ربابنتها على قيادة السفن إلى السوق.

وبحارة السفن التي تسير بمحاذاة الشاطئ لهم كذلك أغانيهم التي تمجد سفنهم أو تناقش صفاتها وتتحدث عن الموانئ المحلية والتجارب المرحية ومخاطر الشاطئ القريب. وبما أن الإبحار بمحاذاة الشاطئ، على الأقل في الولايات المتحدة، لم يكن يعتبر في الواقع عملاً بحرياً وغالباً ما كان يعتبر عملاً لبعض الوقت يدار على أساس عائلي أو محلي، فقد كانت أوضاع الأطقم تختلف بعض الشيء عن أوضاع رجال المياه العميقة. (وفي هذا الصدد، يقول القبطان سبرلينج Captain Spurling من إيلزفورد Islesford بولاية مين: "لم يكن والدي يعمل في البحر. لقد كان يعمل على السفن التي تسير بمحاذاة الشاطئ ولكنه لم يذهب قط إلى الخارج." كما ذكر كذلك أن شقيقه كان

"صياد أسماك" لأنه كان يذهب إلى جراند بانكس على متن سفن السكونة.) وكان لكل نمط من أنماط السفن التي تسير بمحاذاة الشاطئ أغانيه وحكاياته التي تؤلف عنه، بدءاً من أغنية عن "إليزا جين" Eliza Jane التي كانت سفينة قديمة جميلة جؤجؤها عند المؤخرة إلى أغنيات عن صنادل نهر التيمز التي كانت في يوم من الأيام شائعة على الشاطئ الإنجليزي.

وكانت السفن الكبيرة وسفن المجهود الحربي وسفن البريد والسفن الشراعية السريعة تميل إلى أنماط أخرى من الأغاني. فقد كانت سفينة المجهود الحربي تغنى عن المطاردة، والمعارك التي تجرى عن قرب، وأعمال الحرب البطولية، وقدرة القبطان العظيمة وصلابة السفينة وسرعتها، ومهارة الطاقم. وقد وصلنا عدد قليل من الأغاني مثل أغنية عن "القبطان موت" Captain Death، وهي سفينة مشهورة من سفن المجهود الحربي في القرن السابع عشر.

وكان بحارة السفن التجارية يتحدثون عن الحريق وتحطم السفن وكيب هورن وأستراليا والفتيات المبهرجات ومخاطر الحياة على الشاطئ، ولكنهم كانوا يركزون بصورة خاصة على سرعة السفينة؛ كما في "سفينة بريد ليفربول" و"السحابة الطائرة" وغيرها من الأغاني. وكثيراً ما كانوا يغنون عن المصاعب التي على متن السفينة، أو الجماعات العرقية المختلفة التي في الطاقم، أو ما كان يحدث أثناء الرحلة. ومن الغريب إلى حد كبير أن هذه الأغاني لم تكن بحاجة إلى الارتباط بالسفن الشهيرة حتى يكتب لها البقاء. فإحداها، وهي "جوزي ووكر" عن إحدى سفن البريد التي كانت تخص عائلة ووكر من نيويورك. وقد احترقت في الميناء بعد الانتهاء من رحلتها الأولى، وبذلك أحدثت ضرراً بالغاً لسفينة تخص كورنيليوس فاندربيلت Cornelius Vanderbilt. وقد ظلت الدعوى القضائية التي نجمت عن هذا الحادث قائمة إلى ما بعد انتهاء حياة السفينة.

وكان الكثير من أغاني بحارة المياه العميقة لا يحكى قصصاً تتضمن مخاطر البحر وحسب، بل كذلك معتقدات البحارة وخرافاتهم. وتبين أغنية "حدث ذات صباح يوم جمعة" ما يحدث حين تغادر سفينة الميناء في ذلك اليوم ثم تلتقى بعروس البحر. وتحكى "الهولندي الطائر" ما يحدث حين يلتقى الشخص مع تلك السفينة المخيفة قبالة

كيب هورن، وتحكى "الصيادون الأشباح" حكاية "البرهان الحى" الذى أغرق الرجال وسوف يظل يصعد على متن السفينة التى فقدوا منها حين تعود إلى تلك البقعة المميّنة مرة أخرى.

لا يعنى هذا بطبيعة الحال القول بأن أنواعاً بعينها من الأغاني كانت تغنى فقط فى سفن معينة، أو أنه لم يكن هناك تحول من سفينة إلى أخرى. فقد كان هناك تحول، حيث كان بحارة صيادو الحيتان يذهبون إلى إحدى السفن الحربية ويذهب بحارة السفن الحربية إلى السفن التجارية من حين لآخر. وكانت تلك الأرواح المهاجرة تأخذ أغانيها معها. ومن ثم فقد تستخدم أغنية "الورل ونهر ميريماك" لإمتاع الساحرة التى تحت الماء عند الدوران حول كيب هورن، أو قد يغنى صيادو الحيتان "شواطئ نيوفاوندلاند" وهم على متن سفينة بريد متجهة إلى أيرلندا. وفى النهاية تصبح هذه الأغاني جزءاً من ذخيرة بحارة المياه العميقة كافة، إن هى صادفت هوى فى نفوسهم. ولكن أغلب الأغاني التى تغنى فى فئة بعينها أو نمط معين من السفن تظل بصورة عامة مرتبطة بتلك الفئة أو ذلك النمط إلى حد كبير. وفى نهاية المطاف فكلما طالت الرحلة كان من المتوقع العثور على أغان أكثر. ولا يعنى الأمر أن جامعى الأغاني كانوا أكثر تحمساً فى بحثهم عن أغاني صيد الحيتان، ولكن كل ما فى الأمر أن صيادى الحيتان كان لديهم وقت أطول لتأليف الأغاني ووقت أطول لغنائها.

وعلى عكس أغنية البحارة، كانت أغنية عنبر البحارة أفضل. فحين استعويض عن عمل الجماعة بالأجهزة الميكانيكية، ماتت أغنية البحارة، ولم يجر إحيائها إلا لكى تعزفها الفرق الموسيقية باعتبارها نوعاً من الترفيه الشائع. وتشبه علاقتها بهذا الشكل حيواناً فى حديقة الحيوان مقابل آخر فى البرية. ولم تتعرض أغنية عنبر البحارة الأطول والأكثر تنظيماً لتغيير كبير. وقد وصلت إلى البر وغنوها فى البيوت وحورت لتلائم مهناً أخرى. وظل بعضها شائعاً باعتباره أغاني رعاة بقر وكأغاني مناجم وكأغان يغنونها فى غابات قطع الأخشاب. والواقع أنه قيل لنا إنه حين كان الوقت عصيباً وكانت الوظائف شحيحة فى ميشيجان، لم يكن أحد يُستأجر للعمل فى معسكر قطع الأخشاب ما لم يكن قادراً على غناء أغنية "السحابة الطائرة" بالكامل.

وقد اختيرت الأغاني التي تضمها المجموعة التالية من بين مئات لتوضيح الأفكار التي ذكرناها هنا، ولا تمثل حتى أصغر مجموعة من الأغاني. ولنتنظر إلى الأغاني نفسها ونرى كيف تتفق إلى حد كبير مع الحقائق التي سبق ذكرها.

آلان الصغير^(١٢)

كل ربابنة سكارزيرج
جلسوا يحتسون النبيذ،
هناك شخص يثيرهم على بعض
في وقت غير عادي.

البعض هناك أثار صقرهم، صقرهم،
والبعض أثار كلبهم،
ولكن آلان الصغير أثار سفينته الجميلة
وهي واقفة على الأرض الجافة.

ليست هناك سفينة في سكارزيرج
ستبحر مع سفيتي،
إلا أن تكون برجيس بلاك
أو سوى مركب يسمى توأين.

"ليست هناك سفينة بينكم جميعاً
سوف تبخر معي،
ولكن السفينة الجميلة من هيكلاندهوك،
وزهرة يارمين،
والحية السوداء من لندن؛
جميعها سبقتني."

يتحدث هتبي صغير
يقف بجوار ركبة ألان،
"سيدي لديه سفينة فحم
سوف تفسد عليكم تدبيركم."

"سوف تروح وقد فردت أشرعتها
وتعود عكس اتجاه الريح،
وتسع مرات في ليلة شتوية
سوف تبعد الريح عنكم."

وحين تراهنوا فيما بينهم
على خمسين برميل نبيذ كاملة،
بالإضافة إلى حرير أسود جيد جداً
في نعومة ملابس محبوباتهم،

وحين ذهب الجميع إلى قواربهم،
كى يبقوا الليل كله،
ذهب الآن الصغير إلى كوخه
لكى يصلى لربه.

كن يذهب أحد إلى سفيتتى
حتى أتلو صلاتى وأتعشى،
وأستأنن من زوجتى،
ثم أذهب إلى سفيتتى الجميلة.

وبعد ذلك أبحروا شرقاً يوم السبت،
ويوم الأحد أبحروا غرباً،
وكذلك فعلوا يوم الإثنين
حتى الثانية عشرة حين استراحوا.

وفى ظلام منتصف الليل هبت الريح
وبدا البحر يضطرب،
حتى دار الآن وسفيتته الجديدة
ثلاث مرات حول الأرض القاحلة.

ويقول الآن الصغير متتهداً
"إني أخاف العاصفة القاتلة،
لأن البحر الرافع الخافض المفرق
يضرب مؤخرة سفيتتى."

"من أين لى بصبى صغير
يتولى الدفة عنى
حتى أصعد إلى شراعى الأعلى
وأبحث عن أرض جافة؟"

"هيا أيقظوا رجالكم السكارى
حيث يرقنون وقد أسكرتهم الخمر،
ذلك أنكم حين دخلتم مدينة إينبره
اشتريتم لهم ملابس لامعة.

لم يكن هناك حذاء لقدمى،
ولا قفاز ليدى،

ومع ذلك يا سيدى العزيز
سوف أمسك بالدفة
حتى تصعد إلى الشراع الأعلى
وتبحث عن أرض جافة.

”وها أنا هنا ذا الصبي الصغير
سوف أمسك بالدفعة،
حتى تصعد إلى شراعك الأعلى،
ولكن لا تبق طويلاً يا سيدي.”

”لا أرى أية فرصة، أية فرصة،
ولا أعرف أى ملمح مميز؛
ولكن الكثير من الأسرّة الجميلة المصنوعة من الريش
تطفوا فوق الزيد
والمركب الجميلة من نورمانشور
لن تعود ثانية للوطن.”

المركب الجميلة من نكلنجيم
كانت تبحر بجواره،
وتقول اهبط، اهبط، أيها القبطان الطيب،
سفينتك تبحر على الرمل.

”اهبط، اهبط يا سيدي الطيب
فإنك لا ترى ما أراه،
لأننى أرى أعشاب البحر
فى كل مكان من مركبنا الجميلة.”

”خذ خمسين نراعاً من القماش الجيد
ولف بها السفينة،
واعتنى بها ولا تستغنى عنها،
واجعلها سليمة معافاة.

”إذا كنت ستبحرين، يا سفيتتى الجميلة،
حتى نصل إلى أرض جافة،
فمقابل كل مسمار حديد فيك،
سيكون هناك عشرة من الرب.”

كانت السفينة تستمع طوال ذلك الوقت كله،
وحين سمعت عن أجرها
طارت مسرعة في البحر
كتطاير الشرر من النار.

وكان أول شاطئ وصلوا إليه
يسمونه هاودلوت،
حيث أبعدوا سفيتتنا الطيبة
بقرع الطبول وضجيج المدافع.

وكان الشاطئ الثاني الذي وصلوا إليه

يسمونه هاوييلي

حيث أعادوها إلى البحر

بقرع الطبول وأصوات النفير.

وكان الشاطئ الثالث الذي وصلوا إليه

يسمونه هاوييلين

حيث قطروا سفينتنا الطيبة

بقرع الطبول وأصوات النفير.

نزل البحارة على الشاطئ،

وهم يرتدون الملابس القيمة الرائعة التي أصلحوها،

وشكروا الرب وسبيتهم

على إعانتهم سالمين من جديد.

"لأننا خرجنا من سكارزبرج

مع خمسين سفينة وثلاث،

ولكن أيًا منها لم يعد

إلا الآن الصغير، كما ترون."

اهبط، اهبط، أيها الصبي الصغير،
كي أرفع لك أجرك،
ليس لدى سوى ابنة،
وسوف تتزوجها."

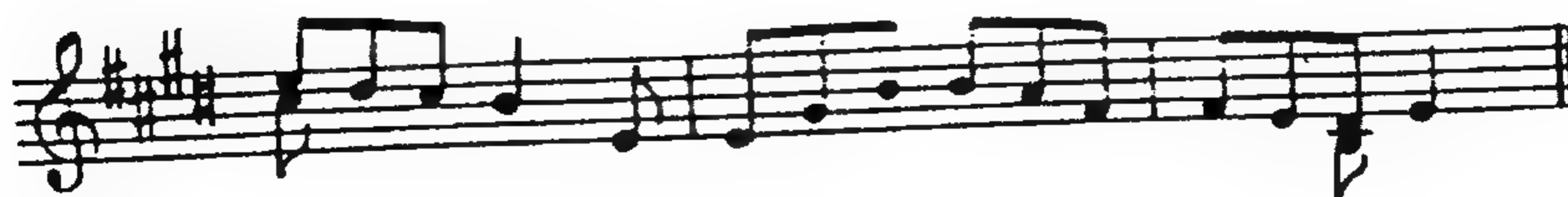
J. = 54



Variants



J. = 63



الأميرة الملكية الشجاعة^(١٢)

كان الرابع من يوليو حين أبحرنا

قال الرجل الذى على رأس صاريننا " أبحروا! " صاح

وبصوت مرتفع قال النفير "إلى أين تتجهون؟"

"نحن متجهون إلى الشمال الغربى صوب القاهرة^(*) لنراها

نحن نسير مع النهر، نتجه ناحية الشمال الغربى إلى القاهرة لنراها

فهل تشدون أشرعتكم العليا وتسيرون سفينتكم إليها؟

لأن لدينا بضعة خطابات نرسلها معكم."

ينهض كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لن يحدث."

ويقفز قبطاننا قائلاً "ماذا سيفعل؟"

ويقفز قبطاننا قائلاً "ماذا ستفعلون؟"

سوف نهز سفينتنا اللطيفة وكذلك طاقمنا.

ثم يتقدم كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لن يحدث."

ثم يتقدم كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لا يمكن أن يحدث."

(*) مدينة صغيرة جنوبى إلينوى بالقرب من التقاء نهري الميسيسيبي وأوهايو، وقد سميت على اسم القاهرة المصرية لتشابه موقعها بالقرب من دلتا النهر. (المترجم)

ثم يتقدم كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لن يحدث".
لأننا سوف ننشر أشرعتنا ولا بد أن تعود السفينة للوطن.

"فلتهبطوا إنن إلى أسفل يا أولاد وتتفحصوا تلك الأسافين،
اهبطوا يا أولاد ودمعوا تلك الأسافين،
اهبطوا يا أولاد ودمعوا تلك الأسافين،
لأن الأميرة في خطر، فسوف ترفع الرايات."

لقد أطلقوا نيرانهم، يا رجل، ولكن لا يمكن تحقيق النصر
رغم كل ما أطلقوه، يا أولاد، لا يمكن تحقيق النصر.
رغم كل ما أطلقوه، يا أولاد، لا يمكن تحقيق النصر.
اهبطوا إلى أسفل وغنوا بمرح
وسوف تتدفق دلاء الشراب كائنها الماء المالح.

"أخبروه سبب هذه الأغنية الآن."

"أترون، لقد كانوا يقومون بالقرصنة وكانت كل سفينة تمر كانوا يذهبون ويفرقون
السفينة ويأخذون ما فيها. يأخذون المال وكل شيء، أترون، وأحياناً كان كل
الرجال يفرقون. ومن حين لآخر كانوا يفرقونهم؛ لا يمكنهم اللحاق بهم، ولكن هذه
كانت تسير وحين رأتها، اتجهت إليها، ولكن وكيل القبطان سوف ينقذهم. لقد كان
وكيل القبطان حكيماً."

"هل كانت سفينة لتهريب الشراب؟"

نعم.

لقد كان وكيل القبطان. كانوا سيأخذونهم جميعاً ويقتلونهم. ولكن القبطان خاف ولم يعرف ما يفعل وصعد إلى السطح مسرعاً وأبلغ وكيل القبطان. قال إنهم فقدوا سفينتهم اللطيفة وكذلك الطاقم. وقال وكيل القبطان 'هذا لا يمكن أن يحدث'. كان أحرى به أن يفرق ويموت قبل أن يحترق. وأذلك 'قتهبطوا إلى أسفل يا أولاد وتتفحصوا تلك الأسافين'. هذا معناه انزعوا الإسفين من الصاري ، ذلك أن كل مرة يفعل فيها الصاري هكذا [يثني يديه] (*) تسير ميلاً آخر ولا ينكسر الصاري بسبب الطريقة التي يدفعها بها ويمضي قدماً، وأطلقوا قذيفة ولكنهم لم يحطموها. وأذلك فبعد أن خرجت من مرمى النيران قال 'أهبطوا إلى أسفل يا أولاد وغنوا بمرح، وسوف تتدفق دلاء الشراب كثتها الماء المالح.' وقادها إلى الشاطئ وأنشطرت نصفين. وكانت الأجمل وضاعت. لقد أغرقوها.

'صحيح أن وكيل القبطان هو الذى بيده ذلك. ولهذا السبب، ترون، لابد أن تبحثوا عن وكيل قبطان جيد وعلى قدر من الشجاعة يكفى لأن يقف وراء ...'

(*) للحصول على أكبر قدر ممكن من سرعة السفينة في الأزمنة القديمة، حين كانت الصواري تصنع من الخشب المصمت، كان القبطان يخلع الأسافين من الصاري وبذلك يسمح له بالوقوف حراً من أعلاه إلى أسفله. وبينما كانت السفينة تسير في البحر كان الصاري يسقط، وتحت ثقل الخشب الضخم كانت السفينة إما أن تمضي قدماً أو تتحطم. وكانت تلك مغامرة خطيرة خطيرة تقييد صمام الأمان في السفن البخارية اللاحقة بفرض زيادة السرعة.

ولى العهد الشجاع (١٤)

كان الثامن عشر من فبراير حين أبحرنا من بلدنا
على متن "ولى العهد الشجاع" متجهين إلى نيوفاوندلاند.
ومع خمسين بحاراً شجاعاً هم ملاحو سفيتتنا،
أبحرنا من ناحية الشرق متجهين ناحية الغرب.

لم يكن قد مضى على إبحارنا سوى يومين أو ثلاثة أيام،
حين رأى رجل أعلى الصاري سفينة حربية.
كانت تسير بأقصى سرعة إلينا لترى من نحن
وكانت تحمل تحت صاريتها الرئيسى راية سوداء.

صاح القبطان "يا إلهى! ما سنفعل الآن؟
هاهو يأتى قرصان جسور ليسرقنا كما أعلم."
"صاح وكيل القبطان "لا تخف فلن يحدث ذلك،
لأننا سوف نفرد أشرعتنا وسوف نبتعد عنهم."

وحين سار القرصان الجسور بسرعة بمحاذاتنا
صاح من بوق لتكبير الصوت "من أين جئتم؟
ولأن قبطاننا كان مجهداً فقد قال

"أتينا من إنجلترا الجميلة ونتجه إلى كارو." [القاهرة]

"فلتزلوا أشرعتكم يا أولاد ولتوقفوا سفيتتكم
فلدى خطاب مرسل إليكم من إنجلترا."
"سوف نطوى الأشرعة يا أولاد، وسوف نوقف السفينة
ولكن ذلك سيكون فى أحد الموانئ، وليس بجوارك."

فردنا أشرعتنا الرئيسية وكذلك الأشرعة العليا،
وأشرعة الدقل الأعلى والأشرعة الصغيرة وابتعدنا عنهم.
أطلقوا القذائف علينا ولكنهم لم يحطموا سفيتتنا
لأن "ولى العهد الشجاع" سرعان ما أبدت لهم أشرعتها.

نحن الآن فى عرض البحر يا أولاد، ويعيدون عن كل ضرر،
"اهبطوا إلى شرايكم يا أولاد، اهبطوا جميعاً!
اهبطوا إلى شرايكم يا أولاد، وامرحوا كثيراً،
ولأن هناك مساحة كبيرة للمناورة فى البحر، لا تخشوا أبدا أيها الشجعان!"

الجنوبي الرائع^(١٥)

إنها "الجنوبي الرائع" التي تحمل العلم ذي الأشرطة والنجوم
حيث تهب على صواريتها الريح الغربية الشمالية التي تصفر.
تدلت حبال الجانب الأيمن التي لدينا على السفينة بكثرة عند هبوب الريح،
في ليلة خريف حين لمنا الفئار على الرأس القديم في كينسيل.

كانت ليلة صافية لا سحب فيها، وكانت الريح تهب بإطراد وقوة،
وكانت سفينتنا الطيبة تجري بسرعة فرحة على المحيط الوثاب.
تهدر حولنا الأمواج المتدافعة، وهي تنتشر كالبحار النارية،
وبينما تحنى وسطها في الجليد، تدفن رجامها الذي عكس اتجاه الريح.

لم تكن هناك أية إشارة منه لتقصير الأشرطة ذلك الذي كان يسير في المؤخرة،
وتحت وطأة شراعها الأمامي الثقيل انحنى ذراع التطويل كالطوق.
صرير تلك الكتل الخشبية التي تمسك الصاري الرئيسي القوي.
لقد ضحك وحسب حين لمح خلفه أثر السفينة المضيء والمتلاشي.

ما الذي يظهر على مقدمتنا المكشوفة، ما الذي يتعلق بالهواء
إنه الوقت الذي غيرت فيه سفينتنا الطيبة مسارها تمشياً مع الريح.
وبفضل نشر أشرعتها المدهش، وصواريتها الطويلة المخروطية،
وجدنا أن ضيف الصباح سفينة حربية إنجليزية.

"أخرجوا أذرع التطويل، اصعدوا على سطح الجنوبي!
أخرجوا أذرع التطويل وزيدوا الأشرعة
أسرع سفينة تحطم المحيط وكبرياء الأسطول الإنجليزي
تأتى مندفعة نحونا، حيث يرتفع الزيد أمام مقدمتها.
أخرجوا الأذرع، واصعدوا على سطح الجنوبي! افربوا أشرعتكم الآن!"

كان رداء النوم الذى ترتديه سفينتنا هو الثلاثة أشرعة العليا عموماً،
وقد طوى شراعها الأمامى وشراعها الخلفى وشراعها الأوطى.
"هيا ارتقوا الصوارى يا بحارتى الرائعين!" وما إن خرجت الكلمات
حتى تعاملت عوارض الأشرعة الصغيرة والبقل الأعلى على كل صارى.

هيا! هيا! وابل من القذائف يخترق أشرعتنا وصاريننا،
كانت أسرع سفينة تحطم المحيط تتجه بسرعة إلى سفينتنا.
أطلق هؤلاء البحار الإنجليز ثلاثة هتافات من على ظهر سفينتهم،
ورددنا عليهم بضحكة استهزاء من على ظهر سفينتنا الوطنية.

وصاح قبطانهم النبيل حين اندفعنا داخل هايبان باس،
"أرفعوا أشرعتكم الصغيرة المتدلّية! ضعوا أشرعتكم العليا على الصارى!"
لم يكن هناك هتاف من سفينة المجهود الحريى الخاصة بنا، ولم يفرع بحارتنا،
حيث كانت الراية ذات النجوم ترفرف فوق رؤوسنا على قمة الصارى المزِين.

صاح قبطاننا النيل وكانت سحابة فوق مقدمته،
قال: "أبطالى الرائعين، إن امتحانتا الكبير الآن.
إننا نرفع العلم الأمريكى ضد ذلك الجيش الملكى.
إن بول جونز يربع البحر، سوف يلقى بهم على الساحل."

لم يكن ضباب الليل قد انقشع، وكاد ذلك يخفى الشاطئ،
إذ غطى الأرض من إيرين إلى كنجزشور.
وبينما كانت الأشرعة الخفيفة منشورة، وأذرع التطويل مكسوة، والأشرعة المرقطة
مرفوعة،
كان بول جونز أسفل القتال الشمالى يقوم بالتوجيه قبل أن طلوع النهار.

مصايد الحيتان في جرينلاند^(١٦)

إنه في عام ألف وثمانمائة وواحد،
في العشرين من مارس،
نشرنا جميع الأشرطة العليا
وأبحرنا إلى جرينلاند، أيها الأولاد الشجعان،
وأبحرنا إلى جرينلاند.

وجرينلاند أرض قاحلة،
ليس بها أي نبات أخضر،
ليس فيها إلا الثلج والجليد،
والحوت الذي ينفث الماء،
ونادراً ما يرى أحد ضوء النهار،
نادرًا ما يرى أحد ضوء النهار.

يقف عريف الملاحين على منصات الصاري،
وفي يده تلسكوب صغير،
صاح قائلًا:

"هاهو الحوت، ها هو الحوت!
وهاهي أنثى الحوت

. إنها تنفث الماء كل فترة، أيها أولاد الشجعان،
إنها تنفث الماء كل فترة."

يسير قبطاننا على الركن الخلفى،
وكان رجلاً ماهراً،

"ألقوا المرساة، ألقوا المرساة، ففى بحر النهار سنفوز،
أنزلوا قواربكم البحر أيها الأولاد الشجعان،
أنزلوا قواربكم الثلاثة جميعها البحر."

بعد أن أنزلت قواربنا وركبها الرجال،
أخذ كل منها خمسة من طاقم سفينتنا الرائعة،
كى تتجه إلى حيث تنفث أنثى الحوت، أيها الأولاد الشجعان،
كى تتجه إلى حيث تنفث أنثى الحوت.

حين أصيب الحوت سُحبت حبالنا،
ضربنا ضربة بذيله،
جعلتنا نفقد خمسة من بحارتنا الرائعين،
ولم نمسك بالحوت، أيها الأولاد الشجعان،
ولم نمسك بالحوت.
حين بلغ الخبر المشنوم قبطاننا،

انفطر قلبه الحزين،

على فقد خمسة من بحارته الرائعين.

.

.

"فلتستسلموا،

فلتستسلموا أيها الأولاد الشجعان،

وسوف نبحر عائدين إلى ليفربول أيها الأولاد الشجعان،

وسوف نبحر عائدين إلى ليفربول أيها الأولاد الشجعان،

سوف نتجه صوب ليفربول."

شواطئ نيوفاوندلاند^(١٧)

أيها الأولاد المرحين الجوالين، لابد أن أحذركم،

إذا أبحرتم في سفينة أمريكية، لا ترتدوا سترات من القطن الخشن،

بل اجعلوا ستراتكم القصيرة الضيقة تحت أيديكم،

فحذار من الرياح الشمالية الغربية الباردة على شواطئ نيوفاوندلاند.

كان معنا شخص اسمه لينش من بالاتا هينش، وجيم دويل ومايكل مور،

في عام ستة وخمسين، حين عانى بحارتنا بشدة؛

فقد رهنوا ملابسهم في ليفربول وباعوها فوراً،

دون أن يفكروا في الرياح الشمالية الغربية الباردة على شواطئ نيوفاوندلاند.

كانت لدينا واحدة من صنف النساء على متن السفينة وكان اسمها بريدجيت والش؛
وعنتها بالزواج، وكان لها حق على؛
فقد مزقت تنورتها لتصنع قفازين ليدى،

وقالت "لا يمكن أن يتجمد حبي الحقيقى على شواطئ نيوفاوندلاند".

فى ليلة من الليالى وكنت مستلقياً على فراشى، رأيت حلمًا لطيفًا؛
حلمت أنتى فى ليفربول فى ميدان المدينة،
وبجانبى فتاة جميلة، وفى يدى كوز من البيرة،
ولكنى استيقظت كسير القلب إلى حد كبير على شواطئ نيوفاوندلاند.

ولكننا يا أولادى لدينا الآن ربح طيبة ولا بد أن تتطلق سفينتنا؛
وإذلك ترون الأولاد وقد انتشروا على سطح السفينة يرفعون الثلج؛
سوف نغسلها ونحكما بحجر الخفان والرمل،
وسوف نودع صخور العنراء على شواطئ نيوفاوندلاند.

الباخرة تتقدمنا؛ نحن متجهون إلى نيويورك،
حيث يتجمع أصحاب العانات والمهريون؛
أحياناً يذهبون إلى المشارب والمراقص، وأحياناً أكثر يخرجون للنزهة بالعربات،
ولكن ما يعرفونه قليل عن الريح الشمالية الغربية على شواطئ نيوفاوندلاند.

لازمة: فلتعلموا كتوسكم إنن يا أولاد، وسوف تنور فى مرج،
وسوف نشرب نخب القبطان وفتيات مدينة ليفربول.

الصيد الشبح (١٨)

ابتسم إن كانت لديك الرغبة فى الابتسام، وإلا فسوف تولى اهتماماً شديداً بالصبي والرجل معاً، ما يقرب من أربعين عاماً.

لقد أبحرت عبر البحار، من الشواطئ الغربية إلى جراندا، وكنت أعمل على بعض سفن صيد الرنجة التى تخرج من نيوفاوندلاند.

أؤكد لكم أننى رأيت عواصف كانت الأشياء فيها تبدو زرقاء إلى حد ما وبطريقة أو بأخرى، كنت محظوظاً ونجوت.

إلا أننى لن أتباهى، إذ لم أكن محظوظاً بهذا القدر إلا وقتها فإخافتى ليست أسهل من إخافة معظم الرجال الآخرين.

ولكن فى ليلة ظلماء أتحدث عنها، كنا قبالة شواطئ تهب عليها الرياح، وإن أنساها أبداً فى كل أيامى الفانية،

حين شعرت وأنا فى نوبة حراستى المظلمة بخوف مريع اقتابنى كائننى سمعت من ينادينى من عالم الموتى.

فى تلك الليلة من سبتمبر ظهر على السطح بحارة الواحد تلو الآخر، اثنا عشر بحاراً مترادين، وانتظروا إلى أن انتهى. تجمعوا على السطح، ولكنى لم أسمع صوتاً كانوا يتحركون معاً دون أن ينطقوا بكلمة.

كانت وجوههم شاحبة ومبللة بماء البحر، وكانت تلمع كالأشباح فى ظلمة الليل.
كان كل منهم يجلس بحرية كأن له الحق فى ذلك،
واتجهت السفينة شرقاً إلى حيث كادت اليابسة تظهر فى مرمى البصر،
أو بالأحرى رأيت أبراج الفئارات مضيئة.

وساعتها عاد هؤلاء البحارة الأشباح أدراجهم عبر السياج
واختفوا فى الضباب، حيث يمكن أن تطلع عليهم الشمس.
لا أعرف فى الواقع أى سبب لقوم هؤلاء
ليقبوا سفينتنا حتى كادت اليابسة تبدو فى الأفق.

إنهم البحارة المخلصون، طيب الله ثراهم،
حين غرقت سفينتهم فى تلك المرة فى مياه جورجيز الضحلة،
والآن قد علمتم قصتى، وهى تماماً كما قلتها،
ذلك أنتى أو من بالأرواح، منذ ذلك الوقت فى أى مكان. (غير مغنى)

مياه الرنجة الضحلة (١٩)

غادرت بيتى فى يوم لطيف
وكنت متجهاً إلى ميناء يارموث
لأعمل خادماً على سفينة شراعية
لنقوم بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة.

حين يجعلونك صياد سمك
وتتعلم كل شىء عن الإبحار
يبدأ تعليمك بالملاحة
وأنت تقوم بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة الجميلة.

لقد كان العمل صعباً والساعات طويلة،
وكان الرجال الضخام يصيحون بسبب نزح المياه
وكنت أنام واقفاً على قدمى
وحملت بمياه الرنجة الضحلة.
وفى بحر عاصف ورياح عاتية
أنا والمهمات التى كنت أسافر بها
أبحرنا لمسافة عشرة آلاف ميل، وصدنا عشرة آلاف سمكة
حين قمنا بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة.

إنك تبهر بالليل وبالنهار

ويبقى الطقس الشتوى والرياح الشتوية الشديدة

وأنت تكدح طول الطريق، وتتقدم فى العمر، وتتقدم فى العمر

وأنت تقوم بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة الجميلة.

أولاد الطقس العاصف (٢٠)

كنا راقيين فى ميناء سارى فى يوم من الأيام

وعرف وكيل القبطان أن الوقت قد حان لكى ننطلق.

كورس : جو عاصف يا أولاد، جو عاصف يا أولاد

حين تهب الريح سوف تبهر سفينتنا.

لقد اتجه إلى الوطن، لكن لا حظ له

لأن القبطان نصف سكران فى حانة بوج أند دك.

كورس:

وبعد ذلك صعد القبطان على السفينة وقد تأبطت ذراعه فتاة

فسوف يهجر النقل البحرى ويشتري مزرعة.

كورس:

ولذلك جرى وكيل القبطان إلى المقدمة ووقع الطامى فوق السطح

ووضع الريان أصابعه فى بكرة حبال الأشرعة.

كورس:

وأخيراً نحن قبالة لسان ليموس

ولكن ألواح الحماية من الريح ارتطمت بشاطئ جريمسبي.
كورس:

لأن وكيل القبطان يمسك بالدفة وقد سخر منها مرتين
لأن القبطان وضع أصابعه فى سلطانية من الثلج.
كورس:

دفعنا السفينة وابتعدنا
ولكن القبطان شرب زجاجة بيرة أسفل.
كورس:

إنها تبتعد وتبحر بسرعة
ولكن ليس هناك بحارة على متنها.
كورس:

يحدث اصطدام وارتطام وترسى على الشاطئ
يقول وكيل القبطان "يا إلهى، إننا فوق ذا نور!"
كورس:

وحينئذ قفزت إلى السطح إحدى عرائس البحر وقد غطت بمادة لزجة،
أخذناها إلى عنبر البحارة وأمضينا وقتاً طيباً.
كورس:

حين جاء المد عامت السفينة
وساعتها رأى وكيل القبطان شبحاً على حبل الشراع الثانى.
كورس:

مضينا بعيداً وكان الشيخ هو الذى يقود
وشرب الطاهى بقايا بيرة القبطان.
كورس:

أبحرنا فى عكس اتجاه الريح قدر الإمكان حول أورفورد نيس
حين انعكست الريح لتصبح جنوبية جنوبية غربية.
كورس:

وصلنا إلى البر سالمين معافين
وربطناها فى مدينة يارموث
كورس:

وبعد كل مخاوفنا وذعرنا
انتهى بنا المطاف فى درودز أرمز.

مقبرة البحار^(٢١)

كانت سفينتى بعيدة، بعيدة عن البر
حين شحب أشجع أفراد فرقتنا الجسورة
شحوب الموت ونحل جسمه
كفسق يوم من أيام الخريف.
رأيناه خلال ساعات الألم الطويلة.
كانت رعايتنا كبيرة ولكن آمالنا خابت.
ضربة الموت؛ فهو لم يعط إنذار الجبناء
ولكنه ابتسم ومات بين أذرع رفاقه.

زيننا فراش جنازته بفخر
حيث وضع العلم البريطاني على صدره.
قدمنا له ذلك رمزاً لشجاعته.
وبعد ذلك جهزناه لمقبرة البحار.

لم يكن لدينا كفن ثمين،
ووضعنا كرتين من الحديد عند قدميه.
وحين رقد في فراشه، كان كائنه صحيح ومعافى،
كائنه ملك مربوط فى كفتنه الطويل.

شحبت الوجنتان، وكل قلب صار ضعيفاً.
يا لتلك الدموع التى شوهدت على أشد الوجنتان سُمرة.
بدت رعشة على شفاه الكبرياء
حين أنزلناه من جانب السفينة المظلم.

طبطبة وغوصة وانتهى الأمر
وتعاقبت الأمواج كما كانت تتعاقب من قبل
كأنها صلاة بصوت مسموع باركت الموجة
بينما غاص إلى أسفل، إلى مقبرة البحار.

الفصل السابع

الفن

أرغى الشيطان وأزبد أسفل السفينة قائلاً:

"إنها من صنع الإنسان، ولكن هل هي فن؟"

روديارد كيبلنج

Rudyard Kipling,

"The Conundrum of the Workshops"

إضافة إلى الأغنية، كان هناك العديد من أشكال الفن الأخرى الشائعة إلى حد ما بين الرجال العاملين في البحر، وهي الرسم وعمل النماذج والحفر على العظم والخشب وأشغال العُقد العادية والزخرفية، ورسم الوشم، وهو الأمر المستغرب إلى حد ما.

حينما تناقش الفن الشعبي لابد أن تكون في أذهانتنا دائماً بضع مبادئ. فهو تمثيلي، وهو وظيفي، وربما كان زخرفياً كذلك. تلك هي الصفات التي تفصل الفن الشعبي عن الفن البدائي - المؤسلب - وعن الفن المتطور.

وفي الفترة الأخيرة أشار أحد المعارض الفنية إلى الفنان الشعبي جيمس ديكسون James Dixon من جزيرة توري بإيرلندا على أنه "فنان انطباعي شعبي". ويشي هذا المصطلح بتضارب في المثل. فالفنان الشعبي يشعر بالقلق إذا ما خضع إبداعه للتأويل. فهو لا يرسم سفينة وحسب. بل إنه يرسم سفينة حقيقية. وحين ينتهي من الرسم فإنه يكون قد التقط صورة للسفينة الشراعية "مونتانا" Montanna بقدر ما يستطيع. فإذا ظن المشاهد أن السكونة(*)

(*) سفينة بقلعين أو أكثر (المترجم).

ما هي إلا بارك(*) أو حتى مجرد نمط من أنماط السفن، فإن الفنان يشعر أنه فشل. ولكي لا يحدث أى خطأ، فإنه قد يبرز ملمحاً خاصاً من ملامح السفينة لاحظته هو؛ كأن يكون الدقل الأعلى شديد الطول أو المؤخرة غير المعتادة. سأل شخص الرسام: "أهذه طيور النورس؟" نظر الرسام إلى الرسم وأداره، ثم قال وهو يطوى اللوحة ويخفيها "لا بل شقائق النعمان. لن نتكلم بعد ذلك عن الرسم."

إن للفنان الشعبى هموماً تقيده إلى حد ما بمواده، وأدواته، وقدرته الشخصية، وثقافته. ربما أمكن لأحد الفنانين الحفر على قطعة من خشب الموسيقى اللين بأدوات غالية الثمن بطريقة أسهل وأكثر دقة إلى حد كبير جداً مما يمكنه بها تشكيل ناب كركدن البحر(**) بمسمار مسنون. وسوف تسمح الفرشاة المصنوعة من وبر الجمل وبالته الألوان فى ستوديو مضاء إضاءة جيدة بعمل أفضل مما يمكن إنجازه فى عنبر بحارة غير ثابت باستعمال قطعة من حبل كفرشاة وكمية ضئيلة من بويات السفينة "مستعارة" من دولاى الدهانات. إن الرجل الذى درّسوا له المنظور يتمتع بميزة كبيرة مقارنة بمن تعلمه بالتجربة والخطأ.

ولابد أن ندرك عند الحديث عن الثقافة فى الرسم أن استخدام الألوان يرتبط تحديداً بالأنواق المحلية. فمن المحتمل أن يستخدم الإسكوتلنديون فى الغالب درجات الألوان الداكنة والموف والبنى والأسود، بينما يميل الأمريكيون إلى بالته الألوان الأفتح. وفى ميدان الرسم، كان الكثير من اللوحات "الشعبية" ليس من رسم رجال يعملون فى البحر ولا فنانين شعبيين، وإنما صناع مهرة محترفون يمارسون التكنيكات "البدائية". وكان رجال مثل بورتر Porter وتشالمرز Chalmers، اللذان يحتلان أجزاء كبيرة من كتب الفن الشعبى^(١)، فنانين تجاريين فى واقع الأمر لديهما القليل من الخبرة البحرية، وربما لا شىء منها على الإطلاق. وبالطبع ليس الفنانون المعروفون مسئولين عن كل الفن البحرى، ولكنى أظن أنه من الأمان القول بأن غالبية لوحات المناظر البحرية

(*) سفينة شراعية بثلاثة صواري (المترجم) .

(**) حوت موطنه القطب الشمالى له ناب طويل مستدق ومجدول لدى الذكر (ونادراً ما يكون له نابان) من العاج (المترجم) .

والسفن الغفل، إن كانت من عمل رجال يعملون في البحر، كانت قد رُسمت بعد أن "ابتلعوا المرساة" وتقاعدوا ليعيشوا على الشاطئ. ولم يكن سطح المركب المهتز وعنبر البحارة المزدهم مناسبين للرسم، وكان من النادر أن يتقاضى قبطان عن وجود حامل لوحات على سطح سفينته، وكان من الأندر أن يتقبل أفراد الطاقم ذلك. فالأمر ببساطة هو أنه لم يكن هناك الوقت ولا المكان لممارسة مثل هذا العمل على السفن.

و يميل الفنان الشعبى بصورة عامة إلى عدد محدود من المناظر. فهو من ناحية يحب تصوير العنف؛ أى صور السفن وهي تتقاذفها الرياح، وهي محطمة، وهي تحترق، وكذلك عمليات الإنقاذ فى عرض البحر، وما شابه ذلك. وهو من ناحية أخرى يرسم السفن فى ظل أجمل الظروف وهي تبهر بالريح الطيبة فى بحر هادئ. وكان المقصود من النوع الأول من اللوحات هو تسجيل الضغط العصبى وخطر اللحظة وحفظه للتاريخ. إن عبارة "هكذا كان الأمر" تكاد تكون شعار الفنان. وهكذا وصف ميلفيل صورة من هذا القبيل بإعجاب:

إنها بحق صورة مبثلة رطبة مشبعة بالماء. إنها كافية لأن تشوش تفكير الرجل القلق ... إنها صورة البحر الأسود أثناء عاصفة فى منتصف الليل. إنها الصراع غير الطبيعى للعناصر الأساسية الأربعة - إنها مرج متفجر - إنها منظر شتوى قارس البرودة - إنها تحطم نهر الزمان المغمور بالجليد ... شىء ما فى مركز الصورة ... وبعد أن درس ميلفيل الصورة بعناية قال:

تمثل الصورة كيب هورنر أثناء إعصار كبير، حيث ترقد السفينة شبه الغارقة فى ماء البحر لا يرى منها سوى صواريها الثلاثة وقد تعرت من أشرعتها، وحوت غاضب يعتزم القفز فوق السفينة أثناء العمل الضخم الخاص بخوزقة نفسه على رؤس الصواري الثلاثة (٢).

ويرجع عدم تعرف ميلفيل على هذا المشهد فوراً إلى عدم براعة الفنان، وليس إلى مقصده.

والصور التى فى الجو اللطيف هى بورتريهات للسفن. وهى تقدم فى ظروف هادئة، بحيث يمكن مشاهدة السفينة والتعرف عليها وقد نشرت أشرعتها بالصورة

المعتادة. ولتحقيق هذه الغاية، غالباً ما يثبت على الصواري علم البلاد وراية تحمل اسمها، بينما يرسم كل حبل وكل شراع بدقة.

والمشاهد الأقل تكراراً بكثير هي مشاهد ما يحدث على متن السفينة أو نشاط الشحن. ولكن حين تحدث هذه المشاهد فإنها غالباً ما تكون مشاهد ذات قدر كبير من الاضطراب. وتفوق صور صيد الحيتان، أو ضرب الفقمة بالهراوات، أو صيد الفظ(*) بالحرايب، أو تحطيم قطع الثلج، رسومات تحميل البضائع أو رش الماء على سطح السفينة وما شابه ذلك من الأنشطة العادية. باختصار، فإن العمل العنيف مكوّن مهم جداً من مكونات الفن الشعبى البحرى.

وإذا لم تكن قطع القماش الكبيرة متوفرة على متن السفينة، كانت هناك منطقة متاحة لعدد كبير من الفن، وهى سجلات السفن. وفى تلك الروايات اليومية الخاصة بتحركات ومباهج ومصاعب السفينة ومطاقمها نجد الكثير من الأعمال الفنية محفوظة، وغالباً ما تؤدى جميعاً وظيفتها.

كان القبطان يُضمّن السجل من حين لآخر رسومات كروكية للموانئ ورسومات للمعالم غير المعتادة، ورسوماً كروكية للجزر، وصوراً لسفن شوهدت أو تحدث أحد عنها، وفى بعض الأحيان مشاهد قابلوها فى أثناء الرحلة. وغالباً ما كانت تلك رسوماً كروكية بسيطة بالريشة والحبر، ولكن البعض منها كان يزخرف ويجمّل. وكانت الخرائط تحتوى على رسومات كروكية للدلافين، وكان السحاب يحيط بالجزر البركانية، وكانت الطيور تحوم حول السفينة التى وقفت فى عرض البحر لعدم هبوب الرياح، ويمكن رؤية ظلها فى الماء. وفى بعض الأحيان كانت تُستخدم ألوان مختلفة من الحبر وتُرسّم بعض المشاهد الصغرى من الحياة على البر؛ مثل الأكواخ المحلية أو أناس فى قوارب صغيرة. إلا أن الناحية الفنية كانت خاضعة دائماً للوظيفة. فقد كانوا يرسمون الصورة ليس لتصوير الطبيعة فى حد ذاتها، بل لكى يكون بالإمكان رؤية اليابسة فى تاريخ لاحق، أو دخول أحد الموانئ، أو التعرف على صديق ما عن طريق شراع الصارى

(*) حيوان بحرى ثديى أشبه بالفقمة (المترجم).

الامامى للسفينة الأخرى. وكان كل شيء يعزز الإمكانات متضمنًا. وكان كل شيء ينتقص من هذه الأشياء مائياً يُستبعد.

وردت تلك الرسومات فى سجلات الكثير من السفن، وأحياناً فى اليوميات التى يحتفظ بها أفراد الطاقم، غير أنها ربما كانت موجودة فى سجلات سفن صيد الحيتان والسفن المتجهة إلى الشرق أكثر من وجوبها فى أية سفن أخرى. ولم تكن السفن التى تسير بمحاذاة الساحل وسفن البريد السريعة المتجهة إلى مولتى لها خرائط جيدة فى بحار مكلفة بحاجة كبيرة إلى رسم الصور لتكون مرجعاً فى المستقبل، وكان من المحتمل جداً ملاقاته الصديق الذى يرى فى البحر فى الميناء التالى.

وهناك عمل فنى آخر عُثر عليه فى سجلات سفن صيد الحيتان وهو حيتان سوباء صغيرة متقنة الرسم؛ كانت عبارة عن صور مظلة لمختلف الأنواع، كالحوث الأصعب أو حوث العنبر، أو الحوث المستقيم. وكانت تلك ملونة ملوينة متقناً باللون الأسود مع وجود مستطيلات بيضاء فى الوسط وضع فيها رقم ما مثل ٢٤ أو ٦٨. والواقع أن تلك الصور المظلة مصنوعة من نماذج صغيرة منحوتة بدقة للأنواع العديدة يحتفظ بها القبطان فى مكتبه. وحين كانوا يقتلون أحد حيتان العنبر كانوا يختمون صورته فى سجل اليوم المناسب ويسجلون عدد يراميل الزيت التى استخرجت منه يخلل المستطيل الصغير. وحين كانت المطاردة تقشل، كان القبطان يطبع ذيل الحوث وحسب فى وضع رأسى إشارة إلى أنه ظهر وهرب. ومن حين لآخر كان أحد القباطنة الأكثر حساسية تجاه الفن يضيف الماء الذى ينفثه الحوث إلى صورته المظلة، أو يُجمل الهامش بحرية أو حريتين، وربما بقارب محطم فى حال وقوع كارثة أثناء المطاردة.

ويقودنا حفر أختام الحيتان الصغيرة بشكل طبيعى جداً إلى شكلين قنيين مشهورين بين رجال البحر الأنجلو أمريكيين، وهما صنع النماذج والمنحوتات العاجية أو العظمية.

صنع النماذج حرفة قديمة جداً. وقد أشير فى الفصل الخاص ببيتاء السفن إلى أن معظم السفن فى السابق كانت مخططاتها تنقل من أشياء النماذج الخشبية المحفورة بدقة، ولكن فن صناعة النماذج لم يكن مقصوراً بحال من الأحوال على

المصمم. ويبدو من عدد نماذج السفن التي لا تزال موجودة أن كل بحار خرج سليماً من الحياة في البحر خلف وراءه نموذجاً حين رحل إلى "النعيم". والبحار يحب سفينته، ورغبته هي استرجاع سحر تلك السفينة إن أمكنه ذلك - بغض النظر عما قد تبدو عليه من قبح أو غرابة - في أيامه الأخيرة. وأتذكر أنني وأنا طفل شاهدت مرات ومرات نموذجاً لمركب صيد وحيد الصاري نحتته صاحبه. وفي كل مرة تقريباً كان يقول إنه نموذج لسفينة "خرجت فيها وأنا شاب" أو "أول سفينة خرجت فيها" أو الاثنتين معاً. ويكاد يتبع ذلك في وصف لحياتها العملية؛ إن لم يكن منذ تدشينها، فمن المؤكد منذ بدء عمل صانع النماذج فيها إلى أن طواها النسيان، أو "احتترقت" أو "تحطمت" أو "غرقت" أو "بيعت في الخارج".

وعادة ما كان النموذج التقليدي، في مقابل شبه النموذج الخاص ببناء السفن، نموذجاً مكتملاً به صوار وحبال وكل الأشرعة. ورغم اختلاف النماذج الخشبية في أحجامها، فقد كانت أطوالها تتراوح بين ثمانى عشرة بوصة وثلاثة أقدام. وبينما كان بعضها يُنحت من قطع صغيرة من الخشب، كان عدد كبير منها يجرى بناؤه بطريقة السفينة الحقيقية. فكان الصالب يوضع، وينشر الهيكل، وتُثبت الألواح بالبرشام أو الخوابير ثم تُجلد بالنحاس الأحمر الذى يُثبت بالمسامير. وغالباً ما كانت السفن مكتملة من الداخل اكتمالها من الخارج وكانت عليها طواقم من نماذج البحارة، وأتذكر في الثلاثينيات مشاهدة القبطان الراحل جورج رايت George Wright وهو يبنى نموذجاً للسكونة "أمريكا". وكان فى باطنها ثقل من البازلت، وكانت حبالها الاحتياطية مرتبة، وأسرتها المعلقة فى مواضعها، وكان المطبخ فيه الطباخ والأواني ومعدات الميس. ومع تقدم العمل فى السفينة، وضعت أسطحها وأخفى داخلها عن عيون البشر للأبد.

كما قد يشك المرء، كان الهدف هو خلق صورة طبق الأصل من سفينة بعينها صُغرت إلى حجم صغير جداً، وكان الجهد لا يبذل من أجل الدقة وحسب، بل لكى يكون كل شيء متناسباً كذلك. فقد كان تصغير حجم السفينة من ١٥٠ قدماً إلى ٢٦ بوصة شيء وتصغير الألواح والأربطة والمثبتات والحبال والبكر وعجلات البكر بحيث تكون متناسبة شيء آخر. ومع ذلك فقد كان ذلك يتم بدقة. وما زالت العجلات تدور داخل البكر، والدفة تتحرك، والأبواب الجانبية تفتح، والمدفع يتحرك. ونماذج البحارة هي وحدها التقليد المضحك، فهي ليست حية.

وليست البراعة فى هذه النماذج فى خلقها (فأحسنها ليس بأفضل من السفن المنقول عنها أو أسوأ منها) وإنما فى مهارة البناء، وفى الالتزام بالتفاصيل، وفى اعتبارها نموذجاً لحب الإنسان لبناء شىء ما كان فى وقت من الأوقات جزءاً من ذاته وصبره على ذلك.

ولم تكن هذه النماذج تبنى فى وقت قصير، ولا يمكن تشكيلها باستخدام أدوات بدائية، ولا تتحمل المعاملة الخشنة. باختصار، إنها منتجات البحار وقد نُقلت إلى المرعى. فهو يتذكر من جديد أثناء ساعات التقاعد الطويلة مباحث شبابه ويسترجعها فى شىء مصغر.

تحدثنا حتى الآن عن السفن الخشبية. والواقع أن هناك سفناً أخرى. وأنا أملك سفينة ذات ثلاثة صوار جميلة من الصلب طولها حوالى قدمان ولها أشعة من المعدن وحبال من السلك. وقد رأيت نماذج من القش، ونماذج من الزجاج، ونماذج من لحاء الشجر. ولكن أجمل النماذج جميعاً فى كثير من الأحوال، طبقاً للمعايير السابقة، هى تلك المصنوعة من العظم. وكشأن النماذج الخشبية، صنع أغلب تلك النماذج بحارة متقاعدون، وكان أفضلها من صنع أسرى الحرب المحبوسين فى السفن السجون البريطانية والفرنسية خلال العقود السابقة أو التالية مباشرة لنهاية القرن الثامن عشر. وكان بعضها يُصنع من عاج الحوت أو الفقمة أو الفيل، ولكن نماذج كثيرة أخرى كانت تُصنع من عظام الأسماك أو من عظام الحيوانات النافقة، وكانت تحفر بأشد الأنواع بدائية؛ كمسمار مسنون، أو مفك، أو سكين صنع من ملعقة.

وفى الأيام الخوالى كانت إحدى الكوارث التى يخشاها الإنسان هى مرض عدم وجود ما يُفعل. وفى السفن السجون أثناء الحروب النابليونية، كثيراً ما كان ذلك المرض يقود الرجال إلى الجنون أكثر من الحمى أو الطعام السيئ أو الجردان أو الزنزانة التى يرتفع المد فيملؤها بالماء. وفى أوقات أخرى كانوا يتحولون إلى ظلال تشبه الرجل الذى كان يعمل على مدفع، أقل من تشابه السفن السجون مع السفن الضخمة التى كانوا عليها فى يوم من الأيام. وكان صنع النماذج بالنسبة لهؤلاء الرجال هو الشىء الذى يمنحهم الأمل ويحافظ على صحتهم.

الكثير من هذه النماذج محفوظة داخل متاحف في أنحاء العالم. وقد شاهدتها في تورفواك بولاية فيرجينيا، وميستيك بولاية كونيتيكت، وجرينتش بإنجلترا، ولشبونة بالبرتغال. ولكن هناك نموذجين رائعين في متحف بيبودي Peabody Museum في سالم. الأول لفرقاطة من العاج (ومعظم هذه النماذج طولها ثمانى عشرة بوصة أو أقل) مكتملة في كل شيء بالتفصيل. وهى تجر خلفها بحبل من العظم زورقاً خفيفاً داخله رجل ملتح من العظم يدخن غليوناً!

والثانى نموذج صغير كذلك. وهذا النموذج على درجة مدهشة من الدقة من ناحية مقياس الرسم والتفاصيل، ولكنه على عكس أى نموذج آخر رأيتُه مصنوع بالكامل - اليدن والأشرعة والصواري والحبال - من عظام السمك الوردى الذى جُمع من أوانى اليس فى السفينة السجن عقب استهلاك الحساء. وإذا كان هناك من يحتاج إلى شهادة على الحياة على متن سفينة سجن أو على قوة روح الإنسان فى الشدة، يكفيهِ هذا.

بذلك لا يتبقى لنا سوى نوع آخر من النماذج لتحدث عنه؛ وهو النموذج الذى يبرز التكتيك إبرازهُ للنموذج. ففي ايروسكوبينج Aeroskoping بالدنمارك هناك متحف صغير يضم عدة آلاف من غلايين التبغ وحوالى ١٥٠٠ سفينة كل منها داخل زجاجة. وسوف أتحدث عن هذه السفن. وليست هذه بحال من الأحوال كل السفن التى فى العالم، ولكنها تمثل بالأحرى عينات مصغرة.

سمعت أنه فى العصور الوسطى، حين كان صنع الأشياء الصغيرة يعد عملاً ماهراً، كان مشهود "العشاء الصغير" محفوظاً داخل حبة عين جمل، وكانت الصلاة الريحانية (أبانا الذى ...) مكتوبة على رأس دبوس. ونحن فى قرننا نميل أكثر إلى ناطحات السحاب ولوحات الإعلانات الضخمة، ولكن من الواضح أن الميل القديم استمر فى هذا النمط المصن من بناء النماذج.

ويسبب المشكلة المتعلقة بحشر سفينة كاملة الأشرعة والحبال فى زجاجة كبيرة بعض الشيء ولها قوة صغيرة بقدر الإمكان، فإن الدقة التى تتحقق فى نماذج السفن الأخرى تكون مقبولة إلى حد ما. ومع أن هذه السفن الصغيرة قد تمثل منظرًا بحرياً

ساراً من على البعد، فهي جميعاً لا تحمل أبداً قدراً كبيراً من الدقة. والواقع أن دقة التفاصيل ليست دائماً الغرض الرئيسى لعامل الزجاجات. بل إن غرضه الأساسى هو ملء الزجاجة بأكبر سفينة يمكن أن يستوعبها ارتفاعها ومحيطها أو خلق ديوراما بحرية داخل الزجاج. ولتحقيق هذه الغاية تضاف فى بعض الأحيان العديد من السفن والصخور والفنارات وحتى الطيور التى تحوم فى مهب الريح، ويدهش المرء من كمية المواد الموجودة فى زجاجة صغيرة ونوعيتها. كما أنه فى أفضل نماذج الزجاجات ليس هناك ما يدل على كيفية الوصول إلى هذه المواد.

ولكى يحقق صانع النماذج غايته المنشودة فهو يبنى سفينته بالكامل خارج الزجاجة. وتركب الصوارى فى مفاصلات، وتوضع عوارض الأشرعة فى محاذاة الصارى، ويُنْبَتُّ الكل بالخيوط. وبعد ذلك توضع كل الحبال على السطح وتُدخل السفينة بالكامل ببراعة من عنق الزجاجة. وبعد أن تستقر على المحيط الذى سبق إعداده تقطع الخيوط فتنتصب الصوارى وتتفرد عوارض الأشرعة وتطفو السفينة، وهى مرتبة ترتيباً حسناً على طريقة بريستول فى مجالها الصغير. وما إن يصبح كل شىء آمناً فى مكانه، يزيلون الخيط أو يُخفونه، وتحشر سداة من الفلين فى الزجاجة ويكتمل العمل.

والشكل الفنى الآخر الذى تطور تطوراً كبيراً فى القرن التاسع عشر هو ضرب من الحفر والنحت يعرف بالمنحوتات العاجية أو العظمية scrimshaw . وعموماً كان الاسم ولا يزال ينطبق على الحفر على العظم وأحياناً على الخشب، غير أنى أظن أنه من الأصوب قصره على الحفر على العاج البحرى؛ أى عظام الحوت والفقمة والفظ وكركدن البحر. وكانت تلك المواد مقصورة فى الغالب على صناعة صيد الحيتان، حيث انتعشت فى الواقع وبدا أنها حققت أعلى تطور لها بين صيادى الحيتان الأمريكين.

ويبدو أن القليل جداً معروف عن أصل هذا المصطلح أو الفن. ورأى البعض أن ربما كان مصدره التعرض للحفارين الإسكيمو فى أقصى الشمال أو حفارى الخشب البرتغاليين الذين كانوا يخرجون إلى البحر فى سفن صيد الحيتان. وفى عام ١٧٩١ ذكر جون هاسكين فى كتابه *Narrative of the Second Voyage to Columbia* أن البحارة كانوا يحفرون أشياء من حين لآخر، وإحدى أقدم قطع المنحوتات العاجية

المعروفة تعود إلى العقد الأخير من القرن الثامن عشر، وهي ضمن مجموعة ميناء ميستك بولاية كونيتيكت.

ويأتى أول ظهور معروف لمصطلح "المنحوتات العاجية" فى سجل سفينة صيد الحيتان "باى تشانص" By Chance (١٨٢٥ - ١٨٢٦) ويعد ذلك أخذ يظهر بانتظام، ولكن بتهجٍ مختلف (مثل scrimshaw, scrimshander, scrimsh, scrimshooting, scrimshowing). واللافت للانتباه إلى حد كبير أن معظم المفردات تشير إلى ممارسة الفن حين كانت السفن تقف فى عرض البحر لانقطاع الريح، أو لا تكون هناك حيتان، أو لا تعمل لأى سبب آخر.^(٣)

أحد التفسيرات المحتملة للمصطلح هو أنه توليفة من scrim وهو ضرب من الزخرفة التشجيرية و horn أى العظم. ومن ثم يكون معناها "حفر العظام". وربما يأتى التفسير الثانى من scrimsharker التى يدرجها ويلز Wells باعتبارها مصطلحاً قديماً كان يُستخدم فى البحرية البريطانية لوصف أى شخص ماهر فى تحاشى العمل^(٤). وحين نلاحظ أنها كانت تصنع فى الغالب الأعم فى أوقات الفراغ، وحين نعلم أن أصحاب السفن لم يكونوا يحبون أن يبقى أفراد الأطقم على هذا الحال من البطالة^(٥)، فإن هذا قد يكون تفسيراً منطقياً.

ومهما كان الأصل، ومهما كان معنى المصطلح، فإننا قد نكون متأكدين من أمرين. فالمنحوتات العاجية باعتبارها فناً بحرياً، أو شكلاً من أشكال الفن الشعبى، تعبير حديث يخص ذروة عصر صائد الحيتان الأمريكى، وأحد الإضافات الأمريكية الحقيقية القليلة جداً إلى المادة الشعبية.

وبصورة عامة كان يوجد على متن سفن صيد الحيتان كميات كبيرة من أسنان الحوت، وعظام الحوت، والبلىن (عظام حلق الحوت السوداء). بل كانت توجد من حين لآخر أنياب الفظ وكركدن البحر. وعموماً كانت قطع من هذا المواد متوفرة، بل كانت تقسم من حين لآخر على أفراد الطاقم^(٦). وعلى عكس نماذج السفن، كان القطع التى تُصنع منها تبقى لزمن طويل وكانت فى الغالب صغيرة الحجم؛ مما ساعد على حفظها.

ويبدو أن عاج البحر جيد للحفر بصورة مذهشة باستعمال أبسط الأدوات. وقد صنّع قدر كبير من أقدم المنحوتات العاجية بإبرة صانع الأشرطة أو منشار المعادن أو المطواة أو المبرد، بالإضافة إلى العديد من الأحبار الملونة. والقطع التي تبدو مخروطة استفادت من البناء الداخلى للعظم (مثال العصا المصنوعة من ناب كركدن البحر التي فى حوزتى) أو كانت تُخرط على طاولة صانع البراميل بنفس المخرطة التي تصنع المعدات لسفينة صيد الحيتان.

ويبدو أن المنحوتات العاجية تنقسم أساساً إلى فئتين، وربما ثلاث فئات. ونجد فى إحدى هذه الفئات فن المشاهد الكروكية على أسنان الحوت وعظامه، وعادة ما تكون باللون الأسود، وإن كانت تعلوها فى أغلب الأحيان طبقات من الأحمر أو الأخضر. ومع أن هذه الرسومات الكروكية لها موضوعات كثيرة، فإن النساء هن الأبرز، تليهن المشاهد البحرية؛ من سفن واقفة فى عرض البحر من أجل سرب من الحيتان، أو مطاردة الحيتان، أو سحب حوت ميت، أو صورة جزيرة، أو بركان. وغالباً ما نجد كذلك اشتباكاً بحرياً مرسوماً على الأسنان، ولكن هذه ليست بنفس القدر من الشيوع. ومع أنه لا شك فى أن هذه المشاهد رُسمت لحفظ ذكرى ما، فقد كانت فنية فى المقام الأول.

ويتكون النوع الثانى من المواد، تلك المصنوعات التى لإبداعها غرض حقيقى؛ وهى الأشياء المنحوتة التى لها قيمة نفعية. ومع أنها تتراوح بين سنادات الدقل الأعلى ومخارز الفتيل(*) والبكرات الصغيرة من ناحية، وإبر الكروشيه وعلب النشوق من ناحية أخرى، فهناك عدد من الأفكار والموتيفات المتكررة فيما بينها.

والنوع الأخير من المنحوتات العاجية أشياء تجمع بين العاج البحرى والخشب والمعدن والجلد أو الحبال. وهناك عشرات الأشياء المختلفة ضمن هذه الفئة، إلا أننا نرى مرة أخرى تفضيلاً محدداً لأصناف وزخارف وموتيفات بعينها.

توجد بميناء ميسنك مجموعة كافية جداً من المنحوتات العاجية، ومن المناسب وصفها أو مناقشتها. وتشمل المجموعة بصورة عامة حوالى ألف ومائتين قطعة.

(*) مخرز الفتيل : أداة حديدية مستدقة الطرف تُفصل بها طاقات الحبل بعضها عن بعض (المترجم) .

ومن بين هذه القطع هناك المتشابه منها دون أن يكون متطابقاً. وهناك مائتان وخمسون سناً وناباً مزخرفاً يحمل أغلبها صوراً لنساء وأطفال يليها مباشرة مشاهد صيد الحيتان. ومن بين المصنوعات هناك إحدى وستون عجلة تسنين، واثنان وأربعون ضلع مشد (كورسيه)، واثنان وعشرون بكرة خيط، وأربعة وعشرون سكيناً، وثلاثة وثلاثون مخرزاً، وثمانى عشرة لوحة من لوحات لعبة الكريبيج (تعود إلى الإسكيمو فى أغلبها)، وثمانى عشرة سنادة دقل، وخمسة عشر طاقم مشبك غسيل، وتسعة علب، وست إبر وشم، وعدد من البكر. ويمكن أن يضاف إلى هذه الأشياء ست عشرة قطعة أعيد إنتاجها أكثر من مرتين؛ مثل ثلاث مقاشر للذرة من بين كل الأشياء. وعند كتابة هذه القائمة، كانت هناك ملاحظة صغيرة بخصوص الكثير من الأدوات - الشنكار والمخرز والمثقاب وفارة النجار والياردة وإبر الشباك وغيرها - وهو أن وظيفتها كانت نفعية فى الأساس وليست فنية.

ومن بين كل قطع المنحوتات العظمية المنتجة هناك ثلاث قطع تنبغى مناقشتها بسبب وجودها المتكرر والدرجة الرفيعة التى عليها من الإتقان والأسلبة. وتلك هى عجلات التسنين والعصى وأضلاع المشد. فقد كانت العجلات المسننة، أو أدوات ثنى الفطائر، تتطلب قدراً كبيراً من المهارة من جانب الحفار، لأن العجلة متحركة ومحززة، وكثيراً ما كانت توجد مرتبطة بشوكة تثقيب. وكانت الاثنتان متصلتين بيد محفورة حفرًا دقيقاً تمثل فى الغالب الأعم ساق فتاة ممثلة وقد اتصلت العجلة بالقدم. وتكررت على هذا الموتيف تنويعات فى صورة جسم أنثى كامل أو ذراع، وفى بعض الأحيان كانت تأخذ شكل حصان أو طائر أو شجرة. وفى بعض الأحيان كذلك كانت هناك حية تلتف حول اليد.

رغم تنوع عصى السير تنوعاً كبيراً من حيث تصميمها - من الحفر الدقيق بطول العصا التى كانت تشكّل على هيئة جبل أو كانت تلتف حولها حية - إلى العصى غير المزخرفة التى بها مقبض واحد أو رأس تركى فى أعلاها، فقد كان هناك عدد سائد من التصميمات. وكانت أكثر الأشكال التى تُقابل ساق فتاة، ورأس كلب، ويد منقبضة وقد دُست الإبهام فيها (دليل على الصحة والقوة بالنسبة للبحار)، ويد تقبض على كرة، وساق حصان وحافره. أما ضلع المشد أو الكورسيه فكان مختلفاً بعض الشيء، حيث

كان قطعة رقيقة مستوية من العاج البحرى أو البلين طولها من عشر إلى ثلاث عشرة بوصة تقريباً ويتراوح عرضها بين نصف بوصة وبوصتين. وكان ذلك هو الصنف الأكثر حميمية الذى يمكن للبحار حفره، ذلك أنه كان يصنعه ليوضع فى كورسيه ليجعل بطن إحدى النساء مشدوداً. ولأنه كان يوفر سطحاً مستوياً إلى حد كبير وكانت فائدته محببة تحظى بتقدير البحارة، فقد كانت التصميمات فى الغالب أكثر شخصية وعاطفية مما وجد فى غيره من أشياء. والقطعة التقليدية التى فى حوزتى طولها ثلاث عشرة بوصة وعرضها بوصة ونصف محفور على أعلاها نصفاً كرة. كما حفر على الحواف كنار من الورد (زهرة الحب)، وينقسم الجزء الأوسط إلى مناظر عن طريق رسم خطوط مستقيمة بعرض القطعة التى تحمل نقوشاً على جانب واحد فقط. وإذا بدأنا من أعلى وجدنا شكلاً معيناً تحيط به نجمتان وتحتيه نجمتان أخريان. يلى ذلك نسر عليه درع مكتوب عليه باللاتينية E Pluribus Unum وفى أحد مخليه برق وفى الآخر أوراق الغار، وتحيط بالشكل كله نجمتان. وبعد ذلك هناك نخلتا جوز هند وتحتهما قلبان التف حولهما خط متعرج لونه أحمر على كل جانب. يلى ذلك سفينة شراعية بصاريين وقد نشرت كل أشرعتها وترفع راية "صقر الليل" إشارة إلى أنها فى طريق عودتها إلى الوطن، يليها سلة زهور ونقش يقول "لا يمكن أن تفوق الزهور الفتاة الجميلة جمالاً". وأخيراً هناك شجرتان من أشجار الحياة التفتا حول بعضهما.

وغالباً ما تصور مشاهد أخرى فتاة نحيلة، ويدان متماسكتان، وفى بعض الأحيان طفل، بينما يستخدم عدد من العبارات المنقوشة. وكان من بين العبارات المفضلة العديد: "حظ دَسِم" و"الموت للأحياء، وليحيا القتلة، والتوفيق لزوجات البحارة وحظ دسم لصيادى الحيتان" و"تذكرونى" و"إلى زوجاتنا وحبيباتنا، عسى ألا يلتقين أبداً" (٧) "النجدة، النجدة. أليس هناك من ينقذ الفتيات الحسان من أحضان القراصنة". وفى بعض الأحيان كان هناك نظم كالتالى:

هذا العظم كان يوماً قابلاً فى فك حوت العنبر

والآن هو من أجل صدر امرأة.

هذا يا حبيبتى أصنعه
لك لتستخدمينه لا لتعيرينه^(٨) .

أقبلنى منى ضلع المشد هذا يا فتاتى العزيزة
فقد حفرت يدي المتواضعة
وأخنته من فك حوت العنبر
على بعد ألف ميل من اليابسة.

فى كثير من الرياح كان هناك حوت
كان تلك العظمة فيه قابضة
لقد انقضى زمانه، وأخيراً عظامه
لا بد أن تشد صدرك^(٩) .

لا بد أن نتذكر أننا نتحدث هنا عن موتيفات المنحوتات العاجية وموضوعاتها الأكثر شيوعاً. ولم تكن هناك أية محاولة لوصف الأشياء الأكبر حجماً والأندر التى هى أكثر زخرفة فى الغالب، كتلك التى يمكن رؤيتها بوفرة فى ميناء ميستك، أو متحف نيو بدفورد لصيد الحيتان، أو متحف كيندل لصيد الحيتان أو متحف نانتاكت. وهذه الأشياء على قدر كبير من التنوع وشديدة التعقيد من حيث رسوماتها. ول مناقشة المنحوتات العاجية ووصفها الوصف الواجب يحتاج الأمر إلى مجلد كامل. ويكفي هنا فى هذا المقام أن نقول إن الخيط المشترك الذى يربط كل أطراف هذا الفن ببعضها هو الاهتمام بالتفاصيل والنسب ودقة الرسومات والتكنيك المتقن. فقطعة المنحوتات العاجية النادرة هى التى تخضع للتفسير من حيث الشكل أو الوظيفة.

واليوم لا يزال هذا الفن قائماً. ومازال فنانون من أمثال تشارلز سايلز Charles Sayles وميس ماسى Miss Macey، وكلاهما من نانتاكت، يشكلون العاج البحرى ويواصلون الأشكال القديمة، وإن كان لأغراض جديدة مثل أكياس نقود السيدات أو الأباجورات. وبما أنهم مزودون بأدوات أفضل، وأضواء أحسن، ومكان عمل ثابت، وينظرون إلى المنحوتات العاجية على أنها مهنة وليست هواية، فقد طوروا شكل الفن القديم إلى درجات عالية جديدة من الدقة الفنية.

قد لا يكون هناك مكان فى العالم البحرى تتضافر فيه الوظيفة والفن والمكانة تضافراً أكمل مما عليه الحال فيما يمكن تسميته فن العقد. وكانت العادة أن البحار رجل يمكنه لفه الأشرعة وتأمينها، وتقشير الأشرعة وتوجيه السفينة. وكان مطلوباً من أى عريف ملاحين أو أى ضابط صف أن يتمتع، ضمن ما يتمتع به، بكفاءة فى معرفة بحرية مخزى الفتيل، أى معرفة كيفية ربط عقد بعينها وعمل العديد من وصلات الحبال المصنوعة من القنب والأسلاك. وكان لابد للحبال وصانع الأشرعة من ناحية أخرى أن يكون كفئاً فى عمل العديد من العقد والوصلات والفرز. وكان الحبال يحمل سكيناً ومخزى فتيل يعلقه فى حزامه فيما يكاد يكون شارة تدل على وظيفته، بينما كان صانع الأشرعة مزوداً دائماً بمقعد. وكان لكل من هذين الشخصين واجباته الخاصة به. فعلى سبيل المثال، كان الحبال معنياً فى المقام الأول بإدخال الحبال الدائمة الموجودة على متن السفينة فى الأشرعة وصيانتها وتمتينها. وكان يقضى معظم أوقاته فى توصيل الحبال وفى خدمتها، وهو ما كان لديه نظم خاص به يقول: "اجدل الحبل وأحكم لفه بالقماش / در ومته من الناحية الأخرى". وكان صانع الأشرعة يقوم بعمل الأشرعة وإصلاحها وعمل أغطية الفتحات والمظلات.

وكشأن الكثير من التراث البحرى، فإن لصنع العقد تطوراً تراكم بمرور آلاف السنين، ويكاد يكون لاستخدام كل قطعة من الحبال العقدة أو التوصيلة أو الفرزة المصاحبة لها التى أثبت استخدامها عبر القرون أنها الأكفأ لهذه المهمة. ولا شك فى أنه من الممكن اختراع عقد جديدة، ولكن حين يجرب الهواة ذلك

فإنهم يحاولون تحسين ما بلغ عدده حرفياً الملايين من العمل الساعى(*) الذى خصصه الإنسان للمشكلة. ويعد كتاب The Ashley Book of Knots أكبر عمل موسوعى متوفر عن هذا الموضوع، حيث يقسم مادته إلى واحد وأربعين فصلاً ويتضمن ما يزيد على ٣٥٠٠ عقدة وتوصيلة وعرزة منفصلة. إلا أنه قبل أن نتطرق إلى المزيد، لابد من عرض القليل من التعريفات.

وكما أن السفينة لا تكون "راسية" إلا حين تكون فى الحوض الجاف، فإن الأشياء لا تكون "مربوطة" إلا حين تكون السفينة "راسية" و"ثابتة" على الرصيف. والعقد "تُعقد". وهى تُعقد على وجه الدقة فى طرف الحبل لتوفير دعامة له أو منعه من أن ينسَل. و"العقدة" بصورة أكثر عملية شكل يجرى إدخاله على الحبل باستعمال الحبل نفسه، مثل العقدة المنفرجة أو العقدة المربعة. وتستخدم "العقدة الوتدية" لربط حبل فى شئ من قبيل الشمعة التى تربط بها السفن. وتربط "التوصيلة" طرفى حبلين ببعضهما لعمل حبل واحد، كما فى عقدة الصياد أو عقدة ربط حبلين. وتجمع "الوصلة المجدولة" بين حبلين، أو بين جزئى الحبل الواحد بحيث تصبح الطاقتان كياناً مندمجاً؛ وتجرى هذه العملية بجدل الحبل أو الحبال معاً، باعتباره وصلة مجدولة قصيرة أو وصلة مجدولة عُرْوِيَّة.

لكل عقدة ووصلة اسمها، واستخدامها، وطريقة بنائها التى تميزها عن غيرها، وفى بعض الأحيان قصتها الصغيرة. فقد سُميت عقدة الحرامى، التى تكاد تشبه العقدة المربعة، بهذا الاسم لأن البحارة كانوا يستخدمونها لربط مخاليهم. وكان اللص المهمل يسرق القليل من المخلة ويعيد ربطها بالعقدة المربعة، وبالتالي يفضح نفسه.

ما إن يُكتشف أمر اللص حتى يمكن أن يتصل بقطعة اللصوص (القطعة ذات التسعة ذيول) وعقدة الدم. أما الأولى فهى سوط به تسعة من حبال صيد الحيتان طول الواحد منها حوالى ثمانية عشرة بوصة موصولة إما بقطعة من المنحوتات العاجية

(*) وحدة تمثل مقدار العمل الذى يؤديه عامل واحد فى ساعة واحدة وتتخذ أساساً لتقدير نفقات الإنتاج وتقدير أجور العمال (المترجم).

أو بقطعة من الحبل السميك المجدول بطريقة جميلة. وفي نهاية كل حبل كانت تُعقد عقدة دم، أو أحياناً قطعة رصاص، لضمان تدفق الدم من ضحيته. وكان المصطلح "قطعة" يطلق على هذه الأداة بسبب الاعتقاد على متن السفن بأن القطعة تحمل النار في ذيلها. وكانت قطعة اللصوص تُصنع كذلك من ألياف أقمسي من العادية، لأن السرقة على متن السفن كانت جريمة تستوجب العقاب الشديد^(١٠).

والعقدة الأخرى التي تستحق الذكر هي أنشودة الجلاء. والغرض من هذه العقدة التي يجب أن تنزلق بسهولة هي كسر الرقبة وكذلك شتق الضحية. وابلوغ هذه الغاية كانت عقدة ضخمة. وطبقاً للمعتقد الشائع في بحرية الولايات المتحدة، فقد كان عرض هذه العقدة أمراً يستوجب المحاكمة العسكرية؛ ولكن إذا رغب أحد في عمل هذه العقدة فلا بد أن تكون بها ثلاث عشرة لفة بعدد حواربي المسيح الثلاثة عشر وينبغي لفها عكس عقارب الساعة بحيث يسهل أكثر على الشيطان الحصول على ضحيته.

لكي لا يظن ظان أن هذه المناقشة مرعبة أكثر مما يجب، هناك جانب أخف في فن بحرية مخز الفتل. فحين يختلط البحارة ببعضهم فإنهم يستمتعون بتبادل الخيوط ومشاهدة المهارات. كما أنهم يستمتعون بخداع "أبي نتيمة". ومصدر التسلية الكبير هو أن يسألوا الشخص المستجد عما يعرفه عن العقد. ويتاء على حكمته فإنهم قد يرسلونه بعد ذلك للبحث عن ماثيو ووكر *Matthew Walker*، أو عقدة السدادة، أو لإطعام الجمل، وهو حاجز لمنع اصطدام السفينة، أو قد يسأله سائل إن كان قد ذهب إلى محطة الصين. وبعد ذلك يسألونه إن كان يمكنه عقد أكثر العقد فائدة، وهي عقدة التتين. وحين تكون الإجابة بالنفي، يتهد أحد كبار البحارة وينهض ويعقد العقدة ويمطيتها للمستجد. "هاهي". "إنها مجرد عقدة". "هذا صحيح. والآن اسحبها".

يتعلق المثال الأخير في الأسلوب الخفيف بقبضة القرد. وهذه عقدة تكثر فيها التواءات وتعقد في طرف حبل خفيف طويل، أشبه بحبل تحريك التلفزة المنزلة، حيث يكون الهدف هو زيادة وزن طرف هذا الحبل المسمى حبل الرمي. وهذا هو الحبل الموصل بحبل أكبر منه يسمى المراسلة، وهو مثبت بدوره

فى القلّس(*) . يلقى عريف الملاحين الحبل الخفيف إلى الشاطئ، حيث يلتقطونه ويسحبونه فيتبعه المراسلة، ثم يسقطون القلّس نفسه على الرصيف. وحبال الرمى يصنعها مساعداو عريف الملاحين وهى ملكية خاصة بهم. وليس مسموحاً لأى شخص آخر باستخدامها، حيث يحظى حفظها برعاية كبيرة. ولكن يتقن عريف الملاحين تحديد الهدف والمسافة، فإنه يقضى قدراً كبيراً من وقته فى إلقاء الحبل وتليينه، ذلك أن الرجل الذى يمكنه إلقاء الحبل لأطول مسافة ممكنة ويأكثر استقامة ممكنة كان يحظى بمكانة رفيعة. وكلما كانت قبضة القرد أثقل كانت المسافة التى تبلغها أبعد، وكان مغرياً باستمرار "تسليح" القبضة بوضع شىء ثقيل داخلها. وكانت لوائح البحرية تحظر مثل تلك الأعمال، حيث إن قبضة القرد فى هذه الحالة تكتسب صفات أشبه بصفات الهراوة المكسوة بالجلد.

كنت إبان الحرب العالمية الثانية على متن سفينة تحاول الوقوف بمحاذاة رصيف فى منطقة القناة. ألقى عريف ملاحين من الدرجة الثانية اثنين من حبال الرمى إلى أحد عمال تفريغ السفن. كانت المسافة كبيرة ولم يصل الحبلان إلى مقصدهما. وبما أن العامل لم يكن متحمساً فى التقاطهما فقد سقطا فى الماء. فى هذه اللحظة صعد عريف ملاحين من الدرجة الأولى ومعه حبل الرمى الخاص به، الذى أخفى فيه كرة رولمان بلى وزنها ست أونصات. أسرعت قبضة القرد كأنها حجر داود(**) وأصابت عامل الميناء اللامبالى إصابة بالغة فيما بين عينية. وقع الرجل على الأرض كأنه ثور مذبوح. وبحركة سريعة بالرسغ وقع حبل الرمى من على الرصيف وقد تحرر من المراسلة ودُس فى دولاب ديفى جونز(***) وحين صعدت سلطات الميناء على متن السفينة بحثاً عن أوقع الرجل على الرصيف وتوجيه الاتهام إليه، اعترف عريف الملاحين بالرمى بفخر شديد،

(*) حبل تشد به السفينة إلى اثبر (المترجم) .

(**) الحجر الذى قتل به الملك النبى داود جليات العملاق. وفى العهد القديم "فتمكن داود من الفلسطينيين بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطينيين وقتله" (صموئيل الأول: ٥٠) (المترجم) .

(***) أى ألقى به فى قاع البحر، حيث إن ديفى جونز هى التسمية التى يعرف بها قاع البحر فى الغنيات والحكايات (المترجم) .

وعرض على الضابط حبل رمى غير مسلح. قد لا يكون هذا فولكلوراً على وجه الدقة، ولكنه بالتأكيد منتجاً فرعياً.

لقد تحدثنا حتى الآن فقط عن الاستخدامات الوظيفية لبحرية مخزن الفتيل. إلا أننا نجد عند تنفيذ العُقد والوصلات قدراً كبيراً من المتعة الجمالية. فالغرز التي في قماش الأشرعة ذات تصميم هندسي، والوصلات المجدولة الطويلة فُتلت بدقة بحيث يصعب على من يراها معرفة أين تبدأ وأين تنتهي، والحبال لفت بحرارة الشمس وبترتيب يدعو للدهشة، كما تُصنع من الأطراف الزائدة بواسطة صغيرة متمائلة مرتبة.

وننتقل بسرعة وسهولة من هذا الجانب الوظيفي إلى مجالات يبدأ فيها الجمالي مشاركة الوظيفة على قدم المساواة. فالدواسة تنسج بعناية وتوضع على سطح السفينة عند المدخل المؤدى إلى الدرج. وإذا كان الغرض هو مجرد تنظيف الأحذية، فلماذا لا يقومون بتثبيت بعض الحبال وحسب؟ إن البحار يمكنه تثبيت سرواله حول وسطه بقطعة من الخيط المغزول، إلا أنه يقضى حوالى عشرين ساعة فى عمل حزام بالعقدة المربعة مكون من ست عشرة خيطاً به اثنا عشر نقشاً متبايناً وستة ألوان مختلفة. بل إن الجزء الداخلى من لنش الأميرال وقارب القبطان فى الوقت الحالى مغطى بالكامل بتنوع من الدانتيل البحري؛ وهى من أشغال العقد التى تحتاج إلى شهور لإتمامها ويحافظ عليها ناصعة البياض باستخدام الصلصال الأبيض(*) باستمرار. ويعلق عريف البحارة صفارته حول عنقه ليس فى خيط أو قطعة من القيطان، بل فى جديلة من الحبال البيضاء أو السوداء تحيط بها عقدة الصفارة^(١١). ويمكن القول بأن هذه لها وظيفة، ولكن حقيقة أن هذه العقدة وهذه الجديلة مرتبطتان دائماً بهذه الأداة الخاصة قد يشير إلى إحساس قوى بالنزعة الطقسية؛ وهى أحد أقدم جوانب الفن.

يقول أشلى عن فنية العقد: "هناك فنان ينتميان إلى البحار، وهما المنحوتات العاجية ... التى كانت تخص أساطيل صيد الحيتان، وشُغل العقد، الذى كان يخص كل سفن المياه العميقة، بما فى ذلك سفن صيد الحيتان"^(١٢). كما يشير إلى أن شغل

(*) طين أبيض لدائن يستخدم فى صنع غليون التبغ وتبييض الأحذية والأحزمة البيضاء (المترجم).

العقد المعقد والدقيق بلغ أوجَه قبل عصر السفينة الطويلة السريعة (القلبر) في القرن التاسع عشر، ويرى أن الشعور بالرضى عن الذات والفترات الطويلة من العزلة والامية أسهمت جميعها في تطويرها؛ وهي الظروف التي بدأت في الاختفاء مع ظهور السفينة الطويلة السريعة والآلة البخارية والتحسينات الأحدث على متن السفن. وهو يوضح كذلك أن المهن العديدة كانت تتسلى بأساليب عديدة، حيث كان رجال البحرية ينجزون أعمالهم بتشياء صغيرة، وينجز بحارة السفن التجارية أعمالهم بحبال أطول وأكثر سُمكًا، بينما ينجز صيادو الحيتان - الذين يعتبرهم أفضل الصانع - أعمالهم بوسائط عديدة.

يمكن الاختلاف مع ما يقوله آشلي. فالحياة على متن السفينة نابراً ما كانت على قدر كبير من السعادة. إلا أن ظهور السفينة الطويلة وبدء التجارة مع الشرق أوجدوا للبحار مشاكل جديدة تتعلق بالعقد وفتحا عينيه على إمكانيات العقدة الشائعة في الشرق. إلا أن ما يقوله صحيح من حيث المبدأ، وقد فاق عمل العقد المنحوتات العاجية من حيث الكمية والتنوعية وتتسلى معها من حيث الدقة الفنية.

فما الذي يصنعه صانعو العقد؟ قد تطول القائمة، إلا أن معظمها كان مشتقاً من العقد المعقودة في الحبال ومن الوصلات المجدولة ونسج أشكال عديدة من الجداول. وكان صانع العقد يبدع مقايض للأوتار والعبد، والهراوات، والكليشات، وعلب الإبر، وسلاسل الحبال، ومقايض الأجراس والسلاسل الزخرفية، وبكة المخالي، وحبال تعليق الصقلارات والندي، والأساور، والأسواط، والجياحات(*)، والسجاد، وحقائب اليد، ومقايض الصناديق الرائعة، والقلايدات، والأحزمة، والسلاسل، وأغطية الزجاجات والبرطمانات، والأحذية، وعدد يكاد يكون لا حصر له من الأزرار.

كانت تلك الأصناف تصنع بأحجام مختلفة من الحبال. وكان الكثير منها ذا ألون سادة كالأبيض أو الأسود أو البني، إلا أن القليل كان يمكنه العمل بخيوط ملونة لإعطاء عمله تنوعاً لا حد له. وكما هو شأن المؤلف الموسيقي مع النوتة الموسيقية والسلام

(*) ما يوضع على السفرة تحت الصواني والصحن لحماية الطاولة (المترجم).

الموسيقى، فقد كان صانع العقد يكاد يعمل دائماً بأشكال معروفة من العقد، إلا أن النزعة الفنية التي داخله كانت تملئ عليه تجريب تراكيب وأشكال وألياف وألوان مختلفة. فهو لم يكن يكتفى بعمل حزام من العقدة المربعة البسيطة. بل كان يصر على أن يدخل في إبداعه خيوطاً ملتوية، وعقد ربط الحبلين، والجداول، والألوان المختلفة، وعلى زيادة عدد الخيوط وإنقاصه. وكان يرى أن الفن الخاص بإبداعه يكمن في الجمع بين العقد والأشكال المختلفة في كيان منسجم. وكلما ازداد العمل صعوبة كان الفن أعظم. وكان كذلك يفاخر بدقته؛ فلا بد أن يكون غطاء الزجاج الذي يصنعه مطابقة لها تطابق اللحاء على الشجرة، ولا بد أن تكون عقده موحدة الشكل. وكانت قدرته كصانع تكمن في تنوع عقده وتوحد منتجه النهائي. ولقد رأيت بحاراً يحل حزاماً كاملاً من العقد المربعة لأن عقدة منها لم تكن مشدودة مثل العقد الأخرى، ويفك وصلة مجدولة مسلوكة لأن إحدى اللفات لم تكن في مكانها.

البساطة بشكل عام هي أحد مبادئ الفن. وغالباً ما نشكو من أن شكلاً بعينه من الأشكال الفنية يتسم بالبهرجة والمبالغة. إلا أن هناك شيئين فقط يخالفان هذا المبدأ، وهما شجرة الكريسماس، التي لا يمكن اعتبار زينتها أكثر مما يجب، وفن بحرية مخرز الفتيل.

كما هو الحال بالنسبة للمنحوتات العاجية، لا يزال شغل العقد الزخرفي يمارس؛ وإن كان على نطاق أضيق بكثير. وما يؤسف له أن الحبال الحديثة (النابلون والداكرون وغيرها) لا تصلح بصورة جيدة لأغراض صانع العقد، ولم يتقدم العمل الزخرفي بقدر تقدم المنحوتات العاجية. ولكن مادام الإنسان مستمراً في خروجه إلى البحر، فسوف يصنع عقد ربط مزبوجة، ورءوس التركي، والجداول المستديرة والمسطحة و"عيون صيادي السمك"؛ ليس فقط لربط الحبال ببعضها أو سد زجاجة الماء أو حفظ الكُشتبان، بل من أجل متعة صنْعها وبهجة رؤية العمل الدقيق وقد أحسن صنعه.

وهناك شكل فني أخير يتلشى قد لا يمكن تجاهله، وهو الوشم الذي يكاد يكون مقصوراً على مهنة العمل في البحر. وفي الماضي كان الرجل يُعرف أنه يعمل في البحر

عن طريق ضفيرته الصغيرة المقترنة، ومن خلال مشيته المتمايلة، وبما على جلده من وشم. وقد اختفت الصغيرة المقترنة منذ زمن بعيد، والمشية المتمايلة يمكن إخفاؤها، إلا أن الرجل الذى يعمل فى البحر لا يزال لديه وشم فى مكان ما من جسمه، وعادة ما يكون على يده أو ذراعه أو صدره. وكثيراً ما يميز الوشم الفرع المحدد الخاص بالمهنة البحرية التى يعمل بها؛ فعلى سبيل المثال كان ضابط المدفعية يضع المدفع المتقاطع، وكان عريف الملاحين يضع مرساة.

إن فن الوشم قديم ومنتشر. وكانت تمارسه، إلى جانب تقديم الأضاحى وبتر الأعضاء، القبائل الهندية الأمريكية^(١٣)، والإسكيمو، والأفارقة، والأوروبيون، وكانت تمارسه بشكل خاص شعوب أوشينيا والشرق.^(١٤) وتشير كل الاحتمالات إلى أن جزءاً كبيراً من الوشم البحرى جاء من هذه المنطقة، حيث يجرى تنفيذ الكثير من أفضل الأعمال. وهنا، فى الرحلات البحرية الطويلة وراء الحيتان أو فى الرحلات المتجهة إلى الصين وأستراليا، تعرف جاك لأول مرة على البولينيزيين والميلانيزيين والبوشمن الأستراليين والصينيين واليابانيين. وفى حالات كثيرة كان يجد أعداداً من "الكاناكا" (*) يبحرون معه كزملاء على السفينة. وكان من الطبيعى أن يكتسب بعضاً من عاداتهم، بالإضافة إلى نسائهم.

والقول بأن تلك كانت ممارسة زخرفية بحتة أمر يبعث على الضحك. فقد كانت العملية شديدة الألم تماماً، فضلاً عن كونها خطيرة، وكانت النتائج دائمة إلى حد كبير، إلى جانب الموتيفات ذاتها، وهذه جميعاً تجعل تأييد مثل هذا الافتراض غير ممكن. وقد قمت مؤخراً برحلة بحرية فى سفينة صيد إسكوتلندية بها طاقم يضم أحد عشر فرداً. كان عشرة من أفراد الطاقم يحملون الوشم بدرجات متفاوتة. وكان الشخص الوحيد على متن السفينة الذى بلا وشم هو صبي فى الرابعة عشرة من العمر له خبرة قصيرة كبشار. وأثناء تلمذته وقع مرتين من على السفينة ورفض بقوة السماح أن يكون جلده وعاءاً للصور. ولأنه ما كان ليسمح لنفسه بأن يصنع له وشم، فقد أحال زملاؤه على السفينة حياته إلى عذاب وأخبروه أنه لا يمكن أن يكون بحاراً قبل أن تخترق جلده إبرة

(*) أبناء هاواى الذين ينحدرون من أصول بولينيزية (المترجم) .

الوشم. كما استنتجوا أن تجربتي سقوطه من على السفينة كانتا مرتبطتين برفضه أن ترسم إبرة الوشم شيئاً على جسمه. باختصار، يبدو أن دق الوشم على متن سفن الصيد الإسكوتلندية في الوقت الراهن يمثل نوعاً من طقوس التكريس.

يتعزز كون هذا الشكل من زخرفة الجسم شيئاً خلاف اللهو حين ننظر إلى بعض أشكال الوشم التي لا تزال مستخدمة في الوقت الحاضر. فأحد الرسومات الشائعة، وخاصة بين صيادي الأسماك الأمريكيين البرتغاليين هو المسيح مصلوباً، وهو يُدق في العادة على الذراع اليمنى. وغالباً ما يصور خنجر يقطر دمماً على الذراع اليسرى؛ وهذا الوشم رمز للقوة والشجاعة. ويشيع في إسكوتلندا وشم TRUE LOVE [الحب الحقيقي] على ظهر الأصابع. والرموز المقابلة في أمريكا هي HOLD FAST [تشبث] أو GOOD LUCK [حظاً سعيداً] أو HARD LUCK [حظ عاثر] . كانت الموضة بين البحارة في الأيام الخوالي دق وشم على هيئة خنزير على أحد القدمين وديك على القدم الأخرى. وزعم عريف ملاحين من الزمن القديم أن أى شخص عليه هذان الوشمان لا يمكن أن يفرق، لأن هذين المخلوقين مكروهان في الماء. وقال بحار قديم آخر إن أى شخص يحمل هذين الوشمين لن يموت من الجوع على متن سفينة، لأنه يحمل معه مصدرين من مصادر الطعام؛ هما لحم الخنزير والبيض. و سوف يتعرف أى شخص مُطَّلَع على الفولكلور فوراً على مغزى شديد القدم والرسوخ في هذه الرموز.

قد يبدو أن مفهوم دق الوشم باعتباره أحد طقوس التكريس تدعمه طبيعة الرموز المستخدمة التي نجد أن الكثير منها ذو توجه جنسى. فعادة ما تنقش صور النساء، وهن عرايا أو شبه عرايا عادة، على العضلة التي في أعلى الذراع، حيث ترقص أو تهتز عند تحريك العضلة. وأثناء كتابة هذا الفصل أتيحت لى الفرصة كي أرى على ذراع رجل وشمّاً عبارة عن فتاة ترتدى قبعة. وكان إذا رفع ذراعه تصبح امرأة عارية ساقاها متباعدتان. وحين كان يثنى عضلاته كانت مؤخرتها تهتز. وكانت هناك كذلك أشكال شديدة الإيلام من الوشم تدق على الأعضاء التناسلية التي كانت تزخرف بالنحل والذباب وحتى عمود الحلاق(*) .

(*) عمود عليه خطوط حلزونية حمراء وبيضاء يرمز لمهنة الحلاقة (الترجم) .

حتى وقت قريب إلى حد ما، كان من الشائع أن يحمل البحارة أشكالاً عديدة من الوشم، وكان البحارة المخضرمون متاحف فنية متنقلة بالمعنى الحرفي للكلمة. وبينما كانت الحيات تلتف حول سيقانهم وكانت الحبال والسلاسل تزين معاصمهم، كانت هناك الفتيات الراقصات والنسور والمراسي الملتفة عليها الحبال والسفن ذات الأشرعة المربعة التي تزاحم ليكون لها موضع على الجسم. والواقع أن الأغنية الكوميديّة الطويلة عن السيدة الموشومة كانت كتالوجاً أكثر منها ملهاة.

ومن بين أشكال الوشم الكبرى ذات الطابع الجنسي شكلان شائعان إلى حد كبير، وهما صيد الثعلب ومطاردة الأرنب. ففي الوشم الأول نجد الفارس المندفع على الظهر متتبّعاً الكلاب المتذمرة على البطن، بينما اختفى الثعلب ولم يظهر سوى ذيله من المؤخرة. وينطبق الموتيف ذاته على مشهد الأرنب، حيث تقود الآثار إلى السرة ولا يرى سوى ذيل الأرنب بينما اختفى سائر جسمه داخل السرة. وكان هذا الموتيف أكثر شيوعاً من مشهد الثعلب، لأنه طبقاً لما قاله فنان الوشم "يمكن لعدد أكبر من الناس مشاهدته. بينما الوقت الوحيد الذي يمكن فيه رؤية المشهد الآخر هو أثناء الاستحمام. ومن ذا الذي يهتم بذلك؟"

هاتان الصورتان الكبيرتان لا يمكن عملهما بسهولة ويستغرقان بالفعل أياماً، وقد تطول الأيام لتصل إلى سنوات. و"بادي" موت "Buddy" Mott أحد فناني وشم بقيا في نيويورك برود آيلاند، وهو يتذكر أن الأمر استغرق ثلاث سنوات ونصف لاستكمال صورة كبيرة لنسر على مرساة (رمزا القوة والإخلاص) على ظهر أحد البحارة. "كان قد دخل وجلس لبعض الوقت ثم ذهب للعمل على إحدى السفن وكان من الممكن أن تمر ستة أشهر قبل أن يعود. أظن أنني عملت في ذلك الشكل حوالي ثلاث عشرة ساعة." وقد يضاف أن الإخباري كان يعمل في ظروف حديثة بإبرة كهربائية، وهو ما كان يزيد من سرعة العمل مرات عديدة.

عند هذه النقطة قد نسأل عن كيفية وضع الصورة. ونجد في العصور الحديثة أن "قاعة الوشم" غرفة صغيرة بالقرب من الواجهة البحرية بإحدى مدن البحارة. يدخل الزبون ويختار الرسم الذي يريده من بين مئات العينات الموجودة على الحائط التي قام

بعملها فنان الوشم وصمم الكثير منها أو اقتبسها من رسومات قديمة. وإذا لم يرض الزبون بالصور أو الألوان المتاحة فإنه يتشاور مع الفنان الذي يقوم بعمل الرسم الكروكي السريع للتأثير المطلوب ويلونه بالطريقة التي ترضى المشتري ويبدأ في العمل. يرفع الزبون قميصه، ويُنظف مكان الوشم بإسفنجة بها كحول ويرسم الفنان الصورة بإبرة كهربية تخترق الجلد بعمق وتضع الأصباغ تحت الطبقة الخارجية للجلد؛ والألوان المفضلة هي الأسود والأخضر والأحمر. وفي كل مرة يتغير فيها اللون الموجود في الخرطوش تُستخدم إبرة جديدة معقمة. والأمر ليس سهلاً بالنسبة للفنان، حيث إن العملية تحدث قدراً كبيراً من النزف، حيث يجب إزالة الدم إن هو أراد الاستمرار في العمل. وإذا كان الرسم يستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة، كان عادة ما يطلب الزبون العودة لجلسة أخرى.

في إحدى القاعات، التي يمكن اعتبارها نموذجاً لمعظم القاعات، كان هناك ٢٣٣ موضوعاً للاختيار من بينها. كانت معظم الصور مكررة بالألوان أو أوضاع أو تراكيب مختلفة. ومن بين هذه الصور كانت ٥٩ منها عبارة عن امرأة (وقد تعرى نصف جسمها الأعلى)، و٤٤ تصور طيوراً تشمل العديد من النسور و٦ طواويس والعديد من العصافير الزرقاء، وكانت ٨ منها لأسود أمريكية، و١٧ لثعابين أغلبها من نوع الكوبرا وهي في العادة مرتبطة بشيء آخر كالقتال مع نسر أو الالتفاف حول أسد أمريكي، وكانت ٥ صور للمسيح. وظهر بوباي Popeye وطفل رضيع ومجموعة كبيرة أخرى لمرة واحدة، إلا أن أكثرها شيوعاً في الوقت الراهن ما يسميه صاحبه "الحصاد المخيف" الذي هو شكل الموت المتخفي، وهو شديد الشيوع بين الهيبيز، إلا أنه كانت له أسلاف واسعة الانتشار في النحت الموجود على شواهد قبور القرنين السابع عشر والثامن عشر.

كانت تلك القاعة مختلفة اختلافاً كبيراً عن سابقتها من حيث كون الرسومات أصغر حجماً وأقل عدداً ومختلفة إلى حد كبير. فعلى سبيل المثال، كانت هناك لفيفة ورق واحدة فقط تحمل كلمة MOTHER [أمي] ، ورغم أن لديه "الآلاف من" المراسي، فإن أيّاً منها لم يكن معروضاً. وكان المفضل بين بحارة الأيام الخوالي صورة تُدق لهم على الصدر، وكانت عبارة عن نسر يحمل لفيفة ورق عليها عبارة E Pluribus Unum

اللاتينية فى منقاره، وفى أحد مخليبة البرق وفى الآخر مجموعة سهام. وعلى كل جانب يرفرف علم أمريكى، بينما يوجد أسفل النسر مدفع متقاطع وخلف الكل مرساة التفتت حولها قطعة حبل؛ إنه الرمز غير المنطقى للإخلاص والأمل.

لم تكن الصالة تعرض المشاهد والأشياء التى كانت شائعة فى يوم من الأيام، مثل العنقاء التى تخرج من رمادها، والحية ذات الجرس، والرمحين المتقاطعان، والقديسة آن، والقديس إلمو، والسفن الكبيرة التى نشرت أشرعتها كلها (والغريب إلى حد كبير أنه نادراً ما كانت تصور السفن ذات الأشرعة الطولانية وطيور النورس). وقد صُفِّر حجم الأسد الأمريكى الواقف على قائمتيه الخلفيتين والدم يقطر من مخليبه الذى كان شائعاً كزينة للظهر إبان الحرب العالمية الثانية. بل كانت هناك كمية معينة من الصور الفكاهية، أى السخيفة - مثل البحارة "الوقحة" التى تعرت حتى وسطها، والأرنب بجز بانى Bugs Bunny، والملاك الرضيع - التى حلت محل مادة قديمة. وأخيراً أشار أحد فنانى الوشم أن وشماً واحداً أو اثنين أو ثلاثة هو العدد المعتاد الآن، بينما كان العدد اثنا عشر شائعاً منذ سنوات. واعترف أحد فنانى الوشم أن لديه عشرين وشماً فقط على جسمه؛ "ليس هذا بالعدد الكبير بالنسبة لفنان الوشم".

فى الماضى كان العمل يتم باستخدام مطواة أو إبر خياطة الأشرعة (يضم متحف ميناء ميستك مجموعة من المنحوتات العاجية عبارة عن إبر وشم من العاج البحرى) أو دبوس حاد. وحتى فى الوقت الحالى نجد أن اليابانيين - المشهورين بمهارتهم فى دق الوشم - يستخدمون شظايا رفيعة من البامبو المغموسة فى الصبغة. وفى أزمنة قديمة كانت المحاولة الوحيدة للتعقيم التى تتخذ ضد التلوث الضخم الناتج عن الأصباغ - وكانت الفحم نباتى المخلوط باللعباب، وسناج لمبة الجاز، وورنيش الأحذية، والطلاء، وصبغة التوت وما شابه ذلك - هى استخدام شراب الروم بوفرة باطنياً ومن الظاهر. ويخلاف ذلك، كانت طريقة إدخال الأصباغ تحت الجلد شديدة الإيلام وتُحدث درجة كبيرة من التقيح. وكانت إبر صانع الأشرعة المثلثة تغمس فى الصبغة وتفرس تحت الجلد مراراً، أو كان خيط منقوع فى الصبغة يغرز بين الجلد واللحم ويسحب، أو كان ورنيش الأحذية يوضع فى شق السكين بالإبهام. وكانت نتيجة ذلك أن المحنة التى كانت تنتظر الرجل المزمع دق الوشم له هى التزيف الشديد والكدمات وجود مادة سامة تحت

الجلد. وأقل ما كان يمكن أن يتوقعه هو تورم شديد وارتفاع فى درجة الحرارة. أما الأسوأ فكان الموت بالتسمم العفنى.

وحين يُسأل البحار عن سبب تعرضه لهذا الإزعاج، خاصة وهو يعلم أنه من المستحيل تقريباً أن يخلص نفسه من النتيجة، كان رده فى العادة متوقعاً ولا يقدم أية معلومات. إن أغلبهم يردون بقولهم "لا أدري"، ولكن إذا ضغطت عليهم فإنهم إما يقولون "كنت مع شخص ما وكان لابد لكينا أن نفعل ذلك" أو "كنت مخموراً". وقال رجل إن أول وشم دُق له على ذراعه اليمنى حين كان "مخموراً" وآخر على ذراعه اليسرى حين كان واعياً "للتسوية بينهما".

ربما كان جاك تار Jack Tar سكراناً حين دُق له وشم، ولكنه يتحدث كثيراً عنه أولاً فى عنبر البحارة، كما يعرف أى رجل سبق له الخروج إلى البحر، وربما كان لديه إلى حد كبير رسم ثابت بقوة فى ذهنه قبل وقت طويل من ذهابه إلى القاعة. وكان الكحول الذى بداخله من أجل الشجاعة التى يمنحها الشراب وكان "الرجال" الذين معه جمهور قد سبق ترتيبه؛ وفى حال عدم وجود رجال، كان كثير من البحارة يذهبون إلى القاعة بمفردهم. وأخيراً فإن نوع الوشم المُقدّم وحقيقة أن جاك قد يعود مرات ومرات إلى فنان الوشم يتناقض مع فكرة أن دق الوشم نزوة من نزوات السكر. ذلك أنه حب الفن من جانب البحار الذى يصبح موضع شك إلى حد كبير بسبب عدد أشكال الوشم التى على الظهر، حيث يمكن الإعجاب بها فقط كإعجاب برسيوس(*) Perseus بميدوسا Medusa؛ أى من خلال المرأة.

قد لا يكون هذا فناً راقياً، ولكنه يُصنّف على أنه فن، ذلك أن العيب ليس فى مطامح الفنان أو فى مهاراته، بل فى المواد التى يستخدمها. فالجلد البشرى ليس مناسباً للألوان الزاهية إلى حد كبير، كما أنه لا يحتفظ بها. إلى جانب أن وجود الرسم

(*) بطل فى الأساطير اليونانية وهو ابن كبير الآلهة زيوس من داناى. أرسله الملك بوليديكتس لياتى له برأس الجورجونة ميدوسا ليتخلص منه، لاعتقاده بأنه سيموت فى هذه المهمة، إلا أن الآلهة ساعدته، وأعطته الإلهة أثينا مرآتها حيث استفاد بها عند قتل ميدوسا وقطع رأسها بالنظر إليها من خلالها، لأن من كان ينظر إليها مباشرة تحيله حجراً (المترجم).

تحت الجلد يجعله شبه معتم، وبمرور السنوات تأخذ الألوان فى فقدان بريقها وتتبدد. وعلى أية فإن السفينة التى نشرت كل شراعتها - بغض النظر عن مدى المهارة التى رسمت بها - لا يجرى تحسينها بحيث ترى من خلال البشرة التى تزداد عتامة بسبب الصدر المشعر.

من المؤكد أن بق الوشم فن، وربما ينتمى للفنون أكثر من أشكال أخرى سبق ذكرها. والمهارة التامة مطلوبة كى يبدع الفنان صورته التى صممها بنفسه فى أغلب الأحيان كتنويع على موتيف تقليدى قديم. بل إن هذا الفن غالباً ما يحمل كذلك معنى رمزياً رغم كونه وظيفياً وتصويرياً. فالمرساة التى تلتف حولها قطعة من الحبل، والعنقاء التى تخرج من رمادها، والنسر، والدافين، وعروس البحر، والحية ذات الجرس، والخنزير والديك - وحتى عبارة HOLD FAST على ظهر الأصابع - لها جميعاً مغزى رمزى. وبينما قد يظن البعض أن MOTHER التى على الذراع أو الفتاة الراقصة عارية الصدر المسماة جوان Joan على الموجودة على عضلة أعلى الذراع تنمان عن الإفراط فى العاطفية وعن الفوق الردىء، فهما يطلعان المشاهد الأكثر إنسانية على آمال البحار وأفكاره، تماماً مثلما يدل الحرفان W.C. على شخصية ويليام كرودى William Crowdy الفريق العارى المسكين على سواحل إل أو هو الشتوية. وغالباً ما يحكى الوشم للناقد المدقق قصة حياة البحار. إذ تحل "لوسى" محل "جوان"، وهذا وشم يحمل بلونه ورسمه وتكنيكه بصمات ديفى جونز من الجادة السابعة Seventh Avenue فى سان فرانسيسكو، وهذا أسد أمريكى بحجم وشكل معينين لا يأتى إلا من قاعة وشم فى هاواى، وهذه آثار أخرى من يوكوهاما، وهلم جراً.

قد يكون هناك بعض الشك فى أن بق الوشم أخذ فى الاندثار أكثر من الفنون الأخرى التى جاء ذكرها هنا. فرفيعو الثقافة يرون أنه فقد مكانته. وهو مخالف للقانون فى بعض الأماكن، ولم يعد يبدو أنه يقوم بأى من الوظائف التى كان يقوم بها فى الماضى. ومع ذلك فإنه حين يختفى سوف يعقبه فراغ لا يمكن بحال من الأحوال أن تملأه الزخارف الحديثة الخاصة بالعصور المعقمة الحديثة.

الفصل الثامن

الفقمة والرجال الضخام

لتشملكم البركات
ولتسلم أنت والأطفال
هل تعرف أن حبك الأول
هو أفضل حب

جون نيكلسون

- John Nicholson, Reslin'Chair Yarns

بينما كنت أبحر على امتداد ساحل مين في يوم من أيام الصيف الدافئة المشرقة، لاحظت ما بدا أنه جوال دقيق متسخ يتقلب في ظل شمندورة ذات جرس. ولكن النظرة الفاحصة أوضحت أن ذلك الشيء لم يكن جوال دقيق وإنما جسم منتفخ لفقمة رضية ميته من فقمة الميناء. كان السمك قد أكل عينيها واختفى أنفها. وكان هناك حبل سلة صيد مهترئ قد التف حول زعانفها الخلفية وربطها بالشمندورة الحمراء ذات الجرس المجلجل. ارتفع جسمها الصغير المتعفن بتثاقل مع الموجة وتعلق هناك في المياه الصافية التي جمعت بين البزقة والخضرة كشاهد على ذلك الاعوجاج الشيطاني الغريب في نفسية الإنسان. وقعت تلك الحادثة منذ سنوات بعيدة، غير أنني ما نسيتها قط، وظل الانطباع الذي تركته في نفسي ملازماً لي آلافاً كثيرة من الأميال؛ من مين Maine إلى فيدرا آيلاند Fldra Island، إلى سكاجيراك Skaggerak، إلى ميناء شول Schull في أيرلندا ثم العودة إلى كانوان Cannouan في جزر الأنتيل الصغرى Less

(*) مضيق واسع بين النرويج والدنمارك يربط بين بحر الشمال ومضيق كاتجات (المترجم) .

er Antilles. لقد أثار ذلك أسئلة ربما ما كان لى أن أطرحها إن لم أر تلك الجثة البيضاء القذرة، وكانت النتائج مذهلة.

أظهر البحث الفورى أن الفقمة الصغيرة قد قُلت وأن أنفها جُدع من أجل الحصول على المكافأة الصغيرة التى تمنح على قتل حيوانات الفقمة التى تتمتع بسمعة سيئة بين صيادى الأسماك فى مين. قيل لى: "لماذا، لأن هذه الأشياء تأكل قنطاراً من سمك الرنجة فى اليوم الواحد." والمنطق لا ينفع كثيراً. فالصيادون يعترفون بأن الرنجة التى لم تصل إلى الحجم الصالح للأكل غالباً ما تُحوّل إلى طعام مقلب للقطط، كما يعترفون صراحة بأن شبكة صيد ضخمة من النوع الذى يسحب على قاع البحر قد تقضى فى اليوم الواحد على الأسماك التى تقضى عليها حيوانات الفقمة جميعها الموجودة على ساحل مين فى عام. ومع ذلك فهم يقولون إن "هذا أمر مختلف". وسواء أكانت النتائج طيبة أو سيئة، فهناك شىء ما بشأن الفقمة التى تلهب خيال الإنسان.

منذ وقت ليس بالبعيد كانت حيوانات الفقمة وفيرة على شواطئ أمريكا الشمالية. وإذا استخدمنا أسماء الأماكن كمؤشر على ظهورها بأعداد كبيرة لاكتشفنا أنها كانت تنتشر عادةً جنوباً حتى سان دييجو على ساحل المحيط الهادى ورود آيلاند - Rhode Is- land على الجانب الأطلنطى، وفى بعض الأحيان أبعد من ذلك. ويصدق الشىء نفسه على الجزر البريطانية وأيرلندا. ورغم نقصان أعدادها بصورة كبيرة، فهى لا تزال تُرى من حين لآخر مستلقية فى الشمس على صخرة وسط الجزر أو وهى تسبح، كما يسبح الكلب، فى البحر.

الواقع أن الفقمة أحد مخلوقات الطبيعة الأكثر تميزاً. ويضع علماء الأحياء قوائم تضم واحداً وعشرين نوعاً مختلفاً منها تعيش فى بيئة واسعة الانتشار. فهى موجودة فى القطبين الشمالى والجنوبى، وفى مياه بحيرات لبراتور^(*) Labrador العذبة، وعلى طول السواحل فى المناطق المعتدلة. بل إن نوعاً منها، وهو الفقمة المطوقة، يعيش فى جزر الهند الغربية. ورغم ندرتها الآن، فلا بد أنها كانت موجودة بأعداد كبيرة فى يوم

(*) البر الرئيسى لنيوفاوند لاند بكندا فى الجزء الشمالى من شبه جزيرة لبراتور . (المترجم) .

من الأيام، ذلك أن هناك جزيرة تحمل اسم Seal Island [جزيرة الفقمة] على خرائط جزر ليوورد Leeward Islands. وربما كانت واحدة من تلك هي التي ظن كولبس خطأ أنها عروس البحر حين كان موجوداً هناك. وحين شوهدت واحدة على جزيرة كانووان Canouan منذ حوالي خمسة عشر عاماً حازت على نفس القدر من الاهتمام الذي حظيت به من كولبس.

وإذا كانت الفقمة عمومية فيما يتعلق بمدى أماكن تواجدها فهي لا تتسم بالعمومية في اختيارها لأماكن استراحتها. إذ إنها نادراً ما تختار أية صخرة قديمة لترسو عليها، بل إنها تفضل صخوراً بعينها وتتردد عليها حتى ولو لم يكن كان المكان مكتظاً بمثيلاتها. واليوم نعرف هذه الأماكن بأسمائها: Seal Bay [خليج الفقمة] ، و Seal Cove [خور الفقمة] ، و Seal Harbor [ميناء الفقمة] ، و Seal Ledge [لسان الفقمة] ، و Seal Rock [صخرة الفقمة] ، وهي جميعها في أمريكا الشمالية. وفي الخارج نجد مثل هذه الأسماء وغيرها كذلك. فهناك Sule Skerry جزيرة أو صخرة الفقمة و Mairmaid Rock صخرة عروس البحر التي ربما أخذت اسمها من التصور الخاطئ قديماً لحيوانات الفقمة على أنها عرائس البحر .

بل نجد في الوقت الراهن في الخارج أن الفقمة، مهما تعددت أسماؤها، تحيط نفسها بهالة قوية من السحر؛ وهو سحر ينسجم مع العصور الوسطى أكثر منه مع الحاضر. ففي أمريكا الشمالية ليس لهذا السحر وجود إلى حد كبير، والحكايات التي تتناول الفقمة هي في الغالب الأعم تدور حول صيد الفقمة؛ وهو في أحسن الأحوال عمل وحشي مازال يمارس في المنطقة القطبية وفي المياه القريبة من المنطقة القطبية . ومع ذلك هناك من الأدلة ما يشير إلى أنه حتى في العالم الجديد كان تواجد الفقمة في الفولكلور والحياة البحريتين في يوم من الأيام أكثر مما هو عليه الآن. فعلى سبيل المثال لا تزال زعانف الفقمة طعاماً لذيذاً يحظى بالتقدير في نيوفاوندلاند وجزيرة كيبيك بريتون - وهما منطقتان لم يلاحظ عادة أنهما تتمتعان بلوذية في فن تنوق الطعام - وما زالوا يعتقدون أن زيت الفقمة له قيمة علاجية. بل إن في الولايات المتحدة الآن حكاية تروى أحياناً تفوح منها رائحة الأشياء العتيقة.

كان ديل رينز Dell Raines من جزيرة ماتينيكوس Matinicus Island رجلاً أمضى حياته فى البحر. وكادت إحدى أسماك القرش أن تغرقه، وألقت به العاصفة من فوق السفينة، ونبذه جيرانه، وغرقت سفينة بسببه، وتشوه فى حادث من الحوادث فى البحر. وقد قال لى: "أعظم شئ فعلته فى حياتى هو أنتى ربّت على رأس فقمة." ومضى فى كلامه ليروى كيف أنه خرج فى يوم من الأيام لصيد السمك ورأى فقمة صغيرة فى المياه القريبة من القارب. وبصبر وحرص لا متناهيين أخذ يدور بقاربه إلى أن صعدت الفقمة إلى سطح الماء بعد غطسة وكانت تنظر فى الناحية الأخرى. فمد يده وربت على رأسها التى كانت تماماً كأنها رأس طفل رضيع قبل أن يغطس الحيوان المفزوع. فما الذى يجعل رجل بهذا القدر من التجارب الكثيرة يختار هذه الحكاية لهذه الذكرى الخاصة من ماضيه؟

وقد روى ستانلى هادلوك Stanley Hadlock من "سيل هاربر" حكاية أخرى:

كانت هناك أسراب كبيرة من أسماك الرنجة تدخل الميناء كل صيف. وكان الناس فى المنطقة المحيطة يأخذون براميل منها عن طريق اجتذابها بالمشاعل وصيدها داخل السدود. وكان بعضها يبيعونه ليصنع من سردينًا، والبعض يجعلون منه طُعماً لصيد الأسماك، والبعض الآخر يضعونه طُعماً داخل سلال صيد الإستاكوزا.

فى أحد مواسم الصيف وصلت أسماك الرنجة مبكرة عن موعدها، ويوم وراء يوم امتلأ الميناء بها. لم يتذكر الصيادون أنهم أخذوا مثل هذه الأعداد الكبيرة من قبل. وفى ذلك الصيف دخلت الميناء فقمة أم ورضيعها وأكلت من أسماك الرنجة. وعادة عندما كانت حيوانات الفقمة أو أسماك البوالوق أو الماكريل تلتى بعد الرنجة كانت الرنجة تهرب من الميناء ولا يستطيع أحد الحصول على شئ منها. إلا أن الأمر كان مختلفاً فى تلك المرة. فالفقمة بقيت فى الميناء وكان الصغير يلعب حول أمه وكانا يطاردان أسماك الرنجة ولكنها لم تغامر الميناء ولم يأت الماكريل ولا البوالوق. وفى مواسم الصيف الأخرى كان هناك حشد كبير من حيوانات

الفقمة فى الميناء وكانت أسماك الرنجة عادة ما تطرد، ولكن ذلك الصيف كانت هناك فقمة كبيرة وفقمة صغيرة وبقيت أسماك الرنجة. كان الناس قلقين من احتمال تضيق الفقمة للثروة، ولذلك حاولوا مطاربتها ولكنهم لم يحققوا نجاحاً كبيراً. بقيت الفقمة وكانت تتبع ليلاً فى بعض الأحيان. وكان من الممتع مشاهدتها وهى تلعب إذا كان الكل غير مشغولين بالخطر الذى يحدق بالسربين.

أبلغ رجل سائر الرجال أنه سوف يتخلص من الفقمة، وفى ليلة مقمرة عمرٌ بنديته ودخل الميناء بقاربه إلى أن رأى الفقمة الكبيرة وصغيرها جالسين على صخرة. سار بالقارب إلى أقرب مسافة جرى عليها ووضع المجدافين وأمسك بالبندقية. أطلق الخرطوشة الأولى على الأم فتدحرجت من على الصخرة ولم تظهر مرة أخرى. وهم بضرب الصغير كذلك، ولكن قلبه لم يطاوعه على إطلاق النار وضاعت الفرصة. غطس الصغير وراء أمه وعاد الرجل بالقارب وأبلغهم أنه قتل الفقمة.

طوال ثلاثة أسابيع كان الصغير يسبح فى أنحاء الميناء طوال النهار بحثاً عن أمه. كان يذهب ويعود، ويذهب ويعود، وفى الليل كان يصعد على الصخرة حيث قُتل أمه ويصرخ وينشج طوال الليل تماماً كئته طفل رضيع. بدا كئته يزداد نحافة وضعفاً كل يوم ولم تكن تصدر عنه أصوات كثيرة فى أواخر الأيام. وذات صباح غادر الميناء. وغابته أسماك الرنجة.

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن لم تعد أية فقمة إلى الميناء. وبعد أن غادر صغير الفقمة ذاك أو اختفى، لم تدخل أسماك الرنجة الميناء مرة أخرى. مضى على ذلك زمن طويل الآن ولا يزال الميناء يخلو من أسماك الرنجة. شعر هذا الشخص الذى قتل الفقمة ببعض الضيق من ذلك وحاول الإمساك بالصغير ولكنه لم ينجح قط. فقد كان يبدو تماماً كئته طفل رضيع. وقرر ألا يقتل أية فقمة أخرى، وبالفعل لم يقتل أيًا منها قط. وقد كان ذلك الرجل هو أنا.

وبعد ذلك أبدى ملاحظة غريبة بقوله: "كنا أشعر دائماً أن قتل الفقمة كانت له علاقة ما بأسماك الرنجة."

يمكن القول بأن الفقمة تتبع أسماك الرنجة، التي هي طعامها. ولم تأت حيوانات الفقمة مرة أخرى إلى الميناء وكذلك الرنجة. فبدون رنجة تأكلها الفقمة لم يكن هناك ما يدعو إلى عودتها. ومع ذلك هناك سؤال لا جواب له: ما الذي حدث؟ على أية حال كانت الرنجة تدخل الميناء لسنوات. وبينما كنت أستمع إلى الحكاية فهمت بالحدس أن الفقمة كانت مرتبطة ارتباطاً شديداً بالرنجة، وتسبب قتل أحدها في إبعاد الآخر. ومن المؤكد أن هناك عنصراً سحرياً في الأمر.

كما أشرت آنفاً، فإننا حين نبحث الجزء الخاص بالفولكلور عن الفقمة سرعان ما نعلم أن هناك مجموعتين مميزتين من المادة المتصلة بها. تتناول إحدى المجموعتين الفقمة في العالم الآخر أو من الناحية الخارقة للعادة، بينما تتناولها الأخرى من الناحية المادية. ومن المؤكد أن المجموعة الأولى هي الأقدم وتشيع بين الناس الذين يعيشون بين حيوانات الفقمة ولكنهم لا يصطادونها باعتبارها مصدر دخلهم الأساسي. أما المجموعة الثانية فأحدث وتنبع من الناس الذين يصطادون الفقمة بصورة تجارية باعتبارها المصدر الرئيسي للربح الاقتصادي. وهذه الفئة الأخيرة من البشر لا تعيش عموماً على مقربة شديدة من حيوانات الفقمة، بل تذهب إلى أراضي الفقمة لصيدها. وقد يكون سكان جزر هيبيريديز نموذجاً للمجموعة الأولى، بينما أهل نيوفاوندلاند نموذج للثانية. والمجموعة الأولى هي التي تهمني باعتباري باحث فولكلور.

كانت حيوانات الفقمة شائعة في أمريكا الشمالية حين وصلها أول رجل أبيض، وبقيت على هذا الحال لبعض الوقت. كان الهنود يأكلونها بانتظام. ومع وجود تلك الأعداد، أخذ الأمريكيون يصطادونها، وبانتهاء القرن الثامن عشر كان صيد الفقمة قد صار عملاً نامياً ومزدهراً. وحين انفتحت التجارة مع الصين في القرن التالي، أصبحت جلود الفقمة وزعانفها وزيتها سلعاً مرغوبة بالقدر الذي جعل الطلب على هذه المخلوقات يمتد إلى أنحاء العالم. وقد اكتشف ناثانييل بالمر Nathaniel Palmer وهو يبحث عن الفقمة في مركبه الصغير "هيرو" Hero إحدى القارات، وهي القارة القطبية الجنوبية، واكتشف القبطان جراي Captain Grey نهر كولومبيا وفتح الباب أمام موارد ضخمة من الشمال الغربي بينما كان يقوم بنفس العمل.

لم يكن لدى الرجال الذين يقتلون حيوانات الفقمة بالآلاف كل عام الكثير من الوقت أو الربح الذي يحصلون عليه برواية الحكايات عن جوانبها شبه الإنسانية أو تشابهها مع العالم الآخر. فالواقع أن هذا قد يضر بالعمل. وبدلاً من ذلك كانوا يروون حكايات عن صيد الفقمة والعواصف وغرق السفن والتمرد ومصاعب حياة صيادى الفقمة. وهناك حكايات عن رجال تركوهم على الثلوج وعن كيفية بقائهم على قيد الحياة. وهناك حكايات عن البرد الرهيب، وكيف أنهم عثروا على أحد الصيادين مجمداً وبنديقيته على كتفه وقادح البندقية في وضع إطلاق النار على الفقمة التي تتمتع بقدر أكبر من المناعة ضد البرد. وبنفس القدر تقريباً من الإنسانية التي عليها هذه الحكايات كان هناك عدد من الحكايات التي تتناول المستجد الذي أصابه الدهول من جراء قتل قطيع من حيوانات الفقمة الذي رفض المشاركة فيه وكان لابد من إعادته للوطن بالخزى. أو الحكاية التي تروى أن رجلاً رفض قتل فقمة أم حتى يكبر وليدها بالقدر الذي يجعل له قيمة تجارية^(٢). وقد ابتكر أهل نيوفاوندلاند الذين لا يزالون يصيدون الفقمة مفردات يزيد عددها على العشرين تنطبق على أعمار وأنواع وظروف خاصة بالفقمة، وما يزيد على مائة كلمة تتعلق بصناعة الفقمة. ولكن يبدو أنهم يفتقرون بصورة كبيرة إلى الحكايات التي تكثر في العالم القديم^(٣). وهكذا قضى حب المال على الخيال.

وتتعلق إحدى الحكايات المروية بسفينة اسمها North Star وهي تمثل عدداً من حكايات صيد الفقمة، وسوف يلاحظ القارئ أنها لا تختلف عن الحكايات التي رويت عن صيادى الأسماك.

كانت العادة هي التوجه شمالاً إلى الثلوج والرسو بجوار طوف جليدى. وبعد ذلك كان الرجال ينزلون على الشاطئ لقتل حيوانات الفقمة على الثلوج بضربها على أنوفها بهراوة أو ضربها بالأقدام حتى الموت. وأثناء وجود الطاقم هناك كان من المعتاد إطلاق الصفارة لكي ينزل الثلج أو يزداد كثافة بحيث يمكن للرجال العودة إلى القاعدة، ذلك أنه كان من الحظ العاثر أن يُترك المرء شاردًا على طوف جليدى. وإذا كانت هناك سفينة أخرى على مقربة فإنها تطلق صفارتها كذلك إذا كان الرجال يصيدون، حتى وإن لم يكونوا رجالها.

ذات مرة كانت السفينة North Star عند الثلوج وكان أغلب طاقمها على الشاطئ يقتلون حيوانات الفقمة حين ساءت حالة الطقس. اضطرت السفينة للخروج إلى البحر تاركة وراءها خمسة وسبعين رجلاً على الطوف الجليدى. وظل الجو على سوئه ومرت ثلاثة أيام تقريباً قبل أن تتمكن السفينة من العودة. وحين عادت وجدت سبعين رجلاً مجمدين، ولكنها لم تعثر على الخمسة رجال الباقين. حملت السفينة موتاهم وعادت إلى سانت جونز فى نيوفاوندلاند.

فى العام التالى ذهبت السفينة إلى الثلوج مرة أخرى، وفى تلك المرة كانت هناك سفينة أخرى. رست North Star فى وقت متأخر من النهار، وبدأت السفينة الأخرى فى إطلاق صفارتها وأطلقت القادمة الجديدة صفارتها. وبعد فترة توقفت السفينة الأخرى عن إطلاق صفارتها وكذلك فعلت North Star .

فى اليوم التالى صعد قبطان North Star على متن السفينة الأخرى والتقى بربانها الذى نظر إليه نظرة غريبة ثم علق قائلاً إن ضيفه حتماً متعطش للجلود.
"كيف ذلك؟"

"ما إن رسوت حتى أطلقت رجالك على الثلوج وقد أوشك الظلام على الحلول. وهامهم لم يعودوا وقد حل الليل تقريباً."

"لم يكن لى رجال بالأمس على الثلوج. لقد أطلقت صفارتى فقط لأنك كنت تطلق صفارتك."

"بلى فعلت ذلك. إن لك خمسة رجال فى الخارج. لقد رأيناهم على متن السفينة."

شاع الخبر. كان هناك خمسة أشباح على متن North Star وعادت إلى الميناء ولم يكن بالإمكان العثور على بحارة لتسييرها. غيرت أشرعتها، وغيرت لونها، وغيرت اسمها والميناء المسجلة فيه، وحتى الآن لم يدخلها أحد. وأخيراً بيعت فى الجنوب لتصبح سفينة صيد سمك. ولكنها لم تجد حظها هناك كذلك^(١).

فى نيوفاوندلا تعد الفقمة محفزاً لأنواع أخرى من الحكايات؛ وخاصة حكايات غرق السفن، ذلك أنه من الواضح فى ذلك البلد أن كوارث صيد الفقمة تعادل الكوارث التى عانى منها أبناء جلوسستر فى جورجيز بانك. ويتذكر الناس كارثة ٩٨ حين أبعدت عاصفة رهيبة السفينة **Greenland** عن الثلوج مخلفة وراءها ثمانية وأربعين رجلاً ليموتوا متجمدين. وفقد بعض الذين أنقذوا عقولهم وأمضى آخرون بقية حياتهم مقعدين. وسوف يروون حكاية السفينة **Newfoundland** التى فقدت حوالى ثمانين رجلاً فى الضباب الأبيض الكثيف. البعض تجمد واقفاً، وسقط الآخرون فى الصدوع الجليدية المفتوحة وغرقوا. أو ربما سيحكون عن السفينة **Southern Cross** التى غاصت إلى القاع بكل بحارتها وعددهم ١٢٧ وثروة من جلود الفقمة^(٥).

لا تروى هذه الحكايات وحسب، بل إن هناك رجالاً رأوا أشباح هذه السفن. فقد شوهدت **Newfoundland** على بعد مئات الأميال من المكان الذى شهد ما وقع لها فى نفس يوم وساعة الكارثة. كما شاهد صيادو الفقمة السفينة **"Southern Cross"** بيضاء لامعة لعدة سنوات وهى تسير فى المياه الواسعة، وعادة ما كانت تقع كارثة فى أعقاب ظهورها^(٦).

لابد لنا من الاتجاه إلى العالم القديم كى نعثر على ماثورات الفقمة كما كانت فى الماضى؛ أى إلى جزر شتلاند وأوركنى **Orkneys** وهيبريدز والساحل الغربى البرى من أيرلندا. وحتى فى هذه الأماكن، حيث تتغير الأشياء ببطء، تتلاشى المعتقدات والحكايات الخاصة بالفقمة بسرعة كبيرة. وتحدث ديفيد طومسون **David Thoson** فى كتابه الرائع **People of the Sea** [أهل البحر] عن أحنية تصنع من جلد الفقمة الأخضر. وفتشت طوال أربعة مواسم من جزر شتلاند جنوباً حتى ميزن هيد **Mizzen Head** فى أيرلندا بون أن أعثر على زوج واحد منها. وعثرت فى آران **Aran** على حذاء البامبوتى **pampooties** (ويصنع من جلد البقر الأخضر) ولكنه ليس الصنف الأصلى. إلا أنه كان شائعاً قبل خمس وعشرين سنة!

ربما كان وراء كل ماثور من ماثورات الفقمة حقيقة مفادها أنه يعتقد أنها أطفال الملك لوخلان **King Lochlann** الأسطورى^(٧). ويبرر هذا قدراً كبيراً من قدرتها

الخارقة وخصوصاً ارتباطها بالبشر. فهي تصبح حيوانات أليفة مدهشة، كما أن خواصها الفيزيائية وشخصيتها جذابة. ومن بين كل مخلوقات الجزر الشمالية، حيث لم يكن يوجد قرود قط، وحيث الدببة قد اختفت منذ زمن بعيد، تشبه الفقمة الإنسان إلى حد كبير. ذلك أنها ترضع صغيرها وهو على صدرها، وهي اجتماعية إلى حد كبير، وترقد على الصخور الدافئة في الشمس كما يفعل المصطافون على البلاج. ولابد من تعليم الصغير السباحة. كما أن لديها حب استطلاع لا ينتهي. ولها عيون مدهشة وإن لم تكن في وجوه بشرية. وهي تنشج وتبكي - الصغار منها - مثل أطفال البشر، كما تذرف الدمع، وتنبج كالكلاب، وتغنى في بعض الأحيان. وهي برأسها المستدير قد يخالها الناظر إليها في الماء إنساناً يسبح.

وهناك جانب آخر يتعلق بالفقمة يعلمه الصيادون جيداً. فهناك اعتقاد شائع بين الإسكوتلنديين والأيرلنديين بأنها شرسة وتعص. وحين تطبق أسنانها على شخص فإنها لا تتركه إلا وقد سمعت عضمه يقطق^(٨). ولإبطال مفعول هذه الصفة عادة ما يخرج الصيادون مزودين بجوارب مليئة بقطع الفحم. وحين يلقون هذه الجوارب للفقمة تظن أن لديها ذراع مُعَذِّبها أو ساقه فتقضمها بدلاً من قسبة الساق. وما إن تسمع الفقمة القرقرشة حتى تتركه. وفي تلك الأثناء إما أن يضربها الصياد على أنفها بهراوة أو يركلها حتى الموت في نفس المكان. ومما يؤسف له أن الفقمة لا تُقتل دائماً بهذه المعالجة وتستعيد وعيها بعد أن تُسلخ. وبينما يطلق المخلوق المخيف صرخات رهيبية يدفع بنفسه عبر الصخور ويسقط وهو غارق في دمه في البحر البارد القاسي ليموت^(٩).

هناك إيمان بقدرة حيوانات الفقمة على تحويل نفسها إلى كائنات بشرية على البر ثم عودتها إلى نواتها القديمة في البحر. كما يُعتقد أنها حين تكون في الهيئة البشرية تتخذ شكل أسلاف عائلتين، هما عائلة ماكودرام McCodrams في إسكوتلندا وعائلة كينيلي Keneellys في أيرلندا. ويقال إنها تبكي وتتحدث وتتنبأ وتأخذ الأتوات وتقدم العون وتتعاطف. وهي قادرة على الانتقام الرهيب. ولا تختلف قدراتها السحرية عما تتمتع به الجنيات وعرائس البحر من قدرات. وقد أخذت مصداقية الجنيات وعرائس

البحر فى التلاشى، وياتت المعتقدات والصفات التى كانت تتصل بها فى يوم من الأيام ملتصقة بالفقمة.

قد يكون أكثر المعتقدات الخاصة بالفقمة شيوعاً هو ذلك الذى يسميه باحثو الفولكلور "الجلد المطروح". إذ يُعتقد أن الفقمة يمكنها فى أوقات معينة نزع جلدها والسير بين البشر كأنها كائن بشرى. وهى، كشأن عرائس البحر، يزعجها الجرس والكتاب والشمعة، ومُحرَّم عليها دخول الكنيسة، ذلك أنه بما أنها حيوانات فقمة فهى ليست لها أرواح؛ ذلك أن هذه الميزة لبنى البشر وحدهم. وكما هو الحال بالنسبة لمعطف عروس البحر، هناك اعتقاد بأنه إذا أخذ شخص ما الجلد الذى تطرحه الفقمة فإنها تظل على هيئتها البشرية إلى أن تستعيد جلدها مرة أخرى لكى تستطيع العودة إلى البحر. وفى تلك الأثناء تكون أمة لمن عثر عليه.

من الصعب معرفة سبب شيوع الإيمان بالرداء السحري أو الجلد المطروح فى الفولكلور الشمالى، أما فى حالة الفقمة فيمكننا المغامرة بتخمين ما. وتكمن الإجابة فى نقطتين تتناول أولاهما الجانب العملى الذى يراه الصياد. فإذا كانت الفقمة تعود للحياة وتزحف عائدة إلى البحر بعد ركلها فى الوجه وسلخ جلدها، فلماذا لا تفعل هى ذلك بنفسها فى أوقات مناسبة أكثر؟ بل إنه إذا كانت سلية ملك لوخلان ولها بالفعل صلات بالعالم الآخر، فلما لا تحول نفسها؟

هناك إجابة محتملة أخرى تكمن فيما يتفق عنه ذهن الناس، وهى من العمق بحيث قد لا يتعرفوا عليها. فقد تكون الإجابة هى أن جزءاً على الأقل من أصل فكرة طرح الفقمة لجلدها يعود إلى التفسير الشعبى لأحداث معينة فى التاريخ. وإذا كان الأمر كذلك، فهى قديمة جداً.

تحب الفقمة الخروج على الصخور المشمسة الدافئة وتغفو وتريح نفسها من البحر. وبما أن الإنسان يشكل تهديداً لها فهى تميل إلى اختيار أماكن يصعب بلوغها حيث تتمكن من رؤية الخطر القادم. ومن بين هذه الأماكن الصخور المقابلة للشواطئ

والجزر الصغيرة التي لا يسكنها البشر. وحتى في وقتنا هذا يمكننا في الطقس الصافى رؤية مجموعات صغيرة من الفقمة تنعم بدفء الشمس على الصخور، حيث تكون في مأمن معقول من أى هجوم يشنه البشر عليها.

منذ القرن الثامن حتى القرن العاشر كان معظم سكان أوروبا المتمدينة يرتعدون أمام غضب أهل الشمال الذين كانوا يشنون غارات تصل حتى البحر المتوسط والبحر الأسود جنوباً، وربما حتى سواحل أمريكا الشمالية^(١٠). وكان من سوء حظ الجزر البريطانية وأيرلندا أنها تقع على مقربة من موطن الفايكنج. وكان هؤلاء الناس يتدفقون كسياح احتشوا على بقعة من الشاطئ، وكانت غاراتهم من التدمير والمفاجأة ما يجعل الناس يدعون قائلين: "اللهم احمنا من غضب أهل الشمال".

كان التكتيك المستخدم عادة هو الهجوم البرمائى فى الفجر على القرى والساكن على طول الشاطئ. وكان المغيرون يمسكون بالأسرى ويستولون على الماشية وكل ما يجدون أنه ذو فائدة ويرحلون. وكانوا يشنون غاراتهم فى الصيف، ذلك أن بحر الشمال ليس صالحاً للملاحة فى الشتاء. وإذا كانت تكتيكاتهم كتكتيكات سواهم من الجماعات المحاربة فإنهم كانوا سيقومون أولاً بعمليات استطلاع ثم يهاجمون بعد معرفة أين تكمن نقاط قوة القرية ونقاط ضعفها. والحصول على تلك المعلومات كانوا سينزلون رجالاً على الصخور المقابلة للشاطئ حيث يمكنهم مراقبة البلدة بينما يأتى المغيرون ليأخذونهم بعد طول الظلام. وكان الشيء المهم هو ألا يكتشفهم أحد. وما إن يتم استيعاب المعلومات حتى يشن الهجوم.

والحقيقة المعروفة هى أن البدائيين كانوا يتنكرون فى هيئة الحيوان أثناء الحرب والصيد. وكان الهنود الأمريكيون والإسكيمو يتنكرون كذلك. فكان الهنود يرتدون جلد الذئب وجلد الغزال حين يصطادون أو يقومون بعمليات استطلاعية، وكان الإسكيمو غالباً ما يرتدون جلد الفقمة للتمويه عند تعقبهم الفقمة والدب القطبى. ولذلك كان طبيعياً أكثر بالنسبة للفايكنج أن يتنكروا فى هيئة الفقمة عند مراقبتهم العدو من على الصخور. فما الذى كان أكثر طبيعية بالنسبة للضحايا من أن يربطوا بين الفقمة

والرجال؟ فهم فى يوم ما يرون الفقمة على الصخور وفى اليوم التالى يهاجمهم أناس لا يكونون أى احترام للكنيسة. وبعد الهجوم يعثر شخص نجا من الهجوم على جلد فقمة على الصخرة، دون أن تكون هناك فقمة. وهنا تبدو الصلة واضحة^(١١).

وحظيت هذه الفكرة بدعم إضافى من حقيقة أن قصص الفقمة ترتبط بصورة أو بأخرى بإسكاندنافيا، وهو ما يتضح فيما يلى.

كان أحد سكان جزيرة شتلاند فى طريقه إلى سفينة صيد السمك الخاصة به ذات صباح حين رأى فجأة ذكر فقمة كبير الحجم نائمًا على صخرة. زحف الصياد فى اتجاهه واستل سكينه وطعنه. ولكن التصويب لم يكن دقيقًا؛ إذ جرح ذلك المخلوق بدلاً من قتله فانطلق متثاقلاً متخبطاً والسكين ما زال فى جسمه ونجح فى العودة إلى البحر.

بعد ذلك بوقت طويل أخذ ذلك الصياد سفينته واتجه إلى النرويج لشراء بعض الأخشاب. وحين رسا دخل أحد المنازل حيث رحبوا به وأجلسوه. وحين نظر لأعلى رأى سكينه - أى ذلك الذى تركه فى جسم الفقمة - ملتصقاً بأحد عروق السقف. ظن لبرهة أن أمره انتهى، ولكن النرويجى نهض وسحب السكين وأعاده إليه. وكان كل ما فعله الشمالى هو أن طلب منه ألا يطعن حيوانات الفقمة النائمة فى المستقبل^(١٢).

وأنا بطبيعة الحال لا أعنى بـ"الجلد المطروح" السلخ، بل القدرة على خلع الشخص لجلده بإرادته. والحكايات التالية نماذج ممتازة للنوع الذى فى ذهنى، بل إنها تتضمن موضوعات عديدة من ماثورات الفقمة فى كل حكاية، وتبين فى الوقت ذاته تشابه حكايات الفقمة مع تلك الحكايات المتعلقة بعرائس البحر.

كان يعيش فى نورث ويست North Uist فى يوم من الأيام رجل يسمى رد رودريك الفقمة Red Roderick of Seals. وفى ليلة من الليالى كان يصيد السمك على إحدى الصخور حين سمع أحلى موسيقى تقع على مسمعيه فى حياته. كانت خارقة للعادة فى حلاوتها بالقدر الذى جعله يتتبع الصوت حتى بلغ موسيقياً يعزف ومجموعة من الناس ترتدى ملابس رائعة يرقصون على أنغامه. ورأى بالقرب منهم فى ضوء القمر عدداً من

الحزم السوداء ، والسوداء والبيضاء حسبها جلود بقر. فما كان إلا أن أخفى أحد تلك الجلود تحت معطفه.

توقفت الموسيقى فى النهاية وذهب الراقصون إلى مخبأ جلودهم، حيث خلعوا ملابسهم وارتدوا الجلود. وحين فعلوا ذلك تحولوا إلى حيوانات فقمة رمادية ضخمة نزلت من على الصخرة إلى البحر. فعلوا جميعاً ذلك ما عدا فتاة جميلة كانت تجرى هنا وهناك مرعوبة تبحث عن جلد لها وهى تتنهد بطريقة تثير الشفقة طوال الوقت.

كان جمال الفتاة شديداً وكانت صرخاتها تثير الشفقة حتى إن رودريك تأثر بها وسألها عن خطبها فقالت له إنها فقدت رداءها. قال لها رودريك إنها إذا ذهبت معه فسوف يأتى لها برداء أفضل بكثير من المدينة، فذهبت معه.

أخبرته الفتاة أنها ابنة ملك الأمواج وأنها مسحورة. وقالت إن زوجة أبيها أمرت بتركها على الشاطئ بعد أن ضربتها بعصا سحرية وقد صادقتها حيوانات الفقمة.

تزايدت مشاعر الرجل نحو الفتاة. وقد أتى بقس لتعميدها، وتزوجا وعاشا فى سعادة لسنوات يرعيان عائلة من الأطفال أقوياء البنية. إلا أن الفتاة شعرت فى النهاية بالوحدة واشتاقت إلى حياتها القديمة وأصدقائها والرقص فى ضوء القمر وطلبت استعادة جلد الفقمة الخاص بها. قالت الفتاة إن حيوانات الفقمة لن تلمسها ولن تساعدوا لوجود "الماء المقدس على وجهى وجبهتى". ثم طلبت من زوجها ألا يقتل أى فقمة خوفاً من أن تكون هى أو أمها أو شقيقها. وافق الرجل أسفاً. وفى تلك الليلة رقصت فى ضوء القمر مع أصدقائها القدامى، وإن لم يلمسها أحد "لوجود الماء المقدس على جبهتها" (١٢).

تروى حكاية مشابهة إلى حد كبير كيف أن ثلاثة من صيادى الأسماك أمسكوا بثلاث نساء فقمت عن طريق الاستيلاء على الجلود بينما كن فى هيئة بشرية. ورغم عروض الزواج كانت النسوة حزينات. فأعاد الأخ الأصغر لامرأته جلد لها بعد ليلة واحدة. وعلى الفور تحولت المرأة إلى فقمة وعادت إلى البحر، ولكنها كانت تعود كل

تسع ليالٍ للتسرية عن الرجل وتأتى له بالهدايا. أما الأخوان الآخران فقد ظلا يخبئان جلدا زوجتيهما اللتين أصبحتا أمتين ذليلتين. وفي النهاية عثر أطفال إحداهما على جلد أمهما فارتدته واختفت في البحر للأبد تاركة أطفالها وزوجها وبيتها. ولنع تكرار ذلك، قرر الأخ الثالث حرق جلد امرأته. وحين ألقى به في النار انفجر وأحرق منزله وزوجته كذلك^(١٤).

أما القصة الثالثة فتأتى من القصيدة الغنائية "فقمة جزيرة الفقمة الكبيرة" The Great Silkie of Sule Skerry^(١٥) التي جمعت في شتلاند ولها شبيهة في إسكندنافيا. في هذه النسخة تلد امرأة طفلاً دون أن تعرف من أبوه، إلى أن يأتى إلى فراشها ذكر فقمة رمادى ضخمة ويخبرها بأنه الأب ويريد الطفل. "أنا رجل على الأرض، أنا فقمة في البحر." وبعد ذلك تنبأ بالمستقبل، ذلك أن الفقمة أحياناً لديها القدرة على التحول. سوف تتزوج الفتاة جندي مدفعية سوف يقتله هو وطفلها:

وسوف تتزوجين مدفعياً رائعاً
وأنا متأكد أنه سيكون مدفعياً رائعاً
ويأول طلبة سوف يطلقها
سوق يقتل ابني الصغير ويقتلنى.
وقد تحقق ذلك.

والفكرة الأخرى الشائعة في إسكوتلندا بين العاملين في البحر هي أن الزوجة الشريرة بعد أن حولت أبناء زوجها إلى حيوانات فقمة أضافت لمسة أخرى، إمعاناً منها في الشر. ذلك أن يكتسب هؤلاء الأطفال التعساء بطريقة آلية الهيئة الأدمية ويسيرون بين الناس ثلاث مرات في العام، عند اكتمال القمر. وبذلك يصبحون أكثر قدرة على إدراك مدى روعة العالم الذي حرموا منه؛ ومن الواضح أن هذه فكرة عتيقة.

هناك اعتقاد بأن هؤلاء البشر المسحورين قادرين على مصادقة البشر بطرق عديدة. إذ يمكن للصيادين على البر معرفة أن عاصفة ستهب عن طريق أنين الفقمة

وصراخها^(١٦). وفى البحر، وعند ملاحظة تصرفاتها الشاذة ومراقبة المسار الذى تسير فيه، لم يكن يمكنهم فقط التنبؤ بحالة الطقس وحسب، بل كان بإمكانهم كذلك التنبؤ بالمكان الذى يذهبون إليه فى رحلة مريحة. وعلى مستوى أعلى من ذلك، كان يُعتقد أنها ترضع الأطفال، وحين تدعو الضرورة تساعد المكرابين، بل تحمل إلى البر من غرقت سفنهم أو جنحت^(١٧). ويحكى ليفيد طومسون قصة توضح إحدى هذه النقاط بطريقة مثيرة للإعجاب.

كان من المفترض أن عائلة اسمها جريجان **Gregan** تتمتع بهبات خاصة لأن واحداً من أفرادها تفعل خيراً كبيراً للجنيات. وقد خرج خمسة منهم فى سفينة لصيد السمك وحاصرتهم عاصفة شديدة. وكانت الرياح من الشدة بحيث كان كل ما يمكنهم عمله هو أن يتركوا أمر قاربهم الخفيف للبحر والأمل.

وحين انتهت العاصفة كانوا يطفون ولكن لم يكن هناك أثر لليابسة فى مرمى البصر، ولم يكونوا يعرفون أى طريق يسلكون إلى أن ظهرت فقمة أعطوها سمكاً وسارت فى اتجاه معين وقرروا هم اتباعها، وهو ما فعلوه إلى أن أنهكوا ولم يعد فى مقدورهم المضى أبعد من ذلك، فاستلقوا فى القارب.

فى تلك الأثناء سبحت الفقمة إلى الشاطئ وأطلقت صرخة عالية أثار انتباه حارس الفئار. أخذ الحارس يجول ببصره فى البحر إلى أن لمح القارب الذى يسير على غير هدى وأنقذ الرجال الذين عابوا لبيوتهم فى الليلة التى أقيم فيها العزاء لموتهم^(١٨).

و نلاحظ حين تروى الحكاية ميلاً قوياً للربط بين الفقمة والجنيات، إن لم يكن باعتبارها نفس الكائن فبالأكيد بصفقتها كائنات متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً فى أذهان الناس.

ولا تأتى الفقمة للناس بالأسماك كما كانت الجنيات تفعل وحسب، ولكنها كانت مرتبطة بماشية البحر بنفس طريقة ارتباط سكان البحر الذين كانت لديهم قطعان

كبيرة تعطى حليباً دسماً من ناحية، وتحطم البلاد عند الإساءة إلى أهل البحر من ناحية أخرى. بل إن للفقمة حباً للحليب أشبه بحب الجنيات له^(١٩).

رست سفينة شحن نرويجية على جزيرة بابا ستور Papa Stour فى جزر شتلاند وكانت فى خراب تام. دفع أحد أبناء الجزيرة للربان ثمناً هزلاً للحطام ولعنه القبطان. بعد ذلك بدأت فقمة تأتى إلى الجزيرة، وفى كل مرة تأتى فيها كانت بهيمة من بهائم المزارع تموت. حاول المزارع قتل الفقمة ولكنه لم يستطع ذلك قط، وفى النهاية وقد بات قاب قوسين أو أدنى من الخراب، غادر الجزيرة^(٢٠).

كنا نتحدث حتى الآن عن حيوانات الفقمة الحية، غير أن تلك الميتة لها قدرات كذلك وكان أغلبية رجال الجزر يصطادونها بأعداد قليلة، وكان ذلك فى العادة إما لأكلها فى أوقات الشدة، أو من أجل أجزاء كثيرة من أجسامها كانوا يعتقدون أن لها خواص سحرية. أما اليوم فنادر ما يصطادونها بحال من الأحوال.

تكون الفقمة عاجزة نسبياً على البر ويسهل قتلها. والقتل لمن رأوه بالطبع منظر رهيب ومحسوب بشكل جيد بحيث يصنع الأساطير والحكايات. وقد يظن ظان أن الحكايات الناشئة عن مصدر كهذا هى على أقل تقدير قصص انتقام، غير أن هذا ليس صحيحاً بالمرّة، ذلك أنه من الواضح أن هناك اعتقاداً بأن الفقمة مخلوق متسامح. ورغم انتقام الفقمة فى بعض الأحيان، فهى فى الأغلب تتحمل فظائع البشر بسلبية أو يكون لديها أمل فى مستقبل أفضل.

خرج رجل فى يوم من الأيام لصيد الفقمة وقتل العديد منها وسلخه فى الحال. فكر فى أن يعود إلى بيته بواحد من الحيوانات التى قتلها، ولذلك ربط زعانقه معاً بغصين لين وذهب لاصطياد غيره. وبينما كان غائباً استعادت الفقمة وعيها إلى حد ما وعادت إلى الماء. عاد الصياد ولم يجد أى أثر للحيوان واستنتج أنه سقط من على الصخرة ومات. فى وقت لاحق حاصرت عاصفة صياد السمك وأخرجته عن مساره. رأى أرضاً ورسا على البر وقدم له رجل التقى به هناك وجبه جيدة. وبعد الأكل أبلغه مضيفه أنه ذات يوم وضع غصين لين حول يديه^(٢١).

من الأشياء التي كان البحار يحب الحصول عليها من الفقمة زعانفها. وكان يأكلها في بعض الأحيان، ولكن الزعنفة اليمنى لها صفات خاصة. فقد كان هناك اعتقاد شائع بأنه حين تصنع حافظة نقود من هذه الزعنفة فإن صاحبها لا يغرق، كما كان يُعتقد أن لون الحافظة يشير إلى حالة المد والجزر.

الشيء الآخر الذي كانت الفقمة تُقتل من أجله هو زيتها. فلأسباب غريبة يبدو أن الشحم والزيوت عموماً تحظى بتقدير كبير من الناس. وفي المناطق والعصور الأكثر بدائية كان للدهن البشري فوائد خاصة. وكان الريفيون يعتقدون أن دهون الدب والإوز والظربان الأمريكي والثعابين والخنازير لها جميعاً فوائد طبية، بينما كان يسود اعتقاد بين العاملين في البحر بأن زيت الحوت والأسماك - وخاصة زيت كبد القد - ذات قيمة علاجية كبيرة. وكان ذلك يصدق بصورة خاصة على زيت الفقمة، غير أنه في هذه الحالة يبدو اختيار الحيوان وإعداد الزيت مهماً لما له من قيمة.

كانت الفقمة الصغيرة تعتبر عادة أفضل نوع يمكن الحصول عليه من أجل زيتها ومن أجل جلدها الأبيض الذي كان كثيراً ما يرتدى على هيئة سترة. وما إن يصطادوا الفقمة حتى تُسلخ وينزع منها الشحم. وبعد ذلك يعد الزيت بإحدى طريقتين مختلفتين. ويذكر طومسون استخراج الزيت بحجارة خاصة^(٢٢). وقد قيل لي في هيبيريديز إنه يعد إما بإذابة الدهن في قدر على نار هادئة أو باستخراجه في الشمس. إذ تعلق الفقمة المسلوخة ورأسها لأسفل وتدار أو يُسمح لها بالدوران في الهواء. ومن خلال تأثير الشمس يتحول الدهن إلى زيت ويتساقط ويُجمع في قدر. ويعتقد كثيرون أن هذه الطريقة الأبطأ تنتج أفضل زيت. فهو على عكس المنتج المغلى يكون صافياً وفي لون الكهرمان.

ويعتبر الزيت الذي يُجمع بهذه الطريقة شديد القوة ولا بد من تناوله بمنتهى الحرص. وأخبرتني امرأة عجوز في بنبيكولا Benbecula أن شقيقها اشتد عليه المرض ويئس الأطباء من شفائه. وأثناء تلك الأزمة اصطادوا فقمة واستخرجوا زيتها (بطريقة الشمس) وأعطوه للرجل المريض. في البداية كان يتحمل نقطة واحدة، ثم نقطتين وهكذا

إلى أن استطاع فى النهاية تناول ملء ملعقة صغيرة فى كل مرة. وكانت صحته تتحسن مع تزايد الجرعات إلى أن استرد عافيته بالكامل فى النهاية.

ويبدو أن للزيت نفس الفاعلية عند استخدامه من الظاهر. فقد أبلغنا إخبارى أيرلندى كيف أنه عالج ركبة ملتوية بشدة ومتورمة بزيت الفقمة. فقد خف الورم خلال بضع ساعات واستطاع المشى بحيوية كما كان. والعيب الوحيد هو رائحة الزيت الرهيبة التى استدعت تغيير كل ملابسه وحتى ملاءة السرير.

منذ سنوات ليست بالبعيدة قتل رجل من جزر هيربيديز الخارجة فقمة رضيعة وذهب بها إلى بيته وسلخها. قطع المخالب الصغيرة. وثبت جلدها الأبيض الصغير الذى يغطيه الدم على لوح لتجفيفه وألقى بالجلثة المشوهة على كومة قمامة. فى تلك الليلة أيقظت الرجل من نومه ضجة رهيبة: كانت صراخاً وأنيئاً. كانت الفقمة الأم خارج المنزل بجوار الجلد تبكى على صغيرها الميت. وتكرر صراخها مرات ومرات كل ما أريده هو فلورا ذات المخالب الصغيرة. أعيدوا لى المخالب الصغيرة. (Spog fine ghael, spog fifi fineghael.) واستمر الحال على ذلك الليلة بعد الأخرى إلى أن عادت الأم التى اعتصرها الحزن إلى البحر واختفت. ولم يقتل الرجل أية فقمة بعد ذلك (٢٣).

وفى دنجل Dingle، حكى لى أنا وزوجتى رجل حكاية أخرى عن قتل الفقمة قال إنها وقعت له. وقد سبق الحكاية بقوله إنه يعتقد أن الفقمة بشر تحت جلد حيوان، وأن لها أطفال آدميين تحت البحر، وأنها تترك بيوتها وتخرج على البر فى هيئة الفقمة. كما أخبرنا بأن الاسم rona نفسه يشبه الكلمة rune ومعناه السر. وقال إنهم عموماً يعتقدون أنه إذا قتل شخص فقمة فإنه يصاب بالجنون. ولم يكن الإخبارى الذى تحدث إلينا هو وأصدقائه يؤمنون بهذا، ولكنهم يؤمنون بأن حيوانات الفقمة بشر مسحورون نوو قوة خارقة كبيرة. وفى يوم من الأيام خرج هو وأصدقائه لصيد السمك ولم يصطادوا شيئاً، غير أنهم لاحظوا آلافاً من حيوانات الفقمة على بعض الصخور وقرروا قتل واحد منها. وحين اقتربوا نزلت الحيوانات جميعها الماء ما عدا ذكر كبير بقى على الصخور، وقد ضربوا ذلك الذكر "ضربة رهيبة" بمجذاف وقتلوه.

كان ذكر الفقمة أكبر من أن يضعوه فى قاربهم الخفيف. وكان عجوزاً جداً وجسمه مغطى بالرخويات والقشريات وكان لابد من سحبه إلى أقرب شاطئ كي يضعونه على القارب.

وفى النهاية قطعوا رأسه وذيله ومددوا الجزء الأوسط على القارب بحيث كان الطرفان فى الماء. كان الدم يتدفق من الفقمة وصبغ البحر بالحمرة.

وبينما كانوا عائدين ظهرت كل حيوانات الفقمة التى كانت على الصخور من جديد وسارت وراء القارب كأنها بشر يسرون وراء تابوت. كانت تن وتصرخ وتلمس الجثة وهم فى طريق العودة. ولكن الرجال تمسكوا بالفقمة رغم احتجاجات شعب الفقمة واتجهوا إلى جريت بلاسكيت **Great Blasket** (ورجال القارب يجذفون بسرعة ست وثلاثين ضربة مجداف فى الدقيقة)، حين ظهر وحش بحرى فجأة وراءهم. شعر الرجال بالعرب وأقسموا أنهم إذا بلغوا الشاطئ لن يقتلوا فقمة أبداً. وكان الجمع الباكى يتبعهم طوال الطريق إلى البر. وحين رسا الرجال ألقوا ما بدا أنه ملك الفقمة الميت. وأخذوا قليلاً من دهنه لعمل الزيت وعادوا إلى بيوتهم وأوفوا بعهدهم.

ووقع هذا الحدث بالفعل أم عدمه مسألة لا تهم. فالهم هو هذه الأفكار التى لا تزال الفقمة تثيرها فى أذهان الناس.

تحدثت فى موضع سابق من هذا الفصل عن علاقة الفقمة بالموسيقى. وهناك اعتقاد بأنها مسحورة بحيث تسمع الموسيقى وتتبع صوت المزمار أو الفلوت، تماماً مثلما يستدعى الشبح بالموسيقى. ويحكى رجل كيف أنه رأى فقمة وعزف لها المزمار فاستدارت واتبعت القارب. جدف الرجل بكل قوته فزادت الفقمة من سرعتها. وبعد ذلك وضع المجدافين جانباً وظل ذلك المخلوق، الذى كان يستمع كثيراً بالموسيقى لمسافة "نصف طلقة مسدس" من القارب قبل أن يكتشف خطأه ويطلق هو النار عليها. غاصت الفقمة فى الماء وظن هو أنه قتلها لأنه لم يرها مرة أخرى" (٢٤).

ويقال كذلك إن الفقمة تغنى، وقد سُجلت "الأغنية" الخاصة بها وكتب مقال عنها فى مجلة "جمعية الرقص والغناء الشعبى الإنجليزى" **English folk Dance and Song Society**. (٢٥).

لقد وقف شعر رأسى ثلاث مرات فى حياتى: مرة حين عوى ذئب عبر بحيرة جليدية فى القارة القطبية الجنوبية فى ليلة أضاعها القمر منذ سنوات عديدة، ومرة فى موراي فيرث Moray Firth حين سمعت صراخ أو غناء فقمة ضخمة. (والمرة الثالثة حين أصبحت فجأة وجهاً لوجه أمام دب محتط فى قاعة مظلمة فى ليلة من الليالى).

لم تكن هناك رياح، وبدلاً من أن نضيع الوقود بلا جدوى ونحن نسير فى مد معاكس، ألقينا المرساة على الجانب المقابل للريح من جزيرة فيدرا. كان الجو من السكون بحيث يمكنك سماع صوت الأمواج الخفيفة تضرب فى الصخور على بعد نصف ميل. وفجأة فى حوالى الساعة العاشرة انطلق صوت رهيب جاء عبر الماء. وقد رد عليه صوت آخر وآخر. لقد كان يشبه صوت البانشى (*) banshee كما تخيلته دائماً، حتى إننى حين أفقت من الصدمة الأولى ظننت أنه لابد من حدوث هزة على البر، غير أن البر (فيما عدا الجزيرة) كان على بعد عدة أميال وكان بعض الأصوات يأتى من ناحية البحر. كان نداء وحشياً ووحيداً لا يختلف عن نداء طائر الغواص السامك والبومة المقرنة. ورغم نوعيته الغريبة فقد كان موسيقياً بالقطع، وفى وقت لاحق علمت أنها "أغنية" الفقمة.

ورغم تداخل الصوت مع أصوات طيور النورس والأصوات المعتادة المصاحبة للحياة على متن السفينة، فقد استمر وقتاً من الطول بما يكفى، وكان له جرس كاف، بما يسمح بتسجيله. ولو لم نفعل ذلك لما كانت لدى الجرأة لكى أعلق عليه هنا.

ذكرت من قبل أن حكايات الفقمة التى رويتها كانت تقتصر إلى حد كبير على العالم القديم، وأن حكايات صيد الفقمة وقعت أحداثها فى العالم الجديد. إلا أن هناك بضع حكايات فى أنحاء أبعد من العالم الجديد تشبه حكايات العالم القديم. وكما قد نتوقع، فإنها أكثر تشظياً من تلك التى رويت على الجانب الآخر من المحيط وأقل شهرة منها. والحكايتان اللتان يمكن سردهما من نيوفاوندلاند.

(*) جنية فى التراث الشعبى الكلى تسير وراء الأسرة وتنتحب وتخبىها نبأ قرب وفاة أحد أفرادها . وإذا ما اجتمع أكثر من بانشى وراحت تولول فإن ذلك يعنى وفاة شخصية عظيمة أو شخص مقدس .. (المترجم) .

فى يوم من الأيام كان هناك صبيان يعملان على الساحل الجنوبى وكانا معروفين باسم صبببا جبرزى **Jersey Youngsters**، ذلك أنه من الواضح أنهما لم يكونا فى الأصل من أبناء الجزيرة. كانا عاملين عظيمين، ولكنهما كانا يختفیان فى كل أسبوع دون أن يعرف أحد أين يذهبان. وفى كل يوم إثنين يعودان نشيطين وفى شوق للعمل الذى كانا يفضلان القيام به بنفسيهما.

وفى يوم من الأيام كُلفا بالعمل على منشار السقالة. (طريقة قديمة لقطع ألواح الخشب يقف فيه رجل داخل حفرة ويقف الآخر على جذع الشجرة، حيث يقومان بشق جذع الشجرة إلى ألواح بمنشار شق يمسك به فردان.) وبعد فترة ذهب رجل لرؤية كيف تسير أمورهما. وما إن اقترب من الحفرة حتى سمع غناء وصوت المنشار. وحين اقترب أكثر لاحظ أن صبببى جبرزى مستلقين تحت شجرة يغنيان أغنية غريبة والمنشار يصعد ويهبط فى جذع الشجرة نون أن يمسه أحد.

بعد ذلك راقبهما مراقبة أشد واكتشف أنهما فى عطلة نهاية الأسبوع يتحولان إلى فقمتين ويسبحان عائدين إلى موطنهما فى جزيرة جبرزى ثم يعودان يوم الإثنين. كان ذلك أكثر مما يحتله الناس فى ذلك المجتمع المحلى وفُصل الصبيان من العمل^(٢٦).

فى مرة أخرى خرج رجل وابنه لصيد الفقمة. انفصل الاثنان وفجأة قابل الصبببى ثلاث فقمات. رفع بندقيته ليصوب فصاحت واحدة منها "لا تطلق النار". أنزل الصبببى الذى أصابه الفزع البندقية ولكنه عاد ورفعها بسرعة من جديد، ومرة أخرى طُلب منه أن يتمهل. وفى المرة الثالثة التى قالت فيها الفقمة ذلك أطلق النار على أية حال. سقطت اثنتان ميتتين ولكن الثالثة تحولت إلى رجل بلا رأس سقط من فوق الصخرة^(٢٧).

هذه إذن المكونات العامة التى يمكن العثور عليها فى مائتورات الفقمة. وفى بعض الأحيان يكون المرء من حسن الحظ بحيث يعثر على كمية كبيرة من هذه المادة مدفونة داخل حكاية واحدة. وكان طومسون محظوظاً وهو يروى بطريقته الفريدة الحكاية التى نعيد روايتها هنا.

بينما كان رجل وأبناؤه الثلاثة يتأهبون للخروج لصيد السمك، ربما كان السالمون، ظهر لهم رجل غريب على جواد أبيض وطلب منهم أن يأخذوا معهم بلطة وخطافاً وسكيناً. أخذ الرجال ما طُلب منهم أن يأخذوه، ولم يمض وقت طويل عليهم في البحر حتى هبت عاصفة وحاولوا الوصول إلى الشاطئ.

فجأة ارتفعت موجة ضخمة وهوت مزمجرة عليهم. ألقوا الخطاف عليها فانكسرت ومرت من تحتهم. ثم جاءت موجة أكبر فألقوا عليها البلطة، ومرة أخرى تكسرت الموجة وارتفعوا هم فوقها. ثم جاءت موجة ثالثة ضخمة، كانت أكبرها جميعاً. ارتفعت فوق القارب وبدا الأمر كما لو أنه ليس هناك ما يمكنه التصدي لها. ألقوا السكين عليها فانشقت هي الأخرى ورفعت القارب ودفعته عالياً فوق حصي الشاطئ. وبينما كانوا يقفون هناك يهنتون أنفسهم على النجاة رأوا حطاماً خاصاً بمن لم يكونوا محظوظين مثلهم تدفعه الأمواج نحو الشاطئ.

عاد الرجال بعد ذلك إلى بيوتهم وما كانوا ينتهون من طعام العشاء حتى ظهر الرجل الذي كان يمتطي الجواد الأبيض وأمرهم أن يركبوا معه. سار الجميع لمسافة بعيدة حتى بلغوا مدينة حيث توقف الجواد أمام منزل دخلود. كانت في الداخل ثلاث نساء. وكان قد دُفن في رأس كل منهن أداة من الأدوات التي قذفوا بها الأمواج فآزالها الرجال. وبعد ذلك ركبوا الجواد الأبيض مرة أخرى وعادوا إلى بيوتهم. وفي طريق العودة حذرهم الفارس من الذهاب مرة أخرى إلى البحر وأبلغهم أن نيفاً وثلاثين رجلاً غرقوا في تلك الليلة ليكونوا أزواجاً لهؤلاء النسوة. ولولا وساطته لانضموا إلى الثلاثين^(٢٨).

حين نستعرض هذه الحكايات نذكر إلى حد كبير القدم الشديد الذي تتسم به الموتيفات. ولذلك فإننا لا نُصدم حين نكتشف أن واحدة من أقدم القطع الفنية هي قرن وعمل محفور به ثقب، مما يشير إلى أنه ربما كان ذات الخوار المستخدمة في المراسم الدينية^(*). إن عمرها عشرين ألف سنة ومرسوم عليه سمكة سالمون، وشيء قد يكون

(*) قطعة رقيقة من الخشب أو العظم أو الإبرواز مشنودة إلى سير من الجلد تدور في الهواء فتحدث صوتاً هادراً، وكانت تستخدمها بعض القبائل البدائية في طقوسها الدينية (المترجم) .

حبة توت، وفقمتان. وقد نطالع في هذه الحكايات إنن المزيد من شذرات ميثولوجيا شمالية عظيمة محطمة (٢٩).

يبقى هناك ساكن آخر من سكان المحيط لأبد لنا من بحثه. وهو يقع في صورته الأصلية على أقصى حافة الذاكرة، ويكاد يكون من المستحيل الحصول على ما هو أكثر من إقرار غير واضح بسماع شيء عنه. إلا أنه من الممكن رؤيته في صورة أخرى، ولا يزال الناس يتداولون حكايات عنه. وأظن أن الحكايات الحديثة تبقى من خلال حالة من الهويات المغلوبة. (*) كان هذا المخلوق يعرف باسم *fin Finn* أو الفيون *Fion* [الفنلندي] وفي بعض الأحيان كان يسمى *Muckde Man* الرجل الضخم.

طوال مئات السنين كان هناك تقليد خاص بظهور غريب في الجزر الغربية وجزر شتلاند وجزر أوركني. فمن حين لآخر كان الناس في البحر يقابلون مسافراً وحيداً يجدف في قارب من الجلد. ويبدو أن القارب كانت مقدمته مثل مؤخرته، وكان الجالس فيه يحتسى بلباس من الجلد. وكان مسلحاً، أو كان معه رمح على القارب. وحين كان أحد يقترب إلى حد كبير من ذلك المسافر كان يفر، ومهما أوتى مطاربه من جهد ما كانوا ليسدوا الفجوة التي تفصلهم عنه. وكان يبدو أن هؤلاء المسافرين الفرادى يحبون الطقس العاصف، وكثيراً ما كانوا يشاهدون وهم يجدفون بهوء في العواصف العاتية التي لم يكن أهل الجزر يتخيلون أن مركباً يمكن أن يبقى فيها على قيد الحياة. وكتب والاس في عام ١٧٠٠:

يشاهد أحياناً في بعض أنحاء هذا البلد هؤلاء الرجال الذين يسمون الفنلنديون *Finn-men*. وفي عام ١٦٨٢ شوهد أحدهم في قاربه الصغير عند الطرف الجنوبي من جزيرة إيدا *Isle Eda* حيث تجمع معظم أهل الجزيرة لرؤيته، وحين حاولوا إنزال قارب فيه رجال إلى البحر لمعرفة إن كان بإمكانهم الإمساك به، فر بعيداً على الفور وبأقصى سرعة. وفي عام ١٦٨٤ شوهد آخر من على *Westra*

(*) موقف في الحكاية لشخصين متشابهين لا تستطيع الشخصيات الأخرى التمييز بينهما (المترجم) .

ولابد أن أعترف أن الأمر لا يمكن تفسيره إلى حد ما، إذ كيف ينبغي للرجال الفنلنديين هؤلاء أن يصلوا إلى هذا الشاطئ، ولكن من المحتمل أن العاصفة تبعدهم عن موطنهم، ولا يسعني تحديد موقعهم في البحر، وكيف يعودون إلى بيارهم ثانية. إنهم يتمتعون بهذه الميزة، وهي ألا يكون البحر في حالة من الهياج البحر، ولا يفرق قاربهم أبداً لكونه مصنوعاً من جلد السمك، بل يصبح كطائر نورس يسبح على صفحة الماء. كما أن قميصه مثبت في القارب بحيث لا يدخل الماء قاربه ليضره، إلا إذا أراد فكه، وهو ما لا يفعله إلا إذا أراد قضاء حاجته أو حين يصل إلى البر^(٢٩).

قُدِّمت تفسيرات كثيرة لهذا الظهور الغريب، وأشار باحثو الفولكلور الذين يحاولون جعل الحكايات مصدقة من قبل الإنسان المتقدم - الذي يبدو قادراً على ابتلاع "السحر" حين يسمى "علماً" - إلى أنهم إسكيمو "متسربين" وصلوا إلى مواقع متقدمة من القارة الأوروبية. والفكرة الأخرى هي أنهم بقايا الشعب البكتي^(*). أما الرأي الثالث فهو أنهم بالفعل شماليون، وكان المجدف المفرد يخدم السفينة الطويلة بنفس الطريقة التي تخدم بها الفرقاطة السفينة الحربية الكبيرة، باعتباره كشافاً سريع الحركة للتجسس على نقاط قوة العدو ونقاط ضعفه.

كل هذه الآراء ممكنة. فلا تكاد المسافة من كيب فارويل Cape Farewell إلى إسكاندنافيا تزيد على ألف ميل مع وجود الرياح والتيارات المواتية، ومن الممكن التوقف مرتين، إحداهما في آيسلندا والأخرى في فارويز Faeroes. ويقوم رجال أقل تكيفاً مع الحياة البدائية من الإسكيمو برحلات بحرية أطول مسافة. والواقع أن رجلاً من الواضح أنه يحب التجديف حباً جماً يقوم أثناء كتابة هذا الكلام برحلة حول العالم. بل إن وصف القوارب وراكبيها تتطابق تطابقاً كبيراً مع الكاياك^(**) والإسكيمو. وكون تلك

(*) شعب قديم أصله غير معروف سكن أجزاء من شمال بريطانيا ولم يتمكن الرومان من هزيمته . وفي القرن التاسع اتحد مع الإسكوتلنديين ليقيموا مملكة إسكوتلندا . وبحلول القرن العشرين لم يعد لهذا الشعب وجود (المترجم) .

(**) قارب الإسكيمو المحكم ضد دخول الماء ويتكون من هيكل خشبي مغطى بالكامل بالجلد ماعدا فتحة أو فتحتين في وسطه ويحرك بمجداف واحد ذي راحتين . (المترجم) .

الرؤى كانت فى مناطق فيها بقايا قريبة من القلاع والمساكن البكتية، بالإضافة إلى حقيقة أنه من المفترض أن هؤلاء الناس نوتية بارزون، يمكن أن يؤيد فكرة أنهم بكتيون فى حقيقة الأمر وليسو من الإسكيمو. وأخيراً فإنه لا يمكن الدفاع عن الفكرة الخاصة بكشافة الفايكنج بحال من الأحوال.

وبالنسبة لهؤلاء الذين قد يرفضون تصديق الموضوع برمته، يبدو أن هناك ذرة مما يدل على مصداقية هذه الرؤى. فقد أرسل أحد قواربهم إلى إدنبره حيث عُرض فى قاعة الأطباء ثم نُقل إلى متحف الجامعة (٢٠).

وهناك حكاية عن الرجال الفنلنديين يبدو أنها تتضمن الكثير من الماثورات التى تنور حولهم وتستحق أن أعيد روايتها. فقد خرج رجل لصيد السمك فى يوم عاصف واصطاد سمكة لا بأس بها. وحين أوشك على رفعها إلى القارب قضمت فقمة كبيرة أكثر من نصفها وتبقى له الرأس. تكرر حدوث ذلك، وكان الرجل يستشيط غضباً مع كل خسارة. وأخيراً ابتلع الحيوان الشره السمكة بكاملها وأخذ فى الصعود إلى القارب. التقط الصياد الغاضب قطعة من الخشب وضرب الفقمة ضربة شديدة على فمها، وانقطع خيط السنارة ومضت الفقمة بعيداً، إلا أن عاصفة رهيبة هبت على الفور وكادت تملأ القارب بالماء قبل أن يصل البر.

فى العام التالى وفى رحلة قام بها الصياد إلى فنلندا التقى برجل عجوز ودار بينهما حديث. دعا الرجل العجوز الصياد إلى منزله فى الليلة التالية وهناك كشف له عن نفسه باعتباره الفقمة التى ضربها الصياد فى العام السابق، ودلل له على ذلك بأن أراه مكان سنتين من أسنانه سقطتا. بل إنه أخبر الصياد أن حماه مريض فى موطنه، وأعطاه سكيناً كان الصياد قد فقدتها حين سقطت من فوق القارب وكذلك ملعقة من مائدته.

حين وصل الصياد إلى موطنه علم كذلك بأمر الملعقة. فقد دخل كلب كبير غريب البيت فى يوم من الأيام حين كان الصياد غائباً وحملها بين أسنانه (٢١).

وتوضح هذه الحكاية نقطة لافتة للانتباه. فكلمة **Fin** أو **Finn** أو **Flon** تعنى فى الأصل "صغير" إلا أنه بمرور السنوات أصبحت لها تداعيات مختلفة. فقد ارتبطت من ناحية ببطل أيرلندى عظيم صغير الجسم اسمه **Fion the Fair** [فيون المنصف]، وهو نفسه بحار عظيم، وعملق بما له من القوة، وهو فى بعض الأحيان ساحر بما لديه من قوة ومؤهلات. وبدأت الحكايات التى تدور حول الفنلنديين تتخذ شكل أسطورة فيون.^(٢٢) وفى الاتجاه الآخر عبرت بحر البلطيق وربطت نفسها بمجموعة من الناس لا يشتهرون بصورة خاصة بكونهم بحارة، إلا أنهم اشتهروا بتعاملهم فى السحر (الذى ربما اكتسبوه من جيرانهم اللابيين **Lapps** ^(*) وكان هؤلاء الرجال طوالاً ويتسمون بالبشرة الداكنة والقوة.

وبمرور الأعوام أخذت المعتقدات المرتبطة برجال القوارب صغار الجسم تنسحب شيئاً فشيئاً على الفنلنديين وتلتصق بهم بقوة أشد إلى أن اعتبروا بصورة عامة خطأ سيئاً على متن السفن. (إذا عرفنا ذلك فإنه يصبح واضحاً إلى حد كبير لماذا اختار ميلفيل **Melville** أن يكون هناك واحد منهم على متن السفينة بيكوت **pequot** المنحوسة فى روايته **Mobey Dick**)

كان الناس عموماً يظنون أن الفنلنديين تربطهم صلة مباشرة بالعالم الآخر، وأنه يمكنهم عمل الخير الكثير بتوجيه ربابنة السفن إلى أماكن يمكن العثور فيها على حمولة ثمينة أو بإبلاغهم كيفية اتقاء الأخطار التى تواجه الملاحه. ولكن إذا كانت لديهم هذه السمات الطيبة فإن لهم كذلك سمات سيئة، كالقطط السوداء التى كان يعتقد أنها تحمل العواصف فى أنيالها. وكان الاعتقاد الغالب هو أن قوى الفنلنديين السحرية مرتبطة بالرياح البتّى كان يمكنهم إثارتها، وكثيراً ما كانوا يثيرونها حين يريدون.

وكان إذا أراد هؤلاء السحرة إثارة الريح استخدموا إما قرية سُدَّت وربطت بسيور من الجلد، أو خيط أسود عُقِدَت فيه مجموعة من العقد. وحين يراد أن تهب

(*) شعب من الرجل يعيش على تربية المواشى وصيد الأسماك والثدييات البحرية موطنه شمال إسكندنافيا وفنلندا (المترجم) .

الريح كانوا يتلون بعض التعاويذ السحرية ويزيلون سداة القرية أو يفكون العقد التي في الخيط، وهنا تهب الريح (٣٣).

قد يظن ظان أن مثل هذا الرجل مطلوب بشدة على متن أية سفينة شراعية، إلا أن الأمر لم يكن كذلك لسببين. أولاً: كان الفنلنديون كثيراً ما يطلقون من الريح ما يزيد عن الحاجة وكانت العاصفة تتغلب على السفينة. ثانياً: قد يكون باستطاعة رجل بهذه القدرة أن يجعل السفينة خاضعة له إن هو أراد ذلك. وإذا أغضبه أحد لم يكن عليه سوى أن ينزع سداة القرية أو يحل العقد ويرسل بكل البحارة إلى قاع البحر. ولا بد ألا يكون هناك سوى ريان واحد على متن السفينة، وما من قبطان يقبل طواعية بوجود فنلنديين على سفينته.

ويتذكر ريتشارد هنري دانا Richard Henry Dana في كتاب "عامان أمام الصاري" Two Years Before The Mast حديثاً كان دار بينه وبين الطاهي الذي سألته:

"على فكرة، هل تعرف جنسية النجار؟"

قلت: "نعم، إنه ألماني"

قال: "هل أنت متأكد من ذلك؟"

قال الطاهي: "أنا مسرور بشدة من هذا. فقد كنت شديد الخوف من كونه فنلندياً. أقول لك الحقيقة، فثنا كنت مؤبباً جداً مع ذلك الرجل طوال الرحلة."

سألته عن سبب هذا ووجدت أنه تسيطر عليه تماماً فكرة أن الفنلنديين سحرة ويتحكمون بصفة خاصة بالرياح والعواصف. ... وكان قد ذهب إلى جزر السندوتش Sandwich Islands في سفينة كان صانع الأشرعة الذي عليها فنلندياً يمكنه فعل أي شيء يرغب فيه. وكان صانع الأشرعة ذلك يحتفظ في مخدعه بزجاجة كانت مملوءة على الدوام بشارب الروم، مع أنه يشرب منها كل يوم تقريباً. وكان قد رآه يجلس بالساعات مع هذه الزجاجة ويتحدث معها وهي

موضوعة أمامه على الطاولة. وهذا الرجل ذاته نبح نفسه في مخدعه وقال الجميع إنه كان يلبسه جن.

وكان الطاهى قد سمع كذلك عن سفن تجدد مشقة في دخولها خليج فنلندا ... بينما ترى سفينة خلفها تتجاوزها وتسبقها في خفة الريح ... وتجد أنها من فنلندا. قال الطاهى: لقد رأيت الكثير من هؤلاء الرجال الذين يريدون العمل على إحدى السفن. وإذا لم يحصلوا على مبتغاهم فإنهم يستعملون السحر ضدك.

ولتأييد هذه المقولة استدعى الطاهى رجلاً اسمه جون وافقه على ما قاله، وأضاف أنه كان فى إحدى السفن

حيث كانوا يواجهون ريحاً معاكسة لمدة أسبوعين، وفي النهاية اكشف القبطان أن رجلاً كان قد وجه إليه كلاماً قاسياً قبل ذلك بوقت قصير فنلتدى، وعلى الفور أخبره أنه ما لم يوقف الريح المعاكسة فإنه سوف يحبس في المخزن الأمامى، ولن يعطيه ما يكله. صمد الفنلندى لمدة يوم ونصف، حيث لم يعد فى مقدوره تحمل الأمر وفعل شيئاً ما جعل الريح تعكس اتجاهها؛ وهنا سمحوا له بالصعود على السطح^(٢٤).

انعطف سى إس فورريستر C. S. Forrester فى كتاب "القائد هورنبلور" Commo-dore Hornblower انعطافاً غير متوقع بالأسطورة الفنلندية. ومع أن فورريستر ليس على وجه الدقة ضمن نفس الفئة التى تضم الكتاب الآخرين، فقد حظى بالمديح على دقة تفاصيله. فهورنبلوار يأسف لوجود سكرتيهه برام Bramm إلا أن أوامره هى أن يستمعوا لما يقول لأن معرفته بدول البلطيق واسعة وثيقة. ويسأل القبطان بوش Cap-tain Bush هورنبلور:

كيف ترى كاتبك السويدى يا سيدى؟

إنه فنلندى وليس سويدياً.

”فهلندي؟ لا تقل ذلك يا سيدى! ليت الرجال لا يعرفون ذلك.”

يتصور البحار أن كل هلندي ساحر يمكنه إثارة العواصف بإشارة من إصبعه، إلا أن هورنبيلور لم يظن قط أن مستر برام من ذلك الصنف من الفنلنديين، رغم تلك العينين الخضراوين الفاتحتين الشريرتين^(٢٥).

رغم اكتساب هؤلاء الناس، أو الكائنات، شهرة عالمية، قد يبدو أن موطنهم الأصلي فى مكان ما فى الشمال. وربما تصلح المنطقة المحيطة بشتلاند موطناً لهم لقربها من النرويج. وتدعم حقيقة أن أهل شتلاند يسمونهم ”هلنديى النرويج“، وكون الكثير من الحكايات يجعل الفنلنديين يذهبون إلى النرويج ويعوبون فى يوم واحد يدعم، نظرية أسلافهم الشماليين. وأخيراً فإن جزر شتلاند هى المكان الذى يكتسبون فيه وضعهم الكامل باعتبارهم سحرة.

كان الرجال الضخام يتخنون الغربان، إضافة إلى أشياء أخرى، خداماً لهم وكانوا يحصلون من خلالها على المعلومات الخاصة بما يجرى فى أنحاء البلاد. كما كان بإمكانهم الحصول من خلالها على أشياء عديدة من على مسافات بعيدة. وكان أهل شتلاند يعتقدون كذلك أنه يمكنهم بالسحر تقطيع شرائح من المجاديف، وإلقائها من على السفن، وصنع سفن منها. كما كان يقال كذلك إن لديهم جلد فقمة سحرى يلبسونه كي يمكنهم من قطع مسافات طويلة على البحر. ويمكن الحصول على هذا الجلد من فى حوزته من استعباد صاحبه، إلى أن يتمكن من استعادته. وفى الوقت نفسه فإن مهارته فى السحر تقل بصورة كبيرة. وأخيراً وليس آخراً، فقد كان الفنلنديون، والفنلنديون وحدهم، فى شتلاند هم من يمكنهم قيادة حصان الماء^(٢٦).

ما إن يعرف الناس أن كلباً من الكلاب قاتل أغنام حتى يكون من الصعب عليه تغيير وضعه، وكذلك الحال بالنسبة للفنلنديين. وقليل جداً من البحارة فى الوقت الراهن يعتقدون أن الرياح محفوظة داخل قرية. فالواقع أنه مع ظهور السفينة البخارية وآلة الاحتراق الداخلى، لم يعد هناك اعتماد على الرياح، كما قل الخوف من العواصف والشواطئ التى تهب عليها الريح بصورة كبيرة. إلا أن الخوف من الفنلنديين مازال متأصلاً ولا يحب الكثير من البحارة الخروج إلى البحر معهم. سيقولون لك إنهم غير

متسامحين وعصبيون وعندما تقلت أعصابهم يأتون بأعمال عنيفة، بل إنه من سوء الحظ وجودهم على متن السفينة."

وخلال العقد التالي للحرب العالمية الثانية، وفي روكلاند بولاية مين، كانت هناك ترسانة لصنع السفن، حيث يُعتقد أن أحسن سفن صيد الإستاكوزا على الساحل تبني هناك. وكان أى شخص يخرج لصيد الإستاكوزا ويمكنه الحصول على واحدة من تلك السفن يعتبر محظوظاً إلى أقصى حد. إذ كان بناء السفن رجالاً عائلته من فنلندا وكان معروفاً عمومًا ليس باسمه بل بترائه؛ أى الفنلندي. "إذا أردت الحصول على سفينة جيدة، اذهب إلى الفنلندي. فهو أحسن من يبنى السفن." وبذلك قد زال سحر الفنلندي باقياً.

الفصل التاسع

عرائس البحر

لورنتي ، لورنتي

لولا رجلك

لكان دم قلبك

قد تجلط في رأسي

مقتبسة من Sabine Baring Gould,

Curious Myths of the Middle Ages

قليلة هي موضوعات الفولكلور البحري الأكثر انتشاراً من الاعتقاد في سكان البحر، أو تعود إلى زمن أقدم منه، أو أكثر جانبية منه، أو تخلق مشكلات أكثر للباحث الذي يحاول التوصل إلى استنتاجات مفيدة أكثر مما يثير. هؤلاء السكان عبارة عن عروس البحر، وغُرانق الماء (*)، والكلبي (**) kelpie أو حصان الماء، وثور الماء، والفلنلنديين، والرجال الزرق، والفقمة. وفيما عدا الوحوش البحرية، لم يسلم مجال من مجالات الفولكلور البحري من الغزو العلمي. إلا أن هذه المأثورات من الرسوخ بحيث لا يزال الناس في المناطق النائية الأكثر انعزالاً من العالم الناطق بالإنجليزية يؤمنون بها، باعتبارها تراثاً حياً في بعض الأحيان ، وكطريقة لتفسير ما لا يمكن تفسيره لولا ذلك في أحيان أخرى.

(*) مخلوق بحري خرافي له جسم رجل ونيل سمكة، ويقال إنه نكر عروس البحر (المترجم).

(**) روح إسكتلندية تعيش في الأنهار والبحيرات تعمل على إغراق المسافرين وكثيراً ما تظهر على شكل حصان يغوى الضحايا بركوبه ثم يجري مسرعاً إلى النهر ويفرق من على ظهره ومن هنا كانت رؤيته تعني الموت الوشيك (المترجم)

لقد أوضحت العلوم البيولوجية بما لا جدال فيه أنه لا وجود لمثل هذه المخلوقات - باستثناء الفقمة - وأن هذه المخلوقات عاجزة إلى حد كبير عن تلك التصرفات الشاذة التي تعزى للآخرين. ومع ذلك لا يزال الباحثون يتوقنون إلى معرفة كيفية سيطرة مثل هذه المجموعة من المعتقدات بقوة على عقول الناس، وقُدِّمَ العديد من المقترحات بشأن المصدر الممكن لهذا التراث. فقد عرض الذين يربطون بين خيال الفولكلور بواقع الحقيقة عدداً من النظريات التي قد تربط سكان البحر هؤلاء بالمخلوقات التي تحظى بقبول علماء البيولوجيا.

ويبدو أن هناك أربعة تفسيرات بين الباحثين تقترح أصول سكان البحر، وأمل أن أقدم أنا التفسير الخامس. ويستنتج التفسير الأول أنه لا وجود لهذه المخلوقات وأن من يؤكِّنون رؤيتهم لها إما مجانين أو كذابين. وهذا موقف مريح إلا أنه لا يتفق مع الحقائق، ذلك أن أناساً كثيرين نوى مكانة معتبرة، منهم هنري هيدسون Henry Hudson والعديد من الأساقفة، ذكروا أنهم رأوا سكان البحر. فما عسانا نفعل على سبيل المثال حيال الحاكم الإقليمي الذي احتفظ بـ "امرأة بحرية" طولها تسع وخمسون بوصة في حوض ماء لمدة أربعة أيام وسبع ساعات، وقال إنها كانت تصرخ كالفار وترفض القواقع وفضلاتها كفضلات القطّة؟^(١)

ثانياً: يرى البعض أن عروس البحر في واقع الأمر هي خروف البحر، وهو مخلوق يعيش في المياه الدافئة ويطفو في وضع رأسي ويرضع صغاره على الصدر. وبما أن هذه المخلوقات غير شائعة ونادراً ما يراها الناس، فقد رأى البعض أن البحار الذي يبقى فترات طويلة في البحر يمكن أن يراها خطأ على أنها المخلوقات الجميلة والمغرية المشهورة في كتب الحكايات. والآن هناك حكاية شعبية منتشرة عن أحد مستكشفي المنطقة القطبية الذي كان يأخذ معه إلى البحر أقبح طبخة يمكنه العثور عليها. وكانت حين "تبدأ تبني جيدة في نظره" يعرف أنه أطال البقاء في البحر أكثر مما يجب. وإذا أخذنا هذه الحكاية كخطوة أولى، فسيظل من الصعب تخيل سفينة تبقى في البحر الوقت الكافي لجعل خروف البحر يبدو ساحراً في جماله. بل إن الروايات الكثيرة عن عرائس البحر تأتي من يواثر العرض المرتفعة حيث المياه باردة جداً بالنسبة لخروف البحر.

النظرية الثالثة شديدة الشيوع هي أن عروس البحر فقمة حدث خطأ في تحديد هويتها. وهذه النظرية يمكن الاقتناع بها عندما نأخذ في اعتبارنا أن الفقمة لها ثديان ووجه بشري إلى حد ما، وتعيش في كل من المياه الدافئة والباردة وتشبه عروس البحر التي في الكتب المصورة من عدة أوجه. بل إنه في عصور قديمة نسبياً كانت حكايات عروس البحر تكاد تُحكى بالتبادل عن الفقمة، وقد باتت جزءاً مقبولاً من سكان البحر في الوقت الراهن. وتفي هذه النظرية بالشروط الخاصة بالملاحظات العابرة عن بعد، إلا أنها لا ترضى الروايات الخاصة بالمراقبة القريبة أو الاتصال الفعلي. كما أنها لا تفي بالشروط الخاص بتلك المخلوقات التي تحدث الناس عنها باعتبار أن لها مظهراً "شديد الشب" بظهر الفقمة^(٢). وأخيراً، فيما أن الصيادين الشماليين، الذين تشيع بينهم حكايات عروس البحر أكثر ما تشيع، يقضون حياتهم على مقربة شديدة من الآلاف من حيوانات الفقمة، فمن المضحك ظن أن الظروف الجوية أو حتى الإفراط في شرب الخمر قد يدفعهم إلى الخلط بين عروس البحر والفقمة.

أما الافتراض الرابع فهو أن عروس البحر، أو بالأحرى غرائق الماء، هو الفظ. وبينما لا يؤيد الباحثون هذا، فإن العقل يمكن أن يتقبله إلى حد كبير. بداية كان اسم الفظ في القرن السابع عشر هو *morse*، ربما من الكلمة الروسية *morskoi* وتعني "البحار".^(٣) وهذا المخلوقات من سكان المنطقة القطبية في الأساس ولكنه يظهر في بعض الأحيان إلى الجنوب من ذلك. وقد سجل جون جوسلين John Josselyn أحدها في كيب آن^(*) في القرن السابع عشر، ولا تزال تشاهد مراراً على سواحل إسكوتلندا. وقد أبلغني والاس كلارك Wallas Clark من بلفاست أنه منذ فترة قريبة جداً ألفت الأمواج بـ "فيل ميت" على شاطئ جزيرة توري Tory Island. كان الناس يعرفون أنه فيل؛ فقد كان وزنه يزيد على الطن وله نابان طول الواحد منهما حوالي ثمانى عشرة بوصة ينموان لأسفل في الفك العلوى. وهذا الوصف المقتضب ينطبق على الفظ أكثر منه على الفيل. وكان الشيء أكبر من أن يحركه أحد وكانت تنبعث منه رائحة

(*) شبه جزيرة في الشمال الشرقى من ماساتشوستس بارزة في المحيط الأطلسى شمال شرقى جلوسستر. (المترجم).

كريمة. ومن حسن الحظ أن أهل الجزيرة في ذلك الوقت كان فيه يبنون رصيفاً من الأسمنت، وأدى انحراف في الاتجاه إلى نقل الرصيف فوق الجثة. وهي مدفونة الآن داخل أطنان من الأسمنت.

بل إن اللفظ يصبح أكثر قبولاً حين ننظر إلى الروايات الخاصة بغرانيق الماء التي يرويها أناس يزعمون أنهم رأوه. وعلى عكس عروس البحر، فإنه نادراً ما يشير أحد إلى غرانيق الماء من ناحية جماله. ومع أن الأوصاف لا تتفق مع بعضها، فإن عدداً يشير إلى أن المخلوق يطفو في وضع رأسي وله أصابع يصلها ببعضها غشاء رقيق، كما أن له لحية، ورقبة قصيرة، وذقناً ذا فليج عميق، وعينين سوداوين غائرتين، وجبهة مستوية عريضة، وحاجبين شعرهما كثيف. ويغطيه شعر بني أو مائل للحمرة، وكان يقال في بعض الأحيان إن له نابين حادين بارزين^(٤). ومن ناحية الحجم وصفوا غرانيق الماء على أنه يتراوح بين "حجم القرد" وثمانى عشرة بوصة^(٥). والحجم الأخير قد يتفق مع جسم الغرانيق الناضج، بينما الحجم الأصغر يتفق مع أبعاد الغرانيق الصغير. والواقع أن هذه الأوصاف يمكن أن تتطابق مع اللفظ؛ وخاصة اللفظ غير الناضج، الذي قد يكون من السهل نسبياً الإمساك به. وهو نادر إلى حد كبير في المياه البريطانية أو الأمريكية، مما يجعل أعين البحارة لا تتعرف عليه.

يميل معظم الباحثين إلى اعتبار عروس البحر صنواً لكيان بيولوجي واحد. وأظن أن هذا خطأ. إذ كان حرياً بهم أن يعتبروها صنواً لعدد من المخلوقات البحرية؛ وهي الفقمة، واللفظ، بل وربما خروف البحر. وفي حالات نادرة يُدفع المرء إلى الاعتقاد بأن الأخطبوط، أو حتى رجلاً مجنوناً مؤهل لحمل هذا اللقب. وعلى سبيل المثال يحكى لنا جون جوسلين أن شخصاً يدعى مستر ميتتر **Mr. Mitter** قابل غرانيق ماء بينما كان يصطاد طيوراً في خليج كاسكو في القرن السابع عشر. ظل ذلك المخلوق يحاول ركوب قاربه إلى أن قطع ميتتر أحد ذراعيه وغرق "جاعلاً الماء قرزماً بدمه"^(٦). وقد أمسكوا بغرانيق ماء وهو يسبح قبالة أسبانيا. وعلم الذين أمسكوا به أنه جاء من ليرخانيس **Lierjanes** التي أعيد إليها، وهناك اتضح أن اسمه فرانشيسكو دى لا بيجا **Francis-co de la Vega**. كان له شعر أحمر قصير، وعينان تخطوان من أى تعبير، وجلد رخو

لا لون له، وبعض القشور (هل هي إكزيما؟)، وأبدى نفوراً شديداً من الملابس. تركه مع أسرته، ولكنه رفض الحديث، وفي النهاية هرب واختفى في البحر^(٧). وأخيراً هناك عروس بحر (أو غرانق ماء) كانت خدعة متعمدة. فقد كان روبرت هوكس Robert Haw- kes يتنكر قبل أن يرتدى رداء الكهنوت المقدس في هيئة عروس البحر ويجلس على إحدى الصخور ويغنى في ضوء القمر؛ مما أثار الرهبة في نفوس القرويين في المنطقة^(٨).

وفي رأيي أننا نتناول عند الحديث عن عروس البحر وجرانق الماء لقاء الإنسان بالنادر والفريد والشاذ. وهو حين يعرف ما يراه فإن ذلك يكون في حدود معرفته هو وما يؤمن به. (قلت مرة إن هنود المانيواكى في كيبيك حين شاهدوا السيارة لأول مرة أسموها "الضفدع النطاط"). وسأعرض المزيد فيما بعد.

هناك الكثير من العوامل التي تجعل بقاء الاعتقاد في وجود سكان البحر حياً. فما هي على وجه التحديد صفات تلك المخلوقات التي تعيش تحت الماء؟ كم عدد الحكايات التي تروى عنها، وما هي أصولها، وما مقدار انتشارها، وما الذي يمكننا تعلمه منها، إن كان هناك ما نتعلمه؟

أولاً: هناك اعتقاد بأنها شبه بشرية. ويعتقد الناس أنه تعيش تحت الماء وتخرج إلى السطح من حين لآخر. وفي مرات نادرة يقال إنها تخرج على الشاطئ متتكرة في هيئة البشر. ويقال إن لها أثداء وشعراً طويلاً وذيلاً تغطيه الحراشف [القشور] يشبه ذيل سمكة القد أكثر من الماكريل أو خنزير البحر أو القرش. (وهي عادة ما تسمى "الفتاة ذات الذيل المحرشف"). وغالباً، وليس دائماً، يقال إن لها عينيّن زرقاوين وشعراً ذهبياً وإنها جميلة. وعادة ما تُرى جالسة على الصخور المدية tidal rocks والألسنة والجزر الصخرية الصغيرة، وإن لم يشاهدها أحد سابحة قبالة الشاطئ. ويقال إن معها مشطاً ومرآة، وفي بعض الأحيان قلنسوة أو شال أو حجاب. وحين تكون على البر فوق صخرة مدية، تكون في العادة مشغولة بتمشيط شعرها وهي تنظر في المرآة وتغنى أغنية. ويظن الناس في الغالب أنها تضر الإنسان، إما بإغوائه بجمالها وصوتها كي يتحطم على الصخور، أو أن تكون مجرد رؤيته لها تنذيراً بنهايته غير السعيدة.

وكانت فكرة الكارثة من الشيوع بحيث تبدأ إحدى القصائد الغنائية كالآتي:

صباح يوم الجمعة الماضي حين أبحرنا،
لم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن البر،
حتى رأينا، حتى رأينا فتاة شقراء جميلة
ومشطاً ومراة في يدها، في يدها، في يدها،
ومشطاً ومراة في يدها.

وتُعد هذه الرؤية كل البحارة للمأساة الوشيكة، ولا يدهش أحد حين يكون

البدر منير والنجوم ترسل الضياء،
وأمرى تبحث عني.

قد تنتظر، قد تنتظر بعينين دامعتين

قد تنتظر إلى قاع البحر، البحر، البحر

قد تنتظر إلى قاع البحر^(١٠).

ومن ناحية أخرى فإن المعروف أحياناً، ولسبب لا تفسير له، أن عروس البحر تستلطف شخصاً ما - أو حتى بلدة ما - وتولم له الولائم. وفي بعض الأحيان تُحتَجَز حين يحدث الجزر ويتركها وحيدة على إحدى الصخور، أو حين تكون على البر في إحدى الحفلات. في مثل تلك الحالات يمكن لأي رجل ماهر أن يسرق حجابها أو عباعتها أو وشاحها لكي يحصل منها على إتاوة قبل إعادتها إلى البحر. ذلك أنه إذا استولى رجل على قطعة من ملابسها السحرية وأخفاها فإنها تصبح امرأة، وتصبح زوجة مفيدة مطيعة، وتكون منجبة عظيمة للنسل، وتكاد على الدوام تجلب منفعة ما للزوج؛ أحياناً الذهب والفضة، وأحياناً الماشية أو الصيد الطيب أو هبة الشفاء، أو بعض القوة الخاصة، كما رأينا في حالة بناء السفن. إلا أنه بغض النظر عن مدى

ما تبدو عليه سعادة عروس البحر على البر، فإنها تقضى وقت فراغها فى البحث عن الرداء المفقود. وحين تجده فإنها، كما هو الحال دائماً، تعود عروس بحر وتقفز فى البحر، تاركة وراءها عائلة حزينة؛ ذلك أن السمات البحرية عادة ما تكون متنحية فى ذريتها، ونادراً ما يمكنهم اتباعها.

وهنا لابد لنا من التوقف قليلاً لمناقشة مسألة الملابس السحرية التى بدونها لا يمكن لعروس البحر أن تؤدى وظيفتها بالصورة الصحيحة. فرغم أنها معروفة فى أنحاء العالم، وتتشابه معظم صفاتها إلى حد ما فى كل مكان، كما نرى من مقارنة سيرانات(*) sirens أوديسيوس باللوريلاى(**) Lorelei، فإن فكرة الرداء السحري تبدو غريبة على المناطق الشمالية، وخاصة تلك التى تسكنها شعوب جرمانية وإسكندنافية وإنجليزية، والأهم هى تلك التى تقطنها الشعوب الكلتية. بل إن مفهوم السيطرة عليها بالاستحواذ على رداؤها لا يبدو معروفاً إلى حد كبير خارج المنطقة موضوع المناقشة. وعادة ما يكون الرداء شالاً أو قلنسوة (حمراء فى الغالب، وقد ذكرت القلانيس كثيراً مرتبطة بالجنيات) أو عباءة. والأقل وروداً هو المشط أو المرآة أو قنينة الدهان أو بعض الأشياء المتنوعة الأخرى.

هناك اعتقاد بأن عروس البحر تعيش فى جنة تحت الماء لا تختلف عن أرض الجنيات. والواقع أن هذه المخلوقات تسمى فى فرنسا أحياناً Marie Morgane وهى تسمية محفوظة فيها اسم ملكة الحوريات. ومن الواضح أن أربيتها السحرية، التى غالباً ما تغطى رأسها، هى جهاز الغطس الذى يسمح لها بالوصول إلى الأرض التى تحت الأمواج، إن لم تكن لتسكن فيها كذلك. ولا يزال هناك اعتقاد قوى بين من يعملون فى البحر بأن من يولون فى بُرْنُس - أى لا يزال فوق رءوسهم كيس جنينى - لا يمكن أن

(*) السيرانة كائن أسطورى عند الإغريق نصفها الأعلى جسم امرأة ونصفها الأسفل جسم طائر وكانت تسحر البحارة بغنائها فتوردهم موارد التهلكة. وفى ملحمة الأوديسا تحذر الساحرة كيركى أوديسيوس من السيرانات عن مروره بجزيرتهن بعد عوبته من حرب طروادة، ولهذا سد أذان رفاقه جميعاً بالشمع كي لا يسمعو غناهن فيهلكوا جميعاً. ثم ربط نفسه فى أعلى الصاري وطلب منهم ألا يفكوا قيده إذا طلب منهم ذلك (المترجم).

(**) اسم عروس البحر فى الأساطير الجرمانية (المترجم).

يفرقوا. ولدى كثير من صيادى الأسماك فى إسكوتلندا مثل هذه البرانس التى يحملونها مجففة كتميمة لمنع حدوث الكوارث فى البحر؛ وكان حتى عهد قريب بالإمكان شراؤها بثمن قليل فى إنجلترا^(١٠). ومن الواضح أن الفكرة التى وراء هذا المعتقد هى أن الجنين البشرى يعيش فى سائل. وإذا كان يمكنه الحصول على الهواء من السائل وهو داخل الكيس الجنينى، فحينئذ لابد أن يكون للكيس صفات غرفة الغطس.^(*) وأظن أن هذا الاعتقاد الجرمانى فى سحر البرنيس قد يكون الأصل القديم الذى انبثق من الاعتقاد فى قلنسوة عروس البحر السحرية أو شالها السحرى. كما أن الأشياء الأخرى التى يعتقد أن لها سيطرة خارقة على سكان البحر قد تمثل وحسب مزيداً من انتشار هذا المعتقد القديم.

وحين يكتسب شخص ما السيطرة على عروس البحر باستيلانه على أحد أشيائها السحرية، فإنها عادة ما تظل خاضعة له زمناً طويلاً. ومن ناحية أخرى فإنه عند إنقاذ عروس البحر وإعادتها إلى البحر على الفور تكون المكافأة ذات طبيعة مختلفة. والمكافأة الأكثر شيوعاً هى تحقيق الأمنيات، كما فى حالة صانع السفن الفنلندى سالف الذكر الذى طلب أن تكون له مهارات خاصة فى بناء السفن. إلا أن الأمنيات التى تُحقق عادة ما تكون ذات طابع غير دائم؛ فما إن تستخدم الأمنية حتى تنتهى للأبد.

إلا أنه فى حالة إلحاق الأذى بعروس بحر بأى صورة من الصور تكون لها أساليب رهيبة للانتقام. وفى إحدى المرات قتلت عروس بحر رجلاً أغضبها بتطيرها بسقف منزله. وفى مرة أخرى يقال إن عروس بحر أصابت نوقاً بالجنون لأنه رفض الزواج منها. وحين أنقذت عروس بحر بحاراً من الغرق طلبت منه زيارتها ولم يزرها فجرفته المياه هو وأهل قريته جميعاً. ويعد أن قتل صياد سمك عروس بحر أغرقته هو وأسرتة كلها موجة غريبة^(١١). وفى حالة أخرى أمسك شخص عروس بحر عازماً على إيدائها بدنياً فجر وهو عاجز عن المقاومة إلى البحر وغرق^(١٢). وأخيراً، سرق أهل نورستراند Norstrand حزام عروس بحر ونُودِهَ وماشيتهَا، مما أثار ذلك غضب تلك

(*) وعاء كبير للعمل تحت الماء مفتوح من أسفل ويزود بالهواء تحت الضغط. (المترجم).

المخلوقة وجعلها تعود إلى البحر تاركة وراءها حزامها الذي حولته إلى نبات الأسل(*) وإلى ثور وحشى ضخمة أخذ يضرب الأرض بحوافره إلى أن تحولت المنطقة كلها إلى صحراء جرداء. وفي ظل وجود مثل هذه العقوبات في انتظار من يعذب عروس البحر، فليس مستغرباً أنها نادراً ما يسىء إليها أحد.

وهناك عدد من الحكايات التي تتحدث عن رؤية أحد البحارة لعدد من عرائس البحر على الشاطئ. فقد زحف البحار تجاههن واكتشف أنهن كن يتزين لحضور حفل ما. كان لديهن قارورة دهان صغيرة كن يمررنها على بعضهن ويدعكن بها عيونهن. حولن ذلك الدهان من عرائس بحر إلى نساء، وبعد ذلك التحول أخفين الدهان والأربية والذبول وذهبن إلى البلدة. بعد انصرافهن دهن البحار عينه اليسرى بالدهان. ومنذ ذلك الوقت أصبح بإمكانه التكر في أية صورة. وبهذه الطريقة اكتشف أن أناساً كثيرين عرائس بحر، بل وكشف أسماك عبارة عن عرائس بحر متخفية. وأخيراً اكتشف بعض العفاريت الصغار الذين يسرقون أشياء عديدة من سوق ريفية. اقترب منهم وعنفهم فسألوه كيف عرف أنهم يسرقون. فقال لهم إنه رآهم. فسألوه أى العينين رآهم بها. وحين رد الرجل الساذج بأنها العين اليسرى ضربه أحد تلك المخلوقات الصغيرة بعصا فأصيبت عينه اليسرى منذ ذلك اليوم بالعمى^(١٤).

في عام ١٩٦٩ تعرفت على سارة بنيت Sarah Bennet من برانت ليك Brant Lake في نيويورك. روت لي سارة حكاية عن أناس صغار "يرتدون قبعات حمراء" حين وصلوا القرية وكانوا "غجراً". تجسس عليهم صبي في الغابة وراقبهم وهم ذاهبون إلى البلدة. وحين وصلوا القرية ذهبوا إلى السوق وأخذوا يسرقون "الكرنب والجزر والخضروات ويضعونها في جوال"، ولكن الصبي هو وحده من لاحظهم. وبعد أن استمر ذلك لبعض الوقت تقدم منهم وسألهم عما يفعلونه وهم "يسرقون بهذه الطريقة". سأل أحد الرجال الصغار: "أى عين رأيتنا بها؟" العين اليمنى. وبسرعة البرق ضربه ضربة أعمت تلك العين. وقالت سارة بنيت "إننى لم أفهم هذه القصة بشكل جيد. لماذا فى رأيك ضربوا عين الشخص المسكين؟"

(*) يسمى كذلك السمار وتستخدم أوراقه الأسطوانية الطويلة فى صنع قواعد الكراسى وغيرها من الأشياء. (المترجم).

يتضح مما عرفناه حتى الآن أن أسلاف عرائس البحر الأنجلو أمريكية قدماء ومتنوعين. ويبدو أن لها صلة بالجنيات الكلتية من خلال صفاتها واسمها - ماري مورجان - ومدنها الموجودة تحت ماء البحر، وحبها للموسيقى، وقدرتها على تقديم هدايا عظيمة. ولكن يبدو أن عداها لبنى البشر وانتقامها من الناس يربطانها بشخصيات العالم الآخر الأشد غلظة وقسوة في الفولكلور الأبعد ناحية الشمال. وقد ذكرنا الرداء السحري كصفة مشتركة بين عروس البحر الجرمانية مقابل عرائس البحر الموجودة في أجزاء أخرى من العالم.

إن ما أعتقد أنه أنا هو أن ما نتعامل معها عند الحديث عن عروس البحر الأنجلو أمريكية هي في واقع الأمر ميثولوجيا متشظية: أي معتقدات تعود إلى أقدم ما يمكن الوصول إلى في العصور الحجرية الحديثة، وهي معتقدات مضى زمن بعيد منذ أن طواها النسيان ولم يتبق منها سوى شذرات. وقد جرى تطعيم تلك الشذرات في ماثورات أخرى من بلاد أخرى، إلا أنه في القلب تقابلنا ميثولوجيا ذات توجه شمالي.

حتى الآن هناك مفهوم يؤمن به الناس على نطاق واسع وهو أن عروس البحر كانت ذات توجه خاص بالشرق الأدنى. أولاً: كان هناك اعتقاد بأن هذه الكائنات مشتقة من اعتقاد في وجود أرواح مائية تقبع بجوار الآبار - وهو معتقد أكثر شيوعاً بين الإغريق - وفي أن هذه المخلوقات نُقلت شيئاً فشيئاً إلى البحر، حيث كان لها وجود شبيه بوجود أخواتها على الشاطئ وأرف الظلال. ثانياً: أشار الباحثون، ومعهم الحق، إلى أن البابليين القدماء كانت لديهم صور لإله سمكة، هو أونانز Onans أو داجون (*)، حيث كان هذا المعبود بشرياً من الرأس حتى الوسط وسمكة ما دون ذلك. ثالثاً: إنهم يشيرون إلى المرأة في يد عروس البحر ويربطونها بالقرص الذي في يدي هذين المعبودين القديمين من حوض البحر المتوسط. وأخيراً: ربطوا من خلال التجوال

(*) داجون إله النبات الذي انتشرت عبادته في سوريا وبلاد الرافدين وعبيد الفلسطينيين. وجاء في العهد القديم: "وبكروا صباحاً في الغد وإذا بداجون ساقط على وجهه على الأرض أمام تابوت الرب ورأس داجون ويداه مقطوعة على العتبة. بقي بدن السمكة فقط." (صموئيل الأول ٥: ٤) (المترجم).

اللغوى البارع كلمات عديدة من أنحاء مختلفة من العالم ببعضها كي يصلوا إلى نفس الاستنتاج.

إذا أمعنا النظر فى حكايات بابل واليونان ومصر وغيرها من الأمم فى هذا الجزء من العالم، سوف نكتشف أنها تصور كائنات مختلفة تماماً عن عرائس البحر وأصدقائهن فى الشمال. صحيح أنه يقال إن اللوريلاي تغرق البحارة، ولكن المخلوقات التى قابلها أوديسيوس تفوقت عليها. وصحيح أنه يقال أحياناً إن الكلبى يغرق الناس ويلقى بأكبادهم على البر، وأعربت عروس بحر عن رغبة فى قلى دم لورنتى؛ غير أن هناك فرقاً بين الرغبة والفعل، ولا يبدو أن أكل البشر جزء من عادة عروس البحر لدينا. ولم يملك سكان البحر فى الشمال كل المعرفة، وهم حريصون على ما لديهم. ويقدم سكان البحر الهدايا للأفراد - ولكن ليس للبشرية، والهدية محدودة المجال دائماً. وصحيح أن المعبود السمكة أونانز يشبه عروس البحر، غير أنه يمكن الإشارة إلى أن هناك عدداً محدوداً فقط من الطرق لرسم مخلوق نصفه إنسان ونصفه الآخر سمكة.

هناك شىء غريب يتعلق بما أختار تسميتها بعروس البحر الجرمانية التى قد تكون لها أصول فى الشرق الأدنى، وهى علاقتها الغربية بالكنيسة. وأظن أن أحسن ما يوضح ذلك هو حكاية ميلوسينا Melusina، التى كانت شائعة فى العصور الوسطى، وتحليلها.

جمعت الصداقة بين الشاب الفقير ولكنه طيب المحتد ريموند Raymond وقريب له ثرى وأصبحا صديقين حميمين. وفى يوم من الأيام، وبينما كانا يقومان بالصيد، انفصل الاثنان عن المجموعة وضلا طريقهما. وحين توقفا للراحة هاجمهما خنزير برى قتله ريموند. وأثناء المعركة قتل كذلك الإنسان الذى يحسن إليه نون قصد. هرب الشاب من المكان وهو شديد الاستياء وسار متثاقلاً حتى بلغ نبعاً رائعاً جلست بجواره ثلاث نساء حسان شعورهن ذهبية يلبسن أربية بيضاء. روى ريموند الحكاية لواحدة منهن اسمها ميلوسينا، ونصحته هى بدورها كيف يخلق حكاية تبعد الشك عنه. كما أخبرته أن يطلب من ورثة من كان يحسن إليه قطعة من الأرض حول النبع يمكن أن يطوقها

جلد ثور. وبعد ذلك وعدته بالزواج شريطة أن يعدها بالآ ينظر إليها أيام السبت. وافق ريموند على ذلك وانطلق بحثاً عن الأرض حيث أبقى طلبه على الفور، مع أن قريبه قُزع إلى حد ما حين اكتشف لاحقاً أن جلد الثور قُطع إلى خيط وأحاط بمساحة كبيرة من الأرض.

بنت ميلوسينا قلعة على هذه الأرض وتزوجت ريموند. وفي كل عام كانت تلد طفلاً، وكان كل طفل مسخاً. كان أحدهم ذا وجه قرمزي، وآخر بعين حمراء وخضراء، وكان أحدهم سيكلوباً(*) وكان لأحدهم ناب كتاب الفيل بدلاً من الأسنان. وكان كل منهم ناجحاً في مجاله الذي اختير له، حيث أصبح أحدهم راهباً مشهوراً، والآخر محارباً، وهلم جراً. وبنت الأم لكل منهم بيتاً رائعاً؛ كما شيدت لوحشها الثالث جيوت Gyott قصر لا روشيل La Rochelle.

سارت الأمور على ما يرام بسنوات كثيرة، حتى كان ما أغرى ريموند يوم السبت على النظر من ثقب الباب. رأى زوجته تستحم وأزعجه أن يرى أن النصف الأسفل منها على هيئة سمكة. وحين اكتشفت أنه تجسس عليها، أطلقت صرخة كبيرة وهجرت منزلها وأطفالها ولم تكن تعود إلا لتنذر بموت واحد من أفراد الأسرة. ظلت تفعل ذلك لسنوات، حيث كانت ترفرف حول القلعة بجناحي وطواط وتطلق صرخات حزينة ليست كصرخات البانشي banshee (**)(١٥).

استخدم بارينج جولد هذه القصة التي نشأت في جنوب وسط أوروبا في تعقب أثر عروس البحر حتى بابل. ذلك أنه يربط في مناقشته هذه الحكاية غير القياسية بتراثنا وبإلهة سومر. كما يرى أن البانشي التي تولول وترفرف قبل الوفاة تأتي من هذا المصدر. والواقع إن ميلوسينا أقرب شبيهاً إلى ليليث (***) Lillith من أي من الآلهة التي

(*) عملاق بعين واحدة في وسط جبهته (المترجم).

(**) روح أنثى في الفولكلور الغيلي يعتقد أنها تنذر حين تولول بموت أحد أفراد الأسرة (المترجم).

(***) إلهة الخراب في الديانة السومرية القديمة التي تسكن الخرائب والأماكن المهجورة. وهي شيطانة أنثى في الأساطير اليهودية ويقولون إنها كانت الزوجة الأولى لآدم قبل حواء وقد طردت من الجنة قبل حواء لرفضها طاعة زوجها. وهي كذلك زوجة إبليس وأم لجميع الأرواح الشريرة (المترجم).

ذكرها بارينج جولد، وإن للبانشى مصدر أقرب للوطن مما أدرك هو، إذ يبدو أنها تعود إلى معبودة كلتية قديمة تسمى ماترونا Matrona كانت تتمتع بكل صفات البانشى إضافة إلى قليل من الصفات الأخرى^(١٦). ولكن لنعد إلى ليليث التى كتب القديس أوجستين مقالة عنها. (كان شغوفاً بذرية أبناء آدم الذين أنجبته من هذه المرأة. ويقال إن ثمرة تلك المعاشرة كانت مسوخاً ولد أحدها على الأقل بعين واحدة فقط).

يأتى ذكر ليليث للمرة الأولى حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. وقد ربطوها بجلجامش، وهو بطل ثقافى يرتبط ارتباطاً شديداً بالماء، وكانوا يظنون أن الاثنين من جن العواصف الذين يزورون البشر ليلاً. بل إن ليليث كانت تصور ممسكة بحلقة تتصل بقضيب من حديد. وبما أنه كان يظن أنها تستنفد حيوية الرجال بإغوائهم بالخروج ليلاً، فقد كان من المستحب دفعها، وكان الشخص يستخدم تعاويذ منظومة لى يدفعها.

بحلول عام ١٠٠٠ قبل الميلاد أصبحت عروس آدم الذى كان اختياره التعس لزوجاته ملحمياً بحق. فحين اكتشف آدم أنها "رفضت النوم تحته" أمرها بالرحيل. رفضت ليليث الأمر ولكنها رحلت بعد كفاح طويل واتخذت لها موئلاً فى البحر الأحمر، حيث كانت توفر حليماً لمائة شيطان فى اليوم. وبعد ذلك بفترة قصيرة نجد صوراً ليليث كامرأة عارية جميلة ذات نهدين بارزين وشعر طويل مسترسل، وعضو جنسى كبير وساقان مقيدتان ببعضهما. فى ذلك الوقت كانت قد أصبحت ملعونة من الرب وكان من الممكن إبعادها باستخدام النظم والتمايم. ولم يبد أنها تأثرت بالمعتقدات الخرافية وظلت تثير غضب الإله إلى أن ألقى بها إلى الأبد فى أعماق البحر؛ وبعد ذلك، وفى حالة واحدة على الأقل، جاء ذكرها على أنها "لويثان" (*) أنثى. وكان الرجال يدركون مدى ما هم فيه من مشاكل حين يزونها^(١٧).

باختصار، كانت ليليث أنثى. وكانت تفترس الرجال - غير المتزوجين عادة - الذين يجدون صعوبة فى مقاومة سحرها. وكانت تعيش فى الماء، ولها شعر طويل، ونهدان،

(*) لويثان كلمة عبرية معناه الملتف أو الملتوى، وجاءت فى سفر أشعيا فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه العظيم الشديد لويثان الحية الهاربة. لويثان الحية المتحوية ويقتل التين الذى فى البحر (المترجم).

وساقان ملتصقان ببعضهما. وكان يُشار إليها في بعض الأحيان على أنها سمكة. وكانت تمسك في يدها شيئاً لا يختلف عن المرأة. وكانت تحب الليل وترتبط بالعواصف، وكانت تختفى بعد موقعة الرجال. وأخيراً فإنه بالإمكان جعلها غير ضارة بالتعاون والتمايم. وتصديق كل هذه الأشياء على عروس البحر، سوى أنه في حالة ليليث يصبح السحر وسيلة تستخدمها هي للعتة الرجال. وما لا ينبغي أن يوحى بأنها تنحدر من تلك المخلوقة السامية، بل ربما يكون التراث الخاص بلييث قد أسهم في تكوين الشكل الحالي لعروس البحر وربما بقائها الأساسي.

إذا كانت ليليث قد ساعدت في تشكيل شخصية عروس البحر، فلا يزال هناك مخلوق آخر أكثر أهمية يجب تناوله، إن نحن أردنا البحث عن الأصول الجوهرية لهذه الفتاة ذات الذيل. وهذا المخلوق هو الكلبى الذى يعرف بأسماء مختلفة مثل نكس nix و nuggle و each usige أو حصان الماء، وثور الماء. وربما كان هذا الحيوان الغريب هو أقدم أنواع أسلاف عروس البحر الشماليين كافة وأكثرها بدائية.

كان الناس لا يزالون يؤمنون بما قد تكون أكثر الأفكار بدائية عن تلك المخلوقات منذ ما يقل عن قرن مضى في جزر شتلاند. وهنا نجد حصاناً رمادياً صغيراً يتسم بالوسامة. وبالإضافة إلى حقيقة أنه كان أجمل من كل الخيل، فقد كان يختلف عنها في جانب آخر. إذ كانت لديه عجلة في عجزه بدلاً من الذيل المعتاد. وحين يظهر الناس كان حصان الماء يحرص على إخفاء العجلة بين ساقيه كي لا يراها أحد. وكان الأغراب يفتنون بجماله الشديد بحيث لا يمكنهم مقاومة ركوبه. وكان الحيوان يقف وديعاً ويسمح للراكب بامتطائه، ويمضى به بعيداً إلى أن يبلغ الماء؛ وكان ذلك الماء إما بركة صغيرة أو نهر أو بحيرة. وهناك يتحول الحيوان الوديع إلى وحش هائج ويلقى براكبه في الماء ثم يغوص في الأعماق ويختفى مع ظهور لهب أزرق ضئيل (*).

كانت لحصان الماء عادة مزعجة أخرى. فحين لم يكن هناك من يمتطونه ليفرقهم في الماء، كان يقضى وقته واقفاً على السواقي ويمنع دوران الطواحين. وكانت هناك

(*) نلاحظ هنا تشابهاً مع الحكاية التى تُروى فى الريف المصرى عن الحمار الذى يلقاه أحد المزارعين وهو عائد من الحقل ويمتطيه فيطول الحمار، إلا أن راكبه يسيطر عليه بغرس سكين أو منجل فى ظهره. (المترجم).

طريقة وحيدة يمكن إبعاده بها وهي إلقاء قطعة خشب مشتعلة في مسقط الماء الذي يدير الطاحونة. ولتيسير ذلك كانوا يصنعون باباً منزلقاً في كثير من الطواحين. وما إن تلمس قطعة الخشب المشتعلة الماء حتى يخرج المخادع. ليس ذلك وحسب، بل تغير النار اتجاه حوافره (أو تكشف أن الطبيعة قد جعلتها هكذا وأنه يخفى الحقيقة) ^(١٨).

قد يكون هناك بعض الشك في أن هذا المخلوق يتصل بطريقة ما بعبادة الشمس القديمة. فقد كانت العجلة تمثل الشمس بالنسبة للكتيين. وفي الوقت الراهن، وكما ذكرنا آنفاً، فإنه في بعض المناطق النائية من جزر هيبيريديز لا يزال الناس يخدمون النار "smoor the fire" حين يغطونها بالرماد أثناء الليل. ذلك أن الشخص كبير السن الذي يغطيها يرسم صورة عجلة على الرماد ويتلو دعاء لكل قطعة فيما بين كل سؤاستين من سؤاسات العجلة. ويعود هذا التقليد إلى العجلة التي على الصليب الكتي، ومن قبل الصليب كانت العجلة نفسها تظهر محفورة على الأحجار القديمة.

إذا كان هناك أي شك في أن الكلبى رمز شمسي فإن العامل الحاسم يأتي مع مغادرة الحصان الرمادي الصغير الذي يختفى في الماء العميق مع ظهور لهب أزرق ضئيل. ومعروف منذ زمن طويل لعدد قليل من البحارة المراقبين أن ظاهرة شديد الغرابة تحدث حين تغرب الشمس في البحر. وقد نبهني لهذا أول مرة القبطان الراحل هالزى باول Halsey Powell منذ سنوات عديدة ولاحظته عقب ذلك في عدة مناسبات من خلال المنظار. ففي أمسية هادئة كانت السماء فيها صافية، حيث غربت الشمس تماماً عن الأرض، وبعد ثوانٍ فقط من اختفاء الأطراف العليا وراء الأفق، لمع للحظة لهب أخضر يميل للزرقة على هيئة لهب الشمعة في الأفق. وإذا كنت محققاً، فإن لون الحصان قد يكون رمزاً لحافة الليل ^(١٩).

إذا ثبت صحة الافتراض فإننا قد نكون إلى حد كبير أمام واحدة من أقدم حكايات العالم القديم الشعبية. فعلى عكس فيبوس ^(*) Phoebus بعربته أو الكائنات الخارقة في الأساطير القديمة الأخرى الخاصة بالشمس، يجر حصان البحر الشمس

(*) هذا هو اسمه عند الإغريق أما الرومان فكانوا يسمونه أبولو Apollo وهو إله الشمس عند

الإغريق. (المترجم)

الملتصقة به هو نفسه. بل إنه إذا كان الجزء الخاص بالضوء الأزرق قديماً قدم بقية الحكاية، فحينئذ قد يكون أصل حصان الماء وحتى عروس البحر نفسها في البحر، وليس في بحيرات المياه العذبة والأنهار كما كان يُظن من قبل (٢٠).

إلا أن قصة حصان البحر لا تنتهي هنا. ذلك أنها إلى الجنوب من ذلك تأخذ منحى أكثر تعقيداً. ففي إسكوتلندا يصور الكلبى أو حصان الماء فى صورة حصان جميل. ولونه على الساحل الغربى قاتم، فى حين أنه زاه على الساحل الشرقى. ولا بد أن نتذكر أن الساحل الشرقى أقرب إلى جزر شتلاند من الساحل الغربى. (٢١) وهو يقتات على طول حواف البحيرات العميقة والبحر نفسه. ويمكن أن يلقي الأفراس الأرضية ويكون النتاج وسيماً وقوياً ولكنه يفتقر إلى القدرة على العيش فى البر والبحر معاً التى يتمتع بها أبوه. وعموماً فإن الكلبى يتسم بفخامة ما عليه من سرج ولجام. وهو يتمتع بصفة مميزة غالباً ما يغفلها المتهورون، وهى أن فى شعر عنقه رمل.

وهو يقف هادئاً عند قدوم غريب، فتقفز الضحية التعسة على ظهره ويمسك بالجام. وبعد ذلك يجد الراكب نفسه ملتصقاً بالحيوان الذى يقفز على الفور فى المياه العميقة بالضحية التعسة. وفى إسكوتلندا حكاية عن حصان جميل توقف أمام مبنى مدرسة أثناء الفسحة. ركب الأطفال جميعاً الحصان الذى كان يقف فى وداعة إلا طفلاً واحداً. تباطأ الطفل فى الركوب. فقد وقف شعر رأسه ومع ذلك عاد ولمس جلد الكلبى بإصبعه بدلاً من أن يمتطيه. وعلى الفور التصق بالحصان الذى جرى بهم ناحية البحيرة. وحين أدرك بوجلاس Douglas الصغير محنته قطع إصبعه فى الحال كي ينقذ نفسه، ولكن أصدقاءه جميعاً أغرقوا (٢٢).

وتأتى قصة شديدة الشبه من ميريلاند. إذ يروون هناك أن الكلبى حصان أحمر يخرج من البحر ويكون وبوداً جداً. فإذا امتطاه أحد غاص به فى البحر، حيث يمكن أن يعيش ولكنه لا يعود. وقد رأى صبى الكلبى نون أن يعرف كنهه ومسح على رأسه بيده وعلى الفور التصق بالحيوان ووجد نفسه محمولاً بسرعة فى اتجاه البحر. وبسرعة البرق أخرج سكيناً وقطع يده. وإن لم يكن قد فعل ذلك بالسرعة الواجبة، إذ قفز الحصان فى الماء تاركاً إياه على الحافة تماماً (٢٣).

وتخبرنا حكاية أخرى من إسكوتلندا عن الكلبى الذى جاء إلى منزل إحدى الفتيات متتكرراً فى هيئة رجل كى يراقبها وهى تغزل. علم والدها بأمر الزائر الليلى وتكرر فى هيئة ابنته. وحين وصل الكلبى ألقى الأب الماء المغلى على قدم الزائر المفترض، وعلى الفور تحولت القدم إلى حافر. طلب الكلبى معرفة الذى أحرقه. قال الأب: "أنا الذى أحرقتك". اندفع الكلبى إلى خارج المنزل وانضم إلى زملائه فى الخارج ورجاهم أن ينتقموا له. وسألوا بدورهم عن الذى فعلها، فقال الحصان: "أنا الذى فعلتها". ومن هنا استنتجوا أنه هو الذى أراق الماء المغلى على نفسه وعادت المجموعة كلها إلى البحيرة ولم تعد مرة أخرى (٢٤).

وفى لوخ بوسديل Loch Boisdale سجلت حديثين لهما طابع أكثر تعقيداً. وقد رويت هاتين الحكايتين عن each uisage (التسمية الغيلية للكلبى).

من المفترض أن هناك وحشاً مخيفاً جداً يعيش فى أنهار أو بحيرات جبلية بعينها، أو فى البحر فى بعض الأماكن، ويمكن أن يتخذ هيئة البشر ويصبح شاباً وسيماً جداً، وتكون عينه على السيدات كذلك. وهناك العديد من الحكايات التى رويت عنه. ومن الواضح أنه فى صورته الوحشية وهذه إحدى حكاياته. فقد التقى بفتاة جميلة على مقربة من الشاطئ ووقع فى غرامها، ولكنه عرف أنها إذا رأت فى يوم من الأيام أنه حصان ماء فلن تهتم به. ولذلك غير نفسه إلى شاب وسيم أشد ما تكون الوسامة وكان يلتقيان هناك كثيراً. خطبها للزواج، وبينما كانا جالسين فى يوم من الأيام على مكان مرتفع عن البحر يتحدثان مع بعضهما - وكانت الشمس ترسل أشعتها الدافئة - شعر بالنعاس. راح فى النوم ورأسه فى حجر الفتاة. كانت تمسح على شعره وتفكر فى مقدار ما هى فيه من سعادة - كل ما أتى لها به من سعادة - وشعرت بشيء خشن ونظرت لأسفل لتجد رملأ فى رأسه، بل لاحظت أن شعره أصبح أعشاباً بحرية وطحلباً بحرياً [kelp] ونظرت لأسفل فوجدت أن قدميه صارتا حافرين، وأبركت على الفور ما هو. وبرفق أبعدت رأسه وفرت. وكانت تلك آخر مرة يراها فيها.

وهناك حكاية أخرى عن هذه المرأة، وهى من تلك النوع من الحكايات الذى تكون فيها زوجة الأب ابنة زوج جميلة. ولم تكن ابنتها قبيحة المنظر بحيث تعاف النظر

إليها، بل كانت على قدر كبير من قسوة القلب والمزاجية. لم يكن فيها أى شيء. وقد خطبها شاب ثرى كانت تظن أنه شديد الصرامة والقسوة، ولم يكن بيدها شيء - واستهانته به - كانت تعرف أنها امتلكتها وكانت تغازل كل الرجال الآخرين فى المنطقة. وكانت الابنة الأخرى جميلة جداً كذلك. ولكنها كانت أكثر تواضعاً، وتعاوناً، وبالطبع كانت تقوم بكل العمل الصعب، لأنها ابنة الزوج وليست ابنة الأم. وكانوا يرسلونها لتصطاد السمك لتطعم الأسرة. وكانوا يرسلونها لثلب البقر، ولترعى البقر، ولتفعل كل ما لن يفعله غيرها. وفى يوم من الأيام كانت جالسة تصطاد السمك، ولم يكن حظها موفقاً ولكنها لم تجرؤ على العودة. كانت تخاف العودة لأن زوجة أبيها تضربها بالسوط وترسلها لتأتى بالطعام من مكان آخر. لم تكن تعرف أين تذهب. كانت لا تزال تصطاد هناك وكان الكلبى، حصان الماء الذى وقع فى غرامها، يراقبها منذ عدة أيام. ورأى كيف أن لها قلباً من ذهب، وكم كانت فتاة جميلة فى كل شيء. وفى يوم من الأيام ظهر لها فى هيئة بشرية وتحدث معها، ولم تتبع بكل شجونها ولكنها انتهت إلى أنها لا تحيا حياة سعيدة جداً؛ ذلك أن الأمور لم تكن جيدة جداً بالنسبة لها. وقال هو: "لم تقومين بالصيد هنا؟" فقالت: "لا بد أن أصطاد طعاماً للأسرة." وحينئذ قال: "أعطينى الخيط وسوف أصطاد." وبالطبع أخذ يخرج السمكة تلو الأخرى. ورأت هى أن هذا أمر يدعو للدهشة. وحين رأت زوجة أبيها ما جاءت به أرسلتها فى اليوم التالى مباشرة كي تصطاد مرة أخرى، وظهر لها من جديد واصطاد لها السمك مرة أخرى. فى هذه المرة وقعت فى غرامه هى الأخرى. لم تكن تدرى قط أنه كلبى، ولكنه كان فى هذه الصورة الخارقة يدرى بكل ما يجرى فى القرى المحيطة ويعرف التعاسة التى تسببها أختها الفتاة - التى هى ابنة زوج أمها - ولذلك رأى أنه إذا لم يكن هناك شيء آخر يفعله فمن المؤكد أنه سوف يجعلها سعيدة بطريقة ما. وحدث أن تلك الفتاة اكتشفت أنه حصان ماء وبالطبع لم تأت مرة أخرى. وكانت زوجة أبيها تضربها بالسوط وترسلها لصيد السمك ولكنها كانت ترفض الذهاب بالطبع وأخبرت زوجة أبيها بما حدث وساعتها قرر أن يجعلها سعيدة بالطريقة الوحيدة التى يستطيعها. وكان هناك حفل رقص كبير فى القرية وكان يعرف أن ابنة زوجة الأب سوف تذهب وأنها تهتم بأكثر الشباب وسامة فى الجمع؛ وكان الرجل الذى

ترى أنه الصيد الأكثر احتمالاً هو ذلك الذي يرتدى أغلى عباءة أو يحمل أجمل سيف، أو أى شيء كهذا. قال لمستشاريه: "يجب أن تستعدوا لأننى ذاهب إلى العالم الآخر، وقبل أن يتقضى الليل سنعود ومغنا إنسى." وأبلغهم بكل شيء عن الفتاة ولم يقل لهم الكثير عن الأخت الأخرى التى أحبها. ولكنهم جمعوا الحلى المرصعة بالياقوت وكان حزامه مرصعاً بالماس والزمرد. وكانت لديه عباءة قرمزية طويلة موشاة بالفضة ووضع إكليلاً من الذهب على رأسه. وفى النهاية وضعوه فى عربة تجرها أربعة خيول بيضاء وأسرعوا به إلى سطح البحر وخرجوا إلى البر فى مكان ليس فيه أحد وذهبوا إلى حفل الرقص. كان الشاب الذى كان جاهد فى خطبة ود ابنة زوجة الأب يراقصها وأخذ يظن أنه كسب قلبها أخيراً حين دخل ذلك الغريب الطويل شديد الوسامة نو الملابس الثمينة. وبالطبع لم تكن ترغب فى غيره بعد ذلك. ورقص معها وامتدحها وخطب ودها وكانت نهاية ذلك أن سار بها إلى الشاطئ وقد سحرها بحيث لم تعرف ما حدث لها إلا بعد فوات الأوان حيث نزل بها إلى ما تحت سطح البحر. وكانت تلك آخر مرة يراها فيها الناس. فلم يرها أحد بعد ذلك.

جرى تعديل ماثور الكلبى ليصبح ميثولوجيا مسيحية كشأن الكثير من المعتقدات الوثنية الأخرى. ومن المحتمل أن ما يضمه من سوء للبشر، وارتباطه بالنار، وحافره، وحقيقة أنه باستمرار رجل قد دفع المسيحيين الأوائل إلى ربطه بالشيطان. وهو باعتباره الشيطان لا يزال موجوداً فى قصيدة غنائية قديمة ما زالت شائعة فى أمريكا فى الوقت الراهن وتحكى كيف أن جيمس هاريس James Harris عاد من رحلة بحرية إلى بلاد أجنبية واقنع حبيبته المخلصة بالخروج معه إلى البحر. وما إن ابتعدا قليلاً عن الشاطئ حتى رأت حافره (*) وساعتها كان الوقت قد فات. وبعد أن اتخذ هيئته الوحشية

ضرب الدقل الأعلى بيده
والصارى الرئيسى بركبته

(*) تروى فى مصر، فى الريف أو المدينة، حكايات عن أشخاص غريباء يلتقى بهم الشخص أثناء سيره ويظل يتكلم معهم ، ثم ينظر مصادفة إلى قدميه ليجد أنهما حافران فيعرف على الفور أنه عفريت وليس إنسياً.
(المترجم)

وأحدث ثقباً في قاع السفينة

وغرقا إلى قاع البحر (٢٥).

ليس الكلبى منكوراً في أغنية مسيحية وحسب، بل إنه أصبح في وقت مبكر مرتبطاً بالكنيسة في كل من الحكايات والفن، كما يمكن رؤيته في منحوتات الكنيسة التي ما تزال موجودة حتى الآن. ويُعتقد أنه في مناسبة واحدة على الأقل أتى الكلبى بالأحجار لبناء كنيسة فوق إحدى البحيرات. ولم يخبرنا أحد إن كان قد فعل ذلك في هيئته الوحشية أم وهو في صورة إنسان. إلا أن الكنيسة سرعان ما أصبحت مسكونة وهجرها الناس. (٢٦)

وبينما يُنظر إلى حصان الماء على أنه يضمر الحقد والشر، فإن ثور الماء ليس كذلك. فالواقع أنه في بعض الحالات يحمي الناس من المشاكل، وهو ما يوضحه كامبل بحكاية من جزيرة إيليه Islay بجزر هيبيريديز.

وُلد على تلك الجزيرة ثور غريب في حجمه غريب وشكله عرفت ساحرة عجوز أنه من نسل ثور الماء، وأمرت بحبسه في إحدى الحظائر وإطعامه الحليب لمدة سبعة أعوام. عندما أوشكت الأعوام السبعة على الانتهاء، التقت فتاة من الجزيرة بغريب طلب منها أن تمشط له شعره. مشطت له الفتاة شعره وأرعبها اكتشاف أن فروة رأسه مغطاة بالأعشاب البحرية الخضراء. استمرت في تمشيطه حتى نام، وبعد ذلك فرت إلى المنزل. وحين نظرت وراعاها رأت حصاناً يتبعها.

في تلك الأثناء كانت الحيزبون تراقب ما يجري وأطلقت الثور الضخم الذي انقض على الحصان. تقاتل الاثنان بشراسة إلى أن ألقى الثور بالكلبي في البحر، حيث استمر القتال. وفي اليوم التالي ألقى الأمواج بالثور على الشاطئ وجسمه دامياً ومشوهاً، غير أن الكلبى لم يره أحد قط بعد ذلك (٢٧).

وليس حصان الماء مجهولاً في أيرلندا، ولكن يبدو أنه يقصر غاراته إلى حد كبير على البحيرات والأنهار (٢٨). وكثيراً ما يشاركه في أنشطته ثور الماء وبقرة بيضاء جميلة ذات دلالات ميثولوجية وسحرية خفية. وقد رويت حكايات عديدة عن هذه البقرة في

الفصل الثانى. ويقول الصيادون فى جزيرة تورى Tory إن هذه البقرة البيضاء كانت تسكن دائماً بحيرة على الجزيرة، وإنها لا تزال هناك، بل إنها تظهر كل مائة عام.

فى بعض الأحيان يشعر المرء بالفزع من الرد على سؤال برىء. ففى فانيز هو بخليج ملروى فى أيرلندا سألت عائلة ماكبرايد " the MacBrides هل سمعتم فى يوم من الأيام عن شىء اسمه حصان البحر؟"

"نعم سمعنا."

"هل يفعل حصان البحر هذا شيئاً؟"

"نعم، سمعت عنه. إن له أجنحة كبيرة، ولونه أزرق، أزرق. وهو يفرق سفينة. وعليه جناحان كبيران، نعم، وبعض الناس تخاف منه. إنه خطير. ويخاف منه بحارة القوارب الصغيرة. وهو يخرج إلى الخليج ويقلب القارب. وهى بالملئات هناك. وهذا هو كل ما أعرفه عنه. لم أستطع أن أحكى لك عن حصان البحر. من الأفضل أن أحكى لك عن التمساح."

فى مكان بعيد إلى الشمال فى إسكوتلندا لا يزال الناس يذكرون "رجال قناة مينش Minch الزرق"، وهى مخلوقات تسكن المنطقة المحيطة بجزر شيانت Shiant Is- lands، إلا أن الذكرى غير واضحة الآن. وحين سألت عن الرجال الزرق جاعنى هذا الرد:

"لأبد أنك تقصد 'رجال قناة مينش الزرق'. نعم سمعت عنهم. يقولون إن بإمكانهم إثارة العواصف الضخمة، غير أنى لا أعرف الكثير عنهم فى الواقع." وكانوا فى بداية القرن العشرين تراثاً حياً. وقد رآهم الناس فى سكاي Skye، وفى تلك الفترة كانت هناك حكاية شائعة عنهم:

كانت إحدى السفن تبحر بين جزيرة ليويس والجزر المسحورة Na h-Eileinean siant فى القناة التى تسمى نهر الرجال الزرق Struth nam Fear Gorm حين رأوا رجلاً أزرق نائماً فى البحر. انتشلوه وربطوا رجليه فى يديه بشدة لكى لا يتحرك. وقبل أن تخرج السفينة من نهر الرجال الزرق تبعها رجلان آخران من

الرجال الزرق. قال أحدهما: "سيكون هناك Duncan واحداً". ورد الآخر: "سيكون فاركوهار Farquahar الثاني". وهنا هب الأسير واقفاً وقطع قيوده وغطس في الماء وسبح بعيداً مع صديقيه.^(٢٩)

كان الرجال الزرق منذ سنوات يوصفون وصفاً أدق وكانت أنشطتهم أشد خطراً. وكان يقال إنهم مجنحون وأجسامهم مدهونة باللون الأزرق ويحبون الغناء. ولكن يبدو أن هذه هي الصفة السارة الوحيدة لديهم. فقد كانوا يهاجمون السفن التي تمر من عند جزر شيانت، وكانوا يصعدون على متنها بأعداد كبيرة ويطالبون بالإتاوة. وإن لم يحصلوا عليها كانوا يحدثون عواصف رهيبة يمكن أن تغلب على أقوى سفينة. وكانت إحدى طرق الهروب منهم أن يغنى المرء أغنية أفضل من أغنياتهم، أما الطريقة الأخرى فكانت دفع عشر المال ذهباً. وكان قائدهم يسمى شوني Shony في القرن السابع عشر، ويقول مارتن مارتن Martin Martin إن السكان المحليين في هالوتايد Hallow-tide كانوا يصبون كأساً من الجعة الجديدة في البحر ترضية لهذا الإله الذي كان حينذاك يُحضّر لهم أعشاب البحر لتسميد حقولهم. وبعد الإراقة كانوا يطفئون شمعة أضيئت خصيصاً لهذه المناسبة.^(٣٠)

يعتقد بعض الباحثين أن الرجال الزرق يجسدون ذكرى شعبية خاصة بالمغاربة الذين كان أهل الشمال يمسكون بهم ويجلبونهم إلى المنطقة. ويعتقد آخرون أنها ذكرى من القرن السادس أو السابع، حين كانت الجزر مأوى للرهبان نوى الأردية الزرقاء^(٣١). ومن أجل التنويع، يعتقد الناس الموجودون على جزيرة سكاي أنهم بعض الملائكة الفاسدين^(٣٢). أما الاحتمال الرابع، وهو الاحتمال الذي يبدو أن له وزناً أثقل من الثلاثة الآخرين، فهو أن هذه ذكرى أثرية للبكتيين القدماء. وقد حل محل هؤلاء الرجال الصغار الغزو الكلتى للجزر البريطانية فيما بعد منذ قرون مضت، إلا أننا نعرف الكثير عنهم. فقد كانوا يطلون أجسامهم باللون الأزرق ويعيشون تحت الأرض، ولا بد أنهم كانوا بحارة ممتازين، ذلك أن بقايا ثقافتهم موجودة في جزر بعيدة مثل سانت كيلدا St. Kilda^(٣٣). وربما أخذ عنهم الكلتيون بعض معتقداتهم. ومن اللافت للانتباه ملاحظة أنهم حين أقاموا في الجزر كان جزء كبير من طعامهم يتكون من لحم

الفقمة. وبما أن جزر شيانت صالحة للسكنى، فهناك احتمال كبير أن يكون الأفراد الباقون من هذه الجماعة الغريبة (الذين يعتقد بعض الناس أنهم أوجدوا الإيمان بالجنيات) واصلوا العيش فى تلك البقاع النائية التى يصعب الوصول إليها زمناً طويلاً بعد أن اختفوا من الجزر الكبرى. وهنا، ويسبب صفاتهم المائية، أصبحوا متداخلين فى تراث عروس البحر وغُرَاق الماء وحصان الماء والكلبى^(٢٤).

بما أننا اقترحنا بعض الأصول المحتملة لحكايات عروس البحر، قد يكون من المفيد كذلك أن نسجل القليل منها لبيان التنوع الذى نقابله.

كانت تلك المعتقدات لا تزال شائعة شيوعاً كبيراً فى القرن التاسع عشر. وقد كانت من الشيوخ بحيث حقق اليابانيون مكاسب كبيرة من بيع عرائس البحر المحنطة - حيث كان الجزء الأعلى من أحد القروء الذى خيط فى الجزء الأسفل من إحدى السمكات - فى أوروبا. إلا أن هذا الشيوخ ضعف، وهو لا يزال يحظى بقدر من المصداقية فى المناطق النائية من العالم الناطق بالإنجليزية وحسب.

وفى ذاكرة الأحياء اتجهت سفينة من الساحل الغربى إلى الساحل الشرقى من إسكوتلندا لصيد الرنجة. وذات صباح كانت السفينة تجرى أمام الريح بقليل من الأشرعة وعليها حمولة كبيرة من الأسماك. وفجأة ظهرت عروس بحر فى أعقابهم وتبعتهم. ألقى البحارة الواحد تلو الآخر أسماك الرنجة إليها، ولكن عروس البحر تجاهلتهم إلى أن ألقى شاب بسمكة إليها، ففاصت ولم تظهر من جديد. رست السفينة فى الميناء، وأبلغ القبطان الفتى ألا يخرج إلى البحر مرة أخرى، إذا كانت لحياته قيمة عنده. عمل الفتى بالنصيحة وبقي على البر لمدة عام. وفى يوم من الأيام كان رجل يبحث عن طاقم لتشغيل سفينة صغيرة اشتراها. أدرج الفتى اسمه ضمن القائمة وغادرت السفينة الميناء فى يوم صاف مشمس. وما إن غاب البر عن أنظارهم حتى هبت العاصفة وغرقت السفينة بالطاقم الذى عليها!^(٢٥).

الواقع أن هذه نسخة مخففة بعض الشيء من حكاية شائعة. فالمعتاد أنه حين تشاهد عروس البحر فى البحر يراقب أفراد الطاقم حركاتها باهتمام؛ فإذا تبعت السفينة أو نظرت إليها، كان ذلك نذيراً بحدوث كارثة، أما إذا استدارت أو نظرت بعيداً

عن السفينة، فإنهم ينظرون إلى هذه العلامة على أنها تبشر بالخير وأن الرحلة سعيدة الحظ. وفي بعض الأحيان كذلك كان يحدث حين تتبع عروس البحر السفينة أن يلقى أفراد الطاقم سكيناً من فوق السفينة، فإذا غاصت يكون معنى هذا أن السفينة سوف تنجو من الدمار. والفكرة هنا بطبيعة الحال هي أن الحديد البارد يبعد الأرواح الشريرة بعيداً، وبما أن البحارة عادة ما كانوا يحملون مديّة ذات غمد، فقد كان الحديد يكون على هيئة الصليب. وفي حال عدم نجاح ذلك يكون إبعاد عروس البحر بإلقاء قطع النقود الفضية (٣٦).

أخبرني القبطان "بوب" روبرتس "Bob" Roberts أن بلدة أورفورد Orford في إنجلترا كان بها في يوم من الأيام ميناء ممتاز ولكنه الآن ميناء سيئ، حيث ملأه الطمي الذي تراكم ليشكل حاجزاً عند مدخله. ويشير التراث المحلي إلى أن ذلك حدث لأن إحدى عرائس البحر عوملت معاملة سيئة فسدت الميناء انتقاماً لذلك. وطبقاً لما جاء في عمل قديم، فقد أمسك الناس بغرائق ماء هناك في القرن الثاني عشر، حيث لقي الكثير من الإهانة والتعذيب وانتهى به الحال بالإهمال، وأخيراً نجح في الهرب إلى البحر (٣٧). وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن حدثاً مشابهاً وقع في كورنول Cornwall حيث سدت عروس البحر الميناء في سيتون Seaton. (٣٨)

وفي كورنول خنقت الرمال ميناء باستو Badstow الذي لولا ذلك لكان ميناء ممتازاً. كان الميناء في يوم من الأيام تحت حماية إحدى عرائس البحر وكان صافياً ونظيفاً وعميقاً، إلى أن أطلق في يوم من الأيام أحد صيادي الطيور النار عليها، إما من باب اللهو أو الضغينة. أخطأتها الطلقة ولكن عروس البحر المرحّة غضبت غضباً شديداً. وأقسمت وهي ترفع يدها اليمنى أن تخنق الميناء، ثم اختفت (٣٩).

ومنذ عدة سنوات مضت أبحرت مع رجل لم يكن يخاف الماء. وقد اتضح أنه من أهل جزيرة مان Manxman، وكان هناك اعتقاد على تلك الجزيرة يبدو أنه لا يزال موجوداً، وهو أن أهل الجزيرة ينحدرون من تزاوج بين إنسى وعروس بحر. وقد باركت عروس البحر الذرية بأن جعلتها محصنة من الغرق.

فى مرة من المرات قىل إن عرائس البحر تحىط بالجزيرة وسوف تحدث مشاكل كثيرة. حاولت إحداها خنق راع، وحمّلت أخريات بحارة إلى مساكنهن تحت الماء، وأحدثت إزعاجاً بصورة عامة. وأخيراً جاء فارس فهاجمها وطاردها. وحين بدا أنها ربما تكون قد وقعت فى الأسر هربت واحدة منها بعد أن حاولت نفسها إلى عصفور السُكسُكة^(*)، ومنذ ذلك الحين، وفى أول أيام السنة الجديدة، يبحث الناس على جزيرة مان عن عصافير السُكسُكة ويقتلونّها؛ ذلك أنهم يعتقدون أن عرائس البحر جميعها تحول نفسها إلى هذه الصورة فى هذا اليوم^(٤٠). وربما انتقلت نكرى هذه الحكاية إلى أمريكا الشمالية، ذلك أنه يُقال فى خليج تشيسابيك إن عصفور السُكسُكة^(*) الجنى ينبئ بالعواصف^(٤١).

حين كان يساء إلى عروس البحر لم تكن يرضيها ملء الميناء بالرمل وحسب، بل كانت تحاول فى العادة توقيع العقاب الذى يتناسب مع الجريمة. ففي إسكوتلندا مثلاً أغوى شاب عروس بحر عند مدخل كهف بحرى ثم نسى كل شىء على الفور، إلا أنها أغوته بالعودة إلى الكهف وربطته داخله بسلسلة من الذهب.

وبالقرب من لاندز إند Land's End هناك حكاية تتصل بهذه الحكاية، وهى أنه فى يوم من الأيام كانت هناك امرأة تحمم طفلها فى بركة عميقة. وفى يوم من الأيام أبدلت عرائس البحر الطفل بطفل من أطفالها، ونما الطفل البديل وأصبح فتاة جميلة. ولكن الناس عرفوا أنها من سكان البحر، ليس فقط لأنها كانت تشعر بضيق شديد عند الذهاب إلى الكنيسة أو حتى عند المرور بجوارها، بل بسبب قدرتها الملحوظة على السباحة فى الموج العالى.

كان هناك مزارع يعيش فى مكان قريب لا يحب والدى الفتاة، ولكى ينتقم منهما أقنع جندياً شاباً باغتصابها. وفعل الشاب ذلك، وأخذ جسم الفتاة فى التحول وماتت فى النهاية وهى تلد حين كان المد يتحول إلى جزر.

(*) أصفر العصافير حجماً وهو طائر صداح ويتغذى على الحشرات. (المترجم)

وبعد ذلك بوقت قصير وقع المزارع الذى قام بدور القواد فى مشاكل. لم تثمر المحاصيل، ونفقت الماشية، وشبت النار فى القش وعيدان النرة، ووضعت الأبقار عجولها قبل الأوان، وأصاب الخيول العرج أو تعثرت وأصيبت ركبها. وأخيراً طُرد المزارع من الأرض التى كان يستأجرها وأصبح سكيراً.

وفى الذكرى السنوية لوفاة الفتاة وجد من أغواها نفسه على الشاطئ حيث كان يسبح. سمع الشاب موسيقى جميلة، وحين بحث عن مصدرها وجد نفسه وجهاً لوجه أمام عروس بحر أمسكت به وشلت حركته بقبلة. ارتفع المد وصاحبته عاصفة. حملت موجة الشاب بعيداً للأبد، وفى الوقت نفسه ضربت المزارع صاعقة وأحرقتة حتى تبيس تماماً (٤٢).

منذ القرون الوسطى وحتى القرن التاسع عشر كانت هناك حكاية شائعة فى إسكتلندا وإسكوتلندا وأيرلندا عن عروس بحر صادقت صياداً. وهى تسمى أحياناً حكاية الفتى الرمادى. the Gray Lad.

فى يوم من الأيام كان ذلك الصياد العجوز الفقير الذى لا أطفال له يصطاد السمك ولم يكن موفقاً فى صيده، وظهرت بجوار القارب عروس بحر وعرضت أن تجعله غنياً إن هو وعدها أن يعطيها أول مواليده بعد ثلاث سنوات من ذلك الوقت. وبما أن الرجل لم يكن لديه أطفال وافق وأعطته عروس البحر ثلاثة حبات ذرة لزوجته وكلبته وفرسه، وثلاث آخر للزراعة. ونتيجة لحبوب الإخصاب هذه أنجب زوجته ثلاثة توائم، وفرسه ثلاثة أمهار، وكلبته ثلاثة جراء، ونبتت ثلاث شجرات فى فناء المنزل الخلفى.

مرت ثلاث سنوات وتحسنت أحوال الصياد، ولكنه لم يقو على التخلي عن أكبر أبنائه. مدت عروس البحر المهلة إلى أربع سنوات آخر، ولما لم يخرج الطفل، مدت إلى سبع سنوات آخر. وقبل الموعد النهائى حكى الرجل العجوز مشكلته للصبي، وخرج الشاب - الفتى الرمادى - فى رحلة على ظهر أحد الأمهار يتبعه أحد الكلاب. وفى طريقه صادق كلباً وصقراً وثعلب ماء أخبروه أنه إذا احتاج إليهم فسوف يأتون لمساعدته. وأخيراً وصل إلى مملكة لطيفة وحصل على عمل راعياً للبقر. ومما يؤسف له أنه كان هناك وحش نو ثلاثة رؤس فى المنطقة يأكل البقر، مما جعل القطيع صغير

العدد وغير منتج؛ إلا أن الفتى قتل الوحش بمساعدة كلبه واكتشف كنزاً كبيراً. سر الملك حين اكتشف ذلك واستمر الفتى يرعى الأبقار حتى ظهر وحش آخر فى يوم من الأيام يلحق الدمار بالبلاد. ولكى ينقذ الملك قطيعه أمر بإعطاء ابنته للوحش. تدخل الفتى الرمادى وقطع رؤوس الوحش الواحد بعد الآخر، وكان فى كل مرة يتقبل أمانة من الفتاة. وفيما بعد، حين حاول شخص ادعاء الانتصار على الوحش، أثبت الفتى أنه هو الذى قتله بعرضه الإمارات وتزوج الفتاة.

عقب ذلك ابتلعه وحش بحرى (عروس بحر فى بعض النسخ). غنت الفتاة وظهر الوحش على سطح الماء واستبدل الكنوز بالفتى، وبعد ذلك هم بابتلاع الفتاة. ولكى يقتل الفتى الوحش كان عليه الذهاب إلى إحدى الجزر واصطياد غزالة بيضاء داخلها طائر، وداخل الطائر سمكة تروثة^(*) فى فمها بيضة. أمسك الكلب الذى صابقه بالغزالة، وأمسك الصقر بالطائر، وأمسك ثعلب الماء بالتروثة. استخرج الفتى البيضة وسحقها، وبذلك قتل الوحش.

بعد قليل ضربت ساحرة الفتى على رأسه. وحين عاد إلى البيت بدأت شجرته تذبل، وتبعه شقيقه. ولكن شقيقه ضربته الساحرة كذلك، وذبلت الشجرة الثانية. وحين شاهد الأخ الثالث ما حل بالشجرتين جاء لإنقاذهما، ووجد الساحرة وقتلها واستعاد شقيقه^(٤٣).

هذه الحكاية بطبيعة الحال نسخة بحرية من حكاية "الشقيقان"، وهى من أقدم الحكايات الشعبية وأكثرها شيوعاً. وقد جمع المؤلف نسخاً تكاد تكون متطابقة، بدون عروس البحر، من هنود الموهوك منذ سنوات عديدة^(٤٤).

فى الوقت الراهن ليس من السهل الحصول على حكايات عروس البحر فى الجزر البريطانية. لقد سمع بها أناس كثيرون، غير أن قليلين هم من يميلون للتحدث عنها. إلا أن الوضع كان مختلفاً فى فانيز هول بخليج ملروى:

"هل سمعت يوماً عن شيء اسمه الفتاة المرحة يا مسز ماكبرايد؟"

(*) سمكة من أسماك المياه العذبة. (المترجم)

نعم، كان يوجد رجل هنا متزوج من عروس بحر.

فعلًا!

نعم. ربما كان ذلك أيام جدى الأكبر أو قبل ذلك؛ ولكنى سمعت ذلك عندما كنت فتاة صغيرة وكانت تخرج دائماً لصيد السمك على الصخور. وكانت تستحم كذلك. تستحم؛ وكان هو صياد سمك طيب.

مستر ماكبرايد: كان هناك خور وكانت هناك فتاة مرحة كذلك فى الخور.

مسز ماكبرايد: ولكنه خرج للصيد. كان هناك شيء فى شبكة كان يضعنها على الرأس وإذا استطعت الاستيلاء على هذه الشبكة، واخذ بالك، يمكنك أخذهن، يمكنك أخذهن. ولكنه جاء يوم كانت تجلس فيه - كانت تمشط شعرها على الصخور وراها. قفز فى الماء وأخذ الشبكة من عليها، ثم قفزت فى البحر، وذهب إليها وأخذ الشبكة، أو أياً ما كان الذى أخذه. وقبل أن تدخل عاد لها ذيلها - فهى نصف امرأة ونصف سمكة، وكانت تسير بذيلها وناداهما وأخذها إلى البيت واحتجزها هناك يومين - وكان دائماً يحتفظ تحت كومة الخث - كانت لديهم نباتات متحللة - وكان دائماً يخبئ هذه الشبكة، أو أياً ما كانت، لكى لا يمكنها الذهاب إلى أى مكان. قام الولد الصغير، حين ذهب الأب إلى السوق أو إلى مكان ما - وكان الولد الصغير محباً للاستطلاع حتى أنها استطاعت أن تتحدث معه بطريقة ما - لا أعرف إن كانت تعرف الكلام أم لا، ولكنه فهم الأم على أية حال وهى فهمته. وأخذها إلى كومة النباتات المتحللة حيث أخفى الأب الشبكة - فأخذتها ورحلت، ولم يروها مرة ثانية.

جيه سى: وتركت الطفل كذلك؟

مستر ماكبرايد: كان لابد أن تذهب. اضطرت للذهاب. كان هناك شيء فى تلك الشبكة.

مسز ماكبرايد: نعم، نعم، سمعت كثيراً - نعم - كان لى عم، هو ميت الآن، وسمعتة يقول فى ديوى - ودعك من ديوى إذا كنت تعرف أين ديوى - هناك عمه لى وبرج بجوار المنزل الآن - فى أسفل منزل فى ديوى على اللسان. على أية حال رآها عمى هذا ورجل آخر جالسة تمشط شعرها - نعم.

إتش بى: "أود رؤية ذلك."

مسز ماكبرايد: وكذلك أنا. كانت هناك جنيات وكل شيء فى هذا البلد. نعم، ولكنى لا أعرف. لقد اختفت^(٤٥).

مما يؤسف له أن تراث عروس البحر والجنية وحضان الماء تدهور فى أمريكا الشمالية أكثر مما فى أيرلندا. ومن الصعب معرفة السبب الذى وراء ذلك، إذ كان هناك إيمان شديد بهذه الكائنات بين الهنود الأمريكيين من مين حتى فلوريدا وحتى الساحل الشمالى الغربى للمحيط الهادئ. وحيثما كان المناخ قد أعد لنوع معين من الحكايات، كانت الحكايات المروية تزدهر. ويعتقد أفراد عائلة نيبتون، وهم زعماء بالوراثة لبينبسكوت Penobscot فى ولاية مين، أنهم ينحدرون من نصف إنسان ونصف سمكة كان يعيش فى حفرة تحت إنديان آيلاند وكان يتنبأ بوقوع أى خطر للقبيلة. وكان ذلك المخلوق يُغرق من يسقطون فى الماء ويسد عيونهم وأذانهم وأفواههم بالطين. وآخر مرة شوهد فيها كان قبل انتشار الكوليرا فى عام ١٩٤٩^(٤٦) واسمه هو هابودامجن Hap-odamguen.^(٤٧)

فى عام ١٦١٠ رسا القبطان ويتبورن Whitbourne فى سانت جونز فى نيوفاوندلاند حيث اقترب منه مخلوق غريب يسبح فى اتجاهه "ينظر بمرح كما لو كان امرأة، من حيث الوجه والعينين والأنف والفم والأنثين والرقبة والجبهة". وحين تراجع القبطان الطيب فزعاً إلى حد ما، دار وحاول القفز فى قارب ويليام هوكريدج William Hawkridge ولكنه تلقى ضربة مؤلة على رأسه. وكما قال القبطان ويتبورن، "أترك للآخرين الحكم إن كانت عروس بحر أو لا"^(٤٨).

وفى القرن نفسه التقى جون سميث بعروس بحر جميلة فى جزر الهند الغربية، حيث سبق أن رآها كريستوفر كولمبس. وبينما لم يدهش جمالها كولمبس (وربما كان ما رآه فى الواقع فظاً أو فقمة)، فقد وجد القبطان جون المرأة شديدة الجاذبية. كانت لها "عينان واسعتان مستديرتان بعض الشيء"، وأنف دقيق قصير بعض الشيء، وأننان صغيرتان أحسن تشكيلهما طويلتان بعض الشيء، وكان شعرها الأخضر الطويل

يضيف عليها طابعاً أصيلاً... وقد أصابه الفزع حين أمعن النظر فيها ليكتشف أن هذا الجمال من الوسط لأسفل "يأخذ شكل السمكة" (٤٩).

سبق أن ذكرنا تجربة مستر ميتر مع غُرانق الماء في خليج كاسكو. وبعد فترة ليست بالطويلة بعد ذلك التقى القبطان رولو Rouleau ومعه ثلاث سفن فرنسية بغُرانق ماء قبالة نونافسكوشا، حيث حاولوا الإمساك به بالحبال وفشلوا. "كان يمشط شعره الذي تكسوه الطحالب ويبعده عن عينيّه، وكان يبدو أنه يغطى جسمه كذلك؛ وحسبما كان يبدو من فوق الماء، فقد كان أكثر في بعض المناطق وأقل في غيرها." وبعد أن اتضحت الرؤية أمامه غطس في الماء ولم يره أحد مرة أخرى، مما أحزن الصيادين إلى حد كبير (٥٠).

يبدو أن القرن الثامن عشر كان أكثر إنتاجية من القرن الذي سبقه في مناقشة عرائس البحر في أمريكا الشمالية. وفي القرن التاسع عشر يقول باسيت Bassett إن حكايات عرائس البحر لم تكن جميعها غير شائعة في الولايات المتحدة. وهو يسجل حكاية جمعت من امرأة زنجية قالت إن عرائس البحر أنقذتها، وأخذتها إلى قصر تحت الماء وبعد ذلك وضعتها على متن سفينة. وتروي حكاية أخرى أن عروس بحر صعدت سفينة صيد أمريكية وجرحت يدها. وقد غاصت وهي تتنهد ولم يرها أحد بعد ذلك. (٥١)

ورويت حكاية أكثر إثارة إلى حد ما في مين. فقد قال القبطان كيتريدج Kittridge لهارييت بيتشر ستو: Harriet Beecher Stowe:

ذات مرة كنت في جزر البهاما - كان صباح يوم أحد في شهر يونيو، الأحد الأول من الشهر - ألقينا المرساة على مقربة من شعب مرجاني، وكنت أوشك على الجلوس للقراءة في كتابي المقدس حين صعد غُرانق ماء فوق جانب السفينة، وكان يرتدي ملابس فاخرة كأي غنود رأيت في حياتك، وكان يلبس قبعة مريودة وجوارب من الحرير وحذاء به إبريزم، وكانت ملابسه خضراء تميل للزرقة وكان إبريزم حذائه يلمع كاللؤلؤ ... جاعني وانحنى أمامي انحناءة هي الأكثر تأنيباً وقال لي "أظنك القبطان كيتريدج" وقلت أنا "نعم يا سيدي." فقال "آسف لمقاطعة قراءتك." فرددت عليه قائلاً: "لا بأس يا سيدي." فقال "ولكن لو تتكرم فقط برفع

مرساتك. فقد ألقيت مرساتك أمام باب منزلي الأمامي، ولا تستطيع زوجتي وعائلي الخروج للذهاب للاجتماع" كان من الأدب بحيث أردت أن أعذر له. (ورفعت المرساة).^(٥٢)

قبل ذلك بسنوات، وفي كورنول، كانت هناك حكاية عن عروس بحر كانت تأتي الكنيسة من حين لآخر وكانت تستمع لغناء رئيس الكورال ماثيو تروها لا Mathew Tre-whalla. كانت تأتي العام إثر العام ولم يتغير مظهرها قط ولم يخفت صوتها الرائع قط. وفي النهاية أغرت رئيس الكورال بالانضمام إليها واختفيا في البحر ولم يرها أحد على الشاطئ مرة أخرى؛ وإن كان الناس يسمعون من حين لآخر يغنى في خور بنداور Pendower Cove. وبعد عدة سنوات من اختفائه ألقى قبطان مرساته في الخور. صعدت عروس بحر على السفينة وطلبت منه نقل المرساة لأنها تسد باب منزلها ولا يمكنها الدخول لرؤية أطفالها وزوجها ماثيو تروها لا^(٥٣).

بعض هذه الحوادث يستمر في البقاء أكثر من غيره، ومن المؤكد أن تجربة مستر ميتر واحدة من هذه الحوادث. فمنذ سنوات ليست بالبعيدة كان صياد سمك يصطاد بمفرده في قارب صغير قبالة ساحل نيوفاوندلاند. وعند الظهر توقف عن الصيد وبدأ تناول طعام الغداء، حين أدهشه وأزعجه أن يكتشف غرائق ماء يوشك أن يصعد فوق القارب. حاول إبعاده ولكنه لم ينجح في إخافته، فأمسك خطاف السمك وضربه على أصابع وبعدها أصبح له اهتمام حي بأشياء أخرى.

ولم يكن هذا غرائق الماء الوحيد في المنطقة، ذلك أنه في نفس الوقت تقريباً كان رجلان يصيدان في (خليج) كات أرم Cat Arm (Bay) حين رأيا مخلوقاً في الماء فأنطلقا النار عليه. وغرق أيا ما كان ذلك المخلوق، ولكن بعد وقت قصير ألفت الأمواج بغرائق ماء ميت ذي لحية سوداء وشعر أسود على الشاطئ بالقرب من هذا المكان^(٥٤).

وفي مرة أخرى حاصرت عاصفة عاتية رجلاً في قارب صغير. وحين أصبح الموقف أشد ما يكون حرجاً، ظهرت عروس بحر وصعدت فوق الحافة وقادت القارب بسلام في الأمواج حتى الشاطئ^(٥٥).

يرد ذكر عروس البحر وغرائق الماء مراراً في الأدب القديم ليس في نيوفاوندلاند وحسب، بل كذلك في جزيرة برنس إدوارد Prince Edward Island وكيب بريتون Cape

Breton ونوفا سكوشا، ومن حين لآخر لا يزال هناك من يقول إنه رآها. ويعتقد الناس أن ساحراً هندياً حول فتاة إلى عروس بحر في جزيرة برنس إدوارد (٥٦). وقد أخضعت عروس بحر بعد الاستيلاء على قوقعتها في نوفا سكوشا (٥٧).

في نفس هذه المنطقة العامة يبدو كذلك أن هناك تراثاً حياً خاصاً بالكبي، ولكن هذا المخلوق أصبح في الآونة الأخيرة يخلط بينه وبين الشيطان. وتكفي حدوتان. في أحدهما يظهر غريب وسيم حسب الملبس بالقرب من الساحل ويدخل حانة يلعب فيها الورق، ولكنهم سرعان ما يتعرفون عليه حين أسقط أحد اللاعبين الورق واكتشف أن خصمه له حافر مشقوق. ولو لم يكن هناك تركيز على الجمال الشخصي وحقيقة أن الحدث وقع على مقربة من منطقة مائية، لظننا أننا نتعامل مع حكاية من حكايات الشيطان (٥٨).

وتأتى حكاية أخرى من المصدر ذاته. وفي هذه الحالة رأى رجل حصاناً أبيض جميلاً يقف في الطريق. ولعجزه عن مقاومة الإغراء، امتطاه وسار به في الطريق. وفجأة حزن الحيوان وأخذ يعلو. ضربه الراكب بسوط، إلا أن الحصان الشيطاني أخذ يعلو في الهواء وأخيراً نجح الراكب بأقصى جهد منه في إلقاء نفسه على الأرض، حيث هبط بقوة وتكسرت عظامه (*) (٥٩).

قد يكون المعقل الكبير الأخير لسكان البحر هو جزر الهند الغربية، حيث ينتعشون بقوة اليوم انتعاشهم في العالم القديم، وإن اختلف الشكل إلى حد ما. فكل بحيرة وجدول وخور في الجزر تقريباً كان مسكناً لأحد تلك الكائنات خلال الأربعين سنة الماضية، حيث بدأت في العقد الأخير فقط في هجر بيوتها؛ حيث أبعدتها أدخنة البنزين (٦٠).

في مايو ١٩٧١ رأى رجل يعيش في جزر ويندورد Windward Islands حلمًا غريباً. فقد جاءت عروس بحر عارية، لأنها كانت تشعر بحر شديد بحيث لم يمكنها ارتداء ملابسها. قالت له عروس البحر إن أهل الجزيرة أساءوا معاملتها، وما لم يقتل

(*) نفس فكرة حمار الحكايات المصرية الذي يعلو. (المترجم).

شخص ما - وفي الحال - سوف يستمر القحط الذي تعاني منه الجزيرة وسوف تجعل البحر يغلى ويقتل السمك. استيقظ الرجل من نومه في ضيق وخوف شديدين وأخبر جيرانه بما رأى، وعلى الفور نظموا أضحية تتكون من طيور وشاة نجحوا ونثروا دماها. وأثناء تلك المراسم نفقت دجاجة ورجلها مرفوعة، مما اعتبروه فالاً حسناً، وهو لابد أن يكون كذلك. وفي اليوم التالي نزل المطر ولم يغل البحر ^(٦١).

الإيمان بسكان البحر في منطقة الكاريبي محفوظ في الغالب بين السود، وفي الحكايات التي تدور حولهم ^(٦٢) وهم يظهرون كخليط من معبودة الماء الأفريقية وعروس البحر الإسكوتلندية الأيرلندية الإنجليزية ^(٦٣). كما أنهم ينقسمون إلى نوعين: الحوريات، وهن إناث ويعشن في المياه العذبة، وعرائس البحر، وهم ذكور ويعيشون في المياه المالحة. وبيوت كل منهما كهوف تحت الماء، حيث الحياة شبيهة بالحياة على الأرض، غير أنها على مستوى أفخم. ويُتعارف على الكائنات عادة بشعرها الأشقر الطويل، وعيونها الزرق، وبشرتها البيضاء، ومشطها الذهبي. وكثيراً جداً يكون لها حافر مشقوق بالإضافة إلى ذيل، أو ما يحل محله. وبالإضافة إلى الأسماء السابقة، فهي تسمى ماما آلو Mama Alo أو ماما جو Mama Jo، وهما اسمان يطلقان عليها في أفريقيا ^(٦٤). وهذا الخلط الغريب في المعتقدات يتضح في حكايات كالحكاية التالية عن تيراكومو Terracomo وأنانسي Anansi وهذان البطلان محتالان معروفان بصورة كبيرة بين أهل الجزر وكذلك في أفريقيا :

خرج بو هوك إلى البحر لسرق أرزاً. دعا برير تيراكومو، وبرير تيراكومو ليس له جناحان، ولذلك صنعاً جناحين من الطين والخشب. طلب هوك من تيراكومو أن يحمل كيساً واحداً لأنه ليست له أية أجنحة ولن يستطيع أن يحمل حملاً كبيراً. ومع ذلك حمل حوالى خمسين كيساً في حين حمل بو كيساً واحداً فقط. وعند عودتهما هب إعصار. كان برير تيراكومو يحمل حملاً ثقيلاً ولم يستطع الطيران. وحين قال له بو هوك "طر لأعلى!" طار برير تيراكومو لأعلى. سيدى، لم يستطع العودة؛ كان يحمل حملاً ثقيلاً جداً. طلب منه أن يسقط بعضه. ومع ذلك لم يسقطه. وهبت العاصفة، وخلعت جناحيه. غامر بو هوك مسرعاً وسقط تيراكومو على صخرة عريضة في البحر.

وبينما هو هناك، رأى برير شارابان. قال لبرير شارابان "أرجوك أخرجني من هنا!" قال برير شارابان إنه إذا أمسك سوف يبلعه. وجاءت برير عروس البحر، وحملت برير عروس البحر إلى البر. وحين حملته إلى البر خلع برير تيراكومو أحد ثيبي عروس البحر وعاد به إلى البيت وسلقه مع الأرز. ويعد أن وجد أنه بسم وحلو، دعا أصدقاء كثيرين ليرى إن كانوا يستطيعون إحضار الثدى الآخر.

فكر برير عروس البحر بسرعة جداً. رقدت كئتها ميتة. ولذلك قال الرجال هناك "إذا كانت ميتة فإنهم عندما يلکونہ سوف يركل." وذهبوا ولكزوه بعصا ورفع رجله وركل، وتركوا المكان بسرعة وقالوا إن الميت لا يمكن أن يركل. ولذلك لم ينجحوا في المرة الثانية. وهنا انتهت الحكاية (٦٥).

يتسم كل من عرائس البحر والجنيات بالخطورة، وتلك التي تشبه الهنود تعتبر الأكثر شراً. وأحد الأشياء التي تسعى وراءها ظل الرجل، وما إن يملك فإن الشخص الذي فقد ظله قد يصاب بالجنون، لأن الظل والروح والعقل عند أهل جزر الهند الغربية مرتبطة ببعضها ارتباطاً لا ينفصم. وهي تقع في غرام الإنس في بعض الأحيان كذلك وتحملهم إلى الكهوف عن طريق "شق الماء". وفي حال تناول ذلك الشخص المتهور أى شيء في تلك الكهوف، فإن نتيجة ذلك تكون أشبه بما يحدث للإنس الذين ياكلون الطعام في أرض الحوريات؛ فإنهم لا يعودون للأرض أبداً.

وسكان البحر هؤلاء لديهم القدرة على التحول وكثيراً ما يأتون إلى البر في هيئة قطة. وهم يقتربون من ضحيتهم في هذه الصورة ويفرون بظله؛ ولهذا السبب لا تحظى القطط الضالة في جزر الهند الغربية بأفضل معاملة، بل إنهم يسيئون معاملتها ويقتلونهم في بعض الأحيان.

وعلى عكس أقارب هذه المخلوقات الشماليين، فإن الناس لا يخافونها خوفاً مبالغاً فيه، ذلك أنها بطيئة الفهم ويسهل خداعها. (في إحدى الحالات، ولمعرفة الضحية حب عرائس البحر للجمال، فإنه يجعل عروس البحر تحول حبها إليه بعمل حديقة زهور تبسر قلبها). وحين تُخدع يكون بالإمكان جعلها تمنح الهدايا العديدة؛ من الذهب أو القوى الخاصة. وفي بعض الأحيان كذلك تأتي للإنس طلباً للمساعدة وتكافئ من يقدم

لها العون على مساعدته. ونتذكر حكاية عروس البحر الإنجليزية حين نعرف أن طبيباً عادياً قام بتوليد زوجة عروس بحر فى كهفهما تحت الماء وعند العودة مُنح مهارة تفوق قدرات البشر كطبيب^(٦٦). وقبل أن أترك مخلوقات جزر الهند الغربية هذه، ينبغى أن أورد حكايتين من بين العدد الكبير الذى جمعته من هناك كى أعطى فكرة عن التنوع الموجود فيها:

هذه قصة فتاة كانت تطارح سمكة الغرام وفى كل مرة تلتى لم تكن أمها تعرف عن ذلك وفى كل مرة تلتى تبيع كمكثها تقول "A chez a Mini Bon Bon" ومينى بيل Mini Belle هو اسم الفتاة. كانت تقول "Mini Belle, Mini Belle, Mini Belle-O." وفى مرة من المرات قضى الأخ على السمكة لأن الأخ ذهب وغنى الأغنية، نفس الأغنية وحين جاءت السمكة قضى على السمكة وبعد ذلك حين جاءت الأخت ميني بيل هذه، لمقابلة أوشن Oshun كل ما استطاعت أن تقدمه هو عدم ظهور أوشن لأن أوشن قتلها الأخ ولذلك استمرت فى الغناء ولم تستطع رؤية أوشن ولذلك نزلت فى الماء حتى وصلت إلى قاع البحر وبعد ذلك أصبحت عروس بحر^(٦٧).

وفى جرينادا التقيت ببشار عجوز كان قد التقى بعروس بحر. كانت السيدة جالسة وكانت تمشط شعرها، أنقى شعر فى الوجود. "حاول هو وصديقه الحصول على المشط لأنهما كانا يعرفان أنهما إذا حصلا عليه فإنه يمكنهما الحصول على الملايين، لأنك إذا كان لديك مشطها لابد أن تفعل أى شىء تطلبه منها كى تستعيد مشطها." ومما يؤسف له أن المحاولة فشلت ولم ير أحد السيدة الجميلة مرة أخرى. وبعد ذلك روى حكاية أقل تقليدية:

فى الأيام الخوالى كنا نرى النهر ينزل مندفعاً فى الفيضان وكنا نسمع موسيقى آتية عبر النهر وكنا نراها جالسة على طاولة، تبحر على طاولة معها وكانت تعزف هذه الموسيقى فى سحابة وكانت تظل تعزف حتى تصل إلى مصب النهر وبعد ذلك تختفى الطاولة وتتوقف عن العزف وتقدم الشاي. والآن أنا رأيت عروس البحر هذه بنفسى^(٦٨).

معظم الحكايات المتعلقة بعروس البحر أو الكلبى التى تروى أو يتذكرها الناس الآن فى أمريكا الشمالية مضحكة ومخففة بصورة كبيرة مقارنة بحكايات العالم القديم. ويحكى الزنوج الجنوبيون عن حصان بنى اللون يعيش فى الصخور على طول الأنهار ويتنبأ بوقوع الكوارث، إلا أنه إذا سمع حصان مريض أحد هذه الحيوان يصله فإنه يتعافى. كما يحكون عن عروس بحر تعيش فى أحد الجداول وتخرج من حين لآخر لتركب على راياتير السيارات (٦٩).

وتأتى من نيو إنجلاند قصة الهندين اللذين كان يصطادان السمك فى خليج مسكونجس *Muscongus* فى قارب صغير. غمرت سنارة الهندي الذى فى المقدمة وأخرج عروس بحر ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر. أخذ يتفحصها لبرهة ثم أخرج الشخص وألقى بها فى الماء. حتى هذا اللحظة لم يقل الهندي الذى فى المؤخرة شيئاً، ولكنه لاحظ ما جرى، ثم تحدث. "لماذا؟" وضع الهندي الآخر الطعم فى السنارة وألقى بالخيوط. سأل "كيف؟".

روت لى كريستين كنيدي *Christine Kennedy* من برود كوف *Broad Cove* فى كيب بريتون أنه فى أوقات بعينها ولأسباب معينة، مثل حراسة كنز ما، أو أثناء إحدى العواصف، كان أناس صغار يرون فى الأمواج وكانوا يرتدون قبعات حمراء وكانوا يغنون فى بعض الأحيان. كما روت أنه منذ سنوات كثيرة مضت أن بعض الصيادين كانوا يمشون على طول الشاطئ وقت الغروب. نظر أحدهم فى الماء وأدهشه أن يرى بقرة جميلة بيضاء تقف فى الماء والأمواج تتكسر على ثدييها. نادى على زملائه وحين نظروا مرة أخرى لم تكن البقرة موجودة.

يحسن أن نختم بهذه الحكاية النبوية، لأن سكان البحر كائنات حقيقية فى سبيلها إلى الاختفاء. فإنهم يتحولون إلى أشياء مضحكة، والحكايات التى تدور حولهم تفقد قوتها وحيوتها. وعما قريب سوف يختفون مثل بقرة برود كوف البيضاء، ولكنهم سيبقون كخيال. إلا أنهم حين يختفون سنكون قد فقدنا شيئاً شديداً القدم وعزيراً إلى حد كبير.

وكما أشرنا، فإن الخيوط التي يتكون منها حبل الحكايات التي تدور حول سكان البحر تأتي من مناطق كثيرة ويمتد الحبل ذاته إلى أزمنة قديمة، ربما أبعد مما ندركه الآن. وقد اختلط الإيمان بداجون وبليليث من الشرق الأدنى بما قد يكون معتقداً أقدم من أى منها ومحفوظ فى العجلة التي فى مؤخرة حصان الماء. وإذا كان هذا صحيحاً، فإن لدينا بين حكايات عروس البحر النسخ الشمالية المميزة عن النسخ الأخرى من ناحية الموتيف الخاص بالملابس السحرية؛ الشيء الذى قد لا يعود فقط إلى خطوط العرض العليا وإنما إلى العصور الحجرية أو ما قبلها (٧٠).

الفصل العاشر

الوحوش وحيات البحر والجزر المسحورة

« قال الملك » والآن ضعنى فى السفينة ... فسوف أذهب إلى وادى
أفالون كى أشفى من جرحى الخطير ، وإن لم تسمع عنى بعد ذلك ،
صل من أجل روحى » .

السير توماس مالورى

Sir Thomas Malory, La Morte d'Arthur -

يبلغز العقل العلمى فكرة الوحوش البحرية والحيات البحرية. ومع ذلك فقد آمن
بها الناس منذ أقدم العصور المسجلة، ولا يزالون يؤمنون بها، وإن كان ذلك على
استحياء. والواقع أننا إذا تفحصنا كلمة "وحش" [أو مسخ] *monester* لن نجد
مشكلة. فهى تعنى فى المقام الأول مخلوقاً ضخماً. ويبدو بعد ذلك أنها توحى بفكرة
الندرة وأنه من نوع غير معروف للمراقبين. وهى أخيراً قد تدل على الوحشية أو القبح
أو التشوه. ونحن نسمع عن "المولود المسخ" *monster births* حيث يولد الأطفال
مشوهين، ولكننا نسمع كذلك حديث الصيادين عن "الدب الوحش"، وحديث صيادى
الحياتان عن موبى ديك باعتباره "حوتاً وحشاً". حقيقة أن ميلفيل قال إن موبى ديك له
فك معقوف وأنه أمهق ونومزاج عدوانى، إلا أنه كتلة جسمه الضخمة هى التى أعطته
الاسم "وحش". باختصار، فإنه تحت هذا التصنيف يمكن تسمية أى شىء كبير الحجم
وغير معروف للمراقب وحشاً لعدم وجود مصطلح أفضل من ذلك وأكثر منه تحديداً.

يمكن تطبيق ما قيل عن الوحوش على الحيات البحرية المساوية لها فى الصفات.
وتدل العبارة فقط على فكرة مخلوق أفعوانى بحرى كبير. ويمكن أن نطلق اسم الحية

البحرية على السمكة الشريطية أو الإنقليس الضخم، إلى جانب الكوبرا البحرية والسمكة المجدفية. بل إن شريط الأعشاب البحرية الطويل قد يحسبونه حية بحرية في ظروف بعينها. وفكرة أن الحيات البحرية عظائية(*) وتنفث النار وتخرج دخاناً وأنها بقايا عصر انتهى منذ ملايين السنين هي من اختراع العقل العامي.

ولكى تتعقد الأمور، يصير المعتقد الشعبي على الخلط بين الاثنين، كما يلح على كون الحية البحرية والوحش البحرى مخلوقاً قديماً واحداً وحسب. وفيما يتعلق بهذا التعريف، يُرجعه المؤمنون به إلى بقايا الميثولوجيا التي كادت تُنسى حيث توجد دودة قديمة من الماضي تقبع على مقربة لقتل الشخص المتهور الذي لا يأخذ حذره، إلى أن يقضى عليها بطل مثل بيوولف(**) Beowulf.

لا تحتكر مجموعة من البشر الإيمان بمثل هذه المخلوقات غير العادية. فهو معتقد عالمي يبدأ من الشرق مروراً بالهند وأفريقيا إلى اليونان والبحر المتوسط بكامله وصولاً إلى إسكتلندا. وكانت حكايات عن الحيات والوحوش شائعة حتى بين الهنود الأمريكيين والإسكيمو. ويبدو أن التفكير العلمى يشير إلى أن تلك المعتقدات نشأت في مكان ما في الشرق ثم انتشرت شيئاً فشيئاً في أنحاء أوروبا، إلا أن هناك كذلك احتمالاً بأن تكون هذه المخلوقات، كما بدت للكلاسيين والشعب الجرمانى، جزءاً من ميثولوجيا شمالية مستقلة كبيرة. وقد يكون الأمر هو أن الجزر المسحورة والبلاد التي تحت البحر وحيوانات الفقمة والفنلنديين والكلبي وسكان البحر هي في واقع الأمر خيوط مهترئة من نسيج ميثولوجيا أعظم بكثير مما نعرفه في الوقت الراهن؛ وهو النسيج الذي ربما كان قديماً في العصور الحجرية. وقد بقيت أجزاء منه حتى وقتنا هذا بعد أن غيرها التأثير المسيحي تغييراً كبيراً.

(*) أى من طائفة الزواحف التي تشمل العظاء، وكانت فيما مضى تشمل التماسيح والديناصورات (المترجم)

(*) البطل الأسطوري لإحدى القصائد مجهولة المؤلف وهي باللغة الإنجليزية القديمة ويعتقد أنها ألفت في أوائل القرن الثامن الميلادي، وفيها يقتل بيوولف المسخ جريندل، الذي تقول الأساطير إنه من نسل قابيل، وأمه ويصبح ملكاً على الجيت، إلا أنه يموت وهو يحارب التتين (المترجم).

ويكاد ألا يكون لشيوع الإيمان بهذه المخلوقات في الدول الاسكندنافية منافس في العالم، وظلت القصص الخاصة بها تنتشر كأقوى ما يكون الانتعاش في المنطقة التي يسيطر عليها الفايكنج في العصور القديمة؛ وهي أماكن من قبيل جرينلاند وجزر الأوركني وجزر شتلاند وسواحل اسكوتلندا الشمالية. وكان مفهوم الوحوش البحرية في العصور القديمة من القوة بحيث بلغ الأمر بأهل الشمال أن صمموا سفنهم الطويلة كي تبدو مثل التنين الناري.

يعتمد جزء كبير من معرفتنا بهذه الأفكار القديمة على روايات الأسقف أولوس ماجنوس **Bishop Olaus magnus** السويدي في منتصف القرن السادس عشر^(١). وبعد ذلك على ما كتبه الأسقف إيريك بونتوبيدان **Bishop Erick Pontoppidan** الذي كتب "التاريخ الطبيعي للنرويج" في عام ١٧٥٥، وقد خصص هذان الرجلان صفحات كثيرة للدرو والكراكن^(*) واللويثان والحوث، وهي تبدو جميعاً أسماء مختلفة لموضوعنا. ومما لا شك فيه أن المفهوم الشعبي الخاص بالوحوش والحيات البحرية في العصور الأحدث يعود إلى المعتقدات التي كان الناس يؤمنون به بقوة في القرون الأولى من الحقبة المسيحية، وهي تلك المعتقدات التي جعلها ظهور سفن الشماليين الطويلة، التي كانت لها رؤوس وذيل على هيئة التنين، ومجانيف كالأرجل، وبروع كالحرشف وأشرعة كالأجنحة، قابلة للتصديق. وعززت ذلك المفهوم الحكايات التي شاعت في العصور الوسطى؛ وهي حكايات الفرسان والنبلاء الذين يقومون بمهام بحث وتدمير ضد التنين والوحوش حيثما وجدت. والنموذج المثالي في الفترة المبكرة هو قتل بيوولف للتينين، وفي العصور الوسطى القديس جورج حين طعن التنين بالرمح، وفي وقت لاحق قتل فارس الصليب الأحمر له في ملحمة إدموند سبنسر الرمزية **Fairie Queen** وتلك المخلوقات هي ما يكون في ذهن الشخص العادي حين يتحدث عن الوحوش، وخاصة عن الحيات البحرية.

(*) وحش بحري في الميثولوجيا الإسكندنافية كان البحارة يتصورونه مجموعة من الجزر. ويقال إن ظهره طوله ميل ونصف. وحين كان البحارة يقتربون منه تتحول تلك الكتلة إلى عدة رؤوس وقرون وأنزع يمكنها الإمساك بكبر السفن وإغراقها. كما يقال إنه حين يفوح الكراكن يحدث دوامة تبتلع سفينة بكاملها. ويرى أن الأسقف ميداروس وجد كراكن على البر، وظناً منه أنه صخرة، بنى عليه مذبحاً وأقام القداس. انتظر ذلك المخلوق إلى أن فرغ الأسقف من قداسه ثم انسل في هدوء إلى البحر (المترجم).

وما من شك كذلك فى أن ما كان يحدث من حين لآخر - من العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر - لاكتشاف عظام متحجرة لمخلوقات ما قبل التاريخ الضخمة لم يبدد تلك المعتقدات. وإذا كانت قد عاشت بالفعل فى يوم من الأيام، ألم يكن من الممكن أنها كانت لا تزال تعيش؛ فى الأعماق البعيدة، أو فى مكان ما بأحد الكهوف، أو فى مكان خفى بعيد من الغابة؟ ألم يكن هناك واحد منها حياً وبحالة جيدة فى مكان ما؟

إلا أن هذه المخلوقات، بغض النظر عن مدى سحرها لأهل البر، ليست هى على وجه الدقة ما يفكر فيه البحار أو ما كان يفكر فيه طوال قرون كثيرة. وتشير غالبية ما قيل من كلام يتناول الوحوش والحيات البحرية وحسب إلى مخلوق ذى حجم ضخم وصفات غير معتادة قد تبدى العنف نحو الناس وقد لا تبدى. ومن بين الاثنين، نجد أن الحية هى المخلوق الأكثر قبولية. فهى تصور دائماً على أنها ثعبان ضخم. وهى تتحرك بسرعة بحركات أفقية متموجة، ويتراوح طولها بين أربعين وستين قدماً، ولها رأس تشبه إلى حد ما رأس الثعبان، وفى أحيان أخرى تكون كـرأس السلحفاة أو الأسد أو الحصان. وفى الطرف الآخر فى المؤخرة إما أن يكون لها ذيل الزواحف أو ذيل كـذيل السمكة. وعادة ما يكون جسمها مغطى بالحراشف، وغالباً ما يقال إن لها على رقبتها شعر كشعر الفرس يمتد على الأقل إلى منتصف ظهرها. ومع أنها فى الأزمنة القديمة كانت تهاجم السفن من حين لآخر، فإنها فى العصور الحديثة كانت نادراً ما تهاجم السفن أو البشر، وكانت تهرب من المطاردة دائماً. باختصار، فإن أوصافها شحيحة؛ شحيحة شح الأوصاف الخاصة بالأطباق الطائرة، وعدد المرات التى شوهدت فيها الأشياء الطائرة المجهولة فى هذا القرن.

على عكس هذه الحيات البحرية، تتنوع أوصاف الوحوش تنوعاً كبيراً حتى إنها تتحدى أية محاولة لفهرستها. فالبعض منها قد ينطبق على وصف الحوت أو سمكة القرش الضخمة، وتنطبق أوصاف أخرى على الحبار الضخم، بينما توحى أوصاف غيرها بعظاءة شبيهة بالديناصور. وتصفها بعض الأقوال على أنها تهاجم السفن والبشر، بينما تصفها أخرى بأنها مسالمة. والتعريف المختصر هو: "مخلوق ضخم من

نوع غير معروف، يفترض أنه خطر. ولم يمسك أحد بأى منها بحيث يتولى علماء الأحياء وضع تعريف لها باعتبارها نوعاً معروفاً. ولذلك فإن تلك التى يمكن الوصول إليها فى الوقت الراهن ليست وحوشاً.

وحين نبدأ بحث الحقائق الخاصة بال مخلوقات نصل إلى بعض النتائج المدهشة. فقد كانت الحيات والوحوش البحرية كانت تُشاهد فى أنحاء العالم كافة ويقدر كبير من التكرار حتى الوقت الحالى^(٢) حيث نجد أن أكبر عدد فى البحار التى يكثر فيها الضباب فى بواثر العرض الأعلى الأكثر برودة. كما شوهد البعض إلى الجنوب منها، كذلك الذى شاهده القبطان تريلاونى Trelawney ربان السفينة دافنى Daphne من بوسطن فى ٢٠ سبتمبر ١٨٤٨ فى ذلك الوقت قدر موقعه بأنه دائرة عرض أربع درجات و ١١ دقيقة جنوباً وخط طول ١٠ درجات و ١٥ دقيقة شرقاً، وهو ما يجعله على وجه التقريب داخل ميناء مايومبا فى الجابون بأفريقيا؛ وهى منطقة معروفة بهطول الأمطار وتعذر الرؤية^(٣)

لا تُرى هذه الوحوش فقط فى المناطق التى غالباً ما يحد الرؤية فيها الضباب أو المطر أو الثلوج، ولكن يبدو أن لديها ميلاً إلى أماكن معينة. ويقع أحد هذه الأماكن فى المياه الأوروبية على الساحل الشمال لإسكوتلندا والجزر المجاورة له. وفى مياه أمريكا الشمالية يبدو أن المنطقة المجاورة لكيب أن بولاية ماساتشوستس منطقة تردد، وهى شائعة فى كندا ونيوفاوندلاند ولبرايدور وكولومبيا البريطانية. ويتذكر جون جوسلين رؤية أحدها فى كيب أن فى القرن السابع عشر حيث كان يتشمس على الشاطئ وقد تكوم كحبل السفينة ورأسه كرأس أسد صغير^(٤). وشوهد آخر فى عام ١٧٠٠ على بعد حوالى خمسين ميلاً إلى الجنوب من ذلك قبالة مارثاس فاينيارد Martha's Vineyard^(٥).

فى كل هذه المناطق المياه عميقة شديدة الانحدار عن الشاطئ، وتندفع المياه بشدة فى اتجاه البحر عند الجزر، وتعوق حركة الماء الصخور الواقعة قبالة الشاطئ التى تغطى الكثير منها الأعشاب.

ومن المناسب هنا نكر حقيقة أنه منذ وقت غير معلوم جرى تكييف العاملين في البحر على قبول عدد كبير من المعتقدات، كان من بينها الإيمان بالوحوش البحرية أو الحيات البحرية ولا يزال معتقداً حياً. بل إنهم سمعوا أوصافاً حية مفصلة لهذه المخلوقات. ومعروف كذلك أنه خلال فترات الإجهاد أو الضغط الشديد يكون المرء معرضاً للهلاوس، إلا أن تلك الهلاوس تقوم على نوع من الاستجابة المتعلمة. ولا بد أن نتذكر أنه حين حاصرت عاصفة شديدة جوشوا سلوكم Joshua Slocum وهو على متن السفينة "سبراى" Spray ساعده أحد أفراد طاقم السفينة "كولومبس" يرتدى قبعة حمراء، وحين حوَصر مانرى Manry في ظروف مشابهة في وهو على متن السفينة "تinkerbell" منذ بضع سنوات، رأى كذلك "الزوار". ولكن زواره كانوا من الغرب الأوسط، لأنه جرى تكييفه على الحياة البرية، بينما جرت تنشئة سلوكم على الحياة في البحر.

إذا ما كانت تلك الأشياء في ذهننا أمكننا فهم كيف أنه حين تكون الأدمغة متعبة، وحين تتعذر الرؤية، وحين يصيب الألم العيون بسبب ضغط البحث عن اليابسة، يكون السهل اعتبار تيار الجزر المندفع فوق صخرة تكسوها الأعشاب، أو بعض الحطام الذي في الماء، أو أى شئ آخر غير متوقع، حية بحرية أو وحشاً بحرياً.

والنقطة الأخرى التى يجب إدراكها هى أنه لأسباب عديدة - قد تكون القاع أو التيارات أو وفرة الطعام - فإن أسماك القرش المستمتعة بالدفع والسلاحف والحيتان والحبار وخنائير البحر غالباً ما تتجمع فى تلك الأماكن. وليس من غير المعتاد رؤية الحيتان قبالة جلوسستر بولاية ماساتشوستس، أو فى جزر أوركنى حيث كانوا يصطادونها حتى وقت قريب. والحيتان المستمتعة بالدفع أمر شائع على الساحل الغربى من أيرلندا، وجزر هيبيريديز، وشمالى إسكوتلندا، ونيوفاوندلاند. فى كل المناطق تكثر خنائير البحر، وهى لها طريقة فى تقويس ظهورها فى الماء الواحد تلو الآخر، حتى إنها قد تبدو فى ظروف تعذر الرؤية إلى حد ما كأنها جسم حية ضخمة متموجة. وفى ظل ذلك يمكن للعقل اختلاق الرأس.

فى عام ١٩٤٨ التقى المؤلف بسلحفاة جلدية الظهر كبيرة جداً فى خليج مين. كان الجو هائناً والضباب كثيفاً. وقد سُمع ذلك المخلوق فى البداية وهو يصدر شخيراً، وسمعت الأمواج وهى تتلاطم على ظهره، ثم شوهد الحيوان على مقربة من السفينة فى الضباب. وكان رأس السلحفاة - الذى ضخّمه الضباب - مرفوعاً، بينما كانت تتدلى من فكها كمية كبيرة من الأعشاب البحرية مما يدل على أنها كانت تقنات. كان قدر معين من التمييز العلمى مطلوباً ليعدنى عن تخيل أنتى أنظر إلى وحش بحرى.

هذه بطبيعة الحال تبريرات لرؤية الوحوش والحيات فى العصور القريية، أى منذ القرن السابع عشر. أما فى العصور القديمة فريما كانت تلك القصص نوعاً من التفسير الرمزى للظواهر الطبيعية. وقد رأينا بالفعل كيف أنهم كانوا يعتقدون أن دوامة كوريفريكان بيت جنية شريرة تعيش فى البحر، و كان الناس فى شمالى أيرلندا يظنون أن روتن ويل Rooten Wheel منزل ساحرة تشفط المياه فى قاعها^(٦). بينما كانوا يعتقدون أن كلوبوترمان Klobotterman يسكن الدوامة الضخمة الواقعة قبالة النرويج. وبعد ذلك هناك تلك الحكاية الطويلة المعقدة من جزر هيبيريديز عن الفتى الرمادى Gray Lad وهى فى الواقع تنويع على حكاية الشقيقين - التى قدمنا إحدى نسخها فى الفصل السابق. وتستحق بعض جوانب الحكاية أن نبحثها هنا.

كان أحد الحدادين (يقوم الحداد فى الفولكلور الكلتى فى الغالب بدور الوسيط بين الجنس البشرى ومخلوقات العالم الآخر) فقيراً جداً وليس له أطفال إلى أن جمعتة الصداقة بعروس بحر وعدته بصيد وفير من الأسماك إن هو وعدها بأن يعطيها أول مولود له. وافق الرجل وبعد قليل وضعت امرأته ثلاثة توائم، ووضعت فرسه ثلاثة أمهار، وكلبته ثلاثة جراء، ونمت ثلاث شجرات فى الفناء. أبعد الحداد أول مواليد بطريفة أو بأخرى عن قبضة عروس البحر إلى أن أصبح فتى قوياً. بعد ذلك خرج الفتى للبحث عن ثروته وكانت له مغامرات عديدة واكتسب ثروة كبيرة وشرفاً. وأخيراً التقى بأميرة أوشك أن يأكلها تنين كان يعيش فى البحيرة loch (فى إسكوتلندا تعنى كلمة loch بحيرة أو خليج، مثل Loch Awe) قاتل الفتى ذلك الوحش فى ثلاثة أيام مختلفة وقتله فى المواجهة الأخيرة. ووصفت المواجهة الأخيرة، التى تتطابق مع المواجهتين السابقتين فيما عدا موت التنين، وصول ذلك المخلوق .

بعد ذلك أخذ المد يرتفع وتتجمع السحب في الغرب وهبت العاصفة الداكنة وجرى البحر ناحية الشرق وزاد حجم الأمواج وصار لونها أخضر وأزرق وأسود ... حينذاك رأى التتين يخرج من البحيرة والرذاذ يتطاير، وكان ينفتخ بخائناً وماءً، ويزأر ويهني ...

خرج التتين على البر ... وجر نفسه على الرمل وألقى بنفسه عليه، وكان كبيراً وثقيلاً.

بعد ذلك تقاتل البطل والتتين قتالاً شرساً حتى إن الرمل والطين والحصى كان يتطاير في كل اتجاه، ولكن ذلك المخلوق قُتل في نهاية الأمر. وكان التتين بحيرة من ماء وكومة من رمل.

الذي يهمننا بالقدر نفسه في هذا المقام هو وصول البطل إلى مسرح الأحداث قبل نشوب المعركة. نظرت الفتاة لأعلى:

بعد ذلك نظروا غريباً فرأوا العاصفة، ونظروا شرقاً فرأوا الشيء ذاته. ورأوا فارساً في السماء في ثياب خضر لامعة على حصان أصفر، بنى يميل إلى الذهبي، وفي يمينه سيف سامع لامع متلألئ من النور، وحين رأوه [الأربعة عشر جندياً الذين أرسلهم الملك لحمايتها] فروا جميعاً إلى مخابثهم كما هو دأبهم.^(٧)

بعد قتل التتين، يهزم الفتى الرمادي طاهى الملك وأفراد حرس الملك الأربعة عشر الجبناء، الذين يدعون قتل التتين، ويتزوج ابنة الملك. وتتواصل مغامراته وتبتلعه عروس البحر، وتتقذه زوجته التى تُبتلع هى الأخرى وينقذها الفتى الرمادي الذى يعثر على قلب عروس البحر داخل بيضة فى جوف سمكة فى جوف بطة فى جوف غزالة داخل الغابة تحت منزل على جزيرة فى بحيرة^(٨).

حين نتأمل ما فات لا نجد صعوبة فى رؤية احتمالاتها كأسطورة تفسيرية حول الطقس. فليس هناك شيء فى وصف التتين أو موته لا يمكن ربطه بسهولة بنفت الماء والرذاذ والرياح العالية والبحر الهائج والمد المندفع. وحين يصل الوحش إلى البر يشفط الرمل والحجارة ثم ينهار على هيئة "بركة من الماء وكومة من الرمل". ومن المحتمل جداً

أن يكون وصول البطل الذي يجعل الأربعة عشر جباناً يفرون مجازاً موسعاً خاصاً بعلامات الطقس التي تشير إلى مساحة منيرة وسط الضباب. وليس من غير المنطقي تصور التنين النساري الصارخ الذي ينفث النار ويلفه الدخان على أنه جبهة جوية قادمة ^(٩). (قد يُضاف كذلك أن الناس في إسكوتلندا مازالوا خلال قرن يقيسون المسافات بجعل مقبرة الوحش نقطة البداية.)

هذا تفسير، إلا أنه يظل هناك تفسير آخر، لأن الحكاية توازي بشدة حدثاً فعلياً. فالبطل في الحكاية قطع رأساً من رءوس التنين في كل يوم من أيام ثلاثة متتالية، حيث قتله بإزالة الرأس الثالث في اليوم الأخير من المعركة.

في يوم الإثنين ٢٥ أبريل من عام ١٨٧٥ كانت مجموعة من الأيرلنديين يصطادون السمك في قارب صغير قبالة الساحل الغربي حين لمحوا حباراً ضخماً مستلقياً على سطح الماء. ومع أن أداة التدمير الوحيدة على القارب كانت سكيناً، فقد قرر الطاقم قتله لأنه كان جيداً "كطعم للسمك الكبير". ساروا بالقارب في هدوء وقطعوا ذراعاً. دفع ذلك المخلوق إلى القيام بنشاط كبير وانطلق مبتعداً. وحين توقف اقترب القارب وقطع ذراعاً أخرى. واستمر ذلك التكتيك إلى أن قُطع معظم الأثرع. بعد ذلك سعى الطاقم للحصول على الرأس الذي فصلوه وغاص الجسم. كان طول الذراع ثمانية أقدام ومحيطه خمس عشرة بوصة. وبذلك فإنه من خلال العملية الشعبية يمكن أن تكون قصة الشاب الرمادي رواية مبالغ فيها لتجربة مشابهة حدثت منذ قرون ^(١٠).

الأمر اللافت للانتباه إلى حد كبير هو أن روايات كثيرة لمواجهة مشابهة مع حبار ضخم في نيوفاوندلاند ولبرايدور في أرشيف الفولكلور بجامعة نيوفاوندلاند التذكارية. وتحكى إحدى الروايات كيف أن حباراً ضخماً هاجم منذ سنوات عديدة قارباً صغيراً وكاد أن يسحبه إلى تحت الماء. ويرجع الراوى أفعال الحبار إلى لون قاع القارب، الذي كان أحمر ولذلك لفت انتباهه.

ضاع الجانب الميثولوجي لهذه الحكايات بمرور القرون، ذلك أنه بمجرد وقوع المعتقدات الوثنية في أيدي المبشرين المسيحيين تعرضت لتغيير كبير. وبما أن المسيح وحواريوه كانوا يسيطرون على الطقس ويهدئون الأمواج على الجليل، فما هو أكثر

طبيعية من أن يكون هناك "قديس" محلى مثل كولومبا يفعل الشيء نفسه؟^(١١) وأخيراً بدأ الذيل يحرك الكلب إلى أن قتل القديس جلبرت بسهم واحد شبحاً ينفث النار يسمى **Dhub Ginthais** بالقرب من لوخ فاين **Loch Fyne** حين جاء ليحرق نورنوخ **Dornoch**. وإلى الجنوب من ذلك فى إنجلترا وفى نفس الوقت تقريباً كان يشيع اعتقاد بأن القديس جورج قتل التنين **Great Orm** برمح.

وتأتينا حدوة على قدر مختلف قليلاً من الأهمية من حافة التاريخ. ففي وقت ما فيما بين عامى ٥٥٠ و ٥٩٠ ميلادى كان تشولم سيل **Cholm Cille** مسافراً فى بلاد البكتيين. وحين وصل القديس العظيم إلى نهر بعينه رأى رجلاً يُدفن بعد أن عقره "وحش مائى" أثناء السباحة. ورغم هذه الحقيقة، أمر القديس أحد رجاله بعبور النهر سباحة وإحضار قارب على الضفة المقابلة. سبح الرجل ولكن قبل أن يبلغ منتصف المسافة.

... كان الوحش الذى لم تكن لديه من قبل شهية كبيرة تجعله يبحث عن فريسة قابلاً فى أعماق النهر. ولكنه حين شعر بأن المياه التى فوقه قد أثارتها سباحة لوين **Lupne** سبح فجأة إلى السطح واندفع تجاه الرجل السابح فى منتصف النهر وقد فغر فاه وأخذ يزار زئيراً شديداً.... رفع الرجل المبارك الذى كان يشاهد ما يجرى يده ورسم علامة الصليب المنقذة فى الهواء، ثم أمر الوحش القاسى مستعيناً باسم الرب قائلاً: "كن تتحرك أكثر من ذلك. لا تلمس ذلك الرجل. عد أدراجك بسرعة." وبعد ذلك ... فر الوحش مذعوراً متقهقراً بسرعة كأنما سُحب بحبل، مع أنه كان قبل ذلك قد اقترب من لوين وهو يسبح لمسافة لا تزيد على طول عمود قصير بين الرجل والوحش^(١٢).

هذا هو أول ظهور مطبوع لأشهر الوحوش جميعاً، وهو تنين لوخ نس؛ وهو معروف أكثر بوحش لوخ نس (ويسمونه "نيسى" **Nessie** تدليلاً). وبما أن هذا المخلوق بالنسبة لسائر الوحوش مثل الهولندى الطائر بالنسبة لسائر السفن الأشباح، فمن الواجب أن نتوقف قليلاً لإلقاء نظرة على صفاته.

حتى عصور قريبة كانت لوخ نس بحيرة نائية ليس من السهل على العامة الوصول إليها. وكانت تقع فى صدع جيولوجى يكاد يفصل مرتفعات إسكوتلندا عن منخفضاتها.

ويقول التراث إن البحيرة لا قاع لها، وهى فى الواقع شديدة العمق؛ كما أن عرضها يزيد على ستمائة قدم، وطولها حوالى أربعة وعشرين ميلاً. والماء داكن بحيث لا يمكن الرؤية إلا لبضعة أقدام فقط تحت السطح. وفى معظم الأحيان يلفها الضباب أو المطر، والبرَد أو الثلج، وتأتى العواصف الشديدة مزمجرة من التلال القاحلة الكثيبة المحيطة بها، مما يضاعف عذاب الملاحاة فيها. وحتى فى الأيام المشرقة يقع جزء كبير من البحيرة المظلمة تحت ظل التلال المرتفعة الذى يغطيها. وإذا كان هناك ما يلزم لتحسين منظرها الكثيب، فليس مطلوباً من المرء إلا أن يتذكر واحدة من أخطر جرائم القتل الجماعية التى جاء ذكرها فى حوليات التاريخ الإسكوتلندى، وهى مذبحه جلينكو Glencoe. يخرج من البحيرة نهر صغير، هو نهر نس، ولأنه صغير جداً باعتباره منفذاً لهذا المسطح المائى الشاسع، نشأ عدد من المعتقدات التى تقول إن البحيرة متصلة بالمحيط عن طريق ممرات تحت الأرض وأن قاعها مالح.

هذا إنن هو موطن تنين لوخ نس. ولكى يحمى الناس أنفسهم وبيوتهم وقطعانهم، كانوا يقدمون الماشية والأغنام أضاحى للمخلوق الذى فى العمق منذ أيام تشولم سيل. وهل هناك دليل أفضل على وجوده من عدم عودة الجثث للسطح مرة أخرى؟

هناك بعض الجوانب الأخرى اللافتة للانتباه فيما يتعلق بهذه البحيرة الكثيبة. فالمياه قارسة البرودة، وغرق أناس كثيرون أثناء السباحة فيها ونادراً ما يعثر على جثثهم. ويقول البعض إن الطبقات السفلى من البحيرة تسكنها أسراب من أسماك الإنقليس ذات الأحجام الرهيبة حتى إن قليلاً من الغواصين يمكنهم الغوص إلى هناك، ويعتقد بعض الناس أن أسماك الإنقليس تلك هى التى تلتهم ضحايا البحيرة.

طبقاً لما قاله أحد الإخباريين، فإنه منذ حوالى ربع قرن كان زوجان وأطفالهما يتنزهان فى يقارب على صفحة البحيرة. وكانت المرأة تلبس عقداً قيمته حوالى أربعة آلاف جنيه. ولسوء حظهم غرق القارب واضطرا للسباحة كى ينجوا بحياتهما. وبينما كانا فى منتصف المسافة إلى الشاطئ أدركا أنهما تركا الأطفال، وقالت الأم إنها ستعود إليهم لأنها السباحة الأقوى.

اتضح أن ذلك لم يكن اختياراً موفقاً، ذلك أنها غرقت قبل بلوغ الشاطئ ولم تظهر جثتها قط. وكان زوجها ثرياً، وبدافع من الحب لزوجته، أو بسبب قيمة العقد، استأجر غواصين للبحث عن الجثة فى البحيرة. كان أحدهما غواصاً محلياً، وكان الآخر ألمانياً. غاص الاثنان ثم صعدا. قال الألمانى "زوجتك موجودة أسفل وإذ كنت تريدها يمكنك إخراجها. فأتنا لن أنزل مرة أخرى." صعد الغواص المحلى كذلك ولكنه كان فى حالة أسوأ اضطروا لنقله إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث بقى فيها سنوات كثيرة.

ولكى يزيد الراوى الأمر تشويقاً، أنهى حكايته بقوله إن المتنبئ البراهى Bra-han Seer (متنبئ قديم) تنبأ بأن وحشاً ضخماً سوف يصطاد فى البحيرة فى القرن الحالى وحين يشق جسمه سوف يعثر فيه على عقد ثمين (١٣).

بغض النظر عما يفعله وحش البحيرة للموتى، فإنه لم يكن يشغل الأحياء حتى عام ١٩٦٩ والواقع أن أسوأ عمل سمعت أنه منسوب إليه هو أنه خرب فى عام ١٩٦٦ الصيد على الصيادين بتطفيشه أسماك السالمون (١٤). وفى ١٩ أغسطس ١٩٦٩ نشرت صحيفة "سكوتش ديلى إكسبريس" Scottish Daily Express الخبر التالى:

نكر صياد الليلة الماضية كيف استخدم صديقه بندقية ومجدافين فى معركة مثيرة مع وحش طوله ستين قدماً ضرب قاربه فى بحيرة مورار فى إنفرنسشاير (١٥).

وهما يعتقدان أن العملاق البنى اللون أحسب الظهر قضم قطعة كبيرة من أحد المجدافين ... واختفى تحت المياه المظلمة حين أخافاه بطلقات من البندقية.

منذ حكاية تشولم سيل القديمة هناك خيط لا يتقطع من الإشارات إلى رؤية وحش البحيرة. وعلى عكس سائر الوحوش التى يبدو أنها توارت، يبدو أن هذا الوحش يتمتع بأكبر شعبية له فى القرن الحالى، وعلى الأخص منذ عام ١٩٣٤ حتى وقتنا هذا، حيث أبلغ المئات من الناس عن رؤيتهم له؛ ومن بين هؤلاء الأطباء والمحامون والمصرفيون والصيادون وغيرهم. وجرى تصويره مرات عديدة، وذات مرة جرى رسم صورة كروكية له باستخدام جهاز لسبر الأعماق على سفينة الصيد الإسكوتلندية "ريفال ثرى" Rival III من بيترهيد Peterhead، كما حدد جهاز الموجات الصوتية موقعه. ومن اللافت للنظر

إلى حد كبير أن الصور والأوصاف الكلامية وتسجيلات جهاز سير الأعمال تتفق جميعها على الحجم العام للمخلوق أو المخلوقات، وشكله ونشاطه.

ذكر مرات عديدة أن طول الوحش يتراوح بين عشرين وأربعين قدماً. وغالباً ما كان يشاهد في الصباح الباكر، وفي أغلب المرات بالقرب من أطلال حصن أوركارت Urquhart Castle، إلا أنه شوهد كذلك على البر في الليل. وسواء أكان في الماء أم على الشاطئ فهو يتحرك بسرعة كبيرة ويُعتقد أنه يسبح بسرعة تتراوح بين ثمانى عشرة وعشرين عقدة. والذين شاهدوه على البر يصفونه بأنه عظام ذات رجلين ثقيلتين قصيرتين في النصف الخلفي وآخرين أصغر منهما في النصف الأمامي. وتتفق الروايات المائية على أن له صفات الزواحف البرمائية. وهي تشير إلى أن له رأساً في حجم كرة القدم متصلة بعنق طويل. وهناك حذبات على ظهره، وهو يطفو على ارتفاع معقول في الماء وله ذيل طويل. وتتفق أغلب الروايات على أنه يسير في تموجات أفقية ويترك خلفه أثراً صغيراً جداً^(١٦).

لقد أفلت هذا الوحش حتى الآن من كل الجهود التي تسعى للإمساك به. والواقع أنه يبدو أنه متواطئ مع ربّات القدر^(*). ذلك أنه لا يترك أثراً على الأرض الصخرية، وحين استخدم بعض الأمريكيين غواصة مؤخراً في محاولة لقتله، امتلأت الغواصة بالماء وغاصت إلى قاع البحيرة.

مع كل هذه الأدلة التي جمعت عن هذا المخلوق، قد يظن المرء أن العلم سوف يقبل وجوده، إلا أن مراوغته ذاتها جعلته موضع شك. فقد كان هناك شك في أصالة الصور. وقيل لى إن تسجيل جهاز سير الأعمال كان حيلة تمت لتضييع الوقت بينما كانت "ريفال ثرى" يحتجزها الضباب في الميناء. ويشير تشابه الروايات الكلامية إلى احتمال التواطؤ. بل إنه أشير إلى أن شائعة الشبح بمثابة جذب سياحي رائع للمنطقة. وبالإضافة إلى ذلك، يطرح العلماء الكثير من الأسئلة الصعبة. كيف وصل إلى هناك؟ كيف يمكن لمخلوق بهذا الحجم أن يجد ما يقتات عليه في هذه البحيرة الصغيرة نسبياً؟ كيف أمكنه البقاء كل هذا الوقت الطويل بمفرده، وإذا كان له وليف، فلم لا يكون هناك

(*) ربّات القدر الثلاث في الأساطير الرومانية هن كلوتو ولاكسيس ونيكس (المترجم)

وحوش كثيرة؟ وهكذا تستعر المعركة. وليس من المحتمل أن يقبل العلم بوجود هذا الشيء إلى أن يوضع ميثاً على طاولة التشريح، وليس من المحتمل أن يوافق المؤيدون لوجوده على أنه غير موجود إلى أن تجفف البحيرة. ولا يبدو أن أى الأمرين محتمل فى المستقبل المنظور.

بغض النظر عما سيثبت فى النهاية، فإن باحث الفولكلور شخص يميل إلى النظرية القائلة بأن هناك خطأ رقيقاً جداً بين المعتقد والواقع. فهناك بعض الشك فى أن الكثيرين ممن يقطنون المنطقة، الأميين منهم والمتعلمين، يرون أن الوحش واقع. فهم يتحدثون عنه باعتباره أمراً عادياً وهو يدخل فى نسيج حياتهم كالطقس.

ومع أن لوخ نس هى الأشهر، فهى ليست البقعة الوحيدة التى شوهدت فيها الوحوش البحرية. فقد لوحظت مراراً فى الفترة الأخيرة على ساحل كاليفورنيا، من مونتيرى Monterey وجزيرة سان كليمنت فى الشمال إلى كولومبيا البريطانية.^(١٧) وقد وصفت جميعها وصفاً يكاد يكون متشابهاً: فهو حية طولها من أربعين إلى سبعين قدماً، لونها داكن - بنى أو رمادى - على طول عنقها شعر أو على الأقل نتوءات، ولها رأس كراس الإنقليس أو الثعبان بها عينان شديدتا الجحوظ. وهى تخشى الإنسان بشدة، وتتحرك بسرعة كبيرة، وتترك أثراً قليلاً أو لا تترك أى أثر بالمرة، وتغوص دون أن تحدث طبطبة. ولم يمسك أحد بأى منها، كما أنها لم تؤذ أحداً. تبقى كلمة أو كلمتان لابد من قولهما عن وحش شوهد قبالة فانكوفر. فقد وصف هذا أوصافاً مختلفة بأن له رأساً كراس الجمل والثعبان والفقمة. وذكر أحد المشاهدين أن له زعانف وقال آخر إنه ملتف حول نفسه فى الماء. وأشار ثالث إلى أنه التهم بطة شلت حركتها.^(١٨)

وظهر مخلوق مختلف إلى حد ما فى تيج كريك Teague Creek فى خليج تشيسابيك منذ سنوات ليست بالكثيرة، إلا أن وصفه بأنه وحش بحرى أو ضرب من الأشباح أمر متروك للمناقشة. فقد لجأت سفينة صغيرة إلى ذلك المكان ذات مساء، وأثناء الليل صعد وحش على متن السفينة. بدا ذلك الوحش وكأنه حية ضخمة، ودخل من كوة التهوية ولم يعثر عليه أحد فى أسفل السفينة. وفى الصباح كانت آثاره الطينية شديدة الوضوح على سطحها.^(١٩)

إذا كانت مياه ساحل المحيط الهادى قد أصبحت ملاذاً محبوباً بالنسبة للوحوش البحرية فى هذا القرن، فقد كان هذا هو حال ساحل نيو إنجلاند فى القرن الماضى. والواقع أنه يبدو أن المنطقة تزورها تلك الكائنات منذ أن رأى جوسلين أحدها عند كيب آن وقطع مستر ميتر نراع "غُرَاق الماء" فى مين فى القرن السابع عشر. إلا أن أياً من تلك الحيات لم تحدث تلك الإثارة التى أحدثتها تلك التى شقت الماء فى ميناء جلوسستر فى أغسطس من عام ١٨١٧، وهى لم تشاهد فى الميناء وحسب، بل فى المياه التى قبالة ذلك. وكانت هناك مشاهدات أخرى على مدى السنوات التالية من بروفنستاون حتى ناهانت. والأمر الأكثر لفتاً للانتباه فى تلك الرؤى هو أنه فى معظم المرات لم يكن يشاهد الوحش بحار أو اثنان، وإنما عشرات الناس على البر وفى البحر. بل إن قباطنة البحرية والوزراء والفنانين والمؤلفين ونخبة مجتمع نيو إنجلاند كانوا يشاهدونه^(٢٠).

كان الوحش يحدث اضطراباً كبيراً حتى إن عدداً من الشهادات الخطية كانت تؤخذ ممن رأوه. وكانت معظم التعليقات متشابهة، وخاصة فيما يتعلق بالحجم واللون وشكل الرأس. وتغنى رواية واحدة عن الكل:

أنا سولومون آلن الثالث من جلوسستر بمقاطعة إيسكس وأعمل ريان سفينة أشهد وأقول إننى رأيت حيواناً بحرياً غريباً، أعتقد أنه حية، فى ميناء جلوسستر المذكور آنفاً. وأنا أحكم بأن طوله يتراوح بين ثمانين وتسعين قدماً وهناك زوائد ثقيلة فى حجم نصف البرميل من رأسه حتى ذيله. وقد كنت على بعد حوالى ١٥٠ ياردة منه حين حكمت أنه فى حجم نصف البرميل. وكان رأسه أشبه برأس الحية ذات الأجراس، إلا أن حجمه فى حجم رأس الحصان. وكان حين يتحرك على سطح الماء تكون حركته بطيئة، وكان فى بعض الأحيان يدور فى حلقات، وفى أحيان أخرى يتقدم فى خط مستقيم تقريباً. وحين اختفى كان من الواضح أنه غاص لأسفل مباشرة.... وقد رأيته أيام الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر من أغسطس من عام ١٨١٧ ميلادية^(٢١).

لم يؤذ المخلوق أحداً فى القرن التاسع عشر وأفلت من كل محاولات الإمساك به. ويبدو أنه بقى على قيد الحياة ليعود من جديد قبيل الحرب العالمية الثانية. ذلك أنه فى

عام ١٩٦٩ أجرى لورانس جيلر Lawrence Geller من بلايموث بولاية ماساتشوستس مقابلة مع صياد سمك عجوز أخبره فيها أنه رأى مخلوقاً قبل ثلاثين عاماً قبالة هاى باين ليدج High pine Ledge بالقرب من بلايموث وفى منطقة معروفة بكثرة أسماك القرش :

رأيت حية ذات ثلاثة رؤوس بين الأمواج. كان لونها رمادياً فاتحاً. وقد ابتعدت عنا ولذلك لم أستطع رؤية رأسها. كانت كبيرة جداً.... كنت قبل ذلك أضحك حين يتحدثون عن الحيات البحرية، ولكن حين رأيت تلك الحية اقتنعت. كان طولها لا يقل عن ستين قدماً خارج الماء.... وكان الماء كله مخضراً حيث نزلت (٢٢).

ليست مخلوقات الوقت الراهن سوى ظلال باهتة وضعيفة لأسلافها التى شاع الإيمان بها فى العصور الوسطى وما قبلها. ولكن ربما كان الكراكن الإسكندنافى، الذى اشتهر فى العصور الوسطى ووصفه ماجنوس ووبتوييدان وغيرهما، صورة مبالغ فيها للحبار الضخم الذى اتضح أن طوله يزيد على ستين قدماً (٢٣). ولكن إذا كان الكراكن الإسكندنافى كبيراً، فقد كانت هناك وحوش أكبر؛ إذ كان حجمها من الضخامة ما جعل المؤرخين القدامى مقتنعين بأنها شنود بيولوجى، ذلك أنها إذا كانت قادرة على التكاثر لمئات المحيط. وحين كان أحد المسافرين يخرج إلى البحر فى العصور الوسطى لم يكن يعرف متى سيلتقى بأحدها. وكان الوحش الذى يخشاه الناس بشكل خاص هو ما أسماه اليهود اللويثان ولم يكن مقصوراً على بيئة البحر المتوسط.

ويميل العلم الحديث إلى الربط بين اللويثان وعائلة الحوت، غير أن حجمه وصفاته كانت من الضخامة بحيث تجعل موبى ديك ممثلاً ضئيلاً للنوع. وقد وصف هذا المخلوق الضخم أوصافاً مختلفة على أنه فى حجم ثلاثة ملاعب كرة قدم وعلى أنه يساوى ما يزيد على أربعة أفدنة. وكان لجلده مظهر خشن محبب، وكانت تنمو عليه النباتات والأشجار. وفى بعض الأحيان كان يرقد تحت سطح الماء وكان البحارة يلقون بالمرساة حين يجدون القاع قريباً. وكانت شعب المرساة تفرز فى ثنيات الجلد الخشن، الأمر الذى كان يزعج ذلك المخلوق فيفوص أخذاً معه السفينة والطاقم. وكان البحارة يظنونه

خطأً إحدى الجزر فيخرجون "على البر" ويحفرون حفراً ويوقدون النار. وكان ذلك يثير المخلوق ويغوص أخذاً معه كل البحارة. وكان يقال إن رجالاً كثيرين يمكن الوقوف على محجر العين، ويمكن لحصان وفارس أن يجريا على "بلعومه" بلا أية صعوبة. والسبب ما كان يبدو أن الوحش ينجذب ناحية رجال الدين؛ فأحد الرحالة القدامى الذي قابلته تحت اسم مختلف هو القديس بريندان St. Brendan الذي تعد رحلته نموذجاً للتجارب المعروفة أنها حدثت لمعظم المستكشفين الأوائل.

كان بريندان قد رأى في شبابه أرض المعاد، وبما أن أحد الملائكة أكد له أنه سوف يجدها، فقد خرج مع مجموعة من رهبانه في قارب كبير. أبحروا شرقاً لمدة أربعين يوماً ووجدوا جزيرة صخرية رسوا عليها حيث حياهم كلب ضخم وقدم لهم الطعام، إلا أنهم لم يروا أى إنسان. وبعد ذلك وصلوا إلى جزيرة خضراء تكثر فيها الغنم الضخمة، حيث الصيف الدائم ولا وجود للشتاء. طلب منهم رجل عجوز أن يبحثوا أكثر ليجدوا "جنة الطيور". ومرة أخرى ينطلقون وسفيتتهم

... أخذت العواصف تدفعها إلى أن شاهدوا أمامهم جزيرة صغيرة نزل عليها الإخوة، إلا أن بريندان توقف في السفينة. وضعوا سمكة في قدر وأوقدوا النار لیسلقوها، وما إن حميت النار وبدأت السمكة في الغليان حتى أخذت الجزيرة تهتز وتتحرك كثها شيء حى. وكان هناك خوف شديد على الإخوة وعابوا إلى السفينة تاركين وراءهم الطعام والقدر، حيث رأوا ما ظنوها جزيرة تسير بسرعة في البحر وكان بإمكانهم رؤية النار مشتعلة لمسافة طويلة مما أثار دهشتهم.... قال بريندان "إنها سمكة كبيرة، أكبر سمكة في العالم، واسمها جاسكوين Jas coyne، وهى تسعى ليلاً ونهاراً كى تضع نسلها فى فمها، ولا يمكن فعل ذلك بسبب حجمها الكبير."

بعد ذلك وجدوا جنة الطيور ووجدوا بالفعل أن الطيور ملائكة مطرودة من السماء ولكنها لم تقطع كل الطريق إلى الجحيم. لقد تنبئوا بمستقبل نشاط بريندان، وبعد ذلك اتجهت المجموعة إلى "جزيرة الإخوة الصامته" حيث أعطى الرب الجميع خبزاً أبيض ليأكلوه. وبعد رحلة عاصفة رسوا هناك وبقوا حتى "الكريسماس الصغير" حيث عابوا إلى البحر من جديد. ومرة أخرى كان الجو عاصفاً فى البحر، ولكن فى عيد الفصح

استطاعوا إقامة القداس بطريقة غريبة، ذلك أنهم أبحروا إلى حيث ترقد السمكة جاسكوين. ووجدوا على ظهرها القدر الذي كانوا تركوه قبل عام وأقاموا مأدبة القيامة هناك على ظهر السمكة.

هكذا استمرت رحلتهم من جزيرة مسحورة إلى جزيرة مسحورة أخرى، وفي الطريق

تبعتهم سمكة ضخمة مربعة كانت تسعى لابتلاع سفينتهم وكانت تنفث كميات كبيرة من الماء من فمها حتى إنهم أوشكوا على الفرق، وكانت السمكة تأتي بسرعة حتى تكاد تلحق بهم. وبعد ذلك تضرعوا ليسوع كي يساعدهم ... وجاءت سمكة أخرى أكبر من الأولى من ناحية الغرب وهاجمتها وتغلبت عليها و ... قطعنها إلى ثلاث قطع.

بعد ذلك وصلوا إلى جزيرة صغيرة عامرة بالفواكه وحملوا منها مؤناً تكفيهم أربعين يوماً، وبعد ذلك

أبحروا خلال العاصفة وخلال الريح. وفجأة اتجه ناحيتهم وحش ضخم وهاجم سفينتهم وكاد أن يدمرها ... والطير الصغير الذي تحدث معهم ... ذهب إلى الوحش ونقر إحدى عينيه في هجومه الأول والعين الأخرى في هجومه الثاني، وقضى عليه.

عقب هذا الهروب أبحروا في مياه صافية لمدة ثمانية أيام قبل أن تهب ريح جنوبية قوية، وبعد أسبوع آخر وصلوا إلى جزيرة مليئة بالروائح الكريهة والدخان. وبينما كانت السفينة تقترب منها سمعوا صوتاً عالياً كئنه الرعد. وبعد ذلك بوقت قصير هاجمهم الشياطين وعلموا أنهم وصلوا إلى حافة الجحيم، ولذلك استمروا في الابتعاد شمالاً إلى أن لحوا تلاً مشتعلاً فوقه سحب ودخان. وهنا فقنوا أحد الرجال. وبعد ذلك دفعتهم العاصفة جنوباً لمدة سبعة أيام، حيث قابلوا شبحاً جالساً على صخرة. كان البحر قد أبلى لحمه كله ولم يترك سوى العظم. كان حول عنقه لسانان وخرقة . كان الرجل هو يهوذا، وكان اللسانان والخرقة يرمزان إلى العاملين الطيبين الوحيديين اللذين في حياتهم؛ ففي يوم من الأيام أظعم كاهناً وكسا أبرص.

وصلوا بعد ذلك إلى جزيرة بول الناسك الذى ظل ثعلب الماء(*) يطعمه طوال أربعين عاماً. ومضوا وأقاموا قداساً مرة أخرى فوق سمكة وبودة، وأخيراً وصلوا من خلال العاصفة والدمار والضباب إلى أرض المعاد. كانت صافية ومضيئة ... وكانت الأشجار مليئة بالفواكه ... وكان التفاح ناضجاً كما فى وقت الحصاد ... ولم يكن الجو حاراً ولا بارداً. وأخيراً وصلوا إلى نهر هو البرزخ الذى يفصل بين العالمين لأنه لا يحق لإنسان الوصول إلى الجانب الآخر منه وهو مازال حياً.

بعد أن بلغ بريندان منتهى بحثه هناك فى أرض المعاد، عاد مرة أخرى إلى أيرلندا وفى النهاية رسا هناك بفرح شديد وقد أمضى أربعين عاماً فى السفر بحراً، وسرعان ما وافاه الأجل^(٢٤).

هذا الحكاية خليط غريب من الحقيقة والخيال، ومن الميثولوجيا المسيحية والكلتية. وإذا تغاضينا عن المسارات التى سار فيها ورضينا بتجارب الرحلة، فإن جزءاً كبيراً منها سوف يصمد عند التمهيص. فربما تقوم جزيرة الصيف الدائم، وحافة الجحيم، والماء الصافى، والصخرة التى فى البحر على تجارب فى المناطق المدارية، حيث كانت البراكين لا تزال نشطة. وقد تعكس مطاردة الوحش وتغلب قوة أخرى عليه مواجهة بين أحد الحيتان وحيوت قاتل. بل قد تكون جاسكوين مستمدة من خبرة السحب فى الضباب أثناء الجزر شديد الاندفاع. ففى هذه الحالات تبدو الأرض وكائنها تترك القارب وليس العكس.

يأتى الرجل الميت الجالس على الصخرة ومعه آيتاه من الماضى الوثنى، وكذلك ثعلب الماء الذى أطعم بول طوال تلك الأربعين سنة. وبالمثل تأتى من الماثورات الكلتية أرض المعاد بتفاحها الناضج دائماً وتعبيرها عن كل الآمال الوهمية الخاصة بمن يمضون حياتهم فى المطر والصقيع، والبرد والبؤس، طعامهم الخبز الأسود والأعشاب البحرية؛ بل والقليل من أى منهما. وكان الأيرلنديون فى العصور الوسطى وما قبلها

(*) كان ثعلب الماء فى العصور الوسطى يرمز إلى المسيح، حيث إنه قتل التمساح الشرير بنى دخل من فمه ودمر أمعائه ثم خرج. وكان أهل العصور الوسطى يرون فى ذلك رمزاً لهبوط المسيح إلى الجحيم لتحرير آدم وجميع الشخصيات المقدسة التى ورد ذكرها فى العهد القديم. (المترجم).

يرون أن رحلة هذا الأوديسيوس الشمالى تثبت واقع تلك الجزر المسحورة التى كانت إلى حد كبير جزءاً من الميثولوجيا الشمالية القديمة.

إن فكرة الجزر المسحورة ملك خاص للشعوب الشمالية لا ينازعها فيه أحد. وهى مثلها مثل الإيمان بالوحوش البحرية شديدة القدم وعالمية فى انتشارها. وكان المسافرون يرون تلك الأراضى فى كل العصور التى لها سجل لدينا - باستثناء القرن الحالى - وفى الوقت الراهن قد لا نزال نحن نؤمن بها، ذلك أن خريطة جزيرة أنتيكا Antiqua فى جزر الهند الغربية تذكر أنها "تحركت بمقدار ميل ونصف". بل إن بعض الأشخاص المهمين جداً كانت لهم تجارب غريبة معها. فقد جنحت سفينة الإسكندر الأكبر على إحدى تلك الجزر المسحورة وهو فى طريقه للاستيلاء على الهند. وقد وجدت تلك الحكايات أرضاً خصبة تنمو فيها بين الكلتيين بما لديهم من إيمان بجزر الموتى والجنة التى وراء البحر. ونذكر أنه حين أصيب الملك أرثر إصابته المميتة أعاد أولاً سيفه إلى إلهة الماء التى كانت قد أعطته إياه، ثم حمل على السفينة وساروا به غرباً إلى جزيرة أفالون حيث ينمو التفاح (فاكهة الجنيات) ليبقى هناك ويعالج من جراحه.

يبدو أن أنواع الجزر المسحورة محدودة. فنحن أولاً لدينا الجزيرة التى لا يمكن العثور عليها مرة أخرى. وهى عادة ما يلفها الضباب، أو تكون الاتجاهات خاطئة، أو تكون مسحورة، أو تنتقل. ونذكر أن تلك كانت بداية آينيشبوفن، وهى أرض المعاد الخاصة ببرندان. وبعد ذلك لدينا الجزر التى تظهر وتغوص متى شاعت. ثم نقابل جزر الزجاج وجزر الثلج، التى هى على الأرجح الشئ نفسه. وأخيراً لدينا عدد كبير من الجزر التى تسكنها الشياطين أو الأرواح الغريبة، أو تؤوى أحد السحرة، أو تكتنفها الأخطار، أو يمثل جوها خطراً على الإنسان.

من السهل إثبات وجود تلك الأشياء إن نحن قبلنا أطر المرجعية المحدودة الخاص بذلك الزمان. فالبهار أبعدته العاصفة عن مساره. وليس لديه معدات ملاحية. وبعد بضعة أيام يصل إلى أرض تظهر من خلال الضباب. يرسو على البر ويعود إلى دياره مرة أخرى. إن احتمال العثور على تلك الأرض مرة أخرى بعيد.

حتى عصور قريبة إلى حد ما، لم تكن ظاهرة جبال الثلج العائمة مفهومة فهماً واضحاً ولم يكن ظهورها في طرق مسافري العالم القديم (ربما باستثناء الفايكنج) كثيراً. وحين كانت تُرى كان الضباب يكتنفها عادة، ولم يكن من غير المعتاد وجود مخلوقات غريبة عليها؛ ثعالب قطبية تراقب بقلق جزيرتها وهي تنكمش، وديبة قطبية، وفقمة، وربما طائر كركر^(*) أو حتى بومة قطبية. وكانت تُبدى حين يسقط الضوء عليها جمالاً يفوق معظم الأشياء التي في هذا العالم. وطبقاً لما قاله المراقبون فإن بها

كل طرز العمارة، من الكاتدرائيات ذات الأعمدة والأقواس والبوابات والأبراج، والصخور المعلقة، وآثار المدينة المسورة، والأهرام والمسلات، والقلاع ذات الأبراج والأسوار والتحصينات والجسور.... والأشجار والحيوانات والبشر.... في البداية كان الواحد منها يبدو كئنه مجموعة من المباني الصينية، ثم كاتدرائية غوطية من الطراز القديم.... كان غريباً في شكله ... الجزء الداخلى منه يكون مرة لونه أزرق ناعم، ثم أبيض يميل إلى الخضرة... ويبدو أن عصراً من الدمار مر عليه تاركاً فقط منظر الصخور الداخلية، أحدها أبيض لامع والآخر أزرق ... زرقاء سماء يوليو. وكان الماء ينساب ... في جداول صغيرة ... تتلألأ كثتها الزجاج المنصهر. وكانت عروق شفافيتها كشفافية الجواهر، وزرققتها كزرققة الصغير، تقطع الكتلة. وعند الشروق والغروب تتخذ أطرافها هيئة ألسنة اللهب. ويُسمع عند سفحه هدير البحر الكثيب في الصنوع الجوفاء^(٢٥)

الجزيرة المؤهلة على وجه التحديد لأن تكون مسحورة أو تسكنها الشياطين هي بيرمودا، التي نجد لها وصفاً معاصراً مناسباً في مسرحية شكسبير "العاصفة". والواقعة أن الجزيرة تستحق الكثير مما قيل عنها. فهي أولاً تقع على بعد أكثر من أربعمئة ميل عن البر. وهي تبرز بشكل شديد الانحدار من أعماق بعيدة. وكثيراً ما يلفها المطر، وتنطلق منها العواصف مزمجرة. وموانئها جيدة ولكن مداخلها ملتوية. كما أن ليس بها ماء عذب ولا يسكنها بشر. وهي تعوض ذلك النقص بوجود مخلوقات ونباتات غير عادية عليها، بما في ذلك عنكبوت وحش ينسج كما يقول جون سميث

(*) طائر شبيه بالنورس . (المترجم) .

شباكه التى تصلح لأن تصنع منها حبال السفن. وخطر هذا المكان فى العصور القديمة أبعد من الخيال. فالسفينة فى إحدى الليالى الشرسة تجرى مئات الأميال قبالة الشاطئ، ولأيام كثيرة فى المياه العميقة بون أن تكون هناك أراض معروفة بينها وبين سواحل أوروبا. وليست هناك أضواء ولا نيران، ولا تحذير حين تكون هناك شعب مرجانية تحت مقدمتها مباشرة (هى الوحيدة من نوعها فى الجزء الشمالى من العالم) طولها ثمانية عشر ميلاً. وتمسح المنطقة سفينة أخرى على بعد بضعة أميال شرقاً أو غرباً البحر فى ضوء النهار، ولكنها لا تعثر على أثر للسفينة أو الطاقم.

وكما هو الحال بالنسبة لجزيرة سيرس *Circe's Isle*، كان بيرمودا زاخرة بالخنازير والماعز التى وضعها هناك المستكشفون الأوائل، إلا أنه كما هو معروف لكل بحار، هناك صلة سيئة بين الخنازير والماعز وكل من الشيطان والساحرات والسحرة. وربما كانت بحارة مسيخوا بعد أن أغرقت سفنهم ساحرات مثل كاليبان *Caliban*. وقد حذر سيلفستر جوردان *Sylvester Jourdan* والسير جورج سومرز *Sir George Somers* والقبطان نيوبورت *Captain Newport* (المدفون جثمانه هناك) وريتشارد نورود *Richard Norwood* وخوان بيرموديث *Juan Bermúdez* جميعاً من الأخطار، وقدم هاكليت *Hakluyt* رأى البحارة العقلاء حين كتب:

كما يعرف كل إنسان سمع أو قرأ عن جزر بيرمودا، فإنه لم يسكنها قط مسيحيون ولا وثنيون، غير أنها اشتهرت وذاع عنها أنها مكان هو الأكثر اتساعاً وسحراً، ولا تقدم شيئاً سوى الرياح والعواصف والطقس السيئ، الأمر الذى جعل كل بحار يتحاشاها، ... كما يتحاشى الشيطان نفسه.

علاوة على ذلك فإن الغابات لم يرتدها أحد والجزر نفسها نادر ما كان يراها أحد (٢٦)

هناك العديد من الأسباب الأخرى القابلة للتصديق بالنسبة للأشخاص الأقل تعليمًا الذين يؤمنون بتلك الجزر الخرافية. فالسحب فى البحر، وخاصة فى المناطق المدارية، تشبه الجزر. وقد يشوه السراب شيئاً ما أو يحيله شكلاً غريباً. فكتلة الأعشاب الطافية على سطح البحر يمكن تشبه الأرض، خاصة فى حال تعذر الرؤية. ويأتى على

رأس ذلك أنه فى أماكن عديدة تظهر المرتفعات الرملية على السطح ثم تغوص مرة أخرى. وقد يجعل عمل المد والجزر الكبير البحارة غير المعتادين على مثل هذه الظاهرة يؤمنون بالجزر العائمة. كما أن البراكين تنثور من حين لآخر وتكون جزراً صغيرة، يبقى بعضها ويغوص البعض الآخر.^(٢٧) وأخيراً فإنه على طول الساحل الغربى للجزر البريطانية وأيرلندا - على امتداد خط الساحل الأطلنطى من أوروبا، فيما يتعلق بهذا الأمر - كان الحطام يصل إلى البر تحمله الرياح وتيار الخليج. قطع البعض منه مسافات غير معقولة؛ وكان يضم رمالاً غروية من المرجان فى البحر الكاريبى أو قطعة بامبو. ومن حين لآخر كانوا يلتقطون فى جزر هيبيرييز الخارجة جور ملقا (ويسمى فاصوليا مارى) ويعتبرونه شيئاً ثميناً بعد رحلة من أمريكا الجنوبية. ولأن الناس لم يكونوا يعلمون شيئاً عن القارات الأخرى، فقد كان من الطبيعى أن يفكروا فى الجزر^(٢٨). ومما لا شك فيه أن تلك الأفكار كانت كامنة فى مؤخرة عقول مستكشفين من قبيل كابتن كوك الذى خرج للبحث عن منطقة خرافية تسمى Terra Incognita؛ التى كانت قد انتقلت فى ذلك الوقت إلى الغرب فى المحيط الهادى.

وعلى البر، فى البرك والمستنقعات، اعتاد الناس على رؤية جزر طافية من الأعشاب والقمامة كانت قادرة على تحمل وزن رجل لفترة قصيرة. فلماذا لا تكون هناك جزر أكبر فى المحيط؟ وكان الإيمان بتلك الجزر الطافية الزجاجية المسحورة له غرضان. فقد كان يفسر لماذا كانت أية سفينة تبحر فوق حافة المحيط ولا تعود، كما كان يعطى أملاً لمن فى الوطن بأن أفراد الطاقم ليسوا ميتين بل يخضعون لتأثير السحر، أو يعيشون فى بقعة ما وسيعوبون منها فى يوم من الأيام بطريقة ما.

وكان الإيمان بتلك الجزر من القوة بحيث جعلها تظهر على الخرائط التى رسمها أفضل واضعو الخرائط؛ حيث تقع جامرز أور Gummer's Ore قبالة ستوكهولم، وأينهالو Eynhallow و هيثر بليثر Heather-Bleather بالقرب من جزر أوركنى. وقبالة كيليبجز Killybegs فى أيرلندا كانت تقع أوبرازيلا O'Brazila التى منحها التاج براءة فى القرن السابع عشر. وإلى الجنوب منها وعلى مسافة أبعد من الشاطئ كانت تقع جزر الموتى الخضراء. (Fiddler's Green) Green Islands of Dead وإلى الغرب منها كانت تقع إل أوف ديموس Isle of Demos فى مدخل سانت لورانس. Saint Lawrence.

قد نضيف إلى تلك الجزر جزيرة سابل Sable Island وبيرمودا الأكثر ثباتاً. وبعض هذه الجزر يحتمل النقاش. فيما أنها تقع في مناطق مختلفة فهي لا تعكس تفكيراً شائعاً في العصور المختلفة وحسب، بل الثقافة السائدة في المنطقة كذلك.

تربط جامرز أور الكراكن الإسكندنافية ومعتقد الجزيرة المسحورة معاً برباط قوى. فقد أفنى رجال حياتهم في البحث عنها، إلا أن قلة كانوا هم المحظوظين. وكان يمكن للصيادين تحديد مكانها بسبر العمق، ذلك أنها كانت تظهر قبل العواصف القوية، وتأتى معها بأسراب ضخمة من الأسماك. وإذا حدد بحار توقيتها بالشكل الصحيح فإنه يحقق ثروة ضخمة من الأسماك، أما إذا بقى أطول من اللازم وخرج الكراكن من البحر، فإنه قد يقضى عليه وعلى صيده وعلى سفينته، ومن المفترض أن يلتهمه هو كذلك. ولهذا فإنه حين كان مسبار الأعماق يصل إلى مستوى معين كان الوقت يحين لمغادرة المكان بسرعة. وحين كان الكراكن يصعد إلى سطح الماء كانت جامرز أور ترى من على مسافة قريبة على أنها جزر صغيرة ذات شكل مستدير به العديد من القمم المرتفعة (٢٩).

تختلف أينهاو بعض الشيء من حيث كونها جزيرة حقيقية. وبما أنها تقع في مياه المد والجزر بين جزيرتي روساي Rousay وبومونا Pomona، فإن اسمها يعنى "الجزيرة المقدسة" باللغة النرويجية، وتشير الروايات إلى أنها موقع أحد أقدم الأديرة في المنطقة. وعلى أية حال فقد كان الناس يظنون أن الجزيرة تخص سكان البحر، وكان من المفترض أنهم يخرجون إلى السطح من حين لآخر. وكان الاعتقاد الشائع هو أنه إذا كان لدى رجل ما الشجاعة وحمل سكيناً في يده واتجه إلى الجزيرة وهو لا يأبه بأي شيء آخر، فإن المكان سوف يفقد سحره. وقد حاول كثيرون ذلك وفقدوا في تيارات الجزر السريعة، إلى أن ركز رجل بصره على الجزيرة حين ارتفعت. لم يأبه بالمحيط الهادر، كما يسمون تيار الجزر السريع، وأمسك السكين، وفاز بالجزيرة واستولى عليها من سكان البحر الذين ما زالوا يجعلون الماء يغلى من حولها (٣٠).

وإلى يومنا هذا يعتقد الناس أنها مسحورة بشكل جزئى. ويقال إنه لا الحديد ولا الصلب يبقى على الجزيرة حتى الصباح، ولا يمكن أن يبقى جرد على قيد الحياة

فيها. والواقع أن طينها مانع للجرذان، ويوضع ترابها تحت صوامع الذرة والمنازل الجديدة في الجزر الأخرى لإبعاد الجرذان والفئران.

تقع هيثر بليثر على مقربة منها. وهي كذلك لم تفقد سحرها ولكن ضباب البحر يكتنفها. وذات مرة كانت هناك شابة اختفت من بيتها على الجزيرة ولم يعرف عنها أحد شيئاً بعد ذلك. ومرت السنون ونسيها الناس تماماً وفقد أبوها وأخوها في الضباب الكثيف أثناء صيد السمك. وفي النهاية وصل القارب إلى البر وهبطا منه وبخلا منزلاً أبيض حيث اتضح أن سيدة المنزل ليست سوى الابنة التي فقدت منذ زمن بعيد. وبينما كانا هناك وصل زوجها وشقيقه وهما يرتديان جلد الفقمة الذي خلعهما عند دخولهما المنزل. وحين انصرف الأب والأخ أعطتهما المرأة سكيناً حديدية تسمح لهما بالعودة إلى الجزيرة متى شاءا. ومما يؤسف له أن السكين وقع من على القارب وعاد الضباب من جديد، ومرت السنون ولم يذهب أحد إلى هيثر بليثر منذ ذلك الوقت (٣١)

أما أوبرازيلا الواقعة على بعد فراسخ كثيرة إلى الغرب والجنوب فتمثل ما يزيد قليلاً عن تحديث وتجميل الرحلة التي قام بها بريندان إلى أرض المعاد. وتقع هذه الجزيرة إلى الجنوب الغربي من كيليبجز وكان الناس لا يزالون يظنون أنها خاضعة للسحر حتى القرن السابع عشر. وفي الأيام الصافية كان يمكن للناس على البر رؤية الجزيرة في بعض الأحيان في الأفق، إلا أنها عادة ما كان يكتنفها الضباب. وفي النهاية، وبعد أن حاول كثيرون العثور عليها وفشلوا، رأى أحد أفراد طائفة الأصحاب Quakers رؤية للمكان وجهاز سفينة جديدة تماماً للرحلة وانطلق، ولكنه لم يكن محظوظاً، كما قد يشك المرء في أحد أفراد طائفة الأصحاب في أيرلندا، وأخيراً وفي الثاني من مارس عام ١٦٧٤ اتجه شخص اسمه القبطان نسيبيه Captain Nisbet من فرنسا إلى أيرلندا ومعه حمولة مختلطة، ودخل في ضباب كثيف في أعقاب ليلة شديدة البرودة. وبعد ثلاث ساعات انقشع الضباب ووجد رجاله أنفسهم على مقربة من جزيرة دفعتهم العاصفة نحوها. وبناء على ذلك ألقوا المرساة في مياه عمقها ثلاث قامات وذهب أربعة رجال إلى البر. مر الرجال في غابة ووصلوا إلى أجمل واد أخضر حيث شاهدوا مستعمرات الأرناب السوداء وغيرها من أنواع الحيوانات - ما عدا الخنازير - والفواكه والخضروات، غير أنه لم يكن هناك أحد من البشر أو الكلاب. وعلى البعد كان

هناك حصن جميل، ولكن أحداً لم يكن بداخله. فى تلك الليلة خرج الجميع عدا واحد إلى البر وأوقدوا ناراً لإعداد طعام العشاء، ولكنه علا صوت هدير جعلهم جميعاً يهرعون إلى السفينة. وفى صباح اليوم التالى التقى أفراد الطاقم برجل عجوز قال إن الجزيرة سحرها ساحر، ولكن السحر فك ويمكن أن يراها الناس بعد ذلك. زود الناس الربان بكل ما يحتاجه وانطلقت السفينة إلى كيليبجز حيث رست محملة بالذهب والفضة. ومما يؤسف له أن الرجل العجوز كان مخطئاً بشأن السحر، ذلك أن أحداً لم ير الجزيرة منذ ذلك الوقت (٢٢).

يفترض أن هذه الجزيرة نفسها، وتحت اسم هاى برازيل Hy-Brazil أو تير نان أوج Tir-n'an-Og، زارها أوسيان (*) فى وقت سابق. ويقال إن هذا البطل تزوج ملكتها، ولكنه منع من الوقوف على صخرة بعينها. ولكنه وقف عليها فى يوم من الأيام وتغلب عليه التفكير فى وطنه. سمحت له الملكة بالعودة إلى أيرلندا ليوم واحد، شريطة ألا ينزل من على حصانه الأسود. نسى أوسيان ذلك ونزل من على الحصان فظهرت عليه آثار السنين. إذ إنه صار على الفور رجلاً فى منتصف العمر، ثم عجوزاً بلغ من الكبر عتياً، ثم قبضة من تراب تناثرت على الطريق (٢٣). ويحتاج الأمر إلى قليل من الخيال كي نرى الخيوط التى يتكون منها نسيج هذه الحكاية.

إذا كان الناس فى كيليبجز قد نسوا هذه الحكاية، فلا يزال هناك من يذكرها إلى الجنوب من ذلك فى أران Aran وغيرها على طول الساحل. والسبب ما يشتهر الساحل هناك بكثرة السراب، ولا يرى الناس جزراً ومدناً فحسب، بل يرون كذلك سفناً (٢٤). ويقولون فى أران إن بالإمكان رؤية هاى برازيل كل سبع سنوات. وكانت حكايات الأزمنة القديمة تتضمن قدراً من وصف صفات الشخص وسماته وقدراته يزيد عما فى حكايات الوقت الحالى.

منذ حوالى ثلاثمائة عام كان صيادان يصطادا الأسماك أثناء إحدى العواصف وجرفتهم الرياح إلى الجنوب من جُرف ضحل قبالة أران يسمى الجُرف الأصفر Yellow Bank. فى الصباح الباكر كانا قريبين جداً من إحدى الجزر بحيث أمكنهم رؤية الأغنام

(*) بطل وشاعر غيلى أسطورى من القرن الثالث الميلادى (المترجم).

ترعى عليها، ولكنهم أبيا أن يرسيا عليها ظناً منهما أنها جزيرة الساحرة. وفي الوقت نفسه تقريباً كانت هناك سفينة أشد جرأة، وحين اكتشف صيادو الأسماك أنهم أمام جزيرة ليست على الخرائط نزلوا إلى البر. وكان يمكنهم رؤية الساحل الأيرلندي بوضوح كبير من على الجزيرة. أبلغهم رجل أن المكان جزيرة مسحورة فغابروه، ولكن ليس قبل أن يتلقى أحدهما كتاباً عن الطب مع تعليمات بعدم فتحه قبل سبع سنوات. اتبع الرجل التعليمات وصار معالماً عظيماً. وهناك قصة مشابهة بدايتها مختلفة. فقد اختطف قاطنو الجزيرة رجلاً اسمه لي Lee وأخذوه ثم سمحوا له بالعودة إلى دياره (٣٥).

على بعد ألفى ميل جنوب غربى كيليبجز يقع خليج سانت لورانس. وطوال قرن قبل زيارة القبطان نسبيه لهامى برازيل كان البحارة فى تلك المنطقة - القريبة من مضائق بيل إل - على علم بجزيرة رهيبة تسمى إيسولا دي ديمونى Isola de Demoni. والواقع أن الناس كانوا يعتقدون فى ذلك الوقت أن ساحل لبراتور بكامله (المعروف محلياً الآن باسم "الأرض التى منحها الرب لقابيل") تنفشى فيه تلك المخلوقات الكريهة مثل الفظ والدب والعنقاء التى تتصارع مع بعضها لتعذيب الإنسان المتحضر، إلا أنه يبدو أن جزيرة الشياطين كانت عاصمتها. وكتب الأب ثيفيت Father Thevet:

هذا كلام صحيح، ولم أسمع من شخص واحد، بل من عدد كبير من البحارة والمرشدين الذين قمت معهم برحلات كثيرة، وهو أنهم حين كانوا يمرون من هذا الطريق كانوا يسمعون فى الهواء على الأشعة العليا أو حول الصواري، جلبة كثيرة لأصوات رجال مختلطة وغير واضحة، كتلك التى تسمعها من جمع من الناس فى أحد الأسواق. وساعتها كانوا يعرفون أن جزيرة الشياطين ليست ببعيدة.

ويمضى بعد ذلك ليروى كيف رأى هو نفسه تلك الشياطين وهى تعذب السكان المحليين إلى أن جاءوه يلتمسون منه العون. وبعد أن تلا إنجيل القديس يوحنا استطاع أن يهزم تلك الشياطين التى كانت وسيمة الهيئة ولكنها تضمر القدر الكبير من الحقد حتى إنها طردت كل السكان (٣٦).

حين مر روبرفال Roberval المستكشف من أمام تلك الجزيرة كان معه على متن السفينة ابنة أخ ارتبطت بعلاقة عاطفية بشاب ممن معه، رغم كل ما فعله للحيلولة دون ذلك. أغضب ذلك نائب الملك الذى وضع الفتاة على البر هناك مع مربيتها العجوز وأربع بنادق. وقبل أن يبحر قفز العاشق الشاب من على السفينة ومعه بندقيتان أخريان وبعض الذخيرة وسبح إلى البر. وهناك أجهدتهم الشياطين وهم بمفردهم، ولكن العذراء مريم تدخلت وأبعدت الشياطين. أخذت تلك المخلوقات تصرخ وتهاجم السكان المحليين ولكنها لم تستطع الوصول إلى العاشقين. حملت الفتاة وضاعفت الشياطين من جهودها. ومع ذلك قاومتهم الفتاة، ورغم أنها قتلت ثلاثة دبة بيضاء عذبتها، فإن طلقاتها ما كانت لتصيب الشياطين. وفى النهاية قضت الشياطين على حبيبها ومربيتها ونزيتها. ومضى عامان وخمسة أشهر. ومرت سفينة صيد على الجزيرة وشاهدت الدخان فاقتربت ووجدت الفتاة وأعادتها إلى فرنسا (٣٧).

كان البحارة والمسافرون القادمون من أوروبا الذين يمرون على هذه المنطقة عموماً يعلمون جيداً بأمر ذلك السحر، وبينما كانوا يعبرون البحار المحيطة بنيوفاوندلاند التى ينتثر فيها الدخان، كانوا يرون فى مرات عديدة جزراً مسحورة (من الواضح أن أكثرها كان جبال الثلج عائمة). وكان جون جوسلين من هؤلاء.

مساء الأول من يونيو، الضباب كثيف جداً، أبحرنا من أمام جزيرة مسحورة ورأينا قدراً كبيراً من القذارة والقمامة طافياً بجوار السفينة، وسمعنا الكودى مودى وطيور النور والغريان (وهى الطيور التى تكثر دائماً عند الشاطئ)، ولكننا لم نر شيئاً بسبب الضباب، الذى كان ينقشع بعد أن يبتعدوا عن الجزر ...

الرابع عشر من يونيو، طقس يكثر فيه الضباب، أبحرنا من عند جزيرة من الثلج كانت تقع على الجانب الأيمن من السفينة طولها ثلاثة فراسخ فى ارتفاع الجبال وعلى شكل الأرض. ورأينا كذلك ثعلبين أو ثلاثة ثعالب أو شياطين تقفز عليها (٣٨).

لا يسع المرء إلا أن يتساءل ما الذى كان جوسلين سيظنه لو أنه رأى المنظر الذى رآه ربان سفينة آخر قبالة كيب هورن فى عصر أكثر استنارة. فقد اصطدمت السفينة ماركو بولو فى أحد جبال الثلج العائمة فى مارس من عام ١٨٦١ حين اصطدمت

السفينة رأى أفراد طاقمها رجلاً كما لو كان نائماً. كان حاسر الرأس، وكانت بجانبه عصا إشارة، وكان شعره يتطاير مع الريح. وبصدرة عامة بدا المشهد تأييداً للمثل الذي يقول إن ما يريده البحر سوف يناله (٣٩).

إذا عدنا ثانية إلى أمريكا الشمالية فسوف نختار جزيرة أخرى، وهي جزيرة حقيقية هذه المرة؛ وهي جزيرة سايل قبالة نوكا سكوشا. إنها على هيئة حبة الخيار، وقد فقد بحارة كثيرون في الخور الذي هناك، بينما تعدت سفن أخرى على حرمتها وغرقت في طقس تتعذر فيه الرؤية أو في العواصف. وكان الناس يظنون كذلك أن هذه الجزيرة مسحورة وأن عليها أناس خارقون يمكن رؤيتهم على هيئة أضواء متحركة في الليل. وقد يكون هناك أساس ما لتلك الحقيقة.

في بداية القرن السادس عشر تقريباً أبحر الماركيز دي لا روش **Marquis de Roche** إلى أمريكا. وكان من بين الذين على متن سفينته أربعون شخصاً صدرت ضدهم أحكام بالسجن أنزلهم على جزيرة سايل، حين ذهب للبحث عن مكان مناسب يقيم فيه مستعمرة. أدت الأمور إلى بعضها ولم يعد الماركيز. أقام المحكوم عليهم بالسجن بيوتاً من حطام السفن القديم وصنعوا ملابس من جلد الحيوانات، واتخذوا لأنفسهم طعاماً من الفقمات والأسماك وكل ما أمكنهم الحصول عليه. وممرت خمس سنوات ونقص عدد المحكوم عليهم من أربعين إلى ثلاثة عشر، بعد أن افترسوا بعضهم البعض. وكان ذلك هو العدد الذي أنقذ وأعيد إلى فرنسا.

مما قيل عن الوحوش والحيات والجزر الغريبة، يصبح من الواضح نسبياً أن معظم تلك الأماكن والمخلوقات موجودة في مياه تكون الملاحة فيها خطيرة. والواقع أن الكثير من الوحوش والحيات قد يكون لها أساس من الواقع، والبعض يمكن فهمه على أنه أساطير نسيت بالكامل. وكانت تلك الأساطير في وقتها تلبي حاجات الناس الذين كانوا يخرجون إلى البحر وتقدم لهم تفسيراً معقولاً لولاه لكان الأمر غير معقول. فقد كانت تؤدي الغرض منها بشكل جيد. وهي اليوم من بقايا الماضي، وما نعرفه منها من السجلات أكثر مما نعرفه من الإخباريين. وقد قال بو **Poe** إن العلم بما له من عين

فاحصة طرد روح (*) الشجر من الغابة وتركه بدون حلم تحت شجرة التمر هندی. فالكثير من الأعماق الكبيرة جرى سبرها، كما مُسح جزء كبير من أرضية المحيطة. ووضعت الجزيرة الأخيرة على الخرائط وسُجلت جيولوجيتها وأزهارها وحيواناتها ومناخها وقيمتها الاقتصادية حتى آخر حبة وبرغوث وأقل الأشياء قيمة. وقد تركت مساحة صغيرة ليختبئ فيها التتین البحري ومساحة أصغر تجد فيها أية جزيرة مسحورة مأوى منعزلاً. فنحن الآن نعلم أن أوسيان لا يمكن أن يعيش أربعمئة سنة، وأنه لا وجود للجنيات. ومع ذلك فإن من الصعب القضاء على خيال الإنسان. ذلك أن لدينا الأطباق الطائرة ولدينا العفريت الجوى (**). وإذا لم يكن لبلاد بريستر جون (***) **Prester John** وجود هنا على الأرض، ألا يمكن أن تقع أرض المعاد هناك وراء النجوم؟ بل إن حتى علماء الرياضيات يعطون أملاً، فهم يقولون لنا إن قانون الاحتمال يشير بقوة إلى أنه لابد أن تكون هناك حياة في مكان ما من الكون. فليحيا العلم الوضعي!

- (*) مهمة أرواح الشجر Hamadryades في الميثولوجيا اليونانية الرومانية هي حراسة الأشجار. وترتبط هذه الحوريات بحياة الأشجار التي تحرسها وتعيش فيها وتموت بموتها (المترجم) .
- (**) مخلوق خيالي يعزى إليه الأعطال التي تحدث للطائرات (المترجم) .
- (***) كاهن وملك مسيحي أسطوري من العصور الوسطى يُعتقد أنه حكم مملكة مسيحية في الشرق الأقصى وإثيوبيا (المترجم) .

الفصل الحادى عشر

الخرافة والعادة والمعتقد

الخرافة هى الصفة التى يبدو أنها متصلة فى المحيط .

جيمس فينيمور اكوير

James Fenimore Copper, The Read Rover-

كثيراً ما قيل إن الرجال الذين يتبعون البحر هم أكثر الناس إيماناً بالخرافات على وجه الأرض^(١) . كما قيل كذلك إن الرجل الذى يخرج للبحر بلا سبب قد يذهب إلى قضاء عطلة فى الجحيم^(٢) . وقبل أن نقبل العبارة الأولى، ونفهم هذا الفصل فهماً أفضل، لابد لنا من محاولة وضع تعريف واف لـ "الخرافة" . *superstition* ولكى نفعل ذلك لابد كذلك من بيان علاقتها بالعادة والمعتقد.

لتحقيق أغراض هذا الفصل، قد يمكن تعريف الخرافة بأنها إيمان راسخ لا تحده قيود لدى عدد من الناس خلال فترة زمنية ممتدة. وأعنى بكونه لا تحده حدود أن المتأمل للخرافة يُترك له الاختيار؛ فهو إما أن يقبلها أو يرفضها. ولهذا السبب تبدأ الخرافات غالباً بـ "عندما" أو "إذا" أو أية عبارة توحى بالاختيار. وعادة ما يتوقع الشخص المتبع للخرافة أنه سوف يُكافأ، بينما يتوقع ذلك الذى يتجاهلها أن يُعاقب. ومن ثم فإن عبارة "فلتر دبوساً وتلتقطته" / وسيكون الحظ الطيب من نصيبك طوال اليوم" تتبعها عبارة "فلتر دبوساً وتدعه راقداً" / وسوف تتدم مراراً طوال اليوم".

السمة الثانية من سمات الخرافة أنها تقتضى القيام بعمل ما من جانب من يؤمن بها. فلا بد أن يبصق حين يرى قطعة سوداء، ويدق على الخشب إن هو أراد ألا تتحطم أماله، ويرسم على نفسه علامة الصليب قبل أن يمر بجوار جبانة.

وأخيراً فإنه يعبر عن الخرافة من خلال نوع ما من وسيلة ما بتعين على التذكر، وهي في أغلب الأحيان نَظْم أو قول موجز لا يساعد المرء على التذكر وحسب، بل ربما يُحْدِث الأثر المطلوب كذلك في جعل الخرافة "تفى بالغرض"، كما في حالة النظم.

وعلى عكس الخرافة، نادراً ما يكون المعتقد بلا حدود تحده، وهو لا يتطلب بالضرورة أى عمل من جانب من يؤمن به. ويبدو أنه يهتم بالأشياء الملموسة أكثر من اهتمام الخرافة بها، وليس بالضرورة أن يكون موضوعاً في إطار يعين على التذكر. فقد كان الناس في إسكوتلندا في وقت من الأوقات يظنون أنه من الحكمة رفع تيس إلى أعلى الصاري لجلب الريح.^(٣) وفي نيوفاوندلاند كان غطاء الكوة المقلوب يعنى الحظ السيئ.^(٤) وكان وجود عقدة في الحبل المربوط في مقدمة السفينة يعنى رحلة طويلة^(٥). وقد رأينا بالفعل أن معظم البحارة يرون أن الغروب الأحمر يعنى نهائياً طيباً في الغد. وإنزالك التيس وقلبك لغطاء الكوة وفكك للعقدة لا يضمن لك رحلة هادئة أو موفقة أو سريعة. وفي حالة الشمس لا يمكن للبحار أن يختار اللون ولم يقل له أحد أن الشمس التي ليست حمراء تعنى يوماً سيئاً.

في أغلب الأحيان يصاحب المعتقد فعل ما. فعلى سبيل المثال يعتقد الناس في نيوفاوندلاند أنك إذا بصقت على أول سمكة تصطادها ثم أعدتها للبحر فستكون موفقاً في بقية صيدك. ولكن بمرور الوقت قد يبقى الفعل ويختفى المعتقد وربما ينسى الناس السبب الذي وراء ذلك الفعل. وقليل من البحارة في الوقت الراهن من يعرف سبب تحيتهم لسطح مؤخرة السفينة حين يصعدون على متن إحدى السفن الحربية، أو سبب رفع مكنسة إلى رأس الصاري بعد الصيد الجيد، أو السبب وراء إعطاء الرجل مالاً لأول شخص يقابله بعد حصوله على ترقية، أو سبب الصفارة التي تُطلق عند مغادرة الميناء. وإذا راعى الشخص كل تلك الأفعال بأمانة فلن تصاحبه البركة، كما أنه لن يعاقب إن هو تجاهلها. إلا أنه يقوم بها ويبتك الأفعال التي أشرت إليها كعادات. والأعراف **customs** قريبة من العادات **habits**.

هناك بطبيعة الحال مناطق رمادية بين تلك التعريفات الثلاثة حيث يحار المرء في تعريف المادة بأنها تنتمي إلى هذه المجموعة أو تلك، ولكن هناك على الأقل قاعدة

وُضعت يمكن الانطلاق منها لتصنيف الأشياء. بل إنه فى حال قبولنا للمفاهيم السابقة الخاصة بالخرافة والعادة والمعتقد، يصبح واضحاً أن البحار ليس بحال من الأحوال مؤمناً بالخرافة بقدر سيطرة المعتقدات عليه.

إن عدد المعتقدات والعادات والخرافات السائدة بين البحارة من الكبر والتنوع والتناقض فى طبيعتها بحيث يبدو لأول وهلة أنه من المستحيل إدراك أى فحوى منطقية لها. إلا أن التمهيص والتدقيق يكشف أنه من الممكن تصنيفها تحت عدد من العناوين. بل إنه ليس من الممكن العثور على أسباب لأصولها وحسب، بل كذلك التعرف على تأثير تلك المفاهيم على الأشخاص المعنيين. وإذا بدا أن بعض النقاط السابقة يتعارض مع بعضه البعض، فإن هذا ليس تعارضاً بقدر ما هو تعديل للمادة كى تتناسب مع بيئة بعينها.

وربما كانت أكبر مجموعة منفردة من الماثورات تتعلق بالخوارق، وبالموتى بصورة خاصة. وبما أن البحار يحيا حياة تكتنفها الأخطار ليس فيها من هو متأكد إن كان سيرى الشمس تشرق فى اليوم التالى أم لا، فمن الطبيعى أنه يهتم اهتماماً مبالغاً فيه بعالم الأرواح. وهذا الاهتمام تضخمه ظروف البحر، حيث يجعل الضباب والثلج والسراب والإجهاد والطعام السيئ والعزلة عن الحياة الطبيعية الرجل من يرى أشياء لا يعيشها فى العادة غيره من البشر بل إنه يسمعها ويحس بها.

أكدت منذ مدة طويلة على أن الخوف من النسيان كان على الدوام القوة المحركة فى الحياة البشرية، ومن المؤكد أنه كذلك فى المجتمع الغربى. ولكى يتحاشى الإنسان هذه الخطر نسب إلى رفيقه الميت روحاً يمكنها أن تتجول فى أنحاء العالم وتساعد الأحياء أو تعوقهم. وهذه الأفكار يمكن رؤيتها فى الميثولوجيا اليونانية حيث ينقل خارون(*) الموتى عبر نهر ستيكس، ويمكن رؤيتها فى الماثورات الكلتية، ذلك أنه لابد من تذكر أنه بعد معركة الملك أرثر مع موريد Mordred وُضع الملك على سفينة وحُمِل

(*) خارون فى الأساطير اليونانية هو المداوى الذى ينقل الموتى عبر نهر ستيكس الواقع على حدود عالم الموتى وكان اليونانيون القدماء يضعون فى قم الميت قطعة نقود يدفعها لخارون كى يعبر به النهر (المترجم).

بعيداً إلى أقالون كى يعالج هناك من جروحه. وحتى قبل ذلك، كان هناك اعتقاد بأن الصيادين على ساحل بريتانى ينقلون كل ليلة أرواح الموتى عبر البحر إلى إحدى الجزر؛ التى يظن البعض أنها ربما كانت إنجلترا، ويعتقد الأيرلنديون أنها جزر الموتى،^(٦) وبالأخص مجموعة من الصخور قبالة ساحل أيرلندا الغربى يطلق عليها الآن أسماء "البقرة" و"العجل" و"العجلة" و"الثور".

وأدين بالفضل لشين أوسوليفان Sean O'Sullivan من لجنة الفولكلور الأيرلندية لترجمته حكاية أيرلندية من القرن السابع عشر عن تلك الجزر. ويبدو أن ملكاً أو إلهاً قديماً يسمى مورجان أراد معرفة كيف مات ربيبه. يخبره شاعر كيف حدث ذلك، ولكن مورجان يرفض تصديقه ويلعنه الشاعر، ولكن الميت جاء من "تاى نون" Tigh Dhuinn (وهى صخرة الثور الحالية) كى يثبت خطأ الشاعر. وطبقاً لما يقوله أوسوليفان فإنه فى عصور أحدث تُحفظ الأسطورة فى حكاية عن ميت يعود من هناك لتسوية نزاع على وصية.

يقال إن البحارة حين يموتون، وخاصة إذا ماتوا فى البحر، يذهبون إلى بولاب ديفى جونز Davy Jones' locker، وهى تسمية رقيقة للشيطان والجحيم، ولكنهم إذا كانوا أشخاصاً مؤدبين فالاعتقاد أن الحال ينتهى بهم فى جنة عازف الكمان Fiddler's Green، وهى جنة تحت البحر لا تختلف عن أرض الحوريات (وترتبط كلمتا "عازف الكمان" و"جنة" بالجنيات)^(٧). وبالنسبة لهذا الأمر، فهى لا تختلف كثيراً عن المنزل الموجود تحت الماء الخاص بسكان البحر، وبذلك يربط بين المفاهيم المسيحية وما قبل المسيحية من خلال صورة الجنة.

نجد هذا المثال اللافت للنظر لخلط الأفكار فى حكايتين أيرلنديتين طويلتين؛ نرويها هنا باختصار.

غادر ستة عشر رجلاً الميناء فى سفينة. إلا أن الناس أخذوا يرونهم بعد فترة قصيرة فى أنحاء قريرتهم فى الليل. فى البداية كانوا ساكنين، ولكنهم أصبحوا بمرور الوقت أكثر جرأة وأدرك أهل القرية أنهم ليسوا أمواتاً بل أسرى لدى الحوريات. وفى يوم من الأيام اقترب أحد هؤلاء الأسرى من رجل يدعى أوبويل O'Boyle وأخبره أنهم

فى واقع الأمر أسرى الحوريات، ولكن لأنهم لا يريدون أن يصبحوا من السكان الدائمين فى مملكة الحوريات الكائنة تحت الماء، فقد رفضوا تناول أى طعام هناك. وبدلاً من ذلك كانوا يجولون فى القرية ليلاً بحثاً عن طعام بلا ملح وكانوا يهلكون جوعاً. كما أبلغ أوبويل أنه من الممكن إنقاذهم إن هو استجمع ما يكفى من الرجال لمحاربة الجنيات فى ليلة معينة من شهر نوفمبر. ولكى يضمن أهل القرية الانتصار لابد أن يكون كل منهم مسلحاً بسكين ذى مقبض أسود، وأن يدهنوا أنفسهم وأرض المعركة القريبة من قرية كيلجاليجان Kilgalligan بخليط من زيل الدجاج والماء المقدس قبل المعركة، وأن يأتوا معهم بكاهن.

أشاع أوبويل الخبر وحشد مجموعة لا بأس بها تضم كاهناً أيد المغامرة بكاملها. وقبيل المعركة أثبت الكاهن أنه جبان ورفض الذهاب. وحين رأى كثيرون من المجندين ذلك خارت عزيمتهم وكان لابد من تأجيل الخطة. وجاءت الساعة الموعودة ومضت وشاهد الرجال البؤساء يسирون على الشاطئ مع الحوريات وهم يبكون بحرقة. وشاهد عدد قليل من الرجال لبعض الوقت فى أنحاء القرية، ولكنهم فى النهاية اختفوا للأبد فى عالمهم الأخضر والذهبي تحت البحر، حيث الزمن مجهول والريح لا تهب^(٨).

وتأتى الحكاية الثانية من جزيرة صغيرة قبالة الساحل الغربى:

فى ليلة من ليالى شهر نوفمبر كانت امرأة من جزيرة شارك عائدة إلى بيتها فى ساعة متأخرة من اليوم فجلست تستريح، وفى الحال جاءها شاب وتحدث إليها. قال: "انتظرى قليلاً وسوف تشاهدين أجمل رقص رأيت فى حياتك، هناك عند سفح التل."

نظرت إليه بثبات. كان شديد الشحوب وكان يبدو حزيناً.

سألته قائلة: "لماذا أنت حزين وشاحب كما لو كنت ميتاً؟"

فأجابها: "انظرى إلى جيداً. ألا تعرفينى؟"

قالت: "نعم أعرفك. أنت برايان الصغير الذى غرق فى العام الماضى وهو يصطاد.
ما الذى جئت من أجله؟"

قال: "انظرى إلى سفح التل وسوف ترى أنى أنا هنا."

نظرت ورأت مجموعة كبيرة ترقص على موسيقى جميلة. وكان بينهم الموتى الذين
قضوا نحبهم على مدى ما يمكنها تذكره من زمن؛ رجال ونساء وأطفال، جميعهم
يرتدون ملابس بيضاء، وكانت وجوههم شاحبة كضوء القمر.

قال الشاب: "والآن فرى بحياتك، ذلك أنه إذا أتت بك الجنيات إلى الرقص فلن
يمكنك تركهن بعد ذلك."

ولكن بينما كانوا يرقصون جاءت الجنيات ورقصن حولها فى دائرة وقد أمسكن
بأيدي بعض. وقعت الشابة على الأرض مغشياً عليها، ولم تدر شيئاً إلى أن
استيقظت فى فراشها فى البيت. ورأى الجميع أن وجهها شاحب شحوب الموت،
وعرفوا أن الجنيات مستها. ولذلك استدعوا الطبيب وجربوا كل إجراء لإنتقاذها،
ولكن دون جدوى، ذلك أنه ما إن أطل القمر فى تلك الليلة حتى سُمعت موسيقى
هادئة منخفضة الصوت حول المنزل وحين نظروا إلى المرأة كانت قد ماتت^(*).

الفكرة التى عبر عنها فى الحكايتين - وهى أن الأموات غالباً ما لا يختفون اختفاءً
تاماً - فكرة شديدة الشيوع. فهم كثيراً ما يعوون فى صورة جسدية ليترددوا على
البقعة التى ماتوا فيها^(*). وإذا حدث أنهم فُقدوا فى البحر غرقاً أو حدث لهم أى مكروه
آخر ولم يُدفنوا الدفن اللائق، فقد يكون من المؤكد تقريباً أنهم سوف يبقون باعتبارهم
أرواحاً فى البقعة التى فُقدوا عندها أو يعوون إليها فى ببعض الأحيان كى يخيفوا
زملاءهم القدامى على السفن أو غيرهم فى المنطقة القريبة، أو يقدمون لهم العون
والمساعدة.

(*) راجع الفصل الخامس بالعفاريات فى "الناس فى صعيد مصر"، وينفريد بلاكمان. ترجمة أحمد
محمود، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢١١-٢٢٢.

وبسبب الاحتمال الحالى لعودة الأشباح والاستقبال غير المؤكد الذى تستقبل به أصدقاءها، فإن البحارة لا يرغبون فى أى تعامل معها. فى إسكوتلندا مات رجل عجوز على جزيرة مك **Muck** وظلت جثته ملقاة على الأرض ثمانية أيام إلى أن وجدت سفينة لتنقله إلى الجبانة^(١٠) ومنذ سنوات توفى قبطان سفينة فى بيرمودا وكان له طلب غير عادى. فقد كان يحب الجزيرة جداً حتى إنه طلب أن يدفن قلبه فيها بينما يُعاد جثمانه إلى إنجلترا. امتثل ابنه لطلبه فأخرج قلبه ودفنه على الجزيرة. ولعلمه بتردد أفراد الطاقم فى حمل جثمان على السفينة، فقد لجأ إلى حيلة لافقة للانتباه. فقد وضع الجثة فى برميل روم ووضعها على متن السفينة نون أن يعرف الطاقم شيئاً عن هذا الأمر. وفى منتصف الطريق فى المحيط اكتشف شخص ما الروم وأحدث ثقباً فى البرميل وشرب ما فيه. وصل الميت إلى الديار فى تابوت جاف^(١١).

وفى أجزاء كثيرة من العالم، وعلى الأخص فى الأقاليم البحرية الكندية، كان البحارة يظنون أن مجرد ذكر اسم ميت سوف يأتى به بين الأحياء، ولذلك كانوا يتحاشون الحديث عن رفاقهم الموتى. وحتى حين كان ذلك ضرورياً، لم يكونوا يشيرون إليهم على أنهم موتى. ويضع البحارة فى نونفا سكوشا ونيوفاوند لاند، على سبيل المثال، كلمة "المسكين" دائماً قبل اسم المتوفى حين يكون الحديث عنه ضرورياً^(١٢).

بالطبع فإن إحدى طرق حماية الأحياء من الموتى هى دفن الجثمان الدفن اللائق مع كل مراسم الوداع المصاحبة لذلك. فالجثمان يُغسل ويلبَس ملابس نظيفة، ويخيط عليه صانع الأشرعة بحرص قماشاً من قماش الأشرعة، كما أوضحنا فى فصل سابق. تربط أثقال فى القدمين (فى الأزمنة القديمة كانت تربط قذيفة وزنها اثنا عشر رطلاً)، ويوضع الجثمان على منصة ويغطى بالعلم، وتلقى السفينة المرساة. وكان أفراد الطاقم يجمعون عند مقدمة السفينة ويقرأ القبطان أو وكيل القبطان قداس الدفن. وبعد ذلك إما أن يجرى إنزال الجثمان من على جانب السفينة أو ينزل من على متن السفينة بحيث يكون القدمان فى المقدمة. ولكن الأمور لا تسير دائماً كما هو مخطط لها. ويتذكر القبطان دين ماكفارلين **Dean MacFarlane** من كاريكو بجزر الهند الغربية دفناً بحرياً:

غابت هنا [كاريكو] متجهاً إلى جويانا. وكان لى زميل على السفينة اسمه سيجيت باتريس Sigette Patrice كان شخصاً يكثر من الشراب. كان يشرب كثيراً، كثيراً، كثيراً. وفى يوم من الأيام جاعى وطلب منى إن كان معه نقود أن أعطيه كى يشتري زجاجة نوع ما من الشراب ليشرىها. إننا فى موضع قول الحق الآن. أعطيته مائة دولار. قلت: "هذه هى كل النقود التى معى. ليس معى فكة." ذهب واشترى زجاجة Seven Seas، تعرفها، وشرىها على السفينة وغادرتنا إلى جويانا.

كان قد مضى يومان تقريباً على إبحارنا. كنت تقريباً عند دائرة عرض بامارون ولكن بالقرب من البر؛ أعنى بعيداً فى الخارج كما تعرف. فى الليل قال إنه يشعر بتوعلك وذهب لتشغيل الطلمبة. إنها طلمبة البخار، وهناك حبل تسحبه لكى تبدأ الطلمبة ويعد أن شغل الطلمبة مشى وعاد إلى المؤخرة. وفى المؤخرة وخلف صندوق العجلة، حيث رقد هناك. نادى الشخص الذى على العجلة وقال "هل العم (كنا نسميه العم سيجيت) يحتضر أم ماذا؟" وعندما ذهبت لأرى ما يجرى كان يتقيأ ولكن القىء كان كله دم. ولذلك استدعيت ابنه. كان ابنه يتولى تشغيل محرك السفينة. استدعيت الابن وقلت له "يا بنى، أبوك يعانى من شىء ما."

جاء الفتى، وفى الوقت الذى جاء الفتى ناداه "ماذا حدث يا أبى؟" وغير ذلك وجلس ووضع رأسه على الفتى. كان ميتاً. لقد مات. كانت ليلة سبت وقررت أن تذهب السفينة إلى جورجيتاون، وكنا سنصل جورجيتاون فى اليوم التالى. وبعد قليل حدث شىء فى غرفة المحركات. المحرك. أصاب المحرك عطل ما. المحرك تعطل أو شىء كهذا. نزل الفتى. ترك أباه هناك. كان ميتاً هناك، ونزل. وظل الفتى يحاول ولكن المحرك لم يعمل. لم يدر المحرك! وعندما عاد إلى هنا قالوا إنه أبلغ الناس أنه يريد أن يدفن فى البحر. قال للناس صراحة إنه لا يريد إزعاج أحد. إنه يود أن يكون له قبر بحرى.

لم يعمل المحرك ثانية. حدث شىء للمحرك ولم تكن لدينا قطع غيار على السفينة. وجاءت الرياح غيرت اتجاهنا ناحية الجنوب. لم استطع تحديد المسار سوى جنوب غرب وقليل جداً. كانت الأمواج هى التى تحرك السفينة. سرت فى اتجاه البر.

سرت فى اتجاه البر ولكن حين لمحت البر رأيت بامارون ولكنى لم أر البر معه لأنه فى ليلة السبت - الأحد لم نلمح أية أرض، لأن الريح لم تكن تهب والمحرك لم يكن يعمل. ولذلك لم نر البر وكان الرجل - وتعلم كيف يكون الحال - قد بدأ ينتفخ وغير ذلك. ولذلك اتخذت قرارى. قلت "إنى يا أولاد، تعلمون أنه لابد أن نفعل شيئاً". طلبت الابن وأبلغته. قلت "ما الذى يمكن أن نفعله يا بنى؟ أنا أسف. إنه والدك وقد حاولنا فى الواقع أن نقدم له مقبرة على البر، ولكنك ترى أنه لا يمكن أن يبقى هنا. ولا يمكننا أن نفعل شيئاً أفضل من ذلك." كان يبكى ولكنه قال إنه لا يمكننا أن نفعل ما هو أفضل. وكان لدى شخص هولندى على السفينة، وقال هذا الشخص إنه يمكنه تفسيه.

أمسك سكيناً وشق الملابس التى يرتديها وأتى ابنه من حقيبتة ببيجامته وألبسوه إياها وكان لدى قماش مرتبة أسخلناه فيه وربطناه برفق وخططنا عليه قماشاً وغير ذلك وتلا وكيل القبطان شيئاً من كتاب صلواته، وكان وكيل القبطان مستعداً وكل شيء. وحين كان كل شيء جاهزاً وضعناه فى المكان المعتاد وجعلنا السفينة مواجهة للريح. لم يكن هناك الكثير من الريح وتوقفت السفينة. لم يكن هناك سوى مهمة. لم تكن هناك ريح وكانت هناك مهمة وحسب وكان المد شديداً، وبالطبع عرفت أن المد قوى وربطته ووضعت حبلاً فى رأسه ونيله وأنزلته من على السفينة وكان وكيل القبطان يقرأ عليه، يقرأ الموعظة وغير ذلك، وسحبنا الحبل وتركناه يذهب.

لكن هناك غلطة ارتكبتها. ارتكبت غلطة وهى أننا نسينا، بينما كان الجميع شديدي الحزن وكان الكل يبكون عليه. لم أتذكر قط أن أربط ثقلاً فيه. ويعد أن تركوه يذهب لن يفوص فى القاع. سوف يطفو. وأخذ الرجال يراقبون وظل يمضى ونحن نراقبه لفترة ثم ذهب. لم نستطع أن نفعل غير ذلك. وهكذا ذهب. لقد دفناه فى البحر وقرأ وكيل القبطان كما يقرعون على البر. قرأ موعظة عابية صغيرة وغير ذلك، وأنزلناه ولكن كان يجب علينا فى الواقع أن نربط فيه ثقلاً. فحين تدفن رجلاً فى البحر لابد أن تربط فيه ثقلاً وحين تتركه يذهب سيذهب. لا يهم إن كان سيهبط إلى القاع أو أين يذهب. لابد أن تربط فيه ثقلاً. لقد رأينا بعد أن تركناه يمضى وكان ذلك خطأ. كان لابد أن نربط فيه ثقلاً^(١٣).

هناك نقطتان مهمتان لابد من الإشارة إليهما. فالحكاية تعد ملحاً لأغنية Pappy You Done Dead لنathan Phillips، كما أنها تشير بقوة إلى أن فشل السفينة في الوصول إلى البر يعود إلى روح الميت.

ومع أنه من الواضح أن القبطان ماكفارلين كان يشعر بالضيق من خطئه غير المقصود، فإن تلك الأخطاء تكون في بعض الأحيان مصدراً لقدر كبير من التسلية. فعلى إحدى الجزر في مين توفيت امرأة عجوز في منتصف الشتاء. كانت الأرض صلبة وتردد الرجال في حفر القبر. بل إنهم اكتشفوا أنه لا يوجد خشب لصنع التابوت، وظلت السيدة العجوز ممددة في الركن بينما كان الأصدقاء والأقارب يقررون أفضل ما يمكن عمله. وفي النهاية قال أحدهم مقترحاً: "لنا لا ندفنها في شراع السكونة الأمامي؟" كان الرد "إنه أكبر من اللازم." بالإمكان ثنية إلى نصفين. وبناء على ذلك ثنوا الشراع الأمامي وخيطوه على الجثمان. ولكن قبل أن يفعلوا أي شيء آخر أخذت الحفيدة تبكي بمرارة. لم أظن قط أنني سأرى اليوم الذي تذهب فيه جدتي العجوز المسكينة إلى الجحيم في شراع أمامي مطوي. وفي نسخة إنجليزية من هذه الحكاية أسقطت راكبة إحدى السفن في البحر وقد ربط فيها ثقل من الفحم، وكان التعليق على ذلك هو "لم أظن قط أن السيدة العجوز ستأخذ فحمها معها إلى الجحيم" (١٤).

وفي جزر الهند الغربية، حيث تراحم الأرواح الأحياء في الحصول على مكان، هناك عادة لافتة للانتباه تتعلق بالربابنة الموتى تشبه من نواح عديدة الممارسة النرويجية الخاصة بالتخلص من ربان السفينة بوضع جثمانه في سفينته وإضرام النار فيها وتركها تبحر بالجثمان.

في وقت ما بين السنة والسبع سنوات بعد موت أحد الربابنة، كانت أسرته تقيم وليمة الحجر stone fête لإقامة شاهد قبره. إلا أن ذلك ما كان ليتم إلا بعد أن يتأكدوا من أن الجثة قد تحللت. وتعد أسرة الرجل وليمة كبيرة ويدعى إليها الجميع. وكانوا يجهزون برميلاً كبيراً بالصواري والأثر رعة مثل سفينة الريان وتتصل به سلسلة مرساة. ثم يختارون عريف ملاحين يجمع طاقماً. توضع حمولة ما على السفينة التي "تبحر" إلى مكان معين، حيث تفرغ من حمولتها وتوضع حمولة أخرى. ثم تبحر

السفينة من جديد. ويمضى الطاقم الصورى الليلة كلها فى شرب الروم وغناء الأغاني وجر السفينة الصورية وسط الجمع. وفى الوقت المحدد ينهالون عليها بالعصى والجنائز إلى أن تتحطم. ويتحطيم البرميل يُطلق شبح الربان المتوفى ويُفترض أنه لن يزجج الأحياء بعد ذلك.

تمشياً مع الخرافات والمعتقدات الخاصة بالموتى، كانت هناك ممارسة غريبة تُتبع حتى وقت قريب فى جزيرة بيكيا فى جزر الأنتيل الصغرى. وفى الأيام الخوالى، حين كان النقل على الجزيرة ضعيفاً، كان الموتى يُحملون فى الغالب إلى الجبابة بالقوارب. وفى تلك الأوقات كان المراكبية يستخدمون "ضربة الموتى"، حيث تكون ضربة فى الماء ثم يجعلون المجاديف فى وضع أفقى وتكون الضربة التالية فى الهواء. ثم توضع المجاديف فى وضع أفقى من جديد وتكون الضربة الثالثة فى الماء. وبذلك فإن كلاً من الجسد والروح ينقل إلى أرض الدفن^(١٥).

كان الاعتقاد العام والشائع فى حال فقدان رجل ما حياته فى البحر دون أن تُجرى له أية مراسم دفن، هو أنه سوف يتردد على المنطقة، أو يعود إلى سفينته القديمة حين تمر من المنطقة التى فقد فيها، أو ربما يصعد على متن سفينة أخرى إن هو أخفق فى العودة. وكان ذلك يَصْدُقُ بشكل خاص حين كانت إحدى السفن تجنح بكل طاقمها. لنبحث هذه المأساة التى وقعت منذ قرن مضى، لتوضيح هذه النقطة.

كانت "هاسكل" Haskell سكونة جديدة أبحرت من جلوسستر بولاية ماساتشوستس حين أُلقت مرساتها ذات ليلة فى مخاضة جورجيز. وكانت ترسو خلفها السفينة "جونستون" Johnston. وأثناء الليل هبت عاصفة وانفصلت هاسكل عن حبالها وارتدت فى اتجاه الرياح وانحرفت جونستون عن مسارها. وقبل أن يرفع أحد على أى من السفينتين يده ضربت هاسكل منتصفها وغرقت جونستون بطاقمها. ولم يلحق بهاسكل سوى ضرر بسيط وعانت إلى جلوسستر.

بعد ذلك بفترة قصيرة عادت هاسكل إلى جورجيز وأُلقت مرساتها. وفى وقت ما أثناء نوبة الحراسة الوسطى فُزع أفراد الطاقم حين رأوا ستة وعشرين رجلاً مبللين أشكالهم مخيفة يزحفون على درابزينها. لم ينطق أحدهم بكلمة؛ ولكن رجلاً اتجه إلى

العجلة فى المؤخرة، ووقف آخرون عند حبال رفع عوارض الأشرعة. وفك آخرون معدات صيد السمك واصطفوا على الدرايزين ليصطادوا سمكاً شبحياً. وظلوا هكذا حتى مطلع الفجر حيث اختفوا. وفى كل مرة كانت تذهب فيها هاسكل إلى جورجيز كان الصيادون يصعدون إلى متنها، حتى بات فى النهاية من غير الممكن العثور على بحارة يخرجون عليها، وظلت واقفة على أحد أرصفة جلوسستر حتى تحطمت (١٦).

وفى مناسبة أخرى دفعت الريح أثناء إحدى العواصف سكونة اسمها "نورنر ن لايت" Northern Light إلى مخاضة جورجيز. وقبل أن تعرف أين هى كانت تحيط بها مياه بيضاء وبدأ أنه من المستحيل أن تنجو السفينة من الغرق. وحين تبدد كل أمل فى إنقاذها تجمع فوقها عشرون بحاراً يقطرون ماء على الدرايزين ثم قابوا الربان وأفراد الطاقم إلى عنبر البحارة وتولوا هم أمر السفينة. كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الريح فى الأشرعة وهدير البحر الذى يتصاعد ماؤه عليها. وفى صباح اليوم التالى أدهشهم أنهم وجدوا أنفسهم على متن السفينة وقد نشرت كل أشرعتها وكانت تسرع فى اتجاه البرجين التوعم على جزيرة تاتشر Thatcher's Island. كان اليوم جميلاً وكانت الريح خفيفة ولم يكن هناك أحد على السطح (١٧).

كما توضح الحكاية السابقة فإن هذه الأشباح مفيدة أحياناً للبحارة الذين يعانون من الضيق والإجهاد؛ فهى إما تحذرهم من مشكلة وشيكة أو تنقذهم فى وقت شدتهم. ونتذكر أن جوشوا سلوكوم حصل ذات مرة على ذلك العون حين أصابه الإجهاد أثناء عاصفة عاتية. فقد صعد على متن سفينته أحد أفراد طاقم "كولومبس" بقبعته الحمراء وتولى عنه القيادة كي يتمكن هو من أخذ قسط من الراحة (١٨).

كانت "فيستا بيرل" Vesta Pearl، التى تسير بمحاذاة الساحل من سانت جون St. John فى نيو برونسويك New Brunswick، سكونة بنيت فى القرن التاسع عشر. كان على متنها طاقم من خمسة أفراد، ولكن ربانها مات وكان الناس يعتقدون أن على متنها "بولترجايست" (*). ولكن على خلاف هذا النوع من العفاريت، كان هذا العفريت

(*) poltergeist فى الخرافة الألمانية عفريت شرير يحدث جلبة وصخباً ويقذف الأشياء فى الهواء.

(المترجم)

فى كثير من الأحيان مُعِينًا، وإن لم يكن أحد يراه إلا من يمسك الدفة. وحين كانت السفينة بحاجة إلى تقصير الأشرعة واستدعى كل الرجال لذلك، كان الرجل الممسك بالدفة يرى باستمرار خمسة رجال يقصرون الأشرعة. ورغم طبيعة البولترجايست المُعينة كان الناس يخافون منه، وكان أفراد الطاقم ينامون على الشاطئ حينما يمكنهم ذلك^(١٩).

هناك حكاية فى أيرلندا عن بحارين كانا صديقين حميمين. وفى يوم من الأيام وبينما كانا يقفان تحت رأس إيريس، أقسم أحد البحارين أنه فى يوم من الأيام، حياً كان أم ميتاً، سوف يساعد صديقه فى ساعة الشدة. ومرت سبع سنوات وأُرسل أحد البحارين إلى أعلى ليكون مع بحار آخر فى منصة المراقبة. نظر من أعلى ولدهشته رأى صديقه واقفاً على السطح يحثه على النزول. تردد الرجل الذى أعلى لأنه قد يحاكم عُرفياً، واقترح الرجل الذى أسفل أن بإمكانه إسقاط سكينه والنزول وراعاها بون التعرض لآى أذى. فعل ذلك، وبينما كان فى منتصف الطريق إلى السطح سمع صرخة ونظر لأعلى فرأى منصة المراقبة تسقط عليه. ورغم كل ما فعله أخذه الحطام معه إلى أسفل وسقط على السطح. قُتل زميله، أما هو فأصيب إصابات طفيفة، إذ كان على مسافة أكبر أسفل الصارى ولم يسقط لمسافة بعيدة. لم يكن البحار يعلم أن صديقه الحميم قد مات منذ وقت مضى. فلم يكن الحى هو الذى أوفى بعهده، وإنما الميت^(٢٠).

تأتينا من نونفا سكوشا، حيث كثيراً ما يقابل الناس الأشباح، حكاية لافتة للانتباه ذات طبيعة مختلفة بعض الشيء. فقد كانت سفينة تقوم بالصيد قبالة جورجيز فى يوم عاصف من أيام الشتاء حين قابل أفراد الطاقم غريباً عند طاولة الخرائط يكتب على لوح إربواز (كانوا يحتفظون به قديماً كمسودة للسجل). نادى فرد الطاقم المفزوع على القبطان الذى نزل؛ ولكن الرجل اختفى. ولكن لابد أن شخصاً ما كان هناك، ذلك أن لوح الإربواز كانت عليه رسالة: "غير مسارك إلى شمال شمال غرب وفى وقت معين سوف ترى سفينة تنقلب على جانبها وأفراد الطاقم معلقين بها." غير مسار السفينة بتردد، وبعد الوقت اللازم وصلوا إلى حطام سفينة معلق عليه ستة عشر رجلاً التقطوهم. كان رجلاً واحداً قد فقد^(٢١).

والى الجنوب من ذلك فى تشيسابيك، هناك حكاية مختلفة اختلافاً طفيفاً. شاهد قبطان جمجمة تظهر فجأة على جانب مقصورة القيادة. نادى القبطان المفزوع على وكيله فراها هو الآخر. غير الربان المسار فى الحال إلى الاتجاه الذى كانت تنتظر إليه الجمجمة ووصل فى الوقت المناسب ليلتقط بعض الناجين من سفينة غارقة (٢٢).

نجد نموذجاً للشبح الذى يزور صديقاً أو قريباً فى حكاية رواها القاضى هادلوك Hadlock من سيل هاربر بولاية مين. فائتاء "عاصفة ٩٨" كان إيمز هانسون Ames Hanson يصطاد السمك فى جرانج بانكس Grang Banks فى سكونة جديدة وكان شقيقه فى سفينة قديمة. وبعد منتصف الليل بقليل ذهب إيمز إلى القبطان وقال "لقد مات شقيقى يا قبطان."

"أنت مجنون! كيف عرفت؟"

"رأيتَه يمشى فى اتجاهى على الماء وقال لى وداعاً."

"كلام فارغ، فهذا لم يكن سوى حلم."

"لا يا سيدى، لم يكن حلماً. لقد مات أخى." وهذا ما ثبت أنه حدث بالفعل. فلم يسمع أحد شيئاً عن شقيقه ولا عن السكونة التى يعمل عليها بعد ذلك.

إلا أنهم يعتقدون أنه حتى الموتى الذى يدفنون بالطريقة الصحيحة يظهرون من حين لآخر، إما على هيئة شبح أو بولترجايست، فى بعض الأحيان لمساعدة الأحياء أو لإعاقتهم. فقد سقط ربان قارب الإرشاد فى سندرلاند Sunderland بإنجلترا ميتاً على السطح منذ عدة سنوات، وقيل إن خياله يُشاهد على السفينة من حين لآخر (٢٣). وقد ابتلى يختان أحدهما يملكه رجل إنجليزى اسمه ديفيد كايل David Kayll والآخر لقبطان إنجليزى من جزر الهند الغربية بالعفاريت. وفى الحالة الأولى غير المالك الرأس (التواليت) وفتحة السقف. وكانت السفينة قد ابتليت بـبكر وجنازير تصلصل تصحبها طرقات ووقع أقدام ثقيل على السطح. وفى الحالة الثانية ظهرت المشكلة بعد الاستعاضة عن أشرعة السفينة بتصميم أحدث. وكانوا فى الصباح يجدون حبل رفع الأشرعة ملفوفاً على الصارى فى العالى، بينما لا يزال الشكال مؤمناً ومغلقاً بالسلك.

وكانت حافة الشراع الأمامية ملوية بون رفعها عن الصاري. وبالإضافة إلى أشياء أخرى، كان الطعام يُنقل من مكان ويوضع في مكان غيره. وفي الحالتين كانت السفينتان قبل ذلك من أملاك وتصميم شخصين شديدي الدقة طلبا أن يكون كل شيء "هكذا بالضبط". وقد اشتريتا وعدلتا بعد موت المالكين الأصليين. وفي الحالة الأولى حُلت المشكلة ببيع السفينة ونقلها هي وطاقمها المتعب لشخص آخر كي يتعامل معهم. وفي الحالة الثانية يعتزم المالك الحالي أن يعيد للسفينة أشرعتها الأصلية وهو متأكد من أن هذا سوف يحل مشكلته. والواقع أنه منذ أن أعلن عما يعتزم القيام به أصبحت زيارات العفاريث أقل بشكل ملحوظ^(٢٤).

يعتقد الناس أن الموتى إما يسافرون من البقعة التي قضوا فيها نحبهم للقيام بزيارة سريعة، أو يعوبون إلى البقعة التي ماتوا فيها إن كانوا قد دُفِنوا في مكان آخر. وتُروى في البحر الكاريبي حكايات كثيرة عن قباطنة السفن الذين حملوا بون أن يدروا مثل هؤلاء الأشخاص الذين يسمون [*la jablesse (la diablesse)* العفريثة] من جزيرة إلى أخرى ظناً منهم أنهم أناس حقيقيون. وحين كانت السفينة تصل إلى الميناء كانت "العفريثة" تدفع الأجرة للربان وتنزل على البر. وبمجرد اختفائها كان القبطان يدرك حمقه. فبدلاً من الأجرة التي ظن أنه تلقاها، يكتشف أن معه كيساً مليئاً بطوراق الشجر وروث الماعز^(٢٥).

وطبقاً لما قاله مالكوم ماك دونالد **Malcolm MacDonald** الذي يتولى تشغيل المحرك على السفينة "جيرل فيفيان" **Girl Vivian** من فريزربرج بإسكوتلندا، فقد كان كانت هناك جبانة قديمة تسمى **Uig** على جزيرة ليويس بجزر الهيريديز. ومنذ سنوات كانت عادة الناس أن يرعوا ماشيتهم في الجبانة ليلاً، ويتركوا امرأة عجوز تحرسها. وفي ليلة معينة كانت السيدة العجوز تحرس الماشية وكانت تمضي الوقت في غزل الخيوط. وفي منتصف الليل (الاعتقاد الشائع أن هذه هي الساعة التي يبدأ فيها الموتى السير) أدهشها إلى حد ما رؤية كل المقابر تُفتح وتخرج منها الأشباح. انطلق الجميع في اتجاهات مختلفة. وقبل ضوء النهار بقليل عادت الخيالات وأغلقت المقابر عليها؛ ما عدا قبر واحد ظل مفتوحاً.

قررت المرأة العجوز اكتشاف أين كانت الأرواح ووضعت فلكة مغزلها (وهي على شكل المسيح مصلوباً الذي لا يمكن أن يمر بجواره أى شبح طبقاً للمعتقد الشائع) على المقبرة. ومع بصيص الضوء ظهرت الروح الصغيرة الأخيرة واندفعت نحو القبر، لتجدها تسد عليها الطريق. توسلت للمرأة كي تبعد فلكة المغزل، ولكن السيدة العجوز رفضت أن تفعل ذلك قبل معرفة أين كانت الروح، ومن هي، ولماذا تأخرت. قالت لها الروح:

"أنا ابنة ملك النرويج ومنذ سنوات بعيدة أرسلنى أبى إلى إسكوتلندا. وفى الطريق غرقت السفينة فى عاصفة كبيرة وألقت الأمواج جثتى هنا، ودفنوني فى هذه المقبرة. وفى كل ليلة نحن الموتى لابد أن نعود إلى المكان الذى متنا فيه. والمكان الذى غرقت فيه بعيد جداً عن هنا ولذلك فأنا آخر من يعود. اتركىنى أدخل المقبرة وسوف أعطيك هدية قيمة."

أرضى ذلك المرأة العجوز وأبعدت فلكة المغزل. أعطتها الروح الصغيرة حجراً أبيض صافى البياض فيه ثقب واندفعت إلى داخل القبر. وكان ذلك هو الحجر الذى أصبح فى النهاية ملكاً لبراهان سير، الذى يحظى باكبر قدر من الثناء والتقدير بين الأنبياء الإسكوتلنديين؛ وقد استخدمه ليرى المستقبل. وقبل موته ألقاه فى إحدى البحيرات. وقد سبق لى الحديث عن سير هذا، وسوف أذكر عنه المزيد فيما بعد^(٢٦).

فى نسخة أخرى من الحكاية نفسها، تخبر الروح المرأة أنها إذا رفعت فلكة المغزل سوف تدلها على أين تجد أحد الكنوز. فهى تقول إنه يقع تحت حزمة من الأعشاب البحرية أو شجيرة على الشاطئ. تسرع المرأة العجوز إلى الشاطئ ولكنها لا تعثر على مجموعة الأعشاب الصحيحة^(٢٧).

تركز النقاش حتى الآن حول أشخاص فقدوا حياتهم بالصدفة. أما موقف الأموات ممن تسببوا فى وفاتهم فشئ آخر بالمرّة. إذ يُعتقد أن أشباح المقتولين مستعدة للانتقام وراغبة فيه وقادرة عليه، وهى لا تخص عند اختيار ضحاياها. فعلى ساحل كورنول، حيث يجتذب من يفرقون إلى الأمواج المتكسرة بعرضهم أضواء زائفة ثم يقتلون الناجين من الغرق، لا تزال زيارة موقع غرق السفينة ممارسة ضعيفة جداً. بل

إنهم فى إسكوتلندا لا يقتربون حتى من السفينة المهجورة خوفاً من الأرواح المصاحبة. وطبقاً لما قاله الراحل إف رولنز ماكسويل F. Rollins Maxwell من دكسبرى Duxbury بولاية ماساتشوستس، فقد كانت هناك مخلوقات تسمى "يو هوز" Yo hos فى كيب كود. وكانت تلك أرواح البحارة الغرقى التى يمكن العثور عليها فى الليالى المظلمة وهى تصرخ "يو هوز" فى الضباب، وتعرض ضوءاً. وكان قبطان السفينة الغافل يذهب للإنقاذ، ظناً منه أن الضوء والصرخة من بحارة فى شدة، ليجد نفسه وقد وقع فى فخ الرمال المتحركة والتيارات المقابلة لذلك الرأس الذى يسميه الفرنسيون كاب مالبارب Cap Malebarre .

قد يكون افتراض سكنى الأشباح المنتقمة للساحل فقط غير صحيح؛ فلا يمكن لإنسان ولا لسفينة أن تذهب إلى هذا الحد لى تكون بعيدة عن متناول شبح منتقم. وهناك أغنية شعبية اسمها "تجار السفينة" يقاتل فيها التجار فتاة قبل أن يخرج للبحر. وبعد وقت طويل، وحين كانت السفينة بعيدة عن البر، دخل ويلي Willie مخزن السفينة وهناك رأى امرأة جميلة. حاول أن يضمها بين ذراعيه، ولكنه تراجع فى رعب ودهشة / ذلك أن ومضات من الضوء كانت تخرج من عينيها" (٢٨).

الظاهرة الأخرى التى لا تبشر بأى خير، فى أى من العالمين القديم أو الجديد، هى تلك الظاهرة الغربية المعروفة باسم الجنازة الشبحية. ويذكرها كريتون Creighton وجمعت أنا حكايات عنها من إسكوتلندا وأيرلندا وجزر الهند الغربية. وعادة ما تكون الحكاية أن رجلاً ما يسير فى الطريق، وغالباً ما يكون فى صحبة صديق، وفجأة يتنحى جانباً. وحين يُسأل عن السبب يقول إنه يفسح الطريق لموكب الجنازة. وبالطبع لا يرى صديقه شيئاً. وفى أغلب الأحيان يتعرف من خلال تركيبة المشيعين أنها جنازة شخص حى بعينه. ويعتقد الناس عموماً أن الشخص الذى فى النعش مقدر له الموت وسوف يموت قبل مرور أيام كثيرة.

رست ذات ليلة إحدى بواخر ماكبرين MacBrayne وهى الشركة التى كُتب عنها البيتان "العالم وكل ما فيه ملك للرب/ إلا الجزر الغربية فهى ملك لماكبرين" فى أحد الموانئ ونزل القبطان، وكان رجلاً معتدلاً، للقيام بزيارة قصيرة لزوجته على البر. ولكى

يصل إلى البيت كان لابد أن يصعد سلماً برجه من الحجر، وفي منتصف السلم داهمه فجأة موكب جنازة. حاول أن يبتعد عن طريقه، ولكن قبل أن يتمكن من ذلك كان المشيعون فوقه. أدمى أنفه ومزقت ملابسه وتدحرج على الدرج. وبعد أن أصيب إصابات شديدة وملاءه الرعب، تمكن من الزحف إلى بابه وبخل المنزل، حيث لم تتحسن حالته طوال عدة أيام. وقد توقع أن تكون هناك كارثة مريعة في انتظاره هو أو أحد من لهم صلة به، وهو ما أمّن عليه أهل القرية. إلا أنه حتى وقت كتابة هذا الكلام لم يحدث له ما يمكن ربطه مباشرة بذلك الحدث (٢٩).

شاع اعتقاد بأن الموتى يتخفون أشكالاً أخرى، وخاصة أشكال الطيور. وكان الناس يظنون أن طيور البحر عموماً، وعلى الأخص طيور النوء والقطرس، أرواح قلقة لبحارة غرقى. وهذا ليس مستغرباً، لأن طيور البحر لا تتصرف كطيور البر. فهي تشرب ماء البحر، ولا تحتاج إلى بقعة جافة كي تجثم أو تنام عليها. ويبدو أن بعض الأنواع لا تخرج أبداً للبر. والكثير منها له صرخة وحشية تعبر عن الحزن. ويمكن للقطرس، أكثر من أى طائر آخر، أن يحوم على ما يبدو للأبد دون أن يحرك ريشة، ويمكن رؤية طيور النوء حتى فى أسوأ طقس وهى تسير على الماء؛ وهو العمل الذى لا شك فى أن كثيرين حاولوا القيام به ولكن لم يقم به سوى المسيح والقديس بطرس، الذى اشتق اسم هذه الطيور من اسمه (*) .

كما علم البحار القديم Ancient Mariner (**) فإن قتل أحد هذه الطيور يجلب الحظ السيئ، كما أن البحارة يراقبونها لأنها تعتبر مُعينة بأشكال كثيرة. وفى سجل نثرى آخر يكتب القبطان كوجشال Coggeshall، وهو ريان سفينة من القرن التاسع عشر، أنه رأى أربعة عشر طائراً غريباً تتبع السفينة قبيل وصوله إلى كيب هورن، وهو يشير إلى أنها تعقبته طوال الطريق حتى مدخل ميناء بالباريسو Valbaraiso (٣٠) وفى

(*) اسم القديس بطرس بالإنجليزية هو Pete وتسمى طيور النوء بالإنجليزية . petrels (المترجم) .

(**) قصيدة للشاعر صمويل كوليريدج كتبها فى أواخر القرن التاسع عشر وهى عبارة عن حكاية راويها هو البحار القديم الذى ارتكب جريمة لم يكن هناك ما يدعو إلى ارتكابها بقتله أحد طيور القطرس. ونتيجة لتلك الجريمة يحكم على البحار بالعيش ميتاً. وبعد أن يتوب تعيد القوى الخارقة سفينته إلى دياره، ولكن يظل عليه أن يعلم الآخرين الدرس الذى تعلمه وهو أن يحبوا ويحترموا ما خلق الله وأحب (المترجم) .

أكثر من مناسبة حالت أصوات طيور النورس على الصخور في ساعات الصباح الأولى نون جنوح هذا الكاتب على البر في الطقس الذي تتعذر فيه الرؤية. ومع أنى لا أؤمن بالمعتقد الذي يقول إنه من حسن الحظ أن يتبرز أحد هذه الطيور عليك، كما يظن معظم البحارة، فأنا أتردد في إيدائها.

تنذر هذه الطيور في بعض الأحيان بوقوع أحداث، ولكن كما هو حال الأحلام، تكون المشكلة الوحيدة هي تأويل دلالتها.

خرج أحد البحارة في خليج تشيسابيك يوماً لصيد الطيور ببندقيته في يوم عاصف في منطقة مستنقعات. لم يمر عليه وقت طويل في مكنه حتى رأى بطة قذرة تطير فوق المكن فقتلها. وجاءت اثنتان غيرها فقتلها. سقطت الطيور الثلاثة خلف المكن على أرض سبخة، فتركها هناك حتى يعود ويأخذها فيما بعد. اصطاد زوجاً من طيور أخرى ورأى أن الوقت قد حان للعودة. بحث قدر استطاعته عن البطات الثلاث التي أسقطها خلف المكن فلم يجدها. افترض أنها إما أنها أصيبت فقط وسبحت بعيداً في الماء، أو أن أحد المخلوقات المائية سحبها، وفكر لبعض الوقت في الموضوع. في تلك الليلة هبت عاصفة رهيبية استمرت ثلاثة أيام. وحين هدأت العاصفة خرج من مكنه. وهناك في المياه الضحلة في الأرض السبخة، تماماً حيث سقطت الطيور، وجد ثلاث جثث لبحارة غرقى^(٣١).

الأمر اللافت للانتباه إلى حد كبير هو أن هناك حكاية مماثلة تروى في نيوفاوندلاند. وفي هذه الحالة يقتل الصياد الطيور وحين يذهب ليأخذها يرى الجثث الثلاث تحلق فيه من أسفل^(٣٢).

في بعض الأحيان يكون للطيور دور في حياة البحارة أكثر إيجابية من الصراخ وتحذيرهم كي يتقوا الصخور أو يتجنبوا أحداثاً تقع في المستقبل. وقد روى القبطان جونسون Captain Johnson ربان السفينة "إيلين" Ellen ما يلي:

قبيل الساعة السادسة مساء يوم الثاني عشر من سبتمبر عام ١٨٥٧ كنت واقفاً في مؤخرة السفينة ... بجوار الرجل الذي يمسك بالدفة. وفجأة طار طائر حولي ولمس كتفى الأيمن. وبعد ذلك طار حول السفينة، ثم بدأ يطير من جديد حول

رأسى. وبعد قليل طار من عند وجهى، حيث أمسكت به وأسرته. وكان الطائر غير
أى طائر رأيته من قبل، ولا أعرف له اسماً. كان لون ريشه هو الرمادى
الداكن، وكان طول جسمه قدماً ونصف، وطول جناحه ثلاثة أقدام ونصف من
الطرف للطرف. وكان له متقار طوله ثمانية بوصات كاملة وأسنان مثل أسنان
المنشار اليدوى الصغير. وحين أمسكت الطائر عضنى عضه قوية فى إبهامى، كما
عض كذلك اثنان من البحارة كانا يساعدانى فى ربط ساقيه. ولأنه كان يحاول
عض الجميع فقد أمرتهم بقطع رأسه وإلقائه فى البحر.

حين طار الطائر إلى السفينة كانت تتجه قليلاً ناحية شمال الشمال الشرقى. وقد
نظرت إلى ظهور هذا الطائر على أنه نذير ومؤشر ... إلى ضرورة تغيير مسارى.
وبناء على ذلك اتجهت إلى الشرق مباشرة. وما كان لى أن أنحرف عن مسارى
لولا زيارة الطائر للسفينة، ولولا هذا التغيير بالطبع لما التقيت بتسعة وأربعين
راكباً [من السفينة الغارقة "سنترال أمريكا" Central America] الذين أنقذتهم
لحسن الحظ من موت محقق (٣٣).

أخيراً، فربما كان الإيمان بالطيور باعتبارها فعلاً حسناً هو الذى جعل الأميرال
روبنى Admiral Rodney يعطى اهتماماً خاصاً بديك البنطم (*) الذى حط على مؤخرة
سفينته وضرب بجناحيه وكان يصيح مع كل انطلاق لمدافع السفن فى معركة القديسين
الشهيرة التى أدى انتصار الإنجليز فيها إلى سيطرتهم على جزر الهند الغربية (٣٤).

كنت قد ذكرت من قبل حقيقة أن بحارة كثيرين تردوا فى الاقتراب من حطام
السفن خوفاً من الأشباح المصاحبة لها. وقد يكون الأمر هو أن حكايات الأشباح
والأرواح الشريرة كانت تُخترع لتكون بمثابة رادع لمن يحتمل تخريبهم للسفن
أو سرقتهم البحارة المعوزين على الشاطئ. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أن
الحكاية التالية كان لها أثر كبير على المستمعين.

هبت منذ فترة طويلة عاصفة شديدة على شتلاند، وفى صباح اليوم التالى نهض
أحد الصيادين من فراشه مبكراً وسار على خط المد ليرى إن هناك شىء مفيد قد وصل

(*) نوع من الدجاج صغير الحجم. (المترجم).

إلى الشاطئ. وقبل أن يمضى بعيداً جداً وصل إلى حطام سفينة غرقت أثناء الليل. كانت الصواري والحبال ملقاة بكثرة، وكان رجل يرتدى ملابس جيدة يرقد بعد حد نروة المد بقليل، وهكذا جرده البحار من كل ما هو ثمين معه، وسحب الجثة إلى مستوى أدنى، وعاد إلى بيته وأخفى كنزه الصغير. ثم انضم بعد ذلك إلى زملائه في البحث عن أحياء من السفينة الغارقة. وحين وصلوا إلى المكان الذي كانت فيه الجثة فُزع الصياد حين وجد أنها قد اختفت. خمن سارق الجثث أن الأمواج أعادتها إلى البحر وأمسك لسانه عن الكلام .

فى تلك الليلة جاء إلى منزل الصياد طائر نورس غريب وجميل من نوع لم يسبق له رؤيته. كان الطائر يطلق صرخات غريبة ويضرب نافذته مرات ومرات طوال الليل. ولم يفلح الصياد فى إبعاده. واستمر الحال على ذلك الليلة تلو الأخرى. جرب الصياد كل حيلة يعرفها لإبعاده أو قتله، ولكنه فشل. فقد ظل الطائر يصرخ ويضرب النافذة إلى أن أصيب الرجل بالجنون^(٢٥).

الأمر وثيق الارتباط بالموتى والخوارق هو الاعتقاد فى فاعلية الأحلام. وحتى وقت قريب إلى حد ما لم يكن هناك من يظن أنه يفهم مكائد الأحلام، ومازال العامة يرجعونها إلى نوع من العالم الفاصل بين الواقع والخوارق. وفى بعض الأحيان قد تفهم الأحلام بمعناها الحرفى. وفى أحيان أخرى يعتقد الناس أن عكس الحلم هو ما سيحدث؛ فالعُرس مثلاً معناه جنازة وشيكة. إلا أنه فى مناسبات أخرى يكون من الضرورى تفسير الحلم؛ إلى حد الذهاب إلى أحد العرافين أو إحدى الساحرات أو أى شخص آخر ماهر فى تفسير الأحلام.

روى نيل كامبيرون Neal Cameron من كرينان Crinan فى إسكوتلندا حكاية حلم بسيط. يبدو أن الليدى كامبل Lady Campbell أمرت شخصاً يدعى أرشى Archie أن يأخذ رزمة من الأوراق إلى حارس فنار فلادا الذى يبعد حوالى خمسة أميال. وكانت عاصفة تهب من الجنوب:

... كانت من الشدة بحيث لم تكن لدى المرشد الرغبة فى الذهاب، ولكن كلمة أحد أفراد عائلة كامبل كانت قانوناً فى البلاد فى تلك الأيام، واضطر أرشى المرشد

للذهاب في قاربه الصغير "أليرت" Alert. [كانت عائلة كامبل ولا تزال تحظى بمكانة كبيرة في المرتفعات. والواقع أن هناك قولاً بشأنهم، وهو أنه ليس هناك سوى ثلاث آفات في أرجيلشاير Argyllshire وهي السرخس والأرانب وعائلة كامبل. والسرخس آفة والأرانب بلاء.] كان الماء عالياً وكانت زوجته تصنع كعك الشوفان. نظرت من النافذة فرأته، وحين ذهب لتقلب الكعك وعادت نظرت ثانية فلم تجد شيئاً سوى البحر. ومنذ ذلك الوقت لم يعثر أحد للقارب على أثر.

كان جدى شديد الإعجاب بأرشى وحزن حزناً شديداً لفقده الذى اعتبر أنه لم يكن هناك ما يدعو إليه. وفي ليلة من الليالى حلم أنه يسير إلى نقطة معينة على الجزيرة التى كان يعيش عليها حيث وجد قبعة أرشى المرشد ومنذئذ وكل الأشياء ملقاة على إحدى الصخور. عاد للنوم ورأى الحلم نفسه مرة ثانية، وثالثة. كان الحلم أكيداً حتى إن الرجل العجوز استيقظ مع أول ضوء وذهب إلى المكان الذى رآه فى حلمه، وهناك كان كل ما عُثر عليه من أرشى؛ كانت قبعته ملقاة على الصخرة وسط الأمواج. عاد بها جدى إلى البيت وطوال خمسين سنة كانت معلقة على أحد أعمدة سرير قديم فى بيتنا ورأيتها سنين عدة (٣٦).

من الواضح أن هذه الأحلام يمكن أن تحدث لأى شخص. فقد أخبرنى عضو فى النادي الملكى لسباقات المحيط أنه رأى من سنوات عديدة حلماً غريباً يعبر فيه المانش سباحة. وحين استدعى لتولى نوبة الحراسة، أبلغ أصدقاءه أنه رأى فى منامه رجلاً يعرفه معرفة سطحية يعانى من مشكلة ما. كان اسمه لوبى لوين Bobby Lowen، وكان لوين فى الحلم يدخل ميناء فرنسياً وحسب. وكان يحيط به ضباب أو دخان، وقد اختلطت سفينة صيد فرنسية فيه بصورة ما. وبعد ذلك اتضح أنه فى نفس ساعة الحلم كان الرجل المذكور يدخل ميناءً فرنسياً حين انفجر موقده وحبس أسفل السفينة. وجاءت سفينة صيد فرنسية لمساعدته، ولكنه أطفأ الحريق ودخل الميناء بلا مساعدة (٣٧).

كان يعيش على لسان موراي فى سانت كومبس St. Combs أكبر "نهاش" فى كل إسكوتلندا الشرقية، وهو القبطان جيمى بوخان Jimmy Buchan المعروف فى طول البلاد وعرضها ببشاعته وقوته وطريقته المتهورة فى تسيير نفسه وطاقمه وسفينته. وكان

القبطان بوخان يصر على إرجاع نجاحه الكبير إلى حلم. وكان ذلك حلم خاص بالأموات، وهو أبرز الأحلام جميعها.

العادة على الساحل الشرقي من إسكوتلندا هي عدم مغادرة الميناء أيام الأحاد. فلا بد من الانتظار دقيقة على دخول صباح الإثنين. وبينما كان القبطان بوخان ينتظر في قمرة فرد جسمه وراح في النوم. وعلى الفور رأى في منامه أن السفينة تسير بكامل سرعتها في أحد الأنهار متجهة نحو البحر. وكانت الشمس تشرق. نظر القبطان خلفه فرأى شقيقة زوجته المتوفاة في قارب وهي تجدف خلفه بقوة. استمر هو في التقدم في خط مستقيم باتجاه الشمس المشرقة لمدة ثمان ساعات، إلى أن صارت التي تجدف بجواره. وقفت شقيقة زوجته في القارب وقدمت له قطعة من كعكة ذهبية كانت قد خبزتها. ولكن ما إن مد يده ليأخذها حتى سقطت في الماء. قطعت شريحة أخرى وقدمتها له، ولكنها سقطت هي الأخرى في الماء. وبعد ذلك قدمت له الكعكة كلها مرة واحدة. أخذها القبطان وقضم منها قضمة، وكانت أحلى كعكة أكلها في حياته وكانت "صفراء كالذهب". كان الطعم لذيذاً حتى إن الربان استيقظ واكتشف أن الوقت قد حان للإقلاع.

دخل القبطان مقصورة القيادة، وما إن خرجوا من مدخل الميناء حتى قال لموجه الدفة "وجهها ناحية الشرق وأعطها كل ما يلزمها." وبعد ثمان ساعات من السير المطرد أعطى أمره الثاني. "أوقفوها يا شباب، واطرحوا شباككم ولا تهن عزائمكم." طرحت الشباك وسحبت، وكانت فارغة. "لا بأس يا أولاد. اطرحوا شباككم مرة ثانية ولا تحزنوا." ومرة أخرى طرحت الشباك، ومرة أخرى خرجت خاوية. "والآن يا شباب، انزلوا وأريدكم أن تأكلوا جيداً وتشربوا قليلاً، لأننا سوف نطرح الشبك مرة أخرى ولن تكون هناك راحة على هذه السفينة اليوم."

بعد الأكل طُرح الشبك للمرة الثالثة، وهذه المرة خرج ممتلئاً بالسماك الذي احتاج إلى "أربع عشرة رفعة" لتفريغه تماماً. وعادت السفينة إلى بيترهيد محملة بحمل ثقل من السمك، حتى إن أي طقس سيئ كان يمكن أن يفرقها. قال القبطان بوخان: لقد كان أكبر صيد يجرى إنزاله في بيترهيد في يوم من الأيام."

صُرّف حلم مشابه أمور أثيل أوليفيير Athneal Ollivierre كبير صيادى الحيتان فى مصايد حيتان بيكيا فى سانت فنسنت بجزر الهند الغربية.

فقد اشتهر عن زوجة أثيل أن أحلامها تتحقق، وهو ما كان يحدث فى بعض الأحيان. وكان من عادة زوجها أن يستيقظ كل صباح فى الساعة الخامسة والنصف ليحلب البقرة. وبعد ذلك كان يدخل البيت ويتناول فطوره المكون من بيضتين ثم يذهب إلى مصايد الحيتان، حيث يصل إلى هناك فى حوالى السادسة والنصف.

فى ذلك الصباح على وجه التحديد دخل بعد أن حلب البقرة وبدلاً من أن يجد بيضتين كانت هناك أربع بيضات مقلية فى صحنه. سأل زوجته عن السبب فقالت إنه بعد أن ذهب لحلب البقرة غفت قليلاً والتقت بامرأة عجوز (أم أثيل المتوفاة منذ إحدى وعشرين سنة) أعطتها أربع بيضات وقالت إنها لأثيل. وبناء على ذلك استيقظت من النوم وطهت أربع بيضات وأصرت على أن يأكلها. وبينما كان يخرج من الباب قالت له "أظن أن حظنا سيكون سعيداً اليوم." وكان كذلك بالفعل، حيث اصطادوا حوتاً فى ذلك اليوم.

ونتيجة لذلك أول أثيل الحلم على أنه يعنى أنه سوف يصطاد أربعة حيتان فى ذلك الموسم، وكان ذلك بالفعل هو العدد الذى عاد به إلى البر. ولكن ثورة الحلم لم تنته عند هذا الحد.

مع اقتراب موسم صيد الحيتان من نهايته بدأ الناس يحكون له أحلامهم؛ ذلك أنهم حلموا أنهم يُخَضِّرون له شيئاً أو أن شخصاً ما يُخَضِّر له شيئاً. وبعد ذلك رأى أثيل حلمًا بنفسه: فقد كان يقود بقرته على الطريق و

... بدأت تتصرف بطريقة سيئة فضربتها بالسوط وأوقعت تلك القحبة العجوز أرضاً، ولكن العجل أخذ يجرى فى الطريق ورأيت جوزيف فورد Joseph Ford [مجدف فى قارب صيد الحيتان] آتياً فناديته كي يعيده وأعاده، وبينما كان يجرى من أمامى ضربته وأوقعت أرضاً.

فى أول أبريل من عام ١٩٧١ وبعد وقت قصير من الحلم، مرض موجّه القارب أرانجتون ريتشاردسون **Arlington Richardson** ورُقّي جوزيف فورد ليحل محله. لم يكن قد مضى وقت طويل على وجودهم فى البحر حين جاءت سفينة صيد مسرعة فى اتجاه الريح تحمل خبر رؤية أنثى حوت وصغيرها. ذهبوا لصيدهما ومضى فورد بمهارة إلى الصغير الذى قتله أثيل. أما أنثى الحوت فكان أمرها مختلفاً. لقد تصرفَت بشكل سيئ جداً حيث هاجمت قارب صيد الحيتان وأوقعت الصياد من على القارب مرتين. وبعد ذلك حطمت القارب وقفز أثيل من عليه وعام إلى قارب آخر وصعد عليه وأمسك برمح صيد الحيتان وقتلها بضربة واحدة. لقد حدث الأمر تماماً كما فى الحلم الذى رأيتُه (٣٩).

ويبدو أن أحلاماً كثيرة، أو أشياء فيها، تتكرر مراراً، وهذه الأشياء وضعت لها صيغ ثابتة. ففي إسكوتلندا تُعد رؤية الخروف فى الحلم دليلاً على حسن الحظ، بينما تعد رؤية الخنزير، وخاصة إذا كان داخل غرفة، أو رؤية الدم، إنذاراً بالموت (٤٠).

فى جزيرة بيكيا يكون عدد الخراف التى يراها صياد الحيتان فى منامه هو عدد الحيتان التى سوف يصطادها فى الموسم. ومن الغريب إلى حد كبير أن رؤية الشرطى فى الحلم تبشر بالخير. ورؤية شىء أخضر فى الحلم معناه حسن الحظ، وتشير الغلّة إلى أن مالا سيأتى. ورؤية طفل أبيض يسبح فى البحر يبشر بالخير، أما رؤية طفل أسود أو أشخاص سود، ولو فى أحلام السود أنفسهم، فينذر بوقوع مصيبة (٤١). ولو أعدنا قائمة بالأشياء والأفكار والألوان الحسنة والسيئة فى الأحلام فسوف يتجمع لدينا معجم عن هذا الموضوع.

من المادة السابقة يمكننا رسم صورة عن الأهمية التى تحظى بها أحلام البحّارة. ويبدو واضحاً أنها تقوم بدور كبير فى تصريف أمورهم وتصريف مواقفهم للأحسن أو للأسوأ.

القال الآخر المتأخم للخوارق هو الاستبصار، أو رؤية ما هو غير منظور، وهو ما يسميه البعض الإدراك فوق الحسى. وهو ما يتخذ شكلين، أحدهما يمكن شرحه بسهولة، بينما يعنى الآخر من يحاول فهمه. فأى بحّار كفء ينسجم مع زملائه على

السفينة، ومع سفينته، ومع البحر، ومع الطقس، بدرجة لا يفهمها بسهولة من يعملون على البر. فربان السفينة الشراعية يمكنه أن يرقد في فراشه ويعرف على وجه الدقة من خلال الأصوات الكثيرة التي تحدثها سفينته، وعن طريق حركتها، وعن طريق الريح التي تمر في الأشرعة، وعن طريق زاوية ميلها، مدى صعوبة دفعها، ومقدار السرعة التي تسير بها. كما يمكنه أن يحس بما لدى طاقمه من قلق، ويمكن النظر إلى السماء والتنبؤ بهبوب الرياح. وتقوم معرفته هذه على الاستبصار الفعلى، إلا أن بات من التعود عليها حد استحالة تصنيفه لها أو حتى الربط بينها. هذا نوع من أنواع الاستبصار.

أما النوع الثانى ففيه يعتقد المرء أنه قادر على التنبؤ بما تكون عليه الأحداث المقبلة. وهو أكثر شيوعاً في كل من إسكوتلندا، حيث يسمى الذين يجيدونه بطريقة مبالغ فيها "المتنبئون" *seers*، وفي الأقاليم البحرية الكندية، بين الذين جاء أسلافهم من المرتفعات الإسكوتلندية. إلا أن ذلك ليس مقصوراً بحال من الأحوال على تلك المنطقتين.

أعظم شخص بين من يتمتعون بالاستبصار كافة في إسكوتلندا رجل اسمه كونييتش أودار *Coinneach Odhar* ويشتهر باسم "المتنبئ البراهى". وقد "رأى" من بين أشياء كثيرة رأها حفر القناة الكاليدونية^(*) *Caledonian Canal* وإدخال الأغنام في المرتفعات، وظهور التلفون، وتدمير إحدى الكنائس وإنهيار إحدى العائلات. وقد قتلوه حرقاً بسبب تنبؤاته في عام ١٦٩٢^(٤٢)، لا أنه لو كان هو أعظم المتنبئين في إسكوتلندا، فهناك الآن الكثيرون الذين يتنبئون بجنس الجنين، وقدم الأغراب، وموت الأصدقاء والأعداء، وبالأشياء الأكثر فورية والأقل عظمة. وكل مجتمع محلى تقريباً فيه شخص يعتقدون أنه أكثر موهبة في هذا السبيل من جيرانه. وإليه يذهب البحارة من أجل كل أنواع النصائح؛ مثل أى السفن يشترون، ومتى وأين يخرجون للبحر. وعادة ما يتبعون هذه النصائح، وكثيراً ما تقع الكوارث لمن يتجاهلها. وكان هناك رجل كهذا يعيش على جزيرة ساوث ويست *South Uist* في عام ١٩٦٨، وقال إنه أخذ هذه "الموهبة" عن والده وكان يشعر في بعض الأحيان أنها لعنة. ورغم ترده في الحديث عن

(*) ممر مائى طوله حوالى ٩٧ كيلومتراً يقطع شمالى إسكوتلندا بميل من لوخ لينهى في الجنوب الغربى إلى موراى فيرث في الشمال الشرقى. وقد افتتحت في عام ١٨٢٢. (المترجم).

ذلك، فقد اعترف أن أناساً كثيرين على الجزيرة كان يستشيرونه قبل إقدامهم على أية خطوة مهمة.

وقبل أن التقى به بوقت قصير، كان بعض الصيادين قد جاوه ليسألوه إن كان ينبغي لهم شراء سفينة معينة أم لا. وبدا أن السعر - وهو دائماً أمر ذو أهمية في إسكوتلندا - كان ملائماً وكانوا هم بحاجة إلى سفينة. ومن المؤسف أن السفينة المذكورة كانت تخص صديقاً مقرباً من المتنبي. في البداية رفض إبداء رأى، ولكن ضميره أجبره في النهاية أن يتحدث، فقال إنه لا ينبغي لهم شراء السفينة بأي حال من الأحوال. ولم يقدم سبباً. اهتم الصيادون بتحذيره ورفضوا شراؤها. وحين سألهم البائع عن السبب قالوا "فلان قال لا"، وبذلك جعلوا الصديق الحميم عدواً. أما المتنبي فقال إنه رأى شيئاً ما في السفينة. وبعد ذلك بوقت طويل سمعنا أن السفينة غرقت.

يعتقد الناس أن هذه القدرة ليس موجودة في إسكوتلندا وحدها، بل كذلك في أيرلندا. فمنذ سنوات كان هناك أسطول صيد كبير يخرج من جزيرة آينشيبوفن على الساحل الغربي.

كان السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٧ يوماًكثر فيه الضباب واشتدت الأمطار، ولكن كان هناك سمك مأكريل حول الجزيرة ووضحت الرؤية مع اقتراب المساء. وكانت معظم السفن في ذلك الوقت تستخدم شبك الصيد العائم وتفضل الصيد ليلاً. وحين بدا أن الرؤية واضحة، عزم الصيادون على الخروج، وخرجت خمس سفن على كل منها خمسة أو ستة رجال:

وما إن ألقوا شباكهم حتى سمعوا تلك الضجة الرهيبة المقبلة، وبالطبع شكوا في الحال أن تكون هناك عاصفة. كانت آتية بقوة شديدة وتخلص بعضهم من الشبك وواصل البعض الآخر وفقدنا حوالي عشرة رجال. واصلت إحدى السفن طرح الشباك إلى أن هدأت العاصفة - التي استمرت ساعتين - وعادت في الصباح.... ولكن كل الرجال النين كان لديهم برنس بقوا على قيد الحياة....

كان فى كليجان رجل عجوز - وكان هو نفسه بحاراً عظيماً ولم يعجبه الطقس بالمرّة، فركب دراجته - إذ لم يكن لديهم سيارات فى ذلك الوقت - وانطلق ليمنعهم ولكنهم كانوا قد خرجوا وفات الأوان.

أعرف رجلاً - لا يزال على قيد الحياة - وهو رجل لا يكذب أبداً. جاءه صهره فى تلك الليلة - وهو الذى خرج للصيد. لم يكن ذلك الرجل قد خرج وجاء إليه بينما كان يهتم بأمر سفينته. كان قد ربط السفينة وابتعد عنها للتو حين جاء ذلك الرجل ودبت على كتفه برفق وقال "إنى أغرق" فالتفت بسرعة ولم ير سوى كتف الشخص وهو ينصرف عنه. وكان ذلك أحد المفقوبين. لقد حدث ذلك بالتأكيد، ولم يكن هو الوحيد تلك الليلة. كان هناك صبي صغير رأى الطاقم، حيث جاء الطاقم الفارق بكامله إلى المطبخ^(٤٣)

على بعد ألفى ميل من جزر هيبيريديز، وفى بحيرة براور Bras D'Or بنوفا سكوشا (وهو فى الواقع نراع من البحر) كان يعيش رجل اسمه ماكنيل McNeil وفى يوم من الأيام كان يقف على الشاطئ حين اقترب منه شابان يستفسران عن مكان يستأجران منه قارباً لمدة يوم. نصحبهما بألا يفعلا ذلك قائلاً: "إذا خرجتما فلن يعود أحكما بالمرّة والثانى لن يعود تقريباً". لم يلق التحذير قبولاً لديهما وخرجا إلى البحر. انقلب القارب وغرق أحدهما والتقطت سفينة مارة الآخر، وكان أقرب للموت منه إلى الحياة^(٤٤).

ذات يوم فى كيب بريتون كان رجل يسير على الشاطئ حين رأى أمامه فجأة على الشاطئ رجلاً غريقاً يرتدى بدلة زرقاء. وكانت امرأتان تقفان فوق الجثة. نظر ثانية فلم يجد سوى نفسه على الشاطئ. وبعد عامين وفى نفس المكان الذى رأى فيه ذلك، اكتشفت امرأتان رجلاً غريقاً يرتدى بدلة زرقاء^(٤٥).

من الواضح أن هذه القدرة يمكن إثارتها فى بعض الأحيان. ففى إسكوتلندا حين كانت سفينة ما تُفقد، كانوا يقنعون فتاة قوية العزيمة بالنوم بينما يراقب أحد الأصدقاء. وكانت روحها تخرج للبحث عن السفينة وتعود بالأخبار. إلا أن الأمر كان

ينطوى على عنصر المخاطرة، ذلك أنه إذا غيرت الريح اتجاهها أثناء بحثها فسوف تصاب بالجنون^(٤٦).

ومع أن القدرة على الاستبصار أقوى ما تكون لدى أناس بعينهم، فمن الممكن أن توهب لأي شخص. فقد دخل أحد البحارة باراً في ساوث ويست وشرب كأساً ثم طلب كأساً آخر وهم بشربه وامتنع وجهه واندفع خارج الباب. وقد سمعه الناس وهو يتقيأ في الخارج. وبعد بضع دقائق عاد صاحباً شحوب الأشباح وقال لقد رأيت شيئاً ولا أريد الحديث عنه الآن ثم دفع حسابه وانصرف. خلال ذلك الشهر توفي صاحب البار. وحين سمع الرجل عن ذلك قال: كان ذلك متوقعاً. فحين قدم لى الشراب فى تلك الليلة شعرت بغثيان. نظرت إليه فلم يكن هو. كان هيكلاً عظيماً يقدم لى الشراب. وحينذاك شعرت بالغثيان^(٤٧).

ليس الاهتمام بالخوارق مقصوراً بحال من الأحوال على الأحياء والأموات، بل ينسحب كذلك على البحر، وعلى السفن، وعلى الكثير من الأشياء الأخرى. أما البحر، فإن أقل ما يمكن أن يقال عن موقف البحارة منه أنه غريب. ذلك أن البحار الحقيقى يحب البحر حباً خالصاً. وهو يؤمن بنوع من النقاء الروحى فى "الكائن" بحر. ولهذا السبب، وكما قلنا من قبل، فهو يخاف السفر مع القاتل، أو الرجل الذى لم يسدد ما عليه، أو اللص، أو أى شخص ليس لديه أى نوع من الالتزام الأخلاقى، أو يبدو أنه كذلك. فالبحر لا يريد أن يروّع هؤلاء الناس أمنه الهادئ، وقد ينتزع فى نفس الوقت بعض اللحم الجيد الذى يتباهى به فيه. بل إنه يعتقد أن البحر ضد كل هؤلاء الذين يتجاهلون المياه العميقة. وهو يعتقد أن موقف البحر منه يتراوح بين اللامبالى إلى القاسى والشرير، وهو يقبل ذلك. وفى بعض الأحيان يلعن البحار البحر، وفى أحيان أخرى يحاول التخفيف من شره بالهدايا، لأنه يعلم أن أفضل ما يمكنه الحصول عليه منه هو اللامبالاة.

وحتى فى وقتنا الراهن، وفى المجتمع المستتير، يقل ما نعلمه عن المحيط عما نعلمه عن سائر العالم. وليس أمنه أقل ترويعاً الآن، حتى إنه إذا جف فسوف نجد أن هناك فدايين كثيرة خالية من علب البيرة وزجاجات الكوكاكولا. بل إننا لسنا متأكدين أننا

اكتشفنا كل أشكال الحياة فيه وصنفناها. وبسبب طبيعته هذه، يبدو الإنسان عازماً على عقلنة المجهول. وتعقلنه العامة من خلال التشخيص والأرواحية(*)، أما المفكرون فيعقلنونه باستخدام العلم. ويعتقد العامة أن العلامات التي على سمكة الحقوق(**) هي أصابع القديس بولس^(٤٨) وهم راضون بذلك. أما العلماء فيرون العلامات على أنها تلوين حمائي وهم مطمئنون إلى ذلك. ولحسن الحظ أن أياً من الفريقين لم يطرح هذا السؤال: "لماذا اختصت سمكة الحقوق بهذا الأمر؟"

وفي أيرلندا وأجزاء من إسكوتلندا لا يزال هناك اعتقاد كان شائعاً في أنحاء شمال أوروبا حتى عصور قريبة. وهذا هو الاعتقاد بأن "ما يريده البحر سوف يناله". فإذا سقط رجل من فوق السفينة أو غرقت إحدى السفن فإن الناس في أفضل الأحوال يترددون في التقاط أى من الناجين، وفي بعض المناطق لا يلتقطونهم بحال من الأحوال. كما أنهم لا يبحثون عن السفن المفقودة. وفقط حين تلقى الأمواج بالجثث على البر^(٤٩). حيث لم يعد البحر راغباً فيها، يشغلون أنفسهم بالتقاطها ويشيعونها في جنازة رائعة^(٥٠). ويبدو أن هذا المعتقد يمتد إلى البحر الكاريبي، حيث نادراً ما يحدد الصيادون المكان الذي يذهبون إليه أو المدة التي سيقضونها فيه، وحين لا يعودون لا يكون هناك سوى بحث رمزي، إن كان هناك بحث.

بل إنهم يعتقدون أنه إذا أراد البحر شخصاً ما وأنقذه فإن هذا ليس سوى خلاص مؤقت، ذلك أن البحر سيناله في النهاية؛ وربما أخذ معه من أنقذه كذلك. ومع أن القول ليس معروفاً إلى حد كبير الآن، فإن تفريعاته تمتد لمسافة بعيدة. وتأتينا إحدى الحكايات من ساحل كارولينا.

فمنذ سنوات بعيدة وصل رجل إلى البر على حطام إحدى السفن في كيب هاتيراس حيث قرر أن يبقى ويكسب عيشه من صيد السمك. وكان محظوظاً جداً في

(*) مذهب حيوية المادة، أى الاعتقاد بن كل ما فى الكون، وحتى الكون ذاته، روحاً أو نفساً (المترجم) .

(**) نوع من سمك القد. (المترجم) .

هذه الصدد، حيث لم يُعرف عنه قط أنه يصطاد سمكاً "زبالة" (غير قابل للبيع) أو أن شبابه يصيبها ضرر. وعندما لم يكن غيره من الرجال يخرجون للصيد، كان يخرج هو بقاربه الصغير ويعود دائماً بصيد وفير. وكان اسم هذا الرجل كوك Quawk .

فى يوم من الأيام هبت عاصفة، ورغم كل النصائح خرج كوك إلى البحر وعاد بصيد وفير. ظل الناس زمناً طويلاً يعتبرونه ملحداً، وقد أثبت ذلك فى تلك المناسبة، ذلك أنه سب الرب وقال من بين ما قاله: "بعون الشيطان وحمايته سوف أخرج إلى مصايدى [من جديد] وسوف أعود بصيد أوفر." وبعد أن قال ذلك خرج للبحر مرة أخرى. "وبينما كان يبحر فى العاصفة سمعت ضحكة ساخرة ولم يره أحد بعد ذلك" (٥١).

إذا كان البحر يأخذ البعض لأنه يريدهم، فهو يأخذ غيرهم لأنهم ليسوا أهلاً للسفر على سطحه. وتقوم حكايات وأغنيات بحرية لا حصر لها على هذه الفكرة. ويوجد نموذج نمطى فى مصير القبطان جلين Captain Glen التى تشاجر بسبب امرأة وقتل رجلاً نبيلاً. وقد عفا عنه الملك، ولكن البحر لم يصفح عنه. وفى رحلته التالية أصاب طاقمه المرض، وهبت عاصفة ضخمة، وألقت الريح ببعض أفراد الطاقم من على ظهر السفينة، وكانت السفينة فى خطر مباشر حين أخبر عريف الملاحين أفراد الطاقم بممارسات الريان. وعلى الفور ألقوا بالقبطان من فوق السفينة، وفى الحال "هدأت الريح، وكذلك البحر/ ووصلنا إلى هاى باربارى" (٥٢).

هناك قصة فى أيرلندا عن سفينة أبحرت إلى ميناء أجنبى. وفى الطريق مرت فى طقس سيئ وتكسرت أمواج البحر الهائج على السفينة. وحين أفرغ الماء منها عثروا على تابوت على السطح. أراد القبطان أن يلقي به من على السفينة ولكنه لم يجرؤ على ذلك، وبذلك ظل موجوداً إلى أن اعتاد عليه أفراد الطاقم .

فى يوم من الأيام راهن أحد أفراد الطاقم على الدخول فيه ليرى إن كان على قياسه أم لا. وعلى الفور ثار البحر وتكسرت الأمواج على السفينة. وحين تحررت السفينة كان التابوت وفرد الطاقم قد اختفيا ولم يرها أحد بعد ذلك. ولم يعلم القبطان

بأمر فرد الطاقم المفقود والتابوت حتى بلغت السفينة أفريقيا. وكان هناك أمر بالقبض عليه فى بلده بتهمة القتل.^(٥٢)

بل إن شعباً بأسره يمكن أن يثير غضب البحر. ومثال ذلك اعتبار الرجال الذين ينتمون إلى جزيرة معينة من جزر هيبيريديز خطراً فى البحر. وسبب ذلك لافت للانتباه. ففي يوم من الأيام كان هؤلاء القوم بحارة عظاماً، ولكن منذ حوالى مائة عام جنحت سفينة أسبانية هناك. وبدلاً من أن يساعد أهل الجزيرة البحارة المنكوبين أو يتركوهم فى حالهم، قطعوا أصابعهم للحصول على خواتمهم وسرقوا كل ما له قيمة فى جثثهم. وبعد ذلك العمل القاسى الخالى من الإنسانية بات الرجال يُفقدون فى البحر ويموتون بسبب السقوط من على الصخور بما يفوق الخسائر التى تعانيها الجزر الأخرى. وبما أن ذلك استمر العام تلو الآخر، فقد انتهى أهل الجزر المجاورة إلى أن سكان هذه الجزيرة ملعونون.^(٥٣)

نكرت من قبل أن البحر لا يحب المدينين، وفى شتاء ١٩٧٠ فُرِعت حين علمت أن المعتقد لا يزال قائماً فى جزر ويندورد. فعند الحديث عن سفينة كانت قد غرقت منذ وقت قريب قال الإخبارى "أتعلم أنه فر بون أن يدفع ثمن الحمولة". ولم تدخل عقله حقيقة أن السفينة كانت محملة بما يزيد على طاقتها وأنها كانت متماسكة فقط بواسطة الديدان التى كانت تمسك بأيدي بعضها".

والشخصية الأخرى التى يبدو أن البحر لا يحبها هى المتباهى. وسبق أن ذكرت السياسة المتعلقة بإنقاذ السفن، ويمكن أن نضيف إلى ذلك قصة الهولندى الطائر (التي نردها كاملة فى موضع آخر) الذى أقسم، وتباهى إلى حد ما، بأنه سوف يدور حول كيب هورن بغض النظر عن طول الزمن الذى يستغرقه ذلك. وعندما كتب القبطان كوجشال Captain Coggeshall عن الارتباط بين السفينة الأمريكية "ذا كونستيتيوشن" the Constitution والسفينة البريطانية "جيرير" Guerriere لم يَعْزُ الانتصار إلى حجم "ذا كونستيتيوشن" الأكبر أو حتى إلى مهارة قائدها بقدر ما عزاه إلى حقيقة أن القبطان داكروز Captain Dacres كان يتباه بأن بإمكانه إجبار الأمريكين على الاستسلام فى أقل من ساعة.^(٥٤)

وإذا كان البحر يبتلع البعض لأنه يريدهم ويبتلع غيرهم لأنهم غير أهل لأن يكونوا على سطحه، فهناك آخرون يقضى عليهم وهم ليسوا أهلاً للبقاء على سطح البحر أو ظهر الأرض. ولذلك كان القراصنة الذين تصدر ضدهم أحكام يشنقون دائماً فوق الماء، على أن تمر ثلاثة مدود قبل إنزاله من على المشنقة، وكانوا يدفنون على الشاطئ بين أعلى حد للمد وأدنى حد للجزر.

منذ سنوات كثيرة غرقت سفينة صيد إسكندنافية في لوخ سكيبورت Loch Skelport في إسكوتلندا ومات أفراد الطاقم كافة؛ ويظن معظم الناس أنهم ماتوا غرقاً، ولكن البعض يظن أنهم ماتوا بسبب عمل شائن. فقد كان الطاقم يتكون من ستة رجال وامرأة. وقد دُفِنوا جميعاً في جزيرة صغيرة وتحللت جثث الرجال كلها إلى تراب منذ زمن بعيد. ولكن جثة المرأة لم تبق مدفونة تحت الأرض. وأخيراً دفنوها فوق الأرض تحت رَجْم^(*)، ولكن عظامها خرجت من الرَجْم وقيل لى إنه ربما لا يزال بالإمكان رؤيتها متناثرة في أنحاء الجزيرة^(٥٧).

وتأتى قصة مشابهة من نونسا سكوشا. فقد جنحت سفينة ذات ليلة في جزيرة الطين Mud Island وفي الصباح عُثِر على طاقم السفينة وعدده ستة وعشرون رجلاً وامرأة جميلة واحدة موتى على الشاطئ. دفنهم أهل الجزيرة هناك ونسوا الأمر. ومرت السنون وبدأت الجزيرة تتآكل. وفي يوم من الأيام ذهب بعض الصيادين لجمع المحار من هناك وأخرجوا بعض العظام. وبعد ذلك أخرجوا شيئاً آخر؛ كان امرأة لم يتغير فيها شيء عن اليوم الذى دفنوها فيه. كانت محفوظة بطريقة عجيبة حتى إن صيادى المحار عرضوها ليشاهدها الناس إلى أن حملتها الحكومة وأعادت دفنها. وقد أخرجت مرة أخرى ووضعت للعرض إلى أن أخذتها الحكومة بعيداً ودفنتها فى السر^(٥٨).

يروى جورج كاري George Carey حكاية مشابهة إلى حد ما من خليج تشيسابيك. وفي هذه الحكاية يقتل قبطان إحدى السفن رجلاً أسود ويدفنه في حفرة في الرمال. وفي المرة التالية التى يمر فيها على هذا المكان يجد الرجل ممداً على

(*) كومة من الحجارة (المترجم) .

السطح، فيعيد دفنه ولكنه لم يتمكن قط من دفنه بالكامل. إذ كان جزء ما، نراع أو ساق، يبقى في الخارج (٥٩).

تسمى الشخصيات التي يريدها البحر أو لا يرغب في أن تسافر على سطحه تسمية جماعية هي "يونان" (*). وهي جماعة تعود إلى العصور التوارثية وتشمل أسماء مبدلة مثل القديس بولس والقائد البحري جون بايرون John Byron (جد الشاعر الأعرج) الذي مر بأخطار كثير جداً وواجه حيثما ذهب طقساً من السوء بات يعرف باسم "الطقس السيئ جاك". ويعتقد البحارة أن هؤلاء الرجال يجلبون النحس لزملائهم الموجودين على متن السفينة وكانت العادة قديماً هي إلقاءهم من على السفن. أما في الوقت الراهن فلا يفضل أحد مثل تلك الأعمال، إلا أن هذا لا يعنى أن المعتقد مات، ذلك أن البحارة يترددون في الإبحار مع رجل بغيض، وحين يتأكدون من وجود شخص كهذا على متن السفينة فإنهم ينزلونه على البر.

باستثناء السفن الكبيرة، عادة ما يقوم تشغيل السفن على أساسى عائلى، أو على الأقل على أساس محلى، حيث تدير السفينة بالكامل قومية واحدة وفي الغالب الأعم أشخاص من بلدة واحدة. وفي حال وجود غريب على متن السفينة يكون هذا هو الرجل الذى يعتقدون أنه يجلب النحس. بل إن كون البحار مقتنعاً اقتناعاً تاماً بالمعتقد الشائع لا يعنى أن الناس جميعاً متشابهين، فهو غالباً ما يلقي باللوم فيما يعانى منه على أى شخص مختلف. وبذلك فهم ينظرون إلى أى شخص مختلف فيزيقياً عن سائر أفراد الطاقم نظرة شك وريبة. فالسود أو نوو اللحي الحمراء أو البيض أو أصحاب العيون الزرقاء أو البنية، أو عديمو النقون، أو أصحاب الرؤوس الصغيرة تعتقد الجماعات التي لا تكون فيها تلك الملامح هي السائدة أن الواحد منهم يونان.

(*) هذا اسم يونس كما جاء في العهد القديم. وجاء في سفر يونان: "فأرسل الرب ريحاً شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر". ولما عرف الرجال أنه "خائف من الرب إله السماء الذى صنع البحر والبر" وأنه "هارب من وجه الرب" قالوا له: "ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنا. ... فقال لهم خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم لأننى عالم أنه بسببى هذا النوء العظيم عليكم. ... ثم أخذوا يونان وطرحوه في البحر فوقف البحر عن هيجانه." (المترجم).

من الممكن العثور على سبب مختلف اختلافاً طفيفاً لجعل المشوهين كبش الفداء لسوء الحظ. فالتصور الشائع للشيطان هو أنه أعرج وأحجب، وهناك دائماً فرصة لأن يكون الأشخاص الذين بهذه الصفات إما متواطئين مع الشيطان، أو يكونون الشيطان نفسه. والرجال الحول أو نوو النظرات الشذرة مختلفون بعض الشيء. فالناس منذ زمن بعيد يظنون أن العين "نافذة الروح"، ولا يزال لدى من هم من أصول أيرلندية أو اسكتلندية اعتقاد كبير في "العين الشريرة". وبما أن هذا المعتقد شائع كذلك في أفريقيا، فليس مستغرباً أنه لا يزال موجوداً في جزر الهند الغربية.

وأظن أنه يمكن أن يكون هناك بعض الشك في صحة جزء كبير من هذه المادة. فلا مكان على متن أية سفينة للمعوق جسمانياً. بل إن فترات العزلة الطويلة، ناهيك عن فاعلية الخبرات الثقافية المشتركة، غالباً ما تعطى أهمية لقيمة التجانس بين أطقم السفن على أكثر من أفراد الطاقم المتغابرين.

الارتباط الوثيق بـ"ما يريده البحر" هو الفكرة القائلة بأن ما للبحر، أو ما يأتي من البحر، لابد أن يعود للبحر. وفي إسكتلندا وأيرلندا لا يمكن أخذ صابورة السفينة من البحر، ذلك أن المحيط قد يثور في أية لحظة ويطالب بها. والسبب ذاته لا يمكن صبغ الملابس بأصباغ مأخوذة من نباتات بحرية. وفيما يتعلق بالصابورة، من المحتمل أن تكون تلك فكرة جيدة، ذلك أن الأحجار البحرية عادة ما تكون ملساء ومستديرة وتتحرك مع تمايل السفينة، بينما أحجار البر أكثر حدة في زواياها وحركتها أقل سهولة^(٦٠).

إذا كان هناك من يعتبرونهم يوناناً، فهناك آخرون يظن الناس أنهم "محظوظون"، أي أقل احتمالاً لاجتذاب الاهتمام الشرير للبحر. وهناك اعتقاد بين البحارة الأنجلو أمريكيين بأن البحارة الشقر (الذين يُظن أنهم بعيدو النظر) بحارة جيون. وكما جاء من قبل، فإنه يُظن أن الرجال الذين يولدون في برنيس آمنون من الغرق. ولتحقيق هذه الغاية، كان بالإمكان خلال الفترات القريبة إلى حد ما، شراء البرانس بمبالغ زهيدة. بل إنه حتى في الوقت الراهن يحمل البحارة في جيوبهم برانس مجففة لضمان عدم الغرق.^(٦١) ونذكر كذلك أن أهل جزيرة مان مؤمنون ضد الغرق لأنهم من نسل أهل

البحر. ومثل هذا المعتقد، سواء أكان صحيحاً أم باطلاً، يمكن أن يكون معيناً للبحار، ذلك أنه بينما ينشغل الآخرون باحتمال السقوط من فوق السفينة يمكنه هو المضي في عمله وهو آمن في ظل الاعتقاد بأن حياته لن تنتهى في البحر.

غير أنه لا يمكن أن يكون كل الرجال من جزيرة مان، أو أن يولدوا في برانس، أو أن تكون لهم عيون زرقاء وبالتالي يكونون محصنين ضد أخطار المحيط. وبالنسبة للسلامة وحسن الحال والرفاهية، يعتمد من هم أقل حظاً على التمانم. وهذه التمانم متعددة ومختلفة بحيث لا يسعنا سوى ذكر القليل منها هنا. ويبدو أنها جميعاً تستمد خواصها الفعالة من قواعد بسيطة إلى حد ما.

يحب البحارة في المناطق الرومية الكاثوليكية وضع تمانم القديسين المختلفين حول أعناقهم؛ وخاصة القديس إلموراعى البحر، والقديس كريستوفر، القديس الراعى للمسافرين، والقديس نيكولاس. (وبما أن مرسومًا بابويًا قد ألغى إجازة بعض المقدسين، فإننا نتساءل إن كانت خواصهم الحمائية سوف تختفى أم لا.) ونعلم في جزر شتلاند أن جلود ثعلب الماء حماية جيدة للبحار، بينما يشعر البحارة في إسكوتلندا أن المظب الأمامى الأيمن للفقمة حين يصنع منه كيس للنقود، وحبّة قاصوليا مريم (جوز ملقا البرازيلي)، وخاصة فاتحة اللون، والأحجار البيضاء التى بها ثقب، وأشياء أخرى غيرها، مفيدة. ويحمل الناس فى كل من إسكوتلندا وأيرلندا تراباً من مقابر قديسين بعينهم كى يجلب لهم الحظ؛ مثال ذلك ما سبق قوله عن الطين الذى يأتون به من مقبرة القديس كامين^(٦٢). ونعلم فى نيو إنجلاند والأقاليم البحرية أن الأحجار الناعمة التى تحيط بها حلقة وتسمى "أحجار الحظ" تجلب الحظ. ويحب البحارة فى منطقة جزر إليزابيث فى ماساتشوستس أن يحملوا "عظام الحظ" (وهى عظام ذكر كابوريا حدوة الحصان) لتجعلهم سالمين فى البحر^(٦٣). ويفضل البحارة فى خليج تشيسابيك الاحتفاظ بجوز الحصان فى جيوبهم، أو عظام بعينها موجودة فى كابوريا المجدف الزرقاء^(٦٤).

سبق أن رأينا كيف أن الناس فى عيد القديس ستيفن بأيرلندا يضربون الشجيرات على طول الطريق لصيد عصافير السكسكة، التى يربطونها فى مكنسة

بالقرب من المدفأة لإبعاد الجنيات. والبعض الآخر منها ينتف ريشه ماعدا أطراف الأجنحة ويؤخذ إلى الكنيسة ويبارك ثم يلقى في البرد لضمان أن يكون العام سعيداً (بضمان بقاء الجنيات بعيداً)^(٦٥). وفي جزيرة مان يحظى ريش عصافير السكسكة تلك بتقدير كبير ويحتفظ بها البحارة في أكياس نقودهم^(٦٦)؛ وهو ارتباط محتمل آخر بين الاعتقاد في وجود الجنيات والاعتقاد في وجود أهل البحر.

ورغم اعتقاد الصيادين في جزر الهند الغربية في كل هذه الأنواع من التمانم، فهم يحبون كذلك الحصول على مساعدة السحرة لضمان الحظ السعيد والسلامة في البحر. وعادة ما يعطيهم هؤلاء السحرة تمانم على هيئة توليفة من الزيوت العطرية التي يدهنون بها أجسامهم والسفينة، أو تميعة قرمزية يربطها الشخص حول وسطه. فأهل جزر الهند الغربية يعتقدون أن الأرواح الشريرة تتأثر بالروائح. ولتحقيق هذه الغاية يلقى القبطان من جزر الهند الغربية فانلته الداخلية القنرة في اتجاه الرياح لمنع حدوث العاصفة^(٦٧).

الشيئان الآخران اللذان يشيعان بين كل البحارة الأنجلو أمريكيين تقريباً أن لهما تأثيراً كبيراً هما السكين، ويفضل أن يكون ذا مقبض أسود وجراب، وإما قطعة نقود فضية فئة الست بنسات أو نظيرتها فئة البنسين. وطبقاً لما يقوله جيمس بوخان، وهو اسكوتلندي، إنه من الأفضل أن يكون أحد قد أعطاك قطعة النقود^(*).

وأخيراً فلا بد بالطبع من الإشارة إلى قوة الكاهن والصلاة. فقبل خروج السفينة إلى البحر، غالباً ما كانوا يستدعون الكاهن من أجل صلوات شعب الكنيسة لمباركة جهود من يوشكون على الإقلاع. واليوم فإننا نجد في المسافة من جزيرة شتلاند في الشمال إلى توباجو في الجنوب أن الكاهن يبارك السفينة وطاقمها وعدتها. بل إنه كثيراً ما يُستدعى الرجل المقدس في أوقات الشدة لدفع المصيبة بالجرس والكتاب والشموع. وتوضح قصتان، إحداهما من جزيرة هاريس والأخرى من بورتسموث

(*) لاحظ الشبه بين ذلك وبين ممارسة "شحنة" القطع المعدنية من فئة القرش المخروم التي موجودة حتى وقت قريب في مصر، حيث كانت توضع القروش حول رقبة الطف (المترجم).

لومينيكا Portsmouth Dominica، عمر هذه الأنشطة وكذلك الأسلوب الذي اندمجت به الوثنية والمسيحية لمساعدة البشرية في ساعة الضيق.

يذكر مارتن أنه قديماً في القرن السابع عشر كان أهل هاريس يقومون بترضية إله البحر المسمى شوني Shony في يوم "المد المقدس" Hallow-tide.

يأتى السكان المحيطون بالجزيرة إلى كنيسة القديس مالافاي St. Malavay وقد حمل كل رجل زاده معه. وكانت كل أسرة تقدم كمية كبيرة من شراب الموات الذي كان يجرى تحويله إلى بيرة. وكان يُختار أحد الرجال كي يخوض في البحر حتى وسطه حاملاً في يده كنساً من البيرة حيث يقف ثابتاً في ذلك الوضع ويصيح بأعلى صوته قائلاً "إنى أقدم لك هذه الكأس من البيرة يا شوني آملاً أن تكون من الطيبة بحيث ترسل لنا الكثير من حطام البحر لإثراء أرضنا في العام المقبل وبعد ذلك يسكب البيرة في البحر. وكان ذلك العمل يتم في الليل. وعند عوبتهم إلى البر كانوا جميعاً يذهبون إلى الكنيسة حيث توقد الشموع على المنبح. وبعد ذلك، وبينما هم واقفون صامتين، يعطى أحدهم إشارة يطفئون عندها الشموع، وعلى الفور يذهبون جميعاً إلى الحقول، حيث يشربون تلك البيرة ويقضون ما تبقى من الليل في الرقص والغناء وغير ذلك (٦٨).

في أبريل من عام ١٩٧١ قال كارلتون ماجلورى Carlton Maglorie لى وازوجتى:

أتذكر أنه في إحدى المرات كانت هناك سمكة قرش كبيرة في هذا الميناء، قرش ضخم كبير كبير. إنه كبير؛ نصف هذه السفينة تقريباً، قرش كبير. وكان يأتى دائماً أيام الأحاد؛ حيث يمر من أمام الشاطئ. وفي إحدى المرات قفز على طفل صغير. وقد أذى الطفل. وبعد ذلك ذهب الناس إلى الكاهن وحكوا الموضوع للكاهن. كانوا سيذهبون للساحر ولكنهم التقوا بالكاهن على شاطئ البحر. وبعد ذلك أقام الكاهن قداساً وقال إنه سيأتى إلى هنا حين يعرف أن هذا الشيء موجود. وفي يوم الأحد أعلنوا ألا يستحم أحد في البحر. وبعد ذلك رأوه آتياً يسير بمحاذاة الشاطئ - حيث يمكن أن ترى النيل وهو يمر - وهو تحت الماء كما تعلم. كان يسبح في كل مكان وكانت الأمواج تتلاطم وجاء الكاهن. وبينما كانت

الأمواج تتلاطم عد الكاهن سبع أمواج. عد موجة وهى تتلاطم، اثنتان، ثلاث. وعد أربع، خمس، ثم السابعة وقال "قف". وتوقفت الأمواج عن التلاطم. ثم فتح كتاباً؛ كتاباً كبيراً وقرأ شيئاً كالصلاة، نوع من الصلاة، وفعل شيئاً من هذا القبيل. ورسم علامة على البحر وقال "إنى أدعوك إلى الشاطئ: ضع نفسك على الشاطئ: وفجأة رأينا السمكة. قفزت فى الهواء، ونزلت على الشاطئ: أألت بنفسها على الشاطئ: وقال الكاهن للناس أن يقضوا عليها. وقضوا عليها وأخذ هو قطعة من القرش وأحضرها للساحر وقال له إن السمكة أرسلها شخص ما من أجل طفل عدوه. ونهب الكاهن إلى تلك الشخص الذى أرسل السمكة وألقى به فى السجن. وبقي فى السجن المؤبد ومات.

حين نتفحص تلك التماثل نكتشف أشياء معينة. فهى نادرة أو يصعب الحصول عليها، وكل ما هو مختلف يظنون أنه يحتوى على خواص سحرية. وتربط بعض الأشياء بالموتى وعادة ما يعتبرونها قوية فى العالم الآخر. والبعض منها أشياء بحرية بطبيعتها. ويعتقد الناس أنه بامتلاكهم هذه الأشياء سوف تنتقل صفات الشيء إلى مالكه. وفى حالة السكين وقطعة العملة، فإننا نتعامل مع الحديد والفضة، حيث ترتبط هاتان المادتان بعالم الجنيات. وأخيراً يظن الناس أن الأرواح حساسة تجاه الروائح، لذلك فمن المنطقى الاعتقاد بأن التماثل ذات الروائح القوية إما أنها تطرد الأرواح أو تستبدل الشرير منها بالطيب (إذا كانت الرائحة طيبة).

تستخدم الروائح بالطبع لأغراض تتعدى مجرد ضمان حسن الحظ. فهى تستخدم كذلك لحفظ الصحة الجيدة وعلاج السقم. ويجرى هذا فى الغالب من خلال استخدام السحر التعاطفى أو من خلال فكرة النقل، أو أحياناً من خلال التناقض. فبما أن أسماك القرش لها الكثير من الأسنان الكبيرة الحادة، فالناس يظنون منذ زمن بعيد أن سن القرش مفيد للأطفال كى يستننوا بشكل جيد. ووجود جلد السمك أسفل الأحذية يساعد على تدفئة قدم البحار، لأن السمك بارد. وتعمّر السلاحف البحرية طويلاً، وإذا أكلت لحمها أو احتفظت بقطعة من صدفتها على مقربة منك فإنها سوف تجعلك قوياً قوياً فى كبرك (جزر الهند الغربية)، ولكن إذا أكلت رأس السمك فستكون غيباً، لأن السمك ليس له ما يكفى من العقل كى يسبح خارجاً من الشبكة وأنت ما تأكله^(٦٩).

وينقلنا هذا مباشرة إلى مجال الطب الشعبى البحرى، الذى يبدو أنه يتبع نفس القواعد التى سبق ذكرها. لا يتعرض البحارة بسبب عزلتهم لعدد كبير من الأمراض التى تظهر على البر. ومع أن لهم أمراضاً أخرى، يبدو أن عللهم الأساسية تنجم عن الغذاء وعن ظروف المعيشة وعن مخاطر عملهم. وربما كانت عللهم الغالبة هى بوار البحر والتمزقات والجروح المتقيحة والأورام والكدمات. والإسقربوط بلاء آخر. ويؤدى التعرض للظروف المبللة والرطوبة باستمرار إلى التهاب المفاصل وآلامها والشد العضلى وأحياناً أمراض البرد والتهابات الجهاز التنفسى.

ومن بين كل الأمراض نجد أن التعامل مع المرض الذى ربما يكون أكثرها إزعاجاً ويمكنه إلى حد كبير قتل الشخص - بوار البحر - أخف ما يكون. فالماء المالح والخبز الجاف والشاى والمخللات والسّمك المجفف جميعها علاج مقترح له، ودائماً ينصحون من يصاب به بالابتعاد عن الطويات. وفى الوقت نفسه عادة ما يكون على متن السفينة شخص مزّاح يجعل البحار المستجد يبتلع قطعة من لحم الخنزير المملح المربوطة فى خيط وبعد خمس دقائق يسحبها، أو يقترح عليه أن يضع إصبعه فى حلقه أو يشرب فنجاناً من زيت الديزل.

والإسقربوط قاتل حقيقى على متن السفن، وكان سببه يقتصر على النظام الغذائى، وقد عُثر له على علاج منذ عصر القبطان كوك. وكانت المشكلة هى فقط أن البحار ظل زمناً طويلاً يرفض تناول أى شىء أكثر لذابة من خبز السفينة الجاف ولحمها المملح. فلم يكن يتناول الكثير من اللحم الطازج أو الفواكه أو الخضروات ويرى أنها غير مستساغة إلى حد كبير. وفى النهاية أقنعوه بتناول البصل والبطاطس ويشرب عصير الليمون lime juice (إلى حد أن البحارة الإنجليز مازالوا يسمون Limeys وتسمى سفنهم Limejuicers).

وكان الإزعاج الكبير الذى يعانى منه البحارة الذين يعيشون فى ملابس مبللة أو رطوبة فترة طويلة هو بثور الماء المالح. وكانت الممارسة المتبعة لزمّن طويل لمنع ذلك فى نيوفاوندلاند هى لبس أساور من النحاس الأحمر أو الأصفر. وافترض أن الفكرة التى وراء ذلك هى أن البثور تبدأ حيث يغير الاحتكاك لون الجلد، وتغير الأساور لون المعصم

من خلال تفاعل الماء المالح معها. وقد أخبرنى البروفيسور هالبرت Professor Halpert من جامعة نيوفاوندلاند أن هذه الطريقة تفلح.

ولضمان الصحة الجيدة والقوة وطول العمر، كان الاعتقاد الشائع هو أنه ينبغي شرب ماء الحديد. وكان قبطان عجوز من جزيرة بوند Pond Island بولاية مين فى التسعينيات من عمره وكان يعتزم بلوغ المائة. ولكى يفعل ذلك كان يشرب فنجاناً من الماء الصدى الذى كان يأخذه من برميل المطر الذى يقلب تقليباً جيداً مع بعض الصابورة الصبغة الراقدة فى قاع السفينة (٧٠). وفى نيوفاوندلاند يبتلع البحارة الرش للغرض ذاته (٧١).

ومع أن ماء المطر يوصف فى بعض الأحيان لإزالة التجاعيد ويرتبط فى كثير من الأحيان بالحواريات، فلم يكن يُنظر إليه نظرة طيبة. فقد كانوا يعتقدون أنه يزيد الديدان وأنه أشد ما يكون ضرراً بالصحة. وإذا أمعن المرء النظر إلى برميل قديم من ماء المطر فسرعان ما يرى المنطق الذى وراء هذا المعتقد.

بالنسبة لمعظم العلل التى تحتاج إلى علاج مُطهر، كانت أفضل ثلاثة أشياء هى الروم والقار والبول. فقد كان الروم يستخدم لإعادة الشعر وتطهير الجروح وتخفيف "البؤس" وقتل الديدان والوقاية من الإصابة بأمراض البرد. واليوم فى جزر ويندورد يفيد "جاك أيرون" Jack Iron (برق جيرزى "الخاص بالكاريبى) فى علاج أمراض البرد والالتواءات وتطهير الجروح ولضمان طول العمر. وحين يوضع القار حاراً ويترك حتى يبرد يمنع النزف أو يعمل كلبخة. وحين يمضغ يكون مفيداً للثة. وقديماً كانوا يحتفظون على متن السفن الشراعية ببرميل بول مربوط فى عنبر البحارة. وكان البحارة يستخدمونه لغسل شعورهم وملابسهم. فقد كان يبيض الملابس ويطرد القمل من شعورهم. وكانوا يتغلبون على الرائحة فى الأسطح السفلى بروائح أشد، بينما كان يوضع على السطح عكس اتجاه الرياح.

والأمر اللافت للنظر أن البحار ظل زمناً طويلاً يستخدم الفضلات استخداماً طبيعياً. فهو يظن أن فضلات البقر والدجاج تعد لبخة ممتازة. وقد أخبرونى فى مين أن "شاي برقوق المربية هو أفضل شئ لتحسين أحوالك".

وربما كانت أشكال العلاج الأكثر صموداً والأكثر شعبية هي تلك التي يكون المكون الأساسي فيها هو القاعدة الزيتية. وعادة ما كان الزيت مصدره المخلوقات البحرية، بل إنهم كانوا يستخدمون كذلك شحم الخنزير والكيروسين. وكان الزيت المستخرج من الفقمة وخنزير البحر والحوت والسماك، بل والطيور البحرية، يستخدم في تخفيف الالتواءات والوقاية من أمراض البرد ووقف الصداع (إلى جانب جلد السمك الذي يلف حول الرأس)، وهي تعمل كملين وتساعد على طول العمر. وكان أفضل زيت فقمة يأتي من الحيوانات الرضعية وكان يستخرج بطريقتين، إما عن طريق غلي الدهن على النار أو من خلال الاستخراج الشمسي.

كان "مقعد الحياة" يقع على مر القرون في أماكن عديدة من الجسم؛ وهي القلب والرئتان والمخ. وقد فحصت العلوم الطبية كل عضو بدوره ونُقِيَ هذا الدور حتى كاد مقعد الحياة يترك الجسم ويجد له بيتاً جديداً وغامضاً في "عنبر العناية المركزة" حيث يقسم وقته بين المؤشرات والقوارير والأنابيب. وفي وقت من الأوقات، منذ زمن بعيد كان موضعه هو الكبد. وهناك حكايات كثيرة تتمحور حول هذا المعتقد على وجه الخصوص. ومن اللافت للانتباه ملاحظة أن صيادي جراند بانكس كانوا يرمون أكباد سمك القد في برميل حين كانوا يخرجون أحشاء صيدهم. وفي كل صباح كانوا يأخذون فنجاناً من السائل ويشربونه؛ وكانوا يظلون رغم المناخ السيئ في صحة جيدة وخذودهم متوردة. ومن هنا اكتشفت العلوم الطبية قيمة زيت كبد سمك القد^(٧٢).

ولزيت الحوت خواص تجعله فريداً. ومن بين هذه الخواص حقيقة أنه لا يصيب بالتخمة، وأنه لا يزنخ بسهولة، وأنه مادة حافظة ممتازة. بل إنه يأتي من أضخم حيوان في العالم يتحرك في الماء بمرونة الثعبان ويتحرك بسرعة تزيد على سرعة سمكة الرنجة الصغيرة. كل هذه الأمور تجعله مرغوباً باعتباره نواء يؤخذ من الباطن والظاهر. وفي عام ١٩٦٩ كان أول حوت عنبر ينزله صيادو الحيتان في بيكيا على جزيرة بيتيت نيفيس *Petite Nevis* منذ ما يزيد على ثلاثين سنة. وطلب رجل عجوز شل التهاب المفاصل حركته بشدة نقله إلى هناك، رغم ما تحمله من نفقات كبيرة ومخاطر وتعَب. وقد لفوا حوله حبلًا وغمروه في الزيت الذي في رأس الحوت. وبعد فترة طويلة من الغمر سحبوه وذهبوا به إلى بيته وقيل إنه شعر بتحسّن كبير^(٧٣).

قبل أن نترك موضع الطب، هناك معتقد أخير لابد من ذكره. فكثيراً ما يصور القراصنة وبحارة العصور القديمة وهم يضعون أقراطاً في آذانهم بحيث باتت هذه الزينة سمة مميزة للجماعة. ولكن قيمة القرط التزيينية ليست بحجم قيمته العلاجية. فقد كان هناك اعتقاد بين البحارة بأن ثقب إحدى الأنف يحسن الإبصار في العين المقابلة. ولتحقيق هذه الغاية كان البحارة يثقبون الأنف لتحسين فائدتهم في نوبات المراقبة، وكان الربان يثقب الأذن المقابلة للعين التي يستخدمها للنظر في التلسكوب^(٧٤).

لا يزال البحارة يضعون الأقراط، وفي أمريكا الشمالية والجزر البريطانية يضعها من عبروا حق التاريخ النوري أو خط الاستواء. ويضعونها في جزر الهند الغربية في أنف واحدة عادة، ولم تعد الفكرة هنا هي تحسين الإبصار وإنما ضمان الصحة الجيدة. وقد انتقلت الفكرة إلى البر واتبعتها عمال الصلب الذين يقومون ببناء هياكل البنايات المرتفعة في الولايات المتحدة، حيث يضع الواحد منهم قرطاً بعد نجاته من سقوط خطير.

ويغض النظر عن مقدار صحة الشخص أو الإجراءات الوقائية أو العلاجية التي يتبعها، فإنه من غير المحتمل أن يبقى على قيد الحياة إن هو لم يراقب "العلامات". ومن المؤكد أن الغالبية تتعامل مع الطقس، إلا أن هناك عدداً ضخماً من الأشياء التي توحى بسوء الحظ أو الكارثة بالنسبة للسفينة والطاقم، وكذلك هناك الشيء الغريب العارض الذي ينبئ بحسن الحظ. وبصورة عامة يؤخذ أي أمر مختلف عما هو متوقع في العادة من هذا الشيء على أنه ينذر بما سيقع أو يبشر به. ومثال ذلك تؤخذ طيور البر في البحر، وطيور البحر على البر، والمخلوقات البهقاء على أنها تنبئ بحدوث أشياء ما. ولا ضير من إيراد نماذج سريعة.

ليست الخنازير والكتاكيت والحمام والققط والأرانب والثعالب والنساء (وخاصة العذراوات والعاهرات والساحرات والعرائس والنساء اللاتي يحملن سطولاً فارغة أو الحافيات) والخياطون والقسس والكهنة والكنائس والأزهار وطيور الرفراف^(*)

(*) طائر يعيش بالقرب من الأنهار ويقتات الأسماك. (المترجم) .

والكلاب النابحة والأجراس المجلجلة وخشب الآس البرى وأوراق اللعب (الكوتشينة) وزهر الطاولة وعين الجمل والمجانين والدلاء الفارغة والمكانس والخطاطيف التى تشير إلى إحدى السفر والغريان التى تطير أمام سفينة ما والحشرات والعصافير الزرقاء والشهب وأسماك القرش وخنازير البحر والأسماك الطائرة والسالمون والمستخفون على متن السفن والمظلات إلا قائمة ضئيلة لأشياء لا حصر لها لا بد أن يلاحظها البحار إن كان يريد معرفة ما سيحدث فى المستقبل. إلا أن القائمة تعطى إحساساً بالتنوع. فكل شئ نكر هنا له العديد من الحكايات التى توضح قيمته. ويمكننا أن نروى حكايتين فقط منها إلا أنه لا بد لنا أولاً من شئ من التحليل.

يمكن أن يقع أى من الأشياء المذكورة ضمن فئة أو أكثر من ثلاث فئات. والأمر الأكثر أهمية أنها تضر السفينة بصورة ما: أوراق اللعب وزهر الطاولة والنساء تؤدى فقط إلى حدوث مشاكل فى البحر. الشئ ليس من العادة وجوده فى البحر - مثال ذلك الغريان والحمام والعصافير الزرقاء - ولذلك يظنون أنه يكون بمثابة تحذير. الأشياء المرتبطة بعالم الخوارق. الثعالب والأرانب والقطط هى الصور التى يمكن أن تظهر عليها الساحرات. وهى تفعل أشياء غير عادية. فالأرانب تصاب بالجنون فى شهر مارس، والثعالب شديدة المهارة، والقطط تحمل كهرباء استاتيكية فى فرائها وترتبط بالشیطان. والقسس والكنائس والأجراس تتصل جميعها بالمسيحية (من المفترض أن يذق جرس السفينة إنذاراً بأنها تفرق). وبما أن البحر ليس مسيحياً فهو يحاول أن يدمرها. وكلما كثرت الفئات التى يمكن أن ينطوى تحتها شئ من الأشياء كانت قدرة المعتقد على البقاء أكبر.

المعروف أن مين ومايساتشوستس كانت بهما ساحرات لزمان طويل. ويسجل جون جوسلين أنه كان هناك عدد من الساحرات "المنتفحات" الضخمت وكن فى الغالب من طائفة الأصحاب وكانت تروى عنهن كل أنواع الحكايات. وقد ظهرت إحداهن لبحار على بعد عشرين فرسخاً داخل البحر فضربها بالبلطة. وفى نفس اللحظة خرت امرأة ، كان الناس يشكون منذ زمن أنها ساحرة ، صريعة.

ومنذ فترة قريبة ضايق صياد ساحرة بالقرب من فالماوث Falmouth بولاية مين حيث حذرتة بأنه سيندم. وحين ذهب ليخرج بقاريه للصيد كان هناك كلب ضخم يجلس على المقدمة ويرفض أن يتحرك. أخذ الصياد بنذقيته وحشاها حشواً مضاعفاً بكلوريد الصوديوم؛ مما نبه ذلك المخلوق فجأة من على بعد. وهناك في القرية كادت المرأة التي سبق أن حذرتة تموت من الجروح في بيتها (٧٥).

وفي عام ١٩٧١ أخبرني صياد في سانت لوشا Saint Lucia أن جارتة ساحرة. وكانت تستجدي السمك منه باستمرار، وحين لم تكن تحصل منه على شيء كانت تصيب زوجته بنوبات صرع. خرج الصياد للصيد وعاد بـ سمكة مليحة. رش في البداية مسحوقاً ساماً عليها. لم تطلب سمكاً آخر. وخلال يومين أخذ رأسها يصغر ويصغر ويصغر وكان فمها كبيراً وأحمر مثل النار، وماتت. ولم تعد زوجتي تعاني من نوبات الصرع.

عادة ما تكون الساحرات عجائز؛ ومن المؤكد أنهن كذلك الآن. بل إنهن فقيرات. ويمكن التعرف عليهن لأنهن لا يكيبن ولا يحيط جلد بأظافرهن، ولا يمكنهن تلاوة صلاة أبانا الذي، ولا ينزفن، ولا يشعرن بوخز الدبابيس التي تغرس في أماكن غريبة. خلاصة القول أنهن يعانين من ضعف الشيخوخة وسوء التغذية والعزلة. وبما أنهن مختلفات عن جيرانهن، فهن ساحرات. وليس هذا صحيحاً دائماً بطبيعة الحال. وفي بعض الأحيان يمكن أن يعمل الرجال، وخاصة في إسكوتلندا، بالسحر. ويقال إن الشابات قادرات على الخروج من أجسادهن لتحري معلومات عن السفن. وكما أشرت من قبل، فإنه لا يمكن تمييزهن كذلك في جزر الهند الغربية، ولكن من المؤكد أن المعلومات السابقة قد تساعد في التعرف على عدد كبير منهن.

إذا كانت الساحرات مكروهات، فكذلك حال أسماك القرش. فهذه المخلوقات تعيش إلى حد كبير على الفضلات وتتبع السفن أميالا. وقد اكتسبت بين البحارة شهرة كذلك التي يلصقها أهل البر بالذئب. فإذا مر أحدها على شاطئ من الشواطئ فإن ما يستخرج منه يكون قليلاً، ولكن حين تتبع سفينة بأعداد كبيرة ولفترة طويلة فإنه ينظر إلى ذلك على أنه دليل مؤكد على الموت. ويبذل البحارة جهداً كبيراً للتخلص منها.

منذ سنوات بعيدة ضايق قرش كبير جداً إحدى السفن حتى إنه ما كان ليتركها. ولم تجدى الخطاطيف نفعاً. وفي النهاية عض أحد أفراد الطاقم، وقرر عريف الملاحين المساعدة في الأمر. فقد أحضر خنزيراً صغيراً وطلب من صانع الأشرعة أن يصنع كيساً صغيراً من القماش. ملأ العريف جزءاً من الكيس رملاً. وبعد ذلك طلب من الحداد تسخين قذيفة مدفع صغيرة إلى أن يبيض لونها. وبعد ذلك نقل الخنزير الصغير إلى الدرايزين حيث قُتل وأفرغت أحشاؤه. سقط الدم والأحشاء في الماء واندفع القرش ليشارك في الوجبة. وفي تلك الأثناء أسقطت القذيفة في الكيس، ووضع الكيس داخل الخنزير ثم خيطت بطنه. وبعد ذلك ألقوا به إلى القرش الذي ابتلعه مرة واحدة.

اصطف أفراد الطاقم على الدرايزين، ومرت لحظة دون أن يحدث شيء. ولكن فجأة بدأ القرش يتلوى. ثم أخذ يسبح أسرع وأسرع. وبعد ذلك قفز خارج الماء وهبط على ذيله، وأخيراً ألقى بنفسه على البر، مما أذهل السكان المحليين الموجودين على الشاطئ. وذهب أفراد الطاقم بقارب صغير إلى الشاطئ واكتشفوا أن القذيفة قد أحدثت ثقباً في بطنه وسقطت في البحر^(٧٦).

كلما طال تناولنا لهذه الأشياء تكثر الحكايات التي نسمعها عنها، وكلما قَصَرْنَا الحكايات على التجربة الشخصية كان احتمال سخریتنا منها أقل.

هناك اعتقاد شائع بأن وجود شمسعية على متن السفينة يجلب النحس. ومن الواضح أنه ليس معتقداً قديماً جداً، ذلك أن سجل إحدى سفن المجهود الحربي في عام ١٨١٢ يحكى عن معاقبة أحد أفراد الطاقم بـتبطحه أرضاً وقد فردت نراعاها وساقاه لسرقته مظلة الريان. وفي صيف عام ١٩٦٦ أحضرت زوجتى هذا الشيء على متن سفينة في كوينهاجن. وكنت قد تركتها على الشاطئ ولكنها أعادتھا إلى السفينة. وطوال الصيف كانت تواجهنا العواصف والضباب ومشاكل المحرك والرياح المعاكسة والمرض على متن السفينة. وفي النهاية، وبعد عدد من المصادفات المدهشة، جنحنا في بحر المانش. وأخذت حالة الطقس تتدهور وبدأت التوقعات شديدة السوء. مالت السفينة وسقطت المظلة من عليها. وقد غرررتها في الرمال المجاورة. ارتفع المد وعامت السفينة واعتدلت الريح وكان الجزء الباقي من الصيف والصيف التالي خاليين من المشاكل.

ليست الأشياء التي أوردناها في هذا الفصل سوى القليل من على السطح. فقد تركنا المئات من المعتقدات، بل والكثير من الفئات؛ كالمعتقد الخاص بأن أياماً بعينها سعد وأخرى نحس. وأظن أنه من الواضح إلى حد ما أنه إذا لم يكن البحارة يؤمنون بها لما كان لديهم هذا الكم الهائل منها. ومن الواضح كذلك أنها إذا لم تكن تتحقق - لبعض الوقت على الأقل - لكان البحارة قد هجروها. ويمكن القول كذلك أنه في وجود هذا العدد الكبير من المعتقدات فإنها لابد أن تصيب الهدف. وهذا صحيح بلا شك.

في الوقت ذاته تشغل هذه الأشياء حيزاً ضخماً في حياة البحار. ويمكن أن يكون هناك بعض الشك في أن تلك المعتقدات التي لا يمكن إثبات أن لها أي أساس منطقي قد تكون لها قيمة نفسية ضخمة. فلم الصراع إذا كانت النذر سيئة؟ وعلى العكس من ذلك، فإن المرء حين تكون البشائر طيبة تكون لديه فرصة ويستمر في المحاولة. وحين تفشل كل الوسائل المرئية، قد ينجح الرجل رغم ذلك بتجربته الوسائل غير المرئية. وهي تفلح أحياناً ولا تفلح أحياناً أخرى.

احتمت إحدى سفن الصيد ذات مرة في خليج تشيسابيك من العاصفة عن طريق دخولها في إحدى القنوات. وظل الطقس على سوءه يومين، وقلَّت المؤن. قال وكيل القبطان للقبطان:

"لابد أن تفعل شيئاً."

"ما الذي تريدني أن أفعله؟ لقد جربت كل شيء."

"إنك لم تجرب الصلاة."

"وهو كذلك، سأجرب هذا إنن." وظل يصلي لمدة ساعتين قبل أن يؤوى إلى فراشه كي يهدأ الطقس.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الريان وأطل برأسه من الكوة.

"كيف الحال؟"

"تقريباً كما توقعت. أسوأ قليلاً" (٧٧)

لدى البحارة قول مأثور هو "حين تصل إلى نهاية سطر اعقد العزم على تلاوة ما بعده". وهذه الأفكار قد لا تفعل سوى ذلك وتوفر مجالاً إضافياً يوصل السفينة والحمولة والطاقم بسلام إلى الميناء.

قد لا أنهى هذا الفصل دون بيان أنه حين تثبت فائدة هذه الأشياء لا يكون ذلك بدون بضع دفعات ممن يؤمنون بها. فحين يتحقق حلم ما، فإن احتمال تذكره أقوى مما لو لم يتحقق. وحين لا يتحقق الحلم وتفرق السفينة بكل من عليها من بحارة، من الذى سيعلم بالأمر؟ بل إنه حين يؤمن الناس بهذه الأشياء فإنهم يترددون فى القيام بما هو عكسها، وخاصة حين لا يكلفهم الالتزام بذلك شيئاً. وذات مرة سألت قبطاناً عجوزاً "هل تظن أن يوم الجمعة يوم سيئ لبدء الرحلة؟" "أظن ذلك بالتأكيد." "هل أقلعت ذات مرة فى يوم جمعة؟" "أقلع فى يوم جمعة؟ بالطبع لا. من ذا الذى يفكر فى الإقلاع فى يوم جمعة؟"

الفصل الثانى عشر

القراصنة وقادة سفن المجهود الحربى والمهربون

« يا إلهى ، إنى أكثرهم براعة ، غير أن
شهود الزور شهدوا ضدى ».

القبطان ويليام كيد

إحدى مفارقات التاريخ أنه ينبغى تذكر دور القرصان أكثر من أى من المهنتين الأكثر خطورة فى المحيط؛ وهما قيادة سفن المجهود الحربى (*) والتهريب. بل إن المفارقة المضاعفة هى أن الرجل الذى نتذكر اسمه باعتباره كبير القراصنة - وهو القبطان ويليام William (وليس روبرت Robert) كيد Kidd - هو فى واقع الأمر "أكثرهم جميعاً براعة". أما المفارقة المضاعفة ثلاث مرات فهى أن فاسداً بلغ من السوء مبلغاً، بحيث لا يوجد برك من بركات جهنم على ذلك القدر من الوضاعة الذى يستحق أن تستقر فيه رفاة، قد منح لقب سير على ما قام به من أعمال جليلة؛ وهو السير هنرى مورجان Sir Henry Morgan. غير أن هذا هو القدر حين يدعمه المال والسياسة.

من بين المهن الثلاث نجد أن قائد سفينة المجهود الحربى هو أقلها تذكراً، ولا بد من أن نقول كلمة عن هذه المهنة، وهى أن بعض الرجال المميزين كانوا على قوائمها، كما أن بعض أعظم أعمال الشجاعة والتعامل مع السفن قام بها قادة سفن المجهود الحربى.

على عكس المعتقد السائد، لم يكن قائد سفينة المجهود الحربى قرصاناً a pirate أو لص مواشى reaver كما كان يسمى فى إسكوتلندا، أو مغامر buccaneer ؛ ذلك

(*) سفن مملوكة ملكية خاصة ولكن الحكومة هى التى تتولى تشغيلها وتجهيز لها مهاجمة سفن الأعداء والاستيلاء عليها . (المترجم) .

أن القرصان **pirate** كان يغير على السفن كافة، وكان المغامر يغير على السفن كافة إلا بسفن بلاده، وكان قائد سفينة المجهود الحربي **privateer** يغير على سفن الدولة التي في حالة حرب مع بولته وحسب. بل إنه كان يحمل ترخيصاً للقيام بذلك - كان يشتريه من الحكومة - وكان يسمى "خطاب التفويض والانتقام" **a letter of marque and reprisal**، وهو ما كان يمكنه من الخروج للبحث عن سفن الأعداء والاستيلاء عليها إن أمكنه أو تدميرها. وكان ذلك "التفويض" يختلف عن "خطاب التفويض" **a letter of marque** الذي كان يسمح للسفينة التجارية فقط بحمل المعدات الحربية لحماية نفسها.

في عصر باتت فيه السلامة وطول العمر الدافع الرئيسى للحياة بالنسبة للكثيرين، أصبحت الحرب وشائعات الحرب لعنة. وقد أدى احتمال الحروب الحديثة التي تشن بالضغط على زر إلى تعزيز وجهات النظر تلك. وإنى أجد لدى بعض الجسارة التي تجعلنى أتحدث عن قيادة سفن المجهود الحربي. ومع ذلك فإننا حين نقرأ رواية القبطان جون سميث عن معركة بحرية وقعت منذ زمن بعيد، التي يعتمد فيها على تجارب عديدة، فإن ذلك يساعدها على تفسير سبب شعور الرجال بالفرح لقيادتهم سفن المجهود الحربي. وما يلي هو فصل كامل من كتابه "أجرومية بحرية" **A Sea Grammar** الصادر في عام ١٦٢٧:

كيفية إدارة معركة في البحر، بالشروط الصحيحة في معركة أعلن عنها بصورة كبيرة، وترتيب الأسطول في البحر.

بالنسبة لدراسة هذا العمل، أعترف بأننى قد أحسن صنعاً لو أنى تركته كما هو التقدير الشخصى لكل إنسان، أو لمن لهم ممارسة أطول أو خبرة أكثر. غير أنه بما أننى رأيت الكثير من الكتب الخاصة بفن الحروب البرية، ولم أرق كتاباً عن البحر، وحيث إننى أرى الرجال كافة صامتين عن هذه الخدمة الأكثر صعوبة، وهناك الكثير جداً من القباطنة الشبان، وغيرهم ممن يرغبون فى أن يصبحوا قباطنة، الذين يعلمون القليل جداً عن أى غرض من الأغراض، أو لا يعلمون شيئاً بالمرّة. ولكى

الكثير من كتب فن الحروب عن البر، وليس هناك كتاب عن البحر.

يتحسن فهم هؤلاء، قطعت ذلك الشوط. وبالنسبة لما سيأتى،
فإنى أرجع ما رأيته وفعلته وفكرت فيه من خلال خبرتى القليلة
إلى تنويلاتهم الوبية وتقديراتهم الحكيمة.

الشراع، كيف تتجه السفينة أو تستقيم، فى اتجاه الريح
أو عكس اتجاه الريح، اضبط اتجاه الشراع بالبوصلة. إنه يقف
متجهاً للأمام، أو يميل فى اتجاه الريح أو عكس اتجاه الريح،
ودع أعلامك ترفرف إذا كان لديك سفينة مرافقة، وإلا فلا. وبعد
أن تفرد كل أشرعتك ضع رجلاً ثابتاً على الدفة واجلس عن
قرب لتجعل السفينة ثابتة، تعقبه أو أوقفه. فإذا بقى ثابتاً
فلا بأس، وإلا فإننا نحتشد عليه. القبطان، يرفع علمه وراياته،
وكذلك ملابس المستغنى عنها والشريط العلوى، وهو قماشة
حمراء طويلة عرضها ثلاثة أرباع الياردة تقريباً لها حاشية على
كل جانب من البفتة أو الكتان الأبيض تلف بها السفينة على
الجوانب الخارجية لأجزائها العليا جميعاً فى المقدمة والمؤخرة،
وأمام رءوس الجسر، وكذلك حول المنصة التى فى أعلى
الصارى الأمامى والمنصة التى فى أعلى الصارى الرئيسى،
وكذلك من أجل جانبية السفينة ومظهرها، ولكى يمنع رؤية
الرجال، يلف عارضة الشراع الرئيسى ويرفعها، ويدخل
الشراع المنشور. وهكذا يحصرون أنفسهم فى الأشرعة
القصيرة، أو أشرعة القتال، وهى فقط الشراع الأمامى
والشراعان الرئيسى والأعلى، لأنه لا ينبغى لسائر الأشرعة أن
تُحرق أو يصيبها التلف. إضافة إلى أن وجودها سيجعل
التعامل مع السفينة متعباً، ويعوق رؤيتنا واستخدامنا لدفعيتنا.
وهو يجعل معاركه الأمامية والخلفية القريبة ممكنة.

التعقب .

الملابس المستغنى عنها .

الشريط العلوى .

أشرعة القتال .

سحب السفينة .

فى البداية أقول كيف تكون المطاردة يا سيدى؟ سوف
نقترب منه شيئاً فشيئاً. وحين يستعد الجميع، يذهب كل رجل

كيفية بدء المعركة.

إلى عمله المكلف به، رش الماء على شراعك الأعلى تحية للبحر، وارفعه مع ضجيج النفير. من أين جاءت سفينتك؟ من أسبانيا. من أين جاءت سفينتك؟ من إنجلترا. هل أنت سفينة تجارية أم سفينة حربية؟ نحن من البحر. إذا كان يشير لنا ناحية اتجاه الرياح بسيفه المشهر، ويدعو بكل قوة لملك أسبانيا، وينطلق مبتعداً، طارده بالمدافع التي على جانب سفينتك، واسبقه بمسافة كافية. أحسنتم، أحسنتم. لقد أنهك تماماً. لقد أفسدنا عليه تدبيره وهاهو يغير مساره، فغير مسارك أنت كذلك وابق مبتعداً، وكن مستعداً عند الدفة، وتقدم معه بحرص، ووجه له وابلاً من الطلقات الصغيرة، وكذلك مدافع المقدمة ومدافع الجانب كما سبق، ولتبق مبتعداً. إنه يرد علينا الطلقة بالطلقة. سوف نسأله، هل أنت مستعد من جديد. نعم، نعم. أعد ما فعلته معه من قبل.. أحسنتم، أحسنتم. ابق مبتعداً وراجع مدفعيتك من جديد. هل الجميع على استعداد؟ نعم، نعم. تقدم معه بحرص من جديد وابدأ بمدافع مقدمتك، واتل ذلك بمدافع الجانب، وقلل سرعة السفينة، ولكي تطاردها المطاردة التامة، أطلق مدافع الجانب الذي في اتجاه الرياح، وأدر السفينة بحيث يمكن أن تطلق المؤخرة مدفعيتها كذلك، وتعود حبال الشراع إلى سطح السفينة من جديد. أحسنتم، أحسنتم. الرياح تغير اتجاهها، والموج يعلو بحيث يدخل الماء السفينة، والماء ينهمر علينا أكثر وأكثر، وبين الرياح والماء. استخدم المضخة، وقف بقوة على الدفة. سيدى، دعنا نأخذ نفسنا ونجدد نشاطنا بعض الشيء، وندلى برجل لوقف تسرب الماء. يكون ذلك بلفه من عند وسطه تقريباً بقطعة من قماش الأشرعة وحبل للحيلولة بون غرقه، ويكون نراعه حرين، وتكون مطرقة خشبية فى يد وخابور ملفوف عليه جوت مشبع بالقطران فى اليد الأخرى، حيث يقوم

كيفية الإدلاء برجل من على السفينة .

بدقه بسرعة فى الثقب أو الثقوب التى أحدثتها الطلقات. يا للسعادة يا رفاق، هل تم كل شىء؟ كل شىء على ما يرام، كل شىء على ما يرام، كل شىء على ما يرام. ثم استعد للصمود أمامه من جديد، وأطلق عليه كل قذائفك، الكبير منها والصغير، وفى الدخان اقترب منه عند مقدمة السفينة وعند منتصفها، وإذا لم يمكن هذا فبالقرب من مؤخرتها، أو اجعلوا اشتباكاتكم سريعة إن استطعتم فى معارككم القريبة وابتعدوا. يا قبطان نحن ملاصقون لبعضنا والسفينة شبت فيها النيران، ونقطع أى شىء لنزيد العوائق، ونطفى النار بالملابس المبللة. فى مثل هذه الحالة سوف يكونون فى الحال أصدقاء، حيث إنهم بمساعدة كل منهم فى إطفاء حريق الآخر سوف يتخلصون جميعاً من العوائق، وإلا فإنهم سيحترقون معاً ويغرقون. أما إذا كانوا كرماء فسيشرب كل منهم نخب الآخر بعد إطفاء الحريق ثم يلقون بأكوازهم فى البحر ويبدعون من جديد.

لقد انقضى النهار يا سيدى، وحل المساء، ودعنا نستشير. الطبيب يرعى الجرحى، ويكفن القتلى، حيث يعلق فى كل منهم ثقلًا أو قذيفة عند الرأس والقدمين كي يغوصوا فى الماء، وتطلق المدفعية ثلاث طلقات عند جنازتهم، وينظف المساحون السفينة، ويسجل ضابط المحاسبة أسمائهم، وتحرص المراقبة على أن تكون مساحة المناورة الخاصة فى اتجاه الريح لكى لا يضيع منا فى الليل، وينظف المدفعيون عتادك، وينظف الجنود المدافع، ويسد الفجارون التسريبات، ويصلح عريف الملاحين وسائر البحارة الأشرعة، ويأتيك الطاهى ليأخذ تعليماتك فى نوبة الصباح، أهلاً يا ولد، أهلاً يا سيدى، هل غلا القدر، نعم نعم، ويدعو عريف الملاحين الرجال للصلاة والإفطار.

التوجيه وتوجيه
النصح فى المعركة
البحرية وكيف
يدفنون موتاهم .

أحضري يا ولد زجاجات من قبو زجاجاتي، في صحتكم جميعاً في المقدمة والمؤخرة، شجع قلوبى لتوجيه ضربة جديدة، يضرب المدفعيون الجانب الأيسر، ولتأثروا بى من الجانب المواجه للريح إلى الجانب المعاكس لاتجاه الريح، ولنصوب الكثير جداً من المدافع ناحية الجانب الأيسر، لنضربه يا سيدى فى الجانب الأيسر من بعيد، الرجال فى منتصف السفينة يرون أعلى الصواري وعوارض الأشرعة مجهزة جيداً، بالحجارة، وقذور النار، والسطول النحاسية، لإلقائها عليهم قبل أن ندخل، أو إذا أجلنا ذلك نضربهم بكل طلقائك الكبيرة والصغيرة، ولندخل فى وسط الدخان، وتكون كل فرقة على أكمل وجه، ولتدق الطبول وينفخ النفير، ليحم القديس جورج إنجلترا.

الإعداد لضربة جديدة .

إنهم يرفعون علم الهدنة، اسحب من الصارى الرئيسى، أو من القاعدة، أو استولى على علمه، واضرب الأشرعة وعد إلى سفينتك ومعك القبطان وضابط المحاسبة وضابط المدفعية ومعهم تفويضهم أو تصريح الجمارك أو أوراق الشحن. يوضعون فى قارب وينزلون من على جانب السفينة ويحتفى بهم بصيحة جماعية، فليحفظ الله القبطان وكل الفرقة بينما يطلق النفير، استجوبهم كل على حدة، وبعد ذلك توصلوا إلى شروطكم، بوليمة، أو إطلاق سراحهم، أو عقوبة، حسبما تراه مناسباً. ولكن اعتن بجرحاهم عنايتك بجرحاك، وإذا كانت هناك شابات أو عجائز عاملهم بنبل، فهذه دائماً هى شيمة الكريم. وختاماً، فإنك إذا فاجأته، أو دخلت السفينة عنوة، يمكنك صف الرجال أو إطلاق النار أو السلب أو النهب وتعلن استيلاءك على غنيمة بحرية^(١).

كيفية استسلام الغنيمة البحرية ، وكيفية الاختفاء بها على طريقة البحارة.

لكى يكون الرجل قائداً عظيماً لإحدى سفن المجهود الحربى كان لابد أن يتمتع بمواهب كثيرة. بدايةً، كان لابد أن يكون لديه قدر ضخم من الشجاعة ويتسم بالكثير من الحكمة والحصافة، وأن يعلم متى يكر ومتى يفر. ولابد أن يكون ممتازاً فى إدارة السفينة، وقادراً على الإبحار بها إلى ما بعد النقطة التى يبدو أن أية سفينة يمكنها بلوغها، ولابد أن يكون قادراً دائماً على المناورة بسفينته بالطريقة التى تمكنه من الإمساك بغنيمة بحرية ونهبها والابتعاد قبل أن تتغلب عليه سفينة أقوى منه. ولابد أن يكون ملاحاً خبيراً، ذلك أنه قد يظل شهوراً فى مياه معادية دون أن يرسو مرة واحدة على البر. ولابد أن يكون نفسانياً ممتازاً قادراً على التعامل مع أفراد الطاقم الجامحين الذين يصيبهم الملل أحياناً من الطواف فى البحر، ويزداد فى بعض الأحيان قلقهم أو خوفهم من القتال. وأخيراً لابد أن يعرف الزمان والمكان المحتمل أن توجد فيه فريسته. وفى عام ١٧٧٨ قال كاتب إنجليزى إن قائد سفينة المجهود الحربى "أهوج مسلح تسليحاً ثقيلاً، ومجموعة متهورة من الكائنات البشرية ... مستعدة لإطاعة أية أوامر ... نصف حصان ونصف تمساح مع مسحة من البرق فى تركيبته، إلى جانب غزارة شعر قوَّيه وكأن قوته فى تركيبه شعره" (٢).

حين يكون ذلك ممكناً، كان قائد سفينة المجهود الحربى يحب أن يصاحب رفيقاً فى السفر. وكان القائد منهم إذا لمح قافلة ما يكشف سفينة لسفن الدورية التى تطارده على الفور. وكان لابد أن تكون الفريسة الوهمية سريعة وقادرة على الإبحار بالقرب من الريح مع عدم الانجراف عكس اتجاه الريح بالقدر الذى يمكنها من الهروب من السفن المصاحبة المسلحة تسليحاً ثقيلاً، وإذا كان يعرف عمله جيداً كان يهتم بأن يبقى خارج المدى الأقصى ولا يزيد مسافته زيادة كبيرة. وكان ذلك يشجع المطارد، وقبل أن يعرفوا ذلك يكونون على بعد أميال من القافلة. وفى تلك الأثناء كان قائد سفينة المجهود الحربى الأخرى يتحرك للهجوم على السفينة التجارية، إما بمهاجمة السفن هجوماً شرساً من على مسافة بعيدة بمدافع لونج توم Long Tom (مدافع تقذف كرة يتراوح وزنها بين تسعة أرطال وثمانية عشر رطلاً) أو الإبحار بمحاذاتها وإطلاق مدافع جانب السفينة ثم اعتقالها فى الدخان الكثيف.

ويبدو أن قادة سفن المجهود الحربي الأوائل ظهوروا أول ما ظهوروا في القرن الثالث عشر في إنجلترا، إلا أنهم بدعوا في الانتعاش في القرن السادس عشر حين شاعت الفكرة بين الفرنسيين والهولنديين^(٢).

بعد ذلك بفترة قصيرة كانت هناك سفينة مجهود حربي في إنجلترا اسمها "الرهيب" **The Terrible**. وكان قائدها هو القبطان موت **Captain Death** وضابطها الأول مستر شبح **Mr. Ghost**. ومع أنه كان يُستولى عليها في بعض الأحيان، فقد كانت حياتها العملية سريعة ومبهرة بالقدر الذي يبرر أن تكون هناك أغنية عنها كانت لا تزال شائعة حتى عام ١٨١٤ حين لونها أسير حرب أمريكي في سجن فورتون **Forton** بإنجلترا^(٤).

ومع أن قيادة سفن المجهود الحربي بدأت في العالم القديم، فقد بلغت ذروتها في العالم الجديد خلال الثورة الأمريكية وحرب ١٨١٢، وقد أفرزت أمريكا الشمالية عدداً كبيراً من القراصنة، بسبب عزلتها عن أوروبا وكثرة موانئها ووجود سكانها في أماكن متفرقة تفصلها مسافات كبيرة، ولأن معظم تجارتها كانت تجرى عن طريق البحر. وضماناً لنجاح أى مشروع تجارى كان لابد للسفن البحرية أن تكون سريعة بطريقة معقولة وتكون بها ترسانة من القوة بما يكفي لصد هجمات المغيرين. وكان على كل سفينة تغادر الميناء تقريباً سيف أو سيفان، وبعض البنادق ومدفع كبير أو زوج من المدافع المحورية. بل إن أفراد الطاقم كانت لديهم قدرة لا بأس بها على استخدامها. ولأن قوانين التجارة البريطانية كانت تحظر على سفن المستعمرات حمل الكثير من السلع، فقد أصبح التهريب جذاباً. ومن ثم اعتاد الربابنة الأمريكيون على إدارة سفنهم في الظلام والهدوء ليلاً، وعلى الهروب من مطاردة من يجبون الضرائب، وعلى دخول الموانئ والخروج منها في الطقس الذي يجعل من شدته أهل البر يؤثرون البقاء في فراشهم؛ وهو تدريب ممتاز على قيادة سفن المجهود الحربي.

كان ذلك العمل من الشيع حتى إنه مع انتهاء الثورة الأمريكية كان هناك ٣ آلاف سفينة مسلحة تابعة للمستعمرات في البحر. وتشير التقديرات المتحفظة إلى أن تلك القوة كانت تضم حوالى ١٢٠ ألف طن من السلع و٩٠ ألف رجل و١٨ ألف مدفع. وقد

استولت تلك السفن على ما مجموعه ٣٣٧٩ سفينة بريطانية أو دمرتها. وشملت الغنائم التي استولت عليها كل ما يخطر على البال من السلع بدءاً من الأحذية ولحم البقر المملح إلى البارود والعتل، وقد يكون هناك بعض الشك في إسهام تلك المواد بصورة أساسية في توفير احتياجات الجيش^(٥).

كان البحارة الأمريكيون يجولون في المحيطات الأربعة بقيادة ربابنة شجعان مثل جون بول John Paul وميلر Miller وميرفي Murphy وريد Reid وبويل Boyle وبارني Barney على متن سفن تحمل أسماء غريبة، من قبيل "الصقر الصغير" The Young Hawk و"محسوب جاك" Jack's Favorite و"الطرطان" The Tartan و"الحية ذات الجرس" Rattlesnake و"الدبور" Hornet و"العرسة" The Weasel و"سام الوفي" Loy-al Sam و"أنا أفكر في نفسي" I Think I to Myself Think I و"الانتقام" Revenge و"المزحة السوداء" Black Joke و"مشروع قانون الحقوق" Bill of Rights^(٦).

اكتسب هؤلاء الرجال في حياتهم شهرة كبيرة، حتى إن الأساطير كانت تُداول حولهم في أنحاء الواجهاة المائية الأمريكية. ولكن ربما لأن أعمالهم كانت غالباً ما تجرى بعيداً عن الوطن، فقد كانت الحكايات التي تدور حولهم مقصورة إلى حد كبير على الكتب المطبوعة، وبدأ العامة ينسونهم. ذلك أن بإمكاننا الاطلاع على أنشطتهم، ولكننا نجد أن ذلك يتضمن القليل من التعليقات المختصرة عنهم.

كانت حياة جون بول العملية، وهو الإسكوتلندي الذي أضاف جونز إلى اسمه فيما بعد، من الشهرة بحيث يمكن تسجيلها هنا بالتفصيل. فكل تلميذ على علم بمعركته مع السفينة "سيرابيس" Serapis، وبرده حين سئل إن كان قد استسلم - "أنا لم أبدأ القتال بعد" - وبالأسلوب غير اللائق الذي عامله به الساسة الأمريكيون. إلا أن أحداً لا يعرف جيداً أنشطته قبل اشتباكه الشهير مع "سيرابيس" حين عذب البريطانيون في السفينة "ذا رينجر" The Ranger القديمة وحاول الاستيلاء على إدنبرة بالسفينة "بون أوم ريشار" Bon Homme Richard وما زالت تروى عنه حكايتان في إسكوتلندا.

يبدو أن ذلك الكلام عن نشاط جونز انتشر على كل الساحل، وحين ظهر قبالة فيرث أو فورس Firth of Force ظنه اللورد صاحب الحصن خطأً سفينة حربية

بريطانية. ويدافع من الشعور الوطنى أو رغبة فى أن تكون له حظوة لدى البريطانيين، أرسل اللورد خادمه فى قارب صغير ومعه برميل بارود ورسالة يطلب فيها من القبطان استخدام البارود المذكور فى القضاء على القرصان الأمريكى. أخذ جونر البارود وكتب رسالة شكر قائلاً إن البارود سوف يستخدم فيما هو نافع، ووقعها وأعاد بها الخادم إلى اللورد^(٧).

وبينما كان ذلك يجرى، بلغت نوايا جونز وموقفه إدنبرة. كانت البلدة فى غم. فلم يكن هناك ما يكفى من العتاد ولا الجنود فى المنطقة لردع القوة الأمريكية، وبدأ أن البلدة ستسقط لا محالة. وكان الشئ الوحيد الذى يمكنه إنقاذ إدنبرة هو الرياح الغربية الشديدة، وهو الأمر غير المحتمل. وعلى أية حال فقد بلغ أمر المحنة الأسقف العجوز الذى قرر اتخاذ إجراءات صارمة. إذ أمر بكرسى ونزل إلى الشاطئ. كان المد منخفضاً فسار الرجل العجوز على الأرض المستوية حتى ابتلت قدماه. وهناك وضع الكرسي وهناك جلس. أخذ يدعو رافعاً عينيه وقد جهر بصوته "يا إلهى، لقد خدمتك طوال ما يربو على أربعين عاماً. فإما أن ترسل ريحاً شديدة تبعد القرصان الذى أتى ليهاجم بلدتنا أو أجلس هنا حتى أغرق. آمين." وجاء المد. وارتفع الماء حتى كاحلى الرجل العجوز. كان الماء يرتفع والأسقف جالس مهموم يواجه البحر. بلغ الماء صدره. ثم تغير اتجاه الرياح إلى الغرب وهبت عاصفة. نهض الرجل العجوز واستعاد كرسيه وعاد إلى الشاطئ^(٨).

كان من الصعب ضرب فيرث أوف فورس بيخت فى جو عاصف. كان ذلك مستحيلاً بالنسبة لجونز. وكانت كل ساعة يؤخرها يمكن فيها للقوات المغيثة أن تقترب أكثر. وبعد يوم وليلة أنهى جون بول جونز وبرميل باروده الأمر بالشكل الصحيح وانصرف بحثاً عن صيد جديد^(٩).

كان لربان آخر مواجهة مع الإنجليز فى مناخ أكثر دفئاً. فقد أبحر القبطان ميلر فى السفينة "جاكس فيفورييت" Jack's Favorite إلى ميناء سانت بارتس Saint Barts فى جزر الهند الغربية. ولم يكن قد مضى عليه وقت طويل هناك حين وصلت سفينة حربية بريطانية اسمها "سبتايل" Subtile. وبما أن الميناء كان محايداً، فلم يكن بوسع

الإنجليزى أن يفعل شيئاً، ولكنه استشاط غضباً لوجود "قرصان" أمريكى معه فى نفس الميناء، وأقسم بأنه "سوف يتبع سفينة المجهود الحربى الأمريكية حتى ولو ذهبت إلى الجحيم". لم يعتبر البحارة أن مثل هذا القسم يتسم بالحكمة، ولكن حين غادرت "جاكس فيفوريت" الميناء كانت "سبتايل" فى أعقابها. ولشعور ميلر بأنه لن يكسب الكثير من اشتباكه مع سفينة حربية، فقد نشر كل أشرعته وحاول أن يسبق الإنجليزى الذى فعل الشيء ذاته. وفى تلك اللحظة هبت عاصفة، ولكن السفينتان ظلتا تتشران كل الأشرعة التى يمكنهما سحبها. وبعد أن هدئت "جاكس فيفوريت" من سرعتها كانت تبخر فى بحر خال من السفن. وعلى الفور استدار ميلر واتخذ سبيله فى البحر عائداً، غير أن كل ما وجدته من "سبتايل" كان بضع قبعات طافية فى البحر^(١٠).

ارتكب القبطان ستابلز Captain Staples من نيويورك على متن السفينة "يورك" York غلطة قاتلة حين ظن خطأ أن السفينة الحربية البريطانية "لورد سومرز" Lord Somers سفينة تجارية واشتبك معها. ولم يدرك ستابلز خطأه إلا حين أطلقت السفينة مدافعها الجانبية، وساعتها كان الوقت قد فات تقريباً. تلقت "يورك" نيراناً رهيبة وهوجمت هجوماً شديداً؛ وقد جرح ستابلز جرحاً قاتلاً. حملوه إلى أسفل وتولى الطبيب رعايته. وسأل ستابلز إن كان جرحه قاتلاً أم لا. وحين علم أنه كذلك أرسل فى طلب الضابط الأول مستر برش Mr. Burch وأبدى ملاحظة من الملاحظات التى اشتهر بها البحارة من حين لآخر. فقد أبلغ برش الضابط أنه جرح جرحاً قاتلاً وأن السفينة فى موقف غاية فى الصعوبة. وبعد ذلك أبلغه الأمر قائلاً: "إننى عاجز إلى حد كبير عن الكلام. اهتم بنفسك وافعل ما فى وسعك". وفعل برش ما فى وسعه. فقد خرجت "يورك" سليمة وعادت مترنحة إلى بالتيمور^(١١).

يمكننا رؤية صلابة معادن هؤلاء القادة فى عمل القبطان تشامبلين Champlin من نيو لندن. ففى اشتباكه مع فرقاطة قبالة نهر سوريانام، أصيبت سفينته "جول بارلو" Joel Barlow بأضرار بالغة (وكذلك الفرقاطة) وأصيب هو بطلقة فى كتفه. وقد أجبره ما فقده من دم على العودة إلى قمرة حيث سمع خلصة ضباطه يقترحون تسليم السفينة. استل تشامبلين مسدسه ورفع زناده. قل للضباط والجنود إن كان هناك من

يجرؤ على إنزال الأعلام فسوف أطلق النار فوراً على مخزن الذخيرة لنذهب جميعاً إلى الجحيم صحبة" (١٢).

وصلت السفينة "جنرال أرمسترونج" General Armstrong بعد حياة على قدر كبير من النجاح في ظل قائدها صمويل ريد Samuel Reid إلى ميناء فايال Fayal المحايد للحصول على الماء. وبينما كانت العملية تجري، ظهرت على المسرح وحدة صغيرة من السفن الحربية البريطانية. وكانت الوحدة تشمل السفينتين المسلحتين البريطانيتين "كارنيشن" Carnation و"بلانتاجينيت" Plantagenet والفرقاطة "روتا" Rota. وعندما شك ريد في أنها قد تهاجمه، أمر بتحريك "أرمسترونج" بالمجاديف بجوار الشاطئ وأعد العدة كي يتمكن من تغيير اتجاه سفينته متى شاء. وبينما كان يقوم بذلك هاجمته قوارب من "كارنيشن" فحطمها. وتخوفاً من وقوع هجوم مشابه، قرب سفينة المجهود الحربي أكثر من الشاطئ وانتظر الأحداث.

ثبتت صحة تقدير ريد للموقف، ذلك أنه في منتصف الليل تقريباً، وفي ضوء البدر، هاجم "جنرال أرمسترونج" اثنا عشر قارباً. وكانت النتيجة مأساوية. فقد أغرقت نيران المدفعية الكثيرين، ومزق من وصلوا إلى سفينة المجهود الحربي وحاولوا صعودها شر ممزق. وبعد أربعين دقيق فر من تبقى من الفرقة المهاجمة.

في صباح اليوم التالي استأنفت "كارنيشن" الهجوم ولكنها أصيبت بأضرار بالغة وأجبرت على التقهقر. في ذلك الوقت بات من الواضح لريد أنه لن يمكنه الهروب. كانت "روتا" و"بلانتاجينيت" تدخلان، وكان العديد من مدافع "جنرال أرمسترونج" لا تعمل. أمر ريد بخرق السفينة وهرب هو طاقمه إلى الشاطئ.

فاز الإنجليز في المعركة، غير أنها كانت واحدة من أكثر المعارك كلفة في حوليات الأسطول البريطاني كافة. وحين انقشع الدخان كانت خسائر الأمريكيين قتيلىن وسبعة جرحى (أصيب أحدهم حين انفجرت بندقيته التي حُشيت بكمية أكثر من اللازم من البارود)، بينما كانت خسائر البريطانيين ١٢٠ قتيلاً و٨٠ جريحاً بينهم قبطان "روتا" الذي فقد ساقاً، ولكنه كان يفضل إرجاع ذلك إلى "دهس ثور لها" على الاعتراف بأنها نتيجة لنيران المدافع الأمريكية (١٣).

من المصادفة أن القبطان بويل كان قد بدأ حياته العملية المتوهجة على السفينة "كوميت" Comet [الشهاب] وفي عام ١٨١٢ أدار حصار تشيسابيك ذات ليلة عاصفة وحقق تفوقاً قباله ساحل البرازيل. وواجه قبالة برنامبوكو Pernambuco ثلاث سفن بريطانية وسفينة برتغالية "من الضخامة بحيث يمكن تحميل "كوميت" عليها. وكانت السفن الأربع تحمل على متنها أربعة وأربعين مدفعاً، إلا أن "كوميت" نجحت في تدمير الأسطول بكامله.

انتقل بويل بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية، وفر من الفرقاطة "سبررايز" Surprise واستولى على ثلاث سفن كبيرة، ولعب لعبة القط والفأر مع السفينة المسلحة "سواجرر" Swaggerer إلى أن مل اللعبة وتقدم للاستيلاء على سفينة أخرى، ثم عاد بعد ذلك إلى بالتي مور من خلال الحصار.

بعد ذلك تولى قائد سفن المجهود الحربى قيادة السفينة "شاسور" Chasseur [الصيد] التى كانت تحمل مدافع زنة اثنا عشر رطلاً وطاقماً مكوناً من مائة فرد. وقد طاف بها بحر المانش واستولى على ثمانية عشر غنيمة بحرية قيّمة فى الطريق. إلا أن بويل كان يشعر بضيق شديد من الأميرالين كوشران Cochran ووارين Warren اللذين أعلنّا سباحل الولايات الأمريكية بكامله محاصراً. ولكى يكونوا متكافئين، أصدر بويل إعلاناً مماثلاً صرح فيه بأن "شاسور" تحاصر إنجلترا بالكامل؛ وهو الإعلان الذى وضعه على لوحة الإعلانات فى لويديز(*) Lloyds بلندن^(١٤).

لم يكن من بين الرجال الذين أبحروا فى ظل خطاب التفويض والانتقام كافة من كان نداءً لجوشوا بارنى Joshua Barney فى مهارته أو لونه أو نجاحه. إنه رجل مخلوق بكل المقاييس ليكون بطلاً أسطورياً، وهو يرقد الآن فى جبانة فى بيتسبرج Pittsburgh، حيث توفى بجرح أصابه وهو يدافع عن واشنطن العاصمة؛ وهو يكاد يكون غير

(*) لويديز الآن هو اتحاد شركات التأمين التى تقدم كل أنواع التغطية التأمينية فى أنحاء العالم. وقد اتخذت اسمها من مقهى فى لندن فى أواخر القرن السابع عشر يملكه إنيوارد لويدي كان يلتقى فيه أصحاب شركات التأمين البحرى للقيام بعملهم (المترجم).

معروف. وصورته معلقة في أكاديمية الولايات المتحدة البحرية، وسُميت باسمه حارة في نيويورك برود آيلاند، وهناك شاطئ قاحل يعرف باسم "بارنيز جوى" **Barney's Joy**.

حين كان بارنى فى الخامسة عشرة وجد نفسه يتولى قيادة سفينة تجارية كانت تغرق فى المحيط الأطلنطى فى موسم الشتاء. وقد أنقذ السفينة وعاد إلى الديار بربح وفير.

حين اندلعت الثورة انضم إلى البحرية، وباعتباره نائب قبطان السفينة "هورنيت" **Hornet** كان أول ضابط يرفع العلم الأمريكى. وبعد ذلك خرج ليشترك فى هجوم على ناسو **Nassau** تحت قيادة إيزيك هوبكنز **Ezek Hopkins** وبصحبة إسكوتلندى اسمه جون بول جونز. واجهت سفينة بارنى طقساً سيئاً وعادت إلى بالتيمور، حيث انضم الشاب، وكان وقتها فى السادسة عشرة، إلى السفينة "واسب" **Wasp** وازدهرت حياته الاجتماعية.

انتصر بارنى عموماً فى ثلاثين معركة من بين خمس وثلاثين معركة شرسة، بينما سُجن ثلاث مرات وهرب مرتين (تنكر فى إحداهما على هيئة فتاة)، وغرقت سفينته مرتين، وخدم قائداً فى البحرية الفرنسية، وأُخذ تمرداً واحداً على الأقل. ومن بين هذا كله هناك أربعة أحداث تهمنا فى هذا المقام. أول تلك الأحداث حدث مضحك وقع حين كان على السفينة "روسى" **Rossi**. كان بارنى قد طاف طوافاً ناجحاً، حيث حصل على ما قيمته مليون ونصف المليون دولار من شحنات العدو خلال تسعين يوماً وأبحر إلى نيويورك لعمل عمرة. كان الناس فى تلك البلدة مبتهجين. فقد اصطفوا على الواجهة البحرية يلوحون بمناديلهم ويهتفون. بل إنهم قدموا له تحية بحرية من الحصن. ولكى لا يكون بارنى أقل منهم كرمًا، ولكى يبدى لهم تقديره، أطلق مدافع الجانب، المؤسف أنه نسي أن المدافع كانت محشوة بالقذائف، وكانت النتيجة أن البلدة أصيبت بأضرار بالغة وفقد برىء ممن اصطفوا لتحيته قدمه^(١٥).

فى مناسبة أخرى كان بارنى متجها إلى بورديو^(*) **Bordeaux** على سفينة مجهود حربى صغيرة بها حمولة تبغ. وفى الطريق استولى على سفينة عليها حمولة من العتل

(*) فى جنوب غربى فرنسا على المحيط الأطلنطى. (المترجم).

التي أخذ بعضها إلى سفينته. وبعد ذلك بقليل طارته سفينة مجهود حربي بريطانية كبيرة اسمها "روزبُد" Rosebud. حاول بارنى الفرار منها، ولكن "روزبُد" كانت أفضل منه قدرة على الإبحار وتعدته ببطء حتى بات فى مرمى مدافع "روزبُد" من طراز لونج توم. وهنا توصل القبطان دنكان Captain Duncan والقبطان بارنى إلى اكتشاف. فلم يكن فى سفينة بارنى مدافع فى المؤخرة، وبذلك لن يمكنها الرد على نيران الإنجليزى، وكان كل ما على "روزبُد" أن تفعله هو الوقوف فى الخلف وإحالة السفينة الأمريكية إلى قطع.

أمر بارنى خلال الليل بعمل فتحة مدفع فى مؤخرة السفينة ووضع مدفع عيار ستة أرتال فى قمرة. كما أمر بتصميم ساتر من قماش الأشرعة وتثبيتته لتغطية فتحة المدفع الجديدة. فى صباح اليوم التالى بدأت "روزبُد" من جديد فى إطلاق النار من الخلف وسمح لها بارنى بأن تكون على مقربة شديدة منه. وفى اللحظة المناسبة أسقط الساتر وأخرج مدفعه وأطلق قذيفة على مقدمة الإنجليزى الواصل من نفسه. بل إن ما جعل الأمور أشد إزعاجاً أنه بدلاً من حشو مدفعه عيار الستة أرتال بالنخيرة التقليدية، حشر فيه العتل. وكانت النتيجة مأساوية. فقد قتل أربعين رجلاً، وطارَت الأشرعة، وأصيب صارى "روزبُد" إصابة شديدة جعلتها توقف المعركة لتتجو بنفسها، بينما مضى بارنى إلى بوربو لبيع تبغ^(١٦).

الحادثان الآخران اللذان شارك فيهما بارنى كان تدميره للسفينة "جنرال مونك" General Monk فى عشرين دقيقة بالسفينة "هيدر ألى" Hyder Ally، التى اعتبرت واحدة من ألمع المعارك البحرية فى حرب ١٨١٢^(١٧) وبفاعه عن واشنطن العاصمة، حيث أجبر الجيش البريطانى بكامله على أن يكون فى وضع المدافع لمدة ست ساعات.

عاد بارنى فى مارس من عام ١٧٨٢ من إقامته التى دامت ثمانية عشر شهراً فى أوروبا وعلى الفور تولى قيادة "هيدر ألى"، التى كان يجرى تحويلها فى ذلك الوقت إلى سفينة حربية تحمل مدافع عيار ستة أرتال. وللمساعدة فى الحصول على طاقم، كتب فيليب فرينو Philip Freneau قصيدة عن قائدها الجديد؛ وسوف يكتب بعد ذلك بقليل قصيدة أخرى عن عملها الرائع^(١٨).

بدأت في الثامن من أبريل مرافقة ثمان سفن تجارية في البحر قبالة ديلاوير كيبس Delaware Capes . ولسوء الحظ غيرت الريح اتجاهها ورسا الأسطول داخل الكيبس. وهناك اكتشفته الفرقاطة "كيبك" Quebec التي لم تستطع الوصول إليه بسبب غاطسها العميق. وبناء على ذلك صدرت الأوامر إلى القبطان روجرز Captain Rogers على السفينة "جنرال مونك" (وكان اسمها في الأصل "جنرال واشنطن" قبل الاستيلاء عليها وإعادة تسميتها)، وهي فرقاطة تحمل عشرين مدفعاً عيار اثني عشر رطلاً وطاقماً يضم ١٢٠ فرداً، بمهاجمة الأسطول بمساعدة بعض سفن المجهود الحربي. وكان روجرز معروفاً باعتباره ضابطاً رائعاً، حيث استولى على أكثر من ستين غنيمة بحرية وهزم فرقاطة أمريكية. كما أن أطقمه كانت مدربة تدريباً جيداً.

رفضت اثنتان من سفن المجهود الحربي الإنجليزية الانضمام إلى ذلك العمل، وميزت أخرى نفسها، وهي "فير أمريكان" Fair American، بالجنوح. شن روجرز هجوماً على "هيدر ألي" بمفرده عازماً على الاقتراب منها. وفي تلك الأثناء وقف بارني عند البوصلة وأصدر تعليماته إلى ماسك الدفة بأن يردد أوامره ثم ينفذ عكسها.

حين كانت "جنرال مونك" قريبة صاح بارني "در بشدة إلى اليسار" فأدارها ماسك الدفة بشدة إلى اليمين. إلا أنه حين سمع روجرز الأمر، أصدر أوامره إلى ماسك دفته بالتعديل كي يتعامل معها وفوجئ بوجود "هيدر ألي" في مواجهته. وقبل أن يتمكن روجرز من عمل أي شيء، كان الأمريكي قد حبس البريطاني في زاوية يمكنه فيها الاستفادة من مدافعه. وبعد ذلك تقدمت السفينة الأمريكية لتمطرها بقذائف عشرين مدفع جانبي خلال ست وعشرين دقيقة؛ وهو عمل رائع حتى بالنسبة لطاقم محنك. وبعد أن خرقت الطلقات القبعات والمعاطف، ظل بارني في موقعه عند البوصلة وفي يده سيف إلى أن أصابت طلقة مستديرة مكمنه وأوقعته. وفي نهاية الدقائق الست والعشرين بدأت "جنرال مونك" هجوماً أسفر عن مقتل وجرح ثلث أفراد الطاقم. وبعد ذلك رفع بارني الأعلام البريطانية على السفينتين، وبذلك خدع السفينة "كيبك" وقتاً طويلاً يكفي للسماح له بأن ينسل من أمامها مع غنيمته، وعاد جوشوا بارني إلى فيلادلفيا واستقبل استقبالاً حاراً^(١٩).

وقع عمل بارنى الأخير على البر خلال حرب ١٨١٢ ، وكان البريطانيون قد بدعوا مسيرتهم التى انتهت بحرق الكابيتول (*) Capitol . وكان الجيش البريطانى قد انكسر وفر فى فزع تاركاً الطريق مفتوحاً أمام واشنطن. مر البريطانيون من مدينة بلادنبرج **Bladenburg** الصغيرة حيث كان الحر القائظ هو الشئ الوحيد الذى يزعجهم. وعلى بعد ميل تقريباً خارج المدينة كان هناك تل ينتظرهم فوقه جوشوا بارنى وخمسة مدافع بحرية وستمائة رجل. وكما حدث فى موضوع "هيدر ألى"، كشف بارنى نفسه، وكان فى تلك المرة على صهوة جواد لعدم وجود صندوق بوصلة. ورغم جرحه الشديد فى فخذه - وهو الجرح الذى أدى إلى وفاته بعد ذلك فى بتسبرج - رفض النزول من على جواده إلى أن قُتل الجواد تحته.

لم يكن بالإمكان زحزحة الستمائة رجل والخمسة مدافع، وأوقف الهجوم على واشنطن بعد ست ساعات. وأخيراً انهار القائد بسبب فقدان الدم، ونفاد الذخيرة، وأجبر البحارة على الاستسلام.

من الغريب إلى حد كبير أن ما حدث من أمر العتل ظل باقياً فى التراث الشفاهى، بينما نسى العامة والمؤرخون بصورة كبيرة الأحداث الأخرى التى ارتبط بها بارنى؛ فى الوقت الذى تذكروا فيه رجالاً أقل قدراً مثل ديفى كروكيت **Davy Crockett** وإيثان ألن **Ethan Allen** (٢١).

إذا كانت أعمال كتلك التى ذكرناها قد دُفنت فى تراب الزمن، فإننا سوف نتوقع أن يحدث ذلك لرجال أقل قدراً، غير أن هذا ليس هو الحال. فعلى امتداد الساحل الشرقى كله ترك قادة سفن المجهود الحربى أثراً قليلاً ولكنه اتسم بالقوة. ففى مين هناك الأماكن التى سبق ذكرها وهى بنكرز كوف وبنكرز ليدج وذا بنكر وبنكرز هو. ويمكن أن نضيف إلى هذه الأماكن موريس ميستاك **Morris' Mistake** وباونز ليدج **Bowen's Ledge**؛ وجميعها أسماء مشتقة من أيام قيادة سفن المجهود الحربى ولا تزال الحكايات تروى عنها.

(*) المبنى الذى يضم مجلسى الشيوخ والنواب فى العاصمة الأمريكية واشنطن (المترجم) .

على خلاف بارنى وريد وغيرهما ممن جاء ذكرهم للتو، يبدو أن القبطان بنكر **Captain Bunker** ركز طاقاته على طول ساحل مين. فهناك كان يمكنه الاختباء خلف إحدى الجزر القريبة وينقُض على السفن التي تسير بمحاذاة الشاطئ أثناء مرورها. وكان المكان المفضل لديه خوراً مخفياً صغيراً في جزيرة روك **Roque Island**، وحين كان ينتظر مرور سفينة، أو كانت تطارده سفينة حربية، كان يلقي مرساته في ذلك الخور ويجعل مؤخرة سفينته تجاه الشاطئ. وكان يربط أشجار الصنوبر في صاربه ويظل مختبئاً تماماً بحيث تمر السفن البريطانية على بعد بضعة مئات من الياردات دون كشفه. ويبدو أن حيلة ربط أوراق الشجر في الصواري والعوارض كانت كثيرة الشيوخ، ذلك أنها كانت تُمارس في أماكن كثيرة. ويقال إن بريك كان يمارسها في دريكس بول **Drake's Pool** بالقرب من كروسهيفين **Crosshaven** بأيرلندا، ويقال إن أسطولاً إنجليزياً اختبأ من الفرنسيين بوضع النخيل على صواريه بينما كان راسياً في خليج ماريجوت **Marigot Bay** في سانت لوشا. (ويبدو أن حقيقة وجود مكان بالكاد لفرقاطتين في ذلك الخور لم تخطر ببال أحد.)

كان أعظم أعمال بنكر، والعمل الذي منحه تلك المكانة الأسطورية بين العامة، هو استيلائه على سفينة إمداد بريطانية. فقد كان الناس في جزيرة ماونت ديزرت **Mt. Desert Island** أقرب ما يكونون إلى الموت جوعاً، بسبب الحصار الشديد الذي فرضه البريطانيون أثناء الثورة. وجنوباً في تينانتس هاربر **Tenants Harbor**، على مسافة نصف يوم من الإبحار إلى الجنوب الغربي، كانت توجد سفينة بريطانية مكدسة بالطعام. وفي عشية عيد الميلاد أخذ الثلج يتساقط، وجاء بنكر من داخل العاصفة الثلجية (في قارب صغير ومعه مساعد واحد) ليخرج سفينة الإمداد عن طريقها ويبحر بها إلى ماونت ديزرت؛ حيث وصلت عشية عيد الميلاد وأمدت الجزيرة كلها بعشاء عيد الميلاد، ووجبات عشاء طيبة كثيرة بعد ذلك^(٢٢).

كثيراً ما كان يبدو لي أن التعريف الوافي للقرصان هو أنه خائن ناجح، والعكس صحيح. وتصدق العلاقة ذاتها بين قائد سفينة المجهود الحربي والقرصان. وبالطبع فإن القرصان على وجه الدقة شخص يهاجم كل السفن. غير أن الأمر في حقيقته ليس كذلك. فقد كان السير فرانسيس بريك قرصاناً في رأي الأسبان. وفي عام ١٩٢٦

سُمي جون بول جونز "قرصاناً" في "الموسوعة البريطانية" التي كانت مطبوعة بريطانية في ذلك الوقت. في الوقت الذي نجد فيه أن هنري مورجان Henry Morgan، ذلك القاتل المصاب بالذهان الذي مارس القتل بكل طريقة يمكن تصورها ضد جنس بشري بكامله، فقد حصل على لقب سير من خلال الاستخدام الحكيم للثروة التي جمعها بالتعذيب والاعتصاف. وقد خفف من وطأة أيام تدهوره بشنق أصدقائه وزملائه وشركائه السابقين الذين لم يكن قد شنقهم بالفعل أو سمهم أو أغرقهم أو قتلهم طعنًا أو بالرصاص أو سحقهم أو ألغاهم على ساحل مهجور أو حرقهم^(٢٣). ومن ناحية أخرى أعلن وكيل قبطان السفينة "كويدا ميرشانت" Quedah Merchant قرصاناً وقُسمت حمولة سفينته بين أعيان ماساتشوستس لتغطية تكاليف محاكمته. وقبيل شنقه حذر الناس من الذهاب إلى بوسطن ومعهم الكثير من المال "خشية أن يشنقوا بسببه". وأخيراً وبعد مائتي عام اكتُشف أن واحداً من أسوأ القراصنة جميعاً سمعة كان في واقع الأمر قائد سفينة مجهود حربي برىء شُنق لأنه تعثر في بعض المؤامرات السياسية المحيرة. وكان اسمه الحقيقي هو ويليام كيد، إلا أنهم غيروه بعد وفاته إلى روبرت كيد.

كان المفهوم الشائع الخاص بكيد بالنسبة لتلك الفترة هو أنه ملحد، وقاتل، ورجل يستولى على كل السفن في أعالي البحار، وأنه جمع ثروة ضخمة مدفونة في مكان ما (ستأتي المناسبة للحدث عن ذلك لاحقاً). وربما كانت أحسن طريقة لقياس حجم صورته في عيون العامة هي انتقاء اقتباسات من بعض ما كتب عنه ولا يزال يتسم بالشعبية والفحش والهجوم.

اسمى روبرت كيد، حين كنت أبحر، حين كنت أبحر.

اسمى روبرت كيد، حين كنت أبحر.

اسمى روبرت كيد، إنى أمتنع قوانين الرب

وارتكبت الكثير من الشرور.

... أبواى علمانى جيداً أن أتحاشى أبواب الجحيم
ولكنى تمررت عليهما ...

... كنت أمسك فى يدى الكتاب المقدس تطبيقاً لأوامر أبى.
إلا أنتى بفتنته فى الرمال...

... قتلت ويليام مور، وأودعته قبره.
على بعد أميال ليست بالكثيرة من الشاطئ...

... ولكونى قاسياً فقد قتلت بعد ذلك أيضاً ضابط مدفعيتى
وسال دمه الغالى...

... أصاب وكيلى المرض ومات مما أزعبنى كثيراً
حين دعانى إلى جواره ...

... مرضتُ وكنت على شفا الموت حين أقسمت بكل نفس
أن أسير على نهج يسوع ...

... لم تستمر توبتى طويلاً وسرعان ما نسيت قسمى
فالجحيم هو نصيبى العادل...

... راقبت ثلاث سفن من أسبانيا وأطلقت النار عليها بكل قوة
حتى قتل معظم من فيها ...

... كان لدى تسعون سبيكة من الذهب والكثير الكثير من العملات الذهبية
وثروات لا حصر لها ...

... وأخيراً تغلبوا على وألقوا بي في السجن
وصدر الحكم ولا بد أن أموت.

... والآن إلى منصة الإعدام حيث يتجمع الآلاف
وسوف يسخر الكثيرون هناك، ولا بد أن أموت.

... وهكذا أموت معلقاً في حبل لأكون مع كل أصدقائي في أسفل سافلين
حيث يقولون هذا ما وعدناك به يا بيل ...

... فتعالوا جميعاً صغاراً وكباراً، وأهلاً بكم إلى نهي،
فبسيبه فقدت رحي ...

... خنوا مني النصيحة الآن ولتتأشوا سوء الصحبة
ولا ذهبتم معي إلى الجحيم...^(٢٤)

الواقع أن قصة القبطان كيد الحقيقية قصة مأسوية. فلأنه كان قبطاناً مخلصاً وكفئاً وشجاعاً، فقد اختاروه قبطاناً للسفينة "فنشر جالي" Venture Galley والخروج لمطاردة توماس تيو Thomas Tew، وهو صديق وشريك سابق أعلن قرصاناً وكانوا يعتقدون أنه على مقربة من مدغشقر. وفي الطريق كان مفوضاً بالاستيلاء على السفن المملوكة لأعداء إنجلترا التي يجدها في طريقه. وكان إيرل بلمونت Earl Belmont أحد رعاته في تلك المغامرة، وكان الإيرل يأمل في الحصول على بعض المال.

كانت رحلة كيد منحوسة منذ بدايتها. فلكي يجمع طاقماً، اضطر للذهاب إلى السجون قبل أن يجد الرجال الذين يديرون سفينته. ولم يمض على وجوده في البحر وقت كبير حتى حدث تمرد بقيادة عريف الملاحين واسمه مور Moore. وضع مور على رأسه دلواً صغيراً من خشب البلوط قيمته ستة شلنات. سقط مور في كوة مفتوحة وقتل. وبعد ذلك قابل أسطولاً من سفن تملكها شركة الهند الشرقية. ولكي تزيد الشركة من أرباحها، أجزت تلك السفن للعدو وكانت تقوم بأعمال مزدهرة تحت العلم الفرنسي. وحين علم كيد هويتها استولى عليها باعتبارها سفناً معادية، وهي الضربة التي جعلته ثرياً، وقللت أرباح شركة الهند الشرقية وهددت بفضح الشركة ومؤيديها في أسوأ الظروف.

في النهاية عاد كيد إلى نيويورك في رود آيلاند. وهناك علم أنهم أعلنوه قرصاناً، إلا أنه أخبر الحاكم بولومونت Bollomont في بوسطن بوصوله، مدعياً إخفاء سفينة محملة بالبضائع في جزر الهند الغربية وأن معه حمولة كبيرة من الذهب. وعده بولومونت بالمساعدة إن هو سلم التصاريح الفرنسية التي أخذها من السفن الهندية والذهب. وحينئذ غادر كيد نيويورك، ولكنه عاد بعد ثلاثة أيام بسفينة فارغة وسلم نفسه والتصاريح الفرنسية للحاكم.

تغير موقف بولومونت من كيد حين وُضع في الحبس. وخلال بضعة أيام وجد نفسه في السجن، ثم مكبلاً بالحديد. وفي ذلك الظرف نُقل إلى سجن نيوجيت Newgate Prison في لندن وفي النهاية حاكموه بتهمة قتل ويليام مور. وكان هذا العمل في زمن كيد لا يعتبر عملاً يستحق اللوم، إلا أنه صدر ضده حكم مستعجل وبعد ذلك حاكموه

على القرصنة، ومرة أخرى صدر الحكم بسرعة. وكان كيد قد أقام دفاعه على أساس التصريحين الفرنسيين اللذين أعطاهما لبولومونت، ولكن حين بدأت محاكمته كان التصريحان قد اختفيا، وبدا فقط أن كيد يعرف شيئاً عنهما وحسب.

لم تكن فضيحة كيد قد اكتملت بعد. ففي ٢٣ مارس من عام ١٧٠١ اقتيد إلى منصة الإعدام حيث أعدموه هو وستة من رفاقه. في المحاولة الأولى انقطع الحبل وسقط البائس على الأرض. جاءوا بحبل آخر أثبت أنه متين بالقدر الكافي. وقد شُنق كيد وترك معلقاً إلى أن مرت ثلاثة مدود تحت جثته، وذلك قبل أن تتخلص رفاقه من الحبل وتوضع في قفص من الحديد. وبعد ذلك عُلق ليكون عبرة لغيره كي يحيا حياة تتسم بالحكمة والعقل. وكان لا يزال متأرجحاً حين زار بنجامين فرانكلين (*) Benjamin Franklin لندن بعد ذلك بسنوات، ولا تزال ظلال حياته، الحقيقي منها والخيالي، بمثابة نماذج لما يفعله الأشرار من أجل الشهرة والثروة. بل إنه حتى التصريحان الفرنسيان حين اكتشفا بعد مائتي عام لا يمكن أن يفيدا سمعته كثيراً، ذلك أن وسم القرصان موجود عليه بقوة بحيث لا يمكن إزالته بالحقائق البسيطة^(٢٥).

وكان ند لو Ned Lowe، ذلك القرصان الذي ازدهر في أعقاب موت كيد، شخصية مختلفة تماماً. ويبدو أنها كان كارهاً للبشر ويكُنّ قدراً خاصاً من الكراهية للتطهرين^(**) Puritans. وكان كلما أمسك بأي من هؤلاء التعساء يريه من العذاب صنوفاً. فقد كان يقطع أذانهم وأنوفهم شرائح، ويشويها أمام أعينهم ويجعلهم يأكلونها.

وبدلاً من أن يذهب لو في رحلة كبيرة إلى أفريقيا أو ما وراءها، رضى بأعمال القرصنة من جزر الهند الغربية إلى جراندي بانكس في نيوفاوندلاند. ولذلك كان معظم نشاطه محصوراً في صيادي السمك أو التجار البسطاء وكانت غنائمه صغيرة. ومع ذلك فقد كانوا يخشون بأسه أكثر من أي قرصان آخر بسبب ما ارتكبه من فظائع.

(*) موظف عام وكاتب وعالم وصاحب مطبعة أمريكي (١٧٠٦-١٧٩٠) كان له دور في الثورة الأمريكية وتفاوض مع فرنسا على دعم المستعمرات وشارك في وضع الدستور الأمريكي (المترجم).

(**) جماعة من البروتستانت الإنجليز كانت تدعو في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى التمسك بمبادئ الدين المتشددة، إلى جانب تبسيط مراسم كنيسة لندن وعقيدها (المترجم).

وفى النهاية تخطى حدوده باستيلائه على سفينة من بلوك أيلاند فى رود أيلاند وتقطيعه أوصال أفراد الطاقم قبل أن يضعهم فى قارب النجاة ويتركهم بلا مجاديف أو شراع أو زاد. وفى تلك الفترة كانت رود أيلاند - "موئل الأصحاب والمعمدانيين" - تعد محصنة ضد هجمات القراصنة، حيث كان التعامل فى بضائعهم المحظورة يجرى هناك، وكان يعيش فيها الكثير من القراصنة - من أمثال توماس تيو والأيرلندى والإنجليزى ويليام أفيرى William Avery - وإلى هناك ذهب كيد، لأنه كان يعلم أن السلطات لن تزعجه.

وبدلاً من أن يختفى قارب الصيد بطاقمه مقطع الأوصال، عُثر عليه وعلا ضجيج الاحتجاج. هرب لو ليلقى بعد ذلك رجاله على شاطئ مهجور، إلا أن ستة وعشرين من أفراد طاقمه أحضروا إلى نيويورك حيث حوكموا وأدينوا وشنقوا على جزيرة جوت Goat Island بين أعلى درجات المد وأدنى درجات الجزر.

كانت الحكاية لا تزال تُروى على امتداد الواجهة البحرية فى القرن الحالى على أن هؤلاء الرجال الستة والعشرين رمز للشر. فقد ألقى القبض على ستة وعشرين رجلاً، وجيء بهم، وحوكموا وأدينوا بالقراصنة، وصدرت ضدهم أحكام بالشنق. وبعد ذلك وضعوا فى الحبس مكبلين بالحديد وعليهم أقفال مزبوجة. وفى الليلة السابقة للإعدام كان هناك ستة وعشرون سجيناً، ولكن حين جاء الحرس ليأخذهم، كان هناك خمسة وعشرون فقط. ولم يفتح الباب ولا النافذة عنوة، غير أنه كانت هناك رائحة غريبة للكبريت والدخان فى أنحاء الحبس! (٢٦).

لم يكن القراصنة كثيرين فى مياه أمريكا الشمالية فحسب، بل كذلك فى أوروبا والجزر البريطانية. وكان أحدهم ألمانياً اسمه شتورتيبكر Stoertebeker . وكان يمارس عمله بجد واجتهاد فى بحر الشمال وبحر البلطيق، غير أن حكايتين ترويان عنه مازالتا موجودتين فى جرينادا (*). حين ألقى القبض عليه فى نهاية الأمر، ومعه طاقم بالكامل، حوكموا وصدرت ضدهم أحكام بقطع رؤوسهم. وكما هى العادة فى ذلك الوقت، أبلغ

(*) تقع جزيرة جرينادا ضمن مجموعة جزر وينورد فى جزر الهند الغربية (المترجم)

القاضى شتورتبيكر أن من حقه طلب واحد قبل أن يموت وأن الطلب سوف يُجاب. وكانت رغبة الربان غير عادية. إذ طلب أن يصطف أفراد طاقمه، وأن يقطع رأسه وهو واقف، وأن يطلق سراح كل الرجال الذين يمكنهم الجرى من أمامهم بعد أن تهوى بلطة الجلاب على رقبتة.

فى اليوم الموعد اصطفُ أفراد الطاقم وفُصل رأس القبطان عن جسده. ترنح الجذع الخالى من الرأس الذى كان الدم ينبجس منه أمام أربعة عشر من أفراد الطاقم قبل أن يسقط فى النهاية على الأرض.

كانت السلطات قد جربت قبل موته كل ما تعرفه من السبل لاكتشاف المكان الذى خبأ فيه كنزه، ولكن أياً منها لم يفلح. وبعد موته بحثت عنه بون جدوى. فلم يكن هناك شئ على متن سفينته، ولم تكن هناك خريطة أو دليل يرشد إلى مكانه على وجه التقريب. وأخيراً حين حطمت سفينته عُثر على الذهب داخل الصواري^(٢٧).

تتجاوز المعايير التى يختار بها العامة الأشياء التى يحتفظون بها فى ذاكرتهم الفهم. فهم يحتفظون بـ"صاح النادل بأعلى صوته فى القاعة /نحن لا نقدم الخبز مع كرة سمك واحدة" بنفس السهولة التى يحتفظون بها "سوف تهب الريح خلال عظامه للأبد". والتفسير المنطقى الوحيد هو أن الحدث أو الشخص الذى يتحدثون عنه كانت له فى ذلك الوقت صلة بظروف ذات أثر عاطفى ضخم. وعلى مر السنين كانت بيئة الحدث تُنسى ويبقى الشعر الركيك المسطح. وهذا هو حال حكاية قرصان لوخ بوسديل، التى يعد سبب بقائها فى حين نُسيت حكايات أخرى لغزاً كبيراً.

تقع عند المدخل المؤدى إلى لوخ بوسدال فى ساوث ويست جزيرة صغيرة تسمى كالفاى Calvay. وإذا ما رسا أحد هناك فإنه يجد آثار حصن قديم شيده إيان بريخت Ian Brecht إيان الأرقط؛ وهو مصطلح يستخدم عادة لوصف البقر، إلا أن هذا الشخص كان قد نجا من الموت بالجدرى^٢ وهناك عاش مع أفراد طاقمه، وكان الكل فى الجزر مرعوباً منه. وفى يوم من الأيام غادر جزيرته وذهب إلى الجزيرة الرئيسية للتمشية. وفى النهاية وصل إلى مكان لطيف على الطرف الجنوبى من الجزيرة وجلس فى واد صغير وراح فى النوم.

كانت هناك امرأة عجوز ترعى الماشية ولاحظت القرصان وقد غفا في الوادي الصغير. وكان فوقه على سفح التل جلمود ضخمة. زحفت المرأة إليه ودفعته دفعة قوية. تخرج الجلمود على التل وسحق القرصان حيثما كان نائماً. وهكذا فعلت امرأة عجوز ما عجز عن القيام به سائر المجتمع. وحتى يومنا هذا مازال هذا المكان يسمى "وادي بريخت" (٢٨) Brecht's Hollow .

تدور سلسلة من الحكايات الأكبر حجماً حول شخصية قرصان آخر. هذا القرصان امرأة كانت تقيم في غرب أيرلندا اسمها جريس أومالي Grace O'Malley، ولكن اسمها الشائع هو جرانا ويل Grana Weil (ويكتب كذلك Grannay Wale و- Gra-nua ile) ملكة الغرب أو "قرصانة البحر الكبرى".

القرصانات غير معروفات بالطبع. وكانت القرصانتان الشهيرتان هما ماري ريد Mary Reed وأن بوني Anne Bonney ؛ وكلتااهما من نساء الشوارع وتحولت إلى قرصانة من أجل معيشة أفضل، حيث أفلحت في ذلك لبعض الوقت. وقد سُئلت ماري ريد، أما أن بوني فقد حُكم عليها بالشنق ولكن التنفيذ تأجل لحين ولادة طفلها. وقبل أن يلتف حبل المشنقة حول رقبتها كانت قد حملت من جديد، ودأبت على ذلك وأنقذت حياتها. ويمكن قياس شخصيتها كأحسن ما يكون بحدث وقع في السجن. فقد حُكم على زوجها القبطان راكم Captain Rackham بالشنق لممارسته القرصنة، وكانت أمنيته الأخيرة أن يرى زوجته. قالت له أن بوني: "لو حاربت كرجل ما كنت لتشنق ككلب" (٢٩).

هناك جانبان في حياة جريس أومالي؛ وهما الجانب التاريخي والجانب الذي حفظ من خلال التراث الشفاهي. ويستحق الأمر الاهتمام بالجانبين لكي نصل إلى فهم أفضل للطريقة التي يعمل بها العقل الشعبي في خلق الأسطورة. وبما أن الجانب التاريخي هو الأكثر إيجازاً، فإنه يدون أولاً مع التعليق من حين لآخر.

يقول البحث العلمي إنها ولدت على جزيرة كلير Clare Island في عام ١٥٢٠ لأبيها بوبدارا (البلوطة السوداء) أومالي Dubhdara O'Malley وهو لورد من منطقة في

كوناخت(*) Connacht تعرف باسم "ذى أولز" The Owles. وبينما كانت لا تزال فتاة صغيرة تسلقت صخرة وقتلت أفراخ النسر الذى كان يتحرش بالأغنام التى على جزيرة والدها. وأثناء الصراع مع الطيور فى عشها أصيبت بجرح شديد فى جبهتها ظل أثره باقياً عليها بقية حياتها^(٢٠).

تزوجت جريس فى عام ١٥٥٠ دونالد أوفلارتي Donald O'Flaherty الذى قُتل فى معركة على جزر أران Aran - بعد أن أنجبت له جريس ثلاث أطفال كان أحدهم اسمه مورو Murrough - وكان قد شيد حصناً. وبعد وفاته تزوجت رجلاً يدعى بيرك Burke اشتهر باسم أيرن ديك Iron Dick وكان له هو الآخر حصن صار من أملاك أرملته بعد وفاته. وقد أنجبت أطفالاً من بيرك كذلك، كان أحدهم اسمه تيبوت السفائنى Tibbot of the Ships وقد ولد فى البحر.

كان لجريس اهتمام شديد بالحصون والسفن، حيث جمعت من السفن ما يكفى لأن يكون لديها أسطول وأن تمتلك معاقل عديدة، ورثتها بالزواج أو شيدتها بنفسها. ومن بين العديد من المعاقل شيدت واحداً فى أينشبوفاين لحماية أسطولها الذى كانت تحتفظ به فى ميناء هناك. وظلت تلك المرأة التى تنتمى لعائلة أومالى زمناً طويلاً قوية فى البحر والبر وبذلت ما فى وسعها للمحافظة على سمعتها. وطبقاً لما ذكره ويليام أوبريان William O'Brien، فإن هذه السيدة "اللطيفة الفاتنة" (رغم أثر الجرح الذى فى جبهتها وحياتها الطويلة فى البحر) كانت قد ولدت ابنها تيبوت حين هاجمتها سفينة تركية. وعلى الفور غادرت فراش ولادتها واندفعت إلى السطح، وفى كل يد من يديها بندقية قصيرة وأبعدت العدو^(٢١).

بعد حياة طويلة من الحرب، بعضها باعتبارها قرصانة، والبعض الآخر ضد إنجلترا، تقاعدت من مهنة الطواف وذهبت لزيارة الملكة اليزابيث Queen Elizabeth وكان ذلك فى عام ١٩٥٢، فى ذلك الوقت كان أطفالها وشقيقها فى أيدي الإنجليز، وقدمت نفسها باعتبارها امرأة معدمة ومفلسة بينما رفعت دعوى لإطلاق سراح عائلتها

(*) فى الغرب الأوسط من أيرلندا (المترجم)

والمطالبة بمعاش لها. استجابت اليزابيث جزئياً على الأقل لمطالبها وأشارت إلى جريس باعتبارها "امرأة عجوز" (ولكنها كانت أكبر من اليزابيث بثلاث سنوات فقط). ولكن بما أن الإحسان لم يكن قط من شيم الملكة، فهناك شك في أن جريس أومالى كانت من البؤس بالقدر الذى ادعته، وإلا فإن اليزابيث ما كانت لتعطيها شيئاً.

عند عودتها عاملها أصحاب حصن هاوث Howth بعدم احترام فانتقمت لنفسها باختطاف الوريث. وأخيراً أصبح ابنها تيبوت أمير الإقليم. كان هذا هو الجانب التاريخي، أما الذاكرة الشعبية فهي ما يلي^(٣٢).

هناك قول في غرب أيرلندا معناه أن القانون كله ملك للرب وعائلة أومالى، والرب ليس موجوداً دائماً. وكانت ابنة البلوطة السوداء فرعاً من الشجرة بالفعل.

ولدت جريس في البحر وأصيبت وهي طفلة بجرح شديد في جبهتها بينما كانت تقتل مجموعة من النسور المغيرة التي كانت تخطف الأغنام من على جزيرة كبير. وبعد أن شُفيت من هذا الجرح حاولت الخروج للبحر مع والدها، وعندما رفض تنكرت في هيئة صبي وذهبت معه. وبعد أن أصبحوا في عرض البحر كشفت عن هويتها وأبليت بلاء حسناً مما جعله يسمح لها بالذهاب معه بعد ذلك. (حين ندرك أن تلك الطواقم كانت تتكون في الغالب من أفراد الأسرة، سرعان ما تصبح هذه الحكاية موضع شك.)

قُتل زوجها الأول دونالد أوفلارتي في هجوم على جزر أران، إلا أنه كان لها من بعده سلسلة من الأزواج انتهت حياتهم جميعاً فجأة وقبل الأوان، ولكن ليس قبل كتابة وصاياهم التي تجعل أملاكهم من حق جريس. أحد هؤلاء الأزواج، واسمه بيرك، تزوجته بعد أن وافقت على جعله سيد الحصن في جزيرة كبير بعد فترة متفق عليها. ولكن قبل أن يحين الموعد المتفق عليها أكل بيرك شيئاً لا يتفق معه وأصبحت هي سيدة حصنه في أكيلبيج Achillbeg المقابل لحصنها في كبير.

كانت تلك الحصون التي آلت إليها الواحد تلو الآخر تمتد على مساحة كبيرة على ساحل البحر. وكان كل منها يقع على مرأى من الآخر. وفي حال وقوع هجوم ضدها في أية نقطة من جزيرة أران في الجنوب تقريباً إلى جزيرة تورى في الشمال، كانت نار

الإنذار توقد ويراهما الحصن التالى الذى يوقد ناره. وخلال بضع دقائق يكون الساحل كله مشتعلًا. وكانت النيران تُرى من كليز وتتدفع سفن جريس - التى كانت من القوة بحيث لم تكن الملكة اليزابيث ترغب فى المشاركة فى مهاجمتها - للإنقاذ.

أنجبت جريس العديد من الأطفال من أزواجها المختلفين؛ وقد وُلد أحدهم فى البحر وأسمته " Mweedn طفل البحر"، وعاش طبقًا لما قاله الإخبارى حتى أصبح "أميرالاً عظيماً". إلا أنه لا يبدو أنها كانت أمًا نموذجية. فذات مرة حين كانت تنتقل فى قارب كبير من الحصن الذى فى أكيلبيج إلى ذلك الذى فى كليز، هبت عاصفة وأصبح البحر هائجاً جداً. سقط أحد أبنائها من بيرك فى الماء، إلا أنه أمسك بحافة القارب وبدأ يسحب نفسه ليعود إلى القارب. وسواء أكانت تؤمن بالقول القديم الخاص بـ "ما يريده البحر" أم كانت تخشى أن يقلب المركب الضعيف، أم كانت لديها سبب آخر غير معروف، ولكن ما إن أمسك بحافة القارب حتى قطعت يده. فقال الشاب المذهول "ولكننى كنت عائداً إلى القارب وحسب". فقالت أمه "لو كنت بحق من عائلة أومالى لما سقطت من على القارب فى البداية"، وابتعدت بالقارب تاركة الشاب مبتور اليد يغرق أو ينزف حتى الموت.

وإذا كانت أقسى على أطفالها من معظم الأمهات، فقد كانت مقاتلة بحرية أفضل من معظم الرجال. وتحكى إحدى القصص كيف هزمت القرصان الأسباني نون بوسكو Don Bosco من أينشيبوفين، وتزعم حكاية أخرى أنها استولت على أسطول أسباني قبالة كليز. ومن الصعب إثبات إن كانت جرانا ويل فعلت تلك الأشياء أم لا، ولكن الممكن مطابقة الحقائق التى وراء الحكايات. إذ يقوم حصن أوليفر كرومويل (*) Oliver Cromwell على موقع الحصن الذى شيده بوسكو، الذى لا يعرف عنه سوى أنه كان "قرصاناً أسبانياً". والحقيقة المعروفة كذلك هى أن بعض سفن الأرمادا (**) Armada المحطمة

(*) شخصية عسكرية وسياسية ودينية إنجليزية (١٥٩٩-١٦٥٨). حقق انتصار البرلمان فى الحرب الأهلية الإنجليزية ودعا إلى إعدام الملك تشارلز الأول وحكم إنجلترا باعتباره دكتاتوراً فعلياً فى الفترة من ١٦٥٣ حتى ١٦٥٨. (المترجم).

(**) الأسطول الذى أرسله الملك فيليب الثانى عاهل أسبانيا لمحاربة إنجلترا فى عام ١٥٨٨ وهزمته البحرية الإنجليزية فيما بعد ثم بعثته العواصف وحطمت (المترجم).

مرت من أمام كبير، وأن إحدى السفن غرقت هناك، وأن عائلة أومالي قتلت مئات الأسبان، إلا أنه من الصعب إثبات إن كان ذلك كان على يد جرانا ويل أو بودارا أومالي أم لا (٣٣).

ربما تحقق أعظم انتصاراتها في معركة مع الأسبان قبالة جزيرة شارك بالقرب من أيشبوفين. كانت جرانويل لم تعد صغيرة وأصابها التعب وأوت إلى فراشها وأرادت أن تنام. كانت المعركة خارج قمرتها قد استعرت وبدأت الغلبة تكون للأسبان. وحين بدا أن الأمور ميئوس منها، أسرع أحد أفراد الطاقم الأيرلندي إلى القمرة وأيقظ قائده. وما إن سمعت جريس ما آلت إليه الأحداث حتى استلقت سيفها وغدارتها واندفعت إلى سطح السفينة في قميص نومها وقد تهطل شعرها الرمادي على ظهرها. رأى أسباني، لم يكن يعلم أن هناك امرأة على متن السفينة، هذا الشبح يحيط به الدخان قادمًا نحوه ويده سيف. نشر ذلك الإسباني الذعر وألقى الأسبان، الذين كانوا مقتنعين أنهم يرون شبحاً، أسلحتهم.

انتشرت شهرتها في الخارج وبلغت مسامع اليزابيث التي دعته على الفور إلى بلاطها. وهناك ثلاث حكايات تروى عن رد فعلها. تقول إحداها إنها رفضت الذهاب على أساس أنها أعلى مكانة من اليزابيث. وتقول الحكاية الثانية إنها ذهبت وظهرت في البلاط عارية حتى وسطها، مما أفرع الملكة العجوز إلى حد كبير. ولكن بما أنها كانت في الثالثة والستين في ذلك الوقت، فمن غير المحتمل أنها وضعت سابقة في الموضة. وتقول الحكاية الثالثة إنها ذهبت إلى البلاط، ولأنها كانت فارعة الطول، فقد خططت لأن تضع نفسها في موضع يجبر اليزابيث على أن تنظر لأعلى إليها؛ الأمر الذي وجدته قاتلة أختها(*) العجوز مزعجاً للغاية.

تقول إحدى الحكايات (من بين حكايات كثيرة) إنها توقفت عند عودتها من زيارة اليزابيث عند حصن هاوث بالقرب من دبلن لتناول الغداء. رفض البواب السماح لها بالدخول لسبب ما فانسحبت سلية أسيرة أومالي غاضبة. وبينما كانت تغادر الحصن

(*) تآمر المؤيدون إلى وضع ماري ملكة إسكتلندا التي فرت إلى إنجلترا على العرش الإنجليزي، مما أدى إلى محاكمتها واضطرار الملكة اليزابيث على مضيض للتوقيع على قرار إعدامها بعد تعرضها لضغوط شديدة (المترجم)

رأت طفلاً مع مربيته، وظناً منها أن له صلة بحصن هاوث، اختطفته وطلبت فدية للإفراج عنه. اتضح بعد ذلك أنه وريث الحصن، وحين رأى والداه عدم جدوى مهاجمة جريس أومالى فى معقلها، وافقاً على دفع الفدية. كانت الفدية التى حصلت عليها جريس هى أن تظل بوابة حصن هاوث منذ ذلك الحين وللأبد مفتوحة وأن يكون هناك مكان إضافى على طاولة الطعام؛ وطبقاً لما قاله الإخبارى لا يزال هذان الأمران متبعين بإخلاص.

وبعد أن ماتت المرأة العجوز فى النهاية دفنت فى جزيرة كليرو ووضعت شاهد قبر فى أعلاه مشكاة صغيرة وضعت فيها جمجمتها ويفترض أنها لا تزال موجودة حتى الآن. وخلال القرن الحالى قيل إن بعض العلماء الإنجليز وصلوا إلى الجزيرة لسرقة الرأس. وما إن دخلوا قاربهم حتى هبت عاصفة رهيبية. واستمرت العاصفة حتى عاد الجناة إلى الجزيرة وأعادوا الجمجمة إلى المشكاة.

انزعج أهل كليرو انزعاجاً كبيراً من ذلك العمل، ولكى يحاولوا تون وقوعه مرة أخرى أخفوا رأس جريس أومالى وأحلقوا محلها جمجمة طفل. واتضح بعد ذلك أنهم كانوا حكماء فى تصرفهم، ذلك أن مجموعة أخرى من الإنجليز سرقت الجمجمة وأخذتها إلى لندن. ومن الطبيعى أن البحر لم يبد أى اعتراض، ووضع السكان مجموعة أخرى من عظام الرأس فى المشكاة.

زادت مكانة هذه المرأة زيادة ضخمة فى غرب أيرلندا. ففى أينشيبوفين يقولون إنها شرعت فى بناء حصن، وهناك كومة ضخمة من الأحجار المختلطة ببعضها يشار إليها على أنها بقاياها. ويفترض كذلك أنها مسئولة عن صدع طبيعى ضخم فى الجزيرة، حيث يقول أهل الجزيرة إنها حفرته لعمل قناة ولكنها توقفت عن ذلك فى الوقت الذى توقفت فيه عن بناء الحصن.

لا تزال جرانويل مؤثرة إلى حد كبير، ولكى أجرى حديثاً مؤدياً يوماً ما فى جالواى Galway، سألت سائق التاكسى إن كان قد سمع شيئاً عن هذه المرأة الرائعة.

”جرانا ويل؟ هل تقصد الأم أيرلندا؟“

"لا، بل الأخرى."

"هل تقصد جراننا ويل ملكة الغرب، قرصانة البحر الكبيرة؟"

"نعم هي تلك. ماذا تعرف عنها؟"

"أعرف أنها كانت امرأة عظيمة جداً. فقد دعتها الملكة فكتوريا إلى يوبيلها الماسي وقد جاءت برداء ليس له نصف أعلى."

ولا يزال هناك الكثير من أسطورة جراننا ويل. وأنا أشير إلى كنزها، ولكن قبل الحديث عن هذا الجانب من حياتها لابد من ذكر بعض الكلمات عن الكنز بصورة عامة.

يرى الشخص العادي أن الكنز والقرصنة أمران لا ينفصلان عن بعضهما مثل لحم الخنزير المقدد والبيض. ولكن البحارة والعامة في مجملهم يرون أن هذه ليست هي الصورة الكاملة. فهو إلى جانب كونه غنيمة القرصان، فهو "كنز" في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى شيء لفظه البحر أو تسبب في حدوثه؛ كالعنبر على سبيل المثال أو حطام سفينة غارقة محمل بالأموال أو أية سلعة قيّمة أخرى. ويعنى الكنز كذلك المال أو الأشياء القيّمة التي أخفيت بغرض حمايتها.

وحيث ندرس ماثورات الكنز فإننا نكتشف على الفور أنها مقسمة تقسيماً مرتباً إلى أربعة أجزاء. أولاً: ماثورات كيفية الدفن وزمانه. ثانياً: كيفية اكتشاف أمره. ثالثاً: كيفية الحصول عليه^(٣٤). رابعاً: ما هي نتائج العثور على الكنز. وكل من هذه الجوانب الأربعة له عدد من النماذج المقولبة المثيرة.

من بين الحكايات كافة نجد أن تلك الخاصة بالعنبر أكثرها قولبة. فالعنبر يكاد يُكتشف على الدوام نون أن يتعرف عليه أحد، وهو يُهدر ويُترك ليفسد، أو يؤخذ بالحيلة ممن عثر عليه. فقد حكى لى القبطان إيرلنج توبس Erling Taubs عن رجل عثر على مئات الأرباطال منه على جزيرته في المحيط الهادي وأطعمه للدجاج. وحين لم يتبق سوى أوقيه أو اثنتين اكتشف أنه عنبر. ويتذكر أهل بيكيا اكتشاف البعض منه، ولكنهم لم يتعرفوا عليه في الحال وفسد. وفي نيو إنجلاند ألقى البحر بكتلة كبيرة على الشاطئ وأحرق معظمها السكان الذين لم تعجبهم رائحتها قبل أن يكتشفوا خطأهم. وفي رود

أيلاند عُثر على شيء منه وأُخذ إلى الصيدلانى الذى قال إنها فضلات سوف يتخلص هو منها توفيراً لعناء من عثروا عليها. وبعد ذلك بوقت قصير توقف عن خلط الوصفات وبدأ يعيش بطريقة ظل زمناً طويلاً يشعر أنه لابد أن يحياها.

وفى أمريكا الشمالية هناك أعداد ضخمة من حكايات الكنز؛ وهى الحكايات التى تتناول الكنوز البحرية وكنوز قُطّاع الطريق بعيداً عن المحيط. ومن بين القصص جميعاً هناك ثلاث حكايات هى أشهرها وأكثرها تشويقاً، وتلك هى حكايات كنز كيد وكنز لافيت **Lafitte** وكنز جزيرة أوك فى نوبا سكوشا.

حين أبحر كيد إلى نيويورك قال إن معه على متن سفينته كنز كبير من المعدن. وقال إن لديه كنز آخر من السلع القابلة للتلف هناك فى جزر الهند الغربية. وسوف نتذكر أنه غادر نيويورك لمدة ثلاثة أيام وعاد بسفينة فارغة. ويفترض معظم الناس أنه دفن كنزه الثمين فى مكان ما وأنه لا يزال مخفياً. وذكر أن هذا الكنز موجود فى أماكن لا حصر لها من أوك أيلاند فى نوبا سكوشا إلى تشارلستون **Charleston** فى ولاية ساوث كارولينا. ليس هذا وحسب، بل من المفترض أنه مدفون فى مكان ما فى هدسون **Hudson** بين نيويورك وألبانى. وسمعت كذلك أنه دفنه فى شعب من شعاب الجبال بالقرب من بريستول بولاية فيرمونت؛ وهى منطقة تبعد ثلاثمائة ميل عن البحر ولم يكن أحد قد استكشفها فى زمن كيد. وبين هاتين النقطتين البارزتين يحدد "المكان الدقيق" فى كل مكان يمكن تخيله خارج الطريق فى مين وماساتشوستس ورود أيلاند وكونيكت ونيويورك ونيوجيرزى ونوبا سكوشا ونيوفاوندلاند وساحل لابرادور.

إذا كان لكيد كنز ودفنه بالفعل، فإن هناك بعض الحقائق اللوجيستية التى يجب ملاحظتها. أولى هذه الحقائق هى مسألة الثلاثة أيام. فقد كان بإمكان أفضل سفينة فى ذلك الوقت قطع مسافة تتراوح بين حوالى خمسة وسبعين إلى مائة ميل بحرى فى اليوم الواحد. وكان قاع سفينة كيد به عيب. وكان الأمر يحتاج إلى فترة معقولة من الوقت للرسو وتأمين السفينة وحفر الحفرة والعودة إلى السفينة والاستعداد للإبحار. لقد كان أمامه أكثر من يوم للذهاب والعودة، ويوم كامل يقضيه فى دفن الكنز. وبذلك فقد خُبئ الكنز فى مكان لا يبعد كثيراً عن غربى جزيرة جاردينرز **Gardiners Island**

قبالة طرف لونغ أيلاند أو شرقى الطرف الأقصى من كيب كود. والواقع أنه ربما يكون مخفياً فى جزيرة جاردينرز - حيث كان يعيش ليون جاردينر Lion Gardiner أحد أصدقاء كيد المقربين - أو جزيرة الصيادين أو جزيرة بلوك أو إحدى جزر اليزابيث فى خليج بزاريز Buzzards Bay. وجميعها كان سكانها قليلى العدد، وموانئها ملائمة إلى حد ما، ولم تكن بعيدة أكثر من اللازم عن نيويورك.

حفر الباحثون عن الكنز كل شبر فى تلك الجزر، وكذلك جزء كبير من شمال شرقى أمريكا الشمالية. وباستثناء بعض الكنوز التى استعيدت فور إلقاء القبض عليه، لم يعترف أحد حتى اليوم باكتشافه، ولم يظهر أى منها، وهناك احتمال كبير ألا يظهر.

ومن اللافت للانتباه إلى حد كبير أن أسطورة كيد حظيت بقوة دفع كبيرة فى الثلاثينيات، بعد وقت قصير من اكتشاف التصاريح الفرنسية فى مكتب السجلات العامة. فبعد مائتى عام ظهر مكتب وثلاثة صناديق كبيرة تخص كيد. وكان كل منها يحوى جزءاً سرى، حيث عُثر فى كل جزء على خريطة "أصلية" لما كان يُظن أنها جزيرة الكنز. ومما يؤسف له أن خط الطول ودائرة العرض لم يسجلا بالشكل الصحيح، ولكن المكتوب هو أنها فى بحر الصين؛ وهو ما أدى ببعض الناس، من خلال تدابير العقل البشرى، إلى الظن بأن الجزيرة تقع قبالة ساحل نيو إنجلاند^(٢٥).

وليس كيد بالطبع القرصان الوحيد الذى دفن كنزاً. فمن المفروض كذلك أن ند لو دفن كنزاً حصل عليه من "غليون أسباني". وهو يقع تحت صخرة مستوية على جزيرة بوند بخليج كاسكو فى ولاية مين. وهو بصورة عامة يضم ثلاث سبائك كبيرة من الفضة وصندوقاً مليئاً بالفضة، وصندوقاً مليئاً بالجواهر. وقد كشف عن موقعه لأحد الباحثين عراف هندي قال إنه لابد أن يقتسمه مع صديق. ولكن البائس الجشع حاول أن يأخذه كله، غير أنه كان هناك ما أخافه فى آخر لحظة.

وبدلاً من أن يكون لكنز كيد موقع مؤقت، كان ذلك الموقع الموجود على جزيرة أوك فى خليج ماهون بنوقا سكوشا محددًا تحديداً دقيقاً. غير أن الوصول إليه كان صعباً بعض الشيء، وإن ظل الناس يحاولون الوصول إليه طوال مائتى عام. كان الموقع يقوم عليه بستان من أشجار البلوط الحى العتيقة؛ وهى أشجار لا تنمو بشكل طبيعى شمالى

فيرجينيا. كما كان هناك نوع من القرنفل الأحمر الذى لا وجود له فى أى مكان آخر من نونفا سكوشا.

انجذب اهتمام المكتشفين الثلاثة إلى إحدى الأشجار، ذلك أن فرعاً كبيراً قد نُشر، وكانت تتدلى بكرة من الجزء المتبقى، وقد خُدش حبل الخشب الميت خدشاً شديداً. وكانت الأرض منخفضة أسفل الفرع المقطوع. وبعد الحفر لمسافة عشرة أقدام وصل الباحثون عن الكنز إلى لوح من الخشب السميك أخرجوه. وكانوا يصلون كل عشرة أقدام إلى لوح آخر. كان معظمها من الخشب، غير أن أحدها كان من المعجون وآخر من الفحم. وعلى عمق خمسة وتسعين قدماً وجدوا حجراً لم يستطيعوا قراءة ما عليه من كتابة فوضعوه جانباً واستمروا فى الحفر. كان يوم سبت، وحين عابوا يوم الإثنين كان ارتفاع الماء فى الحفرة ستين قدماً. ولم تكن هناك جدوى من جهود نزح المياه بالدلاء.

حاول الناس على مر السنين اجتياز هذا المانع من ماء البحر، الذى كان يأتى من شاطئ وهمى بنى على لوح من ألياف جوز الهند، وفشلت المحاولات كافة. وبعد عدة سنوات وضعت بريمة حفرت حتى عمق ١٥٥ قدماً. وعلى عمق ١١٠ قدماً اصطدمت لقمة الحفارة بلوح أسفله فراغ عمقه اثنتا عشرة بوصة. وبعد ذلك سارت فى أربع بوصات من خشب البلوط ثم طبقة من الحديد، ثم نزلت ٤٠ قدماً واصطدمت بأسمنت. حمل ناتج الحفر ثلاث حلقات من سلسلة ذهبية، وحمل آخر شيئاً جعل الحفار يجرى مسرعاً، وجاء الثالث بقطعة من الرق. ظنوا أن هناك غرفة للكنز أسفل الحفرة؛ وهى غرفة لا يقل ارتفاعها عن ٤٠ قدماً وقطرها عن ١٥ قدماً مملوءة بالذهب والرق المشبع بالرطوبة^(٢٧).

بعد كل ذلك العمل المكثف ومئات الآلاف من الدولارات، كانت تلك هى الأشياء الثلاثة الوحيدة التى استخرجت من الحفرة، ومع ذلك مازال الناس يحفرون هناك منذ القرن الثامن عشر.

ربما لا يكون اللغز الأكبر ما هو موجود هناك، بل كيف ولماذا وصل إلى هناك. يشعر الكتاب أن البلوط الحى وليف جوز الهند يشير إلى أن من وضعوه جاءوا من

الجنوب. وتشير طبقة المعجون والبكر إلى البحارة. وتشير الحفرة العميقة والشاطئ الوهمي وأشغال المياه المعقدة لإغراق الحفرة إلى عملية طويلة قام بها رجال كثيرون يديرهم مهندسون مهرة؛ وهو عمل ماهر لا يكاد يكون ممكناً بالنسبة لطاقم سفينة عادية. وربما يشير الحجر الذي يحمل كتابة والألواح إلى خطة لاستعادة الكنز، مع توجيهات على الكتلة الحجرية. ويسميه السكان المحليون كنز كيد. أما الكُتَّاب المتأملون فيشعرون أنه كنز من كنوز الفايكنج.

بالإمكان استبعاد كيد، ولكن من الصعب تخيل أن الفايكنج كان لديهم ذلك القدر الكبير من الأسلاب، أو هذا النوع من المهارة الهندسية، أو الحاجة إلى مثل هذا الدفن المعقد.

يميل الكُتَّاب المتأملون كذلك إلى تجميع أشجار البلوط الحى والقرنفل وليف جوز الهند والفرع المنشور وخشب السفينة فى حزمة واحدة. إلا أنه قد يبدو منطقياً أن نفترض أن أشجار البلوط الحى كانت موجودة قبل الكنز. وما لم يكن قبطان السفينة نوحاً، فلن يتوقع أحد منه نقل بستان من أشجار البلوط الحى وزرعه، بالإضافة إلى هذا الذهب الكثير والليف فى حمولة واحدة! وقد يكون منطقياً أكثر أن نفترض أن الموقع اختير بسبب الأشجار أو عزلة الجزيرة، وأن كتل الخشب وفرع الشجر والكنز تعود إلى تاريخ لاحق. وكانت البحرية الملكية تتخذ لها مقراً فى هاليفاكس أثناء الثورة الأمريكية. وكانت تطوف فى خليج المكسيك وأمريكا الجنوبية. وكانت تحصل على غنائم بحرية. وكان على متن سفنها مهندسون عسكريون وكانت بها أطقم كبيرة. ألا يمكن أن يكون هذا كنز يعود إلى زمن الثورة الفرنسية؟

إذا كان أعيان القوم قد سعوا للحصول على هذا الكنز، فإن أهل تشيستر Chester فى نونسا سكوشا يقولون إنه لا يستحق العناء. فالذهب مسكون، وكذلك الجزيرة فى الواقع. فهناك حراس عديدين لحفرة الكنز. أحد هؤلاء الحراس حصان ضخّم له عينان ناريتان يصهل ويقطع الجزيرة عدواً جيئةً وذهاباً. والآخر كلب أسود يسيل اللعاب من فمه، يشبه إلى حد كبير الكلب الشيطان الأيرلندى الذى يحوم فى المكان ليلاً. ويقال إن رجلاً يرتدى معطفاً أحمر يقف حارساً، وهناك قارب به ثمانية

عشر مجدافاً به بحارة أشباح يعس المياه القريبة. ولا تظهر هذه المخلوقات إلا حين يقترب أحد من الكنز. ولذلك فنحن نفترض أن واجباتهم ليست منهكة. وحين يوشك الكنز أن يكشف، يظهر الوهج الأحمر الذي يسبق العاصفة. (٣٨)

قبل عامين من كتابة هذا الكلام، وطبقاً لما جاء في مقال منشور في "ذا نيويورك تايمز" *The New York Times*، كان رجل وأبناؤه يبحثون عن الكنز. وكانوا قريبين جداً، حتى إنهم أبرقوا لأصدقائهم كي يأتوا ويشهدوا الحدث. وحين دخلوا الحفرة لوضع اللمسات الأخيرة لم يخرجوا. وعثرت فرقة الإنقاذ عليهم أمواتاً في النفق الذي حفروه. (٣٩)

قد يكون الكنز المشهور الآخر موجوداً في خليج توبرمورى *Tobemory Bay* حيث انفجر غليون أسباني. وأنا أقول "قد" لأن هناك بعض الشك؛ أولاً: بشأن إذا ما كان هناك غليون فقد في تلك البقعة أم لا. ثانياً: إذا كان هناك غليون فقد هناك، فما هو؟ إذا كان "فلورينثيا" *Florenzia*، ربما يكون هناك كنز. أما إذا كان "سان خوان باوتيستا" *San Juan Bautista* كما يظن البعض، فلن يكون هناك كنز.

طبقاً لما يقوله أهل جزيرة مول فإن هناك ثلاث حكايات عن حطام الكنز؛ وهو ما يشير إلى احتمال وقوع الحدث. وتقول إحدى الحكايات إن إحدى السفن الهاربة من كارثة الأرمادا، تدفعها الرياح العاتية والحاجة الشديدة إلى الطعام والماء، وصلت إلى توبرمورى لعمل عمرة والتزود بالموث. لم يكن الإسكتلنديون راغبين في تزويد الهاربين بما يحتاجونه إلى أن اكتشفوا أن السفينة على متنها مدافع. وبما أن عائلة ماكلين *the Macleans* وعائلة ماكدونالد *the Macdonalds* كانتا في حرب في ذلك الوقت، فقد وعدت عائلة ماكلين الغليون بتقديم الطعام والماء مقابل استغلال جنوده. كان ذلك هو الشرط، إلا أن صدعاً حدث بين الإسكتلنديين وجنود الغليون. أخذت عائلة ماكلين ثلاثة أسرى من الإسبان، وأسر الإسبان شاباً صغيراً من عائلة ماكلين. وحين بدا أنه ليس هناك أمل فيما يتعلق بالموث، أعدوا السفينة للرحيل. وحين اكتشف الشاب الذي ينتمي إلى عائلة ماكلين ذلك فجر السفينة وهو معها، وغرقت في المياه العميقة في الميناء. (٤٠)

هناك كذلك حكاية تقول إنها لم تفجر قط وإنما جردت مما فيها بالسحر؛ فقد استخدمت نفس الساحرات اللاتي من المفترض أنهن أغرقن الأرمادا لتدمير الغليون.^(٤١)

وقيل إنه كان على متن الغليون أميرة أسبانية، ومدفع كبير من تصميم ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci، وكمية كبيرة من الذهب، وتاج تلك الشابة التي كان من المفترض أن تصبح حاكمة ألبيون^(*) Albion بعد الاستيلاء عليها. وكان حول عنق الأميرة سلسلة بها دلالة، وهى كذلك من تصميم دافنشى.

بقى حطام السفينة هناك قرونًا. وبعد المحاولة الأولى لانتشاله لم يعثر سوى على بعض البقايا؛ كان من بينها مدفع كبير مملوك لدوق أرجيل Duke of Argyll ويفترض أنه الطراز الخاص بدافنشى. وبمرور السنين استقر العملاق فى الطين، ولكن فى بداية القرن الحالى بدأت أعمال الاستخراج، باستخدام خراطيم ضغط الهواء لإبعاد الطمي. ويقال إن غواصاً كان يعمل بأحد تلك الخراطيم حين ضربه شيء ما. لم يمكنه أن يرى شيئاً فى الظلام، ولكنه أمسك بالشئ وصعد به للسطح. كان يمسك بجمجمة عليها السلسلة والدلالة اللذان كانا يتلآن منذ زمن بعيد^(٤٢).

تتعلق حكاية أخرى بهذا الحطام. وهى تقول إن السفينة جاءت إلى توبرمورى وانفجرت. وكانت على متنها أميرة أسبانية قُتلت. إلا أنهم عثروا على الجثة ودفنوها عبر مضيق مول فى جبانة صغير فى كيل Kiel. وبعد ذلك استخرجت الرفات وأعيدت إلى أسبانيا كي تدفن هناك. إلا أن هناك شبحاً يتردد على المنطقة؛ وهو شبح الأميرة التى تبحث عن عظمة إصبعها التى تُركت سهواً حين سُحن الهيكل العظمى إلى الوطن. ويبحث الشبح الهائم عن عظمة الإصبع بسبب المعتقد القديم الذى يقول إن الجسم الكامل فقط هو الذى يدخل مملكة السماء ويجلس على مائدة الرب.

حكايات الكنز هذه مشهورة. وهناك حكايات أخرى على نفس القدر من الشهرة، ولكنها من الجاذبية بحيث يجب ذكرها. تأتى على رأس هذه الحكايات نادرة تتعلق بجرانويل التى اجتمعت حولها أساطير من الكثرة بحيث يمكن القول بأنها تشكل دائرة.

(*) بريطانيا العظمى (المترجم) .

يقول الناس فى جزيرة تورى إن هناك كنزاً مدفوناً على الطرف الشمالى من الجزيرة بالقرب من هوة كبيرة تعرف باسم سجن بالور Balor's Prison . ويتفق الجميع على هذه النقطة، إلا أن هناك خلافاً فى رأى فيما يتعلق بمن الذى دفنه. يرى كثيرون أن جريس أومالى هى التى دفنته، غير أن كثيرين يظنون أن الذى وضعه هناك هو بالور نو العين الشريرة. وعلى أية حال فقد ظل مخفياً سنوات كثيرة إلى أن عثرت عليه امرأة إنجليزية وابنها فى القرن الحالى. فقد استخرجاه وأعداه كى يعودا به إلى لندن، ولكنهما مرضا قبل أن يغادرا الجزيرة. لم يعرف أحد ما بهما، ولكنها كانا يزدادان سوءاً كل ساعة واتضح أنهما على وشك الموت. ويقول أهل الجزيرة إن الكنز هو الذى سبب المرض، وفى محاولة يائسة لإنقاذ نفسيهما أعادهما إلى مستقره. خفت حدة المرض بعض الشيء وحُملا إلى بلدهما، غير أن أحداً لا يعلم إن كانا قد شفيا أم لا. ويظن أهل الجزيرة أنهما ماتا^(٤٣).

كذلك دفنت ملكة الغرب كنزاً (تسعة أطنان) على أينشيبوفين، حيث ظل مخفياً حتى القرن التاسع عشر حين عُثر على بعض منه إلا أن معظمه لا يزال مدفوناً. وما عُثر عليه اكتُشف بطريقة لافتة للانتباه وكان بداية لسلسلة من الأحداث. وطبقاً لما قاله القبطان أوهاالوران Captain O'Halloran فقد حدث الأمر بالطريقة التالية:

بالنسبة للكنز الذى عُثر عليه هنا على الجزيرة، تؤكد أن هذا كله صحيح. فهذا الرجل الذى عثر عليه - والواقع أنه ليس هو الذى عثر عليه - بل الغلام الذى يعمل لديه - فى الحقل. كانا يعملان فى الحقل - كانا يعملان بالشوكة أو شىء من هذا القبيل. وكان الغلام هو الذى اصطدم به. حفر حول ذلك الشىء بالجاروف الذى كان يحفر به، ولم يكن يعرف ما هو. ولكنه كان يعرف أنه شىء غريب. كان يعرف أنه ليس حجراً. وعلى أية حال فقد نادى فى النهاية على سيده وجاء بالطبع. قام الاثنان بالحفر حوله وأخرجاه. بالطبع كان السيد يعرف ما هو. أما الغلام فلم يكن يعرف شيئاً. كان صغيراً فى ذلك الوقت. وكانت له عائلة كذلك [السيد] وهكذا فرح كل الفرع بالمال، بالطبع، وخبأه حتى حل الظلام ثم ذهب به إلى البيت ولم يعلم أحد قط أنه أخذه. وهدد الغلام وأمره ألا يخبر أحداً؛ فقد أخطأ ولم يكن من المفروض أن يعمل هناك وغير ذلك. ولا أظن أن الغلام عرف ما هو على أية حال .

على أية حال فقد قرر الرجل إرسال ابنه إلى المدرسة لتعلم الملاحة وليجعل منه قبطاناً بحرياً، وقرر حينئذ أن يبني سفينة. قد يكون وزنها مائة طن أو نحو ذلك؛ ما يقرب من ذلك. سوف تكون سفينة كبيرة إلى حد ما في ذلك الوقت. وقد بنوها - بناها - هناك حيث كنت أحكى لك [مشيراً إلى رأس الميناء] وحين انتهى بناء السفينة كان هناك نزاع بينه وبين رئيس بناء السفينة بشأن السفينة أظن أنه كان على المال. فلم يكن يريد أن يعطيه ما تبقى من مال إلى أن تقوم السفينة بتولى رحلاتها.

كان كل شيء على ما يرام. فقد صار الابن قبطاناً بحرياً (ولم يكن يريد هو ذلك) وعاد إلى أيشبوفين وجهزت السفينة للإبحار. وفي الليلة التي كان مستعداً فيها للمغادرة جاءت عاصفة قوية من الجنوب الشرقي. وقال الابن إن الجو ليس مناسباً للمغادرة مع أنه كان متجهاً إلى جامايكا. كان سيأتى من هناك بحمولة روم أو ما شابه. الروم رخيص هناك وسيحضره إلى هنا ويحقق منه ربحاً وفيراً، ويضع على السفينة ما تبقى من مال الكنز ليدفع ثمنه.

غادر ذلك الابن وذهب؛ فقد أجبره الأب على الذهاب، والمغادرة، وبذلك ذهب. خرج من هنا ومر من بين جزيرتي شارك وبوفين - من ذلك الطريق - حيث الريح الطيبة. والآن ذهب للتووالأب حزين. فقد أرسل سفينة من الجانب الشمالى للجزيرة - إحدى تلك السفن العادية - من الجانب الشمالى للجزيرة، ظناً منه أنهم سوف يلحقون به ويعيدونه ويوقفونه. ولكنهم تأخروا ولم يوقفوه وغرق واشتد الظلام وضاع فى تلك الليلة على بلاكسود Blacksod وغرق فى تلك الليلة عند فلات أيشكيك Flat Ineshkeg، غرق. كان معه مبلغ من المال لشراء البضاعة وظل هناك. بعد ذلك بسنوات كان هناك شخص أظن أنه كان يجمع الأعشاب البحرية على جزيرة أيشكيك - تعلم أنهم يستخدمون الأعشاب البحرية كسماد - [الحقيقة] وأظن أنه وجد الذهب - بقية الذهب على أيشكيك. وهكذا انتهى الأمر.

كانوا يظنون أن الرجل الذى بنى السفينة لعنها فى الماء وقال إنه لا ينبغي لها أن تعود (وأظن أنه لم يكن بإمكانها العودة) لأنه لم يعامل الغلام الذى وجد الكنز

المعاملة الصحيحة، ولم يعطه شيئاً. وهم يقولون إنه لم يكن يدرك ذلك إلى حد كبير. كان ذلك هو أول وآخر شيء عنها. كان اسمها "ريفن" Raven [الغراب] وأظن أنه كنز جراننا ويل، هم يقولون هذا. وأظن أن جزءاً آخر مدفون هناك كذلك.

أنا أعرف المكان الذى يظنون أنه موجود فيه - بعضه - وسوف يظل هناك رغم ذلك وأظن أنه ربما لا يكون هناك بالمرّة. أعرف أماكن نقبوا فيها عنه وهذا الرجل هنا فى الجزيرة رأى حلاًماً عن الذهب - المكان الذى فيه - وكان من المفترض أن يتبع جذر نبات العوسج (*). هل تعرف ما هو جذر العوسج؟ إنه قضيب كبير طويل ينمو فى الأرض وهو مفيد جداً ونحن نسميه جذر العوسج وهناك الكثير منه ينمو هنا على هذه الجزيرة. وكان من المفترض أن يتبع جذر العوسج إلى أسفل وأن يحرص ألا يقطعه وأن يأتى معه بشيء حى. أى شيء حى ؛ حتى ولو كان طيراً أو بجاجة أو ما شابه ذلك، لأنه من المفترض أن يكون هناك دائماً شعبان حول هذا الذهب. وعندما يعثرون على الذهب سيكون عليهم إلقاء شيء حى للشعبان للتخلص منه، وبعد ذلك يمكنهم أخذ الذهب.

مضى كل شيء بشكل جيد جداً وكان هناك شخص عجوز هنا - على الجزيرة - أظن أنه شخص عجوز. كان يبيع القماش. كانوا يسمونهم الباعة الجائلين - أظن أنك لم تسمع هذا الاسم من قبل، بائع جائل. أخنوه معهم؛ بالطبع لم يكن من الممكن أن يسير الأمر بشكل جيد. أخنوه معهم ليلقوه للحية حين يجنون الذهب. ولذلك لم يقولوا له لماذا كانوا يريدونه ولكنهم أخنوه معهم. وكانوا يحفرون عميقاً وكان جذر العوسج موجوداً وكانوا شديدي الحرص. استمروا فى الحفر وكانوا شديدي الحرص. استمروا فى الحفر ونزلوا إلى عمق كبير إلى حد ما ولو لم يقطعوا جذر العوسج بالجاروف لوصلوا إلى غايتهم. بل إنهم حتى لم يجدوا جذر العوسج مرة أخرى بعد ذلك، فما إن قطعوه حتى انتهى كل شيء.^(٤٤)

لا تزال هناك حكاية كنز من أينشوبوفين فيها تكرار. وليس هذا كنزاً مدفوناً وإنما كنز بحرى. فمنذ سنوات مضت كانت هناك سفينة ذات ثلاثة صواري اسمها "رويال

(*) شجيرة اسمها العلمى Erica arborea تنمو فى مناخ البحر المتوسط وتستخدم جنورها الخشبية القوية فى عمل غلايين التخزين (المترجم)

أوك^{٤٠} Royal Oak . ويعتقدون أنها فقدت بفتها فى ليلة عاصفة قبالة الجانب الغربى من الجزيرة. وفى ذلك الجانب هناك خور ضيق وعميق فى حجم سفينة قلبر كبيرة تقريباً. ولم تكن هناك أضواء لتحذير أى شخص، ومن المشكوك فيه فى تلك الظروف أنه كان بالإمكان عمل شىء ما، إن كان هناك ما يمكن عمله. اندفعت السفينة بقوة للأمام إلى داخل منحنى الخور أولاً ثم جنحت، حيث قلبها البحر الهائج على الفور تقريباً. ومن حسن الحظ أن نقلها المائل رشق فى نباتات الجزيرة المتحطة وسار البحارة كافة إلى الشاطئ.

قيل إنه كان على متن "رويال أوك" كنز قيمته كبيرة، وأرسلت الحكومة الغواصين إلى بوفين لانتشاله. وصل الغواصون ونزلوا إلى السفينة الفارقة - التى لم تكن على عمق كبير - ووجدوا الكنز بالفعل ولكنهم وخرجوا على الفور صفر اليدين. وحين خرجوا إلى الشاطئ لم يكن هناك ما يحثهم على العودة إلى البحر، ورفضوا الإفصاح عن السبب، ولم يقولوا شيئاً سوى أن هناك أسفل شىء لا يمكنهم ولا يريدون مواجهته. ويقول أهل الجزيرة إنها حية ترقد على الذهب لتحرسه، ورغم فقرهم الشديد، فإنهم يفضلون الفقر على تحدى الحية^(٤١).

القرصان الآخر الذى يستحق الاهتمام فى هذا المقام هو جان لافيت Jean Lafitte الذى كان مسئولاً مثل بارنى عن إزعاج البريطانيين، وقد أصبح مثل كيد متورطاً مع الساسة؛ وكان السياسى فى هذه الحالة هو أندرو جاكسون Andrew Jackson الذى حدد ثمناً لرأسه بعد أن بات فى غير حاجة إلى خدماته. ويقال إن لافيت دفن كنزاً كبيراً. ومن الواضح أنه لم يكن مهتماً كثيراً باستعادة الغنيمة، ذلك أنه لو صدقت الحكاية فإن إحدى وسائله المفضلة كانت حشو ماسورة أحد المدافع بالذهب وإلقائه من فوق السفينة.

كان لافيت يدفن الذهب فى بعض الأحيان على البر. وقيل إنه دفن فى إحدى المرات كمية كبيرة من الذهب والفضة بالقرب من جالفستون Galveston . ولكى يعلم المكان غرس قضيب المهندس فى الأرض ومضى إلى حال سبيله. (وكان ذلك قضيباً طويلاً من الحديد فى أعلاه كأس توضع به البوصلة). بحث الناس سنين عديدة، ولكن

فى الحشائش الطويلة، ولأنهم لم يكونوا يعرفون ما يزيد كثيراً عن أن الكنز قريب من نهر لافاكا Lavacca River فقد كانوا يبحثون بالفعل عن إبرة ثمينة جداً فى كومة قش.

وفى يوم من الأيام أرسل صاحب إحدى المزارع صبيًا كى يقود الأبقار إلى المزرعة لحلبها، ولكنها كانت تتجول ووجد بعض الصعوبة فى العثور عليها. وحين وصل إليها فى النهاية كان الوقت قد تأخر. كانت الأبقار حروناً وبسبب الطبيعة المتأصلة فيها أصرت على الذهاب فى الطريق الخطأ. فقد الصبى أعصابه وبحث حوله عن شىء لإثارة اهتمامها بالذهاب إلى الحظيرة. وحين وجد ما يحثهم به التقطه وأخذ يضرب به الماشية بحماس، وسار القطيع بأقصى سرعة إلى المزرعة.

حين وصلت الأبقار لاحظ المزارع أنها تتنفس بصعوبة فالتفت إلى الصبى يسأله عن السبب. فحكى له الصبى ما حدث وقال إنه استخدم قضيباً من الحديد فى ضربها وأراه للمزارع. كان قضيب المهندس بالكأس الصغيرة فى أعلاه هو ما انتزعه الصبى من الحشائش لحت القطيع على السير. ولأنه كان يجرى هنا وهناك، وكان الليل يرخى سدوله، وكان الريف غريباً بعض الشىء، فلم تكن لديه أدنى فكرة عن المكان الذى عثر عليه فيه^(٤٦).

يبدو أن حكايات الكنز بصورة عامة تأتى ضمن سلسلة من الأنماط ليس النمط التالى استثناء منها. فعلى جزيرة بيكيا رأت امرأة حلمًا. وفى الحلم قالت لها أمها الميتة إنها إذا نهضت من فراشها وذهبت إلى البحر وسارت على الشاطئ سوف تجد قضيباً من الحديد مدقوناً فى الرمل بين أشجار المنجروف. وعادة حين يكشف عن كنز ما فى الحلم يحذر من رأى الحلم ألا يحكى ما رآه لأحد، ولكن هذا لم يحدث. فقد نهضت من الفراش، وتخوفاً من الأشباح والعماريت ومخلوقات الليل الخارقة، نادت على شقيقتها كى تذهب معها.

سارت المرأتان على الرمال وشردت إحدى الشقيقتين، وكانت لا تؤمن كثيراً بالأحلام، للبحث عن جوز الهند. أما الأخرى فذهبت إلى أشجار المنجروف، وهناك وجدت أمامها قضيب الحديد مغروساً فى الرمل. انتزعته المرأة وبدأت فى الحفر. وفجأة بدأ الرمل يفور، وحين تغلب الفرخ والخوف على المرأة اندفعت بعيداً لتحكى لأختها ما

حدث وأخذت القضيبي معها. عثرت عليها بعد مشقة، وحين حاولتا العودة إلى حيث كان القضيبي لم تعثرا على المكان. بذلتا أقصى ما يمكنهما، ولكن المكان الذي كان القضيبي مزروعاً فيه راغ منهما، فاستسلمتا في النهاية^(٤٧).

ومع أن معظم حكايات الكنز تنتهي بالإحباط، فإننا نسمع من حين لآخر عن صيد ناجح. فقد نام رجل على جزيرة بيتيت مارتينيك **Petite Martinique** بجزر ويندورد ورأى حلمًا. ظهرت له في الحلم امرأة ميتة كانت ترتدي ملابس بيضاء. وقفت عند السرير ونظرت إليه ثم قالت "انهض واتبعني خلال الشجيرات الشائكة وسوف أريك الكنز." استيقظ الرجل وكان خائفًا، كما كان يخشى من أن يظن جيرانه إن هم رأوه أنه يتسكع بين الأشجار الشائكة مرتدياً رداء النوم في الساعة الثانية صباحاً. فبقى في فراشه.

في الليلة التالية رأى الحلم ذاته. قال الشبح "انهض واتبعني خلال الشجيرات الشائكة وسوف أريك الكنز، ولكن يجب ألا تخبر أحداً." ومرة أخرى استيقظ الرجل ومرة أخرى لم يذهب. تكرر الحلم للمرة الثالثة. "انهض واتبعني مسافة قصيرة خلال الشجيرات الشوكية. وبعد مسافة قصيرة سوف أستدير وأتى ناحيتك. وحين أبتسم أحفر وسوف يكون الكنز ملكك. ولن يعرف أحد حتى أنك خرجت إلى الخلاء."

في تلك المرة نهض الرجل وخرج إلى الخلاء. أخذ جاروفاً واتبع الشبح المتشعب بالبياض الذي كان يسير أمامه. ولم يكد يقطع مسافة مائة ياردة حتى توقف الشبح واستدار وابتسم. وعلى الفور أخذ الرجل يحفر وسرعان ما استخرج كنزاً ثميناً. وقد بنى به سفينة وانتعشت أحواله إلى أن صار واحداً من أغنى رجال الجزيرة. ولم يظهر له الشبح مرة أخرى^(٤٨).

غالباً ما يظهر الميت شخصياً وليس في الحلم - خاصة في الجزر البريطانية وأيرلندا - ليقود شخصاً ما إلى الكنز. وهناك ثلاث حكايات على الأقل من إنجلترا: واحدة في نورثمبرلاند **Northumberland** واثنان من ويلز. في الحكاية الأولى حاولت امرأة بيضاء حث طفل على الذهاب معها وقدمت له كنزاً مكافأة له. ونتيجة لتلك المحادثة كان الطفل يشعر برعب شديد. وفي ويلز شعرت سيدة بالامتنان لرجل تحدث

إليها وأرشدته إلى كنز ما . وفى حالة أخرى أعطت المرأة البيضاء نصف كنز لرجل لأنه تحدث معها، ولكن حين أرادته كله كانت أن تمرقه إرباً^(٤٩) .

نُقلت هذه المعتقدات إلى أمريكا الشمالية، حيث يتحدث كريتون Creighton عن بحار يحمل حقيبة ظهر يرشد الناس إلى كنز يمكن الحصول عليه بذبح طفل وجعل الدم يسقط على صخرة بعينها. كما يذكر كريتون كذلك أن الأشباح المتحولة إلى حيوانات تساعد الشخص فى العثور على الكنز^(٥٠) .

و يلجأ الناس فى نونا سكوشا فى بعض الأحيان إلى وسائل أخرى للعثور على كنز مدفون. فهم يستخدمون عصا الاستنباء^(*) ولكن يبدو أنهم ليسوا أوفر حظاً ممن يعتمدون على الأحلام والأشباح. فقد عثر رجل على كنز فى كيب بريتون بهذه الطريقة، ولكن سرباً من الغربان مقطوعة الرؤوس يحرس المكان أبعد عنه. إلا أن رجلاً آخر عثر على كنز فى نفس المنطقة. وحين أوشك على سحب كنزه من الحفرة نظر لأعلى واكتشف أن هناك حجر طاحونة فوق رأسه مباشرة معلق بخيط. ويبدو أنه انتظر كثيراً كي يكتشف أنه يدور ألف دورة فى الدقيقة، ولكن بعد أن صار لديه اهتمام شديد من على بعد^(٥١) .

وسيلة المساعدة الثالثة للعثور على الكنز التى تشيع بصورة خاصة فى أيرلندا هى الجنيات التى توجد عنها حكايات عديدة، غير أنه لا يبدو أن ذهب الجنيات يأتى من نفس المصدر الذى يأتى منه الذهب الآخر. فعادة ما تتركه كائنات العالم الآخر أو من فعل السحر، ولذلك فهو لا يهمنا كثيراً فى هذا المقام.

أما الطريقة الرابعة والأشهر للعثور على الكنز فهى باستعمال خريطة أو "مخطط" plan ؛ وهو ما يسمون به الخريطة فى جزر الهند الغربية. وحكايات الكنوز التى يُعثر عليها بهذه الطريقة كثيرة جداً ومشهورة بحيث لا تكون هناك ضرورة لرواية أى منها، ولكن من اللافت للانتباه ملاحظة أن كل تلك الخرائط تقريباً يكون الحصول عليها إما فى نُرْجٍ سرى فى مكتب من المكاتب أو فى صندوق يُكتشف بالصدفة، أو عن طريق

(*) عصا يستعين بها البعض لمعرفة وجود الماء أو المعادن فى مكان ما تحت الأرض (المترجم) .

مصادقة عملاق عجوز يختبئ من العاصفة ويعطى من يحسن إليه خريطة ثروة مخفية فى فراش موته. ودائماً تقريباً يكون هناك عيب ما فى الخريطة ويتعلق جزء كبير من الحكاية بجعل المخطط مفهوماً. (وكانت تلك هى الحيلة التى استخدمها جيه فينيمور كوبر^(*) J. Fenimore Cooper حين كتب رواية "أسود البحر" The Sea Lions) .

لابد من خلق الكنز قبل اكتشافه ، وهناك الكثير من الماثورات المرتبطة بخلقه كثرة تلك المرتبطة باكتشافه. وعادة ما يفكر الناس فى الولايات المتحدة فى الكنز باعتباره غنيمة القرصان، ولكن أهل جزر الهند الغربية والناس فى الخارج يشيرون إلى أن أية أموال أو حلى مدفونة لحمايتها هى كنز، ولابد أن يكون إخفاؤها بناء على صيغة ما. وقد قيل لى مرات عديدة فى جزر الهند الغربية إنه لابد من دفنه ليلاً (وهذا منطقى إلى حد كبير) وسراً. ولابد من تقديم أضحية حتى لأصغر المخابى؛ وعادة ما تكون بحاجة أو عنزة علاوة على الأرز والروم والتعاويذ. ويراق الدم على المكان وغالباً ما تدفن جثة الضحية مع القدر.

بالنسبة للمخابى الكبيرة، مثل حمولة سفينة بكاملها، تكون هناك طقوس أكثر. وفى تلك الظروف تقدم أضاحى بشرية. وغالباً ما يقطع رأس الشخص الذى يحرس الكنز أو يشنق وتوضع الجثة منبطحة فوق الكنز وينثر الدم بكثرة حوله. وكانت روح هذه الضحية هى التى تحرس الكنز، وقبل أن يستولى عليه أحد، كان لابد من ترضية الحارس؛ غالباً بالدم. وإن لم يحدث ذلك فإن الحارس قد يلجأ إلى أية وسيلة لضمان بقاء الكنز مدفوناً.

قيل لى على جزيرة بيكيا إنهم كان يجرون قرعة على سفن القراصنة، وكان الرجل سبب الحظ الذى تقع عليه القرعة يُقتل ويدفن مع الكنز. وكان بيل والاس العجوز Old Bill Wallace، وهو أحد أهل الجزيرة المشهورين، يشعر بضيق من رجل ظل يحوم حول شجرة معينة بجوار منزله. وأخيراً حفر بيل العجوز الأرض واكتشف هيكلًا

(*) روائى أمريكى (١٧٨٩-١٨٥١) أشهر رواياته "آخر أبناء قبيلة الموميكان" (١٨٢٦) التى تدور أحداثها فى المناطق القريبة من الحدود (المترجم) .

عظماً مدفوناً منبطحاً. فحفر أكثر ولكنه لم يجد شيئاً. وبذلك أعاد دفن الهيكل العظمى ووجهه لأعلى ولم يزعه شيء بعد ذلك.

وحين يدفن الكنز بالطريقة الصحيحة وترسم خريطة صحيحة لمكانه، نكتشف أن هناك كذلك قدراً كبيراً من الماثورات يرتبط بعملية الاكتشاف. أولاً: لابد من اتباع أية توجيهات بوضوح؛ خاصة إذا كانت آتية إلى صياد الكنز في حلم أو من خلال شبح. وعموماً لابد من الذهاب إلى الكنز بعد حلول الليل، ويفضل في غياب القمر. وأفضل وقت للعمل هو بين منتصف الليل و الفجر. ومن المفيد استخدام جاروف من الفضة، وغالباً ما تكون هناك حاجة إلى أضحية. والأهم من كل شيء ألا يتكلم أحد؛ وهناك مئات من الحكايات عن أشخاص يتحملون الكثير للحصول على الكنز ويفقدونه فقط بقولهم "وجدته!" عندما يصطدم معولهم بالصندوق أو يكون الوعاء على وشك أن يرفع، يسقط الصندوق حينذاك داخل الأرض ويختفى للأبد. (من المقرر أن أستمع إلى شخص كانت لديه فرصتان للحصول على كنز.)

ومن حين إلى آخر تكون هناك حكاية عن شخص عثر على كنز، ولكن مرات الفشل تفوق في عددها مرات النجاح. وأحد معوقات الوصول إلى الكنز هو الطمع. والحكاية التالية التي جمعت في شتاء عام ١٩٧١ توضح الأمرين.

ففي يوم ما قرب انتهاء القرن التاسع عشر أبحر يخت فرنسي إلى جزيرة ماييرو **Mayero** بجزر ويندورد ورسا. ذهب الربان إلى الشاطئ وطلب من صاحب الجزيرة الإذن للتنقيب عن كنز. وقال للمالك إنه سوف يعطيه ثلث الكنز إن هو وافق. رفض المالك، حيث كان يريد النصف، وقال القبطان إن ذلك مستحيل. فقد وجد صعوبة كبيرة في العثور على خريطة الكنز وجاء من مكان بعيد جداً بحيث لا يجزيه أقل من ذلك. قال إن الكنز كبير جداً بحيث لن تكون هناك طريقة ينفق بها مالك الجزيرة نصيبه في حياته. أصر مالك الجزيرة على النصف وتم الاتفاق. إلا أن الرجل طلب رؤية الجزيرة قبل عوبته إلى السفينة وتجول الاثنان في أنحائها. وأخيراً طلب القبطان شرب ماء جوز الهند، حيث كان شديد العطش. قدم له مالك الجزيرة ما طلب، وبعد الشرب ألقى الغريب جوزة الهند الفارغة على الأرض، وبعد ذلك عادا إلى الشاطئ وقال الربان إنه

لن يشغل نفسه بالكنز، ذلك أنه لن يجده بحال من الأحوال. أقلت السفينة واختفت في الأفق. وفي صباح اليوم التالي اكتشف المالك الجشع حفرة في المكان الذي ألقى فيه الربان جوزة الهند. وقد تناثرت حول الحفرة بضع عملات ذهبية؛ تركت كدليل على وجود الكنز بالفعل.

ينقلنا هذا إلى المرحلة الرابعة من الكنز المدفون؛ وهي ما يحدث بعد العثور عليه. فهناك شعور عام بأن هذا الكنز منحوس. فقد سمعت العامة مراراً يقولون "لن أزعج نفسي بالكنز المدفون. فلا فائدة ترجى منه. فهو لا يأتي إلا بالمشاكل." والغريب إلى حد كبير أن هذا الرأي امتد إلى التهريب، بل وإلى التجارة غير المشروعة في الروم داخل الولايات المتحدة. ويمكن أن يقدم العامة أمثلة عديدة لما حدث للأشخاص - وهم أحياناً من المشاهير - الذين جمعوا ثروتهم بهذه الطريقة.

أسباب ذلك بسيطة جداً. فالحصول على المال بدون جهد أمر مناف للأخلاق المسيحية. بل إن الكنز في واقع الأمر لا يخص من عثر عليه وإنما الذي دفنه. كما أن جزءاً كبيراً منه جاء بطريقة غير مشروعة. وهو إذا كان يخص شخصاً ما، فهو يخص الشبح الذي يحرسه أو سيده الشيطان. ولهذا السبب تحرس الحية الكنز في أينشوفين ويجري الكلب الذي يسيل اللعاب من فمه على جزيرة أوك.

ولكى يحتفظ الشخص بالكنز ويتمتع به، لابد له من اتباع قواعد معقدة. فعلى سبيل المثال يعتقد الناس في دومينيكا (*) Dominica أنه إذا عثر أحد على كنز واحتفظ بأي جزء منه، فلا بد أن يستثمره كله في مشروع ما على الفور، وإلا فإن عليه إعادة نصف ما عثر عليه. وفي الحالة الأولى إما أن يكون من عثر على الكنز في وضع يجعله يحقق أرباحاً كبيرة أو يخسر كل شيء. وفي الثانية سوف يعيش حياة بنصف رغيف أفضل من لا شيء.

ينقلنا هذا إلى دراسة موجزة جداً لابنى عمومة القرصنة؛ وهما التهريب والتجارة غير المشروعة. يرى كثيرون أن التهريب أسلوب حياة. ويشعر المهرب أنه يقدم خدمة

(*) دولة جزيرة في شرقي البحر الكاريبي عدد سكانها حوالي ٨٠ ألف نسمة (المترجم).

لمجتمعه لا أنه يرتكب جريمة. فهو على أى الأحوال يوفر لأصدقائه، وبسعر يمكنهم دفعه، سلعة ما كانوا ليحصلوا عليها لولا ذلك، وإن حصلوا عليها فبأسعار باهظة. ولا تخطر على ذهنه أبداً حقيقة أنه ينتهك القانون. وحتى إذا فكر فيها فإنه يشعر بأنه يحرم الساسة الذين يعيشون على مسافة بعيدة من جزء من دخلهم، وهو حين يفعل ذلك يساعد جيرانه. وقد يكون محقاً^(٥٢).

ولكى ينتعش التهريب لابد من توفر شروط بعينها. أولاً: لابد من وجود رسوم جمركية حمائية تجعل أثمان بعض السلع باهظة. ثانياً: لابد أن يكون هناك مصدر لتوفير تلك السلع على مسافة قريبة إلى حد معقول. وأخيراً: لابد من توفر وسائل لجلب السلع المهربة. وإذا أخذنا كل هذه الأشياء فى الاعتبار لن يكون مستغرباً أن إسكوتلندا وكورنول وأيرلندا الجنوبية ومين والمنطقة المحيطة بنيو أورلينز هى مسارح الكثير من حكايات التهريب.

من اللافت للانتباه كذلك ملاحظة أن الحكايات التى تدور حول التهريب تنتعش بقدر الشدة التى تنفذ بها القوانين المصاحبة وصرامة العقوبات المتصلة بها. وتزخر إسكوتلندا والولايات المتحدة بالحكايات. ومن ناحية أخرى يمارس التهريب بمعدل كبير فى جزر الهند الغربية. وبالنسبة لإحدى الجزر هناك، يعد التهريب المصدر الوحيد للدخل. وهناك الكثير من القوانين التى تحظر التهريب، غير أنه من النادر تنفيذها، كما أن العقوبات اسمية. وأدت شهور عديدة من البحث المكثف فى المنطقة فقط إلى إخراج الحد الأدنى من الحكايات إلى النور. ولم تذكر سوى حكاية واحدة تتعلق بالجزيرة.

يبدو أن الإدارة الجديدة كانت قد تولت مهامها فى جرينادا وكانت هناك جهود مكثفة لوقف التجارة غير المشروعة التى كانت منتعشة، وخاصة فى الكحول والتبغ. وأمر مفوض الشرطة مروسىيه بالذهاب إلى الجزيرة وتفتيشها وإحضار أية سلع مهربة ومهربين يمكن العثور عليهم. ولسبب أو لآخر بدا أن المرءوسين عاجزين عن "بلوغ" الجزيرة المذكورة. ضاعف المفوض جهوده وذهب إلى جزيرة مجاورة حيث أمر رجال الشرطة بالتقدم إلى وكر المهربين فوراً. قدم رجال الشرطة باستقالاتهم. شعر المفوض بإهانة شديدة وغضب جم وقال إنه لا ينبغي إرسال الصبيان لإنجاز أعمال الرجال

وقاد بنفسه قارباً عبر به إلى الجزيرة. وحين ألقى بالمرساة فوجئ بسماع قرع طبول ورؤية حشد كبير على الشاطئ. بل إنه دهش أكثر حيث انطلق وفد في قارب صغير وصعد على متن قاربه. وكان الوفد شديد الأدب. فقد سأل عن صحته وقال إن الجزيرة بأسرها تأمل بأن ينزل على الشاطئ ليقدموا له ترفيهاً. وكانوا سيسحقون إن هو لم ينزل. سألهم المفوض عن ماهية الترفيه فقال الوفد إنه جنازة (وهو دائماً حدث احتفالي على الجزيرة). فمن الذى مات؟ لم يمت أحد بعد. فقد عمل الناس الليل بطوله فى إعداد الاحتفال وهم يحمون الطبول ويحفرون حفرة. كانت بالحجم المناسب للمفوض وكانوا يأملون أنه لن يخذلهم. وهنا سحب سعادته المرساة وعاد إلى جرينادا. وظلت القوانين المضادة للتهريب حبراً على ورق، وعادت البلادة الخاصة بتنفيذها.

وفى سانت لوشا روى رجل عجوز كان يعمل فى يوم من الأيام فى مهنة التهريب حكاية لافتة للانتباه عن حياته العملية. فقد رست سفينة عصابته على جزيرة دومينيكا ذات ليلة وكانت تفرغ حمولتها حين اكتشفتها امرأة. طلبت المرأة أن تُعطى "نصيياً" من البضاعة المهربة، ولكن القبطان أعطاها زجاجتين وحسب وذهبت إلى حال سبيلها. وصلت الشرطة بعد ذلك بوقت قصير. كانت تعرف على وجه الدقة أين تبحث عما تبقى من الحمولة وتجده تحت القلقاس، وألقت القبض على كل البحارة، وصارت السفينة. ألقى بالقبطان وأفراد الطاقم كافة فى السجن، باستثناء الإخبارى الذى استطاع الهرب.

وبدلاً من أن يهرب من البلاد أو يوكل محام، ذهب إلى أحد السحرة الذى أخبره بكل ما يفعله. بينما كان الكل يقفون أمام القاضى كان عليه أن يقول "الحرية". كما أبلغ الساحر الإخبارى أن الذى وشى بهم هى المرأة التى كانت تريد نصيياً من الحمولة، وبناء على ذلك حوكم أفراد الطاقم، حيث كان كل منهم يقول "الحرية" حين يقف أمام المنصة، وأطلق القاضى سراح كل منهم. كانت الواشية فى قاعة المحكمة، وأشار راويتى إليها بإصبعه وقال "الحرية". وعلى الفور بدأت شفقتها تتورم حتى صارت فى حجم القرعة وكانت من الثقل بحيث مالت برقبته. لقد صفى الحساب معها بشفتها الجديد، وكانت واحدة من أقبح الناس على الجزيرة؛ وكانت من القبح بحيث تسمى القرية التى كانت تعيش فيها اليوم Pays Bouche [بلد الفم] .

يبدو أن عملية إلقاء القبض على المهريين هذه فعلت شيئاً في القانون، ذلك أنه في المرة التالية التي كان فيها القبطان وطاقمه في المنطقة ألقت الشرطة القبض عليهم. فُتشت السفينة ولكنهم لم يعثروا على شيء، وعامل الضباط بحارة السفينة بغلظة شديدة. ومن بين ما فعله رئيس الشرطة أن أخبر المهريين ما الذي يمكن أن يتوقعون حدوثه حين يقبض عليهم. وبعد ذلك طلب طعاماً. لم يتحمل أحد تلك الغطسة. بل إن ذلك الحماس من جانب رجال الشرطة يمكن أن يقضى على مهنة مربحة جيدة. كان لابد من اتخاذ إجراءات صارمة. ولذلك جرى بقطعة سمك لطيفة وطهيت على الوجه الأكمل ووضعت عليها التوابل بكثرة، كما هو حال طعام جزر الهند الغربية. كما نُثر عليها الكثير من السم. أكل الشرطي ورجل في رحلة أطول من مجرد الذهاب إلى البر. وقال الإخباري "بعد ذلك عشنا وقتاً طيباً لزمان طويل".

منذ سنوات كان هناك أسلوب^(*) تسمى "أرتفول دوجر" Artful Dodger . وكان من المقرر أن تحمل السفينة حمولة من الخمر والتبغ من المارتينيك وتفرغها على إحدى الجزر البريطانية. سارت الأمور جميعاً على ما يرام حتى اللحظة الأخيرة، حين اكتشفوا أن ضابط الجمارك كان مختبئاً تحت قارب تجديف مقلوب على الشاطئ في انتظار القبض عليهم متلبسين والحصول على مكافأة كبيرة. وما إن اكتشف القبطان ما كان عليه الوضع حتى جعلهم يأخذونه هو ورجل آخر إلى الشاطئ في قارب. تسللا إلى أعلى قارب التجديف وضربا الدعامات التي أسفله بأقدامهما وجلسا على الصالب، بينما ضابط الجمارك عالق بالداخل. وبعد أن وصلت الحمولة إلى الشاطئ أكرموه بحساب جار. "مائتا سيجارة، ويرميل براندى صغير ...". وبعد أن أنزلت الحمولة بالكامل على الشاطئ وكانت في سبيلها إلى مقصدها، ثبتوا القارب في الشاطئ بالحبال المربوطة في الأوتاد وياشروا عملهم^(٥٢).

تشيع إلى حد ما تلك الحكايات الخاصة بالتحايل على القانون. وقد حدثت الحكاية السابقة في القرن التاسع عشر. وتُروى حكاية ذات حبكة مشابهة عن زمن تهريب الروم في رود أيلاند. إذ كان أحد تجار البضائع المهربة قد أنزل للتو حمولة ضخمة على

(*) سفينة شراعية ذات صاري واحد وشراع طولاني (الترجم) .

الشاطي وكان مشغولاً في تحميلها على الشاحنات حين اندفع أحد رجاله عائداً. نائب المأمور هناك عند التقاطع في انتظارنا. فقال القائد "لا بأس. اذهب إليه واسأله كم يريد لجعلنا نمر. لا أريد أن أقتله إلا إذا اضطررت لذلك، ولكني لن أدفع أكثر من ثلاثة آلاف." عاد صبيه واقترب من نائب المأمور، الذي قال إنه كان يعرف ما يجري وأنه يقف هناك للحفاظ على القانون؛ بغض النظر عن كل شيء. سأل المهرب وهو يضع يده في جيبه "كم تريد لتذهب إلى أي مكان آخر؟" وهو كذلك، إذا كان الأمر كذلك، فإنني قد أتحرك. هل تظن أن خمسة دولارات مبلغ كبير؟

وتأتي حكاية شبيهة جداً بحكاية رود أيلاند من كتر روك. فعند رأس خليج ناراجانست **Narragansett Bay** قبالة لسان يسمى بوبسكواش بوينت **Popsquash Point**، يقع جُرف طيني ينكشف عند وصول الجزر إلى أدنى مستوى له. وصل إلى الخليج مهرب يعمل مع جون براون في عام ١٧٧٢ وأمرته سفينة شراعية سريعة اسمها "جاسبي" **Gaspee** أن يبقى مرساته. وبما أنه كان على متن سفينة براون حمولة من السلع المهربة وكان معروفاً أنها سفينة سريعة، فقد نشر ربانها أكبر قدر من الأشرعة. ولكن مهما كانت سرعته فلن تكون أسرع من السفينة الحكومية، وكان المجال يضيق عليه بسرعة. ولكن الرجل العجوز كان يعرف الخليج وسار بسفينته على المكان الضحل. أما جاسبي فقد جنحت وظلت حتى المد التالي. وذهب المهرب إلى بروفيدنس (*) **Providence**، حيث أشاع الخبر. ونتيجة لذلك جهز براون سفينة صيد حيتان وهاجم في تلك الليلة السفينة البريطانية قبل تعويمها^(٥٤).

وطبقاً لما تروييه حكاية لا تزال شائعة، فقد رأى رجل يسمى بكلان **Bucklan** ضابطاً بريطانياً على سطح مؤخرة السفينة على هيئة ظل أمام القمر. تناولني بندقيتي يا تيلي وسوف أقتل ابن الزانية حيثما يقف. هكذا قال، وهكذا فعل. وقد استولوا على جاسبي وأحرقوها، وغالباً ما يسمى هذا الحدث (وأحداث غيره عديدة) معركة الثورة الأمريكية الأولى.

(*) عاصمة رود أيلاند وتقع على الطرف الشمالي الشرقي من الولاية على خليج ناراجانست (المترجم).

فى زمن تهريب الروم شُن هجوم نمطى على أولاد بُل Old Bull [الثور الكبير] وهى صخرة ينحسر عنها الماء فى الخليج. فقد طارد أحد زوارق خفر السواحل زورق تهريب روم اسمه "بلاك دك" Black Duck . وحين وصل "بلاك دك" إلى أولاد بُل أطفأ أضواء المؤخرة - وهو ما أهمل القيام به أثناء المطاردة - ودار حول الصخرة وأضاءها من جديد. وكما هو متوقع، ظل قارب حفر السواحل يسير على خط مستقيم. استقر قاع القارب على قرنى الثور الكبير. أما بقية القارب وأفراد الطاقم فقد سقطوا فى المياه العميقة على بعد عدة أطوال للقارب، بينما مضى "بلاك دك" على مهل "أعلى النهر" لتفريغ الحمولة^(٥٦).

ربما كان أحد أكثر أشكال فرار المهربين غرابة هو الذى حدث قبل سنوات كثيرة فى جزر هيبيريديز. وقد حدث كما يلى، حسب رواية ماري ماكلينان : Mary MacIennan

جاء جدى الأكبر من كينتيل Kintail واستقر هنا وامتلك ثلاثة فنايق صغيرة. كان لديه فندق فى جراميسديل Gramisdale حيث يقع شمالى بنبيكولا Benbecula، وآخر فى لوخ أيهورت Loch Eyhort، حيث يقع خارجها بقليل، وثالث فى الطرف الجنوبى من هنا [ساوث ويست] وكان يصنع الويسكى الخاص به ويهربه. كان يصنع الويسكى الخاص به فى زمن كينتيل وكان يقضى لياليه فى مراوغة زوارق الجمارك، عبر مينش^(*) Minch حيث كان يهرب الويسكى، وفى تلك المرة كانت هناك فرقاطة تطارده. كانوا قريبين ولكنهم لم يستطيعوا فى الواقع السير بسرعة كبيرة ولذلك دخلوا لوخ تاربيرت Loch Tarbert؛ لوخ تاربيرت الشرقية فى هاريس Harris . كان هناك خور ضيق فى لوخ تاربيرت وبينما استطاعوا اجتيازه لم تكن هناك مساحة كافية للسفينة الحكومية التى اضطرت للرسو خارجه طوال الليل. وأثناء الليل لم يتمكنوا [المهريون] من الخروج من فم لوخ تاربيرت بحال من الأحوال، ولذلك انتظروا [الذين على متن الفرقاطة] حتى الصباح. ولكن حين طلع الصبح لم يكن هناك أثر لأية سفينة. لقد اختفى كل شىء، وكان ما حدث هو أن جدى الأكبر ذهب إلى البر ومعه إناء كبير من الويسكى، وجمع حشداً من

(*) قناة تفصل شمال غربى إسكوتلندا عن جزر هيبيريديز الخارجة (المترجم) .

الأصدقاء وأسكروهم واقترض كل حصان وكل شيء في المنطقة، وهو عنق ضيق جداً جداً من الأرض يفصل لوخ تارييرت الشرقية عن لوخ تارييرت الغربية وسحب سفينته بعيداً بما فيها من ويسكى قبل أن يفيق الآخرون^(٥٧).

كل هذا النشاط ميت الآن. فالقراصنة لا وجود لهم إلا في بحار الصين النائية؛ هذا إن كان لهم وجود. وأصبح قادة سفن المجهود الحربي خارجين على القانون منذ الحرب الأهلية الأمريكية، باستثناء يدعو للتساؤل خاص بالقبطان فون لوكنر Von Luckner والسفينة "سى أدلر" Sea Adler. أما التهريب فما زال مستمراً ولكن بمعدل أقل بكثير، ويجرى معظمه الآن باستخدام الطائرات والزوارق ذات المحركات. وضاع الكثير من رومانسية الكنوز المدفونة مع ظهور الطرق الجديدة والمحسنة للعثور عليها. وعلى سبيل المثال، ما هي فرصة الشبح الوحيد لحماية كنزه ضد أشعة الليزر أو كراكة الشفط؟ ومن يحتاج إلى خريطة حين يحصل على جهاز لكشف المعادن؟ ومن لا يعرف أن الأحلام ما هي إلا تسجيلات اختلطت ببعضها للتجارب الشخصية؟

ومع ذلك فإن الرءوس الكبيرة تتذكر، والعقول الكبيرة تصدق، وفي المراكز المتقدمة النائية من العالم الناطق بالإنجليزية يستمع أطفالهم، وهؤلاء سوف يصدقون ويتذكرون وربما يعيدون. وحين يعتم الضوء، ويدمدم الرعد في الغرب ويزمجر البحر على حصي الشاطئ، يكون من الصعب إلا تصدق وأنت جالس في قمرة السفينة أو في كوخ على البر وتستمع إلى رجل عجوز يروي هذه الحكايات. الأمر إذن هو أن ذلك العلم البارد والحشد شديد الاهتمام لا تهمة أشياء كثيرة ويمكن للمرء أن يهرب إلى أرض الأحلام؛ أم إنها الواقع؟

الفصل الثالث عشر

الأساطير والحكايات

« بالله عليكم دعونا نجلس على الأرض ونروى
حكايات حزينة عن موت الملوك »
شكسبير
- SHAKESPEARE, RICHARD II

إلى جانب الغناء والمنحوتات العظمية والمزاح الخشن، كان أحد مصادر الترفيه الضخمة للبحارة هو رواية الحكايات والأساطير. وقد سبق ذكر الكثير من هذه الحكايات والأساطير في مواضع أخرى، إلا أنه من الضروري تخصيص بعض الوقت لوسيلة قتل وقت الفراغ هذه، لأن البحار يرى أن الحكايات، والأساطير على وجه الخصوص، لها مغزى يتعدى مجرد الترفيه. وكما يقرأ المسيحي الصالح عن ابتلاء أيوب أو بطولات داود، فإن البحار يجد متعة في حكاياته المسلية. وهو يرى أنها تكاد تحمل مغزى دينياً. فهو يستمد منها السلوى والتعاليم.

السؤال الذي يبرز على الفور هو ما الحكاية الشعبية وما الأسطورة؟ الحقيقة أنه يصعب الحديث عنهما قبل أن يوضع لهما نوع من التعريف.

الواقع أن هناك ثلاثة أنواع من القصص الشعبية. فعلى أحد الطرفين هناك الخرافة (وهي لا تهمنا في هذا الفصل)، وعلى الطرف الآخر هناك الأسطورة. وفي الوسط توجد الحكاية. وكل صنف له عدد من المعايير التي يمكن تطبيقها عليه. ومع وجود هذه المعايير في أذهاننا، يمكننا الحكم على الفئة التي تنتمي إليها القصة، تماماً

مثلما نقدر الغواص بالنقط. فالغطسة الكاملة تستحق عشر نقاط، وما لم ينزل الغواص على لوح القفز، فإن أية غطسة تستحق شيئاً. وكما أن الغطسات نادراً ما تكون كاملة، فإن الحكايات والأساطير نادراً ما تستحق كل النقاط.

إن كلاً من الحكاية والأسطورة حقيقية، ولكنه نوع مختلف من الحقيقة. ومع أن المصطلحات قد تكون لها دلالة أوسع في موضع آخر، فالحكاية في هذا الفصل تنطوي على حقائق تفسيرية بينما تعنى الأسطورة بالأحداث التاريخية. وفي حين قد نتحدث الأسطورة عن شخص يجرى إغراقه، فإن الحكاية تتحدث عن لماذا تهب الرياح.

تتناول الأسطورة والحكاية كلاهما الزمن، ولكن بينما تعنى الأسطورة بـ"زمن الساعة" تعنى الحكاية بـ"الزمن الجيولوجي"؛ إن جاز لي أن أخترع مصطلحاً. وفي هذا الصدد تكون الحكاية أقدم كثيراً من الأسطورة، وغالباً ما تكون لها بداية تقليدية من قبيل "كان فيه زمان ... أو كان يا ما كان ..." وقصة القرن الحادي عشر الخاصة بالملك كانوت **King Canute** الذي يحاول صد المد أقدم من أن تكون أسطورة ولكنها أحدث من أن نعتبرها حكاية.

وبينما تكون الحكاية واسعة الانتشار ونادراً ما ترتبط بمكان ما، تكون الأسطورة مقيدة داخل فضاء بعينه وتعنى بأحداث تقع في جهة محددة. وحين تكون الحكاية على هذا النحو من التقييد، فإن ذلك يكون بغرض تفسير ظاهرة محلية ما كانت لتفهم لولا ذلك.

تتناول الأسطورة الشخصيات داخل قالب الزمن، بينما تميل الحكاية إلى رسمها بخطوط أكبر من الحياة. ولكي تحقق الحكاية ذلك فإنها تدمج السحر أو العالم الآخر أو العناصر الخارقة في القصة. وغالباً ما تكون الحكايات عن الآلهة وأشباه الآلهة والعفاريت والشياطين. ومن ناحية أخرى يكون الناس داخل إطار الأسطورة أشخاصاً حقيقيين وتكون الأحداث التي شاركوا فيها أحداثاً وقعت بالفعل. قد يحدث بمرور الزمن أن تُعدّل التفاصيل الهامشية إلى درجة أننا لا نتعرف على القصة الرئيسية، ولكن خلف المادة الإضافية تكمن الحقيقة الثابتة. وأنا لا أنزعج كثيراً حين أسمع

أسطورة وأعلم أن المصدر لم يوثقه مؤرخ مدرب*. فهناك الكثير جداً من الأساطير الموجودة الآن التي عجز المؤرخون المدربون عن تفنيدها، وعن جعلى أرفض أسطورة ما لعدم وجود مصدر. من يدري؟ فقد يأتى الدليل غداً^(١).

أثناء الليل الطويل حين يحتفى جزء من نوبة الحراسة تحت جانب السفينة الذى يحرسها من الريح، أو أثناء الوقت الذى يقضونه فى أسفل السفينة، يحب أفراد الطاقم أن يرووا الحكايات. ويغنى معظم هؤلاء بالحكايات الشخصية؛ عن العواصف التى خاضها الشخص، أو عن زملاء السفينة الذين قابلهم، أو التجاوزات على البر مع الويسكى والعاشرات. ولم أجد أن السياسة أو الدين أو الأكروبات الفكرية تأخذ جزءاً كبيراً من وقت البحار. فبعد تغطية الملاحظات الخاصة بالطقس وأعمال السفينة، يعود عقل البحار إلى الماضى أو يتجه إلى الحرية المقبلة حين يقفز إلى الخمار وإلى الماخور.

لقد وجدت باستمرار أن الحساسية تنتج دائماً عن الدعة والترف. أما حياة البحار فلا تسمح بذلك. وما يراه الشخص المتحضر قابساً غالباً ما يجده البحار مضحكاً. ولكن إذا كان البحار يفتقر إلى الحساسية ويتسم بالفظاظة والقسوة، فهو كذلك كريم. وهو قاس ولكنه شجاع. وعند الحديث عن ذلك، أبدى البروفيسور هربرت هالبرت Her- bert Halpert من جامعة نيوفاوندلاند ملاحظة ثاقبة بقوله: "حين تعلم ما الذى يتحمله الصيادون والأشياء التى يفعلونها فى حياتهم، لا يكون للشجاعة معنى".

يبالغ البحارة إذن فى تصوير الأشياء نتيجة لحياتهم. فلا بد أن تكون تجاوزاتهم فى الميناء ضخمة كي تحتفظ بمكان لها فى ذاكرتهم. ولأنهم يعيشون بجوار الخطر والموت المفاجئ، فهم يتذكرون فقط تلك الأشياء التى قد تبدو لأهل البر غير قابلة للتصديق لارتباطها بالمخاطر، أو لعنفها، أو لشناعتها. وهناك حكاية توضح ذلك.

كما سمعت فإن الحكاية الأصلية كانت أطول من ذلك، ولكن الجزء الموجود هنا فيه الكفاية. ففى أثناء ضباب كثيف قبالة ساندى هوك^(*) Sandy Hook حيث سفينتان

(*) شبه جزيرة شرقى نيو جيرسى عند مدخل خليج نيويورك الأسفل (المترجم).

بعضهما. يصيح صوت ضعيف "يا سفينة. من تكون هذه السفينة؟" ويأتى الرد بصوت عال متعب مزمجر "الباحرة أوشن مونارك" **Ocean Monarch**. أى سفينة تلك؟" "اليخت 'بتسى آن' **Betsy Ann** من أين جئت؟" "من بومباي. ومن أين أتيت أنت؟" "من ساج هاربر" (*) **Sag Harbor** كم مضى عليك فى البحر؟" "مائة وثمانية أيام. وكم مضى عليك أنت فى البحر؟" "أنا أبحر طوال الليل!" ومن الصعب رؤية الطريقة التى يمكن بها لكل طرف أن يبدي اهتمامه بالآخر. ولكن لنعد إلى عملنا.

فى الماضى كانت الحكايات والأساطير شائعة فى البحر، إن كان لنا أن نحكم على ذلك بالأعداد التى بقيت مطبوعة. إلا أنها تمثل فى الوقت الراهن جزءاً متواضعاً جداً من نخيرة الراوى البحرى. (إذا رغب أحد فى الاطلاع على الحكايات القديمة فليس عليه سوى دراسة كتب باسيت **Bassett** وسكينر **Skinner** وربابورت **Rappaport** المذكورة فى الببليوجرافيا.) والواقع أنه مع ظهور وسائل الترفيه الحديثة ومع اختراع المحرك الذى يقصر أية رحلة تقريباً بصورة كبيرة، تضاعفت الحاجة إلى وسائل الترفيه المحلية بصورة ملحوظة.

ربما كان أشهر تلك الحكايات هى تلك التى تدور حول مطحنة الملح. فقديمًا كان هناك رجل فقير وزوجته يعيشان فى منزل صغير. كان عيد الفصح قد أوشك ولم يكن بالبيت لحم خنزير مقدد ولم يكن هناك أمل فى الحصول على شىء منه. إلا أن زوجة الرجل كانت مُصرّة على تقديم لحم الخنزير فى العشاء. كان ذلك هو الوضع، ولكى يحلله الزوج ذهب إلى الغابة كى يفكر فى طريقة للحصول على اللحم. وهناك التقى برجل نحيل صغير الجسم طلب منه طعاماً فأعطاه الرجل. وامتناناً بذلك سأل الرجل الصغير ما هو أكثر شىء يريده فقال له "لحم خنزير مقدد لأحد عيد الفصح." وحينذاك قال الرجل الصغير لمن أحسن إليه إنه إذا ذهب إلى الجحيم وقدم للشيطان بعض لحم الخنزير المقدد فقد يعطيه الشيطان مطحنة معينة تطحن أى شىء يطلبه مالكها. كل ما هو مطلوب منه أن يقول "أطحنى كذا"، وتستمر المطحنة فى إخراج الشىء المطلوب إلى أن يأمرها قائلاً "لا تخرجى المزيد من كذا".

(*) قرية جنوب شرقى نيويورك على الطرف الشرقى من لونغ أيلاند (المترجم).

عاد الرجل الفقير إلى بيته بتلك المعلومات، وأخذ آخر شريحة لحم خنزير مقدد في البيت وذهب إلى الجحيم. عثر على المكان بعد جهد، وبحث باهتمام عن الوسائل العديدة المستخدمة للتغلب على الشرير. رأى الرجل المطحنة في الركن والتقى بالشيطان. ولح الشيطان لحم الخنزير ورغب فيه، فساومه الرجل الفقير بنجاح وحصل في النهاية على المطحنة المسحورة، التي عاد بها إلى بيته.

قرر الرجل قبيل وصوله إلى بيته أن يرى إذا كانت الآلة الجديد تعمل أم لا. وضعها على الأرض وقال "أطحنى لحم خنزير مقدد." وعلى الفور أخذت المطحنة تطن وخرجت منها قطعة لحم الخنزير السميكة تلو الأخرى. فنطق الرجل وهو راض بالكلمات السحرية فتوقفت المطحنة، وعاد إلى بيته ليفرح زوجته بلحم خنزير عيد الفصح.

وبفضل المطحنة السحرية تحسنت أحوال الرجل وزوجته الرجل تحسناً كبيراً. وأخيراً أعطاهما لأخيه الذي كان مزارعاً. كان أول شيء فعله المزارع هو أن أمر المطحنة بطحن الحساء، وقبل أن يتمكن من إيقافها كان لديه نهر من الحساء يخرج من المطبخ. وبعد ذلك طلب منها أن تفعل أشياء عديدة وسرعان ما أصبح شديد الثراء.

وفي يوم من الأيام جاء قبطان بحري إلى منزل المزارع ورأى المطحنة تعمل. بهر الرجل بإمكانيات هذه الآلة وقرر الاستيلاء عليها ومعرفة كيف تعمل. سأل القبطان الرجل عن طريقة تشغيلها وأخبره المزارع. وفي تلك الليلة استولى القبطان على المطحنة وأخذها إلى البحر في رحلة صيد.

وحين وصلوا إلى المصايد اصطادوا عدداً كبيراً من السمك، وبما أنهم كانوا بحاجة إلى الملح لحفظ السمك الذي اصطادوه، أخرج الريان المطحنة وأمرها بأن تطحن ملحاً. بدأت المطحنة تطحن ولم يمض وقت طويل حتى صار لديه كمية كبيرة من الملح. ولكن المشكلة هي كيف يوقفها. فهو لا يمكنه بدون الكلمات السحرية أن يسيطر عليها^(*) ملأت المطحنة القمرة ثم برج السلم وأخيراً المخزن بالملح إلى أن غرقت السفينة

(*) لاحظ الشبه بين مصير هذا الرجل ومصير قاسم في حكاية علي بابا حين تجسس على أخيه ودخل مغارة اللصوص (المترجم).

التي زادت حمولتها عن الحد وأخذت معها المطحنة وطاقم السفينة. وحتى يومنا هذا لا تزال المطحنة في القاع تطحن ملحاً. وإذا كنت لا تصدق هذه القصة، تنوق ماء البحر.

كادت تلك الحكاية تنتشر في التراث الشفاهي في العالم القديم، غير أنها لا تزال شائعة في جزر الهند الغربية، حيث أصبحت قصة تقليدية مرتبطة بسلسلة حكايات أناسي Anasi . وغالباً ما تتناول هذه الحكايات السحر، وهي تُروى دائماً بطريقة غريبة. ففي البداية يقول الراوى "كريك" ويرد المستمعين عليه بكلمة "كراك". ولكي يتأكد من أن الجميع يستمعون، فإنه يقطع حكايته من حين لآخر بكلمة "كريك" وإذا كانت المستمعون متيقظين فإنهم يصيحون بصوت عال "كراك". كما أنه عند الوقفات أثناء الحكاية يغنى المتحدث شعراً باللهجة المحلية، حيث يكون ذلك بمثابة فواصل بين أجزاء الحكاية. بل إن هذه القصص تستخدم مفردات غير مستخدمة في الكلام العادي. وحين تنتهي الرواية، يبين الراوى ذلك بعبارة ثابتة؛ إما "وكانت تلك نهاية الحكاية" أو "السلك ينتهي وحكايتي تنتهي".

في إحدى الليالي في كاريماكو، وبينما كنت أبحث عن حكايات عن السحر، رويت حكاية عن البراهمان سير وكيف أنه ألقى بحجره السحري في البحر قبل أن يحرقوه حياً. وقد دهشت حين روى الإخباري، القبطان تشارلي بريستول Charlie Bristol، الحكاية التالية:

كريك!

كراك!

هناك رجل، هو - آه - كان رجلاً مسحوراً. كان عند الرجل مطحنة. هذه المطحنة التي عنده، هه، سرقها وأخذها لنفسه على السفينة - على السفينة المليئة بالمسافرين - المسافرين على السفينة وكانوا جميعاً متجهين إلى مكان ما. وبينما كانوا مسافرين لم يكن عندهم ملح فلأخذ هو المطحنة ولكنه لم يمكنه السيطرة على المطحنة، لماذا؟ لم يأخذ الكلمة الأخيرة قبل أن تصبح المطحنة ملكه. المطحنة - لكي تجعل المطحنة تعمل ،

Moulez-moi qu'arondé

Moulez-moi qu'arond

[تغنى تسع مرات، كل مرة أسرع من الأخرى]

كريك!

كراك!

وهكذا المطحنة، هكذا يقولون، لم يكن لديهم ملح ولكن المطحنة تخرج أى شيء يطلبونه من المطحنة لأن المطحنة تخرجه فى الحال طلبوا من المطحنة أن تعطى ملحاً للسفينة ليطهو الطعام. ليس هناك ملح ولكن الرجل سمع الصوت، "تشغل المطحنة - هذا moulez-moi qu'arondé . قال للمطحنة إنه يريد الحصول على ملح، إنه سيشغل المطحنة. Moulez-moi qu'arondé قال للمطحنة إنه يريد ملحاً ولذلك ستخرج المطحنة ملحاً الآن. ذلك أن ماء البحر أو ماء التشغيل سيتحول إلى ملح. لأنهم يريدون فقط إعطاء نكهة للطعام فإنهم يريدون الملح للسفينة. سوف أحكى لك يا سيد. سوف يقول الرجل للمطحنة " Warandez اسم المطحنة Warandez، ولذلك فإن فى كل مرة يقول " Warandez لابد أن ترد المطحنة وتعطيه ما يطلب. وبذلك فإن أى شيء يطلبه إذا كان شيئاً كهذا فإن على المطحنة أن تلبيه، لأنها مطحنة سحرية. ولذلك قال المسافر للمطحنة إنه يريد ملحاً وبدأت. طلب من المطحنة أن arondé، moulez-moi qu'arondé [يغنى الأغنية اثنتى عشرة مرة] .

كريك!

كراك!

بدأت تلك المطحنة تخرج ملحاً، هـ. المطحنة طحنت ملحاً إلى أن أصبحت السفينة محملة بالملح. حين أراد أن يوقف المطحنة لم تكن لديه أية طريقة يوقف بها المطحنة. طحنت المطحنة ملحاً إلى أن غرق وغرق كل فرد مع المطحنة.

• عندما تأخذ شيئاً - تسرق شيئاً ولا تعرف عنه شيئاً، فإنه دائماً يحدث خطأ
الكثيرين الذين لا يعرفون أنهم وقعوا فى الخطأ وبذلك تموت أرواح كثيرة، ولكن
أن تعرف طريقة التشغيل أفضل من ألا تعرف طريقة التشغيل.

كريك!

كراك!

وهذه نهاية حكايتى.

رغم حقيقة أن البحار لديه إحساس قوى بشأن "طهارة" البحر ويعترف بأنه
لا يتحمل القتل والمدينين والمسلولين والمتباهين وأى عدد من الأشخاص غير المرغوب فيهم
(ويستثنى من يمارسون المزاح الخشن ومن يذهبون للعاهرات - وهذان أمران يكادان
يكونان من هوايات البحارة)، وهو يعلم كذلك أن البحر سوف يقتله إن أتاحت له
الفرصة. وهو يعزو هذه السمة منذ زمن لا يعلمه أحد إلى كائنات شديدة القوى تعيش
فى أعماقه. فى الماضى كانت تلك كائنات مثل بوسيدون Poseidon وشونى Shony،
ولكن مع ظهور المسيحية حل محلها الشيطان والعفاريت.

إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية واحدة فلن نجد أى عدم اتساق فى هذا الشعب.
فإذا كان الشيطان يريد الأشرار، فما الذى هو أكثر طبيعية من أن يأخذهم من
العنصر الذى ألقاه فيه الرب؟ وإذا كان أثناء بحثه يفرق الطيبين ليأخذ الأشرار، فإن
ذلك لا يزيد كثيراً عما يفعله الطبيب؛ حيث يقطع اللحم الطيب ليصل إلى النسيج
الخبث. ولا يرى البحارة أن حقيقة كون الشيطان وأعدائه يقيمون فى أعماق البحر
تغير من شخصية البحر مثلما لا تفسد أمراض الطفولة الأطفال.

وتحيط بمفهوم الشيطان دائرة تكاد تكون كاملة من الحكايات. وهو فى إحداها
مرتبط بالهولندى الطائر، ويرتبط فى أخرى بوهج القديس إلمو. وتروى الحكايات
عن كيفية إثارة الشيطان للعواصف، وما هو على قدر خاص من الأهمية بسلسلة كبيرة
من الحكايات الخاصة عن مواجهاته العدائية مع عدد لا يحصى من القديسين الذين

يتغلبون عليه فى النهاية. وهو يُرى فى الأعاصير وفى الغروب. ويقال إنه فى بعض الأحيان تخرج يد ضخمة نفسها من البحر وتمسك بالسفينة وتختفى بالسفينة وكل من فيها وما فيها.

تحتل إحدى تلك الحكايات عن الشيطان الذى يتعامل مع أحد القديسين أن أرويهما بإيجاز. فكما فعل نوح، بنى الشيطان سفينة ضخمة كى يضع فيها الأرواح التى استولى عليها. وقد صنع هذه السفينة من خشب ينمو فى الجحيم. كانت سفينة جميلة، غير أن رائحة الكبريت والدخان كانت تفوح منها؛ وفيها كان يحشد الجحيم بالفعل، فيدمر السفن وينشر المرض ويحمل على متنها الملعونين ويمارس المجون طوال الليل. وكان الفسلد والمجون من الشدة بحيث لفتا انتباه القديس إلمو الذى أوقفهما. أولاً: أضرم النار فى السفينة، ولما لم يرضه ذلك كل الرضى، أحدث فى جانبها ثقباً جعلها تهوى كالحجر، حيث كادت أن تأخذ إبليس معها. ولو لم يكن سباحاً ماهراً لتهوى إلى القاع ووجهه بالتالى ضربة قاتلة للمسيحية. ولكنه سبح إلى البر، ولكن سفينته مازالت حتى الآن تحترق تحت الماء. ويقال إن هذا الاحتراق هو الذى يسبب الوميض الفسفورى فى البحر. كما يقال إن الأضواء الفسفورية هى مشاعل الشيطان وإنه يبحث عن حطام كبريائه ومرحه، لانتشاله على ما يبدو^(٢).

فى إسكوتلندا هناك قدر كبير من الماثورات التى تحيط بكائن غريب هو ملك لوخلان King of Lochlann. وكان "لوخلان" اسماً قديماً للنرويج، ولكنه كان كذلك مصطلحاً خاصاً بمنطقة ميثولوجية فى الشمال^(٣). واليوم لا يبدو أن هناك تمييزاً واضحاً بين الممالك الميثولوجية والممالك الحقيقية. ونتيجة لذلك فإن مصائب هذا الملك (أو الملوك) تظهر بصورة كبيرة فى صنع الحكاية والأسطورة فى جزر هيبيريديز. وقد رأينا كيف أن ابنه ابتلعه النومة كوريفريكان، وتاهت ابنته وهى فى طريقها إلى سكوشا، وتحول عدد من أولاده الآخرين إلى حيوانات فقمة. وكان لدى الملوك أطفال آخرون يبدو أن نصيبهم لم يكن أفضل حالاً. ولابد أن هذه الحكايات كانت فى يوم من الأيام طويلة ومعقدة، أما الآن فهى تعيش بالكاد باعتبارها حوايت. والحكاية التالية رويت لنا فى إحدى الليالى فى جزر هيبيريديز الخارجية

منذ زمن بعيد كانت الشمس والقمر على نفس القدر من التوهج. وكانت الشمس تحكم بعض الوقت ويحكم القمر ما تبقى، وكان اليوم كله نهار. كان القمر امرأة التقت بملك لوخلان الذى نام معها وأصبح لديهما سرب من الأطفال معظمهم من البنات. ولسبب أو لآخر غارت الشمس من القمر - ربما لأنها كانت لديها ذرية كثيرة - فألقت عليها تعويذة اعتمدت وهجها وجعلتها أقل بكثير من الشمس. ولم تعتم الشمس ضياعها وحسب، بل مضت إلى ما هو أبعد من ذلك وحولت كل أطفالها إلى بجعات. وهذا هو السبب الذى يمكن أن يقوله لك أى شخص تقريباً، وهو أنه حين تنام الطيور يمكن رؤية البجع يسبح أو يطير عبر طريق القمر، أمه.

وفى أيرلندا يستमित التراث أكثر منه فى إسكوتلندا، ومع أن حكايات ملك لوخلان مشهورة، فإن الحكايات الأيرلندية من ماضيهم هم؛ وهو ماض غنى بالحكايات والأساطير ذات الطول الكبير. ومع أن أطول حكاية جمعتها فى أيرلندا استغرقت روايتها أكثر من ثلاث ساعات وكانت تتناول "زمن العمالقة"، فلا تزال هناك حكايات تستغرق روايتها أربعاً وعشرين ساعة؛ وما يزال هناك من يروونها ومن لديهم الاستعداد لسماعها.

من بين تلك الحكايات القديمة سلسلة تدور حول فيون (فن) العادل. وكان ذلك الشاب المميز قد ولد فى ظروف صعبة ورُبى فى كنف المخاطر فى البرية، ولكنه شب ليصبح رجلاً قوياً ممتازاً فى كل شئ؛ وخاصة فى القتال. وتتعلق إحدى مغامراته المشهورة بسمكة سلمون، وهى تساعد على فهم كون السلمون نون غيره من الأسماك على هذا القدر من الأهمية بين الشعب الغيلى. (فى إسكوتلندا يعد من النحس ذكر سمك السلمون، بينما نجد أنه محبوب فى أيرلندا لدرجة أنه يُصور على العملات المعدنية.)

حينذاك قال وداعاً لكريميل Crimall ومضى ليتعلم الشعر من فينيجاس Finegas، ذلك الشاعر الذى كان يعيش فى بون Boinn، ذلك أن الشعراء كانوا يظنون دائماً أن الشعر يتكشف لهم على حافة الماء. ولم يعطه اسمه، ولكنه اتخذ لنفسه اسم ليمن Deimne. مضت سبع سنوات على توقف فينيجاس فى بون يراقب

السلمون، ذلك أن النبوة كانت تقول إنه سوف يأكل سمكة سلمون المعرفة التي سوف تأتي إلى هناك، وسوف تكون لديه كل المعرفة بعد ذلك. وحين جاءت سمكة سلمون المعرفة أخيراً أتى به إلى حيث كان فن، وأمره بأن يشويها، ولكنه أمره بالآكل منها شيئاً. وحين أحضر له فن السمكة بعد قليل قال: "هل أكلت أى شيء منها على الإطلاق يا غلام؟" فرد فن قائلاً: "لا لم أكل منها شيئاً، غير أنى أحرقت إبهامى وأنا أزيل بثرة نتأت على الجلد، وبعد ذلك وضعت إبهامى فى فمى." فقال فينيجاس: "ما اسمك يا غلام؟" فقال "ييمن." "لا بل إن اسمك هو فن، وأنت الذى أعطى المعرفة فى النبوة وأنت أنا." وبذلك أعطى السمكة كلها فن، ومنذ ذلك الوقت أصبح لدى فن كل المعرفة التى جاءت من ثمرات شجرات بنى الحكمة التسع التى تنمو بجوار البئر الموجودة تحت البحر^(٤).

يقع بين هذه الحكايات والأساطير عدد كبير من الحكايات عن القديسين؛ وخاصة فى إسكوتلندا وأيرلندا. وليس هناك ما هو أشهر من تلك الحكايات التى تدور حول كولم سيب المعروف باسم القديس كولومبا الذى كان ملكاً فى أيرلندا فى وقت من الأوقات. وحين كان ملكاً أراد كتاباً مقدساً بعينه وخرج مقاتلاً للحصول عليه^(٥). وأسفرت الحرب عن مقتل ثلاثة آلاف شاب، مما أغضب الملك وأصابه بانهييار عصبى، وحين تعافى أقسم أن يصبح رجلاً مقدساً وينشر المسيحية بين أهل الأرض؛ وهو رد فعل لا نجده كثيراً بين الساسة.

بناء على ذلك سافر العاهل الغاضب إلى غرب أيرلندا وركب قارباً مع بعض الرفاق وساروا بمحاذاة الساحل، وعبروا إلى إسكوتلندا وأسسوا دير أيونا. وفى الطريق زاروا معظم الجزر والموانئ فى الغرب، ومن أيونا جاب مناطق شاسعة فى أنحاء إسكوتلندا. وفى رحلاته كانت له مغامرات كثيرة وأتى بمعجزات كثيرة حفظ بعضها أومنان Adomnan فى كتابه "حياة كولومبا" Life of Columba^(٦) وحفظ كثير غيرها فى نقاط عديدة نزل فيها على طول الساحل، وحتى الجزر؛ ذلك أنه هو الذى أمر البوذة الضخمة فى لوخ نيس بالتوقف والامتناع عن أكل الناس. وكشأن معظم ما ينقل عن سير القديسين، تُعنى بعض الحكايات التى تدور حوله بأعماله، بينما

تكون الحكايات الأخرى بوحى من وجوده. وفي فانيز هول Fanny's Hole بمقاطعة
دونيغال County Donigal حكا لنا عن زيارة الرجل المقدس لذلك المكان. وروت مسز
ماكبرايد:

كان كولم سيل رجل حرب - كان يحب الحرب - ولكنه كان قديسًا وذهب إلى أيونا
للتوبة، واستمتلكدة أين تقع، إننى لا أعرف، ولكن ربما تكون فى مكان ما من
إسكوتلندا. وفى طريقه إلى هناك توقف فى خليج ملروى. وكان كولم سيل من
دونويل Doonwell حيث توجد بئر مقبسة. وكان الناس يذهبون إلى هناك
بالعكازات ويعوبون بدونها. ولكن على أية حال كان هناك صيادان فى خليج
ملروى ورأياه أتيا. كانا يصطادان السلمون وكان معهما سمكتان فى القارب،
ولكنهما كانا يعلمان أن كولم سيل هو ذلك الرجل الضخم الذى يستجدى. فقط
كان على اللوام يطلب شيئًا، وكانا يعلمان أنه سوف يطلب السلمون؛ وإذا قالا إن
لديهما شيئًا فسوف يرغب فى الحصول عليه. ولذلك اتفقا كلاهما على أن يقولوا له
إنه ليس لديهما شيء بالرغم من سمكتى السلمون الكبيرتين اللتين معهما بالفعل
فى القارب.

وبالفعل جاء وسألها فقالا: "لا ليس لدينا شيء."

وحينذاك قال القديس كولم سيل "هذا أمر يدعو للأسف الشديد. فإذا لم يكن
لديكما شيء فإنكما من الآن سوف تصطادان الكثير فى خليج ملروى، ولكن إذا
كان معكما شيء فلن تصطادا أنتما ولا غيركما سمك السلمون فى خليج ملروى
بعد ذلك." وذهب إلى حال سبيله.

ومنذ ذلك الوقت ولدة عشرين سنة تقريباً لم يصطد أحد السلمون فى هذا الخليج،
وحينذاك خرج بعض الرجال فى قارب وقفزت سمكة سلمون وأمسك بها أحد
الرجال (وكان بروتستانتياً) وحين أمسكها قال لقد أخطأ القديس كولم سيل.
وساعتها قفزت السمكة من بين يديه وعادت إلى البحر. فقد كان القديس كولم
سيل محقاً على أية حال، لأنه لم يصطد أحد السلمون فى ذلك الخليج من يوم
اللعنة إلى يومنا هذا.

كما ذكرنا من قبل، فقد زار القديس كولم سيل كذلك جزيرة توري التي لا تبعد كثيراً عن خليج ملروي، حيث لقي بالور نو العين الشريرة، وهو أحد أسلاف فن، مصرعه. وفي ذلك الوقت كانت الجزيرة مليئة بالوثنيين بقيادة رجل اسمه دوجان Dou-gan، وحين رأوا الرجل المقدس آتياً تجمعوا على الشاطئ ليمنعوه من الهبوط عليه. إلا أن القديس تحدث مع دوجان، وأخيراً قالوا له إن بإمكانه الهبوط دون قتال. ووقتها كان لدى دوجان كلب أسود مخيف اشتهر بطابعه العنيف. وحين هبط كولم سيل كان الكلب على إحدى الصخور، وما إن بدأ الرجل المقدس يسير إلى الشاطئ حتى قفز الحيوان على رقبتة. وكانت القفزة من القوة بحيث غاصت أقدام الكلب في الصخر وشق نيله جلوداً حين انطلق. لم يفعل القديس القوى سوى أن رفع يده. توقف الكلب الشيطان فجأة في الهواء وسقط على الصخور التي أسفل منه، وانكسرت رقبتة. وبالنسبة لمن في نفوسهم شك، لا تزال الصخرة المشقوقة وآثار أقدام الحيوان تُرى في الحجر بجوار مكان الهبوط.

ويوجد على الجزيرة كذلك أخطر حجر ويُعرف باسم حجر اللعن، ولكنه مخفي حتى عن السكان المحليين أنفسهم. فقد تركه القديس الطيب هناك لحماية الناس، حيث لم يكن لديهم أية وسيلة دفاع أخرى، وقد قدم لهم خدمة جليلة. وكان مكتوباً على الحجر باللاتينية "أدرني برفق ولا تؤذني". فإذا تعرض شخص ما بأذى لآخر أو إذا كانت الجزيرة في خطر، فإن كل ما هو مطلوب عمله هو وضع اليد على الحجر وإدارته مع ذكر اسم المعتدي. وسوف يتدفق الدم من الحجر ويسقط الشخص المعتدى صريعاً. وكانت آخر مرة استخدم فيها الحجر في ٢٢ سبتمبر عام ١٨٨٤ .

حدث أن تخلفت جزيرة توري عن دفع إيجاراتها، وأرسلت السفينة البريطانية "واسب" Wasp وبها مفرزة صغيرة للتحصيل. علم أهل الجزيرة بما كان يجري وحملوا الحجر إلى الشاطئ. وعند الغروب تماماً شوهدت "واسب" في عرض البحر ووضع الحجر لعمل. في تلك الليلة خيم الضباب، وفي الصباح لم ير أحد "واسب". وفي النهاية أُلقت الأمواج بطاقمها جثثاً ولكن أحداً لم يسمع شيئاً عن السفينة قط. وبعد ذلك أصبح تحصيل الإيجارات حدثاً عشوائياً وأُخفي الحجر، ذلك أنه اعتُبر سلاحاً أخطر من أن يكون متاحاً للجميع.

يبدو أن أحجار اللعن تلك كانت شائعة في أيرلندا في وقت من الأوقات. فطبقاً لما يقوله البروفيسور سيموس ديلارجي Seamus Delargy كان هناك حجران في كيلكُمين رويدز Kilcummin Roads بعيداً إلى الجنوب، غير أن الناس كانوا يرهّبون قوتها إلى حد أنهم ألقوا بهما في البحر^(٧).

لم يكن القديسون وحدهم الذين يقفون في متحف التحول بين الحكاية والأسطورة، كما أن الرب ليس المصدر الوحيد للسحر. كما أن أيرلندا وإسكتلندا ليس المكانين الوحيدين اللذين تُروى فيهما تلك الحكايات. فقد روى لي الراحل ماك إيدوارد ليتش MacEdward Leach الحكاية التالية التي جمعها من كيب بريتون عام ١٩٤٩. وكما يحدث لمن يقرأها، فقد أدهشته على الفور بسمة العالم الجديد التي اتسمت بها فكرة من أفكار العالم القديم.

منذ سنوات بعيدة كان يعيش في كيب بريتون رجل إسكتلندي لديه ابن وحيد. توفيت زوجته وتزوج هو من امرأة كان لديها طفلان من زواج سابق جاءت بهما معها حين انتقلت إلى البيت الجديد. كانت المرأة تكره ابن زوجها. لم تكن تطعمه سوى بقايا الطعام وتجعله ينام على مرتبة محشوة بالقش وكانت تكلفه بشتى أنواع العمل الشاق، بينما كانت تعطي طفلها الأحسن من كل شيء.

تصادف أن طفلها كانا يحبان الموسيقى بشدة، وبذلت هي ما في وسعها كي يكونا عازفين جيدين. فقد أتت لهما بزمارة ليُعظما واشترت لكل منهما مزمارة قريبة ممتاز، ولكن حين أراد ابن زوجها العزف رفضت أولاً السماح له وبعد ذلك أعطته مزمارة صغيرة بانساً لا يكاد يخرج صوتاً.

وفي يوم من الأيام أرسلت زوجة الأب ذلك الصبي إلى الغابة ليقطع خشباً للمدفأة بينما بقي ابناها في البيت يعزفان على المزمارة. وكانت قد أعطته قطعتي خبز ليتفدى بهما.

لم يكن الصبي قد قطع مسافة كبيرة داخل الغابة حين رأى رجلاً عجوزاً جسمه صغير جداً وقد جلس مستنداً على شجرة. قال الرجل الصغير إنه يتضور جوعاً

وسأله شيئاً يأكله فأعطاه الصبى خبزه. أكله الرجل كله وطلب المزيد، فقيل له إن ذلك هو كل ما مع الصبى وإنه كان طعام غدائه فى واقع الأمر.

حينئذ قال الرجل الصغير "ما الذى تريد أن تفعله كأحسن ما يكون فى العالم كله؟" فرد عليه الصبى "أود أن أكون أعظم عازف لموسيقى القرب فى العالم" وحكى للرجل العجوز عن مزمارة وحياته الصعبة فى البيت.

قال الرجل الصغير "ضع أصابعك فى فمى وتخيل أنك تعزف الموسيقى" ففعل الصبى ذلك. "والآن عد إلى البيت وغداً ستكون أعظم زمار فى العالم".

فى اليوم التالى جاء رجل إلى باب البيت وقال للمرأة إنه من السيرك ويبحث عن زمار يعزف بين الفقرات. سرت المرأة بشدة وجاءت بولديها. عزف الولدان للرجل، وكان عزفهما من الجودة بحيث لم يمكنه اتخاذ قرار. وبينما كان يفكر فى الأمر لمح الصبى. "ما بال هذا، هل يعزف؟ كلا. إنه لا يمكنه العزف بالمرة. فكل ما لديه مزمارة صغيرة بائس".

"نعمه يجرب على أية حال".

أخذ الصبى مزمارة وعزف أحلى موسيقى سمعها الرجل فى حياته فاستأجره على الفور، وذهبا إلى السيرك حيث أصبح أعظم زمار فى العالم.

تصادف أن دُشنت سفينة جديدة بعد ذلك ببضع سنوات فى سيدنى [بنوفا سكوشا]، وكانوا يريدون زماراً للترفيه عن المسافرين واستأجروا هذا الصبى.

وفى يوم من الأيام واجهت الباخرة عاصفة رهيبة. فقد حدث بها شرخ وبدأت تفرق. كان ذلك قبل زمن اللاسلكى ولم يعرف القبطان ما يفعله إلى أن ظهر الزمار على منصة الريان. قال له "أنفى يداى بالنفخ على أصابعى وسوف أنقذك". فعل القبطان ذلك وبدأ الزمار فى العزف. عزف موسيقى حزينة وعزف بصوت من الارتفاع جعل الناس على الشاطئ على بعد ستة وعشرين ميلاً يسمعون عزفه وأرسلوا القوارب وأنقذوا الجميع.

كان امتنان أصحاب الشركة كبيراً حتى إنهم أعطوا الزمار مكافأة عظيمة وتقاعد هو في واد صغير. وكان اسم الزمار كامبل Campbell ومازال المكان الذي كان يعيش فيه يسمى "وادي الزمار" Piper's Glen .

ليست أحجار اللعن والمزامير الأشياء الوحيدة التي تنور حولها الحكايات. فكل ما يمكن ذكره تقريباً ربما تنور حكاية عنه في مكان ما، والشئ الذي يتصل به قدر كبير من المأثورات هو الجرس. ولكن لنتحدث أولاً عن أشياء أخرى تخرج أصواتاً.

منذ أقدم العصور والناس تظن أن عالم الأرواح تحركه الصفارات والشخاشيخ. في أغلب الأحيان كانت تلك الشخاشيخ تصنع من مواد خاصة (فقد أخبروني في كاريكاكو أن "التشاك تشاك" [الشخشيخة] الجيدة لابد أن تحتوى على بنور حمراء معينة؛ وهي نفس البنور التي يستخدمها الشخص حين يريد معروفاً من الشيطان). ويرى معظم أفراد المجتمع الشعبي أن الأشباح والأرواح تعيش في مكان ساكن وتتجول في نوبات ليلية ساكنة طويلة. ويعتقد العامة كذلك أن الأرواح أشبه بالطيف؛ "إن أتى كما الماء، وكما الريح أذهب." ويحدث هز الشخاشيخ ونفخ الصفارات ضجيجاً لا تطيقه الأرواح. كما أن نفخ الصفارات يستخدم الريح، والأرواح عادة أطياف تتحرك في الهواء^(٨).

تلتقى بعد الشخاشيخ بالأجراس، وهي أداة أكثر تطوراً من حفنة بنور حمراء داخل قرعة مجففة.

تشيع الأجراس في الفولكلور منذ زمن بعيد، وهي عادة ما ترتبط بصورة أو بأخرى بالعالم الآخر. فحين يغرق رجل فإن من المفترض أن آخر ما يسمعه صوت جرس. وحين تغرق سفينة ما فمن المفترض أن جرساً يدق قبيل غرقها. وحين يسمع رجل صحيح أجراساً في أذنه فهو يعرف أن صديقاً مات. وليس من السهل معرفة سبب تتمتع الأجراس بهذا القدر من الأهمية على وجه اليقين، ولكن من الممكن أن نتكهن ذلك السبب^(٩).

ترتبط الأجراس، كما هو حال الشخاشيخ من قبلها، بالطقوس الدينية، وهي تقوم بدور مهم في الأفراح والجنائز والحرم الكنسي. وعادة ما تصنع الأجراس من المعدن،

وخاصة الحديد أو الفضة أو الذهب أو معدن الأجراس. واثنان فقط من هذه المعادن، وهما الذهب والفضة، يعثر عليهما في حالة المعدن الخالص. وأحدهما أبيض بلون القمر، والآخر أصفر بلون الشمس، وعن طريق عملية التحول القديمة كان العامة ينسبون إلى هذين المعدنين صفات يعتقدون أنها من صفات الشمس والقمر. وبالطبع يُعثر على الحديد في الطبيعة في حالته الخالصة فقط على هيئة نيازك جاءت من أرض الخلود **Athanasia** . بل كان الحديد بمثابة القنبلة الذرية في عصره، ذلك أنه حين تعلم الإنسان تشكيله أصبح لديه سلاح رهيب يتغلب به على عدوه. ومن الطبيعي أن يكون صوت الحديد على الحديد مثيراً للإزعاج بالنسبة لمن يعتقدون أن الجنيات ومخلوقات العالم الآخر هي في الواقع أناس أبادهم الغزاة. أو كما قال كاتب قديم، فإن قرع الأجراس بشكل مبالغ فيه يزعج الأرواح^(١٠) .

ليست الشمندورات ذات الأجراس، والشمندورات ذات الأجراس الكهربائية، والشمندورات ذات الصفارات هي الأصوات الوحيدة التي يسمعها البحار. فهناك ما هو أكثر من ذلك. فهو يستمع إلى الأجراس السحرية التي تُسمع في الهواء وتحت الماء لتنبئه بحالة الطقس. وإذا كانت هناك عاصفة ستهب تُقرع الأجراس لإبعاد الريح، أما إذا كان إعصاراً فيُقرع الجرس في المؤخرة. وكانت الأجراس تُستخدم في بعض الأحيان كذلك لعلاج الجنون. إذ كانوا يستخدمون لذلك جرساً صغيراً يعلق على شواهد القبور في إسكوتلندا. وكان الجرس يُربط في أعلى رأس المصاب بالجنون ويظل في مكانه. وفي الصباح كانوا يغطسون المريض في بئر مقدس ويعلنون شفاؤه. وكانوا يعتقدون أن جرساً آخر، في أيرلندا، ممتاز في تخفيف آلام الوضع. وهذا في الأصل جرس سقط من الجنة، ولكن قبل أن يهبط في مقاطعة بونيغال غير لسانه رأيه وعاد إلى الجنة^(١١) .

من اللافت للانتباه أننا نلاحظ من حين لآخر أن هناك حكايات متشابهة. وقد نكرت من قبل جرس جزيرة كاهر العجيب وكيف أنه كاد يقضى على الأشخاص الذين حاولوا انتزاعه. وعلى الساحل الجنوبي الشرقي لإنجلترا كان هناك جرس مشابه يملكه رجل مقدس اسمه القديس جوف **St Gove** ؛ وهو صديق البحارة كافة. وكان القديس

جوف يعيش حياة شديدة التقشف، إلا أنه كان يسمح لنفسه بترف جرس فضى جميل. وكان القراصنة قد سرقوا الجرس وهربوا به، ولكن ما إن خرجت مرساتهم من الأرض حتى هبت عاصفة وفُقدت البحارة كافة ومعهم الجرس. إلا أن الجرس لم يبق كثيراً في قاع البحر وعاد إلى المكان الذي جاء منه ودفن نفسه في صخره. وحتى يومنا هذا يقال إنه إذا ضرب أحد الصخرة بدق الجرس^(١٢).

يتناثر في أنحاء مياه العالم عدد من الأجراس التي مازالت تدق؛ وهي عادة ما تحذر من قنوم العاصفة. ويذكر جونز أن حمولة أجراس أرسلت إلى فورابيري **Forrabury** لمنافسة أجراس **Tintagel**. تباهى قبطان السفينة بقدرته كبهار وغرقت السفينة. وكذلك في كورنول، وطبقاً لما ذكره أحد الإخباريين، هناك مدينة غرقت في البحر بسبب شرها، وحتى اليوم تدق الأجراس تحت الماء حين توشك العاصفة على الهبوب.

حين وصل كولبس إلى العالم الجديد رسا في ميناء كينجستون وربط دفته بشجرة قطن حريري لإبعاد الإغصان. (حكى لي مسز ويلسون **Mrs. Wilson** التي تعيش في ذلك المكان هذه الحكاية وأرنتى ثلاث حلقات سلسلة في عام ١٩٥٦). ومنذ ذلك الوقت والميناء، الذي يعد واحداً من المراسى المعتدلة القليلة في الجزيرة، تسكنه مجموعة شديدة الشراسة والشغب. وفي ظل قيادة مانسفيلت **Mansfelt** الذي قتله هنري مورجان **Henry Morgan** بالسهم، وبعد ذلك في ظل قيادة مورجان نفسه، أصبحت مدينة بورت رويال **Port Royal** واحدة من أشرس الثغور التي عرفها العالم وأكثرها فساداً. فكان القراصنة واللصوص الممثلة جيوبهم بالغنائم الأسبانية تصاحبهم السبايا ينغمسون في كل أنواع المجون المعروفة في ذلك الوقت. ورغم ذلك كان بالبلدة كاهن وكنيسة كبيرة، وإن لم يكن هناك ما يدل على أن أيّاً منهما كان لديه عمل كثير. ومع أن الكنيسة لم تكن على جدول أعمال معظم السكان، كان كثيرون منهم يشكون من أن جرس كنيسة القديس بولس غير مناسب ووضعوا مكانه جرساً أكبر منه، ومن المفارقة أن ذلك جرى من خلال إسهام الجمهور.

ومن حين لآخر كان القس وغيره ينبهون الناس إلى إصلاح أسلوب حياتهم، ولكن بلا جدوى. وفي النهاية تدخل الرب. ففي الساعة الحادية عشرة من السابع من يوليو

عام ١٦٩٢ ضربت بورت رويال سلسلة من الهزات الأرضية التي أعقبتها موجة من المد. وبحلول الظهر كان الأمر قد انتهى وكانت بورت رويال تترقد وفوقها "خمس قامات كاملة من الماء". وعلى عكس المعتقد المحلي، هلك ربع السكان فقط، ولكن الكنز الذي هناك يفوق الخيال. وتقول الحكايات المحلية إن المدينة هبطت وهي واقفة وظل الجرس في البرج. وهناك، وقبل الأعاصير وغيرها من الأحداث المأساوية، يدق الجرس في الوقت المناسب لتحذير البحارة من الخطر الوشيك. ورغم العثور على الجرس ومعه كميات كبيرة من الكنوز، مازال البحارة في المنطقة يعتقدون أنه يدق في أوقات الخطر^(١٢).

تقودنا هذه الحكاية بطريقة طبيعية جداً إلى الأسطورة التاريخية في حد ذاتها، وكذلك إلى مناقشة مصداقية الأساطير والأبطال الأسطوريين. وفي السنوات الأخيرة كان المؤرخون ينظرون بريية إلى الأساطير التاريخية، وبذل بعضهم جهداً ضخماً لبيان ذلك، لأنه لا يمكن دائماً دعمها بالأدلة. ولأنه مشكوك فيها، ولأنه لا أساس لها من الصحة. والواقع أن الأسطورة واحدة من الوسائل الرئيسية التي كان العامة يتناقلون بها التاريخ.

هناك كذلك شعور سائد بين الباحثين بأن الأسطورة (التاريخ الشعبي) لا أساس لها من الصحة لأنها لا تبرز الأمور الصحيحة أو المهمة في الماضي التاريخي، ولا تفسرها التفسير اللائق. وإذا استخدم ذلك كمعيار للقياس لعانى الكثير من كتب التاريخ التي كتبت في الماضي معاناة شديدة. والواقع أن كتاب جيبون "Gibbon" قيام الإمبراطورية الرومانية وانهارها سوف يكون قائماً على أساس غير متين إلى حد ما إن نحن حللناه بهذه الطريقة. ولكن إذا كان التاريخ هو الحافظ للماضي الذي يُفسر في ضوء القيم الثقافية للمؤرخ، فحينئذ يكون العامة قد نجحوا نجاحاً مدهشاً، ذلك أن قيمهم الثقافية مختلفة عن قيم المفكرين الثقافية.

ولكى يظل عنصر بعينه باقياً - شفاهياً على وجد التحديد - لابد أن يكون له مغزى أكبر من غيره. وفي الأساطير، يتجسد هذا في البطل، سواء أكان إنساناً أم جماداً، قديساً أم خاطئاً. ويرى العامة الأنجلو سكسونيون أن البطل لابد أن يبدى قدراً كبيراً من القوة، ولابد أن يتحمل مشاق شديدة، ولابد أن تكون لديه شجاعة عظيمة. وحين

ينتصر قد يمكنه التباهى بانتصاره، وحين يخسر لابد أن يخسر بشجاعة، حيث يتغلب عليه بحر من المشاكل.

أورد اللورد لاجلان Lord Laglan فى كتابه "البطل" The Hero، الذى يحاول إثبات أن المسيح لم يكن له وجود على الأرض، قائمة بكل الصفات التى يشترك فيها كل الأبطال العظام وأوضح أن ذلك أمر يبعث على الضحك. والحقيقة هى أنه لو لم تكن لهم تلك الصفات لما برزوا بين العامة، تماماً مثلما لا يمكن للسياسى أن يبرز بين أقرانه بدون الخداع. وسوف أناقش عدداً من الأبطال الشعبين فى هذا الفصل. وقد كانوا جميعاً رجالاً عظام، وكانوا جميعاً رجالاً أقوياء، وكانوا جميعاً على قدر كبير من الشجاعة، وأنجزوا جميعاً أعمالاً مستحيلة وماتوا - إذا كان الموت جزءاً من حكايتهم - مثل بيوولف Beowulf، وهم يقاتلون فى مواجهة صعب جمة. ولم يميز أحدهم لذكائه أو لثروته أو لصلاته العائلية.

حين يتذكر البحارة رجلاً ما أو حكاية ما، باعتباره رجلاً بارزاً أو باعتبارها حكاية بارزة، لابد أن نعرف أن هذا أمر عادى. وبما أن غرق السفن وعمليات الإنقاذ تمثل شريحة كبيرة من أساطير البحارة، فلا بد من تقديم نموذجين مختصرين للثنين بالترتيب.

منذ عدة سنوات جنحت سفينة شحن فى بلاكووتر بانك Blackwater Bank قبالة الساحل الشرقى من أيرلندا. كانت الريح شديدة وكان البحر رهيب يندفع للخارج. وحين شاهد أهل روسلير Rosslear السهام النارية تنطلق أنزلوا قارب الإنقاذ واتجهوا نحو السفينة الغارقة. ومما يؤسف له أن البحر قلب قارب الإنقاذ مرتين قبل أن يبتعد كثيراً عن اليابسة. وفى إحدى المرتين فقد رجلين وفى المرة الأخرى فقد رجلاً واحداً. وفى كل مرة كان يعود ليأتى بمزيد من الرجال، وكان المزيد من الرجال على استعداد للذهاب.

وحين ذهب القارب أخيراً إلى سفينة الشحن كان الطقس "شديد السوء" بحيث لم يمكنه الاقتراب منها. كان أفراد طاقم السفينة الجانحة قد صعدوا على الأشرعة ودخل الماء بدن السفينة. درس قائد قارب الإنقاذ الموقف ثم استدار ليكون عند الجانب المواجه

للريح من السفينة وانتظر الفرصة وحين جاءت موجة كبيرة زود سرعة المحرك ومر من فوق السفينة على موجة طويلة، والتقط الأحياء وذهب. فعل ذلك ثلاث مرات قبل أن يعود إلى الميناء بالأحياء كافة. وكان التعليق الوحيد الذى صدر عن الإخبارى بشأن الحكاية هو " لا أفهم ذلك. لابد أن قائد ذلك القارب لم يذهب إلى البحر منذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا."

قبل وضع أعمال الإنقاذ فى أيدي مصلحة الإيرادات الداخلية فى الولايات المتحدة كانت الجمعية الإنسانية **Humane Society** تتولى ذلك. وتحتوى حوليات تلك المنظمة الكثير من روايات الإنقاذ التى تشبه المعجزات. ذات يوم فى شهر يناير قبالة لونغ أيلاند، أنزل قارب البحر وملأه الماء ست عشرة مرة قبل أن يتحرر من الأمواج فى المرة السابعة عشرة. وفى كيب كُد فى يناير ١٨٦٦ جنحت السفينة الشراعية "كريستينا" **Christina** وعلى متنها طاقم من خمسة أفراد ومخزن مليء بالفحم فى هوز شول **Hawes Shoal**. وكان ذلك يوم أحد وكانت هناك عاصفة ثلجية ورياح شديدة. وبحلول الليل كان أفراد الطاقم كافة قد صعدوا على الأشرعة وتجمد الربان حتى الموت. ظل وكيل القبطان **Tallman** معلقاً وهو يراقب أبراج كنائس مدينته أوسترفيل **Oster-ville** التى كانت يراها من خلال الثلج. وتجمد أفراد طاقمه الواحد تلو الآخر حتى الموت، وكان آخرهم الخادم. وفى النهاية أصبح **Tollman** محاطاً بالثلج ومجمداً فى الشراع. وأخيراً اعتدل الطقس وأخذ قارب إنقاذ من عليه يوم الخميس. فقد **Tollman** قدميه وأصابه، ولكنه بقى على قيد الحياة^(١٤).

تلك هى أنواع الأحداث الشائعة. وأود توضيح تلك الملاحظات بحكائيتين، إحداهما من القرن السادس عشر والأخرى من القرن الثامن عشر. وقد تناول الاثنيتين مؤرخون مدربون وحفظهما العامة كذلك. تتعلق الأولى بالأرمادا الأسبانية، أما الثانية فهى عن غرق سفينة مهمة فى جزر سيلى^(*) **Scilly Isles**.

ابن بيج سايرز **Peig Sayers** راوى الحكايات الأيرلندى العظيم، صياد السمك السابق، رجل عجوز الآن يعيش فى قرية صغيرة تسمى فيكارزتاون **Vickarstown** فى

(*) مجموعة جزر تقع جنوب غربى لانز إند بإنجلترا تضم حوالى ١٤٠ جزيرة. (المترجم).

دنمور هيد Unmore Head وهى أقصى رأس ناحية الغرب فى أيرلندا. ويقع أمامه لسان بلاسكيت Blasket Sound وقبل ذلك جزر بلاسكيت Blasket Islands حيثما ولد. واسمه هو مايكل جوهين Michael Guhen، وهو واحد من آخر الرواة الأيرلنديين، وقد زرته فى يوم عاصف وروى لى الحكاية التالية :

هذه هى الحكاية التى سمعتها عن الأمير الذى يسمونه أمير أسبانيا، وكان يحارب فى تلك المرة إنجلترا، يحارب قوة إنجلترا الجبارة. ويقول العجائز إنه كان رجلاً مجنوناً لأنه يحارب الإمبراطورية البريطانية، لأنه يعرف دائماً أنه لابد أن يستسلم فى النهاية، المجال النهائى، ولكنه أجبر على الذهاب إلى سميرويك هاربور Smerwick Harbour فى بداية العام، فى مستهل العام. فى البداية، فى يناير ربما، أو ربما بعد يناير، وفى الوقت الذى كان فيه الطقس شديد السوء فى ساحل أيرلندا الغربى، البحر هائج، والأمطار غزيرة، والعواصف مستمرة دائماً. ولكن قبل ذلك أوا إلى سميرويك هاربور وبقوا هناك مع الأيرلنديين بإجمالى القوة التى هناك - عن طريق شخص ما فى ذلك الوقت لا أرى لماذا ولكنى أسمع أنه كذلك وكان رجاله يحاربون الأسبان. لم يسمحوا لهم بالنخول والنزول على الشاطئ واضطروا للبقاء فى الميناء.

ولكن بعد ذلك جاءت أخبار بأن الفرقاطات الإنجليزية تحاصروهم بالكامل خارج الميناء، عند البوغاز. وحينئذ قال الأمير للأميرال إنهم لابد أن يلونوا بالفرار، أن يندفعوا خارجين ويحطموا الطوق المفروض عليهم عند البوغاز. فهم كما قلت حاصروهم وأماتوهم جوعاً. كان عدوهم فى الداخل أسوأ من عدوهم فى الخارج. طلب الأميرال من الرجال أن يشقوا طريقهم ويخرجوا ولكنهم لم يفعلوا وحينئذ ذهب الأمير إلى سفينة الأميرال، وحين ذهب الأمير تشجع الأميرال وشقوا طريقهم وسط الفرقاطات البريطانية التى كانت عند البوغاز وأبحروا بعيداً. لم يكن لديهم سوى سفن من نوع القانس، وهى نوع من الفرقاطة كانت تسير بالأشعة فى ذلك الوقت. لم تكن هناك بواخر ولا شىء كهذا وإنما شراع، وأبحروا خارجين وكانت الرياح شمالية شرقية وبدأت تتحرك وكان يحاربون ليخرجوا من بين الفرقاطات البريطانية ولم يتبق بعد المعركة سوى ست سفن فقط.

بقيت ست سفن أسبانية اخترقت الحصار. وقد جاهدت المد والأمواج والرياح إلى أن وصلت إلى لسان بلاسكيت وكان ذلك المكان رهيباً في ذلك اليوم وسمعوا [سمعت] العجائز يقولون إنه أسوأ يوم شاهدوه. فقد جاء ذلك الإعصار من الجنوب. الرياح العالية والمراسي والأشجار وكان المكان رهيباً بسبب الأمواج الطويلة غير المنقطعة. أمواج تصل إلى عنان السماء وزيد. كانت السفن تتأرجح وتهتز وتمزقت أشرعتها وصارت خرقاً بالية إلى أن وصلت إلى شاطئ بلاسكيت.

وحين وصلت إلى شاطئ بلاسكيت كان هناك تيار شديد يمر عبر فجوة صغيرة هناك يسمونه "الجزر" وكان مكاناً شديداً بالسوء بالنسبة للرسو وتركوا مراسيهم في وسط الجزر وكان الجزر قوياً جداً وأخذ الماء يجرفهم ناحية البحر واضطروا لترك مراسيهم. ستة مراسي. مرساة صلب، ومرساة من النحاس الأحمر تركنا هناك بين نمرور وجزيرة بلاسكيت. تركوا المرساة وتحطموا إلى فتات على صخرة جوب Goub . ست سفن. واندفع الكبار والصغار من أهل جزيرة بلاسكيت إلى جوب، أقرب رأس إلى نمرور، وكانوا يقفون هناك ومعهم حبال يحاولون إنقاذ بعض أفراد الطاقم، ولكن لم تنقذ أية روح حية. فقد تحطموا جميعاً وغرقوا.

عبرت سفينة الأميرال كوين أوف ذا روزاري "Queen of the Rosarie" شاطئ بلاسكيت كذلك وألقت بمرساتها أيضاً ولكن ذلك لم يكن بالأمر الحسن. فقد انجرفت وكانت ستتخطم بعد دقائق قليلة جداً على جوب فتاتاً. ولكنهم نجوا وحمتهم من الصخور رمال قليلة واستمروا في الإبحار متجهين إلى سلاي هيد Slay Head اتجهوا إلى سلاي هيد وكانت هناك صخرة كبيرة وسط مضيق بلاسكيت بين نمرور وجوب، وتلك الصخرة التي هناك بها حجر مستوى قمته عريضة وليس شديد الخطورة على الإطلاق، ولكن حين اصطدمت السفينة بذلك الحجر - يقول العجائز إنها لم تصطدم - لم يحدث الحجر أى ضرر. ولكن عاصفة قوية أتت وانقلبت السفينة رأساً على عقب وغرق أفراد الطاقم كافة ما عدا صبي صغير في الثامنة من العمر. كان ابن الأميرال وكان قد ربط نفسه في حوض - برميل - برميل صغير وربط نفسه بحبل على البرميل وألقت الأمواج بالبرميل على

البر عند كورسا ران نيو Coursa Rahn Neu - شاطئ كومينو Comino Strand. وصل إلى هناك في الصباح وأخذوه إلى البيت وأطعموه. قدموا له الغذاء والرعاية لمدة يوم أو يومين وبعد ذلك حكى القصة. ولكن كان من الصعب جداً فهمه. فلم يفهموا منه كلمة واحدة لأنه كان أسبانياً ويتحدث الأسبانية وهم لم يكونوا يفهمون الأسبانية في ذلك الوقت .

ولكنه ذهب بعد ذلك إلى كورك Cork . ذهب هناك إلى المكتب، المكتب البريطاني، وحكى القصة وبعد ذلك بحثوا عن الأمير وبعض الجثث الأخرى، وبعد بضعة أيام عثروا على جثة الأمير بجانب صخرة دنكين Dunquin ووضعوه على ملاءات ولفوه في الملاءات وبعد ذلك أدخلوه هنا في حديقة فيكارزتاون Vickerstown ودفنوه هناك وهذا ما يقوله العجائز على أية حال. دفنوه هناك ولكنهم يقولون؛ سمعت من امرأة عجوز في جزيرة بلاسكيت - كان عمرها أربعاً وثمانين أو خمساً وثمانين سنة - أنه يمكنها أن تضع إصبعها على المكان الذي دُفن فيه أمير نورماندى. فقد انتهى على جزيرة بلاسكيت حيث كان الحصن، فندق بيرس Pierce's Hotel وهي تعرف أنه كان هناك بحار أسباني آخر وضع في المقبرة ذاتها.

ولكن بما أن الناس حولها لم يكونوا يفهمون أية كلمة أسبانية فربما يكون الأميرال قد دُفن هنا في فيكارزتاون ودُفن الأمير على الجزيرة، ولكنهم لولا الصبى ما عرفوا الأمير. وسيكون الأميرال هناك. وقد روى حكاية حين دُفن أمير أسبانيا في فيكارزتاون في قطعة أرض داخل حديقة، حديقة صغيرة، وأن الخبر بعد فترة من الزمن حين دُفن سمعت أمى العجوز تقول إن الناس جاؤا من أسبانيا، سادة محترمون من أسبانيا، لزيارة المقبرة وحين رأوا المكان الذي دُفن فيه، هنا في دنكين، قالوا إنه دُفن في أرحب وأجمل مكان يمكن أن يجده، أو يجده أى شخص آخر، وتركوه هناك. لم يأخذوه قط. تركوا عظامه هناك لتتحلل: وتلك هي حكاية أمير نورماندى وقالوا، وسيقول كثيرون الشيء نفسه، إنه كان غيباً في محاربته [البريطانيون] .

كل تلك الأحداث التى فى هذه الأسطورة وقعت بالفعل، وإن حدث خلط بين جادئين كانت بينهما سنوات عديدة. فقد ذهب ريكالدى Recalde إلى سميرويك هاربر

فى رحلة أخرى إلى أيرلندا قبل ذلك ببضع سنوات. واضطر وقتها أن ينفذ بجلده وربما مر من المضيق، لأن المسافة طويلة حول جزر بلاسكيت^(١٥).

هذا ما يقول المؤرخون إنه حدث حين كان الأميرال كلاودزلى **Admiral Cloudsly** عائداً من رحلة ناجحة على الجنوب ومعه خمس عشرة سفينة: فى يوم الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٧٠٧ وفى طقس سيئ، كان قبالة مدخل البحر الضيق (المانش). دعا إلى اجتماع لتحديد موقفه. وافق الجميع على المسار الذى يبحرون فيه ما عدا ربان السفينة "لينوكس" **Lennox** الذى كان قد اخترع شكلاً محسناً من الملاحة. فقد قال إن المسار المقترح سوف يجعل الأسطول يمر على جزر سيلى. ولم تؤد اعتراضاته إلا إلى مضايقة الأميرال الذى اشتهر بالجنوح. جرى توبيخ الربان وأبحرت السفن فى المسار الذى تحدد لها.

ازداد الطقس سوءاً وهبت العاصفة. وبينما كان الأسطول بكامله يندفع أمامها تكوم عند جزر سيلى حوالى الساعة الثامنة مساءً وغرق ما يزيد على ألفى رجل. وكان الأميرال من بين عدد قليل وصل إلى الشاطئ، وقتله أهل الجزيرة على الفور ودفنوه بعد أن قطعوا أصابعه. وبعد ذلك أخرج من قبره وأعيد دفنه فى كنيسة ويستمنستر^(*) **Westminster Abbey** حيث يمكن للفضوليين رؤية مرقد هذا الرجل المتهور، ويمكن الغوص للبحث عن كنزه؛ الذى حُدد مكانه مؤخراً ويجرى استخراجة. كل هذا وثقه المؤرخون^(١٦).

أما هذه فهى الطريقة التى يتذكر بها العامة الحدث:

طبقاً لما جاء فى الحكاية التى رواها كورنول، فقد حدد كلاودزلى مصيره المحتوم فى السفينة "أسوسيشن" **Association** حين توجه بحار على متن السفينة كان قد جاء من جزر سيلى إلى المؤخرة وساق حججه المعارضة لرأى قائده، قائلاً إنهم إذا اتبعوا هذا المسار فسوف يجنحون. ثار الأميرال وأمر بشتق الرجل لعصيانته الأوامر.

(*) اشتهرت كنيسة القديس بطرس فى لندن بهذا الاسم، وهى من أهم آثار بريطانيا التاريخية. وقد بدأ العمل فى بنائها فى القرن الثالث عشر واستمرت الإضافات حتى القرن الثامن عشر حين بنى برجها الشهير (الترجم).

قبيل شفق الرجل تلا المزمور ١٠٩(*) وقال إن أيًا ممن رأوه لن يعيش ليحكى ما رأى. وتم الشفق كما هو مقرر، ووضعت الجثة في سرير معلق وربطت في قدميه طلقة مدفع وألقى بها من على السفينة. وعلى الفور هبت العاصفة وظهرت الجثة ناظرة إلى السفينة التي ظلت تتبعها إلى أن جنحت. ألقت الأمواج بالقبطان عاريًا على الشاطئ على غطاء كوة مع كلب صغير. كان ميتًا ودُفن في مقبرة رفضت أن تظل مربومة ولم ينبت عليها عشب قط^(١٧).

روى الراوى حكاية أخرى ليست تاريخية بالمعنى نفسه. إلا أنها تعد نموذجًا لكيفية استمرار التراث القديم نفسه وإعداد للماثورات الجديدة. كما أنها تبين في الوقت ذاته كيف أن الظروف المحيطة يمكنها في بعض الأحيان تشكيل الحكاية. ولتحقيق هذه الغاية هناك بعض الملاحظات المتصلة بالموضوع.

على مقربة من فيكارزتاون على الطريق الساحلى إلى دينجل Dingle يوجد عدد كبير من أكواخ على هيئة خلايا النحل يقال إن الذين بنوها هم النُسَّاك المسيحيون الأوائل. وهى مبنية من الحجر وبها عدد من الحجيرات العميقة فى الأرض. ووراء تلك الأكواخ ترى جزر الموتى حيث كانوا يعتقدون أن أرواح كل الراحلين تذهب إلى هناك بعد المرور عبر أيرلندا. وهذه شريحة من الحكاية. ويهتم جزء آخر بفكرة أن الموتى يساعدون الناس، مقرونة باعتقاد فى الأشباح وفى القوة الشيطانية للكائنات السفلية. وهناك كذلك ماثور خاص بـ"كلاب الجحيم" (وهى سوداء عادة) المشتاقة إلى أرواح الناس. (لا ينبغي أن يبكى المشيعون على الجثمان وهم يشيعونه، لكى لا تسمع كلاب الجحيم وتأتى وتمزق الروح إربًا.) وأخيرًا تعكس الحكاية هجرة الأيرلنديين الضخمة إلى أمريكا.

منذ حوالى عشرين سنة كان فلاح يحفر فى حقل أعلى الاكواخ التى على هيئة خلايا النحل حين عثر بالصدفة على نفق ضخم يمتد داخل التل. وقبل أن يتمكن

(*) يتضمن المزمور ١٠٩ دعاء المظلوم على ظالمه. ومن بين ما يدعو به عليه " لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر. ليكن بنوه أيتامًا وامراته أرملة. ليتيه بنوه تيهانا ويستعطوا. ويلتمسوا خبزًا من خربهم. ليصطد المرابى كل ماله ولينهب الغرباء تعبته. لا يكن باسط رحمة ولا يكن مترأف على يتاماه (المترجم) .

من استكشافه أخذت الحجارة تتساقط على جانب الجبل واضطر لأن يجرى لينجو بحياته تاركًا النفق مفتوحًا. وبعد ذلك بوقت قصير عثر على رجلين ميتتين بالقرب من المكان، وكانت ملابسهما وجسميهما ممزقة إربًا. لقد كانا مشوهين تشويهاً ضخماً حتى إن الناس كانت تخاف الذهاب إلى هناك بعد حلول الظلام.

مضى عام وقتل رجل آخر في نفس المكان. وقال البعض إن اللصوص قتلوه لسرقة ذهبه، ولكن تلك لم تكن هي الحقيقة، وكانت نتيجة القتل أن أحداً لم يكن يقترب من المكان القريب من النفق بالليل.

وذات مساء كان رجل على قبر كبير من الشجاعة يشرب الخمر في أحد البارات وقال إنه لا يخاف أى شيء وإنه سيعود إلى بيته مروراً بالكهف. تجادل صاحب البار معه ورجاه ألا يذهب. بل إنه عرض عليه أن يستضيفه مجاناً في تلك الليلة ولكن الشاب لم يستمع إليه. قال الشاب "أرجوك أن تنتظر حتى يؤذن الديك" ولكن الشاب رفض مرة أخرى وخرج عائداً على قدميه إلى بيته.

لم يكن قد قطع مسافة طويلة حين التقى برجل آخر في الطريق وسارا معاً، ولكن لم ينطق أى منهما بكلمة. وبعد أن قطعاً مسافة قصيرة اندمَش الشاب الشجاع حين رأى الماء يخرج من حذاء رفيقه وسمع صوت ضغط الماء في كل مرة يخطو فيه خطوة. كان يرى أن ذلك غريب غير أنه لم يتكلم. وأخيراً بلغا مكاناً موحشاً تماماً في الطريق وتكلم الغريب.

سأله "هل أنت خائف؟"

كان رده "بعض الشيء."

"يجب ألا تخاف. فأتت الآن في أسوأ مستنقع، ولكنى معك، وما دمت تحت سيطرتى لن يصيبك أذى."

ظلا سائرين وبعد وقت قصير سأل الرجل مرة أخرى إن كان خائفاً. ومرة أخرى قال الشاب "قليلاً". فقال له الغريب إنه يجب ألا يخاف ولكن عليه المحافظة على شجاعته. قال للشاب الشجاع إنهما سرعان ما يصلان إلى مكان فيه كلبان، كلب

على كل جانب من جانبي الطريق وقد يحاولان تمزيقه، ولكن ما دمت معك ستكون في أمان."

ومن المؤكد أنهما لم يكونا قد سارا مسافة طويلة حين وصلا إلى الكلبين. كان على أحد جانبي الطريق كلب أبيض ضخ من نوع البولويج في رقبتة طوق وعلى الجانب الآخر كلب مثله؛ وحين اقتريا غنى البولويج الضخم أغنية أيرلندية شريرة^(١٨) وكذلك فعل الكلب الآخر. وقال الغريب "الآن يجب أن تكون شجاعاً. حافظ على شجاعتك ولا تخف، لأنني معك. تشجع."

حين اقتريا من الكلبين تربصاً به وكشرا عن أنيابهما وبدا مرعبين، ولكن الكلبين لم يلمسياه وقاده الغريب بسلام، وبعد أن مرا بسلام قال الغريب للشاب إنه شجاع بالفعل وإنه يعرفه منذ أن كان طفلاً صغيراً وإن كان هو لا ينكره. "أريدك أن تخبر والدك أن عمه من أمريكا أنقذك." وكان قد مات في أمريكا وجاء كل هذه المسافة عبر المحيط لينقذه.

"لقد جئت من مسافة بعيدة لأنقذك. أرسلني الرب من تلك المسافة البعيدة لأنقذك. وهذا هو سبب وجود الماء في حذائي."

سأله الشاب إن كان يود الذهاب إلى منزله لتناول كأس. "لا، لقد ذهبت إلى هناك من قبل. فقط قل لوالدك إن عمك هو الذي أنقذك وألا ينتظر المزيد من الخطابات أو النقود من أمريكا لأنني مت."

وبذلك اختفى الرجل ودخل الشاب الشجاع منزله مترنحاً "وراح في إغماء وراء إغماء وراء إغماء" عند المدخل. ظن أبوه أنه يحتضر وأرسل في طلب القس. جاء القس واعترف الرجل له وحكى له القصة كلها. ظل الرجل مريضاً لمدة أسبوعين ولكنه شفى أخيراً.

وصل القس إلى المكان الموجود فيه الكهف مرتدياً كل ملابس الكهنوتية وأقام قداساً في الهواء الطلق وأغلق النفق بحجر كبير. ومنذ ذلك الوقت أصبح الذهاب

إلى هناك فى أى وقت من الليل أو النهار مطمئناً. ولكنهم أزالوا بعد بضع سنوات كل الأحجار من النفق واستخدموها فى بناء طريق جديد ولم يهتم أحد بعد ذلك. تشير الحكاية السابقة كذلك إلى أن لدى البحارة ميلاً رومانسياً إلى طبيعتهم، وهم يحبون الحكاية ذات النهاية السعيدة التى تثبت وجود الرب فى السماء (بعيداً)، وأن كل شيء صحيح بالفعل فى العالم. وسجل هيو ميلر Hugh Miller هذه الحكاية من إسكوتلندا، حيث ينكر الناس الأخطاء زمنًا طويلاً وتصحح بعد أجيال، إن صححت.

أوى صيادان متجهان إلى موراى فيرث ذات ليلة عاصفة إلى خور صغير فى أعلاه كهف. شعرا بالضيق حين اكتشفا ثلاثة رجال سبقوهما إلى هناك؛ ثلاثة رجال كانوا فى عداة شديدة منذ سنوات، ذلك أنه بينما أصاب الهزال ويليام بيت Wil- liam BeTh (أحد الرجلين) فى سجن هولندى، تزوجا إيتشين أوف تاريات Eichen of Tarbat أخته واستولى على أملاكه. عاد إيتشين إلى إسكوتلندا وعند وفاة أخته أخرج إيتشين وولديه من أراضيه. ونتيجة لذلك ظلت الدماء تُراق بين العائلتين سنوات كثيرة، وهامم الآن رفاق فى أحد الكهوف أمام نار وقودها حطام السفن.

وربما لأن بيت وابنه كانا أقل عدداً تلك الليلة، فقد حلولا فض النزاع، ولكن الذكريات ثارت مع ثورة العاصفة، وغامر الرجلان الكهف وناما فى القارب (اتباعاً للمعتقد الإسكوتلندى بأن الشر لن يتبع الشخص إلى داخل البحر) تاركين الكهف لأبناء عائلة تاريات.

وحين طلع الصبح كانت العاصفة قد هدأت وعاد تاريات العجوز إلى بيته ولكن لم يُسمع شيء عن بيت وولده. بل إن الأمواج لم تلق بحطام على الشاطئ. بمرور السنين نسيهما الجميع، إلا أن فتاة صغيرة كانت تحب ابن بيت وأرملته التى ظلت شيئاً فشيئاً تمر بلوقات صعبة إلى أن باتت بعد خمس سنوات على أعتاب الموت. وأخذت تتدهور شيئاً فشيئاً وكذلك تاريات الكبير.

وأخيراً رأت أرملة بيت بعد خمس سنوات حُلماً نزلت فيه إلى قاع البحر ورأت كهفاً فيه عظام وسمعت صوتاً يقول "عودى إلى البيت لأنك سوف ترين ابنك قبل أن تعيشى هنا معى".

فى ذلك المساء زارها إيتشين تاريات وهبت عاصفة كبيرة. كان الرجل فى كرب شديد لأن ولديه كانا فى البحر وكانوا يسمعون طلقات الخطر تنطلق فوق العاصفة. وقرب طلوع الصبح هدأت العاصفة واتجه الرجل إلى البيت ليجد جثتى ولديه على الشاطئ. كانت الصدمة شديدة واستطاع بالكاد الوصول إلى البيت قبل أن ينهار.

وفى اليوم التالى ظهر رجل عند الكوخ ومعه قصة. فقد أَلقت العاصف ببيت الكبير وابنه بعيداً فى البحر منذ خمس سنوات وبعد ذلك التقطتهما سفينة متجهة إلى أمريكا الوسطى. وهناك جمعا ثروة من الذهب وهناك مات الأب. عاش الابن وعاد إلى إسكوتلندا إلى أمه وفتاته. وكان الرجل صاحب القصة هو بيت الشاب الذى أراد رؤية إيتشين أو تاريات.

كان الرجل العجوز يهذى وظل يقول إنه لا يمكنه تلاوة الصلوات، وأن روحى بيت وابنه تنتابه. أنكر أنه ساحر وأنه أثار العاصفة منذ خمس سنوات؛ أو أنه فعل أى شىء فيه ضرر لأى إنسان. ولكن أشباح هنيائه كانت لا تزال تنتابه وفى النهاية اعترف بأنه أمر بقطع الحبل الذى رُبِط به القارب. وفى تلك اللحظة فُتح الباب وبخل إرنست بيت. نظر الرجل العجوز وصرخ ومات^(١٩).

تأتى من جراند بانكس حكاية تعود إلى القرن التاسع عشر. وهى لا علاقة لها بالأميرالات أو الأساطيل أو الكنز، كما أنها لا تدور حول حدث أو شخص ذى أهمية كبيرة بالنسبة للكاتب أو التاريخ. ومع ذلك فإن حكاية هذا الرجل محفوظة فى أسطورة لأن بها عناصر مشتركة مع الحكايات الثلاث السابقة.

تبدأ الحكاية فى إحدى سفن صيد السمك فى أواخر العام. فى تلك الأيام كان تكتيك صيد السمك كما يلى: فى الصباح الباكر كانت السفينة الأم تتهاذى إلى اتجاه

الرياح ثم تنزل قواربها الصغيرة الواحد تلو الآخر. وكان كل قارب به رجلان، المراكبي وزميله، وكان القارب به بوصلة وزجاجة ماء وحوض الشبكة ودلو وبعض الطعم وهراوة وبوق. وبعد إنزال آخر قارب كانت السفينة التي يديرها الربان والطاهي والصبي إما أن تلقى بمرساتها أو تروح وتجيء ببطء عند الطرف المواجه للريح للخط الطويل من القوارب البالغ طول الواحد منها تسعة عشر قدماً ويمتد على طول الأفق. وفي نهاية اليوم تسير بسرعة على طول الخط وتجمع قطيعها الواحد تلو الآخر وترفعه ليستقر على متنها.

كان الشيء الرئيسي الذي يلى خوف الصياد من أن تدهسه باخرة هو الطقس. فلو غيرت الرياح لتجاهها قد تجد السفينة نفسها على الجانب المعاكس لاتجاه الرياح بالنسبة لقواربها وتضطر لفرد أشرعتها والاندفاع نحو الخط، وهي عملية طويلة وبطيئة. أما إذا كانت الرياح ضعيفة أو خيم الضباب أو انهزم الثلج فجأة، فإنها قد تفقد قارباً ربما يكون قد "شرد"؛ وهي أثقل كلمة على قلب المراكبي، ذلك أنه يكون على بعد ثلاثمائة ميل من أقرب بر، وضد الرياح الغربية السائدة تماماً.

للحد من هذا الخطر كانت السفينة تجهز ببوق ضخمة كانت تطلقه حين تتحرك لالتقاط رجالها، وكانت تطلقه باستمرار في الطقس الذي تصعب فيه الرؤية. وكانت القوارب بدورها تطلق أبواقها، ولكن كان من الصعب سماع الأبواق في الطقس العاصف. ويصدق ذلك بشكل خاص على حالة الثلج، الذي لم يكن يكتم الصوت ويعطى اتجاهًا خاطئاً له فحسب، بل كذلك يحجبه عن طريق الهسهسة التي تحدثها كل رقيقة منه حين تصطدم بالماء. وهذا هو ما حدث لهوارد بلاكبيرن Howard Blackburn . أطلق هوارد وزميله بوقهما واستمعاً، ولكن كل ما سمعاه هو هسهسة رقائق الثلج وصوت الرياح. كانا رجلين وحيدتين شاربين في شمال المحيط الأطلنطي ولم تكن أمامهما فرصة سوى نيوفاوندلاند، ولم يكن ذلك محتملاً على الإطلاق.

ورغم ذلك ألقوا بالصيد ليخففوا حمولة القارب واتجها ناحية نيوفاوندلاند. في البداية كان هوارد يجدف وزميله ينزح الماء، وبعد ذلك عكسا الأمر. وظلا يجدفان ويجدفان ويجدفان. وبعد فترة استسلم زميله لدرى وتجمد حتى الموت. استمر بلاكبيرن

فى التجديف، حيث كان يتوقف لنزح الماء لم يكن الأمر صعباً فى البداية ولكن الثلج تراكم على ققازيه. وبينما كان يتقضم الثلج سقط أحدهما فى الماء، ولكنه ظل يبذل الذى تبقى. ثم فقد ذلك الققاز ويدأت يداه تتجمدان. وحين أدرك بلاكبيرن ما يخبئه له القدر، جعل يديه فى وضع الإمساك بمقبض المجداف وغمسهما فى الماء ثم رفعهما فى الهواء إلى أصبح لديه خطاقلان متجمدان يتزلقان على مقبضى المجدافين. ظل يجدف فى العاصفة والثلج، وفى الليل والنهار، وريداً وريداً قلت المسافة التى تفصله عن اليابسة. كان يجدف بجذده، ويلحمة، وبعضلاته. وفى النهاية كان يجدف بعظام يديه المبيضة.

وفى الكريسماس دخل هوارد بلاكبيرن بقاربه الذى يغطيه الثلج فى خور على ساحل نيوفاوندلاند. وهناك وجد كوخاً ببنى أعلى الماء فجدف إليه. تكلم من أن زميله قد أخفى بشكل صحيح وربط القارب فى إحدى الدعامات. زحف إلى داخل الكوخ الذى كان مهجوراً، إلا أنه كان هناك موقد جاهز للاستعمال وبعض الخشب. بل كانت هناك أعواد ثقاب. ولكن القدر لم يكن قد أنهى لعبته معه بعد. فلم يكن هوارد بلاكبيرن قادراً على إشعال القار بيديه المكسورتين المتجمدتين، ولذلك استسلم وردد ليموت.

فى تلك الوقت تذكر أصحاب الكوخ، الذين كانوا يقيمون على مسافة منه، أنهم بحاجة إلى خشب، وبما أن الكريسماس اقترب فقد قررا إحضار بعضه من الكوخ. ربطوا الكلاب فى الزحافة ونهبوا إلى المعسكر. كان القارب أول ما شاهدوه، وبعد ذلك وجدوا بلاكبيرن وحملوه إلى البيت.

فقد بلاكبيرن يديه وأصابه ولكنه بقى على قيد الحياة. ليس ذلك فحسب، بل إنه بنى سفينة وعاد بها إلى إنجلترا ليشارك فى اليوبيل الماسى للملكة فكتوريا، مستخدماً خطاقلين بدلاً من يديه. كما قدم له أهل جلوسستر حانة تولى إدارتها وأصبح أعظم مقطر للويسكى فى جلوسستر، وقد عاش إلى أن أغلق حانته بناء على قانون تحريم صنع المسكرات، حيث يفترض أنه مات كسير القلب. وهكذا نجح القانون فيما فشلت فيه الطبيعة (٣٠).

لا يزال الناس فى ناساكايت يروون حكاية سفينة صيد الحيتان "إيسكس" Essex التى لا تختلف فى بعض جوانبها عن حكاية هوارد بلاكبيرن.

فمنذ قرن ونصف مضى كانت إيسكس تصطاد الحيتان في وسط المحيط الهادى. كانت القوارب تطارد الحوت وكان وكيل القبطان على متن السفينة حين جاء حوت ضخم من حيتان العنبر وتظر إلى السفينة. درسها بسرعة ثم اندفع نحوها بعنف. فى المرة الأولى ضرب ألواح حبال الصواري ولكنه فى المرة الثانية قلبها وجهاً لوجه وغرقت إيسكس قبل يتمكنوا من أخذ أى شىء منها سوى معدات الملاحه.

بعد أن غرقت سفينة صيد الحيتان لم يكن أمامهم سوى محاولة الوصول إلى أمريكا الجنوبية، على بعد ثلاثة آلاف ميل. كان طاقم بكامله مكون من عشرين رجلاً داخل ثلاثة قوارب لصيد الحيتان طول كل منها ٢٥ قدماً وعرضه ستة أقدام وتنصف. اتجهت القوارب ببطء شرقاً بلا طعام ولا ماء تقريباً. وبعد ثلاثين يوماً رست على جزيرة هندرسون Henderson المهجورة القريبة من بتكيرن Pitcairn، ولأنهم لم يكتووا يعرفون أين هم فقد اتجهوا إلى أمريكا الجنوبية. وإزديت مصيبتهم سوءاً لتتبع أسماك القرش لهم.

وفى اليوم الثامن والأربعين توفى رجل فى قارب وكيل القبطان. وتوفى آخر فى اليوم الثانى والثمانين، وأكلوه ويقوا على قيد الحياة بعد أن التقطتهم سفينة بعد سبعة وتسعين يوماً فى البحر. أما القاريان الآخران فقد كانت ظروفهما أشد سوءاً. فقبل التقاط الاثنين بقاء على قيد الحياة قبيل ساحل أمريكا الجنوبية، كلنا قد أكلنا أربعة من زملائهما. فقد مات أربعة من الجوع، أما الرابع، وهو أولين كوفين Owen Coffin ابن شقيق القبطان، فقد قُتل وأكل بعد سحب القرعة لمعرفة من يصيح طعاماً.

مع المفارقة الغريبة التى يبدو أنها تصاحب القدر، كانت السفينة التى التقطت القبطان بولارد Captain Polard هى سفينة صيد الحيتان "ديانا" Diana التى خرجت من نانتاكت وكان ريانها هو زيمرى كوفين Zimri Coffin. وتقول الأسطورة إنه والد أولين كوفين.

ولا تنتهى الحكاية عند هذا الحد. فقد تولى القبطان بولارد قيادة سفينة أخرى غرقت بعد اصطدامها بجرف فى المحيط الهادى. وقد التقط وانتهى به الحال حارساً ليلىاً فى نانتاكت. وتقدم وكيل القبطان تشيس Chase فى العمر وقيل إنه كان يخفى

كميات كبيرة من الطعام فى غرفته تحسباً لأن يجوع فى أى وقت. وقبيل وفاته تقابل مع شاب وسأله إن كان قد عرف أوين كوفين، وهو أحد أسلافه. "أعرفه؟ لماذا أيها الشاب، لقد أكلته" (٢١).

كانت حكاية "إيسكس" ومعها حكايات أخرى وأجزاء من الفولكلور البحرى جمعها مدرس غريب تحول إلى صياد حيتان وحولها إلى واحدة من أعظم الأساطير البحرية فى كل زمان، وهى "موبى ديك".

ليست الأساطير دائماً بحجم الأساطير التى أشرنا إليها حتى الآن. فهى فى أغلب الأحيان مجرد نواذر، كنتك النادرة التى رواها جون ليفيت John Leavitt عن طاقم رفض نزح المياه. وبدلاً من الاتجاه إلى الشاطئ كما كانوا يتوقعون، وجه القبطان سفينته ناحية البحر وقال قبل نزوله إلى قمرته: "وهو كذلك يا أولاد، اذهبوا والقوا بيد المضخة فى البحر. إن لدى أصدقاء كثيرين مثلكم فى الجحيم!".

تدور معظم هذه الحوادث حول شخص بمفرده؛ وهو بطل محلى أو بطل شعبى. وعادة ما يكون هؤلاء الأشخاص منعزلين؛ بمعنى أن يكونوا معروفين فقط فى مين أو خليج تشيسابيك. وهناك كثيرون من هؤلاء، وهو يحققون نجاحاً كبيراً فى اختبار الزمن. ففي خليج تشيسابيك هناك ليكين بيلي برادشو Lickin' Billy Bradshaw والقس جوشوا توماس Reverend Joshua Thomas وهو أحد الوعاظ القلائل الذين أصبحوا أبطالاً فى نظر البحارة.

يروى البحارة على جزيرة تانجير Tangier Island نواذر كثيرة عن زمن ذلك الرجل العظيم. يحكى أحدهم عن مساعده الذى لم يسمح له جوشوا قط بإلقاء الموعظة. أصاب اليأس الشاب، إلى أن جاء يوم طلب منه فيه رئيسه أن يعد موعظة ليوم الأحد التالى. فرح الشاب وأعد موعظة رائعة وحفظها غيباً. وتوالت أيام الأحاد ووجد القس الصغير نفسه يوماً على المنبر وقد أصابته حالة من التوتر الشديد.

"اليوم لدى موعظة لكم. إنها موعظة ذات رسالة، وأريدكم جميعاً أن تدرسوا الموعظة وتروا ما يمكن أن تتعلموه منها. والنص هو: "والقى سبع مراتى ..." عند هذه

النقطة وجد القس الشاب أن ذهنه فارغ تماماً. أخذ يتطلع حوله ولكن لم يكن هناك من معين. الواقع أن الرب تخطى عنه. "وألقى بسبعة مراسى ... لا شيء". وألقى سبع مراسى ... ليس هناك شيء بعد. كرر الشاب العبارة سبع مرات وهو فى حالة من اليأس، وهنا صاح ريان عجوز فى آخر الكنسية "هذا صحيح. لقد فهمنا. هذه تسع وأربعون مرساة أنزلها، ويعلم الرب أنه ما من سفينة تسير بكل هذه المعدات الأرضية" (٢٢).

وجنوباً فى مين نجد هوراشو لينرز Horatio Leathers الذى كان يعيش بالقرب من بورتلاند، وهو حداد يمكنه رفع برميل سكر على كتفه ويسير به، أو يرفع السندان وذراعه مفرودة. وفى مرة ضرب ثوراً قاوم تركيب حذوة له فتوقعه ساكناً. وإلى الشرق هناك فريد كارفر Fred Carver ربان السفينة "يانكستيبوبين" Yankstebooden التى تكثر فيها اليرقات وكان يقضم قطع اللحم من "الماشية" (الثيران) حين يكون غاضباً.

وفى الشرق كذلك، "على طريق ماكياس" كان يعيش بارنى بيل Brney Beal من جونزبورت Jonesport. كان بارنى رجلاً ضخماً يحب الجلوس على كرسي هزاز ويضع راحتي يديه على الأرض. لم يبحث يوماً عن المشاكل، ولكنها حين كانت تأتي كان يتمكن من إيقافها. وذات مرة فى بورتلاند ألقى رجلين من على جانب أحد المنازل حين قاوماه، وقتل حصان جر هناك بلكمة بين عينيه حين أوشك على دهمه.

عاش بارنى تقريباً فى زمن الثورة الأمريكية وحرب ١٨١٢. وفى يوم من الأيام خرج بشبكة صيده حين مرت سفينة حربية بريطانية وأمرته بالصعود على متنها، لأنهم كانوا يبحثون عن رجال للسخرة (وهو النشاط الذى أخبرنا الفولكلور السياسى أنه تسبب فى نشوب حرب ١٨١٢). لم يعر بارنى الأمر اهتماماً وظل يصطاد، ولذلك جهز قارباً باثنتى عشر رجلاً كي يذهب ويأتى به هو وطاقمه. وكان كل البحارة مسلحون وأصاب القلق رفاق بيل، ولكن بارنى انتظر حتى اقتربوا بالقدر الكافى وألقى بالشبكة على الوحدة كلها - البحارة والقارب والمجانيق والبنادق - وسحب الحبال واستولى على كل شيء. وبعد ذلك اتجه إلى البر بحمولة الشبكة كلها وسار بالأسرى إلى سجن توماستون Thomaston على مسافة أكثر من مائة ميل.

وبعد تجارب كثيرة لقي بارنى حتفه بطريقة لا يزال مشكوكاً فيها. إذ تقول إحدى الروايات إنه حاول جر قارب عليه حمولة إلى المرسى. وكان قد وصل به حتى رأس اللوح حين انكسر شيء ما داخله وسقط ميتاً. الرواية الأخرى تقول إنه رفع مرساة وزنها ٥٠٠ رطل وانزلق. وفي محاولته للتماسك انكسر شيء ما داخله ومات^(٢٢).

كان الذى يختلف عنه اختلافاً طفيفاً فحسب هو القبطان باركر "ستاترين" هول Parker "Statterin" Hall الذى كان معروفاً من نيويورك حتى إيستبورت Eastport . ولم يكن ستاترين هول ضخماً ولم يشتهر بالقوة، وإن كان الإنسان والحيوان يخشيان غضبه. ويبدو أن شهرته بدأت لأنه كان يبحر دائماً بمفرده ولم يكن معه سوى قط، وهو عمل لا يستهان به فى سفينة شراعية كبيرة تسير بمحاذاة الساحل. وتقول الشائعات إنه قضى على تمرد فى شبابه بقتله المتمرّد ومن يومها لم يأخذ أحداً على متن السفينة. بالإضافة إلى حقيقة أنه كان يحفظ المسار والمسافة بين كل فنار وعلامة من نيويورك حتى حدود كندا، يبدو السبب الرئيسى لشهرته هو سرعة بديهته، وتلعثمه^(*) وسلوكه الغريب.

ذات مرة كانت الريح المعتدلة فى نورث إيست هاربر تهب من الشمال الغربى وكان القمر مكتملاً. جاءه شاب وقال له "أظنك يا قبطان هول سوف تبحر إلى الكيب الليلة؟"

فرد عليه القبطان هول "لا".

"لماذا يا قبطان، إنها ليلة جميلة. وربما تحقق رقماً قياسياً فى السير فى البحر." فقال القبطان متلعثماً "أى أيها الشاب، حين كنت صدياً فى الكيب كنا نصنع أوعية للمسامير من جماجم الرجال الذى يحاولون تسجيل أرقام قياسية فى السير فى البحر."

وفى جزيرة ماتينيكوس Matinicus Island وقف الرجل العجوز على المرسى وبدأ

(*) تعنى صفة "stuttering" المضافة إلى اسمه الحقيقى "التلعثم" (المترجم) .

فى بيع الخضروات والفواكه. فى مؤخرة القارب كان هناك برميل كبير مملوء بالتفاح؛ تفاح العشرين أوقية. اشترى صاحب الدكان الخضروات وطلب بعض التفاح. أخرج الرجل العجوز برميلاً من التفاح الذى يبدو فى حالة سيئة بعض الشيء، وغضب التاجر.

"وماذا عن تفاح العشرين أوقية؟"

"لا، إنه لا ليس للبيع."

"لم لا؟"

"إنى أحد أحتفظ به ليكون طُ طُعمًا."

وفى ليلة من الليالى كان القبطان هول راسياً فى هولز هول، التى تعرف حالياً باسم فاينيارد هيفن Vineyard Heaven، حين دخلت سفينة أخرى وألقت بمرساتها بالقرب منه. كانت السفينة التى أتت حديثاً محملة بالحجارة، وكان هول يحمل شحنة من الأخشاب.

حيا القبطانان بعضهما وذهب هول إلى السفينة الأخرى للدرشة، تاركاً السفينة تحت مسئولية قط السفينة؛ وكان مخلوقاً ضخماً أسود اللون مشاكساً. ما إن جلس باركر على الركن الخلفى الآخر حتى خرج القط من عنبر البحارة ويعد أن تلفت حوله بحذر تمدد على شحنة الأخشاب المربوطة فى المؤخرة.

لم يعر باركر الأمر اهتماماً إلى أن عبر المخلوق كومة الأخشاب وأخذ يقفز على الركن الخلفى. كان قد راقب الأمر كله فى السر وحين انحنى القط ليقفز قال القبطان " اذهب أيها الك لعين الأسود إلى المقدمة." عاد القط واختفى من جديد داخل عنبر البحارة^(٢٤).

ليس المناخ صالحاً فى الوقت الراهن لحفظ الحكايات والأساطير وخلقها. فمع ظهور الراديو وغيره من وسائل الإعلام تتوالى الأحداث المذهلة وراء بعضها بوفرة بحيث يُدفن كل حدث تحت الأحداث الجديدة فى وعينا تقريباً قبل أن يكون قد حدث

بالفعل. كما أنه فى ظل الرحلات القصيرة وإضافة اللاسلكى هناك وقت أقل وضرورة أقل للقيام بذلك داخل عنبر البحارة. بل إن المناخ أكثر سوءاً بالنسبة للأساطير، ذلك أن أحد شروط الحكاية الأساسية - وهو شرط الاتصال بالسحر والعالم الآخر - يتقلص. ففى وقت كان فيه الجحيم وأرض الجنيات فى قاع أحد الآبار، وكانت الجنة خلف السحب مباشرة، كان من السهل الإيمان بوساطة مخلوقات العالم الآخر، أما اليوم حيث حفرنا آلاف الأقدام تحت الأرض وأرسلنا سفن الفضاء إلى مسافات بعيدة فى الفضاء ولم نجد العفاريت ولا الملائكة، أصبح الإيمان بمكونات الحكاية الأساسية أكثر صعوبة.

ومع ذلك فإنه فى المناطق النائية الأقل تنويراً من العالم الناطق بالإنجليزية لا تزال الحكايات تُروى وتُصدق. والواقع أن الأساطير لا تزال تُصنع وسيظل البعض منها يُصنع لبعض الوقت.

حدثت من قبل عن القبطان بوكان، الربان العظيم من فريزرزبرج. واسمه معروف للبحارة من بيترهيد حتى ستورنواى **Stornoway** باعتباره قائد سفينة رهيب وصياد سمك محظوظ. وهم يحكون كيف أنه يغادر الميناء فى مواجهة عاصفة شتوية ليكون "فى المصايد" حين تهدأ، وكيف أنه عبر القناة كثيرة المنحنيات ليصل إلى ويزاردز بول **Wizard's Pool** فى جزر هيبريدز الخارجة ذات ليلة عاصفة فى شهر فبراير. ولكن الحكاية الكبيرة، التى فى سبيلها لأن تصبح أسطورة، هى حكاية الإنقاذ والقطر التى حدثت ذات ليلة قبالة النرويج. لقد سمعت الحكاية وسألت القبطان عنها فى عام ١٩٦٨ .

منذ أربع سنوات كنت أصطاد على بعد ثمانين ميلاً غربى إيجارزوند **Eggar-sund**، وكانت "أليانس" **Alliance**، وهى سفينة أخرى، تصطاد على بعد ستة أميال إلى الجنوب منا.

فى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر؛ وكان ذلك هو شهر فبراير وكان الأسبوع الثانى من فبراير. رأينا أن ريحاً شديد ستهب، وبالطبع كانت التوقعات تشير إلى أنها ستكون بقوة عشرة. ولذلك اتصلت بقبطان تلك السفينة وقلت له إننى ذاهب إلى إيجارزوند. وحين وصلت إلى الجهة المعاكسة للريح منها رأيت أنه فى مشكلة

ولذلك اقتربت منه وسألته عن المشكلة وقال هو إن مروحته تشابكت، فقد أفت الشبكة كلها على المروحة في الواقع. حاول سحب الشبكة إلى ظهر السفينة وانسابت السفينة إلى داخل البحر وتشابكت الشبكة. وكانت تلك ليلة الأربعاء.

ربطناه في سفينتنا وكانت الساعة التاسعة حين بدأنا قطره في ليلة الأربعاء وكان الجو يزداد سوءاً وسوءاً وسوءاً. والواقع أن الريح بلغت قوة أربع عشرة أثناء السحب. بدأنا نقطره بحبل قطر سمكه تسع بوصات وصمد لمدة أربع ساعات تقريباً. كان لدينا تسعون قامة من حبل القطر النايلون وفشلت العملية. صمد لمدة أربع، لا سبع ساعات. انقطع حوالى الساعة الثالثة صباحاً. كان الجو شديد السوء في ذلك الوقت. أوصلنا حبل القطر النايلون من جديد وانقطع مرة أخرى وأصبح حبلًا قصيرًا، ثم رأينا أنه لا يصلح من الناحية العملية. جرينا بعد ذلك حبلًا من الأسلاك المعدنية وضعنا في طيقته واقيات من المطاط [إطارات شاحنة] ليمتص الصدمات. فقدنا مائة وثلاثين قامة من الحبل المعدني مع ثلاثين قامة من سلسلة المرساة. ظننا أنه مع الثقل قد يصمد ولن ينقطع. ولكنه بالكاد ظل مشدوداً.

كما أن الريح كانت بقوة اثنتا عشرة وكان ريحاً شرقية بالطبع واستطعنا أن نراوغ وحسب؛ مجرد مقدار انحراف ثابت من الناحية العملية في الريح. اكتشفنا أن ذلك هو كل ما كنا نفعله. قطرنا بتلك الطريقة ولكن الحبل المعدني انفصل بعد فترة قصيرة. وأتذكر أن الريح وقتها كانت لا تزال بقوة اثنتا عشرة، وكان هناك جُرف بطول ميلين تحت دفته ورأينا أن علينا أن نفعل شيئاً.

اتصل بي القبطان الآخر وقال إنه ينبغي استخدام حبال من شبكة البحر الكبيرة، والحقيقة أنه لم يكن قد تبقى لدينا الكثير منها؛ وهذا بالضبط هو ما فعلناه. استخدمنا اثنتا عشرة لفة، في كل مرة أربع لفات، استخدمنا لفتين في كل جانب وضاعفناها فأعطينا كل واحدة مائتين وأربعين قامة في كل جانب للقطر. ولكن كانت أمامنا مشكلة. كان البحر هائجاً ولم يمكننا توصيل الحبال ولم تكن السفينة "أليانس" في حالة جيدة. كان البحر قد نظفها ولم يكن بها قارب. والواقع أننا فقدنا قاربنا ومعظم معدات الصيد التي سقطت في البحر.

ولذلك بذلت محاولات من جانبه المعاكس لاتجاه الريح كي أوصل الحبال إلى ظهر السفينة وساعتها مرت سفينة روسية ضخمة. رأينا السفينة وحممتنا من الريح وأوصلنا الحبال إلى ظهر السفينة، ولكننا اصطدمنا ببعضنا ونحن نفعل ذلك وأطحت بجانب السفينة الممتد فوق سطحها العلوى وبعض الأشياء الأخرى، ولكنها كانت أضراراً سطحية فى الواقع. كنت أعرف أنه لا يمكن أن نتركهم، ولو لم نستطع توصيل الحبال أو قطرهم فلا بد أن نصطدم بهم ونأخذها عبر المقدمتين لأنه لم يكن لدينا قارب؛ ولو كان لدينا قارب فإنه ما كان ليصمد فى ذلك البحر الهائج. ولكن بمساعدة من الروس نجحنا ورفعنا حبالنا إلى سطح السفينة وبدأنا القطر.

كانت تلك ليلة الجمعة ولم نكن قد قطعنا أربعة أميال وكانت الريح بقوة أربعة عشرة، ولكنها اتجهت أكثر ناحية الشمال؛ وظلت الحبال تنقطع ونحن نستبدل الحبل بإطلاق سهم نارى على سفينته ونثبت الحبال بتلك الطريقة. وبعد ذلك استهلكنا كل سهامنا النارية كلها وقال إنه سوف يستخدم بعضها وفى ذلك الوقت كنا على مسافة قريبة من جانبه المعاكس لاتجاه الريح واقفين على استعداد لسحب الحبل. كان السهم النارى الأول الذى أطلقه من النوع الأخضر؛ فهناك نوعان، نوع أحمر ونوع أخضر. وهو سهم نارى فسفورى بعيد المدى ويطلق من بندقية، وحين أطلقه وضعه فى الكابينة تماماً، ورشق فى الألواح الخشبية التى داخل أحد الأسيرة. فى البداية خشينا أن يشتعل ولم يكن لدينا على السفينة شئ لإطفاء الفسفور، وحاولنا إخراجه إلا أننا لم نتمكن من عمل أى شئ معه. ولذلك اضطررنا أن نتركه هناك وكنا نظن أنه قد ينفجر فى أية لحظة.

وهكذا ظللنا نقطرهم حتى صباح السبت. كان ذلك من ليلة الأربعاء ولم يتبقى أمامنا سوى ثمانية أميال إلى إيجارزوند. والآن لا يمكننا الذهاب إلى إيجارزوند. كل ما كان يمكننا فى ذلك الوقت هو مواجهة الريح بصورة أو بأخرى ووصلنا فى النهاية إلى فنار كويريرا Correra Light، قبالة فيرجوزوند Fergusund مباشرة. وكان الجزء الأخير من هذه الحكاية مضحكاً جداً كذلك.

تحركنا بعد العاصفة على ضوء ذلك الفنار وكان من الممكن رؤية الصخور على كل جانب من القنال ولم أجرب على الدخول. فكونى سفينة وحيدة كان من الممكن أن

أدخل ولكنى لم أكن أرغب فى الدخول لى لا أخالف القوانين النرويجية. ولذلك ذهبنا أسفل الفئار وأطلقنا سهماً نارياً وجاءت سفينة صغيرة، سفينة صيد نرويجية، وصعد قائدها على متن سفيتتنا وسألته إن كان يفهم الإنجليزية وقال "بالتأكيد. أنا من إيست إند East End فى لندن." "وماذا تفعل هنا إن كنت من لندن؟" "كنت قائداً هنا أثناء الحرب." وقد تزوج فتاة نرويجية ويعمل فى السفينة "ترافيل لايت" Travell Light.

قلت له "هل يمكن أن ترشدنى فى هذا المضيق؟" فقال "هذا الشخص النرويجى إنه سوف يفعل ذلك." كنت سأخطر بالطريقة التى أراها، ولكنى لا أتخيل قطر سفينة بالجانب. أنا أعرف القوانين هنا، إن كان سيسمح لى بقطر سفينة بالجانب أم من الخلف." وبالطبع جاء ذلك النرويجى وقائنا. ولكى ندخل الميناء واجهنا صعوبة كبيرة بسبب الريح، وكان هناك بالطبع عمال كثيرون جاؤا ليرونا، وقال لنا إن مؤشر سرعة الريح يدل على أنها بلغت مائة وثلاثين ميلاً فى الساعة وكنا نخطر السفينة فى ذلك الطقس. والآن هذه تجربة لا أود أبداً أن أمر بها مرة أخرى.

فقدنا ما قيمته حوالى ستة آلاف جنيه من المعدات والأضرار، ولكن التأمين دفع ذلك وحصلنا كذلك على مبلغ جيد مقابل الإنقاذ^(٢٥).

إذا كان الناس يذكرون جيم بوكان بسبب هذا العمل الشجاع وفن الملاحة، فسوف يتذكرون كذلك حكاية السباحة العظيمة لفترة قليلة مقبلة فى جزر الهند الغربية.

فى البحر الكاريبى يفرق مئات الأشخاص كل عام، لأن السفن فى أغلب الأحيان قديمة وبها عيوب ومحملة دائماً بأكثر من طاقتها. إلا أن المياه أدياً عما هى عليه قبالة النرويج فى الشتاء، والبحار ليست شديدة الهياج، والجزر والصخور متعددة بصورة كبيرة مما يتيح الفرص للسباح الجيد أن ينجو. كما يمكن هناك كسب العيش من صيد السلاحف، أو جمع القواقع، أو صيد الإستاكوزا من على القاع. ولذلك فإن معظم الناس يمكنهم العوم. وفى بعض الأحيان حين ينقلب قارب بكامله أو قارب صيد، فإن أفراد الطاقم يلقون بالصابورة الحجر فى الخارج ويمسكون القارب بأيديهم بينما يذهب أحدهم ويطرد الماء بيديه.

ومن بين أهل الجزر جميعاً يشتهر رجال بيكيا بأنهم أفضل السباحين. فهم يغوصون إلى أعماق تصل إلى ثمانين قدماً، ويمكنهم السباحة أميالاً بلا مجهود. ولكن من بين كل السباحين واحد يتفوق على سائر السباحين. وقد سمعنا حكاية سباحته تتردد في أنحاء سلسلة جزر ويندورد. بل إنه رغم أن الحدث وقع في الماضي القريب فقد اكتسب الكثير من سمات الأسطورة (قصص الخوارق). وفي بعض الأماكن لا يُذكر اسم السباح، وفي أماكن أخرى تتضارب أسباب سباحته، وتتضمن كل حكاية تقريباً عنصراً ما خاصاً به غير موجود في الروايات الأخرى للحكاية. إلا أنها جميعاً تتفق في الأمور الأساسية؛ وهو أنه كان على متن سفينة كانت تسير قبالة المارتينيك وسبح لمدة ثلاثة أيام قبل أن يصل في النهاية إلى الشاطئ، حتى إنه بقي في المستشفى فترة طويلة، ثم شفى وعاد إلى البحر حيث قام بالمزيد من الأعمال البطولية. ولتحقيق أغراضنا تكفى توليفة من تلك الحكايات.

كان هناك رجل اسمه كينج King ولد داخل برنّس، وهو ما يجعل الشخص قادراً على رؤية الأشباح، ومع أنه لا يمنع الموت، فإنه يحمى من الفرق. كان ذلك الرجل سباحاً قوياً جداً وذهب مع بقية الرجال على سفينة شراعية كبيرة (حوالي ٥٠ طناً) إلى المارتينيك لإحضار شحنة. والمارتينيك مكان ليس به الإمكانيات الكافية للإقلاع ليلاً منه، ولكن بمجرد تحميل الشحنة أراد وكيل القبطان الإقلاع ولكن القبطان رفض. ورغم ذلك رفعوا المرساة وأبحروا.

مضى كل شيء على الوجه الصحيح إلى أن أصبحوا على بعد ستة وعشرين ميلاً من المارتينيك حيث واجهتهم عاصفة شديدة جداً. كانت السماء ملبدة بالغيوم بحيث لم ير أحد العاصفة وهي آتية، وحين هبت انقلبت السفينة وغرقت. كان لدى كينج بعض الزعانف على السفينة وحاول الحصول عليها ولكن الوقت لم يسمح بذلك، لأن السفينة غاصت بسرعة وغرق أحد أفراد الطاقم معها وبقي ثلاثة أخذوا يسبحون.

حاول كينج تشجيع الآخرين ولكن بعد فترة قال أحدهم "لا فائدة. لن أتمكن من السباحة." ونام على جانبه وشهداه وهو يغرق. وبذلك بقي اثنان، حيث حاول كينج

تشجيع الشخص الآخر قدر استطاعته، ولكنه غرق بعد فترة وبقى كينج وحده معلقاً على قطعة صغيرة من الخشب طفت من السفينة حين غرقت.

طلع النهار وكان بمفرده وشديد العطش، ثم غلبه النعاس فغفا، ولكن الأمواج وطبقة مياه الأمواج سقطت على وجهه وأيقظته، وظل يسبح.

فى اليوم الثانى كان شديد التعب والعطش، وكان على وشك الاستسلام حين رآه طير ونزل وبدأ يحط على الماء. مد يده وجنبه ومزقه نصفين وأكله نياً، وجعله هذا يشعر ببعض التحسن. ولكن أسماك القرش جاءت بعد ذلك، وظن أنها سوف تأكله، ولكن أعقب ذلك وصول سرب من خنازير البحر التى أخذت تضرب أسماك القرش إلى أن صار الماء أحمر من الدم وابتعدت القروش، وأخذت خنازير البحر تدفعه للأمام.

وفى اليوم الثالث كانت هناك امرأة تعمل فى حديقته حيث وصل إلى البر. وصل عن طريق الأمواج وحمله البحر إلى الشاطئ حيث انهار. نظرت المرأة إلى الشاطئ وشاهدت شيئاً على لوح من الخشب ولكنها لم تمره قدراً كبيراً من الاهتمام، إلا أنها حين نظرت مرة أخرى ظنت أنه سلحفاة. وعند عودة زوجها من العمل حكّت له الموضوع، ونزل هو إلى الشاطئ ليصطادها. وحين وصل إلى هناك رأى ذلك الرجل راقداً عرياناً على الشاطئ وظن أنه ميت. نادى على بعض أصدقائه وحملوه إلى المنزل، وكان حياً ولكنه فى حالة سيئة. وكانت الفترة التى أمضاها فى البحر من الطول حتى أن جلده كله انسلخ وزحفت ديدان البحر إلى داخل لسانه.

أخذوه إلى المستشفى وظل فاقد الوعي ثلاثة أيام، ولكنه استعاد وعيه أخيراً وعاد إلى بيته لبعض الوقت، ثم رجع إلى البحر حيث كانت له تجربة أخرى. فقد كان يغوص فى توياجو كايز Tobago Cays وكان هناك شخص كندى يغطس هناك. أصاب الكندى برمحه سمكة قُشر وبقى أسفل الماء فترة أطول مما يجب وهو يقاتلها. وحين صعد إلى سطح الماء نزل مرة أخرى. كان مختنقاً. وحين رأى كينج

ذلك غاص وراءه وأعلمه وضعه هو وزميله في قاريهما وأسعفاه بالتنفس
المصطناعي وأخذاه إلى كاريكلو ومن هناك ذهب بالطائرة إلى جرينادا.

وحيث استعاد وعيه علم بمن أنقذه وذهب ليرى كينج. كان شديد الثراء وأبيه
أملك كثيرة في كندا. قال لكينج إنه يريد أن يعطيه كل ما لديه في العالم، ولكن
كينج لم يتخذ شيئاً. وأتاك عقداً صققة، وفي كل عام كان كينج "عليه الذهاب إلى
كندا والعيش مع هذا الشخص لمدة ستة أشهر" ويُعطى له كل شيء. ولم يمكنه أن
يقبل شيئاً. وهذه هي الطريقة التي أجبر بها كينج على الذهاب إلى كندا.

ماتام الرجال يتبعون البحر فلا يهم مدى حداثة السفن أو مدى تطور المعدات،
فسوف يكونون على القوارب معرضين لخطر فقدان حياتهم. ومادام هناك رجال كهؤلاء،
سوف تكون هناك أعمال شجاعة وجلد كهذه سوف يتطلع إليها من هم بونهم من
الرجال. ومادامت للرجال ذاكرة فلا يهم ما هي الموضة السائدة فيما يتعلق بالشجاعة
والإقدام، فسوف يتذكروهم الناس ويتذكرون من هم على شاكلتهم. وأنا أعد نفسي
محظوظاً لأنني التقيت ببعض منهم.

الفصل الرابع عشر

السفن الأشباح

« وصيتذاك رأيت اللهوتنى للطلنر
أتيا يتهلدى عكس اتجاه الريح »
"Flying Dutchman"
Perlach collection

هناك مجموعة من الأساطير والحكايات من القدم، ومن الأهمية، ومن الصلة الوثيقة ببعضها البعض ما جعلنا نترجمها هنا باعتبارها قصلاً قائماً بذاته. ونبدأ من القرن الحالى.

فى وقت الغسق تماماً غادرت سفينة شراعية تجارية جريتادا فى طريقها إلى خليج تاريل Tyrell Bay فى كاريماكو على بعد حوالى سبعة وثلاثين ميلاً. كانت الريح خفيفة واعتدلت أكثر واتجهت أكثر نحو الشمال، مما جعل الرحلة أطول وأبطأ بالنسبة للسفينة. وفى منتصف الليل تقريباً وجدت السفينة نفسها عكس اتجاه الريح من صخرة كيكيم جينى Kick-em Jenny Rock. كان القمر فى منتصف السماء وكان البحر معتدلاً. غفا مدير الدفة فى سكونة على العجلة. قطلع شخص ما إلى الأمام وصرخ مذعوراً.

كانت سفينة شراعية أخرى قادمة بسرعة وقد قرعت أشرعتها كلها وكانت بلا أضواء. وكانت قريبة جداً وفى سبيلها إلى الاصطدام. وكانت الطريقة الوحيدة لتحاشى الاصطدام بها هو تغيير مسار السفينة، فالتحرفت السفينة وسط الصيحات واللعنات

الموجهة إلى الغرب. وما إن استقرت سفينة الشحن في مسارها الجديد حتى جاءت السفينة الأخرى مندفعة من الاتجاه المعاكس. ومرة أخرى جرى تغيير مسار السفينة، ليجدوا الغرب في مواجهتها. وسواء اتجهت السفينة يميناً أم يساراً كانت تجد السفينة الغربية أمامها، وكانت في كل مرة مندفعة وقريبة، واستمر ذلك طوال الليل.

طلع النهار ليجد سفينة الشحن، التي تأخرت كثيراً بسبب تغيير الاتجاهات تلك كلها، مازالت عكس اتجاه الريح من صخرة كيكيم جيني، ولكنها كانت تبهر وحدها في بحر خال من السفن. وقال لي الإخباري "توجد سفينة شبح تبهر هناك".

كانت السفن الأشباح تلك تأتي إلى الوجود بعدة طرق. إذا غرقت سفينة دون أن تأخذ معها أيّاً من أفراد طاقمها أو ركبائها، كان الاعتقاد الشائع هو أنها سوف تطفو من جديد وتبحر إلى الأبد بحثاً عن طاقم لتشغيلها. وضماناً لعدم حدوث ذلك، لا يحاول بعض الربابنة في المنطقة إنقاذ كل البحارة حين تفقد إحدى السفن.

والواقع أن هناك سبباً منطقياً لظهور الشبح في هذه الحالة التي ظهرت في كيكيم جيني. فهناك صخرتان تعرفان محلياً بالصخرتين المعاكستين لاتجاه الريح Leeward Rocks، وطبقاً لما قاله مستر فورشو Mr. Forchau من سانت جورج بجرينادا، فإن تلك الصخرتين تبدوان إلى حد كبير كالسفينة الشراعية التي فردت كل أشرعتها حين تُرى في ضوء القمر. وحين تكون الريح خفيفة يكون هناك تيار يكفي لأن يجعل السفينة التي تغير اتجاهها ثابتة في مكانها وهي تقترب منهما. ولذلك فهي حين ترى إحداها تغير اتجاهها فتواجهها الأخرى.

ولكن السفن الأشباح لا تقتصر على جزر الهند الغربية. فهي تظهر في كل أنحاء العالم. وقد قطع العلماء شوطاً كبيراً في شرح أسباب ظهورها. ويقول البعض إن سببها سراب البحر^(*). ويبدو أن ذلك يأخذ شكلين؛ إما قلب الصور أو تشويهها. ويرجع هذا السراب إلى الظروف المناخية وغالباً ما يُشاهد بالقرب من طلوع الشمس أو غروبها، وكثيراً ما يكون قبل وصول عاصفة أو طقس سيئ. كما يعزى

(*) سراب معقد يتميز بعدة تشوهات في الصورة في الاتجاه الرأسى عادة . حتى إن أجساماً كالصخور والأكوخ تبدو مشوهة ومكبرة إلى قصور عجيبة (المترجم) .

كذلك إلى توليفة من إجهاد العين والتعب والتوتر يحدثها الطقس السيئ وطول النظر إلى البحر.

قد تبدو السفن الحقيقية على أنها أشباح كذلك في الطقس الذي يكثر فيه الضباب. فقبالة لاندرز إند، ونانتاكيث شولز وكيب هورن، وغيرها من الأماكن التي غالباً ما تتجمع فيها السفن لتأخذ استراحة قصيرة في تجولها منفردة، قد يرى السفينة أو جزءاً منها أحد الناظرين بينما لا يراه غيره ولا يسمعها، وقد لا يسمع صوت بوقها سوى شخص واحد؛ مما يوحي بأن ما قابلوها كانت سفينة شبح.

وهناك بعض الشك في أن ساعات القلق التي يقضيها البحارة في الحلقة في الضباب والتج تجعلهم يرون ويسمعون أي شيء يريدون. بل إن الجو الذي يكثر فيه الضباب يميل إلى تشويه الأشياء الحقيقية جاعلاً منها أشكالا غريبة.

وأذكر حين أيقظوني ذات صباح كثير الضباب في مضيق لونج أيلاند وقالوا لي إن أمامنا سفينة غارقة. وحين صعدت إلى السطح بدت أنها سفينة صيد كبيرة الحجم غرق نصفها. وأظهر البحث أنها صندل صغير نصف غارق وله صارى، على مسافة أقل من مائة قدم. وأخيراً فإن هذه المعتقدات تضخمها أحياناً مقابلة السفن المهجورة في البحر.

الإيمان بالسفن الأشباح قديم، ويشيع على نطاق واسع، ولا يزال يحظى بالقبول، بغض النظر عن السبب. ويعتبر الهولندي الطائر **The Flying Dutchman** النموذج الأكثر شهرة من بين السفن الأشباح بكافة. ويحتاج سير غور هذه الحكاية إلى كتاب كامل، غير أنه لا بد من بعض الملاحظات فيما يتعلق به، لأن هذه الحكاية من بين الحكايات الشعبية كافة في العالم تعد واحدة من أعقد الحكايات وأقدمها وأكثرها انتشاراً. بل إن تشعباتها انتشرت انتشاراً كبيراً في المناطق الداخلية وتغيرت بشكل أوضح من أية حكاية أخرى من نوعها.

ورغم وجود خيوط كثيرة متعددة عُزل منها حبل هذه الحكاية، فإن أربعة منها على الأقل تبدو بارزة. أحدها هو حكاية اليهودي التائه، والآخر حكاية أهازوروس **Ahasuerus** المسيح الدجال. وقد عولجت هذه الأسطورة المعالجة الصحيحة في كتاب

لجورج أندرسون George Anderson ^(١) . وبغض النظر عن الحكايات السابقة القديمة على كثرتها، فقد اشتهرت القصص بعد وقت قصير من وفاة المسيح وآتت أكلها قبل عام ١٦٠٠ ^(٢) .

باختصار، يبدو أنه بينما كان المسيح يحمل الصليب متجهًا إلى موضع الجمجمة ^(*) كان هناك رجل معين ^(**) يويخه كي يسرع في السير. نظر إليه المسيح وقال "أما أنا فذهاب، ولكنك سوف تنتظر حتى أعود". ومنذ ذلك الوقت والرجل يهيم على وجه الأرض لا يمكنه الموت ولا يمكنه أن يستريح. وقد حدث خلط في العصور الوسطى بين هذا الرجل ورجل آخر هو إسكافي اسمه أهازوروس كانوا يعتقدون أنه المسيح الدجال؛ وهو قائد قوى الظلام الذي كان موجوداً عند الصليب وسوف يتقاتل مع المسيح عند عودته مرة أخرى ^(٣) .

يأتى الخيط الثانى من الحكاية الجرمانية "المطاردة الوحشية". فى البداية كانت هذه حكاية عن فودين Woden الذى يقال إنه تتبع هو وحاشيته طريدة عبر السماء ^(٤) . وبعد ذلك تحول هؤلاء إلى طاقم من الأشباح يمتطى خيلاً أشباحاً يتتبع كلاب الجحيم التى يسيل اللعاب من أفواهها وتصرخ فى مطاردة مجنونة لطريدة شبح؛ وهى عادة إما غزال أو خنزير. وفى النهاية أصبحت متصلة بأناس عديدين ببالغون فى قضاء وقت فراغهم فى الصيد. وتحكى رواية إنجليزية للحكاية عن رجل اسمه داننو Dando وهو قس مشغول بالأمور الدنيوية كان يحب الصيد. وذات يوم التقى بالشيطان الذى استولى على صيده ورفض إعادته. أقسم داننو بأن يذهب بحصانه إلى الجحيم إذا اقتضى الأمر لاستعادة الصيد. وعلى الفور وضعوه على حصان الشيطان واندفعوا بالكلاب الصاخبة إلى الجحيم. وهو يعود من حين لآخر ويمكن رؤيته مسرعاً عبر الأرض السبخة فى مطاردة شرسة لصيده ^(٥) .

يأتى الخيط الثالث من حكاية جريمة قتل غريبة وتوبة من الشمال. فطوال ما يزيد على ستمائة سنة كان هناك شبح يسير على شُرَافَات قلعة فالكنبرج Falkenberg وهو

(*) تل خارج القدس القديمة صُلب عليه المسيح (المترجم) .

(**) تقول إحدى الروايات إنه حمال يهودى اسمه كارتافييلوس (المترجم) .

يصيح "جريمة قتل!" ويصاحب الشبح ضوئاً. وقديماً كان شقيقان يعيشان هناك وخطب كل منهما نفس الفتاة التي خطبها شقيقه. تزوجت الفتاة فالديران Walderan مما أصاب شقيقه ريجينالد Reginald بغم شديد. وبعد الزفاف حبس نفسه في خزانة في غرفة نوم العروس وانتظر. وبعد وقت قصير دخلت العروس والعريس وقفزا على السرير. وقبل أن تتحقق آمالهما، خرج ريجينالد من الخزانة وقتل العروس. وأثناء الصراع قتل كذلك شقيقه الذي لكمه على خده بيد دامية وهو في النزاع الأخير.

وبما أن الماء لا يمكن أن يزيل العلامة (علامة قايين) (*)، فقد زار ريجينالد رجلاً مقدساً في الغابة قال إن عليه الحج إلى الشمال. وعلى الفور انطلق ريجينالد وذهب مع شبحين؛ شبح أبيض عن يمينه وشبح أسود عن يساره. مضى إلى الشمال مع الشبح والروح إلى أن بلغ نهاية الأرض. وفي عرض البحر كانت هناك سفينة كبيرة، وما إن وصل قاتل أخيه حتى أنزل قارب صغير من السفينة وحين وصل إلى الشاطئ قال المراكبي "لقد كنا في انتظارك." ركب قاتل أخيه ورفيقاه وحملوا إلى السفينة التي تحركت على الفور. نزل الشبح الأسود إلى أسفل حيث أخذ يتقامر مع الشبح الأبيض على روح ريجينالد. ومازالا يتقامران منذ ستمائة سنة، ويؤكد البحارة حتى يومنا هذا أنهم يرون من خلال الرذاذ والزبد السفينة وعليها المقامران وريجينالد تنهادي في اتجاه الريح وقد فردت كل أشرعتها^(٦).

يوجد الخيط الكبير الرابع، وربما الأقدم والأكثر مقاومة للتغيير، في المعتقد القديم الخاص بقدرة الموتى على المشاركة في أنشطة الأحياء. ويكمل هذا المعتقد، مقروناً بالمعتقد الذي يكاد يكون عالمياً الخاص بسكن كائنات خارقة في المياه المضطربة حول الأسن، الخيوط والحبل، حيث تظهر حول كيب هورن ورأس الرجاء الصالح أضخم السفن الأشباح.

(*) قايين (أو قابيل في التراث الإسلامي) هو ابن آدم الذي قتل أخاه هابيل. وجاء في سفر التكوين "وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده". وكان قايين قد قال قبل ذلك للرب "إنك طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائهاً وهارباً في الأرض" (المترجم).

وتظهر حكايتنا بأشكال وصور عديدة، غير أن ثلاثاً منها تضم أصل الحكايات الأخرى كافة. الأولى هي قصة دَهِلُ Dahul وهو اسم عربي معناه المنسى (*) الذى يظهر أحياناً قبالة كيب فينيستر Cape Finisterre . وكان ذلك الرجل قرصاناً وكان معه شريكه الرئيسى شخص ليس أقل من الشيطان الذى صعد خلسة على السفينة. وفى يوم من الأيام لطم الشيطان لكمة رهيبة وأوقعه فى الماء. وبعد ذلك بقليل استولى على سفينة وجد على متنها عائلة أسبانية وقساً. أمر دَهِلُ بصلب القس وذبح ابن الأسباني. وبعد ذلك أخذ يسخر من معاناة القس. وفجأة اسودت السماء وكان هناك صوت ضخم من البحر: سوف تهيم على وجهك يا دَهِلُ حسب مشيئة الرياح، وتحت رحمة الأمواج. سوف يجهد أفراد طاقمك أنفسهم فى كد لا ينقطع. وسوف تهيم على كل بحر حتى نهاية القرون. وسوف تتلقى على متن سفينتك كل غرقى العالم. ولن تموت ولن تقترب يوماً من الشاطئ، وكذلك تفر من أمامك دائماً السفن التى تراها.

ومنذ ذلك اليوم والسفينة تهيم. لا أحد ينام ولا أحد يأكل. فليس بها ماء ولا أمل. وهى تُرى دائماً قبل العاصفة وفى الجو الهادئ شبه المضىء الذى ينذر بهبوب عاصفة كبيرة. وهى تسير بالقرب من الصخور القريبة من سطح الماء، وبدنها الأسود نصف مدفون فى الزبد الكثيف (٧).

وتتعلق الحكاية الثانية بقبطان هولندى ضخم اسمه برنارد فوكه Bernard Fokke كان يقود سفنه بطريقة تفوق قدرة البشر. ولكى يتأكد من أن صواريه سوف تتحمل الضغط كان يُجلِّدها بأشرطة من الحديد. وكان قاسياً على رجاله وكان كثير السب واللعن. وكانت رحلاته التى تستغرق تسعين يوماً من باتافيا Batavia إلى هولندا على قدر كبير من السرعة والانتظام، مما جعل البحارة يعتقدون أنه عقد اتفاقاً مع الشيطان. إلا أن الوقت يعنى المال، حتى فى البحر، وكان أصحاب السفن التى يقودها يحبونه. وفى النهاية لم يستطع العودة وكان الظن الشائع هو أن الشيطان استدعاه

(*) فى باب دَهِلُ فى لسان العرب ، الدَهِلُ هو تركك الشئ تنساه عن عمد أو يشغلك عنه شغل، تقول: ذهلت عنه وذهلت وأنهلنى كذا وكذا عنه. والاسم المشتق من هذا الفعل فى هذا الباب هو دَهِلُ بضم الـ والـ وتسكين الهاء (المترجم) .

إلى بيته، وربما لا يزال يراه البعض قبل العاصفة الآتية وهو يقود سفينته حول رأس الرجاء الصالح^(٨).

القصة الأخيرة لها روايتان. تقول الرواية الأيسر إن قبطاناً هولندياً اسمه فاندرديكر Vanderdecker (المحبوب)^(٩)، كان يبذل ما في وسعه لأن يدور حول كيب هورن ولكنه لم يفلح. وفي النهاية أقسم أنه لن يتوقف حتى يدور حول الكيب مهما استغرق منه ذلك. وسوف يصبح "ملعوناً" إن هو فعل ذلك. فقد كان ذلك بالطبع تطاولاً على الرب، وما زال منذ ذلك الوقت يجاهد من أجل التقدم في اتجاه الغرب وكان سكان كيب هورن العجائز يرونها قبل العواصف على مقربة من خليج تيبيل Table Bay، و كانوا يعرفون حين ظهوره أن أموراً رهيبة توشك أن تقع^(١٠).

أما حكايتنا الأكثر تعقيداً فنقول إن الرب تجلى لفاندرديكر وهو يحاول شق طريقه حول كيب هورن وطلب منه التوقف. سحب الهولندي العنيد مسدسه وأطلق النار على السيد، ولكن الرصاصة ارتدت وبخلت في يده. حاول فاندرديكر ضرب الرب، ولكن ذراعه خارت قواها ولعنه أبوه. فحق عليه منذ ذلك اليوم أن يهيم في كل المحيطات لا يرسو قط في ميناء، وأن يشرب المر، ويمضغ الحديد المصهور، ولا ينام أبداً، ويعيش في طقس سيئ على الدوام، وأن تصاحبه العواصف، ويصبح جسمه مشوهاً، ويكون شيطان البحر الذي ييغضه الكل. وأخيراً فإنه حين تراه سفينة مارة تكون الكارثة مصاحبة لمرورها. وبعد أن ألغى الرب الرحيم كل أمل وبهجة يسعى إليهما البحارة، عاد إلى السماء. وكان كل ما قاله القبطان الشجاع هو "إنى أتحداك" ومنذ ذلك الوقت وهو مضطر لتحمل العقوبات في سفينته "فولتيجور" Voltigeur.

ظهرت معظم حكايات الهولندي الطائر من خلال تضيير هذه الحكايات الأساسية الثلاث ببعضها. وتتجمع حول هذه القصص الثلاث معتقدات كثيرة لا تقلل من شهرة ذهل أو فوكه أو فاندرديكر. وهم لا يجلبون العواصف فحسب، بل إن سفنهم تجلب كذلك الطاعون والجنون. ولا يمكن لأحد الصعود على متنها. وهي مبهرة، إن بققت فيها ضعت. وتُرى على متنها أشباح تتقامر على الأرواح. وهي لا تحدث صوتاً. على مقدمتها جمجمة وتتجمع الأشباح على عوارضها. ويمكنك سماعها من على بعد فرائسغ

عدة. وإن كنت تشك في صدق وجودها، فقد شاهدها من لا يقل عددهم عن ابني أمير ويلز Prince of Wales! (١١).

لقد أصبحت فكرة الهولندي الطائر من الجاذبية بحيث ذهبت إلى البر وأصبحت جزءاً من الجهادين الشعبي والفكري، حيث ظهرت كنوبرا لفاجنر Wagner وكموضوع للعديد من القصائد والروايات التي كتبها سكوت Scott وماريات Marryat وكوبر Cooper على سبيل المثال. ومن بين السوابق الشعبية الكثيرة "بيتر راج Peter Rugg"، الرجل المفقود الذي يتردد على طريق بوسطن بوست في نيو إنجلاند، وشبح الأوتوستوب المنتشر حول المدن الكبرى من فيلادلفيا إلى سان فرانسيسكو، والعربة الشبح في القرن التاسع عشر، والأوتوبيس الشبح أو الشاحنة الشبح أو السيارة الشبح الأحداث عهداً المجبرة على أن تهيم في الطرق السريعة المشهورة في الولايات المتحدة. —

أخبرني روبرت فلوز Robert Flaws الذي عمل عامين راعياً للأبقار في الغرب أن هناك عجلًا يقود القطيع. فكما هو الحال بالنسبة لعنزة يهوذا التي تقود الغنم إلى الذبح، هناك كذلك عجل يهوذا الذي يقال إنه يقود الماشية في رحلة طويلة إلى كشك الهامبرجر. وكان ذلك العجل نون راميريث Don Ramirez وهو عجل طويل القرن قُدِّر له الهرب من الجزار كي يهيم في البراري، نحيلًا يشع منه الضوء، ويفزع الماشية لتهرب قبل العواصف وحرائق البراري.

يجدر بنا قبل الانتهاء من هذا الموضوع الإشارة إلى أن شبح فاندريكر دخل قاعة المحكمة أثناء إحدى المحاكمات الشهيرة في سان فرانسيسكو قبل قرن مضى.

ففي عام ١٨٥١ بنت شركة ويليام ويب William Webb السفينة "تشالينج" Chal lenge. وقد خططت الشركة أن تحقق بها رقمًا قياسيًا في السرعة إلى كاليفورنيا وجعلت القبطان روبرت إتش (بولي) وترمان Robert H. (Bully) Waterman رباناً لها. وكانت سفينة ضخمة وكانت تحمل في ظل قائدها الجديد حوالي ١٢٠ ألف قدم مربع من الأشعة؛ وهي مساحة لا يمكن لقائد غيره أن يجعلها تحمله.

وإذا كانت السفينة رائعة، فلم يكن أفراد طاقمها كذلك. فقد جُمِعوا من أخط الأماكن في نيويورك. كما أن ما كان يهمهم هو الأجر وليس السفن والأرقام القياسية. ويبدو أنهم لم يكونوا على علم بشهرة ووترمان ولم يحثهم على ذلك قوامه البالغ خمسة أقدام ، ثمانية بوصات. ويبدو أن أيًا منهم لم يُحمَل نفسه مشقة ملاحظة رؤيته الثاقبة.

لقد أُختير ووترمان للقيادة لعدة أسباب. فقد كان معروفًا عنه أنه لا يخاف، وكان أكثر حملة الأشرعة كافة تهوراً في عصر كان الشعار بين القباطنة هو "ما لا يمكنها حمله يمكنها جره". بل إنه حقق أرقاماً قياسية للرحلات السريعة من الشرق. فحين كان قبطاناً للسفينة "ناتشيز" Natchez قطع المسافة من الصين إلى نيويورك في ثمانية وسبعين يوماً. وقد دار حول العالم في أقل من تسعة أشهر. وقطع مسافة ٢٨٥ ميلاً في أربع وعشرين ساعة على السفينة "سى ويتش" Sea Witch، وقطع المسافة من كانتون إلى نيويورك في أربعة وسبعين يوماً. ولكي يحصل ووترمان من السفينة على أقصى ما يمكن، كان يضع أقفالاً على حبال الأشرعة في أعلى الصواري (لضمان عدم إنزال أى شخص للأشرعة) وكان يقف في مؤخرة السفينة صارخاً في الرب كي يتجراً على قلب سفينته. وبالنسبة لأفراد طاقمه، كان يخشاهم قدر خشيته من الرب، وكان يوقع أول متهاون أو متهرب من العمل بضربة من "المُقنعة" البالغ طولها أربعة أقدام التي كان يربطها في رسفه. وكان حرياً بأفراد طاقم "تشالينج" أن يدرسوا ما عليهم القيام به دراسة جيدة.

حين كانت السفينة تدور حول كيب هورن فقد خمسة رجال وقعوا في البحر من على إحدى العوارض، وفي ١٧ أغسطس تربص أفراد الطاقم لوكيل القبطان "بلاك" بوجلاس "Black" Douglas وطعنوه بسكين. تدخل ووترمان بدون مساعدة من أحد وأنقذ الوكيل بالمُقنعة، ولكنه أصاب الطاقم بالعجز. سارت الأمور بشكل سيئ منذ ذلك الوقت، ووصلت "تشالينج" إلى سان فرانسيسكو بعد رحلة استمرت ١٠٨ أيام. قفز من استطاع القفز من أفراد الطاقم واتهموا ووترمان بالمعاملة غير الإنسانية والقتل. وفي الوقت نفسه اتهم ووترمان أفراد الطاقم بالتمرد.

أثناء المحاكمة التي تلت ذلك حاول محامي البحارة خلق جو سيئ لوترمان. فقد أشاروا إلى أرقامه القياسية السابقة من الشرق، وعذوبته السريعة إلى البحر، وتحديه للرب، وأكسبوا أنه لكي يجعل سفنه تعمل المزيد من الأشرعة كان يغلف صواريخها بالصلب. والواقع أنهم حاولوا بيان أن ووترمان، شأنه شأن الهولندي الطائر، كان إما ملهوناً من الرب أو متحالفاً مع الشيطان.

حكم القاضي ببراءة ووترمان، ولكن حياته العملية دُمرت مثلها مثل حياة القباطنة الأشباح الثلاثة. وقد تقاعد في مزرعة صغيرة وتوفي بسبب إصابته بالتهاب الغشاء البريتوني^(١٢).

مع أن حكاية الهولندي الطائر هي أشهر حكايات السفن الأشباح كافة وأكثرها تطوراً، فهذه السفن من الوفرة على سواحل أمريكا الشمالية والجزر البريطانية وجزر الهند الغربية بما يجعلها خطراً على الملاحه.

وهناك أشياء بعينها تشترك فيها كل الحكايات التي تدور حول السفن الأشباح. فهي تظهر بمظاهر معينة، على هيئة سفن من نار أو سفن طائرة - وعادة ما تطير في هذه الحالة فوق الأرض وعبر الألسن - أو على هيئة سفن عادية تقوم بأشياء غريبة أو تنقسم بسماوات غريبة. فهي تبخر للخلف، وتختفي عند اقترابها من اليابسة، وتفرد كل أشرعتها في الوقت الذي تضطر فيه سائر السفن إلى السير بلا أشرعة، وهي تسير مباشرة في اتجاه الريح وقد فردت كل أشرعتها، وتسير بسرعة في وجود صخور قريبة من سطح الماء في حالة عدم وجود ربح حاملة معها ربحاً حية. وفي بعض الأحيان تكون ألواحها قد سقطت ولم يتبق سوى هيكلها الذي تُرى الشمس من خلاله، وتكون أشرعتها مهترئة أو منتهية تماماً ولم يتبق منها سوى الأضلاع العمودية وحواف الأشرعة والحبال المخاطة على جوانبها. لا أحد يقف على الدفة وأحياناً يكون أفراد الطاقم هياكل عظمية، وفي أحيان أخرى لا يكون لهم وجود. وفي الغالب الأعم تكون مضيئة وتمر في صمت تام.

ويبدو أن لكل سفينة من تلك السفن غرض ما؛ وهي عادة ما تكون بمثابة نذير لتحذير من يرونها من حدث رهيب وإعدادهم له. وفي أغلب الأحيان يراها الناس قبل

العواصف الشديدة وتظهر عند الفسق، وفي الضباب أو الثلج أو البرد أو المطر أو الطقس الرطب حين تكون الزجاجاة(*) منخفضة. (مما يجعلنا نقبل أنها بالفعل سراب.) والسفن النارية هي الأكثر شيوعاً بين تلك السفن التي تتنبأ بحالة الطقس. كما أنها تشاهد قبل وقوع كارثة؛ مثل حالة ولهاة في الأسيرة أو فقدان إحدى السفن.

في كل حالة تقريباً تكون هذه هي السفن التي انتهت نهاية مفاجئة أو مأساوية؛ وخصوصاً إذا كانت قد فقدت نتيجة لفعل مشين. والسفن التي تصبح سفناً أشباحاً هي في أغلب الأحيان السفن المحطمة، والسفن التي غرقت بسبب حدوث ثقب فيها، والسفن التي وقع على متنها تمرد وجريمة قتل أو ارتكبت أفعال مشينة. وقد تصبح السفن التي تحطمت مع حدوث خسائر في الأرواح - وخاصة إذا كان ذلك عن طريق الإهمال أو عدم الكفاءة - سفناً أشباحاً، أما السفن التي تُهجر أو يجري التخلص منها أو تُقَطَّر وهي في حالة سيئة جداً كي تتحلل على جُرف طيني فلا تخضع للقاعدة. وليس مستغرباً إذن أن نجد تلك الأشباح بصورة أشد كثافة حيثما تحطمت السفن أو حيثما ينشط من ينشلون حكام السفن؛ عند بوغاز سانت لورانس، وفي جورجيز بانك، وكيب هاتيراس، وجزر هيبيريديز وساحل كورنول.

قد يكون أحد الأشباح الأكثر إبهاراً التي علينا تناولها هو السفينة النارية. ونجد أنه مع ظهورها في أماكن أخرى، فإن موطنها الأكثر احتمالاً هو أمريكا الشمالية. ويظهر عدد منها في منطقة خليج سانت لورانس، غير أنه من الصعب القول إن كانت سفينة واحدة تظهر في مواضع مختلفة أم أنها سفن شتى كل منها يظهر في مكان مختلف. يذكر البروفيسور أيفز Professor Ives سفينة في خليج كمبرلاند Cumber-land Bay وهي سفينة "مكتلة الأشرعة" تحترق بتوهج بينما أفراد الطاقم يجرون على سطحها، إلا أنه يرى أنها "سكونة ذات صاريين" و"باخرة"؛ وكلتاها ليست "سفينة مكتلة الأشرعة". وقد أبلغه أحد إخباريه أنها سفينة الكنز الخاصة بكيد تعيد تمثيل ساعاتها الأخيرة^(١٢).

(*) مقياس الضغط الجوي الزئبقي (الترجم).

ويتحدث كاتب آخر عن "سكونة صغيرة" تظهر عند كاو هيد Cow Head ويقول إن لها أضواءً متدفقةً مبهرّةً. وكلّ عشرين عاماً تتكوم على أحد الجروف وتختفى ويعتقدون أنها سفينة الكنز الخاصة بالقبطان كيد. ومع أن الكاتب لا يقول إن السفينة تحترق، فإن القصتين تبدوان قريبتين جداً بحيث تجعلنا نتساءل إن كنا نسمع عن نفس السفينة من مصدرين أم لا^(١٤).

وتظهر سفينتان ناريتان أقل إثارة للجدل في خليج ما هون Mahone Bay بالقرب من تشيستر في نوفا سكوشا، وفي جزيرة بلوك برود آيلاند. وسبق أن تحدثنا عن الأولى بإيجاز، إلا أن قصتها الكاملة تحتمل الرواية.

خلال حرب ١٨١٢ كانت هناك سفينتا مجهود حربي أمريكيتان تحملان اسم "تيزر". كانت "تيزر" الكبيرة قد استولى عليها بعد إرسالها ما لا يقل عن غنيمة بحرية قيمتها خمسين ألف دولار. وكانت حين استولى عليها تحت قيادة رجل اسمه جونسون Johnson. وكان ذلك الرجل قد أطلق سراحه مقابل تعهده بعدم الهرب ولم يكن بإمكانه حمل السلاح مرة أخرى ضد التاج البريطاني إلى أن يُستبدل به أسير. وفي حال عدم التزامه بشرط الإفراج وأسرته يشنقه البريطانيون.

لم ينتظر القبطان جونسون الاستبدال وانضم إلى السفينة "يانج تيزر" Young Teazer وخرج في رحلة إلى نوفا سكوشا. كانت الأمور هناك سيئة واستولوا على بلدة تشيستر الصغيرة ولكنهم حصلوا على القليل من الغنائم؛ فقد سبق نهب البلدة. وقد حاولوا ذلك في وقت لاحق وأوقعتهم سفينة حربية في شرك داخل خليج ما هون. استدعى القبطان وارين Captain Warren ضباطه في مؤخرة السفينة ليروا إن كان بالإمكان وضع خطة للإفلات من العدو، إلا أن القبطان جونسون، ربما تفضيلاً منه لأن يشنق مثل أي مجرم عادي واعتقاداً منه باستحالة الهرب، نزل أسفل السفينة وقتل كل البحارة ما عدا ستة رجال.

وقد قال القبطان كوجشال عن جونسون عند مناقشة هذا الأمر:

لو كان القبطان جونسون بذل جهداً أكبر في التفكير، أو ربط مدفعاً حول عنقه وألقى بنفسه في الماء، فمن المحتمل أن البعض كانوا سيحزنون عليه وما كان

ليعيبه أحد. وهو في كل الأحوال لم يكن أحد أكثر الأحياء قبولاً، بل العكس هو الصحيح. فلابد أن ذلك البائس اليائس يلبسه شيطان، حيث بعث بهذا العدد الكبير من الكائنات البشرية إلى العالم الآخر دون لحظة إنذار واحدة^(١٥).

ويبدو أن "يانج تيزر" قد تناثرت على مساحة كبيرة من الخليج، وذلك أنه حتى عام ١٩٤٨ كان الصيادون ينتشلون قطعاً منها باعواها للسياح بأثمان جيدة. وهي تخرج من مقبرتها وتعيد تمثيل لحظاتها الأخيرة. وقد تكرر ذلك كثيراً حتى إن السكان المحليين لا يولونها سوى اهتمام قليل لا يتعدى قولهم "إنها تيزر" تحترق من جديد.

وهي عادة ما تظهر في الضباب أو الطقس الذي تتعذر فيه الرؤية على هيئة وهج داخل البحر. وحين يبحث المحبون للاستطلاع الأمر يخبو الوهج عند اقترابهم، ليعود إلى الظهور في مكان آخر. وعادة ما يستمر هذا الوهج بقائق كثيرة وحين يحدث فإن الناس عموماً - وليس دائماً - كانوا يظنون أنها نذير بطقس سيئ.

وفي يوليو ١٩٤٨ تصادف وجودي في خليج ماهون ورأيت وهجاً في الضباب وقيل لي إن "تيزر" تحترق من جديد، وأنذروني بعاصفة وشيكة. ووصلت العاصفة في اليوم التالي.

وعلى عكس معظم السفن الأشباح، يبدو أن هذه السفينة تخدم سيدين. فهناك الكنز الموجود على جزيرة أوك الذي يحميه الحصان الشبح وكلب الجحيم. وحينما يقترب شخص من هذا الكنز يشاهد الكلب يعدو مسرعاً على الجزيرة، ويظهر الحصان ويقال إن "تيزر" تحترق بأشد قدر من التوهج في عرض البحر^(١٦).

تقع جزيرة بلوك على بعد عدة مئات من الأميال إلى الجنوب الغربي من خليج ماهون. وكانت هذه الجزيرة الصغيرة مسرحاً لمأس وأعمال شريرة كثيرة بدأت حين قتل الهنود القبطان أولدام Captain Oldham في القرن السابع عشر^(١٧). وكان هناك اعتقاد بأن القراصنة يدفنون الذهب هناك واشتهر السكان في يوم من الأيام بأنهم ينهبون حطام السفن، وحتى فترة قريبة كان هناك اعتقاد في رود أيلاند بأن الأغراب يمكن أن يفقدوا أي شيء تقريباً هناك، ما لم يكن مربوطاً جيداً وعليه حراسة واعية.

وفى القرن الثامن عشر فقدت هناك سفينة اسمها "بالاتين" Palatine فى ظروف غير عادية ومحيرة. وتقول إحدى الحكايات إنها كانت سفينة تقل مهاجرين ألماناً ومنشقين دينيين إلى هذا البلد. وكانت السفينة قد قطعت مسافة طويلة ونفذ منها الطعام والماء وضلت طريقها ثم وصلت أخيراً إلى جزيرة بلوك. رست السفينة وألقت بمرساتها وطلبت الغوث. وكان الركاب والطاقم فى ضيق شديد وأصيبت امرأة بلوثة. وبينما كان أهل السفينة على البر أضرمت المرأة المجنونة النار فيها وماتت محترقة داخلها.

الحكاية الثانية هى أن الباحثين عن حطام السفن فى الجزيرة اجتذبوها بالطريقة القديمة الخاصة بإطفاء الفئار ووضع ضوء مزيف حول رقبة حصان أعرج يسمحون له بالرعى على الصخور. جنحت السفينة، وضرب السكان المحليون الأحياء على رؤوسهم وأضرموا النار فيها، وكانت على متنها امرأة مجنونة. فك المد المرتفع السفينة المحترقة التى انسابت إلى البحر وغرقت.

ويقال إن السفينة تظهر منذ ذلك الوقت وتحترق قبل العواصف الضخمة وكذلك يوم السبت الذى بين الكريسماس ورأس السنة إحياء لذكرى ضياعها^(١٨).

تخرج من هاتين الحكايتين حكاية أخرى جمعت من الجزيرة قبل سنوات عديدة. استخدم أهل الجزيرة الأرباح التى حققوها من هذا الحطام وغيره فى بناء سفينة وحملوها بشحنة إلى جزر الهند الغربية. وكان الطاقم يتكون من أبناء جزيرة بلوك وكان الربان أحد أبناء جزيرة بلوك المشهور بقدرته على السير بسرعة. أبحرت السفينة ووصلت إلى جزر الهند الغربية وباعت شحنتها وحملت شحنة أخرى وأبحرت عائدة. تم ذلك كله فى وقت قياسى ووصلت قبالة الجزيرة قبل أسابيع من موعد وصولها المتوقع. فقد نظر السكان عند الغسق ورأوا شراعاً فى عرض البحر، فأطفئوا الفئار وأوقدوا الضوء الزائف. كان الظلام حالاً. وصلت السفينة إلى البر واصطدمت بالشاطئ وتولى ناهبو الحطام أمر القليلين الذين بقوا على قيد الحياة واستطاعوا السباحة على الأمواج. وحين طلع الصبح اكتشفوا أنهم أغرقوا سفينتهم وقتلوا أبناء جلدتهم^(١٩).

ليست كل السفن المسببة للعواصف بالضرورة سفناً نارية. فالواقع أن السفن النارية لا تظهر في أغلب الأحيان في المياه البريطانية أو الأيرلندية. وطبقاً لما يقوله القبطان بوكان فإن سفينة نقل جنود تجمل على متنها القوات العائدة كانت تدخل ستورنوواي Stornoway بعد الحرب العالمية الأولى. كان اليوم هائلاً وكانت الرياح لطيفة في اتجاه ستورنوواي (فلم تكن ريحاً شديدة). لم يكن هناك أى سبب لحدوث مأساة، ولكن الباخرة اصطدمت بصخرة في الميناء وغرقت مخلفة خسائر كبيرة في الأرواح. ومنذ ذلك الوقت كثيراً ما تُشاهد باخرة بيضاء آتية قبل العاصفة الوشيكة.

وعلى امتداد ساحل كورنول، حيث يكثر غرق السفن، المتعمد والعفوى، تغص المياه والجو والبر بالسفن الأشباح. وهى تتباين في الشكل من اللَجَر (*) التى تظهر على إحدى البحيرات إلى القارب المتهاك الذى تقوده ساحرة كانت تثير العواصف، والآن لا بد لها أن تطفو باستمرار على مياه المحيط جزاء ما اقترفته من أعمال شريرة (٢٠). ويقال إن بعض هذه السفن تجلب العواصف، وبعضها الآخر يعقبها. كما أن بعضها مجرد علامات أو رسائل من الموتى. ومنها ما يأتى لبعض الأشرار أو ليتأكد من أن الوعود التى قُطعت منذ زمن بعيد وخُلُفت أوفى بها من قطعوها على أنفسهم أخيراً. وبعضها كذلك نذر يرسلها العالم الآخر لإعداد المجتمع لخبر فقدان سفينة معينة. وهناك ما يكون عازماً على الانتقام.

يقال إنه منذ سنوات بعيدة رسا قرصان في كورنول حيث ترك القرصنة واتجه إلى أعمال التهريب الأكثر احتراماً. وسرعان ما أصبح هذا مملاً فوجهُ مواهبه إلى نهب حطام السفن. كان على قدر كبير من المهارة في هذه المهنة وكان يجتذب الكثير من السفن إلى الشاطئ ويقتل الأحياء قبل أن يجمع الأسلاب. وفي النهاية أتركه الهرم ورقد على فراش الموت، ولكن هذه النهاية لم تكن سهلة. فقد ظل الشيطان يدخل الغرفة ويخرجه الجيران مراراً وتكراراً إلى أن دخل على هيئة نياحة فاستسلموا. وفجأة سمع من يراقبونه في الغرفة صوت أمواج وصاح صوت ضخم لقد آن الأوان ولم يأت الإنسان. وفي الخارج نظر الناس لأعلى ورأوا سحابة سوداء آتية من ناحية البحر.

(*) سفينة شراعية ذات شراع مربع الأضلاع أو أكثر (المترجم).

كانت سفينة فى سواد الفحم وقد فردت كل أشرعتها. اندفعت السفينة بخفة فوق الأرض والمنزل والتقطت روح الرجل البائس وهى تمر.

وبعد ذلك الحادث قرر الجيران أنه لابد رغم ذلك من عمل جنازة لاثقة للرجل. وضعوا الجثمان فى نعش واتجهوا إلى الكنيسة. وفى الطريق انضم لموكب الجنازة خنزير أسود ضخمة، وما إن بلغوا الكنيسة حتى أحرقت النعش صاعقة^(٢١).

ومن اللافت للنظر إلى حد كبير أن هناك قصة تكاد تكون متطابقة فى لابرادور. فما إن مات القرصان الذى تحول إلى نهاب لحطام السفن ومهرب، سمع الموجودون فى الغرفة هدير الأمواج وصوتاً يقول "حلت الساعة ولم يأت الرجل". وفى تلك اللحظة ظهرت سفينة تبهر على سحابة وحملت روح الرجل. وقد حُذفت الأجزاء الخاصة بالخنزير والنعش^(٢٢).

الواقع أن عدداً كبيراً جداً من مكونات هذه الحكايات موتيفات شائعة بين البحارة، وهو ما تدل عليه الحكاية التالية.

فى ليلة من الليالى كان صياد يسير بين إنفيرنس وكرومارتى Cromarty فى إسكوتلندا. وحين ارتقى أحد التلال رأى أمامه رجلاً عتيقاً. كان القمر يظهر ويختفى بين السحب، وبينما كان يطالع حدث أمر غريب. فقد أصبحت الأرض المعشوشبة الكئيبة بحراً هائجاً وملأ أذنيه هدير الأمواج المتكسرة، رغم وجوده على بعد ثلاثة أميال من البحر وكانت الليلة هادئة. وقد رأى أمام عينيه الرجم يتحول إلى صخرة عالية، وجاءت عبر البحر الذى يفور سفينتان كبيرتان أخذتا تدوران وتدوران حول الرجم^(٢٣).

ألا تساعد هذه الحكاية فى تفسير الحكايتين الأخريين؟ فالضباب على الأرض المعشوشبة يشبه الأمواج، ومن الممكن أن "هدير" البحر الذى كان فى أذنيه هو أن كون الجو هادئاً سمح له بسماع تكسر الأمواج على البعد. فالأمور ببساطة تتخذ، حين تكون الظروف مواتية، نسباً ضخمة، وتنتشر على نطاق واسع، وتستمر وقتاً طويلاً.

منذ سنوات كثيرة كان هناك ميناء جيد فى أورفورد بالقرب من أورفورد نيس Orford Ness، وكان يعتبر واحداً من أكثر الأماكن خطورة على الساحل الإنجليزى.

ولسبب أو لآخر (يقول البعض إن عروس بحر غاضبة هي السبب) أقيم حاجز على البوغاز وأصبح المرفأ جيباً مسدوداً. وطبقاً لما قاله القبطان بوب روبرتس **Bob Robe** فإن السفن التي تحاول الدوران حول أوكسفورد نس كثيراً ما تجد نفسها معرضة لمشاكل. وتشاهد في هذا المكان سفينة شراعية صغيرة على مسافة قريبة متجهة إلى أوففورد. وبدلاً من أن يتبع ربانها غير الحريص المثل القائل "حين تنتابك الشكوك ابق في الخارج" تجده يتبع عكس ذلك، وهو "آى ميناء في العاصفة" ويتبع الغرياء في الدخول، لكي يتحطم وحسب على الحاجز^(٢٤).

من بين كل حكايات السفن الأشباح، لا تضاهي أية حكاية منها ذلك الرعب الشديد الذي تحكى عنه تلك الحكاية التي تُروى في جزر شولز **Shoals Islands**. وقد يمكن القول بأنها حكاية عن الأحياء وليس الأموات، غير أنه لو كان الأمر كذلك فمن المؤكد أنها تجسد قدراً كبيراً من ماثورات السفن الأشباح في تركيبتها. وهي حكاية جيدة تستحق أن نسجلها هنا، ذلك أن لها خلفية متميزة، وأنا أعتقد أن هناك نوعاً ما من الحقيقة التي يمكن بيانها وراء الفولكلور كله.

كشأن الكثير من الجزر المنعزلة، نجد أن لجزر شولز تاريخاً طويلاً من العنف. إذ يمكننا اليوم أن نرى هنا مقابر أطفال صغار دفنهم أبائهم وتركوهم منذ سنوات مضت. وهنا خنقت أم طفلها لكي لا يبكى ويكشف للهنود المعادين عن وجودها. ويسير على الشاطئ شبح الكونستابل باب **Constable Babb**، ويقال إن راهباً يلبس قلنسوة يهرول على الشاطئ حين تهب الريح شرقاً. وتقف إحدى زوجات بلاكبيرد^(*) **Black-beard** على صخرة وتلوى يديها المتشابكتين ألماً. ويقال إن قرصانين شبحين يتقاتلان في علية الكنيسة. فقد فقدت سفن كثيرة هنا. وفي بعض الأحيان كان أفراد الأطقم ينجحون في الوصول إلى الشاطئ، وفي إحدى المرات تجمدوا حتى الموت على بعد خمسين قدماً من بيت مريح دافئ. ومنذ سنوات خرج رجلان في سفينة صغيرة من نيو هامبشاير **New Hampshire** و شوهدا في يوم الكريسماس يدخلان الميناء من فوق

(*) هو إدوارد تيتش **Edward Teach** المعروف باسم بلاكبيرد [اللحية السوداء] وكان قرصاناً إنجليزياً اتخذ من ساحل نورث كارولينا قاعدة له بعد عام ١٧١٢، حيث مارس أعمال القرصنة قبالة سواحل المستعمرات البريطانية وفي البحر الكاريبي. وقد قتله القوات البحرية البريطانية عام ١٧١٨ (المترجم).

المخاضات، ولكنهما لم يلقياً بالمرساة. ولا تزال السفينة تشاهد في الليالي القمرية قبل هبوب العواصف الثلجية على الميناء. وقد وقعت هنا واحدة من أفظع جرائم القتل في القرن التاسع عشر^(٢٥).

في مارس من عام ١٨٧٢ وجد رجل اسمه واجنر Wagner في بورتسماوث بنيو هامبشاير نفسه مفلساً. وكان قد أقام من قبل مع عائلة منتفٍ Huntvet على جزيرة سماتى نوز Smutty Nose Island (وهى إحدى جزر المجموعة). وحين اكتشف أن ذكور عائلة منتفٍ بعيدون عن البيت سرقة قارباً بمجدافين وسار به مسافة عشرة أميال في البحر الذى يكتنفه الظلام ووصل فى منتصف الليل وأخذ يفتش المنزل ليجد ما يسرقه. وبينما هو مشغول فى ذلك فوجئ بالنساء فضرب اثنتين بفأس فافقدهما الوعي وبعد ذلك خنقهما على مهل بوشاح. أما الثالثة فجرحها ولكنها هربت فى رداء النوم واختبأت وسط الصخور التى يغطيها الثلج. تناول واجنر وجبة مشبعة وطارد الشاهدة المتبقية مطاردة غير موفقة ثم عاد أنراهه إلى بورتسماوث. وبعد ذلك ألقى القبض عليه وحوكم وصدر ضده حكم بالسجن لمدة طويلة^(٢٦).

فى عام ١٩٥٢ سمعت القصة التالية من صياد على سفينة صيد رأسية هناك. وقد بدأ بلفت نظرى إلى حقيقة عدم وجود ما يعرف باسم تسفن الجينى^(*) Guinea boats (وهو نوع من السفن من بوسطن ليس له سمات محددة تديرها فى الغالب أطقم إيطالية أو برتغالية) فى الميناء. وبعد ذلك أوضح أنها كانت تستخدم فى السابق بأعداد كبيرة وكانت تبقى هناك لمدة شهر فى المرة الواحدة للصيد حول الجزيرة بالنهار. وفى المساء كان الصيادون يتجمعون حول برميل نبيذ ويتبادلون الحكايات.

وفى إحدى الليالى سكر أحد أفراد الطواقم وذهب إلى الشاطئ. وهناك تحرش بزوجة أحد الصيادين المحليين، وعندما لم تفعل ما أرادها منها قتلها بسكين وعاد إلى السفينة، وفى صباح اليوم التالى عاد إلى بوسطن.

(*) كلمة guinea مصطلح عامى يقصد به الإيطالى أو الشخص المنحدر من أصول إيطالية (المترجم).

اكتُشفت الجريمة واتهم أهل الجزيرة زوجها بارتكاب الجريمة. وعند عودته ألقى القبض عليه. ورغم حجج براءته أُلقت به الشرطة على إحدى السفن المنتظرة كي يذهب إلى سجن بورتسماوث. وهبت عاصفة عنيفة في ذلك المكان. ولم يحاول أحد قط العبور لبعض الوقت، ولجأ أفراد الشرطة إلى أحد المنازل مع سجينهم.

بلغت العاصفة أوجها بحلول منتصف الليل ، وفي تلك اللحظة قفز المتهم من أحد النوافذ وهرب إلى الشاطئ وأنزل قارباً صغيراً وسار به في تلك الليلة العاصفة. ومع أنهم بحثوا في كل الجزر والصخور من جلوسستر حتى كيب اليزابيث Cape Elizabeth فلم ير أحد الرجل ولا قاربه بعد ذلك.

في وقت لاحق عاد أسطول سفن الجيني إلى الجزيرة وعلم بأمر الجريمة. شكوا فيما حدث ولكنهم لم يقولوا شيئاً عن شكوكهم للعالم الخارجى.

ومرت بضعة أسابيع وفي إحدى الليالي كان الضباب كثيفاً، وكانت كل سفن الجيني واقفة في الميناء لقضاء الليل. وحوالى الساعة الثانية صباحاً سُمعت صرخات رهيبية من عنبر إحدى السفن. أسرع الجميع لمعرفة ما حدث. أوقد الضوء فكان القاتل راقداً هناك، وقد قطعت يده اليمنى من عند الرسغ. كان الفرع من هذه الجريمة من الشدة حتى إن رجلاً نسي أن يذكر أنه سمع صوت المجدافين على حكمتيهما، ونسى آخر أنه شاهد شخصاً يرتدى ملابس مشمعة في قارب صغير يجدف بعيداً في الضباب.

وبعد ذلك لم تكن أية سفينة من سفن الجيني آمنة هناك. فكان إذا اشتد الضباب أو كان الطقس عاصفاً، كانت الصرخات تُسمع على متن إحدى السفن وكانوا يعثرون على رجل وقد شوّه بطريقة أو بأخرى؛ كانت الأثنان تقطعان، أو القدمان تبتوران، أو الأنف يُجدع، أو العينان تفلعان. وكانوا على الدوام يرون في الظلام شكل رجل أشبه بالشبح يرتدى ملابس مشمعة صفراء يشق طريقه في قارب صغير. وفيما بين هدير الأمواج أو هزيم الرعد كان مجدافاه يسمعان على حكمتيهما. ولم يكن يراه أحد أو يسمعه حين يأتى، ولكن كان هناك من يسمعه ويراه وهو ينصرف.

استمرت تلك الهجمات ثمانية عشر عاماً، ولكنها كانت ضد صنف واحد فقط من الصيادين. وفي النهاية توقف أسطول الجيني عن الذهاب إلى الجزيرة، وحينئذ توقفت الهجمات. وأبلغني الإخباري أنهم لم يأتوا إلى هناك بعد ذلك خوفاً من الصيادين، وبالفعل لم أشاهدهم قط في كل المرات التي توقفت فيها في الجزيرة^(٢٧). ويبدو لي أن تطور هذه الحكاية يشرح نفسه.

يقال إن سفينة خطيرة أخرى موجودة بالقرب من سولواي فيرث Solway Firth، وهو موضع اشتهر بسفنه الأشباح. وفي هذه الحال خرج عريس وعروسه إلى البحر. وكما هو معروف، فمن سوء الطالع أن تؤخذ عروس إلى البحر،^(٢٨) وربما كان هذا هو السبب في أن الفتاة وزوجها قُتلا وألقيا في البحر. وبعد ذلك بوقت قصير غرقت السفينة وكل بحارتها لتعود إلى الظهور من جديد. وإذا رآها أحد علم أنها نذير شؤم، ذلك أن كارثة رهيبية في سوف تحدث لسفينته بعد ذلك بقليل^(٢٩).

توجد في أنحاء العالم الناطق بالإنجليزية سفن أشباح تنذر بالموت. وقد تكون أشهر هذه السفن - ربما لأنها خلُدت في قصيدة للشاعر ويتير Whittier الذي كان مهتماً بإلغاء الرق وبالخوارق - كانت سفينة شبح من هاربسويل Harpswell بولاية مين.

كانت هناك سفينة مجهود حربي اسمها "داش" Dash إبان حرب ١٨١٢، ويعتبرونها في بعض الأحيان أولى سفن القلبر بسبب خطوطها الحادة، رغم ظهورها قبل ربع قرن من ظهور السفينة "آن ماكيم" Ann McKim. وكان "داش" من الضيق بحيث لم يكن بها مكان للمخازن؛ وهو ما يعنى أنه لا يمكنها البقاء طويلاً في البحر، غير أن سرعتها الكبيرة عوضت ذلك وكانت سفينة مجهود حرب ناجحة، وإن كان هناك ما يدفع إلى الشك في كونها ضعيفة بعض الشيء.

ذات مساء بعد الحرب تراهن ريانها مع قبطان آخر على أن "داش" يمكنها أن تسبق سفينته في أي وقت. وبناء على ذلك نُظِمَ سباق حول جورجيز بانك والعودة، على أن تكون السفينة التي تصل أولاً هي الفائزة. انطلقا وكشفت "داش" العجوز عن معدنها. وفي الوقت الذي كانتا تقتربان فيها من المخاضات كانت تتقدم بطول كامل وكانت تسير تحت سحابة من الأشرعة. وفي تلك اللحظة هبت عاصفة شديدة، وحين

انقشعت اتضح أن "داش" اختفت للأبد. ولا أحد يعلم إن كانت فقدت في مياه المخاضة، أم انقلبت.

وبعد ذلك بوقت قصير ظهرت "داش" في خليج كاسكو. فقد شوهدت وقد نشرت كل أشرعتها عند الغسق، حيث كان الضباب يقترب، وكانت تبحر للخلف في اتجاه بلدة هاربسويل حيث موطن معظم أفراد طاقمها. وقبل وصولها إلى الميناء اختفت في الهواء الرقيق. ويقال إنه بعد ذلك بوقت قصير توفي أحد أفراد عائلة بحار من طاقمها. ومذ ذلك الحين كانت تظهر على فترات غير منتظمة، ودائماً عند بداية الليل، وباستمرار كانت أجراس الكنيسة تدق بعد مرورها معلنة وفاة شخص من أقارب أفراد طاقمها. وفي النهاية أسيغ، أو كان يعتقد، أنها سوف تظل تظهر كننير بالموت إلى أن يصبح كل أقارب أفراد طاقم "داش" في الجبابة، أو كما يقول ويتير "وحيثما تبحر سفينة الموت، سوف تسير سفينة الدفن بطيئة" (٣٠).

في بعض الأحيان تكون السفينة الشبح سفينة رحمة تختلف كل الاختلاف عن سفينة أورفورد نس. فذات مرة أقلت سفينتان صغيرتان معاً من بروسي Broadsea إلى أبردين Aberdeen. ولم يمض وقت طويل عليها في البحر حتى تعرضتا لعاصفة شديدة وانفصلتا عن بعضهما. وفي النهاية هدأت العاصفة وظلت إحدى السفينتين في طريقها إلى أبردين. وكانت ميناء يصعب دخوله إلى حد ما. وحين وصلت قبالة مدخل الميناء سرها أن تجد شكل رفيقتها أمامها في الظلام وتبعتها بشكل طبيعي إلى داخل الميناء دون ضرر أو خطر. ولم تدرك إلا بعد ربط حبالها في الرصيف أن السفينة الأخرى لم تكن أمامها، وأن أحداً لم يرها في الواقع منذ العاصفة (٣١).

تظهر معظم هذه السفن مرة واحدة فقط. وهذه في بعض الأحيان، وليس دائماً، رسل من العالم الآخر يزورن الأحياء ليعرفوا ما آل إليه أصدقائهم. وحين تحطمت السفينة البريطانية "نبتيون" عند جويثيان Gwithian قيل إنها شوهدت كشبح عند سانت أيفز على بعد ميل ونصف. وكانت قد فقدت في اليوم السابق قبالة كورنول. وخرج لها قارب عليه مرشد ووقف بجانبها. وقف المرشد ومد يده ليستند على بدنّها قبل أن يصعد إليها، ولكنه قبض على هواء رقيق ووقع في البحر (٣٢).

وُجِدت أهم تلك السفن التي تظهر في أمريكا الشمالية في مضيق لونج أيلاند في زمن البيورتانيين (التطهرين). فقد كان القبطان لامبرستون **Captain Lamberstone** يقود سفينة جديدة ولكنه شعر أنها من المحتمل أن تنقلب وكان يخشى على سلامتها. وعلى أى الأحوال، فقد أخذ على متنها في شهر يناير من عام ١٦٤٧ مجموعة من البيورتانيين واختفى من عالم الأحياء. اشتد الذعر بين البيورتانيين المتدينين وتُليت الصلوات من أجل عودتها السريعة. و(ربما) استجيب لتلك الدعوات في شهر يونيو، أى بعد ستة أشهر. ففي أعقاب إحدى العواصف شوهدت السفينة تاتى ميتة في عين الريح وقد نشرت كل أشرعتها قبل ساعة من حلول الظلام. وما إن اقتربت حتى أمكن تمييز أفراد طاقمها، وبعد ذلك تفسخت أشرعتها وصواريخها وعوارضها والسفينة ذاتها ولم يعد لها وجود^(٣٣).

في الوقت ذاته تقريباً غابت سفينة أخرى من سالم **Salem** بولاية ماساتشوستس. وكان على متنها شاب وفتاة جميلة. وكان طاقم الباخرة ممتعضاً من وجودهما، واختفت السفينة. ولا ندرى إن كان حالها مثل حال تلك السفينة التي تحدثنا عنها في سولواى فيرث أم لا. فقد ظهرت وهى تبهر فى اتجاه الريح وشوهد أحد أفراد طاقمها بوضوح وهو يشير إلى شىء ما - الواقع أنها كانت تتمتع بكل مؤهلات السفينة الشبح - إلا أن كاهناً بيوريتانياً طردها بالرقى والصلوات ولم يرها أحد منذ ذلك الوقت.

نحن نتحدث حتى الآن عن سفن هى أشباح فى البحر. وهناك مثلها فى المياه العذبة (يذكر ويليام باسيت اثنتين على البحيرات الكبرى **Great Lakes** ويتحدث هانت عن لجر صغيرة على بحيرة فى كورنول). وهناك كذلك سفن أشباح تطفو أو تطير فى الهواء بأكبر قدر من السهولة، ويُعتقد أن هذه السفن نذر بالعواصف أو الموت. ويذكرها باسيت فى مجموعة الجزر البريطانية، وتتضمن مجموعة كيرى **Carey** فى ميريلاند قصة واحدة على الأقل عن سفينة تطير فوق شقة ضيقة من الأرض فى خليج تشيسابيك.

فى هذه الحالة كانت امرأة قد كبست برنُس مولود وحفظته لكى تتمكن من رؤية ما سوف يحدث فى المستقبل، وقد نالت ذلك مرات عديدة. ففى الساعة الخامسة من مساء يوم من أيام الشتاء نظرت من نافذتها ورأت سفينة نشرت كل أشرعتها تبهر فوق قمم الأشجار. وعلمت بعد ذلك أن زوجها غرق فى نفس اللحظة^(٢٤).

هناك سفينة أخرى تشاهد فى منطقة نيوفاوندلاند. وهذه السفينة باخرة بيضاء كبيرة (ليست كنتك التى فى ستورنواى). وهى تشاهد عادة فى عرض البحر محاولة دخول ميناء أصغر من أن يستوعبها. ورغم ذلك، تدخل الميناء بكل قوة وتخرج إلى الشاطئ وتظل تسير "عبر الأراضى"^(٢٥).

وكثيراً ما تظهر سفن دون أن يكون هناك سبب محدد لظهورها. ويبدو أن هذا يصدق بشكل خاص فى إسكوتلندا وفى غرب أيرلندا. ودائماً ترى السفن متجهة إلى الشاطئ أو تقوم بالصيد أو مبحرة وحسب، ويديرها بحارة أو تكون بلا بحارة يديرونها. ورغم شيوع هذه المناظر، فإن السفينة وأفراد الطاقم أنفسهم لا يعاودون الظهور مرات كثيرة^(٢٦).

كانت سفينتان شبحان مفرعتان ولكنهما غير ضاريتين تخصصان قرصانين. كانت إحداهما سفينة كيد القديمة التى شوهدت وهى تشارك فى معركة مميتة مع سفينة أخرى فى مضيق لونج أيلاند. وهناك سفينة قرصان أخرى - قد نطن أنه من بين كل السفن قد يشير شبح سفينة القرصان إلى حدوث أسطورة فى المستقبل - من الواضح أنها غير ضارة ظهرت مراراً فى خليج جالفستون Galveston وفى المياه المجاورة له فى القرن الماضى؛ إنها السفينة "فيم" Fame، وهى سكونة سوداء البدن ثقيلة التسليح تخص جان لافيت. ومن المفترض أن "فيم" غرقت وعلى متنها سبعة ملايين دولار من الجواهر والذهب بعد وفاة لافيت. وكان أفراد الطاقم سكارى وغرق معظمهم معها. وقد شوهدت فى مناسبات عديدة وساعدت ذات مرة فى عام ١٨٦٤ سفينة اختراق حصار فى دخول ميناء تشارلستون. وكان أشهر ظهور لهذه السفينة فى عام ١٨٩٢ حين شاهدتها سفينتان. فقد أفاد قبطان إحداهما بأنها كانت على وشك أن تصطدم بها وكان أفراد الطاقم يبدون كموتى أحياء. وأفاد رجل آخر، هو ريان السفينة النرويجية

“فير هيلدا” Fair Hilda بأن بوصات معدودات كانت بينها وبين الاصطدام بسفينته، ولم يعر أفراد طاقمها ذلك أدنى قدر من الاهتمام. وكان أبرز شيء بالنسبة لها هو أنها كانت مضيئة وأنها حين مرت لم يكن لها ظل.

من الواضح أن هذه السفينة واحدة من السفن التي تجوب المحيط، ذلك أنه أفيد بعد وقت قصير بأنها شوهدت قبالة أمريكا الوسطى^(٣٧).

وكان الأقل روعة عن “كويداه ميرشانت” (سفينة كيد) أو “فيم” هو شبح السفينة القلبر القديمة “تينيسى” Tennessee التي قيل منذ سنوات عديدة إنها شوهدت تشق طريقها إلى داخل خليج سان فرانسيسكو لتختفى قبل بلوغها الميناء^(٣٨). وكذلك الحال بالنسبة لسكونة جلوسستر “أليس مار” Alice Marr. وقد سميت باسم خطيبة القبطان (وهو فال سيئ) وذهبت إلى جراند بانكس ولم تعد قط. وفي الذكرى السنوية لإبحارها أفيد برؤيتها خارج ميناء جلوسستر ولكنها لم تصل إلى الميناء. وكان من المفترض خروجها من القاع في كل ذكرى لإبحارها وظهورها قبالة جلوسستر، ولكن لا أحد يعلم الغرض من ذلك؛ ما لم يكن توفير بعض الراحة لمن كانت ستصبح عروساً وارتدت في النهاية فستان زفافها ليكون كفنًا لها^(٣٩).

كل السفن التي تحدثنا عنها حتى الآن لها سفن حقيقية هي أصلها. وهناك مجموعة أخرى من السفن الأشباح التي تحتاج إلى نظرة عابرة. تلك هي سفن الموت أو سفن الشيطان التي تعود بداياتها إلى عصور أقدم من عصر الهولندي الطائر والسفن المصاحبة لها. ولحسن الحظ أو لسوءه، أصبحت هذه السفن في حالات كثيرة من التخفيف بحيث لم تعد سوى حكايات مضحكة يصعب تصديقها وحسب. ولسنا بحاجة إلا إلى تذكر فكرة رحلة الموت البحرية وملاحظة أن الإغريق كانوا يرون أن هذه الرحلة تتم في سفينة خارون؛ وهي سفينة بُنيت باستخفاف حتى إنها كانت تكاد تفرق حين يصعد على متنها إنسان حي. بل إنه يبدو أن هذه السفينة بُنيت للمعداوى العجوز ولم تكن النتيجة القائمة على المصادفة لفقدان سفينة صيد عليها حمولة من السردين.

كان لدى الشعوب الكلتية والجرمانية سفن كسفينة خارون غير أنها كانت أكبر حجماً وكانت تسير في البحر وليس عبر نهر كنهر ستايكس. وكانت إحدى هذه السفن

تقف قبالة الساحل الغربى من أيرلندا، وكان واجبها أن تحمل على متنها كل موتى العالم وتنقلهم إلى الجنة. وكان مطلوباً من سفينة أخرى مسح بحار العالم ومحيطاته لالتقاط البحارة الغرقى، بينما كانت سفينة ثالثة تطوف البحار الشمالية الباردة لنقل الموتى الكلتين إلى مقرهم الأبدى.

هذه السفن جميعها كبيرة؛ بل هي أكبر من سفينة نوح البالغ طولها ٥٢٥ قدماً، ويبدو أن طولها وعرضها يشيان بآراء صانعيها الخاصة بالموتى التى كانت تتخيل الروح البشرية بنسب أشبه بتلك الخاصة بالحياة، بعكس المعتقد المسيحى الذى يجعل الروح متناهية الصغر. ومن ثم كان من الضرورى تصميم حظيرة عائمة بالضخامة الكافية لاحتوائهم.

ومع ظهور العقيدة المسيحية تغيرت تلك السفن تغيراً جذرياً أو اختفت. ذلك أنه رغم حقيقة أن المسيحية نشرها الرسل الذين كانوا صيادين، فإن المسيحية دين زراعى وليس بحرياً. وكان أحد تعديلات الشكل القديم هو أنه من المفترض أن الشيطان بنى سفينة ضخمة خاصة به. وكان الشيطان يطوف بهذه السفينة ليجمع الموتى الذين لم يحلوا بالاعتراف من خطاياهم من أجل أغراضه السيئة، إلى أن أغرقه القديس إلمو.

أفترض أنه من الممكن التعامل بجذ مع هذه الحكايات، أما النوع الآخر من الحكايات الذى انحدرت إليه تلك الحكايات القديمة فيشبه الفارص farce أو الحكاية التى يصعب تصديقها. وفى هذه الحكايات يكون التركيز على جزء ضخم من السفينة المعنية، وكل الحكايات التى تدور حولها تقريباً هى فى الواقع صور مجازية موسعة تحاول زيادة كل من الطول والعرض، وكل من المجرى والملموس. ولتحقيق هذه الغاية هناك أبدال من الخيل على ظهر السفينة تجرى حاملة الرسائل والأوامر. ويقال إن الصوارى من الارتفاع بحيث يطلعها الأطفال وينزلون منها وقد صاروا شيوخاً نوى لحى طويلة. والمطاعم موجودة فى بكراتها بحيث لا يموت أفراد الطاقم جوعاً فى أعلى الأشرعة. والسفينة من الضخامة بحيث لا يمكنها المرور من بحر المانش، حتى ولو كانت تحت القيادة الواثقة للبحار العملاق الماهر سترومالونج Stromalong، وكانت تترك أثر طلائها على صخور دوفر Dover، جاعلة إياها بيضاء. وكانت تحتاج إلى مائة عام كي

تغير اتجاهها وكانت تسير بأسماء كثيرة في دول كثيرة: "سكيدبالدنر" Skidbaldner و"لا جراند شوس" La Grande Chausse و"فوندر" Fondre و"ماننجفيوال" Manningfu- al و"ريفانو" Refanu و"روث رامباك" Roth Rambach و"ريب لوسيرن" Rape Lucerne والإنجليزية "ميري دان أوف دوفر" Merry Dun of Dover^(٤١).

إلا أن وراء ما هو مضحك لا يزال هناك اعتقاداً في سفن الشياطين تلك. وحين يتحدث العامة عن السفينة العفريت أو السفينة الشبح فمن الواضح أنهم يعنون الشيء نفسه. وحين يتحدثون عن سفينة الشيطان أو سفينة الأرواح فإنهم يقصدون شيئاً آخر. يحتوى أرشيف الفولكلور في جامعة نيوفاوندلاند كل أنواع الحكايات الخاصة بالسفن الأشباح، بما في ذلك سفينة شبح يقطرها زورق شبح، وهو حسب علمي أمر فريد. وهناك حكايات قليلة تتناول سفن الشياطين والأرواح. ويمكن التعرف على هذه السفن بأنوار تحديد الموقع، حيث تكون أحمر وأزرق وليس أحمر وأخضر. وقد رأى رجل إحداها ذات ليلة وتعرف عليها في الحال. ولذلك لم يندهش أن يرى الأشباح تسير على سطحها حين اقتربت منه. وعلى عكس معظم الريابنة، تعتمد هو الاصطدام بالسفينة وفعل. وحين اصطدمت السفينتان اختفت السفينة الشبح في الهواء، وكذلك أفراد الطاقم والجميع، ولم يرها أحد مرة أخرى. والأمر الغريب أنه حين ارتطمت السفينتان ببعضهما لم ينتج عن ذلك أي صوت. إلا أن السفينة الحقيقية شعرت بالآثر وعلى الفور مالت بشدة^(٤٢).

ولا يزال مفهوم سفينة الأرواح موجوداً في جزر الهند الغربية، رغم أنه لم يعد له شكل محدد بصورة أكبر مما عليه الحال حتى في نيوفاوندلاند. وقد روى مورجان ماكلارين Morgan McLaren من ويندورد في كاريماكو حكاية تبين بجلاء الفرق بين نوعين من المعتقد. فقد قال إنه كان يبحر ذات ليلة ضوء القمر فيها لا بأس به حين نظر أمامه فرأى شيئاً في الماء قرر بعد التدقيق أنه حوت. وحين أراه لسائر أفراد الطاقم لم يشاركوه الرأي فيما يتعلق بهويته، ولكنهم قالوا إنها سفينة شيطان. وعلى الفور جمعوا القنور والطاسات وبدعوا يحدثون ضجة رهيبية، وهو ما أدى على ما يبدو إلى اختفاء ذلك الشيء. وأظن أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا الشبح لم يكن يشبه سفينة حقيقية

كما هو الحال بالنسبة لسفينة الأرواح. بل إنه من الواضح أن سفينة الشيطان تعتبر خطيئة ولكن لا يمكن إبعادها بإحداث جلبة بالدق بالملاحق على أحواض غسل الصحن.

هناك بالطبع فئة أخرى من السفن الغريبة التي لا بد من تناولها تناولاً سريعاً، لأنها كثيرة العدد. وهذه هي ما أود تسميتها بالسفن الغامضة. فمن حين لآخر يقابل البحارة سفناً تسير بمفردها في البحر. فليس هناك بحار على الدفة ولا يوجد أفراد طاقم على متنها.

وعموماً هناك تفسير لما حدث. فربما جنحت السفينة وتركها البحارة ثم طفت وأبحرت. وربما مات أفراد الطاقم لإصابتهم بمرض ما. وربما شب حريق في السفينة أو حدث بها تسرب وهجرها أفراد الطاقم وتوقف التسرب بعد ذلك وانطفأ الحريق وظلت السفينة تسير بمفردها. بل إن البعض منها ربما يكون القراصنة قد أفرغوه ممن فيه، أو أوقعهم البحر الهائج في الماء. ولكن هناك في العادة أدلة على متن هذه السفن تبين ما حدث؛ مثل وجود ماء في المخزن أو حطام أو مخازن سودها الحريق أو غير ذلك.

غير أن القليل منها ما يُعجز الباحث عن الكلام ويرعب البحار. وهذه هي السفن التي لا تبدو عليها أى علامة تدل على وجود مشاكل، ومع ذلك فقد اختفى أفراد الطاقم في الهواء. وأشهر هذه السفن هي "مارى سيليست" *Mary Celeste*، إلا أن حكايتها أشهر من أن أرويها هنا. وتكفي الحكاية الأخرى، وهي ليست بنفس القدر من الشهرة، لبيان هذا النوع من السفن.

كان صباح يوم صيف لطيف من يوليو عام ١٧٥٠ في نيويورك برود أيلاند. كان بعض الصيادين في إيتونز بيتش يعملون بمعداتهم حين لاحظوا سفينة شراعية صغيرة ذات صاريتين في عرض البحر تقف مواجهة للبر. حلت السفينة محل رف بوينت *Rough Point* وقبيل اصطدامها بالأمواج المتكسرة غيرت اتجاهها وأبحرت في اتجاه الصخور على الشاطئ الآخر. ومرة أخرى غيرت اتجاهها بالقرب من الأمواج المتكسرة وأبحرت في اتجاه البر على الشاطئ الرملي.

صعد الصيادون الذين أصابهم الفزع على متنها ووجدوا كلباً وقطة. وكان قدر الماء يغلى على الموقد وكانت المائدة معدة لتناول الطعام الذى كان ساخناً على الموقد. لم يكن هناك ما يدل على العنف أو الفوضى، ولكن أفراد الطاقم اختفوا ولم يُعثر لهم على أثر قط. ومن المفارقة أن السفينة والريان كانا من البلدة وكانا قد توجهتا إليها من هندوراس حين وقع ذلك الأمر.

أعيد تعويم السفينة وأعيد تسميتها لتصبح "بيتش بيرد" Beach Bird وظلت سنوات تحمل الشحنات إلى أن حولها البريطانيون إلى سفينة مسلحة أثناء الثورة^(٤٣).

هذا إذن هو شكل السفينة الشبح. ومن اللافت للانتباه ملاحظة أن القليل منها بواخر وأن القليل منها ظهر إلى الوجود منذ فترة قريبة. ولتأييد ذلك قد نلاحظ أنه لا "أندريا دوريا" Andrea Doria ولا "مورو كاسل" Morro Castle ولا "نورماندى" Nor-mandie قد بنيت عليهم حكايات. وكل عام تصبح أقل من العام الذى قبله وتموت الماثورات القديمة وينتقل البحارة العواجيز إلى العالم الآخر. إلا أننا إذا نظرنا إلى كل الأمور معاً لوجدنا أنها بقيت فى العصور الحديثة بصورة جيدة جداً.

وفى نوميكا، حيث الأرواح فى كثافتها كالغابة الاستوائية، يقول الناس "سوف ترحل الأشباح". وحين تسأل عن السبب تعلم أنها لا تحب الدخان، وبصورة خاصة التبغ وعادم المحركات. فهل من المحتمل أنه لا تزال هناك مناطق فى البحر فيها من النقاء بما يكفى لدعم حياة الأشباح؟

خاتمة

تبقى هناك بضع كلمات بشأن الصفحات السابقة. فعلى عكس السفينة التي تطلع فى رحلة على مياه المحيط متجهة إلى ميناء بعينه وإما أن تفرق أو تصل إليه، لا ينتهى الكتاب دائماً بالطريقة التي بدأ بها. فحين فكرت فى وضع هذا الكتاب كان المقصود به أن يكون ملخصاً تاريخياً عاماً لل فولكلور البحرى. ولكن حجم المعلومات أصبح ضخماً. ولذلك ضاقت الرؤية، وكان المتوقع هو دراسة مشابهة تعتمد على الناطقين بالإنجليزية.

بدأت فى تنفيذ هذه الخطة، ولكنى اكتشفت فى وقت مبكر جداً أن لدى حكايات كثيرة من الأحياء بحيث لم يكن هناك مكان للموتى؛ أو لكثير من الأحياء بالنسبة لهذا الموضوع. وبناء على ذلك عدلت الكتاب للمرة الثالثة، وكانت النتيجة أن تكون كل مادة من مواده موجودة فى التراث الحى خلال الثلاثين سنة السابقة للكتابة. وفى بعض الأحيان تكون الرواية الحديثة مختلفة اختلافاً واضحاً عن سابقاتها. وفى بعض الأحيان بذلت جهداً لبيان ذلك، وأمضيت وقتاً طويلاً فى البحث عن الأسباب التفسيرية للمادة المقبولة للشخص الحديث، وأمل أن تكون كذلك للشخص نصف المثقف.

وظهرت مشكلة أخرى تتعلق بالكتاب عند محاولة تقرير ما الذى أُضْمِنه فيه وما الذى أُستبعده منه، ذلك أنه عندما حان وقت الكتابة كانت أمامى مواد أكثر بكثير مما يمكن أن يوجد بشكل منطقى بين دفتى كتاب، بل كذلك بعض الفئات التى كانت تلح على، وإن كنت أتمنى ألا تكون كثيرة. وحين كنت أقرأ الورقة ثم أتذكر الكلية البيئية لكثير من هذه الحكايات تصبح ساحرة من جديد، وكان من الصعب استبعاد حكاية وتضمين أخرى. فلا بد أن نتذكر أن الفولكلور ليس مادة وإنما تجربة.

ولكى يكون الفولكلور فى أحسن أحواله، فإنه يتطلب راوياً وبيئة. وحين ينظر المرء إلى الحدوتة الموجودة فى صفحة مطبوعة تكون كئيبة جداً، ولكن حين تستخدم التذكر

ويسبح وجه الراوى أمامك، وكذلك الطقس والرائحة والكثير من الأشياء الصغيرة الأخرى، تتكون لها دلالة ومكانة تفوق القيمة المطبوعة. وحين يكون الراوى والوقت مواتيين يمكن أن تصبح الحكوة متوسطة القيمة حكاية عظيمة.

ومنذ سنوات قالت بسارة أورن جويت (*) Sarah Orne Jewett إن الشئ الوحيد الذى يستحق الكتابة عنه هو ذلك الذى لا يمكن أن تنساه. ومن قبلها كتب وردزورث Wordsworth قصيدة The Daffodils [النرجس الأصفر] مشيراً إلى أنه يمكنه أن يقول شيئاً لافتاً للانتباه على أية حال. ومن بعده قالت ويلا كاتر (**) Willa Cather ما معناه أن كل الخبرات البشرية تكتمل حين يبلغ الشخص العاشرة من عمره. والمعنى الذى يرمون إليه جميعاً هو أن المادة الجيدة لا بد أن تصمد أمام اختبار الزمن، وكان ذلك العامل الأساسى فى اختيارى. فالمادة التى تذكرتها بأكبر قدر من السهولة كانت لها الأولوية.

ذات مرة سألت صياداً عجوزاً عن حكاية من الحكايات. فكر برهة ثم قال بصوت بطيء مجهود: "سمعت ذلك منذ زمن بعيد. لا أستطيع أن أتذكره على وجه الدقة. ربما كان على سفينة صيد، فى مكان ما، فى وقت ما." وتقود هذه الملاحظة إلى مشكلة أخرى، وهى المصدر. فالباحثون الفولكلوريون يهتمون بالتفاصيل الخاصة بإخباريهم؛ الاسم والعمر والمهنة وغير ذلك من المعلومات الموجودة داخل ملف الشرطة والسجل الصحى. وأنا لم أشعر قط أن من المهم جداً معرفة ما إذا كان بيل أو فريد جونز هو الذى روى الحكاية، ويعتزم قليل من القراء السباحة إلى جزر فارو (***) Faroe Islands لإجراء مقابلة مع أحد الإخباريين. ومن المؤسف أنى بدأت جمع الفولكلور قبل أن أعرف ما هو الفولكلور، ولا بد أن أعود للوراء أربعين سنة لاسترجاع الكثير من تلك الحكايات.

(*) كاتبة أمريكية (١٨٤٩-١٩١٩) تميزت برواياتها وقصصها المتعلقة بمسقط رأسها مين. وتعتبر روايتها The Country of the Pointed Firs أفضل أعمالها (المترجم).

(**) كاتبة أمريكية (١٨٣٧-١٩٤٧) كانت تكتب عن الحياة على الحدود وحصلت روايتها One of Ours على جائزة بوليتزر (المترجم).

(***) مجموعة من الجزر البركانية شمالى المحيط الأطلنطى وجزر شتلاند كانت تسكنها فى الأصل شعوب كلتية ثم أصبحت جزءاً من الدنمارك عام ١٢٨٠ (المترجم).

احتفظت بأسماء الإخباريين جميعاً لمن يهمهم ذلك. وقد استخدمتها بحذر في هذا الكتاب لسببين. فمن الممكن أن البعض لن تعجبه فكرة ذكر اسمه في وثيقة عامة خاصة بما يعتبره "المتعلمون" كلاماً فارغاً، وفي الوقت ذاته قد يغضب الإخبارى نفسه حين يجد اسمه محنوقاً بينما اسم غيره متضمن. الأسماء متاحة للباحثين المسئولين؛ رغم أن بعض الحكايات موجودة لدى منذ فترة طويلة.

حين تطالعون المادة الموجودة في هذه الصفحات تصبحون على وعى بأن ماثورات القوارب الصغيرة أكثر من ماثورات السفن الكبيرة؛ وهو ما أقصد به أنها جمعت من أشخاص على صلة بالمراكب الصغيرة. والظن الشائع أن السفينة القلبر كانت الحامل العظيم للفولكلور البحرى والمبدع له. ربما كانت السفن القلبر ناقلاً ممتازاً للأغاني البحرية، ذلك أن العمل كانت يتطلبها، ولكن الأطقم كانت تتكون من حفنة مخلطة من الرجال الذين يختارون بأية وسيلة من الحانات ومن الطبقات الدنيا في مجتمعات كل العشوائيات التي ترسو عندها السفن الكبيرة. وكان الكثير منهم موجوداً على متن السفينة لرحلة واحدة، ثم غادر السفينة بنفس الجهل الذي كان عليه تقريباً حين دخلها. بل إن الباخرة الحديثة ليست بأفضل حالاً، حيث يديرها الميكانيكيون بمعرفة قليلة عن البحر أو بلا معرفة، ويقدر أقل من الاهتمام بها.

إن فولكلور البحر يكمن بالأحرى داخل بحار المركب الصغير، أو قارب الصيد أو السفينة التي تسير بمحاذاة الساحل، الذي ولد والبحر في أنفيه، ويتبعه طوال حياته، ويموت مع تحول المد. هنا تصنع الماثورات، وهنا تحفظ. وهؤلاء الناس هم الذين وجهت إليهم جل جهدى للحصول على المعلومات.

وحين ننظر إلى المادة المعروضة هنا يتضح على الفور أنها تتبع من ثلاثة مصادر: العالم القديم، وأمريكا الشمالية، والبحر الكاريبى. ومادة كل من جزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية مشتقة من العالم القديم. ومادة العالم القديم هي الأكثر اكتمالاً، والأكثر إمتاعاً من الناحية الجمالية. وتقوم ماثورات جزر الهند الغربية بدور في طريقة معيشتهم أكثر شمولية من المادتين الأخرين، والأفكار أقدم إلى حد ما. وفي الوقت ذاته تختلف هذه المادة اختلافاً واضحاً عن المادتين الأخرين. وقد يرجع ذلك إلى حد

ما إلى البيئة، ولكن من المحتمل أن يعود بشكل كبير إلى تطبيق المواقف الأفريقية على معتقدات العالم القديم.

من بين هذه المناطق الثلاث نجد أن المادة الخاصة بالولايات المتحدة هي الأكثر تشظياً. وهو ما قد يرجع إلى حد ما إلى العزلة المعاشة هنا، مع الاعتماد المتزايد على العلم وطرق الاتصال، وأسلوب الحياة الأكثر تغيراً. ومثال ذلك أننى التقيت فى أيرلندا بإخبارى كان يعيش فى منزل تشغله عائلته منذ ألف وخمسمائة سنة، والتقيت براوى حكايات يمكنه أن يروى حكاية تستغرق روايته أربعاً وعشرين ساعة. ومن المستحيل حدوث ذلك فى الولايات المتحدة مهما كان الحال.

لا بد ألا ننسى فى الوقت نفسه أن الولايات المتحدة مرت خلال ثلاثة قرون بنفس التطور العرقى الذى مر به أهل الجزر البريطانية على مدى ألفى سنة. وربما كان هذا هو السبب فى أن ماثورات هذه المهنة - العمل فى البحر - على وجه التحديد هى التى صمدت على مدى القرون وخلال التغير المادى الضخم الذى يمكن أن تكون بمثابة المعمل لبيان التغييرات التى حدثت حين تكون الثقافات فى حالة مواجهة. وبمقارنة المادة الأمريكية بالمادة الموجودة فى الخارج قد يمكننا قياس الشكل الذى كانت عليه الثقافة هناك منذ زمن بعيد وربما نتنبأ بما سيكون عليه الحال فى المستقبل.

اشتكى أحد الأشخاص الذى تكرم بقراءة مخطوطة هذا الكتاب من أنه لم يكن هناك تفريق كاف بين ما هو قابل للتصديق وما هو غير قابل للتصديق. بالنسبة لأهل البر هناك قدر من الفرق بين حكاية عن غرق سفينة حدثت فى زمان ومكان معينين وحكاية أخرى عن الشبح الذى يطارد إحدى السفن فى العاصفة. وأمل أن يكون هذا الكتاب قد كُتب وفى الذهن وجهة نظر البحار. فهو يرى أن الخط الفاصل بين ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى رفيع جداً، وهو على استعداد لتصديق ما هو غير قابل للتصديق. فقد عوبوه على قبول فكرة أن عالم الأرواح يتدخل فى عالم الواقع. ولذلك فهو لا يفرق كثيراً بين العالمين.

وإلى حد ما، ربما كان هناك قدر مما هو قابل للتصديق فيما هو غير قابل للتصديق أكبر مما نود الاعتراف به. إن العقل يستجيب للمثيرات. وحينما يكون ذلك

ممكناً، فإنه يستجيب بلغة الاستجابة العليمة. ولذلك فإنه إذا كان رجل ما البحر فى دمه بالفعل، فإنه يشعر بقدوم العاصفة نون أن يعرفها. فالمعرفة يبينها رجل ميت آت من فوق مقدمة السفينة بسفينة شبح فى عرض البحر. قد تكون هذه أمور لا يمكن تصديقها من الناحية العلمية، غير أن ربود الأفعال التى تولدها قابلة للتصديق؛ كطى الأشرعة، والاتجاه نحو الشاطئ، وتغيير المسار.

لم يكتب هذا الكتاب لكى يكون دراسة لعلم نفس الخوارق أو كان هذا هو القصد منه، مع أن البعض سيتمكن بلا شك من العثور على بعض التفسيرات الإباحية للمادة. لقد كان المقصود هو بيان أثر العادة والمعتقد على رد الفعل البشرى، وهو ما حظى باهتمام عميق من جانبى زمناً طويلاً. هل الإيمان بمعتقد ما يوفر حية متناهية الصغر من الثبات أو اليأس التى توصل الرجل إلى الميناء أو تبعث بكل البحارة إلى القاع؟ باختصار، هل تفلح هذه المعتقدات على المستوى الواقعى أو المستوى النفسى؟ ربما عشت زمناً طويلاً معها، ولكنى أظن أنها تفلح.

كلمة أخيرة. ربما ما سأقوله لا يخص هذا الكتاب فى واقع الأمر، ولكن جمع الفولكلور بالنسبة لى ليس مجرد متعة، بل هو أسلوب حياة ساحر. فقد سار بنا أميالاً كثيرة إلى موانئ عديدة فى بلدان مختلفة. وقد عرضنا لخبرات كثيرة، ولقيم حياة عديدة، ولتفسيرات شتى للواقع. لقد التقينا بأناس طيبين وبأناس أشرار، ولكنهم قليلون. ومن خلال جمع الفولكلور سُمح لنا بالمشى مع رجال عظام.

الهوامش

الفصل الأول

1. Statement purported to have been made by John Paul Jones. Capt. Robert J. Bulkley, *At Close Quarters, PT Boats in the United States Navy*, Naval History Division, (Washington, D.C., 1962) n.p.
2. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.
3. Alan Villiers, *Captain James Cook* (New York, 1967), p. 78.
4. Personal collection. For comments on the cowhorn, see Ethel C. Ritchie, *Block Island Lore and Legends* (Providence, Rhode Island, 1967) and "Block Island Cowhorn," 70.763, G. W. Blunt White Library (Mystic, Connecticut, 1971).
5. For an excellent discussion of seventeenth-century shipbuilding, see Captain John Smith, *A Sea Grammar* (London, 1627).
6. Personal collection.
7. According to Benwell and Waugh, there are several analogues to this story. In Cromarty Firth, almost across the bay from Buckie, was a famous mermaid who granted a boatbuilder three wishes: that he build unsinkable boats, marry the girl of his choice and a third wish which was never revealed. On the Mull of Kintyre on the west coast of Scotland a man named Mackenzie was also granted favors by a mermaid—to build boats that would not sink and from which no one would be lost. Gwen Benwell and Arthur Waugh, *Sea Enchantress, The Tale of the Mermaid and her Kin* (New York, 1965), p. 172.
8. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1957), p. 129.
9. Frances Kay, *This—Is Grenada* (Trinidad, 1966), pp. 130–131.
10. Carey Archives, University of Maryland.
11. *Ibid.*
12. Personal collection. The beginning of ship construction is, generally speaking, analogous to house construction with one serious exception. More care is taken with the ship than the house, for should the house fall upon evil days the inmates have a better chance to escape than the seaman who finds himself overboard on a dark night because some careless person has failed to propitiate some spirit.
13. Personal collection.

14. Personal collection. This bell is but one of a number of "vanishing" objects held in awe by the Irish. One is the Cursing Stone of Tory Island, and another is the magic rock on Caher Island which has the ability to raise storms. Still another is the skull of Grace O'Malley on Clare Island (see Chapter XII).

15. Personal collection.

16. Personal collection.

17. See Peter F. Anson, *Fisher Folklore* (London, 1965), pp. 70, 83, for interesting analogues to this idea.

18. See Marion V. Brewington, *Ship Carvers of North America* (Barre, Massachusetts, 1962).

19. See Richard Lebaron Bowen, "Maritime Superstitions of the Arabs," *American Neptune*, 15:5-48, 1955.

20. See Brewington, *op. cit.*, Chapter III, "Frigates and Packets."

21. See John G. Lockhart, *Peril of the Sea* (London, 1924); see Celeste.

22. See Bruce Procope, "Launching a Schooner in Carriacou," *Caribbean Quarterly*, IV (1955), p. 123.

23. See Kay, *op. cit.*, for further details.

24. All the above material is from my personal collection, and both time and place have been made deliberately obscure.

25. Anson, *op. cit.*, states that if a vessel were launched stern first in Brittany, she would steer badly.

26. George S. Wasson, *Sailing Deas on the Penobscot* (New York, 1949), pp. 117-121, has an amusing account of lubberly launchings in Maine during World War I, when shipbuilding was revived in the state after remaining dormant for a number of years.

27. Anson, *op. cit.*, p. 94.

28. Personal collection.

29. James P. Duggan, *The Great Iron Ship* (New York, 1953), p. 153.

30. Fletcher M. Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors*, (Chicago and New York, 1885), p. 400.

الفصل الثانى

1. George W. Stewart, *Names on the Land* (Boston, 1969), p. 292.

2. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1959), p. 16.

3. *Ibid.*, p. 14.

4. Narrated by John Lorne Campbell, Isle of Canna, July 5, 1969.

5. Beck, *op. cit.*, p. 13.

6. Personal collection.

7. Beck, *op. cit.*, p. 15.
8. Richard Bauman, "Three Legends from the Ayrshire Coast," *Scottish Studies*, Vol. 8, Pt. 1 (1964), p. 33.
9. Stewart, *op. cit.*, pp. 176-82.
10. David Thomson, *People of the Sea* (Barrie and Rockliff, London, 1965).
11. Beck, *op. cit.*, pp. 18-19.
12. Alan Walker Read, "Folklore Factor in the Etymologizing of Place Names," lecture delivered before American Folklore Society, November, 1969.
13. Personal collection.
14. Patrick L. Fermor, *The Traveller's Tree* (New York, 1950), p. 185.
15. A. B. Taylor, "The Name 'St. Kilda,'" *Scottish Studies*, 13 (1969), pp. 145-58.
16. Personal collection.
17. Personal collection. This tale is remarkably like the tale of the Red Hand of Ulster—popular throughout Ireland and narrated to me by Sir Thomas Lipton many years ago to explain why a flag had a red hand on it. In Sir Thomas' version, however, the race was for prize money.
18. *Irish Coast Pilot* (London, 1954), p. 177.
19. Seaton Gordon, "Distinguished Scarba and its Whirlpool," *The Times* (London, November 5, 1966).
20. Lt. Col. the Hon. Arthur Murray, *St. Columba and the Holy Isle of the Garvellaches—The Whirlpool of the Corrie Vreckan* (Edinburgh, 1950), p. 26.
21. Martin Martin, *A Description of the Western Islands of Scotland* (London, 1703; 4th edition, Stirling, 1934), p. 271.
22. Murray, *op. cit.*, records a somewhat similar story, p. 29.
23. MacEdward Leach, "Celtic Tales from Cape Breton," *Studies in Folklore in Honor of Distinguished Service Professor Stith Thompson*, ed. W. Edsen Richmond (Bloomington, Indiana, 1957), p. 43.
24. Personal collection. For a detailed account of Balor see Alexander H. Krappe, *Balor o the Evil Eye*, *Studies in Celtic and French Literature* (New York, 1927).
25. Thomas H. Mason, *The Islands of Ireland* (Cork, 1936), p. 58.
26. Obviously these stories are now fragmentary. There is little doubt that originally this tale was longer and connected to the numerous stories of magical cows like the one stolen by Balor of Tory Island from MacKineeley, on the mainland. See Alexander H. Krappe, *Balor of the Evil Eye*, New York, 1927.
27. Erwin G. Gudde, *California Place Names* (Berkeley, 1960), p. 243.
28. Mason, *op. cit.*, p. 60.
29. Personal collection.
30. Beck, *op. cit.*, pp. 178-80.

31. George F. Dow, and John H. Edwards, *The Pirates of the New England Coast, 1630-1730* (Salem, 1923), p. 376.
32. Charles H. Whedbee, *Legends of the Outer Banks* (Winston-Salem, N.C., 1966), pp. 44-56.
33. Back, *op. cit.*, pp. 17-18.
34. Personal collection.
35. Carleton Mitchell, *Isles of the Caribees* (Washington, 1966), pp. 72-75.

الفصل الثالث

1. Joseph Conrad, *Mirror of the Sea* (New York, 1908), pp. 18-21.
2. *Ibid.*, p. 3.
3. Ernest Hemingway, *The Old Man and the Sea* (New York, 1952), pp. 32-33.
4. Jack London, *Jack London: Short Stories*, ed. Maxwell Geismar (New York, 1960), p. 76.
5. Carey Archives, University of Maryland.
6. *Ibid.*
7. William G. Saltonstall, "Just Ease Her When She Pitches," *American Neptune*, Vol. I, XV, 1955, p. 258.
8. Carey Archives.
9. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.
10. *Ibid.*
11. Personal collection.
12. Carey Archives.
13. *Ibid.*
14. Personal collection. See also Joanna C. Colcord, *Sea Language Comes Ashore* (New York, 1945), p. 5.

الفصل الرابع

1. Horace P. Beck, Personal collection.
2. Joanna C. Colcord, *Songs of American Sailormen* (New York, MCMXXXVII), p. 173. See also A. L. Lloyd, and MacColl, *Blow Boys Blow*, Traditional Records (New York) TLP, 1026.
3. R. Inwards, *Weather Lore* (London, 1898), p. 123.
4. *Reed's Nautical Almanac*, ed. Captain O. M. Watts (London, 1969), p. 815.
5. Frank E. Hartwell, *Forty Years of the Weather Bureau* (Bolton, Vt., 1958), p. 83.

6. Thiselton F. Dyer, *English Folk Lore* (London, 1878), p. 251.
7. *Ibid.*, p. 262.
8. Hartwell, *op. cit.*, p. 66.
9. *Reed's*, *op. cit.*
10. W. Richard, *Weather Lore* (London, 1839), p. 92.
11. *Reed's*, *op. cit.*
12. Inwards, *op. cit.*, p. 87.
13. Carey Archives, University of Maryland.
14. Beck, *op. cit.*, pp. 191-92.
15. Personal collection. For an English version, see *Reed's*, *op. cit.*
16. Personal collection.
17. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.
18. *Ibid.*
19. Personal collection.
20. Inwards, *op. cit.*, pp. 99-100.
21. John Josselyn, *An Account of Two Voyages to New England* (London, 1674), pp. 99-100.
22. See Chapter XIII.
23. F. Colón, *The History of the Life and Actions of Admiral Christopher Columbus*, in Pinkerton's *Voyages* (London, 1812), XII, p. 58; *The First Voyage Around the World by Magellan*, translated by Lord Stanley (London, 1874), p. 42.
24. Henry W. Longfellow, *The Golden Legend* (Boston, 1851), pp. 254-56.
25. William Falconer, *The Shipwreck: A Poem* (London, 1868), p. 145.
26. Richard Henry Dana, *Two Years Before the Mast* (New York, 1911), Chapter 39.
27. Personal collection.
28. George Gourlay, *Fisher Life: or The Memorials of Cellardyke and the Fife Coast* (Cupar, Fife, 1879), p. 26.
29. Richard Folkard, *Plant Lore Legends and Lyrics*, 2nd ed. (London, 1892), p. 494.
30. Beck, *op. cit.*, p. 202, 203.
31. Margaret A. Murray, *The God of the Witches* (London, n.d.), pp. 150-51.
32. From the rendering of Duncan McQuarrie, Tobermory, Island of Mull. See also John MacCormick, *The Island of Mull* (Glasgow, 1923), pp. 8-9, and *History of the Island of Mull* (Greenville, Ohio, 1923).
33. Personal collection. For an analogue see Thomas Hannah, *The Beautiful Isle of Mull* (Edinburgh, 1933), pp. 128, 131.
34. John G. Campbell, *Witchcraft and Second Sight in the Highlands and Islands of Scotland* (Glasgow, 1902), pp. 15-46.
35. *Ibid.*, pp. 15-16.

36. George Lyman Kittredge, *Witchcraft in Old and New England* (Cambridge, Massachusetts, 1929), p. 159.

37. *Ibid.*, p. 158.

38. Personal collection.

39. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland. Also included in these archives is a story about a man who lost his ship in a gale brought on by throwing a five-cent piece overboard.

الفصل الخامس

1. Jordan Silvester, *A Discovery of Bermuda* (New York, 1940), p. 8. Quoted from George Carey, "Enchanted Island Traditions," *American Neptune*, Vol. 29, No. 4, (October, 1969), p. 276.

2. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 138-40.

3. Personal collection.

4. William Snaith, *Across the Western Ocean* (New York, 1966), p. 63.

5. William Falconer, *Dictionary of the Mariner* (London, 1782), "Lead Line." See also Stanton A. King, *A Bunch of Rope Yarns* (Boston, 1903), "The Lead Line," pp. 141-55.

6. Personal collection.

7. Carey Archives, University of Maryland.

8. Personal collection.

9. Personal collection.

10. Personal collection.

11. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.

12. For a complete version, see Thompson, Harold W., *Body, Boots and Britches* (Philadelphia, 1939), p. 194.

13. The above two rhymes may be found in *Now Is the Time for Fishing*, songs and speech by Sam Lerner, collected and edited by Ewan MacColl and Peggy Seegar, Folkways Records, F.G. 3507.

14. Norman Duncan, *Dr. Grenfell's Parish, The Deep Sea Fisherman*, 4th ed., (New York, 1905), p. 35.

15. The translation of this is that there is grass or brush on the Head, not on the Souls. There is timber on the point but none on the Pole (Rocks).

16. Harry M. Lyndenberg, *Crossing the Line* (New York, 1957), p. 47.

17. Henning Henningsen, *Crossing the Equator* (Munksgaard, 1961).

18. Lyndenberg, *op. cit.*, pp. 15, 16.

19. *Ibid.*, pp. 15-18.

20. Henry N. Coleridge, *Six Months in the West Indies* (London, 1832), pp. 31-35.

21. Fletcher Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors* (Chicago and New York, 1885), pp. 410-21.
22. Personal collection. For analogues, see William Doerflinger, *Shantymen and Shantyboys* (New York, 1951), p. 160.
23. Stan Hugill, *Shanties from the Seven Seas* (London, 1961), p. 535.
24. Falconer, *op. cit.*, "Punished," p. 362.
25. T. G. Wilson *The Irish Lighthouse Service* (Dublin, 1968), p. 57.
26. This story was told by a person living in Cohasset Harbor in 1948. Although it differs somewhat from the facts in the case, it is sufficiently close to the actual events to be counted a reasonable version of what happened. For a more accurate account, see E. R. Snow, *Storms and Shipwrecks of the New England Coast* (Boston, 1946), pp. 122-38.
27. Personal collection.
28. Personal collection. See also D.D.C. Pochin Mould, *West-Over-Sea* (Edinburgh, 1953), pp. 270-72.
29. For an excellent version of this story, see Robert Southey, "The Inchcape Rock." See also Alexander Hislop, *The Book of Scottish Anecdote* (Edinburgh, 1883), p. 12.
30. Personal collection.
31. Personal collection.
32. Horace P. Beck, "Tales of the Banks Fisherman," *American Neptune*, Vol. XV. (1955), p. 129.

الفصل السادس

1. For excellent discussions of the chantey, see Stan Hugill, *Shanties from the Seven Seas* (London, 1961); Frederick P. Harlowe, *Chanteying Aboard American Ships* (Barre, Massachusetts, 1962); Joanna C. Colcord, *Roll and Go, Songs of American Sailormen* (Indianapolis, Indiana, 1925); William M. Doerflinger, *Shantymen and Shantyboys, Songs of the Sailor and Lumberman* (New York, 1951).
2. This idea is supported by Roger Abrams of the University of Texas in a text of a forthcoming book.
3. Doerflinger, *op. cit.*, p. 51.
4. For full discussions of this aspect of chanteying and of chanteying as a whole, see Stan Hugill, *Sailor Town* (New York, 1967); Harlowe, *op. cit.*; and Richard Dillon, *Shanghaiing Days* (New York, 1961), as the best sources.

5. See Hugill, *op. cit.*

6. This is but one of many links connecting West Indian maritime lore with that of the Canadian Maritime Provinces. In Newfoundland and Nova Scotia a term often used when a vessel was carrying more sail than she could reasonably bear was, "Drive her, byes, drive her."

7. This is a popular rowing song on the island of Bequia, where whaling is still practiced, and dates from many years ago when there were several "fisheries" on the island, one of which, now defunct, was the St. Hillary fishery.

After some inquiries, I learned that the song was thought to have been composed about an ancient whaleman, Moses Osborne, who was still living on the island. I sought him out hoping to learn the particulars of the song. "I done meet up with that when I was first going in the fishery"—i.e., he learned the already popular song over sixty years ago. He had no knowledge of who had composed it or when or why.

8. Beside being an excellent account of an accident and sea burial in the West Indies this is a peculiar combination of chantey and fo'c'sle song. The spoken last line is most common in New England and the Maritimes.

9. Gale Huntington, *Songs the Whalemen Sang* (Barre, Mass., 1964), pp. 34-36.

10. MacEdward Leach, *The Ballad Book* (New York, 1955), pp. 697-98.

11. Charles Nordhoff, *Whaling and Fishing* (New York, 1895), pp. 1-11.

12. Of this song Professor Kittredge* says, "By far the most interesting thing in it is Allan's addressing his ship and the ship's intelligent behavior." Beyond this he makes little comment. The great ballad scholar, Professor Child,† is also puzzled by the "intelligent" ship. Obviously the rest of the song is equally puzzling to them, for neither man makes much comment on the story.

I have noted elsewhere that seamen to this day believe their ships to possess a kind of life—admittedly usually a perverse one—and they expect the vessel to respond to kind words or angry epithets. (Sometimes it seems as if they do.)

The song is obviously from the east coast of England and Scotland, between Peterhead and the Wash, and deals with the coal trade. The cog, translated by Kittredge as "boat," is in all probability a cobh, a small vessel extremely popular in the area.

Young Allan finds himself in trouble, probably because of his boast. An easterly gale springs up and he looks for a haven. Realizing his predicament, the crowds gather on the shore and, in the absence of lighthouses and signal towers, fire canon, beat drums, etc., to warn him that the harbor entrance is too dangerous to enter. Allan keeps the gale on his quarter but still the ship is badly strained and begins to break up. To prevent her sinking he passes canvas around her hull to stop the leaks—a device known as frapping.

If Allan is in desperate straits, other vessels are worse off, for he passes flotsam—mattresses that remain afloat after the vessels have been torn apart. In the darkest hour Allan calls for help and the cabin boy takes the helm. Professor Child feels that this is an indication of inadequacy on the part of Allan, but there are many tales and stories about vessels being saved by young boys. This youth, however, may well be a supernatural being, for his vision is remarkable and he says that he has never had shoes on his feet or gloves in his hands.

Even with the superhuman efforts of the lad, things look dark indeed until the ship is promised a refit, including new golden rivets—at which time she displays interest and roars off into a safe harbor.

There is little in this song that is any way unusual to the seaman's eye.

**English and Scottish Popular Ballads*, ed. by Helen C. Sargent, George L. Kitteridge, (Cambridge, Mass., 1932), p. 547.

†*The English and Scottish Popular Ballads*, ed. by Francis J. Child, (Dover edition, New York, 1965), "Young Allan" Version C., Vol. IV, pp. 375–83.

13. Personal collection.

14. Sung by Mr. Sidney Luther of Pittsburg, New Hampshire. Recorded by Kidson in Yorkshire, England, from a sailor's daughter. (Words on broadsides. Kidson's tune seems hymn—not like Luther's.) *Helen Hartness Flanders Collection*, September 17, 1942, M. Olney, Collector, Disc. #640.

This song shows most clearly the affinity between the West Indies and New England and the Maritime Provinces. See also MacEdward Leach, *op. cit.*, pp. 196–97.

15. On July 10, 1777, the sloop-of-war *Ranger* was launched near Portsmouth, New Hampshire. Captain John Paul Jones took command and carried her to England, where she raided British shipping and engaged in amphibious attacks ashore. However, she proved a dull sailor and Jones did not remain in her very long. It is ironic that her turn of speed should be recalled at this late date and puzzling to know why her name was changed. As mentioned before, it is startling to note the accuracy of the navigation recalled in the song.

I collected a fragmentary version of this song in Dingle, County Kerry, in 1969—the first time that it has been collected outside of North America as far as I am aware. See H. P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1957), pp. 173–74.

16. Fannie H. Eckstrom, and Mary W. Smythe, *Minstrelsy of Maine Folk-Songs and Ballads of the Woods and the Coast* (Boston and New York, 1941).

17. Elizabeth B. Greenleaf, and Grace Yarrow Mansfield, *Ballads and Sea Songs from Newfoundland* (Cambridge, Mass., 1933), pp. 230–31.

18. H. P. Beck, *op. cit.*, pp. 204–05. See also MacEdward Leach, *Folk Ballads and Songs of the Labrador Coast* (Ottawa, 1965), p. 244–5.

19. Personal collection. Collected in Dingle, County Kerry, in 1969, this is typical of songs popular among fishing fleets to this day.

20. Personal collection. I first heard this song from Dr. Jeoffrey Bolt during a transatlantic passage in 1966. In England the Thames barges were similar to the American coaster of yesteryear. Although great cargo carriers in their day, they were nonetheless the butt of considerable amusement for deepwater men.

21. Collection of Helen Hartness Flanders. Hanford Hayes of Staceyville, Maine, sang this to Helen Hartness Flanders September 25, 1940. It begins on a phrase of the tune "The Dying Nun." Repeat the last two lines of each verse. See also H. P. Beck, *op. cit.*, p. 176.

الفصل السابع

1. Jean Lipman, *American Primitive Painting* (New York, 1942), and John Wilmerding, *A History of American Marine Painting* (Boston, 1968), p. 28.

2. Herman Melville, *Moby-Dick* (Garden City, 1928), p. 12.

3. For an excellent discussion of these aspects, see Marius Barbeau, "All Hands Aboard Scrimshawing," *The American Neptune*, Vol. XII, No. 2 (April, 1952), pp. 99-122; see also Clifford W. Ashley, *The Yankee Whaler* (New York, 1942), pp. 111-16.

4. Rear Admiral Gerald Wells, *Naval Customs and Traditions* (London, 1930), p. 136.

5. Barbeau, *op. cit.*

6. *Ibid.*, p. 116.

7. *Ibid.*

8. Arthur C. Watson, *The Long Harpoon. A Collection of Whaling Anecdotes* (New Bedford, 1929), pp. 155-64.

9. Edouard A. Stackpole, *Scrimshaw at Mystic Seaport* (Mystic, Connecticut, 1966), p. 21.

10. William Falconer, *A New Universal Dictionary of the Marine, being a copious explanation of the Technical Terms and Phrases usually employed in the Construction, Equipment, Machinery, Movements and Military as well as Naval Operation of Ships: with such parts of Astronomy, and Navigation, as will be found useful to practical Navigators. To which is annexed a Vocabulary of French Sea Phrases and Terms of Art* (London, 1815), p. 79.

11. C. W. Ashley, *Book of Knots* (Garden City, N.Y., 1956), p. 148.

12. *Ibid.*, p. 2.

13. Edward Driver, *Indians of North America* (Chicago, 1964).

14. W. D. Hambley, *The History of Tattooing and its Significance* (London, 1925).

الفصل الثامن

1. See George A. England, *Vikings of the Ice* (London, 1924), for an excellent account.
2. *Ibid.*, p. 174.
3. *Ibid.*, pp. 313-23.
4. Personal collection.
5. England, *op. cit.*, pp. 54-59.
6. *Ibid.*, p. 218.
7. David Thomson, *People of the Sea, A Journey in Search of the Seal Legend* (London, 1965), p. 167.
8. Personal collection. See also David Thomson, *People of the Sea* (London, 1954), pp. 64-65.
9. Thomson, *op. cit.*, p. 167.
10. See A. W. Brögger, *Ancient Emigrants* (Oxford, 1929), p. 5.
11. Karl Blind comes to a similar conclusion, but he bases his feeling on the fact that the Norse incorporated sealskins in their clothing. "Scottish and Germanic Water Tales," *Contemporary Review*, 40:186-208, 1881.
12. John G. Campbell, *Superstitions of the Highlands and Islands of Scotland* (Glasgow, 1900), pp. 283-84.
13. Alexander Carmichael, *Carmina Gadelica, Hymns and Incantations with Illustrative Notes on Words, Rites, and Customs, Dying and Obsolete: Orally Collected in the Highlands and Islands of Scotland* (Edinburgh, 1941), Vol. IV, pp. 14-17.
14. Otta F. Swire, *The Highlands and Their Legends* (Edinburgh, 1963), pp. 265-67.
15. Francis J. Child, *The English and Scottish Popular Ballads* (Dover edition, New York, 1965), Vol. II, p. 494.
16. Personal collection.
17. Thomson, *op. cit.*, pp. 103, 123-27.
18. *Ibid.*, pp. 80-84.
19. *Ibid.*, pp. 81, 131-33.
20. For further detail, see Gwen Benwell, and Arthur Waugh, *Sea Enchantment* (New York, 1965), pp. 163, 180-81, 183-84.
21. J. G. Campbell, *op. cit.*, p. 285.
22. Thomson, *op. cit.*, p. 68.
23. Personal collection.
24. Alexander Hislop, *The Book of Scottish Anecdote, Humorous, Social Legendary, and Historical* (Edinburgh, 1883), p. 524.
25. *Journal of the English Folk Dance and Song Society*, Vol. VI, No. 3.

26. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.
27. *Ibid.*
28. *Natural History*, Vol. 89, #3 (March, 1970), pp. 56-63.
29. James Wallace, *An Account of the Isles of Orkney* (London, 1700), p. 60.
30. J. R. Tudor, *The Orkneys and Shetland, Their Past and Present State* (London, 1883), pp. 341-42.
31. Jessie M. Saxby, *Shetland Traditional Lore* (Edinburgh, 1932), pp. 88-96.
32. A. T. Cluness, *The Shetland Isles* (London, 1951), pp. 107-08.
33. Fletcher Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and Sailors* (Chicago and New York, 1885).
34. Richard Henry Dana, *Two Years Before the Mast* (New York, 1947), pp. 35-36.
35. C. S. Forrester, *Commodore Hornblower* (Boston, 1945), pp. 57-58.
36. John Spense, *Shetland Folklore* (Lerwick, 1899), pp. 20-26.

الفصل التاسع

1. Sabine Baring-Gould, *Curious Myths of the Middle Ages* (London, 1868), pp. 48-50.
2. *Ibid.*, p. 258.
3. Dr. A. S. Rappaport, *Superstitions of Sailors* (London, 1928), p. 190.
4. Baring-Gould, *op. cit.*, pp. 230-58.
5. Rappaport, *op. cit.*, pp. 172-73.
6. John Josselyn, *An Account of Two Voyages to New England* (London, 1674), p. 228.
7. Gwen Benwell, and Arthur Waugh, *Sea Enchantress, The Tale of the Mermaid and Her Kin* (New York, 1965), p. 99.
8. *Ibid.*, p. 121.
9. Arthur K. Davis, Jr., *Traditional Ballads of Virginia* (Cambridge, 1929), p. 526 of Child #289.
10. Peter F. Anson, *Fisher Folklore* (London, 1965), p. 43.
11. Rappaport, *op. cit.*, p. 194ff.
12. Robert Hunt, *Popular Romances of the West of England* (London, 1865), pp. 163-83.
13. *Ibid.*, pp. 185-86.
14. *Ibid.*, pp. 187-89.
15. Baring-Gould, *op. cit.*, pp. 206ff.

16. Roger Loomis, "Morgan la Fee and the Celtic Goddess," *Speculum*, Vol. 20, (April, 1945), pp. 183-203.
17. Raphael Patai, "Lillith," *Journal of American Folklore*, Volume 77, #306, (1964), pp. 294-312.
18. Karl Blind, "Scottish, Shetlandic and Germanic Water Tales," *Contemporary Review*, Volume XL (1881), p. 190.
19. For a further consideration of the development of these stories on Shetland into the now famous ceremony of the Up-Helly-Aa, wherein a mock ship is burned, see H. R. Ellis Davidson, "The Chariot of the Sun," *Folklore*, Volume 80.
20. One must remember that in Ireland and Scotland "loch" refers to salt-water bays and fresh-water lakes with equal facility.
21. Isabel Cameron, *A Highland Chap Book* (Stirling, Scotland, 1928), pp. 120-28.
22. Helen Drever, *Lure of the Kelpie* (Edinburgh and London, 1937), pp. 66-71.
23. Cary Archives, University of Maryland. See also Cameron, *op. cit.*, p. 126, for an identical tale.
24. Drever, *op. cit.*, pp. 87-89. One cannot help but remark on the similarity of this tale to the ones about the nuggle in the Shetlands.
25. For the complete text, see Francis J. Child, *English and Scottish Popular Ballads* (Boston, 1881-1889), p. 243.
26. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 176.
27. John F. Campbell, *Popular Tales of the West Highlands*, (Edinburgh, 1860), Volume IV, pp. 330-35.
28. Except, perhaps, in belief held by the Aran Islanders. See Lady Augusta Gregory, *Visions and Beliefs in the West of Ireland*, pp. 15-30.
29. John Gregorson Campbell, *Superstitions of the Highlands and Islands of Scotland* (Glasgow, 1900), pp. 199-200.
30. Martin Martin, *A Description of the Western Isles of Scotland* (Stirling, Scotland, 1934), p. 107.
31. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 173.
32. Campbell, *op. cit.*, p. 199.
33. David MacRitchie, *Fians, Faeries and Picts* (London, 1895).
34. It has been further suggested that the Picts deliberately sought to control the sea routes between the Outer Hebrides and the mainland. If such was the case, they would be remembered, if at all, as a warlike group. See F. T. Wainwright, *The Northern Isles* (Edinburgh, 1964), pp. 82-83; see also Stuart S. Piggot, *The Prehistoric Peoples of Scotland* (London, 1962).
35. John L. Campbell, *Stories from South Uist* (London, 1961), p. 122.
36. Fletcher Bassett, *Legends and Superstitions of The Sea and of Sailors*, (Chicago and New York, 1885), Chapter IV.

37. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 74.
38. Bassett, *op. cit.*, p. 184.
39. Hunt, *op. cit.*, p. 157.
40. Rappaport, *op. cit.*, pp. 177-78. Wrens are often associated with faeries and are killed in Ireland on St. Stephen's Day, December 26. The dead birds are put on brooms and kept in the kitchen to drive out faeries.
41. Carey Archives, University of Maryland.
42. Hunt, *op. cit.*, pp. 72-85.
43. John F. Campbell, *op. cit.*, Volume I, pp. 71ff.
44. Horace P. Beck, "Old World Tales Among the Mohawks," *Journal of American Folklore*, July-September, 1950, Vol. 63, #2, pp. 285-308.
45. Personal collection.
46. Fannie H. Eckstorm, *Old John Neptune and Other Maine Indian Stories* (Portland, 1945), pp. 83-89.
47. Abby L. Alger, *In Indian Tents* (Boston, 1897), pp. 65-71. For further references, one should examine *Jesuit Relations*, Volume LVII, and Dwight Kelton, *Indian Names of Places Near the Great Lake* (1888), pp. 34, 52.
48. Samuel B. D. Purchas, *Hakluytus Posthumus or Purchas His Pilgrims* (Glasgow, MCMVII, Vol. XIX) p. 439.
49. Fletcher M. Bassett, *op. cit.*, pp. 195-6.
50. Nicholas Denys, *Works* (Ottoman Edition), p. 80.
51. Bassett, *op. cit.*, pp. 196-97.
52. Harriet Beecher Stowe, *The Pearl of Orr's Island* (Boston, 1862), pp. 127-28.
53. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 145.
54. *Ibid.*, p. 145.
55. *Ibid.*, p. 145.
56. F. H. MacArthur, *Legends of Prince Edward Island* (Charlottetown, n.d.), p. 49.
57. Mary L. Fraser, *Folklore of Nova Scotia* (Toronto, 1932), pp. 92-93.
58. *Ibid.*, pp. 94-95.
59. *Ibid.*, p. 99.
60. Personal collection.
61. Letter from Dr. Donald Hill, Department of Anthropology, Indiana University.
62. G. J. Afolabi Ojo, *Yoruba Culture* (London, 1966), pp. 162-66.
63. Elsie C. Parsons, *Folklore of the Antilles, French and English in Memoirs of the American Folklore Society*, New York, 1933, Volume XXVI, Pt. 1, pp. 83, 247.
64. Personal collection.
65. Parsons, *op. cit.*, Pt. 2, p. 293.

66. H. B. Meikle, "Mermaids and Fairymaids or Water Gods and Goddesses of Tobago," *Caribbean Quarterly*, 5 (1958), pp. 103-08.

67. Personal collection. In still another version of the tale the brother kills the "fish" and the girl is forced to eat her lover Oshun when he is served on the table, after which she dives into the water and turns into a mermaid. One should also note that Oshun is the name of a Nigerian river in which lives a water god similar to a mermaid. See M. G. Smith, *Dark Puritan* (Kingston, Jamaica, 1963), p. 137.

68. Personal collection. Obviously the mermaid has some sort of connection with the darker side of the otherworld, for the two stories called to mind a series of these tales.

69. Newbell N. Puckett, *Folk Beliefs of the Southern Negro* (New York, 1969), pp. 136-37.

70. Alexander Marshack in "The Baton of Montgaudier," (*Natural History*, Volume LXXIX, #3), examined art sketched on a reindeer's horn at least twelve thousand years old: a great serpent, two seals, a strange animal, a salmon and a small plant. He suggests that we may learn more about ancient peoples through a study of art and stories than through many other more "respectable" media. If this be true, the symbols on that bone may tie in with stories of mermaids, sea monsters, salmon and faeries told here or yet to be revealed.

الفصل العاشر

1. Olaus Magnus, *A Compendious History of the Goths, Swedes and Vandals, and Other Northern Nations* (London, 1658), *passim*.

2. Heuvelmans' book alone lists at least 525 separate written accounts of sightings between 1634 and 1964. See Bernard Heuvelmans, *In the Wake of the Sea Serpents* (London, 1968), pp. 575-85.

3. It has been suggested by some scholars that this was a hoax (see Heuvelmans, *op. cit.*, p. 202). He also mentions one being sighted in latitude 24° south, longitude 12° east in cloudy, blustery weather.

4. Richard M. Dorson, *America Begins* (New York, 1950), pp. 28-29.

5. Joseph C. Allen, *Tales and Trails of Martha's Vineyard* (Boston, 1938), pp. 229-30.

6. Personal collection.

7. J. F. Campbell, *The Celtic Dragon Myth with the Geste of Fraoch and the Dragon*, translated with introduction by George Henderson (Edinburgh, 1911), pp. 67-69.
8. *Ibid.*, p. 80.
9. *Ibid.*, pp. XXI-XXII.
10. Bernard Heuvelmans, *op. cit.*, p. 66.
11. Alan O. Anderson and Marjorie O. Anderson, *Adomnan's Life of Columba* (London and New York, 1961), p. 551.
12. Anderson, *op. cit.*, pp. 387-89.
13. The Scots take pains to point out the great accuracy of this man's visions.
14. Personal collection.
15. This lake is popularly believed to have underground connections with Loch Ness.
16. See F. W. Holiday, *The Great Orm of Loch Ness* (London, 1968), for complete details; see also Tim Dinsdale, *Loch Ness Monster* (London, 1966).
17. Ivan T. Sanderson, "Don't Scoff at Sea Monsters," *Saturday Evening Post* (March 8, 1947).
18. Heuvelmans, *op. cit.*, p. 465.
19. Carey Archives, University of Maryland. This tale recalls one told by Heuvelmans, wherein a great snake crawled into a boat via the rudder port and coiled itself by the mast before being chased overboard. (Heuvelmans, *op. cit.*, p. 85.)
20. Gershom Bradford, "Sea Serpents? No or Maybe," *American Neptune*, Vol. XIII (October, 1953), pp. 268-74.
21. Lawrence D. Geller, "Notes on Sea Serpents of Coastal New England," *New York Folklore Quarterly*, Vol. 26, No. 2 (June, 1970), p. 154.
22. *Ibid.*, pp. 158-59.
23. Heuvelmans, *op. cit.*, Ch. II.
24. Lady Augusta Gregory, *A Book of Saints and Wonders* (London, 1920), Book Six.
25. J. W. Van Dervoort, *The Water World* (New York, 1886), pp. 72-73.
26. "A discovery of the Barmudas, otherwise called the Isle of Divils; by Sir Thomas Gates, Sir George Sommers and Captayne Newport, set forth by Fil. Jourdan," in Richard Hakluyt, *Voyages and Discoveries of the English* (London, 1812), Vol. V, p. 556.
27. George G. Cary, *Folk Motifs in the Writings of John Josselyn* (unpublished master's thesis, Indiana University, 1962), Ch. II.
28. See Sabine Baring-Gould, *Curious Myths of the Middle Ages* (London, 1868), pp. 259-65.
29. Bassett, p. 299; Heuvelmans, p. 50.

30. Hugh Marwick, *Orkney* (London, 1951), pp. 110-11. See also Garry Hogg, *The Far Flung Isles, Orkney and Shetland* (London, 1961), p. 27.
31. John Gun, *The Orkney Book* (London, 1909), pp. 393-94.
32. George Carey, "Enchanted Island Traditions of the Sixteenth and Seventeenth Centuries," *American Neptune*, Vol. 29, No. 2 (October, 1969), pp. 275-81.
33. Harry P. Swan, *Highlights of the Donnegal Highlands* (Belfast, 1958), pp. 97-98. It might be added that a similar fate overtook the Irish hero Cuchulainn after his sojourn of four hundred years in Faeryland.
34. Francis Parkman, *Pioneers of France in the New World* (Boston, 1880), p. 173.
35. See Lady Augusta Gregory, *Visions and Beliefs in the West of Ireland* (London, 1920), "Sea Stories," pp. 15-30.
36. P. A. O. Siochain, *Aran Islands of Legend*, 3rd ed. (New York, 1967), pp. 55-57.
37. Parkman, *op. cit.*, pp. 173-75, 202-06.
38. John Josselyn, *An Account of Two Voyages to New England* (London, 1674), p. 218.
39. Stanley Rogers, *Sea-Lore* (London, 1934), p. 185.

الفصل الحادي عشر

1. For a typical statement see C. J. S. Thompson, *The Hand of Destiny* (London, 1932), p. 193.
2. Personal collection.
3. W. Carew Hazlitt, *Faith and Folklore of the British Isles* (New York, 1965), Vol. II, p. 639.
4. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.
5. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), p. 68.
6. Wilbur Bassett, *Wander-Ships* (Chicago, 1917), pp. 122-24.
7. Frank Shay, *A Sailors Treasury* (New York, 1951), pp. 58-59, 167.
8. Jane C. Beck, *Ghostlore of the British Isles and Ireland*, unpublished PhD. dissertation in folklore, University of Pennsylvania (1969), pp. 240-41.
9. *Ibid.*, p. 185.
10. Personal collection.
11. *Ibid.*
12. *Ibid.*; also Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.
13. *Ibid.*

14. H. P. Beck, *op. cit.*, p. 73.
15. Personal collection. Whether this was a local custom or a holdover from old world practice, I have been unable to determine.
16. H. P. Beck, *op. cit.*, pp. 203-04.
17. *Ibid.*, pp. 201-07.
18. Joshua Slocum, *Sailing Alone Around the World* (New York, 1900), pp. 59-62.
19. Helen Creighton, *Bluenose Ghosts* (Toronto, 1957), pp. 135-36.
20. J. C. Beck, *op. cit.*, pp. 283-84.
21. Creighton, *op. cit.*, pp. 130-31. See also H. P. Beck, *op. cit.*, pp. 190-91, for a similar story.
22. Carey Archives, University of Maryland.
23. Personal collection.
24. *Ibid.*
25. *Ibid.*
26. *Ibid.*
27. *Ibid.*; see also D. D. C. Pochin Mould, *West-Over-Sea* (Edinburgh, 1953), pp. 181-83.
28. Personal collection; see also MacEdward Leach, *Folk Ballads and Songs of the Lower Labrador Coast* (Ottawa, 1965), pp. 74-75, for bibliography, discussion and a variant.
29. Personal collection.
30. George Coggeshall, *Voyages in Various Parts of the World* (New York, 1851), pp. 135, 138, 142.
31. Carey Archives, University of Maryland.
32. Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland.
33. William F. S. A. Jones, *Credulities Past and Present* (London, 1880), pp. 12-13.
34. *Ibid.*, pp. 12-13.
35. Thomas Henderson, "Traditions and Tales," *Shetland Folk Book*, Vol. 1 (1947), pp. 54-55.
36. Personal collection.
37. *Ibid.*
38. *Ibid.*
39. *Ibid.*; see also Lowry C. Wimberly, *Folklore in the English and Scottish Ballads* (New York, 1928), p. 66.
40. Personal collection.
41. *Ibid.*
42. *Ibid.*
43. For details, see Alexander MacKenzie, *The Prophecies of the Brahan Seer* (Stirling, 1946).

44. Personal collection. from the narration of Captain Paddy O'Halloran, July 1968.

45. Creighton, *op. cit.*, p. 70.

46. Mary L. Fraser, *Folklore of Nova Scotia* (Toronto, 1932), p. 140.

47. Personal collection.

48. John MacInnis, "The Oral Tradition in Scottish Gaelic Poetry," *Scottish Studies*, 12:29-43 (1968), p. 41.

49. Personal collection; also Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland.

50. Personal collection; see also J. R. Tudor, *The Orkneys and Shetlands* (London, 1883), p. 167.

51. Personal collection.

52. Charles H. Whedbee, *Legends of the Outer Banks* (Winston-Salem, 1966), pp. 57-63.

53. For discussion and text, see MacEdward Leach, *The Ballad Book* (New York, 1955), p. 697.

54. Personal collection; see also Fletcher M. Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors* (Chicago, 1885), pp. 459-61. It is interesting to note that in the West Indies, according to my informants, being born with the caul allows the person to see the future and to see ghosts.

55. Personal collection.

56. George Coggeshall, *History of the American Privateers* (New York, 1861), p. 31.

57. Dunbar M. Hinrichs, *The Fateful Voyage of Captain William Kidd* (New York, 1955), p. 139.

58. Personal collection.

59. Personal collection, from the telling of the late MacEdward Leach.

60. Carey Archives.

61. Personal collection.

62. *Ibid.*

63. *Ibid.*

64. *Ibid.*

65. Carey Archives.

66. Hazlitt, *op. cit.*, pp. 665-66.

67. Bassett, *op. cit.*, pp. 275-78.

68. Personal collection.

69. Martin Martin, *A Description of the Western Islands of Scotland* (Stirling, 1934), p. 107.

70. Personal collection.

71. Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland.

72. Personal collection.

73. Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland, and Personal collection.

74. Personal collection.

75. *Ibid.*

76. H. P. Beck, *op. cit.*, p. 72.

77. Gerald Averill, *Ridge Runner* (Philadelphia, 1948), pp. 29-40. I heard this identical story during World War II from Robert Davidson. This time it was flank steak instead of shoat and a boiled pumpkin instead of a hot shot.

78. Carey Archives.

الفصل الثاني عشر

1. Captain John Smith, *A Sea Grammar* (London, 1627), pp. 59-62.

2. Edgar S. Maclay, *A History of American Privateers* (New York, 1899), p. 13, a quote.

3. G. W. Allen, *Massachusetts Privateers of the Revolution* (Cambridge, 1927), pp. 3-5.

4. See Maclay, *op. cit.*, pp. 13-16.

5. G. W. Allen, *A Naval History of the American Revolution* (New York, 1962), Vol. I, pp. 45-47.

6. For a more extensive list, see G. W. Allen, *op. cit.*, and William Sheffield, *Rhode Island Privateers* (Newport, 1883).

7. Personal collection.

8. *Ibid.*

9. Folklorists who read this account will recall that identical tactics to those of the Bishop had already been tried successfully by King Canute nearly a millennium before. See also Samuel E. Morison, *John Paul Jones, A Sailor's Biography* (Boston, 1959), pp. 216-19. Here the story is given somewhat differently.

10. George Coggeshall, *History of the American Privateers, and Letters-of-Marque, During Our War with England in the Years 1812, '13 and '14, Interspersed with Several Naval Battles Between American and British Ships-of-War* (New York, 1861), pp. 67-68.

11. John P. Cranwell and William B. Crane, *Men of Marque: A History of Private Armed Vessels out of Baltimore During the War of 1812* (New York, 1940), pp. 261-65.

12. Coggeshall, *op. cit.*, p. 108.

13. *Ibid.*, pp. 370-84.

14. *Ibid.*, Chapters VI and X.

15. Cranwell and Crane, *op. cit.*, p. 68.

16. This story was related to the author by the late Captain George Barney Wright of Newport, Rhode Island. See also Ralph D. Paine, *Joshua Barney* (New York, 1924), pp. 98-100.

17. James Fenimore Cooper, *History of the Navy of the United States of America*, 2nd ed. (Philadelphia, 1840), pp. 206-08.

18. Philip Freneau. *The Poems of Philip Freneau*, ed., Fred L. Pattee, Vol. II (Princeton, N.J., 1903), pp. 149-53.

19. Paine, *op. cit.*, pp. 162-88. See also Cooper, *op. cit.*, Vol. I, p. 208.

20. Cooper, *op. cit.*, pp. 217-18.

21. Horace P. Beck, "The Making of the Popular Legendary Hero," in W. D. Hand, ed., *American Folk Legend A Symposium* (Berkeley, 1971), pp. 121-33.

22. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 20-21.

23. For a good account of Morgan, see John Esquemeling, *Buccaneers of America* (London, n.d.), pp. 119-215.

24. Personal collection. See also Joanna Colcord, *Songs of American Sailormen* (New York, 1935), pp. 141-44. The opinions expressed in this song were still espoused by competent historians as late as 1934; see Philip Gosse, *The History of Piracy* (New York, 1934), pp. 175-86.

25. There are numerous biographies of Kidd. For an early account, see Captain Charles Johnson, *A General History of the . . . Pirates* (New York, 1926), pp. 386-96; for his voyage and trial, see Dunbar M. Hinrichs, *The Fateful Voyage of Captain Kidd* (New York, 1955); for his life, see Willard H. Bonner, *Pirate Laureate* (New Brunswick, 1947).

26. Personal collection. Actually, the number was fourteen and all fourteen "danced at the end of a rope"; see Edward Peterson, *History of Rhode Island and Newport in the Past* (New York, 1853), pp. 64-65. For a history of Lowe, see Anon., *The Pirates Own Book* (Philadelphia, 1839), pp. 228-36.

27. Personal collection.

28. *Ibid.*

29. Johnson, *op. cit.*, pp. 130-40.

30. Petrel Fulmar, *Grania Waile* (London, 1895), pp. 11-13.

31. William O'Brien, *A Queen of Men* (Dublin, 1958), p. 13.

32. The two most available sources of information on Granuaile are O'Brien, *op. cit.*, especially pp. 10-17, and Petrel, *op. cit.*

33. H. P. Beck, "The Prince of Spain," *Journal of the Folklore Institute*, Vol. VIII, #1, 1971, pp. 48-56.

34. Points two and three refer particularly to buried or hidden treasure.

35. Rupert Furneaux, *The Great Treasure Hunts* (New York, 1969), pp. 9-23.

36. William Haynes, *Casco Bay Yarns* (New York, 1916), pp. 21-42.

37. Charles B. Driscoll, *Doubloons: The Story of Buried Treasure* (New York, 1930), pp. 3-35.

38. Personal collection.

39. Helen Creighton, *Bluenose Ghosts* (Toronto, 1957), pp. 57-59.

40. Furneaux, *op. cit.*, pp. 38-45.

41. See Chapter XI, herein.

42. Driscoll, *op. cit.*, pp. 42-43.

43. Personal collection.

44. *Ibid.* Note that the first part of this story is almost identical to a story told on Carriacou Island in the Caribbean. Captain MacFarlane of Windward said a young boy was "forking the land" and discovered a treasure. He took it to the owner who upbraided him for finding it; told him he must not mention it to anyone and kept it for himself. Unlike the Irish story, this man prospered like the proverbial green bay tree.

45. *Ibid.*

46. For a more detailed study of the factual points of this story, see Charles B. Driscoll, *op. cit.*, pp. 1-35; Rupert Furneaux, *The World's Strangest Mysteries* (London, 1961), Chapter 1. The folk material on the treasure was collected in Chester, Nova Scotia, in June 1948, from a family of shipwrights named Stevens.

47. Personal collection.

48. *Ibid.*

49. One is immediately reminded in this case of Stoertebeker cramming his loot into his masts.

50. Creighton, *op. cit.*

51. Mary L. Fraser, *Folklore of Nova Scotia* (Toronto, 1932), pp. 79-81.

52. For an interesting discussion of this attitude, see George Washington Cable, "Jean Ah Poquelan," in *Old Creole Days* (New York, 1937).

53. Hesketh J. Bell, *Obeah; Witchcraft in the West Indies* (London, 1889), pp. 177-85.

54. George Howe, *Mount Hope: A New England Chronicle* (New York, 1959), p. 87. See also Richard B. Morris, *Encyclopedia of American History* (New York, 1953), p. 80.

55. Personal collection.

56. *Ibid.*

57. *Ibid.*

الفصل الثالث عشر

1. The foregoing definition is intended to distinguish between these two types as they are used within the present work. For a more detailed and general evaluation, see Stith Thompson, *The Folktale: Stories Men Tell from Egyptian Myth to Uncle Remus* (New York, 1946).

2. Wilbur Bassett, *Wander-Ships* (Chicago, 1917), pp. 52, 98.

3. For a detailed study of this material, see T. C. Letherbridge, *Herdsmen and Hermits: Celtic Seafarers in the Northern Seas* (Cambridge, 1950), pp. 140-43, and Reidar T. Christiansen, "The People of the North," *Lochlann, A Review of Celtic Studies*, Vol. II (1962), pp. 137-64.

4. Lady Augusta Gregory, *Gods and Fighting Men* (Gerrards Cross, 1970), p. 141. See also T. W. Rolleston, *Myths and Legends of the Celtic Race* (London, 1911), pp. 252-308, and Eileen O'Faolain, *Irish Sagas and Folktales* (London, 1954), pp. 125-34.

5. John Ryan, *Ireland from the Earliest Times to A.D. 800* (Dublin, n.d.), pp. 130-38.

6. Alan O. Anderson and Marjorie Anderson, *Adomnan's Life of Columba* (New York and London, 1961).

7. Stories about cursing stones are not only popular in Ireland but in Scotland as well. See D.D.C. Pochin Mould, *Irish Pilgrimage* (Dublin, 1955), p. 81.

8. Hence we discover the folk are here using sympathetic magic, a favorite device to ward off evil.

9. For further information and stories, see William Bottrell, *Traditions and Hearthside Stories of West Cornwall, Penzance, 1873*, 2nd Series, pp. 276-79; see also W. Carew Hazlitt, *Faith and Folklore of the British Isles* (New York, 1965), Vol. I, pp. 40-43.

10. Hazlitt, *op. cit.*, p. 42.

11. *Ibid.*, p. 42.

12. William F. S. A. Jones, *Credulities Past and Present* (London, 1880), pp. 12-13.

13. For a complete and detailed account of this occurrence, see Robert F. Marx, *Pirate Port: The Story of the Sunken City of Port Royal* (New York, 1967).

14. Edward R. Snow, *Great Sea Rescues* (New York, 1958), pp. 141-51. For further accounts of wreck and rescue, see Birse Shepard, *Lore of the Wreckers* (Boston, 1961); Cyril Noall and Graham Farr, *Wreck and Rescue Round the Cornish Coast* (Truro, Cornwall, 1965).

15. For a detailed discussion of this story, see Horace P. Beck, "The Prince of Spain," *Journal of the Folklore Institute*, Vol. VIII, #1, June 1971, pp. 48-56.

16. For a good summary, see Roger Jefferis and Kendall MacDonald, *The Wreck Hunters* (London, 1966), pp. 59-74.

17. Bottrell, *op. cit.*, pp. 231-33.
18. The mastiffs' song was considered to be a "bad song" because at one time the hell hounds had tried to prevent a priest from giving absolution to a dead man by attempting to delay him in listening while they sang "Cailín Deas Crúite na mBō." From that day forward it had been known as a "bad song."—Jane C. Beck, *Ghostlore of the British Isles and Ireland*, unpublished PhD. dissertation, University of Pennsylvania (1969), p. 283.
19. Hugh Miller, *Scenes and Legends of the North of Scotland* (Edinburgh, MDCCCLIII), pp. 174-90.
20. This story was told to me by Captain Ben Pine of Gloucester, master of the schooner *Gertrude Thibeault*, in the summer of 1940. See also J. B. Connolly, *Out of Gloucester* (New York, 1902).
21. Edouard A. Stackpole, *The Sea Hunters: The New England Whalemen During Two Centuries 1635-1835* (Philadelphia, 1953), pp. 317-37.
22. Carey Archives, University of Maryland.
23. For a more detailed account of the exploits of Barney Beal, see Richard M. Dorson, *Buying the Wind* (Chicago, 1964), pp. 40-54.
24. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 140-44.
25. This story was told twice. The first time Captain Buchan included the bit about the Russian, the collision and the plans for taking off the crew of the *Alliance*. At the second telling into the microphone, he overlooked these items until after he had finished the story. I have taken the liberty of including them in the story as they belonged.

الفصل الرابع عشر

1. George K. Anderson, *The Legend of the Wandering Jew* (Providence, 1965).
2. *Ibid.*, p. 11.
3. *Ibid.*, pp. 11-31.
4. *Ibid.*, p. 5.
5. Funk and Wagnalls' *Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend*, Maria Leache, ed., Vol. II (New York, 1949), p. 1177.
6. Benjamin Thorpe, *Northern Mythology*, Vol. III (London, 1852), pp. 294-95.
7. Wilbur Bassett, *Wander-Ships* (Chicago, 1917), pp. 38-45.
8. Dr. Angelo S. Rappaport, *Superstitions of Sailors* (London, 1928), pp. 233-34.

9. It is worth recalling that Ahasuerus always appeared in a long cloak; see Anderson, *op. cit.*
10. Bassett, *op. cit.*, p. 51.
11. For a fairly detailed discussion, see Wilbur Bassett, *op. cit.*, "Dahul," pp. 35-63.
12. Richard H. Dillon, *Shanghaiing Days* (New York, 1961), pp. 66-127.
13. Edward A. Ives, "The Burning Ship of Northumberland Strait: Some Notes on That Apparation," *Midwest Folklore*, Vol. VIII, #4 (1958), pp. 199-203.
14. F. H. MacArthur, *Legends of Prince Edward Island* (Charlottetown, P.E.I.), pp. 69-71.
15. George Coggeshall, *History of the American Privateers and Letters-of-Marque, During Our War with England in the Years 1812, '13, '14, Interspersed with Several Naval Battles Between American and British Ships-of-War* (New York, 1861), p. 125.
16. Personal collection. See also Charles B. Driscoll, *Doubloons* (New York, 1930), p. 31. For an abbreviated account; see Helen Creighton, *Folklore of Lunenburg County, Nova Scotia* (Ottawa, 1950), p. 12.
17. Horace P. Beck, *The American Indian as a Colonial Sea Fighter* (Mystic, Conn., 1959), p. 22.
18. For a complete discussion of the material on the *Palatine*, see George G. Carey, "Folklore in the Writings of John Greenleaf Whittier," doctoral dissertation (Indiana University, 1966), pp. 125-30. See also Ralph Childs, dissertation, "Phantom Ships of the Northeast Coast of North America," *New York Folklore Quarterly*, Vol. II, No. 2, (1946), pp. 160-81; E.C. Ritchie, *Block Island Lore and Legend* (Block Island, 1955), pp. 75-76; Samuel Livermore, *History of Block Island* (Hartford, 1877), pp. 124-25; John Kobler, "The Mystery of the Palatine Light," *Saturday Evening Post* (June 11, 1900), p. 55; Albert Mathand, "The Word Palatine in America," *Publications of the Colonial Society of Massachusetts*, VIII, p. 217 ff.; Benjamin A. Botkin, *Treasury of New England Folklore* (New York, 1947), pp. 296-97; John Greenleaf Whittier, *Complete Poetical Works* (Boston, 1894), p. 257.
19. Personal collection. See also Ritchie, *op. cit.*, p. 81.
20. Fletcher Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors* (Chicago and New York, 1885), p. 372.
21. William Bottrell, *Traditions and Hearthside Stories of West Cornwall*, 2nd Series (Penzance, 1873), pp. 247-49.
22. George A. England, *Vikings of the Ice* (1924), p. 219.
23. Hugh Miller, *Scenes and Legends of the North of Scotland*, 3rd edition (Edinburgh, 1853), pp. 22-23.
24. Personal collection.
25. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 146-51.

26. Edmund Pearson, *Murder at Smutty Nose and Other Murders* (London, 1927), pp. 1-70.
27. Beck, *op. cit.*, pp. 148-52.
28. Frank C. Brown, *North Carolina Folklore* (Durham, 1952), Vol. 1, p. 625.
29. Allen Cunningham, *Traditional Tales of the English and Scottish Peasantry* (London, 1822), p. 288.
30. John Greenleaf Whittier, *op. cit.*, p. 310. For a detailed analysis of the facts, see George Carey, *op. cit.*, pp. 130-33.
31. Wilbur Bassett, *op. cit.*, p. 72.
32. *Ibid.*
33. Henry Wadsworth Longfellow, "The Phantom Ship," in *Complete Poetical Works* (Boston, 1902), p. 230. See also Cotton Mather, *Magnalia Christi Americana*.
34. Carey Archives, University of Maryland.
35. Memorial University of Newfoundland Folklore and Language Archives.
36. Lady Augusta Gregory, *Visions and Beliefs in the West of Ireland* (Garrands Cross, 1920), pp. 15-31.
37. Ralph Childs, *op. cit.*
38. Henry W. Splitter, "New Tales of American Phantom Ships," *Western Folklore*, Vol. IX (1950), pp. 204-09.
39. *Ibid.*
40. Ralph Childs, *op. cit.*, pp. 160-81.
41. Wilbur Bassett, *op. cit.*, pp. 11-24, 92-105.
42. Memorial University, *loc. cit.*
43. Edward Peterson, *History of Rhode Island* (New York, 1853), pp. 63-64.

المؤلف فى سطور:

هوراس بيك

- ولد فى نيويورك بجنوب شرقى رود آيلاند بالولايات المتحدة عام ١٩٢٠ وتوفى بها فى ١ يوليو ٢٠٠٣ .

- عبر المحيط الأطلنطى ٢٨ مرة على متن السفن المختلفة.

- عمل أستاذاً للأدب الأمريكى لمدة ٢٧ عاماً فى ميدلبيرى كوليدج فى فيرمونت.

- كان يقضى العطلات الدراسية فى العمل على سفن الصيد التجارية وسفن صيد الحيتان، التى عمل عليها لمدة ١٠ سنوات، حيث تمكن من جمع أغانى وحكايات البحارة العاملين عليها.

- كتب أكثر من اثنى عشر كتاباً منها

The American Indian as a Sea Fighter in the Colonial Time

The Folklore of Main

Cape Breton Nicknames and Tales

المترجم فى سطور

أحمد محمود

- حاصل على ليسانس الآداب - قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة عام ١٩٧٣ ودبلوم الدراسات العليا - قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة، ١٩٨٧، وهو حالياً رئيس قسم الترجمة بمجلة "كل الناس" وعضو اتحاد الكتاب وعضو نقابة الصحفيين. وحصل المترجم على جائزة محمد بدران عن ترجمة كتاب "طريق الحرير" وله مقالات مترجمة فى مجلتى "وجهات نظر" و"الثقافة العالمية".

- نشرت له ترجمات الكتب التالية :

- * الناس فى صعيد مصر، وينيفريد بلاكمان، دار عين، القاهرة ١٩٩٥
- * طريق الحرير ، إيرين فرانك وبيفيد برلونسون، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٧
- * عالم ماك، بنجامين باربر، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٨
- * التراث المغفور، روبرت نيا وجون فاين، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٩
- * العولة - النظرية الاجتماعية، رونالد روبرتسون، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٩ (بالاشتراك مع نورا أمين)
- * تشريع حضارة، بارى كيمب، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٠
- * صناعة الثقافة السوداء، إليس كاشموز، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٠
- * صناعة الخبر- فى كواليس الصحف الأمريكية، جون هاملتون وجورج كريمسكى، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١
- * التحالف الأسود - وكالة الاستخبارات المركزية والمخدرات والصحافة، الكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٢ (ط ١) ٢٠٠٣ (ط ٢)
- * الاقتصاد السياسى للعولة، تحرير نجير ووبز، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٢
- * أساطير بيضاء ، روبرت يانج ، المشروع القومى للترجمة ، القاهرة ٢٠٠٢

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالمين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الانطكى
٨ - مشطو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التفيرات البيئية	أنثرو.س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار چينيت	ت : محمد مقصم وعبد الجليل الزكى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	بيفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميت	ت : عبد الوهاب غلوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن الموين
١٥ - الحركات الفنية	إموارد لويس سميت	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج.ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنتر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - بين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوبجى / عبد الوهاب غلوب
٣٢ - الانقراض	بيفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ القصصى لأفريقيا الغربية	أ.ج. هويكز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداث	بول . ب . نيكسون	ت : خليل كلفت

- ٢٦ - نظريات السرد الحديثة والاس مارتن
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها بريجيت شيفر
٢٨ - نقد الحداثة آلن تورين
٢٩ - الإغريق والحسد بيتر والكوت
٤٠ - قصائد حب أن سكستون
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية بيتر جران
٤٢ - عالم ماك بتجامين بارير
٤٣ - اللهب المزوج أوكتافيو باث
٤٤ - بعد عدة أصياف ألدوس هكسلي
٤٥ - التراث المغفور روبرت ج نيا - جون ف أ فاين
٤٦ - عشرون قصيدة حب بابلو نيرودا
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جا رينيه ويليك
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية فرانسوا دوما
٤٩ - الإسلام في البلقان ه . ت . نوريس
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير جمال الدين بن الشيخ
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية داريو بيانوييا وخ . م بينياليستي
٥٢ - العلاج النفسي التديمي بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل
٥٣ - الدراما والتطيم أ . ف . ألنجتون
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح ج . مايكل والتون
٥٥ - ما وراء العلم جون بولكنجهوم
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) فديريكو غرسية لوركا
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) فديريكو غرسية لوركا
٥٨ - مسرحيتان فديريكو غرسية لوركا
٥٩ - المحبرة كارلوس مونييث
٦٠ - التصميم والشكل جوهانز ايتين
٦١ - موسوعة علم الإنسان شارلوت سيمور - سميث
٦٢ - لذة النص رولان بارت
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جا رينيه ويليك
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) آلان وود
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى برتراند راسل
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية أنطونيو جالا
٦٧ - مختارات فرناندو بيسوا
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى فالتين راسبوتين
٦٩ - العلم الإسلامي في أول القرن العشرين عبد الرشيد إبراهيم
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية أوخينيو تشانج روبريجت
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مقيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عيد إبراهيم
ت : عطف أحمد / إبراهيم قحى / محمود ملج
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تادرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد علي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جورجاني
ت : عبد الوهاب علوب
ت : محمد بركة وعثمانى الميود ويوسف الأنكى
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : علي يوسف علي
ت : محمود علي مكي
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الفنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعى .
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض .
ت : رمسيس عوض .
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالوك في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨ - العولة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الألب والنقد
٨٥ - منصور العلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالتغرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني وأمريكي المعاصر
٩٣ - محدثات العولة
٩٤ - الحب الأول والصحبة
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول)
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساطة العولة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتصامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوروبا ماهوجني
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الألب الأندلسي
١٠٧ - صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إليوت
چين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبنسكي
ألكسندر بوشكين
بنكت أندرسن
ميغيل دي لونا مونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صابقي
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتوني جينز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسومسكا
كارلوس ميغيل
مايك فينرستون وسكوت لاش
سمويل بيكيت
أنطونيو بوررو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روينسون
بول هيرست وجراهام توميسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤتب
برتول بريشت
جيرارچينيت
د. ماريا خيسوس روبييرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلي
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الفانمي وناصر حلاوي
ت : مكارم الفمري
ت : محمد طارق الشرقاوي
ت : محمود السيد علي
ت : خالد المعالي
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم السوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوي
ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتاني الإبريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : عبد العزيز شيبيل
ت : أشرف علي دعور
ت : محمد عبد الله الجعدي

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر النثاسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادي أولين علوي ماركليود
١١٣ - راية التمرد سادي بلانت
١١٤ - مسرحيات حماد كهنجي وسكان المستنقع وول شويونكا
١١٥ - غرفة تخص المرأة وحده فرجينيا وولف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا تلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام ليلي أحمد
١١٨ - النهضة النسائية في مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلي أبو لغد
١٢١ - الليل الصغير في كتلة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - تنظيم العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها العولية نيتل الكسندر وفنادولينا
١٢٤ - الفجر الكائب جون جراي
١٢٥ - التحليل الموسيقي سيدريك ثورپ ديلي
١٢٦ - فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحي
١٢٨ - الأدب المقارن سوزان باسنيث
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا دواروس أسيس جارون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرفرانك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فينرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق علي
١٣٤ - تشريع حضارة باري ج. كيمب
١٣٥ - للخطر من قدس. إليوه (كتلة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كوني
١٣٧ - منكرات ضابط في الحلة القرضية جوزيف ماري مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجبال والعنف إيفيلينا تاروني
١٣٩ - باريسيفال ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار هريوت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا التطور في البحث الجفافي ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولدوني
- ت : محمود علي مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلي
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : لميس النقاش
ت : بإشراف / رؤوف عباس
ت : نخبه من المترجمين
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحه الخولي
ت : عبد الوهاب طوب
ت : بشير السباعي
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب طوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحي
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبوري
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومي
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فريقتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : علي عبد الرؤوف البعبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد نورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبير
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليمان	ت : منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراغة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمصاني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامي الكتوجي	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	بيفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومي
١٦١ - من المسرح الإسباني	الخوانيرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الطيم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيرى	ت : صلاح عبد العزيز محبوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جورجون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاکوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين النينين والطمانيين في إسرائيل	يشعيا هو ليتمان	ت : محمد محمود أبو غدیر
١٦٧ - في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دالبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى للجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حمدة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فستنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حاملة لا تقام	هانز إيندورفر	ت : نسوى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب طوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنور	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزْدَجْ علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الألب	الفين كرتان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الفانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام وأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحت نامة إبراهيم بك جا	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من نقد الأدب - ليريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمري وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندائوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لييب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهولوية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسنديز	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية الفري فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مشويات حكيم سنائى	سنائى الفرنزوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فريتان دوسوسير	جوناثان ككر	ت : محمود حمدي عبد الفتى
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - سرمدتهم تالين حتى رجل يد القصر	ريمون فلور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جينة المنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جينز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامة إبراهيم بك جا	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - راويلا	خوايو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كانو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يوفسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر ابراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارشيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	بيفيد هريت لورانس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى مارييا بيف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - ملزق البطل الوحيد	نورمان كيمن	ت : أمير ابراهيم العمري
٢٣٠ - من الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى ابراهيم فهمي
٢٣١ - اليرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى ابراهيم فهمي
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزي ج ١	جلال الدين الرومي	ت : ابراهيم العسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادي	روين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى مديولى أحمد
٢٣٩ - العربي في الألب الإسرائيلي	جيلرافر - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وليهاب صلاح فانيق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - في انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من القموض	وليام إميسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبي
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لورا إسكييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أنيس	ت : توفيق علي منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرشيا ماركث	ت : علي ابراهيم علي منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والطائفة في مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبيوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فيتك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : ياشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائعات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : علي بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجردى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجردى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	نيف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : ياشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إيوارد منوتيا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلي	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد ومموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونتيرا	ت : بدر الدين عروكي
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزي ج ٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سي . باترمون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الأبيرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوي
٢٧٤ - السيدة بريارا	روموالو جلاجوس	ت : محمود علي مكي
٢٧٥ - س. س. إيه. شامرا وثقافة وكتبا مسرحيا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر القلمساني
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزي
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الألب الهنئي الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفريوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي	ت : جلال الحفناوي
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : علي اليمبي
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامي	حسن نظامي	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج ٢	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوي
٢٨٧ - الثقافة والعمل والنظام العالمي	أنتوني كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائي	بيفيد لودج	ت : ماهر البطوطي
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغاني	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ١	فرانشيسكو روس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ٢	فرانشيسكو روس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٢ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله العيب
٢٩٦ - مكبث	وايم شكسبير	ت : محمد مصطفى بنوي
٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسورانية	ليونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مناساة العبيد	أبو بكر تقاتو ابليوه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فزاد
٣٠٠ - أسطورة برومثيروس معاً	لويس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة برومثيروس معاً	لويس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفرز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب ويورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجاد	كروزيو مالابارت	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الصلاة - النقد الكنتي للتاريخ	چان - فرانسوا ليونار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد باييتو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الفن والمخ	انجوس چيلاتي	ت : جمال الجزيري
٣١٠ - يونج	ناجي هيد	ت : محيي الدين محمد حسن
٣١١ - مقال في المنهج الفلسفي	كوانجورد	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وايم دي بوز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعدي
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعي
٣١٥ - جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحي
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلي
٣١٧ - بلاغ	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور بريد	جايتو ياسييفاك وكريستوفر نورس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لعضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مع ٢، ١٤)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حبيبة في تاريخ الفن العربي	بليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مقلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يوناني قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت : محمود سلامة علاوي
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرمين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق علي منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٢٢٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٢٢١ - عندما جاء السريدين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٢٢٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٢٣ - الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٢٢٤ - لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٢٢٥ - عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٢٢٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٢٢٧ - فلسفة الولاء	جوزايا روس	ت : أحمد الأنصارى
٢٢٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٢٩ - تاريخ الأدب فى إيران ج ٢	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٤٠ - اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيريروجلو	ت : فخرى لبيب
٢٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٢٤٢ - سلمان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل	نانين جوريمير	ت : سمير عبد ربه
٢٤٤ - الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٢٤٧ - العصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٢٤٨ - التصوف الأولين فى الأدب التركى جا	محمد فؤاد كوبرلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٢٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا روس	ت : أحمد الأنصارى
٢٥٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٢٥٣ - الفن الإسلامى فى الأندلس (منسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٥٤ - الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٥٥ - التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٢٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلي الشريينى
٢٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة	ألان جرينجر	ت : عاطف معتمد وأمال شاور
٢٦٢ - تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٢٦٤ - حداثه شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٢٦٥ - سام باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٢٦٦ - نساء يركضن مع النتاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد
٢٦٧ - القلم الجرىء	نخبة	ت : البراق عبد الهادى رضا

- ٣٦٨ - المصطلح السردى
٣٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية
٣٧١ - التصوف الاوان فى الأدب التركى ج٢
٣٧٢ - عاش الشباب
٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه
٣٧٤ - اليوم السادس
٣٧٥ - الخلود
٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين
٣٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران ج٤
٣٧٨ - المسافر
٣٧٩ - ملك فى الحديقة
٣٨٠ - حديث عن الخسارة
٣٨١ - أساسيات اللغة
٣٨٢ - تاريخ طبرستان
٣٨٣ - هدية الحجاز
٣٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال
٣٨٥ - مشترى العشق
٣٨٦ - دفاعاً عن التاريخ الألبى النسوى
٣٨٧ - أغنيات وسوناتات
٣٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى
٣٨٩ - من الأدب الباكستانى المعاصر
٣٩٠ - الارشيفات والمدن الكبرى
٣٩١ - الحافظة اليلكية
٣٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية
٣٩٣ - فى قلب الشرق
٣٩٤ - القوى الأربع الأساسية فى الكون
٣٩٥ - ألام سياوش
٣٩٦ - السافاك
٣٩٧ - نيتشه
٣٩٨ - سارتر
٣٩٩ - كامى
٤٠٠ - مومو
٤٠١ - الرياضيات
٤٠٢ - هوكنج
٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس
٤٠٤ - تعويذة الحصى
٤٠٥ - إيزابيل
٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
٤٠٧ - الأدب الإشبانى للعصر بلقلام كلبه
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر
٤٠٩ - انتصار السعادة
- جيرالد برنس
فوزية العشماوى
كليرلا لويت
محمد فزاد كويرلى
وانغ مينغ
أمبرتو إيكو
أنثريه شديد
ميلان كونديرا
نخبة
على أصغر حكمت
محمد إقبال
سنيل بات
جوتتر جراس
ر. ل. تراسك
بهاء الدين محمد إسفنديار
محمد إقبال
سوزان إنجيل
محمد على بهزادباد
جانيت تود
جون دن
سعدى الشيرازى
نخبة
نخبة
مايف بينشى
فرناندو دى لاجرانخا
ندوة لويس ماسينيون
بول ديفيز
إسماعيل فصيح -
تقى نجارى راد
لورانس جين
فيليب تودى
ديفيد ميروفتس
مسيائيل إنده
زيادون ساردر
ج . ب . ماك ايفوى
تودور شتورم
ديفيد إبرام
أنثريه جيد
مانويلا مانتاناريس
أقلام مختلفة
جوان فوشركنج
برتراند راسل
- ت : عابد خزندار
ت : فوزية العشماوى
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : وحيد السعيد عبد الحميد
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : حمادة إبراهيم
ت : خالد أبو اليزيد
ت : إيوار الخراط
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال عبد الرحمن
ت : شيرين عبد السلام
ت : رانيا إبراهيم يوسف
ت : أحمد محمد نادى
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : إيزابيل كمال
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : بهاء جاهين
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : عثمان مصطفى عثمان
ت : منى النوروى
ت : عبد اللطيف عبد الطيم
ت : زينب محمود الخضيرى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : سليم حمدان
ت : محمود سلامة علاوى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : باهر الجوهري
ت : معنوح عبد المنعم
ت : معنوح عبد المنعم
ت : عماد حسن بكر
ت : طيبة خميس
ت : حمادة إبراهيم
ت : جمال أحمد عبد الرحمن
ت : طلعت شاهين
ت : عنان الشهاوى
ت : إلهامى عمارة

٤١٠ - خلاصة القرن	كارل بوير	ت : الزواوي بغورة
٤١١ - خمس من الماضي	جينيغر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ٣)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخاري
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوف	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبي والطب والشعر	أ. أ. وتشاردز	ت : مصطفى بدوي
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الطمعة في مصر العثمانية	جين هاثواي	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبي للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميخاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلاني
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جا	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسراعات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوائح العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامي	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طلوس حتى فرج	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - التخليش والبس اخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد المهيظ يعقوب
٤٢٧ - بانديراس الطاغية	باي إنكلان	ت : ثريا شلبي
٤٢٨ - الخزنة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافي
٤٢٩ - هيجل	ليود سيمسز وأندروجي كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأنتزجي كليوفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس ميروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياشي	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلت	ت : حمدي الجابري
٤٣٤ - الرمانسية	دونكان هيث وچون بورهام	ت : عصام حجازي
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زيريج	ت : ناجي رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج ١)	فريدريك كويلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندي في بلاد الشرق	شيلي النعماني	ت : بلال السعيد المغناوي
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	ت : عائدة سيف النولة
٤٣٩ - موت المرابي	صدر الدين عيني	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد المهيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروسناد	ت : محمد الشرقاوي
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أرونداتي روى	ت : فخرى لييب
٤٤٢ - حثبسموت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاني
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس نورستينغ	ت : محمد الشرقاوي
٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القبيمة	لأوريت سيجورته	ت : صالح علماني
٤٤٥ - حول وزن الشعر	بروير نائل خاتري	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ - التحالف الأسود	الكسندر كوكيرن وجيفري سانت كلير	ت : أحمد محمود

٤٤٧ - نظرية الكم	ج. پ. ماك ايفوى	ت : ممنوح عبد المنعم
٤٤٨ - علم نفس التطور	ديلان ايفانز - أوسكار زاريت	ت : ممنوح عبد المنعم
٤٤٩ - الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيري
٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا - ريبكاريات	ت : جمال الجزيري
٤٥١ - الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ - لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناتزي / أوسكار زاريت	ت : محي الدين مزيد
٤٥٣ - القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ - خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ - لا تنسني	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ - النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان مولر أوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ - الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ - نهر مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ - الفاشية والنازية	ستوارت هود - ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ - لكان	داريان ليدر - جودي جروفر	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ - طه حسين من الأزمهر إلى السوريين	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ - الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ - ديمقراطية القلة	ميكايل بارتى	ت : حصّة منيف
٤٦٥ - قصص اليهود	لويس جنزيرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ - حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ - التفكير السياسى	ستيفين ديلى	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ - روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الانتصارى
٤٦٩ - جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ - الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد الفتة
٤٧١ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ - نون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سايبيرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ - نون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سايبيرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ - الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ - صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ - أرض الجليل بعية : بيرم التونسي	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ - تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ - الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولى شى نونج	ت : عبد العزيز حمدي
٤٧٩ - المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨٠ - تساي ون جى (مسرحية صينية)	كو موروا	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨١ - عبادة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ - موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ - النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامى
٤٨٤ - جمالية التلقى	هانسن روبرت ياكس	ت : رشيد بنحو

٤٨٥ - التوبة (رواية)	تذير أحمد الدهلوي	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ - الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت : عبد الطيم عبد الفتى رجب
٤٨٧ - الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادي	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ - الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ - مُسرَّل : الفلاسفة علماء دقيقاً	مُسْرَل	ت : محمود رجب
٤٩٠ - أسمار البيضاء	محمد قنرى	ت : عبد الوهاب علوب
٤٩١ - نصوص قصصية من روائع الأدب الأثري	نخبة	ت : سمير عبد ربه
٤٩٢ - محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت : محمد رفعت عواد
٤٩٣ - خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت : محمد صالح الضالع
٤٩٤ - كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت : شريف الصيفي
٤٩٥ - اللوى	إدوارد تيفان	ت : حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦ - الحكم والسياسة فى أفريقيا ج١	إكوانو باتولى	ت : مجموعة من المترجمين
٤٩٧ - الطمانية والنوع والقوة فى الشرق الأوسط	نانية العلى	ت : مصطفى رياض
٤٩٨ - النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوهيث تاكر ومارجريت مريونز	ت : أحمد على بدوى
٤٩٩ - تقاطعات : الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت : فيصل بن خضراء
٥٠٠ - فى طغوى (دراسة فى السيرة القانية العربية)	تيتز رووكى	ت : طلعت الشايب
٥٠١ - تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت : سحر فراج
٥٠٢ - أصوات بديلة	هدى الصدة	ت : هالة كمال
٥٠٣ - مخترعات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة	ت : محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤ - كتابات أسامية ج١	ماتان هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٥ - كتابات أسامية ج٢	ماتان هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٦ - ربما كان قديماً	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧ - سيدة الماضي الجميل	بيتر شيفر	ت : شوقي فهمى
٥٠٨ - المواوية بعد جلال الدين الرومى	عبد الباقي جلبنارلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩ - الفكر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	ت : قاسم عبده قاسم
٥١٠ - الأرملة المأكورة	كارلو جولونوى	ت : عبد الرازق عيد
٥١١ - كوكب مرقع	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢ - كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريغان	ت : جمال عبد الناصر
٥١٣ - العلم الجصور	تيد أنتون	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ - مدخل إلى النظرية الأدبية	چوتتان كوار	ت : مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ - من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالمى بوجلاس	ت : فدوى مالمى بوجلاس
٥١٦ - إرادة الإنسان فى شفاء الإنسان	أرنولد واشنطن - وينا بتوندى	ت : صبرى محمد حسن
٥١٧ - نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ - استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت : هاشم أحمد محمد
٥١٩ - محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا روس	ت : أحمد الانتصارى
٥٢٠ - الرابع القرصى بمصر من العلم إلى اللشروع	أحمد يوسف	ت : أمل الصبان
٥٢١ - قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	ت : عبد الوهاب بكر

٥٢٢ - إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	ت : علي إبراهيم منوفى
٥٢٢ - الفن الطليطلى الإسلامى والمذبح	بامبيليو بابون مالدونادو	ت : علي إبراهيم منوفى
٥٢٤ - الملك لير	وايم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٥٢٥ - موسم سيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت : نادية رفعت
٥٢٦ - علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووايم رانكين	ت : محيى الدين مزيد
٥٢٧ - كافكا	ديفيد زين ميرويتس وروبرت كرمب	ت : جمال الجزيرى
٥٢٨ - تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	ت : جمال الجزيرى
٥٢٩ - بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت : حازم محفوظ وصين نجيب المصرى
٥٣٠ - مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت : عمر الفاروق عمر
٥٣١ - ما الذى حثَّ فى محطَّه ١١ سبتمبر؟	چاك بريدأ	ت : صفاء فتحى
٥٣٢ - المغامر والمستشرق	هنرى لورنس	ت : بشير السباعى
٥٣٣ - تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت : محمد الشرقاوى
٥٣٤ - الإسلاميون الجزائريون	سيرين لبا	ت : حمادة إبراهيم
٥٣٥ - مخزن الأسرار	نظامى الكتجوى	ت : عبد العزيز بقوش
٥٣٦ - الثقافات وقيم التقدم	سمويل منتجنتون	ت : شوقى جلال
٥٣٧ - الحب والعريه	نخبة	ت : عبد الغفار مكوى
٥٣٨ - النفس والأخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلز	ت : محمد الحيدى
٥٣٩ - خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت : محسن مصيلحى
٥٤٠ - توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	ت : رؤوف عباس
٥٤١ - فى تخيل وهلاس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت : مروة رزق
٥٤٢ - قصص مختارة من الأدب البيئى الحديث	نخبة	ت : نعيم عطية
٥٤٣ - السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت : وفاء عبد القادر
٥٤٤ - ميلانى كلاين	نخبة	ت : حمدى الجابرى
٥٤٥ - ياله من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت : عزت عامر
٥٤٦ - ريموس	ت.ب. وايزمان	ت : توفيق على منصور
٥٤٧ - بارت	فيليب ثودى وأن كورس	ت : جمال الجزيرى
٥٤٨ - علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن ويورن فان لون	ت : حمدى الجابرى
٥٤٩ - علم العلامات	بول كويلى وايتاجانز	ت : جمال الجزيرى
٥٥٠ - شكسبير	نيك جروم ويرو	ت : حمدى الجابرى
٥٥١ - الموسيقى والعولة	سايمون ماندى	ت : سمحه الخولى
٥٥٢ - قصص متالية	ميجيل دى ثريانتس	ت : علي عبد الرؤوف البمبى
٥٥٣ - مدخل الشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانتال لوفرس	ت : رجاء ياقوت
٥٥٤ - مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت : عبد السميع عمر زين الدين
٥٥٥ - إستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى لوتكين	ت : نور محمد ليراهيم ومحمد نصر الدين الجبلى
٥٥٦ - جان بوبريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت : حمدى الجابرى
٥٥٧ - الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٥٥٨ - الدراسات الثقافية	زيوامين ساردار ويورين فان لون	ت : وفاء عبد القادر
٥٥٩ - الماس الزائف	تشا تشاجى	ت : عبد الحى أحمد سالم

٥٦٠ - صلصلة الجرس	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٥٦١ - جناح جبريل	محمد إقبال	ت : جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢ - بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت : عزت عامر
٥٦٣ - ورود الخريف	خاثيثتو بيناييتتى	ت : صبرى محمدى التهامى
٥٦٤ - عُش الغريب	خاثيثتو بيناييتتى	ت : صبرى محمدى التهامى
٥٦٥ - الشرق الأوسط المعاصر	دييورا . ج. جيرنر	ت : أحمد عبد الحميد أحمد
٥٦٦ - تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	ت : على السيد على
٥٦٧ - الوطن المقتصب	مايكل رايس	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨ - الأصول فى الرواية	عبد السلام حيدر	ت : عبد السلام حيدر
٥٦٨ - موقع الثقافة	هوى . ك . بابا	ت : ثائر ديب
٥٧٠ - دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاى	ت : يوسف الشارونى
٥٧١ - تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	ت : السيد عبد الظاهر
٥٧٢ - الطب فى زمن الفراغة	برونو أليوا	ت : كمال السيد
٥٧٣ - فرويد	ريتشارد ابيحنانس وأسكار زارتى	ت : جمال الجزيرى
٥٧٤ - مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	ت : علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥ - الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير روينز	ت : أحمد محمود
٥٧٦ - فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ت : ناهد العشرى محمد
٥٧٧ - مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	ت : محمد قدرى عمارة
٥٧٨ - الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	ت : محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩ - تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	ت : محيى الدين مزيد
٥٨٠ - دائرة المعارف الدولية	جون فيزر وبول سيترجز	ت : محمد فتحى عبد الهادى
٥٨١ - الحمقى يموتون	ماريو بوزو	ت : سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢ - مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	ت : سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣ - الجيران	أحمد محمود	ت : سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤ - سفر	محمود نولت أبادى	ت : سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥ - الأمير احتجاج	هوشنك كلشيرى	ت : سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦ - السينما العربية والأفريقية	ليزييث مالكموس وروى أرمز	ت : سهام عبد السلام
٥٨٧ - تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	ت : عبد العزيز حمدى
٥٨٨ - أمنحوتب الثالث	أنيس كابرو	ت : ماهر جورجياتى
٥٨٩ - تمبكت العجيبة	فيلكس ديواه	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٥٩٠ - أساطير من الموروثات الشعبية الفلنتية	نخبة	ت : محمود مهدى عبد الله
٥٩١ - الشاعر والمفكر	هوراتيوس	ت : على عبد التواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢ - الثورة المصرية	محمد صبرى السورىونى	ت : مجدى عبد الحافظ وعلى كورخان
٥٩٣ - قصائد ساحرة	بول فاليرى	ت : بكر الطو
٥٩٤ - القلب السمين	سوزانا تامارو	ت : أمانى فوزى
٥٩٥ - الحكم والسياسة فى أفريقيا ج٢	إكوانو بانولى	ت : نخبة
٥٩٦ - الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إيوار الخراط
٥٩٧ - مسلمو غرناطة	خواير كاروباروخا	ت : جمال عبد الرحمن

٥٩٨ - مصر وكتمان وإسرائيل	دونالد رينفورد	ت : بيومي على قنديل
٥٩٩ - فلسفة الشرق	هرداد مهرين	ت : محمود علوي
٦٠٠ - الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	ت : مدحت طه
٦٠١ - النسوية والمواطنة	ريان فوت	ت : أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢ - نحو فلسفة ما بعد الحداثة	جيمس وليامز	ت : إيمان عبد العزيز
٦٠٣ - النقد الثقافي	أرثر أيزنبرجر	ت : وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوي
٦٠٤ - الكوارث الطبيعية	باتريك ل. أبوت	ت : توفيق على منصور
٦٠٥ - مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيروسكي الصغير	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦ - قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	ت : محمود إبراهيم السعني
٦٠٧ - قلب الجزيرة العربية ج١	هاري سينت فيلبس	ت : صبرى محمد حسن
٦٠٨ - قلب الجزيرة العربية ج٢	هاردى سينت فيلبس	ت : صبرى محمد حسن
٦٠٩ - الانتخاب الثقافي	أجنر فوج	ت : شوقي جلال
٦١٠ - العمارة المدجنة	رفائيل لويس جوثمان	ت : على إبراهيم منوفي
٦١١ - النقد والأيديولوجية	تيري إيجلتون	ت : فخرى صالح
٦١٢ - رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الصيني	ت : محمد محمد يونس
٦١٢ - السياحة والسياسة	كوان مايكل هول	ت : محمد فريد حجاب
٦١٤ - بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	ت : منى قطان
٦١٥ - عرض الأحداث التي وقعت في بغداد	أليس بسيريني	ت : محمد رفعت عواد
٦١٦ - أساطير بيضاء	روبرت يانج	ت : أحمد محمود
٦١٧ - الفولكلور والبحر	هوراس بيك	ت : أحمد محمود

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٨٨١٧ / ٢٠٠٣

Handwritten text at the bottom of the page, possibly a signature or date.

الفولكلور والبحر

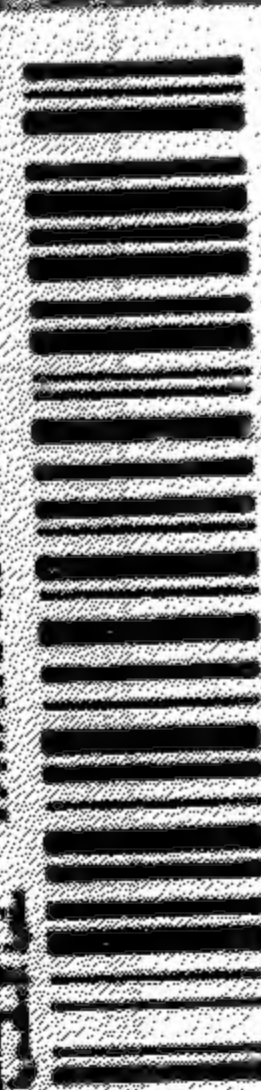
كتاب له خصوصيته العلمية في دراسات الفولكلور، مما يزر به من مادة غزيرة متنوعة من عادات وتقاليد ومعتقدات شعبية وأساطير وحكايات خوارق وكنائز بحرية ومغامرات ربابية وقراصنة وسفارات بحرية بين رجال السلطة والمهربين وقصص لها واقع، وإن كان الخيال فيها دور يجمع بين التراث الشفاهي والمأثور الشائع وبين الحدث الواقعي والتصور الخالص، وأغان يترنم بها البحارة فرادى وجماعات، ومواقف إنسانية وأخرى سلخية، وتزاج بين عالم الجان وعالم الإنسان، وعلاقات خرافية يصنعها الإنسان من خلال الوهم والخيال أحياناً، أو من أجل أن يثير الطمأنينة في نفسه وسط الضباب العواصف البحر وثورات موجه أحياناً أخرى. وتتسم معلومات الكتاب بثرانها الخاص وبطبيعتها المعرفية النادرة، وبمكوناتها الثقافية التي ترتبط بعادات وتقاليد ومعتقدات وطقوس وممارسات وشعائر تخرج عن إطار الفعل الاجتماعي والمعتقد الديني إلى مجال السحر ومخاطبة كائنات مغايرة للكائن الإنساني، ومسميات لكونيات من الطبيعة إلى مكنونات تفوق عالم الطبيعة وعوالم الحياة. والكتاب ليس وصفاً، بل هو كشف عن حيوات لها خصوصيتها في الثقافة الإنسانية لم نعرف عنها الكثير، بل إن ما نعرفه عنها محدود، وما استلهم من عناصرها في مجال الأدب والفن جزء صغير بل في منتهى الصغر. فحياة البحر حياة متقلبة، وهي تعوج بالأعاصير وغرائب الموجودات وعجائب الطبيعة. وهي حياة كل ما فيها في حركة دائمة بين مد وجزر، وصعود وهبوط، وأمطار وسكون، وبرد قارس وهدوء يثير الأوهام، وروية واضحة وغموض مخيف، وضوضاء صاخبة وأصوات غريبة رهيبية وصوت عتيق تقشع منه الأبدان. وثبحار على علم تام بما يحوط حياة البحر من أخطار، وما في الأعماق الرهيبية من مخلوقات قابعة، وما تحمله العواصف من قسوة وموت ودمار للسفن. والمادة التي أوردها المؤلف في هذا الكتاب عايشها واحتفظ بها في ذاكرته، وجمعها من رواة حفظوا ما عرفوا، وحفظها هو كذلك وحافظ عليها على مدى ثلاثين عاماً قام خلالها بالجمع والتدوين والدراسة، بالإضافة إلى خبرته الشخصية، وإلى جانب المعرفة المنقولة من الكتب والمراجع والدراسات التي استعان بها.

المجلس
الأعلى
للثقافة



FOLEKLORE
&
THE SEA

Bibliotheca Alexandrina



0552920

FOLEKLORE & THE SEA

H O R A C E B E C K